مجموعة مؤلفات ورسائل فضيلة الشيخ
عبد العزيز بن عبد الله الراجحي (١٠)

تيسير العزيز الحميد

شرح كتاب التوحيد

الذي هو حق الله على العبيد

للإمام المجدد
الشيخ محمد بن عبد الوهاب
رحمه الله

شرح
عبد العزيز بن عبد الله الراجحي

دار العاصمة
للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي رضي الإسلام للمؤمنين ديناً، ونصب الأدلة على صحته وبيَّنها تبييناً، وغرس التوحيد في قلوبهم فأثمرت بإخلاصه فنوناً، وأعانهم على طاعته هداية منه وكفى بربك هادياً ومعيناً.

والحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيراً، الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديراً، ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم وكان الكافر على ربه ظهيراً.

وأشهد أن لا إله إلا وحده لا شريك له في ربوبيته، وإلهيته، تعالى عن ذلك علواً كبيراً، الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيراً.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالحق شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

هذا شرح لكتاب: «التوحيد» تأليف الشيخ الإمام محمد بن عبدالوهاب، أحسن الله له المآب، وأجزل له الثواب. وافٍ إن شاء الله تعالى بالتنبيه على بعض ما تضمنه من بيان أنواع التوحيد، إذ هو المقصود بالأصالة هنا، ولم أخله من التنبيه على بعض ما يتضمنه من غير ذلك، إلا أن الأولى بنا هو بيان ما وضع لأجله الكتاب؛ لعموم الضرر والفساد الواقع من مخالفة ما فيه.

والأصل في ذلك هو الإعراض عن الهدى والنور الذي أنزله الله تعالى على رسوله محمد ﷺ من الكتاب والحكمة، والاستغناء عن ذلك بمتابعة الآباء والأهواء والعادات المخالفة لذلك.

ولهذا كرر الله تعالى الأمر بمتابعة الكتاب والسنة في مواضع كثيرة من القرآن، وضرب الأمثال لذلك، وأكده وتوعد على الإعراض عنه، وما ذاك إلا لشدة الحاجة، بل الضرورة إلى ذلك فوق كل ضرورة، فإنه لا صلاح للعبد ولا فلاح ولا سعادة في الدنيا والآخرة إلا بذلك، ومتى لم يحصل ذلك للعبد فهو ميت كما قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ (الأنعام: ١٢٢) فسمى سبحانه وتعالى الخالي عن هذا الهدى والنور ميتاً، وسمى من حصل له حيًّا، وذلك أنه لا مقصود به في الحياة الدنيا إلا توحيد الله تعالى، ومعرفته وخدمته، والإخلاص له، والاستلذاذ بذكره، والتذلل لعظمته، والانقياد لأوامره، والإنابة إليه، والإسلام له، فإذا حصل هذا للعبد، فهو الحي، بل قد حصلت له الحياة الطيبة في الدارين.

كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ (النحل: ٩٧) فإذا فاته هذا المقصود فهو ميت، بل شر من الميت.

قال الله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ (الأعراف: ٣). وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ (الأنعام: ١٥٣)، وقال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ

إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ (المائدة: ١٥-١٦)، وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَـٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ (النساء: ١٧٤)، وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ (النساء: ٥٩)، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ (النساء: ٦٤-٦٥)، وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ (النحل: ٨٩)، وقال تعالى: ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ (طه: ٩٩-١٠١)، وقال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ (طه: ١٢٣-١٢٤).

قال ابن عباس: تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة.

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ (الشورى: ٥٢).

فيا عجباً ممن يَزْعُم أن الهداية والسعادة لا تحصل بالقرآن ولا بالسنة، مع أن النبي ﷺ لم يهتد إلا بذلك كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ

﴿ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾﴾ (سبأ: ٥٠).

ثم بعد ذلك يحيلها على قول فلان وفلان، وقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ﴾ (الحشر: ٧). والآيات في هذا المعنى كثيرة.

فوجب على كل على من عقل عن الله أن يكون على بصيرة ويقين في دينه. كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ (يوسف: ١٠٨).

ومحال أن يحصل اليقين والبصيرة إلا من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وكيف ينال الهدى والإيمان من زعم أن ذلك لا يحصل من القرآن إنما يحصل من الآراء الفاسدة التي هي زبالة الأذهان. تالله لقد مسخت عقول هذا غاية ما عندها من التحقيق والعرفان.

وهذه المتابعة لكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ هي حقيقة دين الإسلام، الذي افترضه الله على الخاص والعام، وهو حقيقة الشهادتين الفارقتين بين المؤمنين والكفار، والسعداء أهل الجنة والأشقياء أهل النار، إذ معنى الإله: هو المعبود المطاع، وذلك هو دين الله الذي ارتضاه لنفسه وملائكته ورسله وأنبيائه فبه اهتدى المهتدون، وإليه دعا المرسلون.

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ (الأنبياء: ٢٥)، وقال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ (آل عمران: ٨٣).

فلا يتقبل من أحد ديناً سواه من الأولين والآخرين. كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ (آل عمران: ٨٥).

شهد الله تعالى بأنه دينه قبل شهادة المخلوقين، وأنزلها تتلى في كتابه إلى يوم الدين، فقال تعالى وهو العزيز العليم: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾ (آل عمران: ١٨).

جعل أهله هم الشهداء على الناس يوم القيامة، لما فضلهم به من الأقوال، والأعمال، والاعتقادات التي توجب إكرامه، فقال تعالى ولم يزل عزيزاً حميداً: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ ﴾ (البقرة: ١٤٣).

وفضَّله على سائر الأديان، فهو أحسنها حكماً، وأقومها قيلاً فقال تعالى: ﴿ وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ﴿١٢٥﴾ ﴾ (النساء: ١٢٥).

وكيف لا يميز من له بصيرة بين دين أسس على تقوى من الله ورضوان، وارتفع بناؤه على طاعة الرحمن، والعمل بما يرضاه في السر والإعلان، وبين دين أسس على شفا جرف هار، فانهار بصاحبه في النار، أسس على عبادة الأصنام والأوثان، والالتجاء إلى الصالحين وغيرهم من الإنس والجان، عند الشدائد والأحزان، وصرف مخ العبادة لغير الملك الديان، ورجاء النفع والعطاء والمنع ممن لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً فضلاً عن غيره من نوع الإنسان، ودعوى التصرف في الملك لصالح رميم في التراب والأكفان، قد عجز عن دفع ما حل به من أمر الله، فكيف يدفع عمن دعاه من بعيد الأوطان؟!

أو فاسق يشاهدون فسقه وفجوره فهو أبعد الناس من الرحمن، أو ساحر يريهم من سحره ما يحير به الأذهان، فيظن المخذولون أنها كرامة من الله، وإنما هي من مخاريق الشيطان، تباً لهم سدوا على أنفسهم باب العلم والإيمان، وفتحوا عليها باب الجهل والكفران. قابلوا خبر الله بالتكذيب، وأمره بالعصيان.

أخبر بأن الهدى والنور في كتابه، فقالوا: كان ذاك فيما مضى من الزمان، وأمرهم باتباع ما أنزل إليهم من ربهم، ولا يتبعوا من دونه أولياء، فقالوا: لا بد لنا ولي غير القرآن، إن جئتهم بكتاب اللهّ قالوا: حسبنا ما وجدنَا علَيه أهل الزمان، أو جئتهم بسنة رسوله ﷺ قالوا: خالفها الشيخ فلان، وهو أعلم منا ومنكم، فاعتبروا يا أولي الإيمان.

عمدوا إلى قبور الأنبياء والصالحين، فبنوا عليها البنيان، ونقشوا سقوفها والحيطان، وحلوها بالغالي من الأثمان، وألبسوها ألوان الستور الحسان، وجعلوا لها السدنة والخدام، فعل عباد الأوثان والصلبان، وذبحوا ونذروا لمن فيها، وقرَّبوا لهم القربان، وقالوا: هؤلاء شفعاؤنا في كشف الكروب، وغفران الذنوب، ودخلوا الجنان.

فبالله صف لي شرك المشركين، هل هو بعينه إلا هذا كما نطق به القرآن في سورة يونس، والزمر، وغيرهما من محكمات الفرقان. إن غرك أن الأكثر عليه فقد حكم الله بأنهم أضل سبيلاً من الأنعام إذ استبدلوا الشرك بالتوحيد، والضلال بالهدى، والكفر بالإسلام، نعوذ بالله من موجبات غضبه وأليم عقابه، فهو السلام. أو غرك أن بعض من تعظمه قد رأى شيئاً من هذا أو قاله، فالخطأ جائز على من سوى الرسول من الأنام، فعليك بالرجوع إلى العصمة الذي لا سبيل إلى تطرق الخطأ إليه، وهو كلام ذي الجلال والإكرام، وسنة رسوله عليه أفضل الصلاة والسلام، مع ما قاله العلماء الأعلام، الذين نطقوا بكلمة التوحيد وحققوها بالأعمال والكلام.

ولم يزل الحال على ما وصفنا لك من الأمور العظام منتشراً في أهل البلدان المنتسبين إلى الإسلام، المارقين منه كما تمرق الرمية من السهم، إلى أن أراد الله إزالة تلك الظلمات، وكشف البدع والضلالات، ونفي الشبهات والجهالات، وتصديق بشارة رسول رب الأرض والسماوات، في قوله: ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِئَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا**» رواه أبو داود والحاكم والبيهقي في «المعرفة»

وإسناده صحيح - على يدي من أقامه هذا المقام، ومنحه جزيل الفضل والإنعام، أعني به الشيخ الإمام خلف السلف الكرام، المتبع لهدي سيد الأنام، المنافح عن دين الله في كل مقام، شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب، أحسن الله له المآب، وضاعف له الثواب، فدعا إلى الله ليلاً ونهاراً، وسراً وجهاراً، وقام بأمر الله في الدعوة إليه، وما حابى أحداً فيه ولا دارى، فعظم على الأكثرين وأنفوا استكباراً، ولم يثنه ذلك عن أمر الله حتى قيض الله له أعواناً وأنصاراً، فرفعوا ألويته وأعلامه حتى انتشرت في الخافقين انتشاراً.

وصنف -رحمه الله تعالى- التصانيف في توحيد الأنبياء والمرسلين، والرد على من خالفه من المشركين، ومن جملتها كتاب «**التوحيد**» وهو كتاب فرد في معناه لم يسبقه إليه سابق، ولا لحقه فيه لاحق، وهو الذي قصدتُ الكلام عليه -إن شاء الله تعالى-، وإن كنتُ لست ممن يتصدى لهذا الشأن، لكن لما رأيت الكتاب لم يتعرض للكلام عليه أحد يعتد به ورأيت تشوق الطلبة والإخوان إلى شرح يفي ببعض ما فيه من المقاصد، أحببتُ أن أسعفهم بمرادهم على حسب طاقتي، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه ولذلك يسر الله الكلام عليه، ومنّ به من عنده وحده لا شريك له بحوله وقوته، لا بحولي وقوتي فناسب أن يسمى:

«تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد»

وحيث أطلقت شيخ الإسلام، فالمراد به الإمام أبو العباس بن تيمية، والحافظ، فالمراد به أبو الفضل ابن حجر العسقلاني، صاحب «فتح الباري» وغيره -رحمهما الله تعالى-.

وأسأل الله تعالى أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وسبباً للفوز بجنات النعيم، إنه جواد كريم، رؤوف رحيم.



بسم الله الرحمن الرحيم

الشرح:

افتتح المصنف -رحمه الله- كتابه بالبسملة، اقتداءً بالكتاب العزيز، وعملاً بالحديث: «**كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أقطع**» رواه الحافظ عبدالقادر الرهاوي في «الأربعين» من حديث أبي هريرة مرفوعاً، وأخرجه الخطيب في «الجامع» بنحوه.

فإن قلت: هلا جمع المصنف بين البسملة والحمدلة، لما روى ابن ماجه والبيهقي عن أبي هريرة مرفوعاً: «**كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بالحمد لله فهو أقطع**»، وفي رواية لأحمد: «**لا يفتح بذكر الله فهو أبتر وأقطع**».

قيل: المراد الافتتاح بما يدل على المقصود من حمد الله والثناء عليه، لأن الحمد متعيَّن، لأن القدر الذي يجمع ذلك هو ذكر الله وقد حصل بالبسملة.

وأيضاً فليس في الحديث ما يدل على أنه تتعين كتابتها مع النطق بها، فقد يكون المصنف نطق بذلك في نفسه.

واتفق العلماء على أن الجار والمجرور متعلق بمحذوف قدَّره الكوفيون فعلاً مقدماً، والتقدير: أبدأُ، وقدَّره البصريون اسماً مقدماً، والتقدير: ابتدائي كائن، أو مستقر. قال: فالجار والمجرور في موضع نصب على الأول، وعلى الثاني في موضع رفع.

وذكر ابن كثير أن القولين متقاربان، وكل قد ورد به القرآن.

أما من قدَّره باسم تقديره: باسم الله ابتدائي فلقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا

﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ (هود: ٤١).

ومن قدره بالفعل أمراً أو خبراً نحو: بدأ باسم الله، وابتدأت باسم الله، فلقوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١﴾ (العلق: ١)، وكلاهما صحيح، فإن الفعل لابد له من مصدر، فلك أن تقدِّر الفعل ومصدره، وذلك بحسب الفعل الذي سميته قبله إن كان قياماً أو قعوداً، أو أكلاً، أو شرباً، أو قراءة أو وضوءاً، أو صلاة، فالمشروع ذكر اسم الله تعالى في ذلك كله تبركاً وتيمناً واستعانة على الإتمام والتقبل.

وقدَّره الزمخشري فعلاً مؤخراً، أي: باسم الله أقرأ أو أتلو لأن الذي يتلوه مقروء، وكل فاعل يبدأ في فعله باسم الله كان مضمراً ما تجعل التسمية مبدأ له، كما أن المسافر إذا حل أو ارتحل، فقال: بسم الله، كان المعنى بسم الله أحل، وبسم الله أرتحل، وهذا أولى من أن يضمر أبداً، لعدم ما يطابقه ويدل عليه، أو ابتدائي لزيادة الإضمار فيه، وإنما قدم المحذوف متأخراً وقدم المعمول، لأنه أهم وأدل على الاختصاص، وأدخل في التعظيم وأوفق للوجود، فإن اسم الله تعالى مقدم على القراءة، كيف وقد جعل آلة لها من حيث إن الفعل لا يعتد به شرعاً ما لم يصدر باسمه تعالى.

وأما ظهور فعل القراءة في قوله: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ فلأن الأهم ثمت القراءة، ولذا قدم الفعل فيها على متعلقه، بخلاف البسملة فإن الأهم فيها الابتداء، قاله البيضاوي. وهذا القول أحسن الأقوال، وأظنه اختيار شيخ الإسلام، وقد ألمّ به ابن كثير إلا أنه جعل المحذوف مقدراً قبل البسملة.

وذكر ابن القيم لحذف العامل في بسم الله فوائد عديدة منها:

أنه موطن لا ينبغي أن يتقدم فيه سوى ذكر الله تعالى، فلو ذكرت الفعل وهو لا يستغنى عن فاعله، كان ذلك مناقضاً للمقصود، فكان في حذفه مشاكلة اللفظ

للمعنى ليكون المبدوء به اسم الله، كما تقول في الصلاة: الله أكبر، ومعناه: من كل شيء، ولكن لا تقول هذا القدر ليكون اللفظ مطابقاً لمقصود الجنان، وهو أن لا يكون في القلب إلا ذكر الله وحده، فكما تجرد ذكره في قلب المصلي تجرد ذكره في لسانه.

ومنها: أن الفعل إذا حذف صح الابتداء بالتسمية في كل عمل وقول وحركة، وليس فعل أولى بها من فعل، فكان الحذف أعم من الذكر، فأي فعل ذكرته كان المحذوف أعم منه.

«الله» : علم على الرب تبارك وتعالى، ذكر سيبويه أنه أعرف المعارف ويقال: إنه الاسم الأعظم، لأنه يوصف بجميع الصفات، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ (الحشر: ٢٢-٢٤). فأجرى الأسماء الباقية كلها صفات له.

واختلفوا هل هو اسم جامد أو مشتق؟ على قولين أصحهما أنه مشتق.

قال ابن جرير: فإنه على ما روي لنا عن ابن عباس قال: الله ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين.

وذكر سيبويه عن الخليل أن أصله إله مثل فعال، فأدخلت الألف واللام بدلاً من الهمزة. قال سيبويه: مثل الناس أصله أناس، وقال الكسائي والفراء: أصله الإله، حذفوا الهمزة وأدغموا اللام الأولى في الثانية، وعلى هذا فالصحيح أنه

مشتق من أله الرجل: إذا تعبَّد، كما قرأ ابن عباس: ﴿ويذرك وإلاهتك﴾[1] أي: عبادتك وأصله الإله، أي: المعبود، فحذفت الهمزة التي هي فاء الكلمة فالتقت اللام التي هي عينها مع اللام التي للتعريف، فأدغمت أحداهما في الأخرى، فصارتا في اللفظ لاماً واحدة مشددة وفخمت تعظيماً، فقيل: الله.

قال ابن القيم: القول الصحيح أن الله أصله: الإله كما هو قول سيبويه وجمهور أصحابه إلا من شذ منهم، وأن اسم الله تعالى هو الجامع لجميع معاني الأسماء الحسنى والصفات العلى. قال: وزعم السهيلي وشيخه أبو بكر ابن العربي أن اسم الله غير مشتق، لأن الاشتقاق يستلزم مادة يشتق منها، واسمه تعالى قديم، والقديم لا مادة له فيستحيل الاشتقاق، ولا ريب أنه إن أريد بالاشتقاق هذا المعنى وأنه مستمد من أصل آخر فهو باطل، ولكن الذين قالوا بالاشتقاق لم يريدوا هذا المعنى، ولا ألم بقلوبهم، وإنما أرادوا أنه دال على صفة له تعالى وهي الإلهية كسائر أسمائه الحسنى كالعليم، والقدير، والغفور، والرحيم، والسميع، والبصير، فإن هذه الأسماء مشتقة من مصادرها بلا ريب، وهي قديمة، والقديم لا مادة له، فما كان جوابكم عن هذا الأسماء فهو جواب القائلين باشتقاق اسم الله تعالى، ثم الجواب عن الجميع أنا لا نعني بالاشتقاق إلا أنها ملاقية لمصادرها في اللفظ والمعنى، لا أنها متولدة منه تولد الفرع من أصله، وتسمية النحاة للمصدر والمشتق منه أصلاً وفرعاً ليس معناه أن أحدهما تولد من الآخر، وإنما هو باعتبار أن أحدهما يتضمن الآخر وزيادة.

وذكر ابن القيم لهذا الاسم الشريف عشر خصائص لفظية ثم قال: وأمَّا خصائصه المعنوية فقد قال فيها أعلم الخلق به ﷺ: «**لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك**»، وكيف تحصى خصائص اسم مسماه كل كمال على الإطلاق

---

(١) قراءة الجمهور ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ (الأعراف: ١٢٧).

وكل مدح، وكل حمد، وكل ثناء، وكل مجد، وكل جلال، وكل إكرام، وكل عزٍّ، وكل جمال، وكل خير وإحسان وجود وبر وفضل، فله ومنه، فما ذكر هذا الاسم في قليل إلا كثَّره، ولا عند خوف إلا أزاله، ولا عند كرب إلا كشفه، ولا عند هم وغم إلا فرَّجه، ولا عند ضيق إلا وسّعه، ولا تعلق به ضعيف إلا أفاده القوة، ولا ذليل، إلا أناله العز، ولا فقير إلا صيَّره غنياً، ولا مستوحش إلا آنسه، ولا مغلوب إلا أيده ونصره، ولا مضطر إلا كشف ضره، ولا شريد إلا آواه.

فهو الاسم الذي تُكشف به الكربات، وتستنزل به البركات والدعوات، وتُقال به العثرات، وتُستدفع به السيئات، وتُستجلب به الحسنات، وهو الاسم الذي به قامت السماوات والأرض، وبه أنزلت الكتب، وبه أرسلت الرسل، وبه شرعت الشرائع، وبه قامت الحدود، وبه شرع الجهاد، وبه انقسمت الخليقة إلى السعداء والأشقياء، وبه حقت الحاقة، ووقعت الواقعة، وبه وضعت الموازين القسط، ونصب الصراط، وقام سوق الجنة والنار، وبه عبد رب العالمين وحمد وبحقه بعثت الرسل، وعنه السؤال في القبر ويوم البعث والنشور، وبه الخصام، وإليه المحاكمة، وفيه الموالاة والمعاداة، وبه سعد من عرفه وقام بحقه، وبه شقي من جهله وترك حقه، فهو سر الخلق والأمر وبه قاما وثبتا، وإليه انتهيا، فالخلق والأمر به وإليه ولأجله؛ فما وجد خلق ولا أمر ولا ثواب ولا عقاب إلا مبتدئاً منه، منتهياً إليه، وذلك موجبه ومقتضاه، ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ (آل عمران: ١٩١) إلى آخر كلامه -رضي الله عنه-.

«**الرحمن الرحيم**» قال ابن كثير: اسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة، ورحمن أشد مبالغة من رحيم. قال ابن عباس: وهما اسمان رقيقان أحدهما أرق من الآخر، أي أوسع رحمة. وقال ابن المبارك: الرحمن إذا سئل أعطى، والرحيم إذا لم يسأل يغضب.

قلت: كأنَّ فيه إشارة إلى معنى كلام ابن عباس، لأن رحمته تعالى تغلب غضبه، وعلى هذا فالرحمن أوسع معنى من الرحيم كما يدل عليه زيادة البناء.

وقال أبو علي الفارسي: الرحمن اسم عام في جميع أنواع الرحمة يختص به الله تعالى، والرحيم إنما هو في جهة المؤمنين. قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ (الأحزاب: ٤٣). ونحوه قاله بعض السلف.

ويشكل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾ (البقرة: ١٤٣)، وقوله ﷺ في الحديث: «**رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما**» فالصواب -إن شاء الله تعالى- ما قاله ابن القيم أن الرحمن دال على الصفة القائمة به سبحانه، والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم، فكان الأول للوصف، والثاني للفعل، فالأول دال على أن الرحمة صفته، والثاني دال على أنه يرحم خلقه برحمته، وإذا أردت فهم هذا فتأمل قوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ (الأحزاب: ٤٣)، ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ (التوبة: ١١٧). ولم يجئ قط رحمن بهم، فعلم أن رحمن هو الموصوف بالرحمة، ورحيم هو الراحم برحمته.

والرحمن الرحيم نعتان لله تعالى، واعترض بورود اسم الرحمن غير تابع لاسم قبله، قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ (طه: ٥). فهو علم فكيف ينعت به؟ والجواب ما قاله ابن القيم أن أسماء الرب تعالى هي أسماء ونعوت، فإنها دالة على صفات كماله، فلا تنافي فيها بين العلمية والوصفية، فالرحمن اسمه تعالى، ووصفه تعالى لا ينافي اسميته، فمن حيث هو صفة جرى تابعاً لاسم الله تعالى، ومن حيث هو اسم ورد في القرآن غير تابع، بل ورد الاسم العلم. ولما كان هذا الاسم مختصاً به سبحانه حسن مجيؤه مفرداً غير تابع كمجيء اسم الله، وهذا لا ينافي دلالته على صفة الرحمة كاسم الله، فإنه دال على صفة الألوهية فلم يجئ قط تابعاً

لغيره بل متبوعاً، وهذا بخلاف العليم والقدير، والسميع، والبصير، ونحوها، ولهذا لا تجيء هذه مفردة بل تابعة.

قلت: قوله عن اسم الله: «ولم يجئ قط تابعاً لغيره» بل لقد جاء في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ (إبراهيم: ٢). على قراءة الجر وجواب ذلك من كلامه المتقدم، فيقال فيه ما قاله في اسم الرحمن.



كتاب التوحيد

الشرح:

الكتاب: مصدر كتب يكتب كتاباً وكتابة وكتباً، ومدار المادة على الجمع. ومنه تكتب بنو فلان: إذا اجتمعوا، والكتيبة لجماعة الخيل، والكتابة بالقلم لاجتماع الكلمات والحروف، وسمي الكتاب كتاباً لجمعه ما وضع له، ذكره غير واحد.

والتوحيد: مصدر وحَّد يوحِّد توحيداً، أي: جعله واحداً، وسمي دين الإسلام توحيداً، لأن مبناه على أن الله واحد في ملكه وأفعاله لا شريك له، وواحد في ذاته وصفاته لا نظير له، وواحد في إلهيته وعبادته لا ند له، وإلى هذا الأنواع الثلاثة ينقسم توحيد الأنبياء والمرسلين الذي جاءوا به من عند الله، وهي متلازمة، كل منها لا ينفك عن الآخر، فمن أتى بنوع منها ولم يأت بالآخر، فما ذاك إلا أنه لم يأت به على وجه الكمال المطلوب، وإن شئت قلت: التوحيد نوعان: توحيد في المعرفة والإثبات، وهو توحيد الربوبية والأسماء والصفات، وتوحيد في الطلب والقصد، وهو توحيد الإلهية والعبادة. ذكره شيخ الإسلام وابن القيم، وذكر معناه غيرهما.

النوع الأول: توحيد الربوبية والملك، وهو الإقرار بأن الله تعالى رب كل شيء ومالكه وخالقه ورازقه، وأنه المحيي المميت النافع الضار المتفرد بإجابة الدعاء عند الاضطرار، الذي له الأمر كله، وبيده الخير كله، القادر على ما يشاء، ليس له في ذلك شريك، ويدخل في ذلك الإيمان بالقدر، وهذا التوحيد لا يكفي العبد في حصول الإسلام، بل لا بد أن يأتي مع ذلك بلازمه من توحيد الإلهية؛ لأن الله تعالى حكى عن المشركين أنهم مقرون بهذا التوحيد لله وحده قال تعالى: ﴿ قُلْ مَن

يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ (يونس: ٣١)، وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ (الزخرف: ٨٧)، وقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ﴾ (العنكبوت: ٦٣)، وقال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ (النمل: ٦٢). فهم كانوا يعلمون أن جميع ذلك لله وحده ولم يكونوا بذلك مسلمين، بل قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ (يوسف: ١٠٦). قال مجاهد في الآية: إيمانهم بالله قولهم: إن الله خلقنا ويرزقنا ويميتنا، فهذا إيمان مع شرك عبادتهم غيره. رواه ابن جرير وابن أبي حاتم، وعن ابن عباس وعطاء والضحاك نحو ذلك، فتبين أن الكفار يعرفون الله ويعرفون ربوبيته، وملكه وقهره، وكانوا مع ذلك يعبدونه ويخلصون له أنواعاً من العبادات كالحج، والصدقة، والذبح والنذر، والدعاء وقت الاضطرار، ونحو ذلك. ويدعون أنهم على ملة إبراهيم -عليه السلام- فأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ (آل عمران: ٦٧). وبعضهم يؤمن بالبعث والحساب، وبعضهم يؤمن بالقدر، كما قال زهير:

يُؤَخَّر فيُوضع في كتاب فيُدَّخر ... ليوم الحساب أو يعجل فينتقم

وقال عنترة:

يا عبل أين من المنية مهربي ... إن كان ربي في السماء قضاها

ومثل هذا يوجد في أشعارهم، فوجب على كل من عقل عن الله تعالى أن ينظر ويبحث عن السبب الذي أوجب سفك دمائهم، وسبي نسائهم، وإباحة أموالهم،

مع هذا الإقرار والمعرفة، وما ذاك إلا لإشراكهم في توحيد العبادة الذي هو معنى لا إله إلا الله.

النوع الثاني: توحيد الأسماء والصفات، وهو الإقرار بأن الله بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، وأنه الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، له المشيئة النافذة، والحكمة البالغة، وأنه سميع بصير، رؤوف رحيم، وعلى العرش استوى، وعلى الملك احتوى، وأنه الملك القدوس السلام المؤمن المهمين العزيز الجبار المتكبر، سبحان الله عما يشركون، إلى غير ذلك من الأسماء الحسنى، والصفات العلى. وهذا أيضاً لا يكفي في حصول الإسلام، بل لا بد مع ذلك من الإتيان بلازمه، من توحيد الربوبية والإلهية. والكفار يقرون بجنس هذا النوع وإن كان بعضهم قد ينكر بعض ذلك، إما جهلاً، وإما عناداً، كما قالوا: لا نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة، فأنزل الله فيهم: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ (الرعد: ٣٠).

قال الحافظ ابن كثير: والظاهر أن إنكارهم هذا إنما هو جحود وعناد وتعنت في كفرهم، فإنه قد وجد في بعض أشعار الجاهلية تسمية الله بالرحمن.

قال الشاعر: وما يشأ الرحمن يعقد ويطلق.

وقال الآخر: ألا قضب الرحمن ربي يمينها.

وهما جاهليان.

وقال زهير:

فلا تكتمن الله ما في نفوسكم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم

قلت: ولم يعرف عنهم إنكار شيء من هذا التوحيد إلا في اسم الرحمن خاصة، ولو كانوا ينكرونه لردوا على النبي ﷺ ذلك، كما ردوا عليه توحيد الإلهية، فقالوا: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾ (ص: ٥). لا سيما السور المكية مملوءة بهذا التوحيد.

النوع الثالث: توحيد الإلهية المبني على إخلاص التأله لله تعالى، من المحبة والخوف، والرجاء والتوكل، والرغبة والرهبة، والدعاء لله وحده.

وينبني على ذلك إخلاص العبادات كلها ظاهرها وباطنها لله وحده لا شريك له، لا يجعل فيها شيئاً لغيره، لا لملك مقرب، ولا لنبي مرسل، فضلاً عن غيرهما، وهذا التوحيد هو الذي تضمنه قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ (الفاتحة: ٥)، وقوله تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝١٢٣﴾ (هود: ١٢٣)، وقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۝١٢٩﴾ (التوبة: ١٢٩)، وقوله تعالى: ﴿رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ۝٦٥﴾ (مريم: ٦٥)، وقوله تعالى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝٨٨﴾ (هود: ٨٨)، وقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ۚ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ۝٥٨﴾ (الفرقان: ٥٨)، وقوله: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ۝٩٩﴾ (الحجر: ٩٩).

وهذا التوحيد هو أول الدين وآخره، وباطنه وظاهره، وهو أول دعوة الرسل، وآخرها، وهو معنى قول: لا إله إلا الله، فإن الإله هو المألوه المعبود بالمحبة، والخشية، والإجلال، والتعظيم، وجميع أنواع العبادة، ولأجل هذا التوحيد خلقت الخليقة، وأرسلت الرسل، وأنزلت الكتب، وبه افترق الناس إلى مؤمنين وكفار، وسعداء أهل الجنة وأشقياء أهل النار. قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢١﴾ (البقرة: ٢١). فهذا أول أمر في القرآن، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ﴾ (المؤمنون: ٢٣). فهذه دعوة أول رسول بعد حدوث الشرك،

وقال هود لقومه: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ (الأعراف: ٦٥)، وقال صالح لقومه: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥ﴾ (هود: ٦١)، وقال شعيب لقومه: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥ﴾ (الأعراف: ٨٥)، وقال إبراهيم -عليه السلام- لقومه: ﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝٧٩﴾ (الأنعام: ٧٩)، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ۝٢٥﴾ (الأنبياء: ٢٥)، وقال تعالى: ﴿وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ ۝٤٥﴾ (الزخرف: ٤٥)، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ۝٥٦﴾ (الذاريات: ٥٦)، وقال هرقل لأبي سفيان لما سأله عن النبي ﷺ ما يقول لكم؟ قال: يقول: «**اعبدوا الله، ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول آباؤكم**»، وقال النبي ﷺ لمعاذ: «**إنك تأتي قوماً أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله**»، وفي رواية: «**أن يوحدوا الله**».

وهذا التوحيد هو أول واجب على المكلف، لا النظر ولا القصد إلى النظر ولا الشك في الله، كما هي أقوال لمن لم يدر ما بعث الله به رسول الله ﷺ من معاني الكتاب والحكمة، فهو أول واجب وآخر واجب، وأول ما يدخل به الإسلام وآخر ما يخرج به من الدنيا، كما قال ﷺ: «**من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة**» حديث صحيح، وقال: «**أُمرتُ أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله**» [متفق عليه].

وقد أفصح القرآن عن هذا النوع كل الإفصاح وأبدأ فيه وأعاد، وضرب لذلك الأمثال، بحيث إن كل سورة في القرآن فيها الدلالة على هذا التوحيد، ويسمى هذا النوع توحيد الإلهية؛ لأنه مبني على إخلاص التأله، وهو أشد المحبة

لله وحده، وذلك يستلزم إخلاص العبادة، وتوحيد العبادة لذلك، وتوحيد الإرادة؛ لأنه مبني على إرادة وجه الله بالأعمال، وتوحيد القصد، لأنه مبني على إخلاص القصد المستلزم لإخلاص العبادة لله وحده، وتوحيد العمل؛ لأنه مبني على إخلاص العمل لله وحده.

قال الله تعالى: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿٢﴾﴾ (الزمر: ٢)، وقال: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ (الزمر: ١١-١٢)، ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي ﴿١٤﴾ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ﴾ (الزمر: ١٤-١٥). إلى قوله: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ (الزمر: ٢٩). إلى قوله: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾ (الزمر: ٣٨). الآية إلى قوله: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ (الزمر: ٤٣). الآية إلى قوله: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ (الزمر: ٥٤). إلى قوله: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ (الزمر: ٦٤-٦٦). إلى آخر السورة.

فكل هذه السور في الدعاء إلى هذا التوحيد، والأمر به، والجواب عن الشبهات والمعارضات، وذكر ما أعد الله لأهله من النعيم المقيم، وما أعد لمن خالفه من العذاب الأليم، وكل سورة في القرآن بل كل آية في القرآن، فهي داعية

إلى هذا التوحيد، شاهدة به، متضمنة له، لأن القرآن إما خبر عن الله تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله، وهو توحيد الربوبية، وتوحيد الصفات، فذاك مستلزم لهذا، متضمن له، وإما دعاء إلى عبادته وحده لا شريك له، وخلع ما يعبد من دونه، أو أمر بأنواع من العبادات، ونهي عن المخالفات، فهذا هو توحيد الإلهية والعبادة، وهو مستلزم للنوعين الأولين، متضمن لهما أيضاً، وإما خبر عن إكرامه لأهل توحيده وطاعته، وما فعل بهم في الدنيا، وما يكرمهم به في الآخرة، فهو جزاء توحيده، وإما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال، وما يحل بهم في العقبى من الوبال، فهو جزاء من خرج عن حكم التوحيد.

وهذا التوحيد هو حقيقة دين الإسلام الذي لا يقبل الله من أحد سواه، كما قال النبي ﷺ: «**بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت**» [رواه البخاري ومسلم]، فأخبر أن دين الإسلام مبني على هذه الأركان الخمسة وهي الأعمال، فدل على أن الإسلام هو عبادة الله وحده لا شريك له، بفعل المأمور، وترك المحظور، والإخلاص في ذلك لله.

وقد تضمن ذلك جميع أنواع العبادة، فيجب إخلاصها لله تعالى، فمن أشرك بين الله تعالى وبين غيره في شيء فليس بمسلم.

فمنها: المحبة، فمن أشرك بين الله تعالى وبين غيره في المحبة التي لا تصلح إلا لله، فهو مشرك، كما قال تعالى: ﴿**وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ**﴾ (البقرة: ١٦٥). إلى قوله تعالى: ﴿**وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ١٦٧**﴾ (البقرة: ١٦٧).

ومنها: التوكل فلا يتوكل على غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله قال الله تعالى: ﴿**وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ٢٣**﴾ (المائدة: ٢٣)، ﴿**وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ**

﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١٠﴾ (المجادلة: ١٠)، والتوكل على غير الله فيما يقدر عليه شرك أصغر.

ومنها: الخوف، فلا يخاف خوف السر إلا من الله، ومعنى خوف السر: هو أن يخاف العبد من غير الله تعالى أن يصيبه مكروه بمشيئته وقدرته، وإن لم يباشره، فهذا شرك أكبر، لأنه اعتقاد للنفع والضر في غير الله. قال الله تعالى: ﴿فَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ ۝٥١﴾ (النحل: ٥١)، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ (المائدة: ٤٤)، وقال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٠٧﴾ (يونس: ١٠٧).

ومنها: الرجاء فيما لا يقدر عليه إلا الله كمن يدعو الأموات أو غيرهم راجياً حصول مطلوبه من جهتهم فهذا شرك أكبر. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ﴾ (البقرة: ٢١٨). وقال علي -رضي الله عنه-: لا يرجون عبد إلا ربه.

ومنها: الصلاة والركوع والسجود قال الله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾ (الكوثر: ٢)، وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ (الحج: ٧٧).

ومنها: الدعاء فيما لا يقدر عليه إلا الله، سواء كان طلباً للشفاعة أو غيرها من المطالب، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ۝١٣ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ۝١٤﴾ (فاطر: ١٤)، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝٦٠﴾ (غافر: ٦٠)، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ

فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ (يونس: ١٠٦)، وقال تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ﴾ (الزمر: ٤٣-٤٤).

ومنها: الذبح، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ (الأنعام: ١٦٢-١٦٣)، والنسك الذبح.

ومنها: النذر، قال الله تعالى: ﴿وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ﴾ (الحج: ٢٩)، وقال تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾﴾ (الإنسان: ٧).

ومنها: الطواف فلا يُطاف إلا ببيت الله. قال الله تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾ (الحج: ٢٩).

ومنها: التوبة، فلا يُتاب إلا لله. قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ (آل عمران: ١٣٥)، وقال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ (النور: ٣١).

ومنها: الاستعاذة فيما لا يقدر عليه إلا الله. قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾﴾ (الفلق: ١)، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾﴾ (الناس: ١).

ومنها: الاستغاثة فيما لا يقدر عليه إلا الله. قال الله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ (الأنفال: ٩).

فمن أشرك بين الله تعالى وبين مخلوق فيما يختص بالخالق تعالى من هذه العبادات أو غيرها، فهو مشرك، وإنما ذكرنا هذه العبادات خاصة؛ لأن عُبَّاد القبور صرفوها للأموات من دون الله تعالى، أو أشركوا بين الله تعالى وبينهم فيها، وإلا

فكل نوع من أنواع العبادة، من صرفه لغير الله، أو أشرك بين الله تعالى وبين غيره فيه، فهو مشرك. قال الله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ (النساء: ٣٦).

وهذا الشرك في العبادة هو الذي كفَّر الله به المشركين، وأباح به دماءهم وأموالهم ونساءهم، وإلا فهم يعلمون أن الله هو الخالق الرازق المدبر ليس له شريك في ملكه، وإنما كانوا يشركون به في هذه العبادات ونحوها، وكانوا يقولون في تلبيتهم:

لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك

تملكه وما ملك

فأتاهم النبي ﷺ بالتوحيد الذي هو معنى لا إله إلا الله الذي مضمونه ألاَّ يُعبد إلا الله، لا ملك مقرَّب، ولا نبي مرسل، فضلاً عن غيرهما فقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ٥﴾ (ص: ٥).

وكانوا يجعلون من الحرث والأنعام نصيباً لله، وللآلهة مثل ذلك، فإذا صار شيء من الذي لله إلى الذي للآلهة تركوه لها، وقالوا: الله غني، وإذا صار شيء من الذي للآلهة إلى الذي لله تعالى ردوه، وقالوا: الله غني، والآلهة فقيرة، فأنزل الله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمۡ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمۡۗ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ١٣٦﴾ (الأنعام: ١٣٦).

وهذا بعينه يفعله عُبَّاد القبور، بل يزيدون على ذلك فيجعلون للأموات نصيباً من الأولاد.

إذا تبيَّن هذا فاعلم أن الشرك ينقسم إلى ثلاثة أقسام بالنسبة إلى أنواع التوحيد، وكل منها قد يكون أكبر وأصغر مطلقاً، وقد يكون أكبر بالنسبة إلى ما هو أصغر

منه، ويكون أصغر بالنسبة إلى ما هو أكبر منه.

القسم الأول: الشرك في الربوبية، وهو نوعان:

أحدهما: شرك التعطيل، وهو أقبح أنواع الشرك، كشرك فرعون، إذ قال: وما رب العالمين؟، ومن هذا شرك الفلاسفة القائلين بقدم العالم وأبديته، وأنه لم يكن معدوماً أصلاً، بل لم يزل ولا يزال، والحوادث بأسرها مستندة عندهم إلى أسباب ووسائط اقتضت إيجادها، يسمونها: العقول، والنفوس.

ومن هذا شرك طائفة أهل وحدة الوجود، كابن عربي، وابن سبعين، والعفيف التلمساني وابن الفارض، ونحوهم من الملاحدة الذي كسوا الإلحاد حلية الإسلام، ومزجوه بشيء من الحق، حتى راج أمرهم على خفافيش البصائر.

ومن هذا شرك من عطَّل أسماء الرب وأوصافه، من غلاة الجهمية، والقرامطة.

النوع الثاني: شرك من جعل معه إلهاً آخر، ولم يعطِّل أسماءه وصفاته وربوبيته، كشرك النصارى الذين جعلوه ثالث ثلاثة، وشرك المجوس القائلين بإسناد حوادث الخير إلى النور وحوادث الشر إلى الظلمة.

ومن هذا شرك كثير ممن يشرك بالكواكب العلويات، ويجعلها مدبرة لأمر هذا العالم، كما هو مذهب مشركي الصابئة وغيرهم.

قلت: ويلتحق به من وجه شرك غلاة عُبَّاد القبور الذين يزعمون أن أرواح الأولياء تتصرف بعد الموت، فيقضون الحاجات، ويفرجون الكربات، وينصرون من دعاهم، ويحفظون من التجأ إليهم، ولاذ بحماهم، فإن هذه من خصائص الربوبية، كما ذكره بعضهم في هذا النوع.

القسم الثاني: الشرك في توحيد الأسماء والصفات، وهو أسهل مما قبله، وهو نوعان:

أحدهما: تشبيه الخالق بالمخلوق، كمن يقول: يد كيدي، وسمع كسمعي، وبصر كبصري، واستواء كاستوائي، وهو شرك المشبهة.

الثاني: اشتقاق أسماء للآلهة الباطلة من أسماء الإله الحق. قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ (الأعراف: ١٨٠).

قال ابن عباس: ﴿يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ﴾: يشركون، وعنه: سموا اللات من الإله، والعزى من العزيز.

القسم الثالث: الشرك في توحيد الإلهية والعبادة. قال القرطبي: أصل الشرك المحرم اعتقاد شريك لله تعالى في الإلهيه، وهو الشرك الأعظم، وهو شرك الجاهلية، ويليه في الرتبة اعتقاد شريك لله تعالى في الفعل، وهو قول من قال: إن موجوداً ما غير الله تعالى يستقل بإحداث فعل وإيجاده، وإن لم يعتقد كونه إلهاً. هذا كلام القرطبي.

وهو نوعان:

أحدهما: أن يجعل لله نداً يدعوه كما يدعو الله، ويسأله الشفاعة كما يسأل الله، ويرجوه كما يرجو الله، ويحبه كما يحب الله، ويخشاه كما يخشى الله. وبالجملة فهو أن يجعل لله نداً يعبده كما يعبد الله، وهذا هو الشرك الأكبر، وهو الذي قال الله فيه: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ﴾ (النساء: ٣٦)، وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ ۖ﴾ (النحل: ٣٦)، وقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ (يونس: ١٨)، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ

وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾﴾ (السجدة: ٤)، والآيات في النهي عن هذا الشرك وبيان بطلانه كثيرة جداً.

الثاني: الشرك الأصغر، كيسير الرياء، والتصنع للمخلوق، وعدم الإخلاص لله تعالى في العبادة، بل يعمل لحظ نفسه تارة، ولطلب الدنيا تارة، ولطلب المنزلة والجاه عند الخلق تارة، فله من عمله نصيب، ولغيره منه نصيب، ويتبع هذا النوع الشرك بالله في الألفاظ، كالحلف بغير الله، وقول: ما شاء الله وشئت، وما لي إلا الله وأنت، وأنا في حسب الله وحسبك، ونحوه، وقد يكون ذلك شركاً أكبر بحسب حال قائله ومقصده. هذا حاصل كلام ابن القيم وغيره.

وقد استوفى المصنف -رحمه الله- بيان جنس العبادة التي يجب إخلاصها لله بالتنبيه على بعض أنواعها، وبيان ما يضادها من الشرك بالله تعالى في العبادات والإرادات والألفاظ، كما سيمر بك إن شاء الله تعالى مفصلاً في هذا الكتاب فالله تعالى يرحمه ويرضى عنه.

فإن قلت: هلا أتى المصنف -رحمه الله- بخطبة تنبئ عن مقصده، كما صنع غيره؟

قيل: كأنه -والله أعلم- اكتفى بدلالة الترجمة الأولى على مقصوده، فإنه صدَّره بقوله: «كتاب التوحيد» وبالآيات التي ذكرها وما يتبعها؛ مما يدل على مقصوده، فكأنه قال: قصدتُ جمع أنواع توحيد الإلهية التي وقع أكثر الناس في الإشراك فيها وهم لا يشعرون، وبيان شيء مما يضاد ذلك من أنواع الشرك، فاكتفى بالتلويح عن التصريح، والألف واللام في التوحيد للعهد الذهني.



وقول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [سورة الذاريات: ٥٦].

قوله: «**وقول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾**» يجوز في «قول الله» الرفع والجر، وهكذا حكم ما يمر بك من هذا الباب.

قال شيخ الإسلام: العبادة هي طاعة الله بامتثال ما أمر به على ألسنة الرسل، وقال أيضاً: العبادة: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأقوال، والأعمال الباطنة والظاهرة.

قال ابن القيم: ومدارها على خمس عشرة قاعدة، من كمَّلها كمَّل مراتب العبودية، وبيان ذلك أن العبادة منقسمة على القلب، واللسان، والجوارح، والأحكام التي للعبودية خمسة: واجب، ومستحب، وحرام، ومكروه، ومباح، وهن لكل واحد من القلب واللسان والجوارح.

وقال القرطبي: أصل العبادة: التذلل والخضوع، وسميت وظائف الشرع على المكلفين عبادات؛ لأنهم يلتزمونها ويفعلونها خاضعين متذللين لله تعالى.

وقال ابن كثير: العبادة في اللغة من الذلة، يقال: طريق معبَّد وغير معبَّد، أي: مذلل. وفي الشرع: عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف، وهكذا ذكر غيرهم من العلماء.

ومعنى الآية: أن الله تعالى أخبر أنه ما خلق الإنس والجن إلا لعبادته، فهذا هو الحكمة في خلقهم، ولم يرد منهم ما تريده السادة من عبيدها من الإعانة لهم بالرزق والإطعام، بل هو الرازق ذو القوة المتين، الذي يُطعِم ولا يُطعَم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٤﴾ (الأنعام: ١٤). وعبادته هي

طاعته بفعل المأمور، وترك المحظور، وذلك هو حقيقة دين الإسلام، لأن معنى الإسلام هو الاستسلام لله المتضمن غاية الانقياد، في غاية الذل والخضوع.

قال علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- في الآية: إلا لآمرهم أن يعبدوني، وأدعوهم إلى عبادتي. وقال مجاهد: إلا لآمرهم وأنهاهم، واختاره الزجاج وشيخ الإسلام. قال: ويدل على هذا قوله: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ (القيامة: ٣٦). قال الشافعي: لا يؤمر ولا ينهى.

وقوله: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ (الفرقان: ٧٧)، أي: لولا عبادتكم إياه، وقد قال في القرآن في غير موضع: ﴿ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ (البقرة: ٢١)، ﴿ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ (النساء: ١). فقد أمرهم بما خلقوا له، وأرسل الرسل إلى الجن والإنس بذلك، وهذا المعنى هو الذي قصد بالآية قطعاً، وهو الذي يفهمه جماهير المسلمين، ويحتجون بالآية عليه، ويقرون أن الله إنما خلقهم ليعبدوه العبادة الشرعية وهي طاعته وطاعة رسله، لا ليضيعوا حقه الذي خلقهم له. قال: وهذه الآية تشبه قوله تعالى: ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ (البقرة: ١٨٥)، وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ (النساء: ٦٤)، ثم قد يطاع وقد يعصى، وكذلك ما خلقهم إلا للعبادة، ثم قد يعبدون وقد لا يعبدون، وهو سبحانه لم يقل: إنه فعلَ الأول وهو خَلْقهم لَيفْعلَ بهم كلهم، الثاني وهو عبادته، ولكن ذكر أنه فعل الأول ليفعلوا هم الثاني فيكونوا هم الفاعلين له فيحصل لهم بفعله سعادتهم، ويحصل ما يحبه ويرضاه منهم ولهم. انتهى.

والآية دالة على وجوب اختصاص الخالق تعالى بالعبادة، لأنه سبحانه هو ابتدأك بخلقك والإنعام عليك بقدرته ومشيئته ورحمته من غير سبب منك أصلاً، وما فعله بك لا يقدر عليه غيره، ثم إذا احتجت إليه في جلب رزق، أو دفع ضر؛

فهو الذي يأتي بالرزق لا يأتي به غيره، وهو الذي يدفع الضر لا يدفعه غيره، كما قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ۚ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾ (الملك: ٢٠-٢١).

وهو سبحانه ينعم عليك، ويحسن إليك بنفسه، فإن ذلك موجب ما تسمى به، ووصف به نفسه، إذ هو الرحمن الرحيم، الودود المجيد، وهو قادر بنفسه، وقدرته من لوازم ذاته، وكذلك رحمته وعلمه وحكمته، لا يحتاج إلى خلقه بوجه من الوجوه، بل هو الغني عن العالمين ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ (النمل: ٤٠)، فالرب سبحانه غني بنفسه، وما يستحقه من صفات الكمال ثابت له بنفسه، وواجب له من لوازم ذاته، لا يفتقر في شيء من ذلك إلى غيره، ففعله وإحسانه وجوده من كماله، لا يفعل شيئاً لحاجة إلى غيره بوجه من الوجوه، بل كل ما يريد فعله فإنه فعال لما يريد، وهو سبحانه بالغ أمره، فكل ما يطلبه فهو يبلغه، ويناله، ويصل إليه وحده، ولا يعينه أحد، ولا يعوقه أحد، لا يحتاج في شيء من أموره إلى معين، وما له من المخلوقين من ظهير، وليس له ولي من الذل، قاله شيخ الإسلام.



﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

«قوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾». قالوا الطاغوت: مشتق من الطغيان وهو مجاوزة الحد، وقد فسره السلف ببعض أفراده. قال عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-: الطاغوت: الشيطان، وقال جابر -رضي الله عنه-: الطواغيت: كهان كانت تنزل عليهم الشياطين. [رواهما ابن أبي حاتم].

وقال مجاهد: الطاغوت: الشيطان في صورة الإنسان، يتحاكمون إليه وهو صاحب أمرهم، وقال مالك: الطاغوت: كل ما عُبد من دون الله.

قلت: وهو صحيح، لكن لا بد من استثناء من لا يرضى بعبادته.

وقال ابن القيم: الطاغوت ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع، فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله، أو يعبدونه من دون الله، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة الله. فهذه طواغيت العالم، إذا تأملتها وتأملت أحوال الناس معها، رأيت أكثرهم ممن أعرض عن عبادة الله إلى عبادة الطاغوت، وعن طاعته ومتابعة رسوله ﷺ إلى طاعة الطاغوت ومتابعته.

وأما معنى الآية، فأخبر تعالى أنه بعث في كل أمة، أي في كل طائفة، وقرن من الناس رسولاً بهذه الكلمة: أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت. أي: اعبدوا الله وحده واتركوا عبادة ما سواه، فلهذا خلقت الخليقة، وأرسلت الرسل، وأنزلت الكتب، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ (الأنبياء: ٢٥)، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ﴾

﴿إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾﴾ (الرعد: ٣٦)، وهذه الآية هي معنى: لا إله إلا الله، فإنها تضمنت النفي والإثبات كما تضمنته لا إله إلا الله ففي قوله: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ الإثبات، وفي قوله: ﴿وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّـٰغُوتَ﴾ النفي، فدلت الآية على أنه لا بد في الإسلام من النفي والإثبات، فيثبت العبادة لله وحده، وينفي عبادة ما سواه، وهو التوحيد الذي تضمنته سورة ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١﴾﴾ (الكافرون: ١)، وهو معنى قوله: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّـٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾ (البقرة: ٢٥٦).

قال ابن القيم: وطريقة القرآن في مثل هذا أن يقرن النفي بالإثبات، فينفي عبادة ما سوى الله، ويثبت عبادته، وهذا هو حقيقة التوحيد، والنفي المحض ليس بتوحيد، وكذلك الإثبات بدون النفي، فلا يكون التوحيد إلا متضمناً للنفي والإثبات، وهذا حقيقة لا إله إلا الله. انتهى.

ويدخل في الكفر بالطاغوت بغضه وكراهته، وعدم الرضى بعبادته بوجه من الوجوه.

ودلت الآية على أن الحكمة في إرسال الرسل هي عبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه، وأن أصل دين الأنبياء واحد وهو الإخلاص في العبادة لله، وإن اختلفت شرائعهم، كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ﴾ (المائدة: ٤٨).

وأنه لا بد في الإيمان من العمل رداً على المرجئة.



وقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [سورة الإسراء: ٢٣-٢٤].

قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ﴾. هكذا ثبت في بعض الأصول، لم يذكر الآية بكمالها.

قال مجاهد: وقضى: يعني: وصى، وكذلك قرأ أُبيّ بن كعب، وابن مسعود، وابن عباس وغيرهم.

وروى ابن جرير، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ يعني أمر.

وقوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ «أن»: هي مصدرية، وهي في محل جر بالباء، والمعنى: أن تعبدوه ولا تعبدوا غيره ممن لا يملك ضراً ولا نفعاً، بل هو إما فقير محتاج إلى رحمة ربه يرجوها كما ترجونها، وإما جماد لا يستجيب لمن دعاه.

وقوله: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ﴾. أي: وقضى أن تحسنوا بالوالدين إحساناً كما قضى بعبادته وحده لا شريك له، وعطف حقهما على حق الله تعالى دليل على تأكد حقهما، وأنه أوجب الحقوق بعد حق الله، وهذا كثير في القرآن يقرن بين حقه عز وجل وبين حق الوالدين، كقوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾ (لقمان: ١٤)، وقال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ (البقرة: ٨٣).

ولم يخص تعالى نوعاً من أنواع الإحسان ليعم أنواع الإحسان، وقد تواترت النصوص عن النبي ﷺ بالأمر ببر الوالدين، والحث على ذلك، وتحريم عقوقهما

كما في القرآن، ففي «صحيح البخاري» عن ابن مسعود قال: سألتُ النبيَّ ﷺ أي: الأعمال أحب إلى الله؟ قال: «**الصلاة على وقتها**»، قلت: ثم أي؟ قال: «**بر الوالدين**»، قلت: ثم أي؟ قال: «**الجهاد في سبيل الله**» حدثني بهن ولو استزدته لزادني، وعن أبي بكرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر**» قلنا: بلى يا رسول الله، قال: «**الإشراك بالله، وعقوق الوالدين**» وكان متكئاً فجلس، فقال: «**ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور**»، فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت. [رواه البخاري ومسلم]، وعن أبي هريرة قال: قال رجل : يا رسول الله! من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «**أمك**»، قال: ثم من؟ قال: «**أمك**»، قال: ثم من؟ قال: «**أمك**»، قال ثم من؟ قال: «أبوك» [أخرجاه]، وعن عبدالله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**رضى الرب في رضى الوالدين، وسخطه في سخط الوالدين**» رواه الترمذي وصححه ابن حبان والحاكم، وعن أبي أسيد الساعدي، قال: بينا نحن جلوس عند النبي ﷺ إذ جاء رجل من بني سلمة، فقال: يا رسول الله، هل بقي من بر أبوي شيء أبرهما به بعد موتهما؟ فقال: «**نعم، الصلاة عليهما، والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما من بعدهما، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما، وإكرام صديقهما**» رواه أبو داود، وابن ماجه، وابن حبان في «صحيحه».

والأحاديث في هذا كثيرة قد أفردها العلماء بالتصنيف، وذكر البخاري منها شطراً صالحاً في كتاب «الأدب المفرد».



وقوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣)﴾ [الأنعام: ١٥١-١٥٣].

وقوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ قال ابن كثير: يقول الله تعالى لنبيه ورسوله محمد ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله، وحرَّموا ما رزقهم الله، وقتلوا أولادهم، وكل ذلك فعلوه بآرائهم الفاسدة، وتسويل الشيطان لهم: ﴿تَعَالَوْا﴾. أي: هلموا وأقبلوا، ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ أي: أقصص عليكم، وأخبركم بما حرم ربكم عليكم حقاً، لا تخرصاً ولا ظناً، بل وحي منه وأمر من عنده، ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ قال: وكأن في الكلام محذوفاً دل عليه السياق، وتقديره: وصاكم أن لا تشركوا به شيئاً، ولهذا قال في آخر الآية: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ﴾.

قلت: ابتدأ تعالى هذه الآيات المحكمات بتحريم الشرك والنهي عنه، فحرم علينا أن نشرك به شيئاً، فشمل ذلك كل مشرك به، وكل مشرك فيه من أنواع

العبادة، فإن «شيئاً» من النكرات فيعم جميع الأشياء، وما أباح تعالى لعباده أن يشركوا به شيئاً فإن ذلك من أظلم الظلم وأقبح القبيح، ولفظ «الشرك» يدل على أن المشركين كانوا يعبدون الله، ولكن يشركون به غيره من الأوثان والصالحين والأصنام فكانت الدعوة واقعة على ترك عبادة ما سوى الله، وإفراد الله بالعبادة، وكانت «لا إله إلا الله» متضمنة لهذا المعنى، فدعاهم النبي ﷺ إلى الإقرار بها نطقاً وعملاً واعتقاداً، ولهذا إذا سئلوا عما يقول لهم، قالوا: يقول: اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول آباؤكم. كما قاله أبو سفيان.

وقوله: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾. قال القرطبي: الإحسان إلى الوالدين برهما وحفظهما وصيانتهما، وامتثال أمرهما، وإزالة الرق عنهما، وترك السلطنة عليهما، و﴿إِحْسَٰنًا﴾ نصب على المصدرية، وناصبه فعل مضمر من لفظه: تقديره: وأحسنوا بالوالدين إحساناً.

وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ﴾، الإملاق الفقر، أي: لا تئدوا بناتكم خشية العيلة والفقر، فإني رازقكم وإياهم، وكان منهم من يفعل ذلك بالإناث والذكور خشية الفقر. ذكره القرطبي.

وفي «الصحيحين» عن ابن مسعود قال: قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك»، قلت: ثم أي؟ قال: «**أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك**»، قلت: ثم أي؟ قال: «**أن تزاني حليلة جارك**»، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾﴾ (الفرقان: ٦٨).

وقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ﴾: قال ابن عطية: هذا نهي عام عن جميع أنواع الفواحش، وهي المعاصي، و «ظهر وبطن»: حالتان

تستوفيان أقسام ما جعلتا له من الأشياء، وفي التفسير المنسوب إلى أبي علي الطبري من الحنفية، وهو تفسير عظيم: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ﴾ أي: القبائح. وعن ابن عباس، والضحاك، والسدي أن الكفار من كان لا يرى بالزنا بأساً إذا كان سراً، وقيل: الظاهر ما بينك وبين الخلق، والباطن ما بينك وبين الله. انتهى.

وفي «الصحيحين» عن ابن مسعود مرفوعاً: «**لا أحد أغير من الله، ومن أجل ذلك حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن**».

وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾. قال ابن كثير: هذا مما نص تعالى على النهي عنه تأكيداً، وإلا فهو داخل في النهي عن الفواحش.

وفي «الصحيحين» عن ابن مسعود مرفوعاً: «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة»، وعن ابن عمر مرفوعاً: «من قتل معاهَداً لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً» [رواه البخاري].

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾ قال ابن عطية: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى هذه المحرمات، والوصية الأمر المؤكد المقرر، وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾ ترجٍ بالإضافة إلينا، أي: من سمع هذه الوصية يُرجى وقوع أثر العقل بعدها.

قلت: هذا غير صحيح، والصواب أن «لعل» هنا للتعليل، أي: أن الله وصانا بهذه الوصايا لنعقلها عنه، ونعمل بها، كما قال: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾ (البينة: ٥)، وفي تفسير الطبري الحنفي: ذكر أولاً: ﴿تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾، ثم ﴿تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾، ثم ﴿تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ لأنهم إذا عقلوا تذكروا، فإذا تذكروا خافوا واتقوا المهالك.

وقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾. قال ابن عطية: هذا نهي

عن القرب الذي يعم وجوه التصرف، وفيه سد الذريعة، ثم استثنى ما يحسن وهو التشمير والسعي في نمائه. قال مجاهد: ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ التجارة فيه، فمن كان من الناظرين، له مال يعيش به، فالأحسن إذا ثمَّرَ مال اليتيم أن لا يأخذ منه نفقة ولا أجرة ولا غيرهما، ومن كان من الناظرين لا مال له، ولا يتفق له نظر إلا بأن ينفق على نفسه من ربح نظره، وإلا دعت الضرورة إلى ترك مال اليتيم دون نظر، فالأحسن أن ينظر ويأكل بالمعروف. قاله ابن زيد.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾. قال مالك وغيره: هو الرشد وزوال السفه مع البلوغ. قال ابن عطية: وهو أصح الأقوال وأليقها بهذا الموضع.

قلت: وقد روي نحوه عن زيد بن أسلم، والشعبي، وربيعة، وغيرهم، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾ (النساء: ٦). فاشترط تعالى للدفع إليهم ثلاثة شروط:

الأول: ابتلاؤهم، وهو اختبارهم وامتحانهم بما يظهر به معرفتهم لمصالح أنفسهم وتدبير أموالهم.

والثاني: البلوغ.

والثالث: الرشد.

وقوله: ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾. قال ابن كثير: يأمر تعالى بإقامة العدل في الأخذ والإعطاء، كما توعد عليه في قوله: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ٣ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ٤ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ٥ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦﴾ (المطففين: ١-٦)، وقد أهلك الله أمة من الأمم كانوا يبخسون المكيال والميزان. وقال غيره: القسط: العدل، وقد روى الترمذي وغيره بإسناد ضعيف عن ابن عباس قال: قال رسول

الله ﷺ لأصحاب الكيل والميزان: «**إنكم وليتم أمرين هلكت فيه الأمم السالفة قبلكم**»، وروي عن ابن عباس موقوفاً بإسناد صحيح.

وقوله: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾. قال ابن كثير: أي من اجتهد في أداء الحق وأخذه، فإن أخطأ بعد استفراغ وسعه وبذل جهده، فلا حرج عليه.

وقد روى ابن مردويه، عن سعيد بن المسيب مرفوعاً: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ قال: من أوفى على يده في الكيل والميزان -والله يعلم صحة نيته بالوفاء فيهما- لم يؤاخذ، وذلك تأويل وسعها. قال: هذا مرسل غريب.

قلت: وفيه رد على القائلين بجواز تكليف ما لا يطاق.

وقوله: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾: هذا أمر بالعدل في القول والفعل على القريب والبعيد، قال الحنفي: العدل في القول في حق الولي والعدو، لا يتغير بالرضى والغضب، بل يكون على الحق والصدق، وإن كان ذا قربى فلا يميل إلى الحبيب، ولا إلى القريب ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ (المائدة: ٨).

وقوله: ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾: قال ابن جرير: يقول: وبوصية الله التي وصاكم بها فأوفوا وانقادوا لذلك، بأن تطيعوه فيما أمركم به ونهاكم عنه، وتعملوا بكتابه وسنة رسوله، وذلك هو الوفاء بعهد الله، وكذا قال غيره.

قلت: وهو حسن، ولكن الظاهر أن الآية فيما هو أخص، كالبيعة، والذمة، والأمان، والنذر، ونحو ذلك، وهذه الآية كقوله: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ (النحل: ٩١). فهذا هو المقصود بالآية، وإن كانت شاملة، لما قالوا بطريق العموم.

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾: يقول تعالى: هذا وصاكم، وأمركم به، وأكّد عليكم فيه؛ لعلكم تذكرون، أي: تتعظون وتنتهون عما كنتم فيه.

قوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾: قال القرطبي: هذه آية عظيمة عطفها الله على ما تقدم، فإنه لما نهى وأمر، حذر عن اتباع غير سبيله، وأمر فيها باتباع طريقه على ما بينته الأحاديث الصحيحة وأقاويل السلف.

﴿وَأَنَّ﴾ في موضع نصب، أي: واتل أن هذا صراطي، عن الفراء والكسائي. قال الفراء: ويجوز أن يكون خفضاً، أي: وصاكم به، وبأن هذا صراطي. قال: والصراط: الطريق الذي هو دين الإسلام. ﴿مُسْتَقِيمًا﴾ نصب على الحال، ومعناه: مستوياً قويماً لا اعوجاج فيه، فأمر باتباع طريقه الذي طرقه على لسان محمد ﷺ وشرعه، ونهايته الجنة، وتشعبت منه طرق، فمن سلك الجادة نجا، ومن خرج إلى تلك الطرق أفضت به إلى النار، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾ أي: تميل. انتهى.

وروى أحمد، والنسائي، والدارمي، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال: خط لنا رسول الله ﷺ خطاً بيده، ثم قال: «**هذا سبيل الله مستقيماً**»، ثم خطَّ خطوطاً عن يمين ذلك الخط وعن شماله، ثم قال: «**وهذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه**» ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾.

وعن النواس بن سمعان مرفوعاً قال: «ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً، وعلى جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى

الصراط داع يقول: يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعاً ولا تعوجوا، وداع يدعو من جوف الصراط، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب، قال: لا تفتحه فإنك إن تفتحه تلجه: فالصراط: الإسلام، والسوران: حدود الله، والأبواب المفتحة: محارم الله، وذلك الداعي على رأس الصراط: كتاب الله، والداعي من فوق الصراط: واعظ الله في قلب كلم مسلم» رواه أحمد، والترمذي، والنسائي، وابن جرير، وابن أبي حاتم.

وعن مجاهد في قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾ قال: البدع والشبهات. رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم، وهذه السبل تعم اليهودية، والنصرانية، والمجوسية، وعباد القبور، وسائر أهل الملل والأوثان، والبدع والضلالات من أهل الشذوذ والأهواء، والتعمق في الجدل، والخوض في الكلام، فاتباع هذه من اتباع السبل التي تذهب بالإنسان عن الصراط المستقيم إلى موافقة أصحاب الجحيم، كما قال النبي ﷺ: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**»، وفي رواية: «**كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد**» حديث صحيح.

قال ابن مسعود: تعلموا العلم قبل أن يقبض، وقبضه ذهاب أهله، ألا وإياكم والتنطع والتعمق والبدع، وعليكم بالعتيق. رواه الدارمي.

قلت: العتيق هو القديم، يعني: ما كان عليه رسول الله وأصحابه من الهدى، دون ما حدث بعدهم، فالهرب الهرب، والنجاء النجاء، والتمسك بالطريق المستقيم والسنن القويم، وهو الذي كان عليه السلف الصالح، وفيه المتجر الرابح. قاله القرطبي.

وقال سهل بن عبدالله : عليكم بالأثر والسنة، فإني أخاف أنه سيأتي عن قليل إذا ذكر إنسان النبي ﷺ والاقتداء به في جميع أحواله ذموه، ونفروا عنه، وتبرؤوا منه، وأذلوه وأهانوه.

قلت: رحم الله سهلاً ما أصدق فراسته، فلقد كان ذلك وأعظم، وهو أن يكفر الإنسان بتجريد التوحيد والمتابعة، والأمر بإخلاص العبادة لله، وترك عبادة ما سواه، والأمر بطاعة رسول الله ﷺ، وتحكيمه في الدقيق والجليل.

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى-: ولنذكر في الصراط المستقيم قولاً وجيزاً، فإن الناس قد تنوعت عباراتهم عنه، وترجمتهم عنه بحسب صفاته، ومتعلقاته، وحقيقته شيء واحد: وهو طريق الله الذي نصبه لعباده موصلاً لهم إليه، ولا طريق إليه سواه، بل الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا طريقه الذي نصبه على ألسنة رسله، وجعله موصلاً لعباده إليه، وهو إفراده بالعبودية، وإفراد رسوله بالطاعة، فلا يشرك به أحد في عبوديته. ولا يشرك برسوله أحد في طاعته، فيجرد التوحيد، ويجرد متابعة الرسول ﷺ، وهذا معنى قول بعض العارفين: إن السعادة كلها والفلاح كله مجموع في شيئين: صدق محبة، وحسن معاملة. وهذا كله مضمون شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. فأي شيء فسر به الصراط المستقيم، فهو داخل في هذين الأصلين.

ونكتة ذلك أن تحبه بقلبك كله، وترضيه بجهدك كله، فلا يكون في قلبك موضع إلا معمور بحبه، ولا يكون لك إرادة إلا متعلقة بمرضاته، فالأول يحصل بتحقيق شهادة أن لا إله إلا الله، والثاني يحصل بتحقيق شهادة أن محمداً رسول الله، وهذا هو الهدى ودين الحق، وهو معرفة الحق والعمل به، وهو معرفة ما بعث الله به رسوله والقيام به، فقل ما شئت من العبارات التي هذا آخيَّتُها وقطب رحاها.



وقوله: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ الآية

وقوله: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ هكذا أثبت في نسخة بخط شيخنا ولم يذكر الآية. قال ابن كثير: يأمر تعالى عباده بعبادته وحده لا شريك له، فإنه الخالق الرازق المنعم المتفضل على خلقه في جميع الحالات، فهو المستحق منهم أن يوحدوه ولا يشركوا به شيئاً من مخلوقاته.

قلت: هذا أول أمر في القرآن، وهو الأمر بعبادته وحده لا شريك له، والنهي عن الشرك، كما في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ (البقرة: ٢١)، وتأمل كيف أمر تعالى بعبادته، أي: فعلها خالصة له، ولم يخص بذلك نوعاً من أنواع العبادة، لا دعاء ولا صلاة ولا غيرهما، ليعم جميع أنواع العبادة، ونهى عن الشرك به، ولم يخص أيضاً نوعاً من أنواع العبادة بجواز الشرك فيه.

وفي هذه الآية واللواتي قبلها دليل على أن العبادة هي التوحيد؛ لأن الخصومة فيه، وإلا فكان المشركون يعبدون الله ويعبدون غيره، فأمروا بالتوحيد، وهو عبادة الله وحده، وترك عبادة ما سواه، وفيهن دليل على أن التوحيد أول واجب على المكلف، وهو الكفر بالطاغوت، والإيمان بالله المستلزم لعبادته وحده لا شريك له، وأن من عبد غير الله بنوع من أنواع العبادة فقد أشرك، سواء كان المعبود ملكاً، أو نبياً، أو صالحاً، أو صنماً.



قَالَ ابنُ مَسعودٍ: «مَن أَرَادَ أَنْ يَنظُرَ إلى وَصيّةِ مُحمَّدٍ ﷺ الَّتي عَلَيْها خاتَـمهُ؛ فَليقرَأ قَولَهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ...﴾ إلى قَولِهِ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا ...﴾ الآية (الأنعام: ١٥١-١٥٣)» .

ابن مسعود: هو عبدالله بن مسعود بن غافل -بمعجمة وفاء- ابن حبيب الهذلي أبو عبدالرحمن، صحابي جليل من السابقين الأولين، وأهل بدر، وبيعة الرضوان، ومن كبار العلماء من الصحابة، أمَّره عمر على الكوفة، ومات سنة اثنتين وثلاثين.

وهذا الأثر رواه الترمذي وحسّنه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني بنحوه، وروى أبو عبيد، وعبد بن حميد، عن الربيع بن خيثم نحوه. قال بعضهم ما معناه: أي: من أراد أن ينظر إلى الوصية التي كأنها كتبت وختم عليها، ثم طُويت فلم تُغير ولم تُبدل، تشبيهاً لها بالكتاب الذي كتب ثم ختم عليه، فلم يزد فيه ولم ينقص، لأن النبي ﷺ كتبها وختم عليها وأوصى بها، فإن النبي ﷺ لم يوص إلا بكتاب الله، كما قال فيما رواه مسلم «**وإنـي تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا: كتاب الله**».

قلت: وقد روى عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ:«**أيكم يبايعني على هؤلاء الآيات الثلاث، ثم تلا:** ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ حتى فرغ من ثلاث آيات، ثم قال: «**من وفى بـهن فأجره على الله، ومن انتقص منهن شيئاً فأدركه الله به في الدنيا كانت عقوبته، ومن أخره إلى الآخرة كان أمره إلى الله، إن شاء أخذه، وإن شاء عفا عنه**» رواه ابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، فهذا يدل على أن النبي يعتني ﷺ بهن، ويبالغ في الحث على العمل بهن.



وعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ -رضِيَ اللهُ عَنهُ- قال: كُنْتُ رَديفَ النَّبيِّ ﷺ عَلَى حِمَارٍ، فَقَالَ لِي: «يَا مُعَاذُ أَتَدْرِي مَا حَقُّ الله عَلَى العِبَادِ؟ وَمَا حَقُّ العِبَادِ عَلَى الله؟» قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «حَقَّ الله عَلَى العِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقُّ العِبَادِ عَلَى الله أَنْ لا يُعَذِّبَ مَنْ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله أَفَلا أُبَشِّرُ النَّاسَ؟ قَالَ: «لا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا». أخرجاهُ في «الصَّحيحَيْنِ».

هذا الحديث في «الصحيحين» وبعض رواياته نحو ما ذكر المصنف.

ومعاذ: هو معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس الأنصاري الخزرجي، أبو عبدالرحمن، صحابي مشهور، من أعيان الصحابة، شهد بدراً وما بعدها، وكان إليه المنتهى في العلم بالأحكام والقرآن -رضي الله عنه-، مات سنة ثمان عشرة بالشام.

قوله: «**كنت رديف النبي ﷺ**». فيه جواز الإرداف على الدابة، وفضيلة لمعاذ من جهة ركوبه خلف النبي ﷺ.

قوله: «**على حمار**». في رواية اسمه عُفير، بعين مهملة مضمومة، ثم فاء مفتوحة.

قال ابن الصلاح: وهو الحمار الذي كان له ﷺ. قيل: إنه مات في حجة الوداع، وفيه تواضعه ﷺ للإرداف ولركوب الحمار، خلاف ما عليه أهل الكبر.

قوله: «**أتدري ما حق الله على العباد**». الدراية: هي المعرفة، وأخرج السؤال بصيغة الاستفهام، ليكون أوقع في النفس وأبلغ في فهم المتعلم، فإن الإنسان إذا سئل عن مسألة لا يعلمها ثم أخبر بها بعد الامتحان بالسؤال عنها، فإن ذلك أوعى لفهمها وحفظها، وهذا من حسن إرشاده وتعليمه ﷺ.

وحق الله على العباد، هو ما يستحقه عليهم ويجعله متحتماً، وحق العباد على

الله معناه أنه متحقق لا محالة، لأنه قد وعدهم ذلك جزاء لهم على توحيده، ووعده حق، إن الله لا يخلف الميعاد.

وقال شيخ الإسلام: كون المطيع يستحق الجزاء، هو استحقاق إنعام وفضل، ليس هو استحقاق مقابلة كما يستحق المخلوق على المخلوق، فمن الناس من يقول: لا معنى للاستحقاق إلا أنه أخبر بذلك، ووعده صدق، ولكن أكثر الناس يثبتون استحقاقاً زائداً على هذا كما دل عليه الكتاب والسنة. قال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ (الروم: ٤٧).

ولكن أهل السنة يقولون: هو الذي كتب على نفسه الرحمة، وأوجب هذا الحق على نفسه، لم يوجبه عليه مخلوق، والمعتزلة يدَّعون أنه واجب عليه بالقياس على الخلق، وأن العباد هم الذين أطاعوه بدون أن يجعلهم مطيعين له، وأنهم يستحقون الجزاء بدون أن يكون هو الموجب، وغلطوا في ذلك، وهذا الباب غلطت فيه القدرية والجبرية أتباع جهم، والقدرية النافية.

قوله: «**فقلت: الله ورسوله أعلم**». فيه حسن أدب المتعلم، وأنه ينبغي لمن سئل عما لا يعلم أن يقول ذلك، بخلاف أكثر المتكلفين.

قوله: «**أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً**». أي: يوحدوه بالعبادة وحده ولا يشركوا به شيئاً. وفائدة هذه الجملة بيان أن التجرد من الشرك لا بد منه في العبادة، وإلا فلا يكون العبد آتياً بعبادة الله بل مشرك، وهذا هو معنى قول المصنف: إن العبادة هي التوحيد، لأن الخصومة فيه، وفيه معرفة حق الله على العباد، وهو عبادته وحده لا شريك له.

فيا من حقُّ سيده الإقبال عليه، والتوجه بقلبه إليه، لقد صانك وشرفك عن إذلال قلبك ووجهك لغيره، فما هذه الإساءة القبيحة في معاملته مع هذا التشريف والصيانة! فهو يعظمك ويدعوك إلى الإقبال، وأنت تأبى إلا مبارزته بقبائح

الأفعال.

في بعض الآثار الإلهية: «**إني والجن والإنس في نبأ عظيم، أخلق ويُعبد غيري، وأرزق، ويُشكر سواي، خيري إلى العباد نازل، وشرهم إليَّ صاعد، أتحبب إليهم بالنعم ويتبغضون إليَّ بالمعاصي**». وكيف يعبده حق عبادته من صرف سؤاله، ودعاءه، وتذلله، واضطراره، وخوفه، ورجاءه، وتوكله، وإنابته، وذبحه، ونذره، لمن لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، من ميت رميم في التراب، أو بناء مشيد من القباب، فضلاً عما هو شر من ذلك.

قوله: «**وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً**». قال الخلخالي: تقديره: أن لا يعذب من يعبده ولا يشرك به شيئاً. والعبادة هي الإتيان بالأوامر، والانتهاء عن المناهي، لأن مجرد عدم الإشراك لا يقتضي نفي العذاب، وقد علم ذلك من القرآن والأحاديث الواردة في تهديد الظالمين والعصاة.

وقال الحافظ: اقتصر على نفي الإشراك: لأنه يستدعي التوحيد بالاقتضاء، ويستدعي إثبات الرسالة باللزوم، إذ من كذَّب رسول الله، فقد كذب الله، ومن كذَّب الله، فهو مشرك، وهو مثل قول القائل: من توضأ صحت صلاته، أي: مع سائر الشروط، فالمراد من مات حال كونه مؤمناً بجميع ما يجب الإيمان به.

قلت: وسيأتي تقرير هذا في الباب الذي بعده -إن شاء الله تعالى-.

قوله: «**أفلا أبشر الناس**». فيه استحبا بشارة المسلم بما يسره، وفيه ما كان عليه الصحابة من الاستبشار بمثل هذا، نبه عليه المصنف.

قوله: «**لا تبشرهم فيتكلوا**». وفي رواية: «**إني أخاف أن يتكلوا**» أي: يعتمدوا على ذلك، فيتركوا التنافس في الأعمال الصالحة. وفي رواية: فأخبر بها معاذ عند موته تأثماً، أي: تحرجاً من الإثم.

قال الوزير أبو المظفر: لم يكن يكتمها إلا عن جاهل يحمله جهله على سوء

الأدب بترك الخدمة في الطاعة، فأما الأكياس الذين إذا سمعوا بمثل هذا ازدادوا في الطاعة، ورأوا أن زيادة النعم تستدعي زيادة الطاعة فلا وجه لكتمانها عنهم. قال الحافظ: دل هذا على أن النهي للتبشير ليس على التحريم، وإلا لما أخبر به أصلاً، أو أنه ظهر له أن المنع إنما هو من الإخبار عموماً، فبادر قبل موته فأخبر بها خاصاً من الناس.

وفي الباب من الفوائد غير ما تقدم، التنبيه على عظمة حق الوالدين، وتحريم عقوقهما، والحث على إخلاص العبادة لله تعالى، وأنها لا تنفع مع الشرك، بل لا تسمى عبادة شرعاً، والتنبيه على عظمة الآيات المحكمات في سورة الأنعام، ذكره المصنف. وجواز كتمان العلم للمصلحة، ولا سيما أحاديث الرجاء إذا سمعها الجهال ازدادوا من الآثام. كما قال بعضهم:

فأكثر ما استطعت من الخطايا   إذا كان القدوم على كريم

وتخصيص بعض الناس بالعلم دون بعض، وفضيلة معاذ، ومنزلته من العلم؛ لكونه خص بما ذكر، واستئذان المتعلم في إشاعة ما خص به من العلم، والخوف من الاتكال، على سعة رحمة الله، وأن الصحابة لا يعرفون مثل هذا إلا بتعليمه ﷺ. ذكره المصنف.

قوله: «**أخرجاه في الصحيحين**». أي: أخرجه البخاري ومسلم في «صحيحيهما» وإنما أضمرهما للعلم بهما.

والبخاري هو الإمام محمد بن إسماعيل بن إبراهيم الجعفي مولاهم، الحافظ الكبير صاحب «الصحيح» و«التاريخ» و«الأدب المفرد» وغير ذلك من مصنفاته.

روى عن الإمام أحمد بن حنبل، والحميدي، وابن المديني، وطبقتهم، وروى عنه مسلم، والترمذي، والنسائي، والفربري راوي «الصحيح» وغيرهم. ولد سنة أربع وتسعين ومئة، ومات سنة ست وخمسين ومئتين.

ومسلم هو ابن الحجاج بن مسلم أبو الحسين، القشيري، النيسابوري صاحب «الصحيح» و«العلل» و«الوحدان» وغير ذلك.

وروى عنه أحمد بن حنبل، ويحيى بن معين، وأبي خيثمة، وابن أبي شيبة، وطبقتهم.

روى عنه الترمذي، وإبراهيم بن محمد بن سفيان راوي «الصحيح» وغيرهم.

ولد سنة أربع ومئتين، ومات سنة إحدى وستين ومئتين بنيسابور -رحمه الله تعالى-.



باب
فضل التوحيد وما يكفّر من الذنوب

وقول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢].

الشَّرْحُ:

باب: خبر مبتدأ محذوف، تقديره: هذا باب بيان فضل التوحيد، وبيان ما يكفر من الذنوب، و «ما» يجوز أن تكون موصولة، أي: وبيان ما يكفره من الذنوب. ويجوز أن تكون مصدرية، أي: وبيان تكفيره الذنوب، وهذا أرجح، لأن الأول يوهم أن ثم ذنوباً لا يكفرها التوحيد، وليس بمراد، ولما ذكر معنى التوحيد، ناسب ذكر فضله وتكفيره للذنوب ترغيباً فيه وتحذيراً من الضد.

وقول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾. قال بعض الحنفية في تفسيره: هذا ابتداء. قال ابن زيد وابن إسحاق: هذا من الله على فصل القضاء بين إبراهيم وقومه. قال الزجاج: سأل إبراهيم وأجاب بنفسه.

وعن ابن مسعود قال: لما نزلت هذه الآية قالوا: فأينا لم يظلم؟ قال -عليه الصلاة والسلام-: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ (لقمان: ١٣)، وكذا عن أبي بكر الصديق أنه فسره بالشرك، فيكون الأمن من تأبيد العذاب، وعن عمر أنه فسره بالذنب، فيكون الأمن من كل عذاب. وقال الحسن والكلبي: أولئك لهم الأمن في الآخرة وهم مهتدون في الدنيا. انتهى.

وإنما ذكرته لأن فيه شاهداً لكلام شيخ الإسلام الآتي في الحديث الذي ذكره

حديث صحيح في «الصحيح» و«المسند» وغيرهما. وفي لفظ لأحمد عن عبدالله قال: لما نزلت: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا:يا رسول الله، فأينا لم يظلم نفسه؟ قال: «**إنه ليس الذي تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح:** ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ **إنما هو الشرك**».

قال شيخ الإسلام: والذي شق عليهم أنهم ظنوا أن الظلم المشروط هو ظلم العبد لنفسه، وأنه لا أمن ولا اهتداء إلا لمن لم يظلم نفسه، فبيَّن لهم النبي ﷺ ما دلهم على أن الشرك ظلم في كتاب الله، وحينئذٍ فلا يحصل الأمن والاهتداء إلا لمن لم يلبس إيمانهم بهذا الظلم، فمن لم يلبس إيمانه به كان من أهل الأمن والاهتداء، كما كان من أهل الاصطفاء في قوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ (فاطر: ٣٢)، وهذا لا ينفي أن يؤاخذ أحدهم بظلمه لنفسه بذنب إذا لم يتب ، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ (الزلزلة: ٧-٨). وقد سأل أبو بكر - رضي الله عنه- النبي ﷺ عن ذلك فقال: يا رسول الله، وأينا لم يعمل سوءاً؟ فقال: «**يا أبا بكر ألست تنصب؟ ألست تحزن؟ أليس تصيبك اللأواء؟ فذلك ما تجزون به**».

فبين أن المؤمن الذي إذا مات دخل الجنة، قد يجزى بسيئاته في الدنيا بالمصائب التي تصيبه، فمن سلم من أجناس الظلم الثلاثة، يعني الظلم الذي هو الشرك، وظلم العباد، وظلمه لنفسه بما دون الشرك، كان له الأمن التام والاهتداء التام، ومن لم يسلم من ظلم نفسه كان له الأمن والاهتداء مطلقاً، بمعنى أنه لا بد أن يدخل الجنة، كما وعد بذلك في الآية الأخرى، وقد هداه الله إلى الصراط المستقيم

الذي تكون عاقبته فيه إلى الجنة، ويحصل له من نقص الأمن والاهتداء، بحسب ما نقص من إيمانه بظلمه لنفسه، ليس مراد النبي ﷺ بقوله: «**إنما هو الشرك**» أن من لم يشرك الشرك الأكبر يكون له الأمن التام والاهتداء التام، فإن أحاديثه الكثيرة مع نصوص القرآن تبين أن أهل الكبائر معرضون للخوف، لم يحصل لهم الأمن التام والاهتداء التام الذي يكونون به مهتدين إلى الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من غير عذاب يحصل لهم، بل معهم أصل الاهتداء إلى هذا الصراط ومعهم أصل نعمة الله عليهم، ولا بد لهم من دخول الجنة.

وقوله: «**إنما هو الشرك**». إن أراد به الأكبر فمقصوده: أن من لم يكن من أهله، فهو آمن مما وعد به المشركون من عذاب الدنيا والآخرة، وهو مهتد إلى ذلك، وإن كان مراده جنس الشرك، فيقال: ظلم العبد نفسه، كبخله -لحب المال- ببعض الواجب وهو شرك أصغر، وحبه ما يبغض الله حتى يقدم هواه على محبة الله شرك أصغر، ونحو ذلك، فهذا فاته من الأمن والاهتداء بحسبه ولهذا كان السلف يدخلون الذنوب في هذا الظلم بهذا الاعتبار. انتهى ملخصاً.

وبه تظهر مطابقة الآية للترجمة، فدلت على فضل التوحيد وتكفيره للذنوب؛ لأن من أتى به تاماً فله الأمن التام والاهتداء التام، ودخل الجنة بلا عذاب، ومن أتى به ناقصاً بالذنوب التي لم يتب منها، فإن كانت صغائر كفرت باجتناب الكبائر، لآية «النساء» و«النجم» وإن كانت كبائر فهو في حكم المشيئة، إن شاء الله غفر له، وإن شاء عذبه، ومآله إلى الجنة، والله أعلم.



وعَنْ عُبَادَةَ بنِ الصَّامِتِ قَالَ: قَالَ رَسُوْلُ الله ﷺ: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ الله وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَالجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ؛ أَدْخَلَهُ اللهُ الجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ العَمَلِ»، أَخْرَجَاهُ.

عبادة: هو ابن الصامت بن قيس الأنصاري الخزرجي، أبو الوليد، أحد النقباء، بدري مشهور، من جلة الصحابة، مات بالرملة سنة أربع وثلاثين وله اثنتان وسبعون سنة. وقيل:عاش إلى خلافة معاوية.

قوله: «**من شهد أن لا إله إلا الله**». أي: من تكلم بهذه الكلمة عارفاً لمعناها، عاملاً بمقتضاها باطناً وظاهراً، كما دل عليه قوله: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ (محمد: ١٩)، وقوله: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾ (الزخرف: ٨٦). أما النطق بها من غير معرفة لمعناها ولا عمل بمقتضاها فإن ذلك غير نافع بالإجماع.

وفي الحديث ما يدل على هذا، وهو قوله: «**من شهد**» إذ كيف يشهد وهو لا يعلم، ومجرد النطق بشيء لا يسمى شهادة به، قال بعضهم : أداة الحصر لقصر الصفة على الموصوف قصر إفراد، لأن معناه: الألوهية في الله الواحد في مقابلة من يزعم اشتراك غيره معه، وليس قصر قلب، لأن أحداً من الكفار لم ينفها عن الله، وإنما أشرك معه غيره.

وقال النووي: هذا حديث عظيم جليل الموقع، وهو أجمع، أو من أجمع الأحاديث المشتملة على العقائد، فإنه ﷺ جمع فيه ما يخرج عن ملل الكفر على اختلاف عقائدهم وتباعدها، فاقتصر ﷺ في هذه الأحرف على ما يباين به جميعهم. انتهى.

ومعنى «**لا إله إلا الله**». أي: لا معبود بحق إلا إله واحد، وهو الله وحده لا

شريك له، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ (الأنبياء: ٢٥). مع قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ (النحل: ٣٦). فصح أن معنى الإله هو المعبود، ولهذا لـمَّا قال النبي ﷺ لكفار قريش: «**قولوا لا إله إلا الله**» قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾ (ص: ٥)، وقال قوم هود: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ (الأعراف: ٧٠). وهو إنما دعاهم إلى «لا إله إلا الله» فهذا هو معنى لا إله إلا الله، وهو عبادة الله وترك عبادة ما سواه، وهو الكفر بالطاغوت، والإيمان بالله.

فتضمنت هذه الكلمة العظيمة أن ما سوى الله ليس بإله، وأن إلهية ما سواه أبطل الباطل، وإثباتها أظلم الظلم، فلا يستحق العبادة سواه، كما لا تصلح الإلهية لغيره، فتضمنت نفي الإلهية عما سواه، وإثباتها له وحده لا شريك له، وذلك يستلزم الأمر باتخاذه إلهاً وحده، والنهي عن اتخاذ غيره معه إلهاً، وهذا يفهمه المخاطب من هذا النفي والإثبات، كما إذا رأيت رجلاً يستفتي أو يستشهد من ليس أهلاً لذلك، ويدع من هو أهل له، فتقول: هذا ليس بمفت ولا شاهد، المفتي فلان، والشاهد فلان، فإن هذا أمر منه ونهي.

وقد دخل في الإلهية جميع أنواع العبادة الصادرة عن تأله القلب لله بالحب والخضوع والانقياد له وحده لا شريك له، فيجب إفراد الله تعالى بها، كالدعاء، والخوف، والمحبة، والتوكل، والإنابة، والتوبة، والذبح، والنذر، والسجود، وجميع أنواع العبادة، فيجب صرف جميع ذلك لله وحده لا شريك، فمن صرف شيئاً مما لا يصلح إلا لله من العبادات لغير الله، فهو مشرك، ولو نطق بـ لا إله إلا الله، إذ لم يعمل بما تقتضيه من التوحيد والإخلاص.

ذِكْرُ نصوص العلماء في معنى «الإله»:

قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: الله ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين. رواه ابن جرير وابن أبي حاتم، وقال الوزير أبو المظفر في «الإفصاح»: قوله: «شهادة أن لا إله إلا الله» يقتضي أن يكون الشاهد عالماً بأن: لا إله إلا الله، كما قال الله عز وجل: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ (محمد: ١٩)، وينبغي أن يكون الناطق بها شاهداً فيها، فقد قال الله عز وجل ما أوضح به أن الشاهد بالحق إذا لم يكن عالماً بما شهد به، فإنه غير بالغ من الصدق به مع من شهد من ذلك بما يعلمه في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾ (الزخرف: ٨٦). قال: واسم الله تعالى مرتفع بعد «إلا» من حيث إنه الواجب له الإلهية، فلا يستحقها غيره سبحانه. قال: واقتضى الإقرار بها أن تعلم: أن كل ما فيه أمارة للحدث، فإنه لا يكون إلهاً، فإذا قلت: لا إله إلا الله، فقد اشتمل نطقك هذا على أن ما سوى الله ليس بإله فيلزمك إفراده سبحانه بذلك وحده.

قال: وجملة الفائدة في ذلك أن تعلم أن هذه الكلمة مشتملة على الكفر بالطاغوت والإيمان بالله، فإنك لما نفيت الإلهية وأثبت الإيجاب لله سبحانه، كنت ممن كفر بالطاغوت وآمن بالله.؟

وقال أبو عبدالله القرطبي في «التفسير»: لا إله إلا الله، أي: لا معبود إلا هو. وقال الزمخشري: الإله من أسماء الأجناس -كالرجل والفرس- اسم يقع على كل معبود بحق أو بباطل، ثم غلب على المعبود بحق.

وقال شيخ الإسلام: الإله هو المعبود المطاع، وقال أيضاً: في لا إله إلا الله، إثبات انفراده بالإلهية، والإلهية تتضمن كمال علمه وقدرته ورحمته، وحكمته، ففيها إثبات إحسانه إلى العباد فإن الإله هو المألوه، والمألوه هو الذي يستحق أن يُعبد، وكونه يستحق أن يُعبد هو بما اتصف به من الصفات التي تستلزم أن يكون

هو المحبوب غاية الحب، المخضوع له غاية الخضوع.

وقال ابن القيم -رحمه الله-: الإله هو الذي تألهه القلوب محبة، وإجلالاً، وإنابة، وإكراماً، وتعظيماً، وذلاً، وخضوعاً، وخوفاً، ورجاءً، وتوكلاً.

وقال ابن رجب -رحمه الله-: الإله هو الذي يُطاع، فلا يعصى، هيبة له، وإجلالاً، ومحبة، وخوفاً، ورجاءً، وتوكلاً عليه، وسؤالاً منه، ودعاء له، ولا يصلح ذلك كله إلا لله عز وجل، فمن أشرك مخلوقاً في شيء من هذه الأمور التي هي من خصائص الإلهية كان ذلك قدحاً في إخلاصه في قوله: لا إله إلا الله، ونقصاً في توحيده، وكان فيه من عبودية المخلوق بحسب ما فيه من ذلك، وهذا كله من فروع الشرك.

وقال البقاعي: لا إله إلا الله، أي: انتفى انتفاءً عظيماً أن يكون معبود بحق غير الملك الأعظم، فإن هذا العلم هو أعظم الذكرى المنجية من أهوال الساعة، وإنما يكون علماً إذا كان نافعاً، وإنما يكون نافعاً إذا كان الإذعان والعمل بما تقتضيه، وإلا فهو جهل صرف.

وقال الطيبي: الإله فعال بمعنى مفعول، كالكتاب بمعنى المكتوب، من أله إلهة أي: عبد عبادة.

وهذا كثير جداً في كلام العلماء، وهو إجماع منهم أن الإله هو المعبود، خلافاً لما يعتقده عُبَّاد القبور وأشباههم في معنى الإله: أنه الخالق أو القادر على الاختراع أو نحو هذه العبارات، ويظنون أنهم إذا قالوها بهذا المعنى، فقد أتوا من التوحيد بالغاية القصوى، ولو فعلوا ما فعلوا من عبادة غير الله، كدعاء الأموات، والاستغاثة بهم في الكربات، وسؤالهم قضاء الحاجات، والنذر لهم في الملمات، وسؤالهم الشفاعة عند رب الأرض والسماوات، إلى غير ذلك من أنواع العبادات وما شعروا أن إخوانهم من كفّار العرب يشركونهم في هذا الإقرار، ويعرفون أن

الله هو الخالق القادر على الاختراع، ويعبدونه بأنواع من العبادات، فَلْيَهن أبو جهل وأبو لهب ومن تبعهما بحكم عباد القبور، وليهْنَ أيضاً إخوانهم عُباد ود وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر، إذ جعل هؤلاء دينهم هو الإسلام المبرور.

ولو كان معناها ما زعمه هؤلاء الجهال، لم يكن بين الرسول ﷺ وبينهم نزاع، بل كانوا يبادرون إلى إجابته، ويلبون دعوته، إذ يقول لهم: قولوا: لا إله إلا الله، بمعنى: أنه لا قادر على الاختراع إلا الله، فكانوا يقولون: سمعنا وأطعنا. قال الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ (الزخرف: ٨٧)، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾ (الزخرف: ٩)، ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ (يونس: ٣١). إلى غير ذلك من الآيات.

لكن القوم أهل اللسان العربي، فعلموا أنها تهدم عليهم دعاء الأموات والأصنام من الأساس، وتُكِبُّ بناء سُؤَّال الشفاعة من غير الله، وصرف الإلهية لغيره، لأم الرأس، فقالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ (الزمر: ٣)، ﴿شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ (يونس:١٨)، ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾ (ص: ٥). فتباً لمن كان أبو جهل ورأس الكفر من قريش وغيرهم أعلم منه بـ: «لا إله إلا الله»، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾﴾ (الصافات: ٣٥-٣٦). فعرفوا أنها تقتضي ترك عبادة ما سوى الله، وإفراد الله بالعبادة، وهكذا يقول عُباد القبور إذا طلبت منهم إخلاص الدعوة والعبادة لله وحده: أنترك سادتنا وشفعاءنا في قضاء حوائجنا؟ فيقال لهم: نعم وهذا الترك والإخلاص هو الحق، كما قال تعالى: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾﴾ (الصافات:٣٧).

فـ: «لا إله إلا الله» اشتملت على نفي وإثبات، فنفت الإلهية عن كل ما سوى الله تعالى، فكل ما سواه من الملائكة والأنبياء فضلاً عن غيرهم، فليس بإله، ولا له من العبادة شيء، وأثبتت الإلهية لله وحده، بمعنى أن العبد لا يأله غيره، أي: لا يقصده بشيء من التأله، وهو تعلق القلب الذي يوجب قصده بشيء من أنواع العبادة، كالدعاء، والذبح، والنذر، وغير ذلك.

وبالجملة: فلا يأله إلا الله، أي: لا يُعبد إلا هو، فمن قال هذه الكلمة عارفاً لمعناها، عاملاً بمقتضاها، من نفي الشرك وإثبات الوحدانية لله، مع الاعتقاد الجازم لما تضمنته من ذلك والعمل به، فهذا هو المسلم حقاً، فإن عمل بها ظاهراً من غير اعتقاد، فهو المنافق، وإن عمل بخلافها من الشرك، فهو الكافر ولو قالها، ألا ترى أن المنافقين يعملون بها ظاهراً وهم في الدرك الأسفل من النار، واليهود يقولونها وهم على ما هم من الشرك والكفر، فلم تنفعهم، وكذلك من ارتد عن الإسلام بإنكار شيء من لوازمها وحقوقها، فإنها لا تنفعه، ولو قالها مئة ألف، فكذلك من يقولها ممن يصرف أنواع العبادة لغير الله، كعباد القبور والأصنام فلا تنفعهم ولا يدخلون في الحديث الذي جاء في فضلها، وما أشبهه من الأحاديث.

وقد بيَّن النبي ﷺ ذلك بقوله: «**وحده لا شريك له**» تنبيهاً على أن الإنسان قد يقولها وهو مشرك، كاليهود، والمنافقين، وعُبَّاد القبور، لما رأوا أن النبي ﷺ دعا قومه إلى قول: «**لا إله إلا الله**» ظنوا أنه إنما دعاهم إلى النطق بها فقط، وهذا جهل عظيم، وهو -عليه الصلاة والسلام- إنما دعاهم إليها ليقولوها ويعملوا بمعناها ويتركوا عبادة غير الله، ولهذا قالوا: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ٣٦﴾ (الصافات: ٣٦)، وقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ (ص: ٥). فلهذا أبوا عن النطق بها، وإلا فلو قالوها وبقوا على عبادة اللات والعزى ومناة لم يكونوا مسلمين، ولقاتلهم -عليه الصلاة والسلام- حتى يخلعوا الأنداد ويتركوا عبادتها، ويعبدوا

الله وحده لا شريك له، وهذا أمر معلوم بالاضطرار من الكتاب والسنة والإجماع، وأما عُباد القبور فلم يعرفوا من معنى هذه الكلمة ولا عرفوا الإلهية المنفية عن غير الله الثابتة له وحده لا شريك له بل لم يعرفوا من معناها إلا ما أقرَّ به المؤمن والكافر، واجتمع عليه الخلق كلهم من أن معناها: لا قادر على الاختراع، أو أن معناها: الإله، هو الغني عما سواه، الفقير إليه كل ما عداه، ونحو ذلك، فهذا حق، وهو من لوازم الإلهية، ولكن ليس هو المراد بمعنى «لا إله إلا الله» فإن هذا القدر قد عرفه الكفار، وأقروا به، ولم يدعوا في آلهتهم شيئاً من ذلك، بل يقرون بفقرهم، وحاجتهم إلى الله، وإنما كانوا يعبدونهم على معنى أنهم وسائط وشفعاء عند الله في تحصيل المطالب ونجاح المآرب، وإلا فقد سلموا الخلق، والملك، والرزق، والإحياء، والإماتة، والأمر كله لله وحده لا شريك له، وقد عرفوا معنى «لا إله إلا الله» وأبوا على النطق والعمل بها، فلم ينفعهم توحيد الربوبية مع الشرك في الإلهية، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ (يوسف: ١٠٦).

وعُبَّاد القبور نطقوا بها وجهلوا معناها، وأبوا الإتيان به، فصاروا كاليهود الذين يقولونها ولا يعرفون معناها ولا يعملون به، فتجد أحدهم يقولها وهو يأله غير الله بالحب، والإجلال، والتعظيم والخوف، والرجاء، والتوكل، والدعاء عند الكرب، ويقصده بأنواع العبادة الصادرة عن تأله قلبه لغير الله مما هو أعظم مما يفعله المشركون الأولون، ولهذا إذا توجهت على أحدهم باليمين بالله تعالى أعطاك ما شئت من الأيمان صادقاً أو كاذباً، ولو قيل له: احلف بحياة الشيخ فلان أو بتربته ونحو ذلك، لم يحلف إن كان كاذباً، وما ذاك إلا لأن المدفون في التراب أعظم في قلبه من رب الأرباب، وما كان الأولون هكذا، بل كانوا إذا أرادوا التشديد في اليمين حلفوا بالله تعالى، كما في قصة القسامة التي وقعت في الجاهلية، وهي في «صحيح البخاري» وكثير منهم وأكثرهم يرى أن الاستغاثة بإلهه الذي يعبده عند

قبره أو غيره أنفع وأنجح من الاستغاثة بالله في المسجد، ويصرحون بذلك، والحكايات عنهم بذلك فيها طول، وهذا أمر ما بلغ إليه شرك الأولين، وكلهم إذا أصابتهم الشدائد أخلصوا للمدفونين في التراب، وهتفوا بأسمائهم، ودعوهم ليكشفوا ضر المصاب في البر والبحر والسفر والإياب وهذا أمر ما فعله الأولون، بل هم في هذه الحال يخلصون للكبير المتعال فاقرأ قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ (العنكبوت: ٦٥)، وقوله: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾﴾ (النحل: ٥٣-٥٤). وكثير منهم قد عطلوا المساجد وعمروا القبور والمشاهد، فإذا قصد أحدهم القبر الذي يعظمه أخذ في دعاء صاحبه باكياً خاشعاً ذليلاً خاضعاً، بحيث لا يحصل له ذلك في الجمعة والجماعات وقيام الليل وإدبار الصلوات، فيسألونهم مغفرة الذنوب، وتفريج الكروب، والنجاة من النار، وأن يحطوا عنهم الأوزار، فكيف يظن عاقل فضلاً عن عالم أن التلفظ بـ «لا إله إلا الله» مع هذه الأمور تنفعهم، وهم إنما قالوها بألسنتهم وخالفوها باعتقادهم وأعمالهم، ولا ريب أنه لو قالها أحد من المشركين ونطق أيضاً بشهادة أن محمداً رسول الله، ولم يعرف معنى الإله ولا معنى الرسول، وصلى، وصام، وحج، ولا يدري ما ذلك إلا أنه رأى الناس يفعلونه فتابعهم، ولم يفعل شيئاً من الشرك، فإنه لا يشك أحد في عدم إسلامه، وقد أفتى بذلك فقهاء المغرب كلهم في أول القرن الحادي عشر أو قبله في شخص كان كذلك، كما ذكره صاحب «الدر الثمين في شرح المرشد المعين» من المالكية، ثم قال شارحه: وهذا الذي أفتوا به جلي في غاية الجلاء، لا يمكن أن يختلف فيه اثنان. انتهى.

ولا ريب أن عُبَّاد القبور أشد من هذا لأنهم اعتقدوا الإلهية في أرباب متفرقين.

فإن قيل: قد تبيّن معنى الإله والإلهية، فما الجواب عن قول من قال: بأن معنى الإله القادر على الاختراع، ونحو هذه العبارة.

قيل: الجواب من وجهين:

أحدهما: أن هذا قول مبتدع لا يعرف أحد قاله من العلماء ولا من أئمة اللغة، وكلام العلماء وأئمة اللغة هو معنى ما ذكرنا كما تقدم فيكون هذا القول باطلاً.

الثاني: على تقدير تسليمه، فهو تفسير باللازم للإله الحق، فإن اللازم له أن يكون خالقاً قادراً على الاختراع، ومتى لم يكن كذلك، فليس بإله حق وإن سمي إلهاً، وليس مراده أن من عرف أن الإله هو القادر على الاختراع، فقد دخل في الإسلام وأتى بتحقيق المرام من مفتاح دار السلام، فإن هذا لا يقوله أحد، لأنه يستلزم أن يكون كفار العرب مسلمين، ولو قُدِّر أن بعض المتأخرين أراد ذلك فهو مخطئ يرد عليه بالدلائل السمعية والعقلية.

قوله: «**وأن محمداً عبده ورسوله**». أي: وشهد بذلك، وهو معطوف على ما قبله، فتكون الشهادة واقعة على هذه الجملة وما قبلها وما بعدها، فإن العامل في المعطوف وما عُطف عليه واحد، ومعنى «العبد» هنا يعني المملوك العابد، أي مملوك لله تعالى، وليس له من الربوبية والإلهية شيء، إنما هو عبد مقرَّب عند الله ورسوله، أرسله الله، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾﴾ (الجن: ١٩-٢٣).

قيل: وقدم العبد هنا على الرسول ترقياً من الأدنى إلى الأعلى، وجمع بينهما لدفع الإفراط والتفريط الذي وقع في شأن عيسى -عليه السلام-، وقد أكد النبي ﷺ هذا المعنى بقوله: «**لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد**

فقولوا: **عبد الله ورسوله**» رواه البخاري عن عمر بن الخطاب وذلك يتضمن تصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، والانتهاء عما عنه زجر، فلا يكون كامل الشهادة له بالرسالة من ترك أمره وأطاع غيره، وارتكب نهيه.

قـولـه: «**وأن عيسى عبد الله ورسوله**». وفي رواية: «**وابن أمته**». أي: خلافاً لما يعتقده النصارى أنه الله، أو ابن الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾ (المؤمنون: ٩١-٩٢). فيشهد بأنه عبد الله، أي: عابد مملوك لله، لا مالك، فليس له من الربوبية ولا من الإلهية شي، ورسول صادق، خلافاً لقول اليهود: إنه ولد بغي، بل يقال فيه ما قال عن نفسه، كما تعالى: ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ (مريم: ٣٠-٣٤)، وقال تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ﴾ (النساء: ١٧٢). قال القرطبي: ويستفاد منه ما يلقنه النصراني إذا أسلم.

قـولـه: «**وكلمته**». إنما سُمِّي -عليه السلام- كلمة الله، لصدوره بكلمة «كن» بلا أب. قاله قتادة وغيره من السلف.

قال الإمام أحمد فيما أملاه في «الرد على الجهمية»: الكلمة التي ألقاها إلى مريم حين قال له: «كن» فكان عيسى بـ «كن»، وليس عيسى هو كن، ولكن بـ «كن» كان، فـ: «كن» من الله قول، وليس: «كن» مخلوقاً، وكذب النصارى والجهمية على الله في أمر عيسى، وذلك أن الجهمية قالت: عيسى روح الله وكلمته، إلا أن الكلمة مخلوقة، وقالت النصارى: عيسى روح الله من ذات الله، وكلمة الله من ذات الله،

كما يقال: إن هذه الخرقة من هذا الثوب، وقلنا نحن: إن عيسى بالكلمة كان، وليس عيسى هو الكلمة. انتهى. يعني به ما قاله قتادة وغيره.

قوله: «ألقاها إلى مريم». قال ابن كثير: خلقه بالكلمة التي أرسل بها جبرائيل -عليه السلام- إلى مريم، فنفخ فيها من روحه بإذن ربه عز وجل، فكان عيسى بإذن الله عز وجل، وصارت تلك النفخة التي نفخها في جيب درعها، فنزلت حتى ولجت في فرجها، بمنزلة لقاح الأب الأم، والجميع مخلوق لله عز وجل، ولهذا قيل لعيسى: إنه كلمة الله وروح منه، لأنه لم يكن له أب تولَّد منه، وإنما هو ناشئ عن الكلمة التي قال له: كن، فكان، والروح التي أرسل بها جبرائيل -عليه السلام-.

قوله: «وروح منه». قال أُبيٌّ بن كعب: عيسى روح من الأرواح التي خلقها الله عز وجل واستنطقها بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ (الأعراف: ١٧٢)، بعثه الله إلى مريم فدخل من فيها، رواه عبد بن حميد، وعبدالله بن أحمد في «زوائد المسند» وابن جرير، وابن أبي حاتم وغيرهم. وقال أبو روق: «وروح منه». أي: نفخة منه، إذ هي من جبرائيل بأمره، وسمي روحاً؛ لأنه حدث من نفخة جبرائيل -عليه السلام-.

وقال الإمام أحمد: «وروح منه» يقول: من أمره كان الروح فيه، كقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ (الجاثية: ١٣)، يقول: من أمره.

وقال شيخ الإسلام: المضاف إلى الله تعالى إذا كان معنى لا يقوم بنفسه، ولا بغيره من المخلوقات وجب أن يكون صفة لله تعالى قائمة به، وامتنع أن تكون إضافته إضافة مخلوق مربوب، وإن كان المضاف عيناً قائمة بنفسه، كعيسى وجبرائيل -عليهما السلام- وأرواح بني آدم، امتنع أن يكون صفة لله تعالى؛ لأن ما

قام بنفسه لا يكون صفة لغيره، لكن الأعيان المضافة إلى الله تعالى على وجهين:

أحدهما: أن تكون مضافة إليه لكونه خلقها وأبدعها، فهذا شامل لجميع المخلوقات، كقولهم: سماء الله، وأرض الله، ومن هذا الباب فجميع المخلوقين عبيد الله، وجميع المال مال الله، وجميع البيوت والنوق لله.

الوجه الثاني: أن يضاف إليه لما خصّه به من معنى يحبه، ويأمر به، ويرضاه، كما خصّ البيت العتيق بعبادة فيه لا تكون في غيره، وكما يقال عن مال الفيء والخمس: هو مال الله ورسوله، ومن هذا الوجه فعباد الله هم الذين عبدوه وأطاعوا أمره، فهذه إضافة تتضمن ألوهيته وشرعه ودينه، وتلك إضافة تتضمن ربوبيته وخلقه. انتهى ملخصاً.

والمقصود منه أن إضافة روح إلى الله هو من الوجه الثاني، والله أعلم.

قوله: «والجنة حق والنار حق». أي: وشهد أن الجنة التي أخبر بها الله في كتابه أنه أعدها لمن آمن به وبرسوله حق، أي ثابتة لا شك فيها، وشهد أن النار التي أخبر الله في كتابه أنه أعدها للكافرين به وبرسله حق كذلك، كما قال تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢١﴾ (الحديد: ٢١)، وقال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ٢٤﴾ (البقرة: ٢٤)، وفيهما دليل على أن الجنة والنار مخلوقتان الآن، خلافاً لأهل البدع الذين قالوا: لا يُخلقان إلا في يوم القيامة، وفيه دليل على المعاد وحشر الأجساد.

قوله: «أدخله الله الجنة على ما كان من العمل». هذه الجملة جواب الشرط، وفي رواية: «أدخله الله الجنة من أي أبواب الجنة الثمانية» قال القاضي عياض: وما ورد في حديث عبادة يكون خصوصاً لمن قال ما ذكره ﷺ، وقرن بالشهادتين

حقيقة الإيمان والتوحيد الذي ورد في حديثه، فيكون له من الأجر ما يرجح على سيئاته، ويوجب له المغفرة والرحمة، ودخول الجنة لأول وهلة.



وَلَـهُما في حَدِيْثِ عِتْبَانَ:

«فَإِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ».

قـولـه: «ولهما». أي: للبخاري ومسلم في «صحيحهما»، وهذا الحديث طرف من حديث طويل أخرجه الشيخان كما قال المصنف. وعتبان -بكسر المهملة بعدها مثناة فوقية ثم موحدة- ابن مالك بن عمرو بن العجلان الأنصاري من بني سالم بن عوف صحابي شهير، مات في خلافة معاوية.

قـولـه: «فإن الله حرم على النار ... الحديث».

اعلم أنه قد وردت أحاديث ظاهرها أنه من أتى بالشهادتين حُرِّم على النار، كهذا الحديث، وحديث أنس قال: كان النبي ﷺ ومعاذ رديفه على الرحل، فقال: «**يا معاذ**»، قال: لبيك يا رسول الله وسعديك، قال: «**ما من عبد يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، إلا حرمه الله تعالى على النار**» قال: يا رسول الله، ألا أخبر بها الناس فيستبشروا؟ قال: «**إذاً يتكلوا**»، فأخبر بها معاذ عند موته تأثماً. [أخرجاه].

ولمسلم عن عبادة مرفوعاً: «**من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله حرم الله عليه النار**».

وردت أحاديث فيها أن من أتى بالشهادتين دخل الجنة، وليس فيها أنه يحرم على النار.

منها: حديث عبادة الذي تقدم قبل هذا، وحديث أبي هريرة أنهم كانوا مع النبي ﷺ في غزوة تبوك ... الحديث، وفيه: فقال رسول الله ﷺ:«**أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيُحجب عن الجنة**» [رواه مسلم].

وحديث أبي ذر في «الصحيحين» مرفوعاً: «ما من عبد قال: لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة ...» الحديث.

وأحسن ما قيل في معناها: ما قاله شيخ الإسلام وغيره: إن هذه الأحاديث إنما هي فيمن قالها ومات عليها، كما جاءت مقيدة، وقالها خالصاً من قلبه، مستيقناً بها قلبه، غير شاك فيها بصدق ويقين، فإن حقيقة التوحيد انجذاب الروح إلى الله جملة، فمن شهد أن لا إله إلا الله خالصاً من قلبه، دخل الجنة؛ لأن الإخلاص هو انجذاب القلب إلى الله تعالى، بأن يتوب من الذنوب توبة نصوحاً، فإذا مات على تلك الحال؛ نال ذلك.

فإنه قد تواترت الأحاديث بأنه يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله، وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، وما يزن خردلة وما يزن ذرة، وتواترت بأن كثيراً ممن يقول: لا إله إلا الله يدخل النار ثم يخرج منها، وتواترت بأن الله حرم على النار أن تأكل أثر السجود من ابن آدم فهؤلاء كان يصلون ويسجدون لله، وقد تواترت بأنه يحرم على النار من قال: لا إله إلا الله، ومن شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، لكن جاءت مقيدة بالقيود الثقال، وأكثر من يقولها لا يعرف الإخلاص ولا اليقين، ومن لا يعرف ذلك يخشى عليه أن يفتن عنها عند الموت، فيحال بينه وبينها، وأكثر من يقولها إنما يقولها تقليداً أو عادة، ولم يخالط الإيمان بشاشة قلبه، وغالب من يفتن عند الموت وفي القبور أمثال هؤلاء، كما في الحديث: «**سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته**». وغالب أعمال هؤلاء هو تقليد واقتداء بأمثالهم، وهم أقرب الناس من قوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ (الزخرف: ٢٣). وحينئذٍ فلا منافاة بين الأحاديث، فإنه إذا قالها بإخلاص ويقين تام، لم يكن في هذه الحال مصراً على ذنب أصلاً، فإن كمال إخلاصه ويقينه يوجب أن يكون الله أحب إليه من كل شيء، فإذاً لا يبقى في قلبه

إرادة لما حرم الله، ولا كراهية لما أمر الله، وهذا هو الذي يحرم على النار، وإن كانت له ذنوب قبل ذلك، فإن هذا الإيمان، وهذه التوبة، وهذا الإخلاص، وهذه المحبة، وهذا اليقين، لا يتركون له ذنباً إلا يُمحى كما يُمحى الليل بالنهار، فإذا قالها على وجه الكمال المانع من الشرك الأكبر والأصغر، فهذا غير مُصرٍّ على ذنب أصلاً، فيغفر له ويحرم على النار، وإن قالها على وجه خلص به من الشرك الأكبر دون الأصغر، ولم يأت بعدها بما يناقض ذلك، فهذه الحسنة لا يقاومها شيء من السيئات، فيرجح بها ميزان الحسنات، كما في حديث البطاقة، فيحرم على النار، ولكن تنقص درجته في الجنة بقدر ذنوبه، وهذا بخلاف من رجحت سيئاته على حسناته ومات مصراً على ذلك، فإنه يستوجب النار، وإن قال: لا إله إلا الله وخلص بها من الشرك الأكبر، لكنه لم يمت على ذلك، بل أتى بعد ذلك بسيئات رجحت على حسنة توحيده. فإنه في حال قولها كان مخلصاً لكنه أتى بذنوب أوهنت ذلك التوحيد والإخلاص فأضعفته، وقويت نار الذنوب حتى أحرقت ذلك، بخلاف المخلص المستيقن، فإن حسناته لا تكون إلا راجحة على سيئاته، ولا يكون مصراً على سيئة، فإن مات على ذلك دخل الجنة، وإنما يخاف على المخلص أن يأتي بسيئات راجحة تضعف إيمانه، فلا يقولها بإخلاص ويقين مانع من جميع السيئات، ويخشى عليه من الشرك الأكبر والأصغر، فإن سلم من الأكبر بقي معه من الأصغر، فيضيف إلى ذلك سيئات تنضم إلى هذا الشرك، فيرجح جانب السيئات، فإن السيئات تضعف الإيمان واليقين، فيضعف بذلك قول: لا إله إلا الله، فيمتنع الإخلاص في القلب، فيصير المتكلم بها كالهاذي أو النائم، أو من يحسن صوته بآية من القرآن من غير ذوق طعم ولا حلاوة، فهؤلاء لم يقولوها بكمال الصدق واليقين، بل يأتون بعدها بسيئات تنقص ذلك الصدق، واليقين، بل يقولونها من غير يقين وصدق، ويموتون على ذلك، ولهم سيئات كثيرة تمنعهم من

دخول الجنة، وإذا كثرت الذنوب ثقل على اللسان قولها، وقسا القلب عن قولها، وكره العمل الصالح، وثقل عليه سماع القرآن، واستبشر بذكر غيره واطمأن إلى الباطل، واستحلى الرفث ومخالطة أهل الغفلة، وكره مخالطة أهل الحق، فمثل هذا إذا قالها قال بلسانه ما ليس في قلبه، وبفيه ما لا يصدق عمله، كما قال الحسن: ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني، ولكن ما وقر في القلوب، وصدقته الأعمال، فمن قال خيراً وعمل خيراً قبل منه، ومن قال خيراً وعمل شراً لم يقبل منه.

وقال بكر بن عبدالله المزني: ما سبقهم أبو بكر بكثرة صيام ولا صلاة، ولكن بشيء وقر في قلبه، فمن قال: لا إله إلا الله ولم يقم بموجبها، بل اكتسب مع ذلك ذنوباً وسيئات، وكان صادقاً في قولها موقناً بها، لكن ذنوبه أضعاف أضعاف صدقه ويقينه، وانضاف إلى ذلك الشرك الأصغر العملي، رجحت هذه الأشياء على هذه الحسنة، ومات مصراً على الذنوب، بخلاف من يقولها بيقين وصدق تام فإنه لا يموت مصراً على الذنوب، إما أن لا يكون مصراً على سيئة أصلاً، أو يكون توحيده المتضمن لصدقه ويقينه رجح حسناته، والذين يدخلون النار ممن يقولها قد فاتهم أحد هذين الشرطين: إما أنهم لم يقولوها بالصدق واليقين التامين المنافيين للحسنات، أو لرجحان السيئات، أو قالوها واكتسبوا بعد ذلك سيئات رجحت على حسناتهم ثم ضعف لذلك صدقهم، ويقينهم، ثم لم يقولوها بعد ذلك بصدق ويقين تام، لأن الذنوب قد أضعفت ذلك الصدق واليقين من قلوبهم، فقولها من مثل هؤلاء لا يقوى على محو السيئات بل ترجح سيئاتهم على حسناتهم. انتهى ملخصاً.

وقد ذكر معناه غيره كابن القيم، وابن رجب والمنذري، والقاضي عياض وغيرهم.

وحاصله أن لا إله إلا الله سبب لدخول الجنة والنجاة من النار، ومقتضٍ

لذلك، ولكن المقتضي لا يعمل عمله إلا باستجماع شروطه وانتفاء موانعه، فقد يتخلف عنه مقتضاه لفوات شرط من شروطه، أو لوجود مانع. ولهذا قيل للحسن أن ناساً يقولون: من قال لا إله إلا الله دخل الجنة، فقال: من قال لا إله إلا الله فأدى حقها وفرضها دخل الجنة.

وقال وهب بن منبه: لمن سأله أليس لا إله إلا الله مفتاح الجنة؟ قال: بلى، ولكن ما من مفتاح إلا وله أسنان، فإن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك، وإلا لم يفتح. ويدل على ذلك أن الله رتب دخول الجنة على الإيمان والأعمال الصالحة، وكذلك النبي ﷺ كما في «الصحيحين» عن أبي أيوب، أن رجلاً قال يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة، فقال: «**تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصل الرحم**».

وفي «المسند» عن بشر بن الخصاصية قال: أتيت النبي ﷺ، لأبايعه، فاشترط عليَّ شهادة لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وأن أقيم الصلاة، وأن أوتي الزكاة، وأن أحج حجة الإسلام، وأن أصوم رمضان، وأن أجاهد في سبيل الله، فقلت: يا رسول الله؛ أما الثنتين فوالله ما أطيقهما الجهاد والصدقة، فقبض رسول الله ﷺ يده ثم حركها وقال: «**فلا جهاد ولا صدقة، فبم تدخل الجنة إذاً**». قلت يا رسول الله أبايعك عليهن كلهن.

ففي الحديث أن الجهاد والصدقة شرط في دخول الجنة مع حصول التوحيد، والصلاة، والحج، والصيام. والأحاديث في هذا الباب كثيرة.

وفي الحديث دليل على أنه لا يكفي في الإيمان النطق من غير اعتقاد، وبالعكس، وفيه تحريم النار على أهل التوحيد الكامل، وفيه أن العمل لا ينفع إلا إذا كان خالصاً لله تعالى.



قال: وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ؛ قَالَ: «قَالَ مُوسَى: يَا رَبِّ عَلِّمنِي شَيئاً أَذكُرُكَ وأَدعُوكَ بِهِ، قَالَ: قُلْ يَا مُوسَى لا إِلَهَ إلاَّ اللهُ، قَالَ: كُلُّ عِبَادِكَ يَقُولُونَ هَذا. قَالَ: يَا مُوسَى لَو أَنَّ السَّمَواتِ السَّبْعِ وَعَامِرَهُنَّ غَيرِي، والأَرْضُونَ السَّبْعَ في كِفَّةٍ، وَلا إِلَهَ إلاَّ اللهُ في كِفَّةٍ، مَالَتْ بِهِنَّ لا إِلَهَ إلاَّ اللهُ». [رَوَاهُ ابنُ حبَّانَ والحَاكِمُ وصَحَّحَهُ].

أبو سعيد: اسمه سعد بن مالك بن سنان بن عبيد الأنصاري الخزرجي، صحابي جليل، وأبوه أيضاً كذلك، استصغر أبو سعيد بأحد، ثم شهد ما بعدها، مات بالمدينة سنة ثلاث أو أربع وستين. وقيل: أربع وسبعين.

قوله: «**أذكرك**». هو بالرفع خبر مبتدأ محذوف، أي أنا أذكرك. وقيل بل هو صفة، وأدعوك معطوف عليه، أي أثني عليك وأحمدك به، وأدعوك، أي أتوسل به إليك إذا دعوتك.

قوله: «**قل يا موسى: لا إله إلا الله**». فيه أن الذاكر بها يقولها كلها، ولا يقتصر على لفظ الجلالة كما يفعله جهال المتصوفة، ولا يقول أيضاً هو كما يقوله غلاة جهالهم، فإذا أرادوا الدعاء قالوا: يا هو، فإن ذلك بدعة وضلالة. وقد صنف جهالهم في المسألتين، وصنف ابن عربي كتاباً سماه كتاب «الهو».

قوله: «**كل عبادك يقولون هذا**»: هكذا ثبت بخط المصنف. يقولون بالجمع مراعاة لمعنى كل، والذي في الأصول يقول بالإفراد مراعاة للفظها دون معناه، لكن قد روى الإمام أحمد عن عبدالله بن عمروٍ هذا الحديث بهذا اللفظ الذي ذكره المصنف أطول منه.

وفي «سنن النسائي» والحاكم و«شرح السنة» بعد قوله: «**كل عبادك يقولون هذا**»، وإنما أريد أن تخصني به، أي: بذلك الشيء من بين عموم عبادك فإن من

طبع الإنسان أن لا يفرح فرحاً شديداً إلا بشيء يختص به دون غيره، كما إذا كانت عنده جوهرة ليست موجودة عند غيره، مع أن من رحمة الله وسنته المطردة أن ما اشتدت إليه الحاجة والضرورة، كان أكثر وجوداً، كالبر والملح، والماء ونحو ذلك دون الياقوت واللؤلؤ، ولما كان بالناس بل بالعالم كله من الضرورة إلى لا إله إلا الله ما لا نهاية في الضرورة فوقه كان أكثر الأذكار وجوداً، وأيسرها حصولاً، وأعظمها معنى، والعوام والجهال يعدلون عنها إلى الأسماء الغريبة والدعوات المبتدعة التي لا أصل لها في الكتاب والسنة كالأحزاب والأوراد التي ابتدعها جهلة المتصوفة.

قوله: «**وعامرهن غيري**»: هو بالنصب عطف على السماوات، أي لو أن السماوات السبع ومن فيهن من العمار غير الله والأرضين السبع ومن فيهن وضعوا في كفة الميزان، ولا إله إلا الله في الكفة الأخرى، مالت بهن لا إله إلا الله.

وروى الإمام أحمد عن عبدالله بن عمرو، عن النبي ﷺ أن نوحاً -عليه السلام- قال لابنه عند موته: «آمرك بـ: لا إله إلا الله ، فإن السماوات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفة، ولا إله إلا الله في كفة رجحت بـهن لا إله إلا الله، ولو أن السماوات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمة قصمتهن لا إله إلا الله». وفيه دليل على أن الله تعالى فوق السماوات.

قوله: «**في كِفّة**»: بكسر الكاف وتشديد الفاء من كفة الميزان. قال: بعضهم ويطلق لكل مستدير.

قوله: «**مالت بهن لا إله إلا الله**»: أي: رجحت عليهن، وذلك لما اشتملت عليه من توحيد الله الذي هو أفضل الأعمال، وأساس الملة، ورأس الدين، فمن قالها بإخلاص ويقين، وعمل بمقتضاها ولوازمها، واستقام على ذلك فهو من الذين لا خوف عليهم، ولا هم يحزنون، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ

ﭐسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ ﴿٣٢﴾﴾ (فصلت: ٣٠-٣٢).

والحديث يدل على أن لا إله إلا الله أفضل الذكر، كما في حديث عبدالله ابن عمرو مرفوعاً: «**خير الدعاء دعاء يوم عرفة، وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير**» [رواه أحمد والترمذي]. وعنه أيضاً مرفوعاً: «**يصاح برجل من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر له تسعة وتسعون سجلاً، كل سجل منه مد البصر، ثم يقال: أتنكر من هذا شيئاً؟ فيقول: لا يا رب، فيقال: ألك عذر أو حسنة؟ فيهاب الرجل فيقول لا! فيقال: بلى إن لك عندنا حسنات**[1]**، وأنه لا ظلم عليك، فيخرج له بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فيقول: يا رب، ما هذه البطاقة مع هذه السجلات فيقال: إنك لا تظلم، فتوضع السجلات في كفة؛ والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة**» [رواه الترمذي وحسنه، والنسائي، وابن حبان والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم، وقال الذهبي في «تلخيصه»: صحيح].

قال ابن القيم: فالأعمال لا تتفاضل بصورها وعددها، وإنما تتفاضل بتفاضل ما في القلوب، فتكون صورة العمل واحدة، وبينهما من التفاضل كما بين السماء والأرض، قال: تأمل حديث البطاقة التي توضع في كفه، ويقابلها تسعة وتسعون سجلاً، كل سجل منها مد البصر، فتثقل البطاقة، وتطيش السجلات، فلا يعذب. ومعلوم أن كل موحِّد له هذه البطاقة، وكثير منهم يدخل النار بذنوبه.

---

(١) في الترمذي «حسنة» بالإفراد.

وعن أبي هريرة مرفوعاً: «**ما قال عبد: لا إله إلا الله مخلصاً قط إلا فُتحتْ له أبواب السماء حتى تفضي إلى العرش ما اجتنب الكبائر**» رواه الترمذي وحسنه، والنسائي، والحاكم وقال: على شرط مسلم.

قوله: «رواه ابن حبان، والحاكم».

ابن حبان اسمه محمد بن حبان -بكسر المهملة وتشديد الموحدة- ابن أحمد ابن حبان أبو حاتم البستي الحافظ صاحب التصانيف كـ «الصحيح»، و«التاريخ»، و«الضعفاء»، و«الثقات» وغير ذلك، قال الحاكم: كان من أوعية العلم في الفقه، واللغة، والحديث، والوعظ، ومن عقلاء الرجال، مات سنة أربع وخمسين وثلاثمئة بمدينة بست بالمهملة.

وأما الحاكم فاسمه محمد بن عبدالله بن محمد الضبي النيسابوري أبو عبدالله الحافظ، ويعرف بابن البيع، ولد سنة إحدى وعشرين وثلاثمئة، وصنف التصانيف كـ «المستدرك»، و«تاريخ نيسابور»، وغيرهما، مات سنة خمس وأربعمئة.



قال: وَللتِّرْمِذي وَحَسَّنَهُ عَن أَنَسٍ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ، لَوْ أَتَيْتَنِـي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً».

الترمذي: اسمه محمد بن عيسى بن سورة -بفتح المهملة- ابن موسى بن الضحاك السلمي أبو عيسى صاحب الجامع وأحد الأئمة الحفاظ، كان ضرير البصر، روى عن قتيبة وهناد والبخاري وخلق، ومات سنة ٢٧٩هـ.

وأنس هو ابن مالك بن النضر الأنصاري الخزرجي، خادم ﷺ خدمه عشر سنين، ودعا له النبي ﷺ فقال: «**اللهم أكثر ماله وولده وأدخله الجنة**» ومات سنة اثنتين وقيل: ثلاث وتسعين. وقد جاوز المئة والحديث قطعة من حديث رواه الترمذي من طريق كثير بن فائد: حدثنا سعيد بن عبيد، سمعت بكر بن عبدالله المزني يقول: حدثنا أنس بن مالك قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**قال الله تعالى يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك، يا ابن آدم، لو أتيتني بقراب الأرض ...**» الحديث.

قال ابن رجب: وإسناده لا بأس به.

وسعيد بن عبيد، هو الهُنَائيّ: ذكره ابن حبان في «الثقات»، وقال الدارقطني: تفرد كثير بن فائد، عن سعيد بن عبيد مرفوعاً.

قال ابن رجب: وتابعه على رفعه أبو سعيد مولى بني هاشم، فرواه عن سعيد ابن عبيد مرفوعاً، وقد رواه الإمام أحمد من حديث أبي ذر بمعناه، وأخرجه الطبراني من حديث ابن عباس عن النبي ﷺ. وروى مسلم من حديث أبي ذر عن النبي ﷺ قال: «**يقول الله: من تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً**» الحديث. وفيه:

«ومن لقيني بقراب الأرض خطيئة، لا يشرك بي شيئاً لقيته بقرابها مغفرة».

قوله: «لو أتيتني بقراب الأرض» قراب الأرض. بضم القاف، وقيل بكسرها، والضم أشهر وهو ملؤها أو ما يقارب ملؤها.

قوله: «ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً»: شرط ثقيل في الوعد بحصول المغفرة، وهو السلامة من الشرك كثيره وقليله، صغيره، وكبيره، ولا يسلم من ذلك إلا من سلمه الله، وذلك هو القلب السليم. كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ (الشعراء: ٨٨-٨٩).

قال ابن رجب: من جاء مع التوحيد بقراب الأرض خطايا لقيه الله بقرابها مغفرة، لكن هذا مع مشيئة الله عز وجل، فإن شاء غفر له، وإن شاء أخذه بذنوبه، ثم كان عاقبته أن لا يخلد في النار، بل يخرج منها ثم يدخل الجنة، فإن كمل توحيد العبد، وإخلاصه لله تعالى فيه، وقام بشروطه بقلبه ولسانه وجوارحه، أو بقلبه ولسانه عند الموت أوجب ذلك مغفرة ما سلف من الذنوب كلها ومنعه من دخول النار بالكلية(١)، فمن تحقق بكلمة التوحيد قلبه، أخرجت منه كل ما سوى الله محبة وتعظيماً وإجلالاً ومهابة وخشية وتوكلاً، وحينئذٍ تُحرق ذنوبه وخطاياه كلها ولو كانت مثل زبد البحر، وربما قلبتها(٢) حسنات، فإن هذا التوحيد هو الإكسير(٣) الأعظم، فلو وضع منه ذرة على جبال الذنوب والخطايا لقلبها حسنات.

---

(١) لأن ذلك لا يكون إلا توبة عما سلف من الذنوب.

(٢) أي فمن تحقق بكلمة التوحيد قلبه فإنه لا يكون إلا تائباً فإذا أتبع التوبة بالإيمان والعمل الصالح قُلبت السيئات حسنات، كما في آية الفرقان: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾.

(٣) هو الذي يقلب الشيء من أعيان إلى أعيان.

وقال شيخ الإسلام: الشرك نوعان: أكبر، وأصغر، فمن خلص منهما وجبت له الجنة، ومن مات على الأكبر وجبت له النار، ومن خلص من الأكبر وحصل له بعض الأصغر مع حسنات راجحة على ذنوبه[(١)] دخل الجنة، فإن تلك الحسنات توحيد كثير مع يسير من الشرك الأصغر، ومن خلص من الأكبر، ولكن كثر الأصغر حتى رجحت به سيئاته دخل النار، فالشرك يؤاخذ به العبد إذا كان أكبر أو كان كثيراً أصغر، والأصغر القليل في جانب الإخلاص الكثير لا يؤاخذ به.

وفي هذه الأحاديث كثرة ثواب التوحيد، وسعة كرم الله وجوده ورحمته، حيث وعد عباده أن العبد لو أتاه بملء الأرض خطايا وقد مات على التوحيد فإنه يقابله بالمغفرة الواسعة التي تسع ذنوبه، والرد على الخوارج الذين يكفرون المسلم بالذنوب، وعلى المعتزلة الذين يقولون بالمنزلة بين المنزلتين، وهي منزلة الفاسق، فيقولون: ليس بمؤمن ولا كافر ويخلد في النار والصواب في ذلك قول أهل السنة أنه لا يسلب عنه اسم الإيمان على الإطلاق، ولا يعطاه على الإطلاق، بل يقال: هو مؤمن ناقص الإيمان أو مؤمن عاص، أو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته، وعلى هذا يدل الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة.

وقال المصنف: تأمل الخمس اللواتي في حديث عبادة فإنك إذا جمعت بينه وبين حديث عتبان؛ تبين لك معنى قول لا إله إلا الله، وتبين خطأ المغرورين وفيه أن الأنبياء يحتاجون للتنبيه على معنى قول لا إله إلا الله[(٢)]، وفيه التنبيه لرجحانها بجميع المخلوقات مع أن كثيراً ممن يقولها يخف ميزانه. وفيه أنك إذا عرفت حديث أنس[(٣)] عرفت أن قوله في حديث عتبان: «**إن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله**» أنه ترك الشرك، ليس قولها باللسان. انتهى ملخصاً.

---

(١) لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦﴾. الآية.

(٢) لأن موسى -عليه السلام- قال: «**كل عبادك يقولون هذا**».

(٣) هذا الذي معنا: «**لو أتيتني بقراب الأرض**».

باب
من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب

وَقَوْلُ الله تَعَالَى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [النحل: ١٢٠].

وقَالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [المؤمنون: ٥٩].

الشَّرْحُ:

أي: ولا عذاب. وتحقيق التوحيد هو معرفته، والاطلاع على حقيقته، والقيام به علماً وعملاً، وحقيقة ذلك هو انجذاب الروح إلى الله محبة وخوفاً، وإنابة وتوكلاً، ودعاءً وإخلاصاً وإجلالاً وهيبة، وتعظيماً وعبادة. وبالجملة فلا يكون في قلبه شيء لغير الله، ولا إرادة لما حرم الله، ولا كراهة لما أمر الله، وذلك هو حقيقة لا إله إلا الله فإن الإله هو المألوه المعبود.

وما أحسن ما قال ابن القيم:

فلواحد[١] كن واحداً[٢] في واحد   أعني سبيل الحق والإيمان[٣]

وذلك هو حقيقة الشهادتين، فمن قام بهما على هذا الوجه فهو من السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب.

قوله: «وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾» (النحل: ١٢٠). مناسبة الآية للترجمة من جهة أن الله تعالى وصف

---

(١) وهو الله سبحانه وتعالى.

(٢) أي مجتمعاً غير مشتَّت القلب، فيك لله وفيك لغيره.

(٣) فسره بسبيل الحق والإيمان.

إبراهيم عليه السلام في هذه الآية بهذه الصفات الجليلة التي هي أعلى درجات تحقيق التوحيد، ترغيباً في اتباعه في التوحيد، وتحقيق العبودية باتباع الأوامر، وترك النواهي، فمن اتبعه في ذلك فإنه يدخل الجنة بغير حساب ولا عذاب كما يدخلها إبراهيم -عليه السلام-.

الأولى: أنه كان أمة، أي قدوة وإماماً معلماً للخير، وإماماً يقتدى به.

روي معناه عن ابن مسعود. وما كان كذلك إلا لتكميله مقام الصبر واليقين اللذين بهما تُنال الإمامة في الدين. كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾[1].

الثانية: أنه كان قانتاً لله، أي خاشعاً مطيعاً، دائماً على عبادته وطاعته كما قال شيخ الإسلام: القنوت في اللغة: دوام الطاعة. والمصلي إذا طال قيامه أو ركوعه أو سجوده فهو قانت في ذلك كله. قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ (الزمر: ٩). فجعله قانتاً في حال السجود والقيام. انتهى.

فوصفه في هاتين الصفتين بتحقيق العبودية في نفسه أولاً علماً وعملاً، وثانياً: دعوة وتعليماً واقتداءً به، وما كان يقتدى به إلا لعمله به في نفسه، ووصفه في الثانية بالاستقامة على ذلك كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ (فصلت: ٣٣). فتضمنت العلم والعمل

---

(١) الصواب الاستشهاد بآية السجدة وهي: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ وليست آية الأنبياء، لأن آية السجدة تفيد أن الإمامة في الدين تحصل بهذين الأمرين الصبر واليقين. فالصبر في الطاعة والعمل واليقين في العلم والصدق فيكون العمل والطاعة عن علم وبصيرة ويقين وصدق بخلاف آية الأنبياء فإنها تفيد أن إسحاق ويعقوب صارا إمامين بالصبر واليقين.

والاستقامة والدعوة.

الثالثة: أنه كان حنيفاً؛ والحنف الميل، أي مائلاً منحرفاً قصداً عن الشرك كما قال تعالى حكاية عنه: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ (الأنعام: ٧٩)، وقال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (الروم: ٣٠).

الرابعة: أنه ما كان من المشركين، أي: هو موحد خالص من شوائب الشرك مطلقاً، فنُفِيَ عنه الشرك على أبلغ وجوه النفي، بحيث لا ينسب إليه شرك وإن قلَّ، تكذيباً لكفار قريش في زعمهم أنهم على ملة إبراهيم -عليه السلام-. وقال المصنف في الكلام على هذه الآية: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ لئلا يستوحش سالك الطريق من قلة السالكين، ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ لا للملوك ولا للتجار المترفين، ﴿حَنِيفًا﴾ لا يميل يميناً ولا شمالاً، كفعل العلماء المفتونين، ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ خلافاً لمن كثر سوادهم وزعم أنه من المسلمين.

قلت: وهو من أحسن ما قيل في تفسير هذه الآية، لكنه ينبه بالأدنى على الأعلى، وقوله: لئلا يستوحش، تنبيه على بعض معنى الآية، وهو المنفرد وحده في الخير، وقد روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ كان على الإسلام، ولم يكن في زمانه من قومه أحد على الإسلام غيره، فلذلك قال الله ﴿كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ ولا تنافي بينه وبين كلام ابن مسعود المتقدم.

قوله: «وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾ (المؤمنون: ٥٩)» مناسبة الآية للترجمة من جهة أن الله تعالى وصف المؤمنين السابقين إلى الجنات بصفات، أعظمها الثناء عليهم بأنهم بربهم لا يشركون، أي: شيئاً من الشرك في وقت من

الأوقات، فإن الإيمان النافع مطلقاً لا يوجد إلا بترك الشرك مطلقاً، ولما كان المؤمن قد يعرض له ما يقدح في إيمانه من شرك جلي أو خفي، نفى عنهم ذلك، ومن كان كذلك فقد بلغ من تحقيق التوحيد النهاية، وفاز بأعظم التجارة، ودخل الجنة بلا حساب ولا عذاب.

قال ابن كثير: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩﴾، أي: لا يعبدون معه غيره، بل يوحدونه ويعلمون أنه لا إله إلا الله أحد صمد، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، وأنه لا نظير له.



قال: عَن حُصَينِ بنِ عَبدِالرَّحمنِ قَالَ: «كنتُ عِندَ سَعِيدِ بنِ جُبَيرٍ فقَالَ: أَيُّكُمُ رَأَى الكَوكَبَ الَّذِي انقَضَّ البَارِحَةَ؟ فَقُلتُ: أَنَا، ثم قُلتُ: أَمَا إِنِّي لَمْ أَكُن في صَلاَةٍ، وَلكِنِّي لُدِغتُ، قَالَ: فَمَا صَنَعتَ؟ قُلتُ: ارتَقَيتُ. قَالَ: فَمَا حَمَلكَ عَلَى ذَلِكَ؟ قُلتُ: حَدِيثٌ حَدَّثَنَاهُ الشّعْبيّ، قَالَ: وَمَا حَدَّثَكُم الشَّعبي؟ قُلتُ: حَدَّثَنَا عَن بُرَيدَةَ ابنِ الحُصَيْبِ؛ أَنَّهُ قَالَ: لاَ رُقيَةَ إلاَّ مِن عَينٍ أَو حُمَةٍ». فَقَالَ: قَد أَحسَنَ مَنْ انتَهَى إِلى مَا سَمِعَ.

وَلَكِن حَدَّثَنَا ابنُ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ، فَرَأَيتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهطُ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلاَنِ، وَالنَّبِيَّ وَلَيسَ مَعَهُ أَحَدٌ؛ إِذ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَظَنَنتُ أَنَّهُم أُمَّتِي فَقِيلَ لِي: هَذَا مُوسَى وَقَومُهُ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: هَذِه أُمَّتُكَ، وَمَعَهُم سَبْعُونَ أَلفاً يَدخُلُونَ الجَنَّةَ بِغَيرِ حِسَابٍ وَلاَ عَذَابٍ». ثُمَّ نَهَضَ فَدَخَلَ مَنزِلَهُ. فَخَاضَ النَّاسُ في أُولَئِكَ، فَقَالَ بَعضُهُم: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ صَحِبوا رَسولَ الله ﷺ. وقَالَ بَعضُهُم: فَلَعَلَّهُم الذين وُلِدُوا في الإِسلاَمِ، فَلَم يُشرِكُوا بِالله شَيئاً، وذَكَروا أَشياءَ، فَخَرَجَ عَلَيهِم رَسُولُ الله ﷺ فَأَخبَرُوهُ، فَقَالَ: «هُمُ الَّذِينَ لاَ يَسْتَرْقُونَ وَلاَ يَكتَوونَ، وَلاَ يَتَطَيَّرُون، وَعَلَى رَبِّهِم يَتَوَكَّلُونَ».

فَقَامَ عُكّاشَةُ بنُ مِحْصَنٍ. فَقَالَ: يا رسول الله ادعُ اللهَ أَن يَجْعَلَنِي مِنهُم. قَالَ: «أَنتَ مِنهُم»، ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرُ، فَقَالَ: ادعُ اللهَ أَن يَجعَلَنِي مِنهُم. فَقَالَ: «سَبَقَكَ بِهَا عُكّاشَةُ».

هكذا أورد المصنف هذا الحديث غير معزو، وقد رواه البخاري مختصراً

ومطولاً ومسلم واللفظ له، والترمذي والنسائي.**قوله: «عن حصين بن عبدالرحمن»**: هو السلمي أبو الهذيل الكوفي، ثقة، تغير حفظه في الآخر؛ مات سنة ست وثلاثين ومئة، وله ثلاث وتسعون سنة.

وسعيد بن جبير هو الإمام الفقيه من جِلّة أصحاب ابن عباس، روايته عن عائشة، وأبي موسى مرسلة، وهو كوفي مولى لبني أسد، قتل بين يدي الحجاج سنة خمس وتسعين، ولم يكمِّل الخمسين.

قوله: «انقض»: هو بالقاف والضاد المعجمة، أي سقط والبارحة هي أقرب ليلة مضت. قال أبو العباس ثعلب: يقال قبل الزوال: رأيت الليلة، وبعد الزوال رأيت البارحة[١]. وهكذا قال غيره. وهي مشتقة من برح إذا زال.

قوله: «أما إني لم أكن في صلاة»: القائل هو حصين، خاف أن يظن الحاضرون أنه ما رأى النجم إلا لأنه يصلي، فأراد أن ينفي عن نفسه إيهام العبادة وأنه يصلي مع أنه لم يكن فعل ذلك، وهذا يدل على فضل السلف الصالح وحرصهم على الإخلاص، وشدة ابتعادهم عن الرياء بخلاف من يقول: فعلتُ وفعلتُ ليوهم الأغمار أنه من الأولياء، وربما علق السِبْحة في عنقه، أو أخذها في يده يمشي بها بين الناس إعلاماً للناس أنه يسبح عدد ما فيها من الخرز. وقد قال الإمام محمد بن وضاح: حدثنا أسد، عن جرير بن حازم، عن الصلت بن بهرام قال: مرّ ابن مسعود بامرأة[٢] تسبح به فقطعه وألقاها؛ ثم مرّ برجل يسبح بحصى فضربه برجله ثم قال: لقد جئتم ببدعة ظَلْماً، أو: لقد غلبتم أصحاب محمد ﷺ؟!

---

(١) وقد يقال البارحة قبل الزوال وهو قليل كما في الحديث الصحيح: عَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدَبٍ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا صَلَّى الصُّبْحَ أَقْبَلَ عَلَيْهِمْ بِوَجْهِهِ فَقَالَ: «**هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمُ الْبَارِحَةَ رُؤْيَا؟**»، **قُلْنَا: لاَ، قَالَ: «لَكِنِّي رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ أَتَيَانِي فَأَخَذَا بِيَدِي، ...»** الحديث في البخاري في كتاب التعبير، ومسلم كتاب الرؤيا.

(٢) معها تسبيح.

قوله: «**ولكني لدغت**» هو بضم أوله وكسر ثانيه مبني لما يسمّ فاعله، أي لدغته عقرب أو نحوها.

قوله: «**قلت ارتقيت**» لفظ مسلم: «**استرقيت**» أي طلبت من يرقيني.

قوله: «**فما حمله على ذلك؟**» فيه طلب الحجة على صحة المذهب.

قوله: «**حديث حدثناه الشعبي**» أي حملني عليه حديث حدثناه الشعبي، واسمه عامر بن شرحبيل[1] الهمْداني[2] -بسكون الميم- الشعبي. ولد في خلافة عمر وهو من ثقات التابعين وحفاظهم وفقائهم، مات سنة ثلاث ومئة.

قوله: «**عن بريدة**» -بضم أوله وفتح ثانيه- تصغير بردة بن الحصيب -بضم الحاء وفتح الصاد المهملتين- ابن عبدالله بن الحارث الأسلمي، صحابي شهير، مات سنة ثلاث وستين. قاله ابن سعد.

قوله: «**لا رقية إلا من عين أو حمة**» هكذا روي هنا موقوفاً، وقد رواه أحمد، وابن ماجه عنه مرفوعاً، ورواه أحمد، وأبوداود والترمذي عن عمران بن حصين به مرفوعاً. قال الهيثمي: رجال أحمد ثقات. والعين هي إصابة العائن غيره بعينه، والحمة -بضم المهملة وتخفيف الميم- سم العقرب وشبهها.

قال الخطابي: ومعنى الحديث لا رقية أشفى أو أولى من رقية العين والحمة[3]، وقد رقى النبي ﷺ ورقي.

قلت: وسيأتي ما يتعلق بالرقى إن شاء الله تعالى.

---

(١) الصواب: ابن شراحيل.

(٢) والهمداني بالدال قبيلة بطن من قحطان، والهمذاني بالذال وفتح الميم، نسبة إلى همذان بلد في خراسان.

(٣) فالحصر هنا خاص أي لا رقية أولى وأشفى من رقية العين والحمة وإن كانت الرقية في غيرها جائز - كما رقى النبي ﷺ ورُقي ولكن لها شروط ثلاثة:

أحدها: أن تكون بلسان عربي، **والثاني:** أن لا يكون في ذلك محذور بأن يكون جائز شرعاً، **والثالث:** أن يعتقد أنها سبب والشفاء بيد الله لا بتأثير الرقية بذاتها.

قوله: «قد أحسن من انتهى إلى ما سمع»: أي من أخذ بما بلغه من العلم وعمل به فقد أحسن؛ لأنه أدى ما وجب، وعمل بما بلغه من العلم، بخلاف من يعمل بجهل أو لا يعمل بما يعلم فإنه مسيء آثم. وفيه فضيلة علم السلف وحسن أدبهم وهديهم وتلطفهم في تبليغ العلم، وإرشادهم من أخذ بشيء إن كان مشروعاً إلى ما هو أفضل منه، وأن من عمل بما بلغه عن الله وعن رسوله فقد أحسن، ولا يتوقف العمل به على معرفة كلام أهل المذاهب[1] أو غيرهم.

قوله: «ولكن حدثنا ابن عباس»: هو عبدالله بن عباس بن عبدالمطلب الهاشمي، ابن عم النبي ﷺ، دعا له النبي ﷺ فقال: «**اللهم فقه في الدين وعلمه التأويل**»[2] فكان كذلك. قال عمر: لو أدرك ابن عباس أسناننا ما عشره منا أحد، أي ما بلغ عشره في العلم، مات بالطائف سنة ثمان وستين.

قال المصنف: فيه عمق علم السلف، لقوله: «قد أحسن من انتهى إلى ما سمع، ولكن كذا وكذا» فعُلم أن الحديث الأول[3] لا يخالف الثاني[4].

قوله: «عرضت عليَّ الأمم»، وفي رواية الترمذي والنسائي من رواية عبثر بن القاسم، عن حصين بن عبدالرحمن أن ذلك كان ليلة الإسراء، ولفظه: «**لما أسري بالنبي ﷺ جعل يمر بالنبي ومعه الواحد**».

قال الحافظ: فإن كان ذلك محفوظاً كانت فيه قوة لمن ذهب إلى تعدد الإسراء، وأنه وقع بالمدينة أيضاً غير الذي وقع بمكة، كذا قال وليس بظاهر، بل قد يكون رأى ذلك ليلة الإسراء ولم يحدِّث به إلا في المدينة، وليس في الحديث ما يدل على أنه

---

(١) لكن ينبغي أن يحتاط لئلا يخالف إجماعاً أو يعمل بمنسوخ أو بضعيف قد عمل العلماء بخلافه.

(٢) أي التفسير.

(٣) حديث بريدة.

(٤) حديث ابن عباس، فالرقية جائزة كما يفيده الحديث الأول، ولكن تركها أولى كما يفيده الحديث الثاني.

حدث به قريباً من العرض عليه[١].

قوله: «فرأيت النبي ومعه الرهط[٢]»: هو الجماعة دون العشرة، قاله النووي.

قوله: «والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد»: فيه أن الأنبياء متفاوتون في عدد أتباعهم، وأن بعضهم لا يتبعه أحد[٣]، وفيه الرد على من احتج بالأكثر وزعم أن الحق محصور فيهم، وليس كذلك، بل الواجب اتباع الكتاب والسنة مع من كان وأين كان[٤].

قوله: «إذ رُفع لي سواد عظيم»: السواد ضد البياض، والمراد هنا الشخص الذي يُرى من بعيد، أي رُفع لي أشخاص كثيرة.

قوله: «فظننت أنـهم أمتي»: استشكل الإسماعيلي كونه ﷺ لم يعرف أمته حتى ظن أنهم أمة موسى -عليه السلام-؛ وقد ثبت حديث أبي هريرة: كيف تعرف من لم تر من أمتك؟ فقال: **«إنـهم غُرٌّ محجلون من أثر الوضوء»**.

وأجاب بأن الأشخاص التي رآها في الأفق لا يدرك منها إلا الكثرة من غير تمييز لأعيانهم. وأما ما في حديث أبي هريرة فمحمول على ما إذا قربوا منه[٥]؛ ذكره الحافظ قوله: فقيل لي: هذا موسى وقومه، أي: موسى بن عمران، كليم الرحمن، وقومه: الذين اتبعوه، وفيه فضيلة موسى وقومه.

قوله: «فنظرت فإذا سواد عظيم» لفظ مسلم بعد قوله: «هذا موسى وقومه، ولكن انظر إلى الأفق فنظرت، فإذا سواد عظيم، فقيل لي: انظر إلى الأفق الآخر، فنظرت فإذا سواد عظيم، فقيل لي هذه أمتك».

---

(١) وهذا هو الصواب أن الإسراء مرة واحدة لم يتعدد، والقول بأنه متعدد قول ضعفاء الحديث.

(٢) في رواية الرهيط بالتقليل أي ثلاثة أو أربعة أو خمسة.

(٣) بل دلّ القرآن على أن بعضهم قتلوا فهم لم يتبعهم أحد ولم يسلموا من شرِّهم.

(٤) وأن المسلم لا يستوحش من قلة من معه على الحق.

(٥) وهذا جيِّد.

قوله: «ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب» أي: لتحقيقهم التوحيد. قال الحافظ: المراد بالمعية المعنوية، فإن السبعين ألفاً المذكورين من جملة أمته، لكن لم يكونوا في الذين عرضوا إذ ذاك، فأريد الزيادة في تكثير أمته بإضافة السبعين ألفاً إليهم.

قلت: وما قاله ليس بظاهر، فإن في رواية ابن فضيل: «**ويدخل الجنة من هؤلاء من أمتك سبعون ألفاً**»، وقد ورد في حديث أبي هريرة في «الصحيحين» وصف السبعين ألفاً بأنهم تضيء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر. وفيهما عنه مرفوعاً: «**أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر، والذين على آثارهم كأحسن كوكب دري في السماء إضاءة**»، وجاء في أحاديث أخر أن مع السبعين ألفاً زيادة عليهم، فروى أحمد والبيهقي في البعث من حديث أبي هريرة في السبعين ألفاً، فذكره وزاد قال: «**فاستزدت ربي فزادني مع كل ألف سبعين ألفاً**»، قال الحافظ: وسنده جيد.

وفي الباب عن أبي أيوب عند الطبراني، وعن حذيفة عند أحمد، وعن أنس عند البزار، وعن ثوبان عند ابن أبي عاصم قال: فهذه طرق يقوي بعضها بعضاً. قال: وجاء في أحاديث أخر أكثر من ذلك، فأخرج الترمذي وحسنه، والطبراني وابن حبان في «صحيحه» من حديث أبي أمامة رفعه: «**وعدني ربي أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفاً مع كل ألف سبعون ألفاً لا حساب عليهم ولا عذاب، وثلاث حثيات من حثيات ربي**» وروى أحمد وأبو يعلى من حديث أبي بكر الصديق -رضي الله عنه- قال: قال رسول ﷺ: «**أعطيتُ سبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب، وجوههم كالقمر ليلة البدر، قلوبهم على قلب رجل واحد**[1]، **فاستزدت ربي عز**

---

(١) وقد ورد أن أهل الجنة على قلب رجل واحد في الصفاء وعدم الغل والحقد وعلى خلق رجل واحد، لكن هؤلاء السبعين لهم مزية على غيرهم.

وجل فزادني مع كل واحد سبعين ألفاً».

قال الحافظ: وفيه سنده راويان، أحدهما ضعيف الحفظ، والآخر لم يسم.

قلت: وفيه أن كل أمة تحشر مع نبيها.

قوله: «**ثم نـهض**». أي قام.

قوله: «**فخاض الناس في أولئك**». قال النووي: هو بالخاء والضاد المعجمتين، أي تكلموا وتناظروا. قال: وفي هذا إباحة المناظرة في العلم والمباحثة في نصوص الشرع على جهة الاستفادة وإظهار الحق[1]، وفيه عمق علم السلف لمعرفتهم أنهم لم ينالوا ذلك إلا بعمل، وفيه حرصهم، على الخير؛ ذكره المصنف.

قوله: «**فقال هم الذين لا يسترقون**». هكذا ثبت في «الصحيحين»، وفي رواية مسلم التي ساقها المصنف هنا زيادة: «**ولا يرقون**» وكأن المصنف اختصرها كغيرها لما قيل إنها معلولة. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: هذه الزيادة وهم من الراوي، لم يقل النبي ﷺ: «**لا يرقون**»؛ لأن الراقي محسن إلى أخيه. وقد قال ﷺ وقد سئل عن الرقى قال: «من **استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعله**»، وقال: «**لا بأس بالرقى ما لم تكن شركاً**» قال: وأيضاً فقد رقى جبريل النبي ﷺ، ورقى النبي ﷺأصحابه. قال: والفرق بين الراقي والمسترقي أن المسترقي سائل مستعط ملتفتٌ إلى غير الله بقلبه، والراقي محسن. قال: وإنما المراد وصف السبعين ألفاً بتمام التوكل فلا يسألون غيرهم أن يرقيَهم ولا يكويَهم ولا يتطيرون. وكذا قال ابن القيم؛ ولكن اعترضه بعضهم بأن قال: تغليط الراوي مع إمكان تصحيح الزيادة لا يصار إليه، والمعنى الذي حمله على التغليط موجود في الراقي؛ لأنه اعتل بأن الذي لا يطلب من غيره أن يرقيه تام التوكل؛ فكذا يقال: والذي يفعل بغيره ذلك ينبغي أن

---

(١) لا على جهة المراءاة وإظهار فضله على غيره فإن هذا سبب في ظلمة القلوب وقسوتها وضياع الفائدة.

لا يُمكِّنه منه لأجل تمام التوكل، وليس في وقوع ذلك من جبريل -عليه السلام- دلالةٌ على المدَّعى ولا في فعل النبي ﷺ له أيضاً دلالة لأنه في مقام التشريع، وتبيين الأحكام كذا قال هذا القائل وهو خطأ من وجوه:

الأول: أن هذه الزيادة لا يمكن تصحيحها إلا بحملها على وجوه لا يصح حملها عليها كقول بعضهم: المراد لا يرقون بها كان شركاً أو احتمله فإنه ليس في الحديث ما يدل على هذا أصلاً، وأيضاً فعلى هذا لا يكون للسبعين مزية على غيره؛ فإن جملة المؤمنين لا يرقون بها كان شركاً.

الثاني: قوله: فكذا يقال إلخ لا يصح هذا القياس؛ فإنه من أفسد القياس وكيف يقاس من سأل وطلب على من لم يسأل؟! مع أنه قياس مع وجود الفارق الشرعي، فهو فاسد الاعتبار؛ لأنه تسوية بين ما فرق الشارع بينهما بقوله: «**من اكتوى أو استرقى فقد برئ من التوكل**» رواه أحمد والترمذي وصححه، وابن ماجه، وصححه ابن حبان، والحاكم أيضاً، وكيف يجعل ترك الإحسان إلى الخلق سبباً للسبق إلى الجنان وهذا بخلاف من رَقىَ أو رُقِي من غير سؤال، فقد رقى جبريل النبي ﷺ. ولا يجوز أن يقال: إنه -عليه السلام- لم يكن متوكلاً في تلك الحال.

الثالث: قوله: ليس في وقوع ذلك من جبريل -عليه السلام- إلخ كلامه غير صحيح بل هما سيدا المتوكلين، فإذا وقع ذلك منهما دل على أنه لا ينافي التوكل فاعلم ذلك.

قوله: «**ولا يكتوون**» أي لا يسألون غيرهم أن يكويَهم، كما لا يسألون غيرهم أن يرقيَهم استسلاماً للقضاء وتلذذاً بالبلاء. أما الكي في نفسه فجائز كما في «الصحيح» عن جابر بن عبدالله أن النبي ﷺ، بعث إلى أبي بن كعب طبيباً، فقطع له عرقاً وكواه، وفي «صحيح البخاري» عن أنس أنه كوى من ذات الجنب والنبي

ﷺ حي. وروى الترمذي وغيره عن أنس: أن النبي ﷺ كوى أسعد بن زرارة من الشوكة[١]، وفي «صحيح البخاري» عن ابن عباس مرفوعاً: «**الشفاء في ثلاث: شربة عسل، وشرطة مِحْجم، وكيَّة نار وأنا أنـهى عن الكي**»، وفي لفظ: «**وما أحبُّ أن أكتوي**».

قال ابن القيم: فقد تضمنت أحاديث الكي أربعة أنواع:

أحدها: فعله، **والثاني**: عدم محبته له، **والثالث**: الثناء على من تركه، **والرابع**: النهي عنه.

ولا تعارض بينهما بحمد الله، فإن فعله له يدل على جوازه؛ وعدم محبته له لا يدل على المنع منه، وأما الثناء على تاركيه فيدل على أن تركه أولى وأفضل، وأما النهي عنه فعلى سبيل الاختيار والكراهية[٢].

قـولـه: «**ولا يتطيرون**» أي لا يتشاءمون بالطيور ونحوها، وسيأتي بيان الطيرة وما يتعلق بها في بابها إن شاء الله تعالى.

قـولـه: «**وعلى ربـهم يتوكلون**»[٣]: ذكر الأصل الجامع الذي تفرعت عنه هذه الأفعال وهو التوكل على الله، وصدق الالتجاء إليه، والاعتماد بالقلب عليه، الذي هو خلاصة التفريد، ونهاية تحقيق التوحيد الذي يثمر كل مقام شريف من المحبة والخوف والرجاء، والرضى به رباً وإلهاً، والرضى بقضائه. بل ربما أوصل

---

(١) مرض.

(٢) وما قاله ابن القيم جيِّد.

(٣) التوكل يشمل أمرين **أحدهما**: الاعتماد بالقلب على الله، **والثاني**: فعل الأسباب ومباشرتها.
والأسباب أنواع: واجبة كفعل الأوامر وترك النواهي الذي يكون به دخول الجنة والنجاة من النار فهذا سبب واجب وهو فعل الفرائض وترك المحارم، **والثاني**: سبب مستحب كفعل النوافل، **والثالث**: مباح كطلب الرزق بالحراثات والصناعات فهذا جنسه مباح وقد يكون واجباً، **والرابع**: سبب محرم كالكسب المحرم من الخمر وآلات الملاهي.

العبد إلى التلذذ بالبلاء، وعده من النعماء فسبحان من يتفضل على من يشاء بما يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

واعلم أن الحديث لا يدل على أنهم لا يباشرون الأسباب أصلاً كما يظنه الجهلة، فإن مباشرة الأسباب في الجملة أمر فطري ضروري لا انفكاك لأحد عنه حتى الحيوان البهيم، بل نفس التوكل مباشرة لأعظم الأسباب كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ (الطلاق: ٣). أي كافيه إنما المراد أنهم يتركون الأمور المكروهة مع حاجتهم إليها توكلاً على الله كالاسترقاء[(١)]، والاكتواء فتركهم له ليس لكونه سبباً لكن لكونه سبباً مكروهاً، لا سيما والمريض يتشبث بما يظنه سبباً لشفائه بخيط العنكبوت. أما نفس مباشرة الأسباب، والتداوي على وجه لا كراهية فيه، فغير قادح في التوكل؛ فلا يكون تركه مشروعاً كما في «الصحيحين» عن أبي هريرة مرفوعاً: «**ما أنزل الله من داء إلا أنزل له شفاء**»، وعن أسامة بن شريك قال: كنت عند النبي ﷺ وجاءت الأعراب، فقالوا يا رسول الله أنتداوى؟ فقال: «**نعم يا عباد الله تداووا، فإن الله عز وجل لم يضع داءً إلا وضع له شفاء، غير داء واحد**» قالوا: ما هو؟ قال: «**الـهرم**» [رواه أحمد].

قال ابن القيم: فقد تضمنت هذه الأحاديث إثبات الأسباب والمسبَّبات، وإبطال قول من أنكرها والأمر بالتداوي؛ وأنه لا ينافي التوكل كما لا ينافيه دفع داء الجوع والعطش والحر والبرد بأضدادها. بل لا تتم حقيقة التوحيد إلا بمباشرة الأسباب التي نصبها الله مقتضيات لمسبَّباتها قدراً وشرعاً، وأن تعطيلها يقدح في نفس التوكل، كما لا يقدح في الأمر والحكمة، ويضعفه من حيث يظن معطلها أن تركها أقوى في التوكل، فإن تركها عجز ينافي التوكل الذي حقيقته اعتماد القلب على الله في حصول ما ينفع العبد في دينه ودنياه، ودفع ما يضره في دينه ودنياه، ولا

---

(١) وهو طلب النفث خاصة، أما التداوي بغير الرقية والنفث فلا يدخل في ذلك.

بد مع هذا الاعتماد من مباشرة الأسباب وإلا كان معطلاً للأمر والحكمة والشرع، فلا يجعل العبد عجزه[١] توكلاً ولا توكله عجزاً. وقد اختلف العلماء في التداوي[٢] هل هو مباح وتركه أفضل، أو مستحب أو واجب؟ فالمشهور[٣] عن أحمد الأول لهذا الحديث وما في معناه، ولكن على ما تقدم لا يتم الاستدلال به على ذلك؛ والمشهور عند الشافعي الثاني أنه مستحب، حتى ذكر النووي في «شرح مسلم» أنه مذهبهم ومذهب جمهور السلف وعامة الخلف. واختاره الوزير أبو المظفر[٤] قال: ومذهب أبي حنيفة أنه مؤكد حتى يداني به الوجوب قال: ومذهب مالك أنه يستوي فعله وتركه[٥] فإنه قال: لا بأس بالتداوي ولا بأس بتركه. وقال شيخ الإسلام: ليس بواجب عند جماهير الأئمة وإنما أوجبه طائفة قليلة من أصحاب الشافعي وأحمد[٦].

قوله: «فقام إليه عكاشة بن محصن» بضم العين وتشديد الكاف ويجوز تخفيفها ومحصن بكسر الميم وسكون الحاء وفتح الصاد المهملتين -ابن حرثان- بضم المهملة وسكون الراء وبعدها مثلثة - الأسدي من بني أسد بن خزيمة ومنه خلفاء بني أمية، كان من السابقين إلى الإسلام، ومن أجمل الرجال، هاجر وشهد بدراً وقاتل فيها. قال ابن إسحاق: وبلغني أن النبي ﷺ قال: **«خير فارس في العرب**

---

(١) أي تركه للأسباب.

(٢) على أربعة أقوال: **أحدها:** أنه مباح وتركه مباح، **والثاني:** مباح وتركه أفضل، **والثالث:** أنه مستحب، **والرابع:** أنه متأكد حتى يدانى به الواجب، والثالث قول الجمهور.

(٣) ركونه إلى الأسباب وعجزه عن حصول مطلوبه بجعل ذلك توكلاً.

(٤) ابن هبيرة، وهو حنبلي.

(٥) فهو مباح، وتركه مباح فتكون المذاهب في التداوي أربعة.

(٦) ولهذا الإيجاب وجه فيما إذا احتفت به قرينة كما إذا كان في تداويه نفع له وسلامة لغيره من أذاه أو في تداويه وسلامته نفع للناس أو يعلم في تداويه سلاماً من الهلاك كحسم العضو المقطوع.

عكاشة» ومناقبه مشهورة، اسشهد في قتال أهل الردة مع خالد بن الوليد بيدي طليحة الأسدي سنة اثنتي عشرة ثم أسلم طليحة بعد ذلك[١].

قوله: «**قال ادع الله أن يجعلني منهم**» فقال: «**أنت منهم**». في رواية البخاري: فقال «**اللهم اجعله منهم**»، وكذلك في حديث أبي هريرة عند البخاري مثله. وفي بعض الروايات: أمنهم أنا يا رسول الله؟ قال: «**نعم**»، قال الحافظ: ويجمع بأنه سأل الدعاء أولاً، فدعا له ثم استفهم هل أُجيب؟ فأخبره. وفيه طلب الدعاء من الفاضل.

قولـه: «**ثم قام إليه رجل آخر**» لم نقف على تسميته إلا في طريق واهية ذكرها الخطيب في «المبهمات» من رواية أبي حذيفة إسحاق بن بشر أحد الضعفاء من طريقين له عن مجاهد أن رسول الله ﷺ لما انصرف من غزاة بني المصطلق، فساق قصة طويلة فيها ذلك.

قال الحافظ: وهذا مع ضعفه وإرساله يستبعد من جهة جلالة سعد بن عبادة فإن كان محفوظاً فلعله آخر باسم سيد الخزرج واسم أبيه، فإن في الصحابة كذلك آخر له في «مسند بقي بن مخلد» وفي الصحابة سعد بن عمارة فلعل اسم أبيه تحرّف.

قوله: «**سبقك بـها عكاشة**»[٢]. قال ابن بطال: معنى قوله سبقك. أي إلى إحراز هذه الصفات، وهي التوكل وعدم التطير وما ذكر معه، وعدل عن قوله: لست منهم أو لست على أخلاقهم تلطفاً بأصحابه، وحسن أدبه معهم. وقال القرطبي: لم يكن عند الثاني من الأحوال ما كان عند عكاشة، فلذلك لم يجب إذ لو أجابه لجاز أن يطلب ذلك كل من كان حاضراً فيتسلسل الأمر، فسد الباب بقوله

---

(١) فصدق في طليحة قوله -عليه السلام-: «**يضحك الله لرجلين يقتل أحدهما الآخر كلاهما يدخل الجنة**».

(٢) والأولى في معنى سبقك أي بهذه الطِلبة في هذا المقام.

ذلك، وهذا أولى من قول من قال كان منافقاً لوجهين؛ **أحدهما**: أن الأصل في الصحابة عدم النفاق فلا يثبت ما يخالف ذلك إلا بنقل صحيح، **والثاني**: أنه قَلَّ أن يصدر مثل هذا السؤال إلا عن قصد صحيح ويقين بتصديق الرسول ﷺ، وكيف يصدر ذلك من منافق.

قلت: هذا أولى ما قيل في تأويله، وإليه مال شيخ الإسلام.

قال المصنف: وفيه استعمال المعاريض وحسن خلقه ﷺ.



باب
الخوف من الشرك

وَقَولُ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦]

الشَّرْحُ:

لما كان الشرك أعظم ذنب عُصي الله به، ولهذا رتب عليه من عقوبات الدنيا والآخرة ما لم يرتبه على ذنب سواه من إباحة دماء أهله وأموالهم وسبي نسائهم وأولادهم، وعدم مغفرته من بين الذنوب إلا بالتوبة منه، نبه المصنف بهذه الترجمة على أنه ينبغي للمؤمن أن يخاف منه ويحذره ويعرف أسبابه ومبادئه وأنواعه لئلا يقع فيه، ولهذا قال حذيفة: «كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشرِّ مخافة أن أقع فيه». [رواه البخاري]، وذلك أن من لم يعرف إلا الخير قد يأتيه الشر ولا يعرف أنه شر فإما أن يقع فيه، وإما أن لا ينكره كما ينكره الذي عرفه، ولهذا قال عمر بن الخطاب: إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة، إذا نشأ في الإسلام من لم يعرف الجاهلية.

قال شيخ الإسلام: وهو كما قال عمر فإن كمال الإسلام هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتمام ذلك بالجهاد في سبيل الله، ومن نشأ في المعروف فلم يعرف غيره فقد لا يكون عنده من العلم بالمنكر وضرره ما عند من علمه، ولا يكون عنده من الجهاد لأهله ما عند الخبير بهم؛ ولهذا يوجد [في] الخبير بالشر وأسبابه إذا كان حسن القصد عنده من الاحتراز عنه والجهاد لهم ما ليس عند غيره.

ولهذا كان الصحابة أعظم إيماناً وجهاداً ممن بعدهم لكمال معرفتهم بالخير والشر، وكمال محبتهم للخير وبغضهم للشر لما علموه من حسن حال الإيمان

والعمل الصالح، وقبح حال الكفر والمعاصي[١].

قال: «وقول الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾» (النساء: ٤٨). قال ابن كثير: أخبر تعالى أنه لا يغفر أن يشرك به، أي لا يغفر لعبد لقيه وهو مشرك به، ويغفر ما دون ذلك. أي من الذنوب لمن يشاء من عباده.

قلت: فتبين بهذا أن الشرك أعظم الذنوب؛ لأن الله تعالى أخبر أنه لا يغفره أي إلا بالتوبة منه، وما عداه فهو داخل تحت مشيئة الله إن شاء غفره بلا توبة وإن شاء عذب به. وهذا يوجب للعبد شدة الخوف من هذا الذنب الذي هذا شأنه عند الله، وإنما كان كذلك لأنه أقبح القبح وأظلم الظلم إذ مضمونه تنقيص رب العالمين، وصرف خالص حقه لغيره، وعدل غيره به كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ١﴾ (الأنعام: ١) ولأنه مناقض للمقصود بالخلق والأمر منافٍ له من كل وجه، وذلك غاية المعاندة لرب العالمين، والاستكبار عن طاعته والذل له، والانقياد لأوامره الذي لا صلاح للعالم إلا بذلك. فمتى خلا منه خرب وقامت القيامة، كما قال ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض الله الله**»[٢] [رواه مسلم]. ولأن الشرك تشبيه للمخلوق بالخالق تعالى وتقدس في خصائص الإلهية من ملك الضر والنفع، والعطاء والمنع الذي يوجب تعلق الدعاء والخوف والرجاء والتوكل وأنواع العبادة كلها بالله وحده. فمن علق ذلك بمخلوق فقد شبهه بالخالق، وجعل من لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً فضلاً عن غيره شبيهاً بمن له الخلق كله، وله الملك كله وبيده الخير كله، وإليه يرجع الأمر كله. فأزمة الأمور كلها بيديه سبحانه، ومرجعها إليه فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، الذي إذا فتح للناس رحمة فلا

---

(١) ولهذا يجب على الإنسان أن يتعلم الخير والشر.

(٢) أي الله أكبر فلا يعرفون الله، وفي رواية «**لا يقولون لا إله إلا الله**».

ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم، فأقبح التشبيه تشبيه العاجز الفقير بالذات بالقادر الغني بالذات، ومن خصائص الإلهية الكمال المطلق من جميع الوجوه الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه، وذلك يوجب أن تكون العبادة كلها له وحده والتعظيم والإجلال والخشية والدعاء والرجاء والإنابة والتوكل والتوبة والاستعانة وغاية الحب مع غاية الذل كل ذلك يجب عقلاً وشرعاً وفطرة أن يكون لله وحده، ويمتنع عقلاً وشرعاً وفطرة أن يكون لغيره، فمن فعل شيئاً من ذلك لغيره فقد شبه ذلك الغير بمن لا شبيه له ولا مثل له ولا ندّ له، وذلك أقبح التشبيه وأبطله، فلهذه الأمور وغيرها أخبر سبحانه أنه لا يغفره مع أنه كتب على نفسه الرحمة، هذا معنى كلام ابن القيم.

وفي الآية رد على الخوارج المكفرين بالذنوب، وعلى المعتزلة القائلين بأن أصحاب الكبائر يدخلون النار ولا بد، ولا يخرجون منها، وهم أصحاب المنزلة بين المنزلتين.

ووجه ذلك أنه تعالى جعل مغفرة ما دون الشرك معلقة بالمشيئة، ولا يجوز أن يحمل هذا على التأكيد، فإن التائب لا فرق في حقه بين الشرك وغيره كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ (الزمر: ٥٣). فهنا[١] عمم وأطلق؛ لأن المراد به التائب[٢]، وهناك[٢] خص وعلّق لأن المراد به ما لم يتب[٣]. قاله شيخ الإسلام.



(١) أي في آية الزمر وهذا بإجماع العلماء والسلف لأنه عمم الذنوب كلها الشرك وغيره وأطلق لم يقيد بالمشيئة فدل على أن المراد به التائب.

(٢) أي في آية النساء: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ...﴾ خصّ الشرك بعدم المغفرة وعلّق ما دونه بالمشيئة.

وَقَالَ الخَلِيلُ عَلَيهِ السَّلاَمُ: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ۝٣٥﴾ [إبراهيم: ٣٥].

قوله: «وقال الخليل -عليه السلام-: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ۝٣٥﴾» (إبراهيم: ٣٥).

الصنم: ما كان منحوتاً على صورة البشر، **والوثن**: ما كان منحوتاً على غير ذلك. ذكره الطبري عن مجاهد، والظاهر أن الصنم ما كان مصوراً على أي صورة(١)، والوثن بخلافه كالحجر والبِنيّة، وإن كان الوثن قد يطلق على الصنم. ذكر معناه غير واحد ويروى عن بعض السلف ما يدل عليه.

وقوله: ﴿وَٱجْنُبْنِي﴾ أي اجعلني وبني في جانب عن عبادة الأصنام، وباعد بيني وبينها. قيل: وأراد بذلك بنيه وبناته من صلبه، ولم يذكر البنات لدخولهم تبعاً في البنين(٢)، وقد استجاب الله دعاءه وجعل بنيه أنبياء وجنَّبهم عبادة الأصنام(٣)، وإنما دعا إبراهيم -عليه السلام- بذلك، لأن كثيراً من الناس افتتنوا بها، كما قال: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ (إبراهيم: ٣٦). فخاف من ذلك ودعا الله أن

---

(١) إنسان أو حيوان أو طير، واختيار الشارح هو الصواب.

(٢) ويحتمل أنه -عليه السلام- ليس له بنات في ذلك الوقت.

(٣) ويحتمل أنه أراد بنيه من صلبه ومن غيرهم فاستجاب الله دعاءه في البعض ولم يستجب له في البعض الآخر؛ لأنه وقع عبادة الأصنام فيهم كما وقع في قريش من ذرية إبراهيم، كما أن نبينا محمد ﷺ سأل الله لأمته أن لا يجعل بأسهم بينهم فلم يستجب له وكما دعا على قوم فلم يستجب له، بل هداهم الله -كما في غزوة أحد- وإن كان الأنبياء أولى الناس بإجابة الدعاء لكن الله عليم حكيم فقد يستجيب الدعاء لأسرار وحكم وقد لا يستجيب الدعاء لحكم وأسرار تخفى على الداعي.

يعافيه وبنيه من عبادتها[١]، فإذا كان إبراهيم -عليه السلام- يسأل الله أن يجنبه ويجنِّب بنيه عبادة الأصنام، فما ظنك بغيره؟ كما قال إبراهيم التيمي ومن يأمن البلاء بعد إبراهيم؟. رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم، وهذا يوجب للقلب الحي أن يخاف من الشرك، لا كما يقول الجهال: إن الشرك لا يقع في هذه الأمة، ولهذا أمنوا الشرك فوقعوا فيه[٢]، وهذا وجه مناسبة الآية للترجمة.



(١) وهذا يوجب للعبد أن يسأل الله أن يجنِّبه الفتن ولا سيما عند كثرتها ووجود أسبابها.

(٢) ويستدلون بحديث: «**إن الشيطان يئس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب**» وهذا لا حجة فيه لأن الشيطان يئس لما رأى ظهور الإسلام وانتشاره ودخول الناس فيه فظن أنه لا يحصل الشرك وليس التيئيس من الله بل هو ظن من الشيطان وقد أخبر النبي ﷺ أن الشرك يقع في هذه الأمة وأنه لا تقوم الساعة حتى يلحق حيٌّ من هذه الأمة بالمشركين وحتى **تعبد** فئام من هذه الأمة الأوثان، وأنه لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس عند ذي الخلصة.

وَفِي الحَدِيثِ: «أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الأَصْغَرُ»، فَسُئِلَ عَنهُ. فَقَالَ: «الرِّيَاءُ».

هكذا أورد المصنف هذا الحديث مختصراً غير معزوٍ، وقد رواه الإمام أحمد والطبراني، وابن أبي الدنيا، والبيهقي في «الزهد»، وهذا لفظ أحمد قال: حدثنا يونس، ثنا ليث عن يزيد، يعني ابن الهاد، عن عمرو، عن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال: «**إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر**» قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «**الرياء، يقول الله يوم القيامة إذا جزى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء**». قال المنذري ومحمود بن لبيد رأى النبي ﷺ ولم يصح له منه سماع فيما أرى. وذكر ابن أبي حاتم أن البخاري قال: له صحبة. قال[١]: وقال أبي: لا تعرف له صحبة. ورجح ابن عبدالبر والحافظ أن له صحبة وقال جُلُّ روايته عن الصحابة[٢]، وقد رواه الطبراني بإسناد جيد عن محمود بن لبيد عن رافع ابن خديج. وقيل إن حديث محمود هو الصواب دون ذكر رافع. مات محمود سنة ست وتسعين. وقيل: سنة سبع، وله تسع وتسعون سنة.

قوله: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر» هذا من رحمته ﷺ لأمته وشفقته عليهم، وتحذيره مما يخاف عليهم، فإنه ما من خير إلا دلهم عليه وأمر به، وما من شر إلا وأخبرهم به وحذرهم عنه. كما قال ﷺ فيما صح عنه: «**ما بعث الله من نبي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، وينهاهم عن شر ما**

---

(١) القائل ابن أبي حاتم.

(٢) وبهذا تثبت صحبة محمود بن لبيد وإن لم يصح له سماع فيكون مرسلاً ومرسل الصحابي حجة لا سيما وقد جاء مسنداً من رواية رافع بن خديج الذي رواه الطبراني بإسناد جيد كما ذكر الشارح.

يعلمه لهم».

ولما كانت النفوس مجبولة على محبة الرياسة والمنزلة في قلوب الخلق إلا من سلم الله، كان هذا أخوف ما يخاف على الصالحين، لقوة الداعي إلى ذلك، والمعصوم من عصمه الله، وهذا بخلاف الداعي إلى الشرك الأكبر، فإنه إما معدوم في قلوب المؤمنين الكاملين، ولهذا يكون الإلقاء في النار أسهل عندهم من الكفر. وإما ضعيف، هذا مع العافية، وأما مع البلاء، فيثبِّت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء. فلذلك صار خوفه ﷺ على أصحابه من الرياء أشد(١) لقوة الداعي وكثرته، دون الشرك الأكبر لما تقدم، مع أنه أخبر أنه لا بد من وقوع عبادة الأوثان في أمته، فدل على أنه ينبغي للإنسان أن يخاف على نفسه الشرك الأكبر إذا كان الأصغر مخوفاً على الصالحين من الصحابة مع كمال إيمانهم، فينبغي للإنسان أن يخاف الأكبر لنقصان إيمانه ومعرفته بالله، فهذا وجه إيراد المصنف له هنا مع أن الترجمة تشمل النوعين.

قال المصنف: وفيه أن الرياء من الشرك، وأنه من الأصغر، وأنه أخوف ما يخاف على الصالحين، وفيه قرب الجنة والنار، والجمع بين قربهما في حديث واحد على عمل واحد متقارب في الصورة(٢).



(١) فغير الصالحين يُخاف عليه من الأكبر والأصغر.

(٢) كما يكون اثنان هذا تخرج روحه على التوحيد فيكون من أهل الجنة، وهذا تخرج روحه على الشرك فيكون من أهل النار، وقد يكونان أخوين أو ابناً وأباه، وكما في حديث: «الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله والنار مثل ذلك»، وكما في حديث ابن مسعود: «**إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه**» الحديث.

وَعَن ابنِ مَسعُودٍ أَنَّ رَسُـولَ الله ﷺ قَـالَ: «مَنْ مَاتَ وَهْوَ يَدْعُو لله نِدًّا دَخَلَ النَّارَ» [رواه البخاري].

قال ابن القيم: الند: الشبه. يقال: فلان ند فلان ونديده، أي مثله وشبهه. انتهى.

وهذا كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ (البقرة: ٢٢). وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾﴾ (الزمر: ٨). أي من مات وهو يدعو لله نداً، أي جعل لله نداً فيما يختص به تعالى ويستحقه من الربوبية والإلهية[1] دخل النار، لأنه مشرك، فإن الله تعالى هو المستحق للعبادة لذاته، لأنه المألوه المعبود الذي تألهه القلوب وترغب إليه، وتفزع إليه عند الشدائد، وما سواه فهو مفتقر إليه، مقهور بالعبودية له، تجري عليه أقداره وأحكامه طوعاً وكرهاً فكيف يصلح أن يكون نداً؟ قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ (الزخرف: ١٥)، وقال: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ (مريم: ٩٣). الآيتين. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ (فاطر: ١٥). فبطل أن يكون له نديد من خلقه، تعالى عن ذلك علواً كبيراً ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾ (المؤمنون: ٩١-٩٢).

واعلم أن دعاء الند على قسمين[2]: أكبر وأصغر، فالأكبر لا يغفره الله إلا

---

(١) الند في الغالب يكون في الألوهية والعبادة وقد يكون في الربوبية وهذا تنكره أكثر الأمم.

(٢) لأنه شرك.

بالتوبة منه، وهو الشرك الأكبر. والأصغر كيسير الرياء، وقول الرجل ما شاء الله وشئت، ونحو ذلك. فقد ثبت أن النبي ﷺ لما قال له رجل: ما شاء الله وشئت، قال: «**أجعلتني لله نداً؟ بل ما شاء الله وحده**» رواه أحمد وابن أبي شيبة، والبخاري في «الأدب المفرد»، والنسائي، وابن ماجه، وقد تقدم حكمه في باب فضل التوحيد.



وَلِمُسلِمٍ عَن جَابِرٍ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَن لَقِيَ اللهَ لاَ يُشرِكُ بِهِ شَيئاً دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ شَيئاً دَخَلَ النَّارَ».

جابر: هو ابن عبدالله بن عمرو بن حرام بمهملتين الأنصاري، ثم السَّلمي[١] بفتحتين، صحابي جليل مكثر، ابن صحابي، له ولأبيه مناقب مشهورة -رضي الله عنهما-[٢]. مات بالمدينة بعد السبعين، وقد كُفَّ بصره وله أربع وتسعون سنة.

قوله: «من لقي الله لا يشرك به شيئاً»: قال القرطبي: أي من لم يتخذ معه شريكاً في الإلهية ولا في الخلق ولا في العبادة. ومن المعلوم من الشرع المجمع عليه عند أهل السنة أن من مات على ذلك فلا بد له من دخول الجنة وإن جرت عليه قبل ذلك أنواع من العذاب والمحنة، وإن مات على الشرك لا يدخل الجنة ولا يناله من الله رحمة، ويخلد في النار أبد الآباد من غير انقطاع عذاب، ولا تصرم آماد، وهذا معلوم ضروري من الدين، مجمع عليه بين المسلمين. وقال النووي: أما دخول المشرك إلى النار فهو على عمومه، فيدخلها ويخلد فيها، ولا فرق بين الكتابي اليهودي والنصراني، وبين عبدة الأوثان وسائر الكفرة من المرتدين والمعطلين، ولا فرق عند أهل الحق بين الكافر عناداً وغيره، ولا بين من خالف ملة الإسلام وبين من انتسب إليها ثم حكم بكفره بجحده وغير ذلك. وأما دخول من مات غير مشرك الجنة فهو مقطوع له به؛ لكن إن لم يكن صاحب كبيرة مات مصراً عليها دخل الجنة أولاً، وإن كان صاحب كبيرة مات مصراً عليها فهو تحت المشيئة، فإن عفا عنه دخل الجنة أولاً، وإلا عُذِّب في النار ثم أخرج فيدخل الجنة.

وقال غيره: اقتصر على نفي الشرك لاستدعائه[٣] التوحيد بالاقتضاء،

---

(١) بفتحتين كالنّمري لأنه من بني سَلِمة بخلاف السُّلمي بضم ثم فتح لأنه من بني سُليم.

(٢) أبوه عبدالله بن حرام، أحد النقباء يوم أحد وقد استشهد فيها.

(٣) أي نفي الشرك يقتضي حصول التوحيد، وحصول التوحيد يلزم منه إثبات الرسالة.

واستدعائه إثبات الرسالة باللزوم، إذ من كذَّب رسل الله فقد كذَّب الله، ومن كذّب الله فهو مشرك، وهو كقولك: من توضأ صحت صلاته، أي مع سائر الشروط، فالمراد من مات حال كونه مؤمناً بجميع ما يجب الإيمان به إجمالاً في الإجمالي وتفصيلاً في التفصيلي[١].

قلت: قد تقدم بعض ما يتعلق بذلك في باب فضل التوحيد.

قال المصنف: وفيه تفسير لا إله إلا الله، كما ذكره البخاري في «صحيحه» يعني أن معنى لا إله إلا الله: ترك الشرك وإفراد الله بالعبادة والبراءة ممن عبد سواه كما بيَّنه الحديث، وفيه فضيلة من سلم من الشرك.



(١) وهذا معلوم من الأدلة فلا بدّ من ضمّ بعضها إلى بعض، فالمراد من مات لا يشرك بالله مع إيمانه بما يجب الإيمان به وكفره بما يجب الكفر به.

باب
الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله[1]

وَقَوْلُ الله تَعَالَى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: ١٠٨].

الشَّرْح:

لما بيَّن المصنف -رحمه الله- الأمر الذي خلقت له الخليقة وفضله وهو التوحيد، وذكر الخوف من ضده الذي هو الشرك، وأنه يوجب لصاحبه الخلود في النار، نبّه بهذه الترجمة على أنه لا ينبغي لمن عرف ذلك أن يقتصر على نفسه كما يظن الجهال؛ ويقولون: اعمل بالحق واترك الناس وما يعنيك من الناس، بل يدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، كما كان ذلك شأن المرسلين وأتباعهم إلى يوم الدين، وكما جرى للمصنف وأشباهه من أهل العلم والدين والصبر واليقين.

وإذا أراد الدعوة إلى ذلك، فليبدأ بالدعوة إلى التوحيد الذي هو معنى شهادة أن لا إله إلا الله، إذ لا تصح الأعمال إلا به فهو أصلها الذي تُبنى عليه، ومتى لم يوجد لم ينفع العمل بل هو حابط، إذ لا تصح العبادة مع الشرك، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾﴾ (التوبة: ١٧). ولأن معرفة معنى هذه الشهادة هو أول واجب على العباد، فكان أول ما يبدأ به في الدعوة.

---

(١) الدعوة إلى التوحيد لها حالان: الحال الأولى تكون فيها فرض كفاية كما إذا كان أشخاص متعددون يعلمون بذلك ويستطيعون القيام بالدعوة، والحال الثانية: أن تكون فرض عين، كما إذا كان في مكان لا يعلم بهم غيره أو لا يقدر على الدعوة غيره.

قال: «وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ[(١)] أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾».

قال ابن كثير: يقول تعالى لرسوله ﷺ آمراً له أن يخبر الناس أن هذه سبيله، أي طريقته وسنته، وهي الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله، يدعو إلى الله بها على بصيرة من ذلك ويقين وبرهان هو وكل من اتبعه يدعو إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ على بصيرة وبرهان عقلي وشرعي. وقوله: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أي وأنزِّه الله وأُجِلُّ وأُعظِّم عن أن يكون له شريك ونديد، تبارك وتعالى عن ذلك علواً كبيراً.

قلت: فتبين وجه المطابقة بين الآية والترجمة. قيل: ويظهر ذلك إذا كان قوله: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ عطفاً على الضمير في ﴿أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ فهو دليل على أن أتباعه هم الدعاة إلى الله تعالى، وإن كان عطفاً على الضمير المنفصل فهو صريح في أن أتباعه هم أهل البصيرة فيما جاء به دون من عداهم، والتحقيق أن العطف يتضمن المعنيين، فأتباعه هم أهل البصيرة الذين يدعون إلى الله.

وفي الآية مسائل نبّه عليها المصنف منها: التنبيه على الإخلاص؛ لأن كثيراً ولو دعا إلى الحق فهو يدعو إلى نفسه. ومنها أن البصيرة من الفرائض، ووجه ذلك أن اتِّباعه ﷺ واجب، وليس أتباعه حقاً إلا أهل البصيرة، فمن لم يكن منهم فليس من أتباعه، فتعيَّن أن البصيرة من الفرائض، ومنها أن من دلائل حسن التوحيد أنه تنزيه الله عز وجل عن المسبة، ومنها أن من أقبح الشرك كونه مسبَّة لله. ومنها إبعاد المسلم عن المشركين لا يصير معهم ولو لم يشرك، وكل هذه الثلاث في قوله: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ الآية.



(١) المراد بالبصيرة العلم لأن الدعوة بدون علم يحصل فيها من الفساد وسوء الحال الشيء الكثير.

قال: وَعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولُ الله ﷺ لَـمَّا بَعَثَ مُعَاذاً إِلَى اليَمَنِ؛ قَالَ لَهُ: «إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ؛ فَليَكُن أَوَّلَ مَا تَدعُوهُم إِليهِ شَهَادَةُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله.

وَفي رِوَايَةٍ: إِلَى أَن يُوَحِّدُوا الله[(١)]، فَإِنْ هُمْ[(٢)] أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ الله افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ في كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ؛ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ[(٣)]؛ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ[(٤)] أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الله حِجَابٌ». أَخرَجَاهُ.

قوله: «لما بعث معاذاً إلى اليمن»: قال الحافظ: كان ﷺ بعث معاذاً إلى اليمن سنة عشر قبل حج النبي ﷺ كما ذكر المصنف -يعني البخاري- في أواخر المغازي، وقيل كان ذلك في آخر سنة تسع عند منصرفه ﷺ من تبوك. رواه الواقدي بإسناده إلى كعب بن مالك، وأخرجه ابن سعد في «الطبقات» عنه، ثم حكى ابن سعد أنه

---

(١) اختلاف الروايات لأن الرواة رووه بالمعنى، وفيه دليل على أن الكافر لا يدعى إلى الصلاة بل يدعى إلى التوحيد فإن استجاب دُعي إلى الصلاة، أما الموحد المقصِّر في الصلاة فإنه يُدعى إلى الصلاة.

(٢) لم يذكر الصيام والحج واكتفى بالتوحيد والصلاة والزكاة؛ لأن هذه هي الأصول والأساس، فمن استجاب لها استجاب لغيرها، ولأن الصيام فرض العام، والحج فرض العمر، ونظير هذا الحديث نصوص أخرى لقوله تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾، وقوله: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾.

(٣) يدخل في الفقراء المساكين.

(٤) الكريم: الخيار الجيد العالي فلا يأخذ العامل الخيار وهو ما فيه شحم ووبر ودر إلا إذا سمحت بذلك نفس صاحبها، بل يأخذ الوسط وهذا هو العدل فلا يأخذ الخيار ولا يأخذ الشرار.

كان في ربيع الآخر سنة عشر. وقيل: بعثه عام الفتح سنة ثمان. واتفقوا أنه لم يزل على اليمن إلى أن قدم في عهد أبي بكر، ثم توجه إلى الشام فمات بها؛ واختلف هل كان معاذ والياً أو قاضياً، فجزم ابن عبدالبر بالثاني والغساني بالأول.

قلت: الظاهر أنه كان والياً وقاضياً.

قوله: «إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب»: قال القرطبي: يعني به اليهود والنصارى، لأنهم كانوا في اليمن أكثر من مشركي العرب أو أغلب، وإنما نبهه على هذا ليتهيأ لمناظرتهم، ويعد الأدلة لامتحانهم، لأنهم أهل علم سابق، بخلاف المشركين وعبدة الأوثان. وقال الحافظ: هو كالتوطئة للوصية ليجمع همته عليها، ثم ذكر معنى كلام القرطبي.

قلت: وفيه أن مخاطبة العالم ليست كمخاطبة الجاهل، والتنبيه على أنه ينبغي للإنسان أن يكون على بصيرة في دينه، لئلا يبتلى بمن يورد عليه شبهة من علماء المشركين، ففيه التنبيه على الاحتراز من الشبه، والحرص على طلب العلم.

قوله: «فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله» يجوز رفع «أول» مع نصب «شهادة» وبالعكس.

قوله: «وفي رواية» **«إلى أن يوحدوا الله»** هذه الرواية في التوحيد من «صحيح البخاري»، وفي بعض الروايات: **«فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله»**، وفي بعضها **«وأن محمداً رسول الله»**، وأكثر الروايات فيها ذكر الدعوة إلى الشهادتين.

وأشار المصنف -رحمه الله- بإيراد هذه الرواية إلى التنبيه على معنى شهادة: أن لا إله إلا الله؛ إذ معناها توحيد الله تعالى بالعبادة، وترك عبادة ما سواه، فلذلك جاء الحديث مرة بلفظ: **«شهادة أن لا إله إلا الله»**، ومرة: **«إلى أن يوحدوا الله»**، ومرة: **«فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله، فإذا عرفوا الله، فأخبرهم أن الله**

افترض عليهم خمس صلوات»، وذلك هو الكفر بالطاغوت، والإيمان بالله الذي قال الله فيه: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا﴾ (البقرة: ٢٥٦).

ومعنى الكفر بالطاغوت: هو خلع الأنداد والآلهة التي تُدعى من دون الله من القلب، وترك الشرك بها رأساً، وبغضه وعداوته. ومعنى الإيمان بالله: هو إفراده بالعبادة التي تتضمن غاية الحب بغاية الذل والانقياد لأمره، وهذا هو الإيمان بالله المستلزم للإيمان بالرسل -عليهم السلام-، المستلزم لإخلاص العبادة لله تعالى، وذلك هو توحيد الله تعالى ودينه الحق المستلزم للعلم النافع، والعمل الصالح، وهو حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله، وحقيقة المعرفة بالله، وحقيقة عبادته وحده لا شريك له.

فلله ما أفقه من روى هذا الحديث بهذه الألفاظ المختلفة لفظاً المتفقة معنى!، فعرفوا أن المراد من شهادة أن لا إله إلا الله هو الإقرار بها علماً ونطقاً وعملاً، خلافاً لما يظنه بعض الجهال أن المراد من هذه الكلمة هو مجرد النطق بها، أو الإقرار بوجود الله أو ملكه لكل شيء من غير شريك، فإن هذا القدر قد عرفه عبَّاد الأوثان وأقروا به، فضلاً عن أهل الكتاب، ولو كان كذلك لم يحتاجوا إلى الدعوة إليه.

وفيه دليل على أن التوحيد الذي هو إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، وترك عبادة ما سواه هو أول واجب، فلهذا كان أول ما دعت إليه الرسل -عليهم السلام-، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ (الأنبياء: ٢٥).

وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ (النحل: ٣٦).

قال شيخ الإسلام -رحمه الله-: وقد علم بالاضطرار من دين الرسول ﷺ، واتفقت عليه الأمة أن أصل الإسلام، وأول ما يؤمر به الخلق، شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فبذلك يصير الكافر مسلماً، والعدو ولياً، والمباح دمه وماله معصوم الدم والمال، ثم إن كان ذلك من قلبه، فقد دخل في الإيمان، وإن قاله بلسانه دون قلبه، فهو في ظاهر الإسلام دون باطن الإيمان، وفيه البداءة في الدعوة والتعليم بالأهم فالأهم، واستدل به من قال من العلماء: إنه لا يشترط في صحة الإسلام النطق بالتبري من كل دين يخالف دين الإسلام لأن اعتقاد الشهادتين يستلزم ذلك، وفي ذلك تفصيل.

وفيه أنه لا يحكم بإسلام الكافر إلا بالنطق بالشهادتين. قال شيخ الإسلام: فأما الشهادتان إذا لم يتكلم بهما مع القدرة فهو كافر باتفاق المسلمين، وهو كافر باطناً وظاهراً عند سلف الأمة وأئمتها، وجماهير علمائها.

قلت: هذا والله أعلم فيمن لا يقر بهما أو بأحدهما أما من كفره مع الإقرار بهما ففيه بحث، والظاهر أن إسلامه هو توبته عما كفر به. وفيه أن الإنسان قد يكون قارئاً عالماً وهو لا يعرف معنى لا إله إلا الله أو يعرفه ولا يعمل به، نبه عليه المصنف.

وقال بعضهم: هذا الذي أمر به النبي ﷺ معاذاً، هو الدعوة قبل القتال التي كان يوصي بها النبي ﷺ أمراءه.

قلت: فعلى هذا فيه استحباب الدعوة قبل القتال لمن بلغته الدعوة، أما من لم تبلغه فتجب دعوته.

قوله: «**فإن هم أطاعوك لذلك**». أي: شهدوا وانقادوا لذلك.

قوله: «**فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات**». فيه: أن الصلاة بعد التوحيد والإقرار بالرسالة أعظم الواجبات وأحبها، واستدل به على أن الكفار

غير مخاطبين بالفروع، حيث دعاهم أولاً إلى التوحيد فقط، ثم دعوا إلى العمل، ورتب ذلك عليها بالفاء، وأيضاً فإن قوله: «**فإن هم أطاعوك لذلك فأخبرهم**» يفهم منه أنهم لو لم يطيعوا لم يجب عليهم شيء. قال النووي: وهذا الاستدلال ضعيف، فإن المراد أعلمهم بأنهم مطالبون بالصلوات، وغيرها في الدنيا والمطالبة في الدنيا لا تكون إلا بعد الإسلام، ولا يلزم من ذلك أن لا يكونوا مخاطبين بها، ويزاد في عذابهم بسببها في الآخرة، قال: ثم اعلم أن المختار أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة، المأمور به والمنهي عنه، هذا قول المحققين والأكثرين.

قلت: ويدل عليه قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ (المدثر: ٤٣-٤٨). الآيات.

وفيه دليل على أن الوتر ليس بفرض إذ لو كان فرضاً لكان صلاة سادسة لا سيما وهذا في آخر الأمر.

قوله: «**فإن هم أطاعوك لذلك**». أي: آمنوا بأن الله افترضها عليهم وفعلوها.

قوله: «**فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم**». فيه دليل على أن الزكاة أوجب الأركان بعد الصلاة، وأنها تؤخذ من الأغنياء وتصرف إلى الفقراء، وإنما خص النبي ﷺ الفقراء بالذكر مع أنها تدفع إلى المجاهد والعامل ونحوهما وإن كان أغنياء، لأن الفقراء -والله أعلم- هم أكثر من تدفع إليهم، أو لأن حقهم آكد ، وفيه أن الإمام هو الذي يتولى قبض الزكاة وصرفها إما بنفسه أو نائبه، فمن امتنع عن أدائها أخذت منه قهراً. قيل: وفيه دليل على أنه يكفي إخراج الزكاة في صنف واحد كما هو مذهب مالك وأحمد. وعلى ما تقدم لا يكون فيه دليل . وفيه أنه لا يجوز دفعها إلى غني ولا كافر، وأن الفقير لا زكاة عليه، وأن من ملك نصاباً لا يعطى من الزكاة من حيث إنه جعل المأخوذ منه

غنياً وقابله بالفقير. ومن ملك النصاب فالزكاة مأخوذة منه فهو غني، والغنى مانع من إعطاء الزكاة إلا من استثني، وأن الزكاة واجبة في مال الصبي والمجنون كما هو قول الجمهور لعموم قوله: «من **أغنيائهم**».

قوله: «فإياك وكرائم أموالهم»: هو بنصب كرائم على التحذير؛ والكرائم جمع كريمة، أي نفيسة. قال صاحب «المطالع»: هي جامعة الكمال الممكن في حقها من غزارة لبن وجمال صورة، أو كثرة لحم وصوف. ذكره النووي. وفيه أن يحرم على العامل أخذ كرائم المال في الزكاة، بل يأخذ الوسط. ويحرم على صاحب المال إخراج شر المال، بل يخرج الوسط، فإن طابت نفسه بإخراج الكريمة جاز.

قوله: «واتق دعوة المظلوم»: أي احذر دعوة المظلوم واجعل بينك وبينها وقاية بفعل العدل وترك الظلم؛ لئلا يدعو عليك المظلوم. وفيه تنبيه على المنع من جميع أنواع الظلم، والنكتة في ذكره عقب المنع من أخذ الكرائم إشارة إلى أن أخذها ظلم، ذكره الحافظ.

قوله: «فإنه» أي الشأن ليس بينها وبين الله حجاب. أي لا تحجب عن الله تعالى، بل ترفع إليه فيقبلها وإن كان عاصياً كما في حديث أبي هريرة عند أحمد مرفوعاً: «**دعوة المظلوم مستجابة وإن كان فاجراً ففجوره على نفسه**»[1] وإسناده حسن، قاله الحافظ. وقال أبو بكر بن العربي هذا وإن كان مطلقاً فهو مقيد بالحديث الآخر أن الداعي على ثلاث مراتب: إما أن يُعجَّل له ما طلب، وإما أن يُدَخر له أفضل منه، وإما أن يُدفع عنه من السوء مثله[2]. وهذا كما قُيِّد مطلق قوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ (النمل: ٦٢). بقوله تعالى: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن

(١) بل حتى ولو كان كافراً وإن كان لا يستجاب له في دعائه لنفسه وعلى غير الظالم إن كان فاجراً آكلاً للحرام.

(٢) ويحتمل أن يكون غير مقيد بل هذا له حال وهذا له حال في غير المظلوم.

شَآءَ ﴾ (الأنعام: ٤١). وفي الحديث أيضاً قبول خبر الواحد العدل ووجوب العمل به[١]؛ وأن الإمام يبعث العمال لجباية الزكاة وأنه يعظ عماله وولاته، ويأمرهم بتقوى الله، ويعلمهم ما يحتاجون إليه، وينهاهم عن الظلم، ويعرفهم قبح عاقبته والتنبيه على التعليم بالتدريج؛ ذكره المصنف.

واعلم أنه لم يذكر في هذا الحديث ونحوه الصوم والحج، مع أن بعث معاذ كان في آخر الأمر كما تقدم، فأشكل ذلك على كثير من العلماء. قال شيخ الإسلام: أجاب بعض الناس أن الرواة اختصر بعضهم الحديث وليس الأمر كذلك، فإن هذا طعن في الرواة؛ لأن هذا إنما يقع في الحديث الواحد مثل حديث عبد القيس[٢] حيث ذكر بعضهم الصيام وبعضهم لم يذكره.

فأما الحديثان المنفصلان فليس الأمر فيهما كذلك، ولكن عن هذا جوابان:

أحدهما: أن ذلك بحسب نزول الفرائض، وأول ما فرض الله الشهادتان ثم الصلاة، فإنه أمر بالصلاة في أول أوقات الوحي، ولهذا لم يذكر وجوب الحج في عامة الأحاديث إنما جاء في الأحاديث المتأخرة.

قلت: وهذا من الأحاديث المتأخرة ولم يذكر ما فيها.

الجواب الثاني: أنه كان يذكر في كل مقام ما يناسبه، فيذكر تارة الفرائض التي يقاتل عليها كالصلاة والزكاة، ويذكر تارة الصلاة والصيام إن لم يكن عليه زكاة، ويذكر تارة الصلاة والزكاة والصيام. فإما أن يكون قبل فرض الحج كما في حديث عبد القيس ونحوه، وإما أن يكون المخاطب بذلك لا حج عليه.

وأما الصلاة والزكاة فلهما شأن ليس لسائر الفرائض، ولهذا ذكر الله تعالى في كتابه القتال عليهما لأنهما عبادتان ظاهرتان بخلاف الصوم، فإنه أمر باطن وهو مما

---

(١) لأن معاذاً واحد.

(٢) حديث وفد عبد القيس: «**آمركم بالإيمان بالله وحده؛ أتدرون ما الإيمان بالله وحده**» الحديث.

ائتمن عليه الناس، فهو من جنس الوضوء والاغتسال من الجنابة ونحو ذلك مما يؤتمن عليه العبد، فإن الإنسان يمكنه أن لا ينوي الصوم وأن يأكل سراً، كما يمكنه أن يكتم حدثه وجنابته، بخلاف الصلاة والزكاة؛ وهو ﷺ يذكر في الإعلام[(١)] الأعمال الظاهرة التي يقاتل الناس عليها، ويصيرون مسلمين بفعلها، فلهذا علق ذلك بالصلاة والزكاة دون الصيام، وإن كان واجباً كما في آيتي (براءة)[(٢)] فإن (براءة) نزلت بعد فرض الصيام باتفاق الناس. وكذلك لما بعث معاذ بن جبل إلى اليمن لم يذكر في حديثه الصيام لأنه تبع وهو باطن ولا ذكر الحج لأن وجوبه خاص ليس بعام، وهو لا يجب في العمر إلا مرة واحدة. انتهى ملخصاً بمعناه.

قوله: «أخرجاه»: أي أخرجه البخاري ومسلم في «الصحيحين» وأخرجه أيضاً أحمد، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه[(٣)].



(١) ما يعلم به الناس.

(٢) وهي: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ﴾، والآية الأخرى: ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ﴾.

(٣) أي رواه السبعة.

وَلَـهُمَا عَنْ سَهْلِ بنِ سَعْدٍ: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ يومَ خَيْبَرَ: «لأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلاً يُحِبُّ الله وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ الله وَرَسُولُهُ؛ يُفْتَحُ اللهُ عَلَى يَدَيْهِ» فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا؟ فَلَـمَّا أَصْبَحُوا غَدَوْا عَلَى رَسُولِ الله ﷺ، كُلُّهُمْ يَرْجُوا أَن يُعطاها، فَقَالَ: «أَيْنَ عَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ؟» فَقِيلَ: هُوَ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ. قَالَ: فَأَرسِلُوا إِلَيهِ، فَأُتِيَ بِهِ، فَبَصَقَ في عَيْنَيْهِ، وَدَعَا لَهُ فَبَرَأَ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ، فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ، وَقَالَ: «انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ الله تَعَالَى فِيهِ؛ فَوَالله لأَنْ يَهْدِيَ الله بِكَ رَجُلاً وَاحِداً خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ[1] النَّعَمِ».

وَيَدُوكُونَ: أَي، يَخُوضُونَ.

قال شيخ الإسلام: هذا الحديث أصح ما روي لعلي -رضي الله عنه- من الفضائل أخرجاه في «الصحيحين» من غير وجه[2].

قوله: «عن سهل»: هو سهل بن سعد بن مالك بن خالد الأنصاري، الخزرجي، الساعدي، أبو العباس صحابي شهير، وأبوه صحابي أيضاً. مات سنة ثمان وثمانين وقد جاوز المئة.

قوله: «قال يوم خيبر»: أي في غزوة خيبر. في «الصحيحين» واللفظ لمسلم عن سلمة بن الأكوع قال: كان علي -رضي الله عنه- قد تخلَّف عن النبي ﷺ في خيبر، وكان رَمِداً، فقال: أتخلف[3] عن رسول الله ﷺ؟! فخرج علي -رضي الله عنه- فلحق بالنبي ﷺ؛ فلما كان مساء الليلة التي فتحها الله عز وجل في صباحها قال

---

(١) حُمْر بإسكان الميم: جمع أحمر وحمراء وأما حُمُر بضم الميم فهو جمع حمار، وقد تسكَّن الميم قليلاً.

(٢) المراد بالوجه هنا الطريق من طرق متعددة وهي الأسانيد.

(٣) أتخلّف استفهام وهذا دليل على أنه لم يحضر أول خيبر.

رسول الله ﷺ: «**لأعطين الراية أو ليأخذن بالراية غداً رجلاً يحبه الله ورسوله أو قال: يحب الله ورسوله يفتح الله عليه**».

فإذا نحن بعلي وما نرجوه. فقالوا: هذا علي فأعطاه رسول الله ﷺ الراية، ففتح الله عليه. وهذا يبين أن علياً -رضي الله عنه- لم يشهد أول خيبر، وأنه -عليه السلام- قال هذه المقالة مساء الليلة التي فتحها الله في صباحها.

قوله: «لأعطين الراية»: قال الحافظ: في رواية بُريدة: «إني دافع اللواء إلى رجلٍ يحبه الله ورسوله». والراية بمعنى اللواء، وهو العَلَم الذي يُحمل في الحرب، يعرف به موضع صاحب الجيش، وقد يحمله أمير الجيش، وقد يدفعه لمقدَّم العسكر. وقد صرح جماعة من أهل اللغة بترادفهما، لكن روى أحمد والترمذي من حديث ابن عباس: كانت راية رسول الله ﷺ سوداء، ولواؤه أبيض. ومثله عند الطبراني عن بريدة، وعند ابن عدي[١] عن أبي هريرة وزاد: مكتوب فيه: لا إله إلا الله محمد رسول الله، وهو ظاهر في التغاير فلعل التفرقة بينهما عرفية[٢].

قوله: «يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله»: فيه فضيلة لعلي -رضي الله عنه- ؛ لأن النبي ﷺ شهد له بذلك، ولكن ليس هذا من خصائصه. قال شيخ الإسلام: ليس هذا الوصف مختصاً بعلي ولا بالأئمة، فإن الله ورسوله يحب كل مؤمن تقي «يحب[٣] الله ورسوله»[٤]، لكن هذا الحديث من أحسن ما يحتج به على النواصب الذين يتبرؤون منه ولا يتولونه، بل لقد يكفرونه أو يفسقونه كالخوارج. لكن هذا الاحتجاج لا يتم على قول الرافضة الذين يجعلون النصوص الدالة على فضائل

(١) في الأفراد من كتابه «الكامل».

(٢) إذا ثبتت الأحاديث فهو دليل على التغاير، فيكون اللواء علم كبير، والراية أصغر منه مثلاً، وإذا لم تصح فهما مترادفان لغة.

(٣) وهذا وصف لازم للنفي.

(٤) ولكن التعيين لعلي والشهادة له بذلك منقبة لأن التعيين فيه حفظ له من الردة.

الصحابة كانت قبل ردتهم، فإن الخوارج تقول في علي مثل ذلك، لكن هذا باطل فإن الله ورسوله لا يطلق مثل هذا المدح على من يعلم أنه يموت كافراً. وفيه إثبات صفة المحبة لله، وفيه إشارة إلى أن علياً تام الاتباع لرسول الله ﷺ حتى أحبه الله، ولهذا كانت محبته علامة الإيمان، وبغضه علامة النفاق. ذكره الحافظ بمعناه[1].

قوله: «يفتح الله على يديه»: صريح في البشارة بحصول الفتح على يديه، فكان الأمر كذلك، ففيه دليل على شهادة أن محمداً رسول الله[2].

قوله: «فبات الناس يدوكون ليلتهم». هو بنصب ليلتهم على الظرفية، ويدوكون قال المصنف: يخوضون والمراد أنهم باتوا تلك الليلة في خوض واختلاف فيمن يدفعها إليه، وفيه حرص الصحابة على الخير ومزيد اهتمامهم به، وذلك يدل على علو مراتبهم في العلم والإيمان.

قوله: «أيهم يعطاها» : فهو برفع، أيّ على البناء.

قوله: «فلما أصبحوا غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها»، وفي رواية أبي هريرة عند مسلم: «أن عمر قال: ما أحببت الإمارة إلا يومئذٍ»[3].

فإن قلت: إن كانت هذه الفضيلة لعلي -رضي الله عنه- ليست من خصائصه فلماذا تمنى بعض الصحابة أن يكون له ذلك؟ قيل الجواب كما قال شيخ الإسلام: أن في ذلك شهادة النبي ﷺ بعينه لعلي بإيمانه باطناً وظاهراً[4]، وإثبات لموالاته لله ورسوله، ووجوب موالاة المؤمنين له، وإذا شهد النبي ﷺ لمعين بشهادة أو دعا له بدعاء أحب كثير من الناس أن يكون له مثل تلك الشهادة، ومثل ذلك الدعاء،

---

(١) كما أن الأنصار حبهم من الإيمان وبغضهم من النفاق.

(٢) لوقوع ذلك كما أخبر.

(٣) وإن كان عمر ممن يحبه الله ورسوله إلا أن الشهادة له بعينه منقبة عظيمة ومزية خاصة ينبغي الحرص عليها.

(٤) وحفظ له من الردة وأمان منها.

وإن كان النبي ﷺ يشهد بذلك لخلق كثير ويدعو به لخلق كثير، وكان تعيينه لذلك المعين من أعظم فضائله ومناقبه، وهذا كالشهادة بالجنة لثابت ابن قيس وعبدالله بن سلام وغيرهما، وإن كان قد شهد بالجنة لآخرين، والشهادة لمحبة الله ورسوله الذي ضرب في الخمر[1].

قلت: وفي هذه الجملة أيضاً حرص الصحابة على الخير.

قوله: «**فقال أين علي بن أبي طالب**»: قال بعضهم كأنه ﷺ استبعد غيبته عن حضرته في مثل ذلك الموطن، لا سيما وقد قال: «**لأعطين الراية**» **إلى آخره**. وقد حضر الناس وكلهم يطمع بأن يكون هو الذي يفوز بذلك الوعد، وفيه سؤال الإمام عن رعيته وتفقده أحوالهم وسؤاله عنهم في مجامع الخير.

قوله: «**فقيل هو يشتكي عينيه**». أي من الرمد كما في «صحيح مسلم» عن سعد بن أبي وقاص فقال: «ادعو لي علياً، فأتي به أرمد فبصق في عينيه».

قوله: «**قال فأرسلوا إليه**»: بهمزة قطع، أمر من الإرسال، أمرهم بأن يرسلوا إليه فيدعوه له. ولمسلم من طريق إياس بن سلمة عن أبيه قال فأرسلني إلى علي، فجئت به أقوده أرمد، فبصق في عينيه فبرأ.

قوله: «**فبصق**»: بفتح الصاد، أي تفل.

قوله: «**ودعا له فبرأ**»: وهو بفتح الراء والهمزة، بوزن ضرب، ويجوز الكسر بوزن علم، أي عوفي في الحال عافية كاملة، كأن لم يكن به وجع من رمد ولا ضعف بصر أصلاً. وعند الطبراني من حديث علي: فما رمدت ولا صدعت منذ دفع إليَّ النبي ﷺ الراية، وفيه دليل على الشهادتين[2].

---

(١) وهو عياض بن حمار المجاشعي لما أتي به وجلد في الخمر قال رجل أخزاه الله ما أكثر ما يؤتى به فقال النبي ﷺ: «**لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله**» وهذا فيه دليل على أن المسلم قد يعصي لغلبة شهوته وهواه وشيطانه وهو يحب الله ورسوله ثم لا يلبث أن يتوب.

(٢) أما شهادة أن لا إله إلا الله، فلأن الله عافاه في الحال فهو دليل على قدرة الله وأنه المستحق =

قوله: «**فأعطاه الراية**» : قال المصنف: فيه الإيمان بالقدر لحصولها لمن لم يسعَ، ومنعها عمن سعى، وفيه التوكل على الله، والإقبال بالقلب إليه، وعدم الالتفات إلى الأسباب، وأن فعلها لا ينافي التوكل[(١)].

قوله: «**وقال انفذ على رسلك**»: أما انفذ فهو بضم الفاء، أي: امض لوجهك، ورسلك: بكسر الراء وسكون السين، أي على رفقك ولينك من غير عجلة، يقال لمن يعمل الشيء برفق. وساحتهم. فناء أرضهم، وهو ما حواليها، وفيه الأدب عند القتال، وترك الطيش والأصوات المزعجة التي لا حاجة إليها، وفيه أمر الإمام عماله بالرفق واللين من غير ضعف ولا انتقاض عزيمة كما يشير إليه قوله: حتى تنزل بساحتهم.

قوله: «**ثم ادعهم إلى الإسلام**»[(٢)]: أي الذي هو معنى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ومن هذا الوجه طابق الحديث الترجمة. وفي حديث أبي هريرة عند مسلم: فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب، فأعطاه الراية وقال:

= للعبادة وحده، وأما شهادة أن محمداً رسول الله، فلأن الله أجاب دعاءه في الحال فلو لم يكن نبياً لما أجاب دعاءه في الحال.

(١) وأن الإنسان عليه أن يفعل الأسباب من طلب الرزق والعلم لأن الصحابة باتوا يدوكون ليلتهم وهذا من الأسباب ولم ينكر عليهم النبي ﷺ.

(٢) هذا هو الشاهد للترجمة وفيه الأمر بالدعوة إلى الإسلام وإن كانت الدعوة بلغتهم، لكن لو قاتلهم ولم يدعهم اكتفاء بأنها قد بلغتهم فلا بأس وإن دعاهم فهو مستحب لإعلامهم أنه ليس المقصود قتالهم وسبي ذراريهم ونسائهم، وإنما المقصود دخولهم في الإسلام، وفيه دليل على أن الجهاد شرع ابتداءً ودفعاً كما في غزوة خيبر هنا فإن النبي ﷺ أجلاهم إلى خيبر، ثم غزاهم ابتداءً، وكما في غزوة تبوك، وكما في غزوِهِ الروم بقيادة أسامة بن زيد، وكما في الفتوحات في عهد الخلفاء وفي الشام والعراق كلها ابتداءً، وكما تدل عليه النصوص كقوله تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ ولم يقل وكفوا عنهم خلافاً لما يقوله بعض الكتاب المعاصرين من أن الجهاد شرع دفاعاً لا ابتداءً.

«**امش ولا تلتفت حتى يفتح الله عليك**» فسار علي شيئاً ثم وقف ولم يلتفت، فصرخ يا رسول الله على ماذا أقاتل الناس؟ فقال: «**قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله**» وفيه أن الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله، المراد بها الدعوة إلى الإخلاص بها، وترك الشرك وإلا فاليهود يقولونها، ولم يفرق النبي ﷺ في الدعوة إليها بينهم وبين من لا يقولها من مشركي العرب، فعلم أن المراد من هذه الكلمة هو اللفظ بها، واعتقاد معناها، والعمل به، وذلك هو معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ (آل عمران: ٦٤)، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾﴾ (الرعد: ٣٦). وذلك هو معنى قوله: «**ثم ادعهم إلى الإسلام**» الذي هو الاستسلام لله تعالى، والانقياد له بفعل التوحيد وترك الشرك، وفيه مشروعية الدعوة قبل القتال، لكن إن كانوا قد بلغتهم الدعوة جاز قتالهم ابتداءً، لأن النبي ﷺ أغار على بني المصطلق وهم غارُّون(١)، وتستحب دعوتهم لهذا الحديث وما في معناه(٢)، وإن كانوا لم تبلغهم وجبت دعوتهم.

وقوله: «**وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه**»: أي في الإسلام أي إذا أجابوا إلى الإسلام، فأخبرهم بما يجب عليهم من حقوقه التي لا بد من فعلها، كالصلاة، والزكاة، وهذا كقوله في حديث أبي هريرة: «**فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم وأموالهم إلا بحقها**» وقد فسره أبو بكر الصديق لعمر -رضي الله

(١) لأن المصلحة في ذلك إذ لو دعاهم لاستعدوا وهجموا على المسلمين فكان في ذلك مضرة عليهم بخلاف اليهود في خيبر فإنهم في حصونهم.
(٢) ويفعل الإمام ما يرى المصلحة فيه من دعوتهم أو قتالهم.

عنهما- لما قاتل أهل الردة الذين يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فقال له عمر: كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها؟**» قال أبو بكر: فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها.

وحاصله: أنهم إذا أجابوا إلى الإسلام الذي هو التوحيد فأخبرهم بما يجب عليهم بعد ذلك من حق الله تعالى إلى الإسلام من الصلاة والزكاة والصيام والحج وغير ذلك من شرائع الإسلام الظاهرة وحقوقه. فإن أجابوا إلى ذلك فقد أجابوا إلى الإسلام حقاً، وإن امتنعوا عن شيء من ذلك فالقتال باقٍ بحاله إجماعاً. فدل على أن النطق بكلمتي الشهادة دليل العصمة لا أنه عصمة، أو يقال: هو العصمة لكن بشرط العمل، يدل على ذلك:

قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ﴾ (النساء: ٩٤). الآية ولو كان النطق بالشهادتين عاصماً لم يكن للتثبت معنى، يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ﴾ (التوبة: ٥). أي عن الشرك وفعلوا التوحيد ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ﴾ فدل على أن القتال يكون على هذه الأمور وفيه أن لله تعالى حقوقاً في الإسلام من لم يأت بها لم يكن مسلماً، كإخلاص العبادة له والكفر بما يعبد من دونه. وفيه بعث الإمام الدعاة إلى الله، كما كان النبي ﷺ وخلفاؤه الراشدون يفعلون. وفيه تعليم الإمام أمراءه وعماله ما يحتاجوه إليه.

قوله: «فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم»: أن هي المصدرية، واللام قبلها مفتوحة، لأنها لام القسم، وأن ومدخولها مسبوق بمصدر مرفوع على أنه مبتدأ خبره خير. وحمر النعم بضم المهملة وسكون الميم، والنعم. بفتح النون والعين المهملة. أي: خير لك من الإبل الحمر وهي أنفس أموال

العرب، يضربون بها المثل في نفاسة الشيء قيل: المراد خير من أن تكون لك فتتصدق بها. وقيل تقتنيها وتملكها.

قلت: هذا هو الأظهر، والأول لا دليل عليه. أي أنكم تحبون متاع الدنيا، وهذا خير منه. قال النووي: وتشبيه أمور الآخرة بأمور الدنيا إنما هو للتقريب إلى الأفهام، وإلا فذرة من الآخرة خير من الأرض بأسرها، وأمثالها معها[1].

وفيه فضيلة الدعوة إلى الله، وفضيلة ومن اهتدى على يديه رجل واحد، وجواز الحلف على الفتيا والقضاء والخبر، والحلف من غير استحلاف.



(١) هذا من باب التمثيل وإلا فالمراد: خير من الدنيا وما فيها، وفي الحديث الغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها. والمراد خير من الدنيا لأنها لا تساوي شيئاً لحديث: «**لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء**».

باب
تفسير التوحيد(١) وشهادة(٢) أن لا إله إلا الله

وَقَوْلُ الله تَعَالَى: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ [الإسراء: ٥٧].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٨].

الشَّرْحُ:

أي تفسير هاتين الكلمتين، والعطف لتغاير اللفظين، وإلا فالمعنى واحد. ولما ذكر المصنف في الأبواب السابقة التوحيد وفضائله، والدعوة إليه، والخوف من ضده الذي هو الشرك، فكأن النفوس اشتاقت إلى معرفة هذا الأمر الذي خلقت له الخليقة، والذي بلغ من شأنه عند الله أن من لقيه به غفر له، وإن لقيه بملء الأرض خطايا؛ بين -رحمه الله- في هذا الباب أنه ليس اسماً لا معنى له، أو قولاً لا حقيقة له كما يظنه الجاهلون الذين يظنون أن غاية التحقيق فيه هو النطق بكلمة الشهادة من غير اعتقاد القلب بشيء من المعاني، والحاذق منهم يظن أن معنى الإله

---

(١) العطف هنا من عطف الدال على المدلول، لأن الشهادة دالة، على التوحيد، والتوحيد هو مدلول الشهادة. (شيخنا عبدالله بن حميد).

(٢) فيه دليل على أن المراد توحيد الله لا مجرد النطق بالشهادة ويدل عليه حديث ابن عباس في قصة معاذ إلى أن يوحدوا الله وحديث الإسلام أن تعبد الله لا تشرك به شيئاً.

هو الخالق المتفرد بالملك، فتكون غاية معرفته هو الإقرار بتوحيد الربوبية، وهذا ليس هو المراد بالتوحيد، ولا هو أيضاً معنى «لا إله إلا الله» وإن كان لا بد منه في التوحيد، بل التوحيد اسم لمعنى عظيم، وقول له معنى جليل هو أجل من جميع المعاني، وحاصله هو البراءة من عبادة كل ما سوى الله، والإقبال بالقلب والعبادة على الله، وذلك هو معنى الكفر بالطاغوت، والإيمان بالله، وهو معنى «لا إله إلا الله» كما قال تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ (البقرة: ١٦٣)، وقال تعالى حكاية عن مؤمن يس: ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ (يس: ٢٢-٢٤)، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي ﴿١٤﴾﴾ (الزمر: ١١-١٤)[(١)]، وقال تعالى حكاية عن مؤمن آل فرعون: ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ﴾ (غافر: ٤١-٤٣)، والآيات في هذا كثيرة تبين أن معنى «لا إله إلا الله» هو البراءة من عبادة ما سوى الله من الشفعاء والأنداد، وإفراد الله بالعبادة. فهذا هو الهدى، ودين الحق الذي أرسل الله به رسله، وأنزل به كتبه. أما قول الإنسان: «لا إله إلا الله» من غير معرفة لمعناها، ولا عمل به، أو دعواه أنه من أهل التوحيد، وهو لا يعرف التوحيد، بل ربما يخلص لغير الله من عباداته من الدعاء والخوف والذبح والنذر والتوبة والإنابة وغير ذلك من أنواع العبادات، فلا يكفي في

(١) أي طاعتي وعبادتي كما يدل عليه السياق، وإلا فالدين يأتي بمعنى الجزاء والحساب وغير ذلك.

التوحيد، بل لا يكون إلا مشركاً والحالة هذه، كما هو شأن عباد القبور. ثم ذكر المصنف آيات تدل على هذا فقال: وقول الله تعالى[١]: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾ (الإسراء: ٥٧). الآية.

قلت: يبين معنى هذه الآية التي قبلها، وهي قوله: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ ﴾ (الإسراء: ٥٦-٥٧). الآية. قال ابن كثير: يقول تعالى: قل للمشركين ادعو الذين زعمتم من دونه من الأنداد، وارغبوا إليهم، فإنهم لا يملكون كشف الضر عنكم، أي: بالكلية، ولا تحويلاً أي: أن يحولوه إلى غيركم، والمعنى: إن الذي يقدر على ذلك هو الله وحده لا شريك له. قال العوفي عن ابن عباس في الآية: كان أهل الشرك يقولون: نعبد الملائكة والمسيح وعزيراً وهم الذين يدعون يعني: الملائكة وعزيراً، وقوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ ﴾ (الإسراء: ٥٦). الآية، وروى البخاري عن ابن مسعود في الآية قال: ناس من الجن كان يُعبدون فأسلموا، وفي رواية: كان ناس من الإنس يعبدون ناساً من الجن، فأسلم الجن، وتمسك هؤلاء بدينهم، وقال السُّدِّي، عن أبي صالح[٢] عن ابن عباس في الآية قال عيسى وأمه وعزير[٣]. وقال مغيرة عن إبراهيم: كان ابن عباس يقول في هذه الآية: هم عيسى وعزير والشمس والقمر. وقال مجاهد: عيسى وعزير والملائكة.

---

(١) فسَّر التوحيد ببيان ضده وهو الشرك في الآيات الأربع التي ساقها المؤلف لأن الضد يتبين به ضده كما قيل:

والضد يظهر حسنه الضد ... وبضدها تتميز الأشياء

(٢) عبدالرحمن بن صالح، تابعي.

(٣) أي هم ويجوز النصب على تقدير يعني.

وقوله: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ (الإسراء: ٥٧). لا تتم العبادة إلا بالخوف والرجاء. وفي التفسير المنسوب إلى الطبري الحنفي قل للمشركين: يدعون أصنامهم دعاء استغاثة فلا يقدرون كشف الضر عنهم، ولا تحويلاً إلى غيرهم أولئك الذين يدعون، أي: الملائكة المعبودة لهم يتبادرون إلى طلب القربة إلى الله، فيرجون رحمته، ويخافون عذابه، إن عذاب ربك كان محذوراً، أي: مما يحذره كل عاقل. وعن الضحاك وعطاء أنهم الملائكة. وعن ابن عباس: أولئك الذين يدعون عيسى وأمه وعزيراً. قال شيخ الإسلام: وهذه الأقوال كلها حق، فإن الآية تعم من كان معبوده عابداً لله سواء كان من الملائكة أو من الجن أو من البشر، والسلف في تفسيرهم يذكرون جنس المراد بالآية على نوع التمثيل، كما يقول الترجمان لمن سأله ما معنى لفظ الخبز؟ فيريه رغيفاً، فيقول هذا، فالإشارة إلى نوعه لا إلى عينه، وليس مرادهم بذلك تخصيص نوع من دون نوع مع شمول الآية للنوعين فالآية خطاب لكل من دعا دون الله مدعواً. وذلك المدعو يبتغي إلى الله الوسيلة، ويرجو رحمته، ويخاف عذابه فكل من دعا ميتاً أو غائباً من الأنبياء والصالحين سواء كان بلفظ الاستغاثة أو غيرها فقد تناولته هذه الآية، كما تتناول من دعا الملائكة والجن، ومعلوم أن هؤلاء كلهم يكون وسائط فيما يقدِّره الله بأفعالهم، ومع هذا فقد نهى الله عن دعائهم، وبيَّن أنهم لا يملكون كشف الضر عن الداعين ولا تحويله، أي لا يرفعونه بالكلية، ولا يحولونه من موضع إلى موضع، كتغيير صفته أو قدره؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تَحْوِيلًا ۝٥٦﴾ (الإسراء: ٥٦). فذكر نكرة تعم أنواع التحويل فكل من دعا ميتاً أو غائباً من الأنبياء والصالحين، أو دعا الملائكة أو دعا الجن فقد دعا من لا يُغنيه، ولا يملك كشف الضر عنه، ولا تحويله. انتهى.

وبنحو ما تقدم من كلام هؤلاء قال جميع المفسرين فتبين أن معنى التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله هو ترك ما عليه المشركون من دعوة الصالحين،

والاستشفاع بهم إلى الله في كشف الضر وتحويله، فكيف ممن أخلص لهم الدعوة، وإنه لا يكفي في التوحيد دعواه، والنطق بكلمة الشهادة من غير مفارقة لدين المشركين، وإن دعاء الصالحين لكشف الضر أو تحويله هو الشرك الأكبر نبه عليه المصنف.

قال: «وقوله: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾ (الزخرف: ٢٦-٢٧). الآية. قال ابن كثير: يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وخليله إمام الحنفاء، ووالد من بعث بعده من الأنبياء الذي تنتسب قريش في نسبها ومذهبها إنه تبرأ من أبيه وقومه في عبادتهم الأوثان فقال: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا [1] كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ (الزخرف: ٢٦-٢٨). أي: هذه الكلمة وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وخلع ما سواه من الأوثان وهي لا إله إلا الله أي: جعلها في ذريته يقتدي به فيها من هداه الله من ذرية إبراهيم -عليه السلام-. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٨)﴾ أي: إليها. قال عكرمة ومجاهد والضحاك وقتادة والسدي وغيرهم في قوله: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾: يعني لا إله إلا الله، لا يزال في ذريته من يقولها. وقال ابن زيد: كلمة الإسلام، وهو يرجع إلى ما قاله الجماعة.

قلت: وروى ابن جرير عن قتادة في قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ (الزخرف: ٢٧). قال: خلقني، وعنه: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ (الزخرف: ٢٦-٢٧). قال: إنهم يقولون: إن الله ربنا ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ (الزخرف: ٨٧).

---

(١) في مرجع الضمير قولان: **أحدهما:** أنه يعود إلى الله، والمراد جعلها في عقب إبراهيم في الجملة من يقولها ويعتقدها وإلا ففي آخر الزمان ينزع القرآن ويقبض أرواح المؤمنين ولا يبقى إلا شرار الناس، **والثاني:** يعود إلى إبراهيم -عليه السلام-.

فلم يبرأ من ربه. [رواه عبد بن حميد].

قلت: يعني أن قوم إبراهيم يعبدون الله ويعبدون غيره. فتبرأ مما يعبدون إلا الله، لا كما يظن الجهال أن الكفار لا يعرفون الله، ولا يعبدونه أصلاً. وروى ابن جرير وابن المنذر عن قتادة ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ (الزخرف: ٢٨). قال: الإخلاص والتوحيد لا يزال في ذريته من يوحد الله ويعبده، فتبين بهذا أن معنى لا إله إلا الله هو البراءة مما يعبد من دون الله، وإفراد الله بالعبادة، وذلك هو التوحيد لا مجرد الإقرار بوجود الله وملكه وقدرته وخلقه لكل شيء، فإن هذا يقر به الكفار وذلك هو معنى قوله: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ[1] مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي[2]﴾ فاستثنى من المعبودين ربه وذكر سبحانه أن هذه البراءة وهذه الموالاة هي شهادة أن لا إله إلا الله. قاله المصنف.



(١) البراء.

(٢) الولاء.

وَقَولُهُ تَعَالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ﴾ (التوبة: ٣١) **الآية** [١].

الأحبار: هم العلماء. والرهبان: هم العباد وهذه الآية قد فسرها رسول الله ﷺ لعدي بن حاتم، وذلك أنه لما جاء مسلماً دخل على رسول الله ﷺ وهو يقرأ هذه الآية قال: فقلت إنهم لم يعبدوهم، فقال: «**إنهم حرموا عليهم الحلال وحللوا لهم الحرام فاتبعوهم فذاك عبادتهم إياهم**». رواه أحمد والترمذي وحسنه وعبد بن حميد وابن سعد وابن أبي حاتم والطبراني وغيرهم من طرق. وهكذا قال جميع المفسرين. قال السدي: استنصحوا الرجال، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ (التوبة: ٣١). أي: الذي حرم شيئاً فهو الحرام وما حلله حل، وما شرعه اتبع. ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ أي: تعالى وتقدس عن الشركاء والنظراء والأضداد، والأنداد، لا إله إلا هو، ولا رب سواه. ومراد المصنف -رحمه الله- بإيراد الآية هنا أن الطاعة في تحريم الحلال، وتحليل الحرام من العبادة المنفية من غير الله تعالى، ولهذا فسرت العبادة بالطاعة، وفسر الإله بالمعبود المطاع، فمن أطاع مخلوقاً في ذلك فقد عبده [٢]، إذ معنى التوحيد، وشهادة أن لا إله إلا الله يقتضي إفراد الله بالطاعة، وإفراد الرسول بالمتابعة، فإن من أطاع الرسول ﷺ فقد

---

(١) من أطاع مخلوقاً في التحليل والتحريم كفر، ومن أطاعه تقليداً له ومتابعة مع اعترافه بأنه ليس له التحليل والتحريم فهو عاص، فمن أطاعه مستحلاً لما يأمر به من تحليل الحرام أو تحريم الحلال لذلك يكفر ومن أطاعه غير مستحل فهو عاص.

(٢) من أطاع مخلوقاً معتقداً أنه تجب طاعته في غير ما أمر الله به فقد كفر، ومن أطاع مخلوقاً مع اعتقاده أنه لا تجب طاعته، وإنما الطاعة لله ولرسوله فهو عاص، ومن أطاع مخلوقاً كالرسول أو العالم في ما هو طاعة لله فهذا هو الواجب.

أطاع الله، وهذا من أعظم ما يبين التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله لأنها تقتضي نفي الشرك في الطاعة فما ظنك بشرك العبادة؛ كالدعاء والاستغاثة والتوبة وسؤال الشفاعة وغير ذلك من أنواع الشرك في العبادة، وسيأتي مزيد لهذا إن شاء الله تعالى في باب من أطاع العلماء والأمراء.



قال وَقَولُهُ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ (البقرة: ١٦٥). الآية.

قال المصنف -رحمه الله- في مسائله: ومنها: أي من الأمور المبيِّنة لتفسير التوحيد، وشهادة أن لا إله إلا الله، آية البقرة في الكفار الذي قال الله فيهم ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ۝١٦٧﴾ (البقرة: ١٦٧). ذكر أنهم يحبون أندادهم كحب[1] الله[2] فدل على أنهم يحبون الله حباً عظيماً، ولم يدخلهم في الإسلام، فكيف بمن أحب الند حباً أكبر من حب الله؟! فكيف بمن لم يحب إلا الند وحده، ولم يحب الله؟!

قلت: مراده أن معنى التوحيد، وشهادة أن لا إله إلا الله، هو إفراد الله بأصل الحب الذي يستلزم إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، وعلى قدر التفاضل في هذا الأصل، وما ينبني عليه من الأعمال الصالحة يكون تفاضل الإيمان والجزاء عليه في الآخرة. فمن أشرك بالله تعالى في ذلك فهو المشرك لهذه الآية، أخبر تعالى عن أهل هذا الشرك أنهم يقولون لآلهتهم وهم في الجحيم ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩٨﴾ (الشعراء: ٩٧). ومعلوم أنهم ما ساوَوْهم به في الخلق والرزق والملك، وإنما ساوَوْهم به في المحبة والإلهية والتعظيم والطاعة. فمن قال لا إله إلا الله وهو مشرك بالله في هذه المحبة فما قالها حق القول وإن نطق بها إذ هو قد خالفها بالعمل كما قال المصنف فكيف بمن أحب الند حباً أكبر من الله؟ وسيأتي الكلام على هذه الآية في بابها إن شاء الله تعالى.



---

(١) المراد محبة العبادة التي تقتضي الذل والخضوع والطاعة بخلاف المحبة الطبيعية فليست من هذا الباب.

(٢) وكذلك إذا كان أقل من حب الله.

قال: في «الصَّحِيحِ» عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ الله، حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ، وَحِسَابُهُ عَلَى الله».

قوله: «في الصحيح» أي «صحيح مسلم»[١] عن أبي مالك الأشجعي، عن أبيه، عن النبي ﷺ فذكره. وأبو مالك اسمه: سعد بن طارق كوفي ثقة مات في حدود الأربعين ومئة، وأبوه طارق بن أشيم بالمعجمة والمثناة التحتية على وزن أحمر، ابن مسعود الأشجعي، صحابي له أحاديث. قال مسلم: لم يرو عنه غير ابنه.

قوله: «من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله»: اعلم أن النبي ﷺ في هذا الحديث علق عصمة المال والدم بأمرين:

الأول: قول لا إله إلا الله.

والثاني: الكفر بما يعبد من دون الله، فلم يكتف باللفظ المجرد عن المعنى، بل لا بد من قولها والعمل بها.

قال المصنف: وهذا من أعظم ما يبين معنى لا إله إلا الله، فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصماً للدم والمال، بل ولا معرفة معناها مع التلفظ بها بل ولا الإقرار بذلك[٢]، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له، بل لا يحرم دمه وماله حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون الله[٣]، فإن شك أو تردد لم يحرم ماله ودمه، فيا لها من مسألة ما أجلها، ويا له من بيان ما أوضحه، وحجة ما أقطعها

---

(١) أطلق الصحيح؛ لأن كلاً من الصحيحين يسمى كذلك، أو لأنه عند وضعه الحديث لم يتأكد من أيِّ الصحيحين مع جزمه بأحدهما.

(٢) بالقلب.

(٣) المراد بالبراءة من كل معبود سوى الله وهذا معنى قوله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾، ولحديث: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله**»، وفي لفظ: «**حتى يوحدوا**»، وفي حديث الإسلام: «**أن تعبد الله**».

للمنازع[١].

قلت: وقد أجمع العلماء على معنى ذلك فلا بدّ في العصمة من الإتيان بالتوحيد، والتزام أحكامه، وترك الشرك كما قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ (الأنفال: ٣٩). والفتنة هنا: الشرك، فدل على أنه إذا وجد الشرك فالقتال باقٍ بحاله كما قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ (التوبة: ٣٦)، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾ (التوبة: ٥). فأمر بقتالهم على فعل التوحيد، وترك الشرك، وإقامة شعائر الدين الظاهرة، فإذا فعلوها خلي سبيلهم. ومتى أبوا عن فعلها أو فعل شيء منها فالقتال باقٍ بحاله إجماعاً. ولو قالوا لا إله إلا الله، وكذلك النبي ﷺ علق العصمة بما علقها الله به في كتابه كما في هذا الحديث. وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة مرفوعاً: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ويؤمنوا بي وبما جئت به فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله**»، وفي «الصحيحين» عنه قال: لما توفي رسول الله ﷺ وكفر من كفر من العرب، فقال عمر بن الخطاب لأبي بكر: كيف تقاتل الناس، وقد قال رسول الله ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قال لا إله إلا الله، فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله**»، فقال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه، فقال عمر بن الخطاب: فوالله ما

---

(١) هذا كلام جيد وهو واضح من النصوص بحمد الله.

هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال، فعرفت أنه الحق. لفظ مسلم.

فانظر كيف فهم صديق الأمة أن النبي ﷺ لم يرد مجرد اللفظ بها من غير إلزام لمعناها وأحكامها، فكان ذلك هو الصواب، واتفق عليه الصحابة، ولم يختلف فيه منهم اثنان إلا ما كان من عمر حتى رجع إلى الحق. وكان فهم الصديق هو الموافق لنصوص القرآن والسنة، وفي «الصحيحين» أيضاً عن عبدالله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**أمرتُ أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوه عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله**».

فهذا الحديث كآية براءة بيّن فيه ما يقاتل عليه الناس ابتداءً، فإذا فعلوه وجب الكف عنهم إلا بحقه، فإن فعلوا بعد ذلك ما يناقض هذا الإقرار والدخول في الإسلام، وجب القتال حتى يكون الدين كله لله، بل لو أقروا بالأركان الخمسة وفعلوها، وأبوا فعل الوضوء للصلاة ونحوه، أو تحريم بعض محرمات الإسلام كالربا والزنا أو نحو ذلك وجب قتالهم إجماعاً، ولم تعصمهم لا إله إلا الله ولا ما فعلوه من الأركان. وهذا من أعظم ما يبيِّن معنى لا إله إلا الله، وأنه ليس المراد منها مجرد النطق، فإذا كانت لا تعصم من استباح محرماً، أو أبى فعل الوضوء مثلاً بل يقاتل على ذلك حتى يفعله، فكيف تعصم من دان بالشرك، وفعله، وأحبه ومدحه، وأثنى على أهله، ووالى عليه، وعادى عليه، وأبغض التوحيد الذي هو إخلاص العبادة لله، وتبرأ منه، وحارب أهله وكفَّرهم، وصد عن سبيل الله كما هو شأن عُبَّاد القبور، وقد أجمع العلماء على أن من قال لا إله إلا الله، وهو مشرك أنه يقاتل حتى يأتي بالتوحيد.

ذكر التنبيه على كلام العلماء في ذلك فإن الحاجة داعية إليه لدفع شبه عباد القبور في تعلقهم بهذه الأحاديث وما في معناها مع أنها حجة عليهم بحمد الله لا لهم.

قال أبو سليمان الخطابي[1] في قوله: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله**» معلوم أن المراد بهذا أهل الأوثان دون أهل الكتاب، لأنهم يقولون لا إله إلا الله، ثم يقاتلون ، ولا يرفع عنهم السيف.

وقال القاضي عياض: «اختصاص عَصْم المال والنفس بمن قال لا إله إلا الله تعبير عن الإجابة إلى الإيمان، وأن المراد بذلك مشركو العرب، وأهل الأوثان، ومن لا يوحِّد وهم كانوا أول من دعي إلى الإسلام وقوتل عليه، فأما غيرهم ممن يقر بالتوحيد فلا يكتفى في عصمته بقوله لا إله إلا الله إذ كان يقولها في كفره، وهي من اعتقاده، فلذلك جاء في الحديث الآخر: «**ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة**».

وقال النووي: لا بد مع هذا من الإيمان بجميع ما جاء به رسول الله ﷺ، وكما جاء في الرواية الأخرى: «**ويؤمنوا بي وبما جئت به**». وقال شيخ الإسلام: لما سئل عن قتال التتار مع التمسك بالشهادتين، ولما زعموا من اتباع أصل الإسلام، فقال: كل طائفة ممتنعة من التزام شرائع الإسلام الظاهرة المتواترة من هؤلاء القوم أو غيرهم فإنه يجب قتالهم حتى يلتزموا شرائعه، وإن كانوا مع ذلك ناطقين بالشهادتين ملتزمين بعض شرائعه، كما قاتل أبوبكر والصحابة -رضي الله عنهم- مانعي الزكاة وعلى ذلك اتفق الفقهاء بعدهم قال: فأيما طائفة ممتنعة امتنعت عن بعض الصلوات المفروضات، أو الصيام أو الحج، أو عن التزام تحريم الدماء أو الأموال أو الخمر أو الميسر، أن نكاح ذوات المحارم، أو عن التزام جهاد الكفار[2]، أو ضرب الجزية على أهل الكتاب، أو غير ذلك من التزام واجبات الدين أو محرماته التي لا عذر لأحد في جحودها أو تركها، التي يكفر الواحد بجحودها،

---

(١) صاحب «معالم السنن على أبي داود» واسمه حَمْد بإسكان الميم أو فتحها وهو أول من عرفناه تسمى بحمد من القدامى. (شيخنا عبدالعزيز بن باز).

(٢) بغير شبهة فمن امتنع عن الجهاد بشبهة الضعف أو أنه ليس هناك جهاد شرعي قائم فإنه أقل أحواله أن يكون معصية بخلاف من أنكر الجهاد فإنه يكفر.

فإن الطائفة الممتنعة تقاتل عليها، وإن كانت مقرة بها، وهذا مما لا أعلم فيه خلافاً بين العلماء.

قال: وهؤلاء عند المحققين من العلماء ليسوا بمنزلة البغاة بل هم خارجون عن الإسلام بمنزلة مانعي الزكاة. ومثل هذا كثير في كلام العلماء.

والمقصود التنبيه على ذلك، ويكفي العاقل المنصف ما ذكره العلماء من كل مذهب في باب حكم المرتد، فإنهم ذكروا فيه أشياء كثيرة يكفر بها الإنسان، ولو أتى بجميع الدين وهو صريح في كفر عباد القبور، ووجوب قتالهم إن لم ينتهوا حتى يكون الدين لله وحده، فإذا كان من التزم شرائع الدين كلها إلا تحريم الميسر أو الربا أو الزنا يكون كافراً يجب قتاله، فكيف بمن أشرك بالله ودعي إلى إخلاص الدين لله والبراءة والكفر بمن عبد غير الله فأبى عن ذلك، واستكبر، وكان من الكافرين؟!

قوله: «وحسابه على الله»: أي إلى الله تبارك وتعالى، هو الذي يتولى حسابه، فإن كان صادقاً من قلبه جازاه بجنات النعيم، وإن كان منافقاً عذبه العذاب الأليم. وأما في الدنيا فالحكم على الظاهر، فمن أتى بالتوحيد والتزم شرائعه ظاهراً وجب الكف عنه حتى يتبين منه ما يخالف ذلك واستدل الشافعية بالحديث على قبول توبة الزنديق، وهو الذي يظهر الإسلام ويُسِرُّ الكفر. والمشهور في مذهب أحمد ومالك أنها لا تقبل، لقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ﴾ (البقرة: ١٦٠). والزنديق لا يتبين رجوعه لأنه مظهر للإسلام، مُسِرٌّ للكفر، فإذا أظهر التوبة لم يزد على ما كان منه قبلها. والحديث محمول على المشرك، ويتفرع على ذلك سقوط القتل وعدمه، أما في الآخرة فإن كان قد دخل في الإسلام صادقاً قبلت.

وفيه: وجوب الكف عن الكافر إذا دخل في الإسلام ولو في حال القتال حتى يتبين منه ما يخالف ذلك.

وفيه: أن الإنسان قد يقول: لا إله إلا الله ولا يكفر بما يعبد من دون الله.

وفيه: أن شرط الإيمان الإقرار بالشهادة، والكفر بما يعبد من دون الله مع اعتقاد ذلك واعتقاد جميع ما جاء به الرسول ﷺ. وفيه أن أحكام الدنيا على الظاهر، وأن مال المسلم ودمه حرام إلا في حق كالقتل قصاصاً ونحوه، وتغريمه قيمة ما يتلفه.

قوله: «**وشرح هذه الترجمة ما بعدها من الأبواب**»: يعني أن ما يأتي بعد هذه الترجمة من الأبواب شرح للتوحيد، وشهادة أن لا إله إلا الله، لأن معنى التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الّه، أن لا يعبد إلا الله ولا يُعتقد النفع والضر إلا في الله، وأن يكفر بما يعبد من دون الله، ويتبرأ منها ومن عابديها، وما بعد هذا من الأبواب بيان لأنواع من العبادات والاعتقادات التي يجب إخلاصها لله تعالى، وذلك هو معنى التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله، والله أعلم.



باب
من الشرك[(١)] لبس الحلقة والخيط ونحوها[(٢)] لرفع البلاء أو دفعه[(٣)]

وَقَوْلُ الله تَعَالَى: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾ (الزمر: ٣٨).

الشَّرح:

رفع البلاء: إزالته بعد حصوله، ودفعه، منعه قبله، ومن هنا ابتدأ المصنف في تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله بذكر[(٤)] شيء مما يضاد ذلك من أنواع الشرك الأكبر والأصغر، فإن الضد لا يعرف إلا بضده.

كما قيل: وبضدها تتبين الأشياء.

فمن لا يعرف الشرك لم يعرف التوحيد وبالعكس، فبدأ بالأصغر الاعتقادي انتقالاً من الأدنى إلى الأعلى.

قال ابن كثير في تفسيرها: أي لا تستطيع شيئاً من الأمر. قل حسبي الله، أي: الله كافي من توكل عليه، وعليه يتوكل المتوكلون، كما قال هود -عليه السلام- حين قال له قومه: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟

---

(١) أي الأصغر.

(٢) لبس الحلقة والخيط ونحوهما من الشرك الأصغر إذا اعتقد أنها من الوسائل والأسباب كما هو الغالب، فإن اعتقد أنها تجلب له نفعاً أو تدفع عنه ضرراً بنفسها فهذا شرك أكبر.

(٣) ولا يدخل في ذلك ربط الجرح وشده بالجبيرة ونحو ذلك، بل المراد اللبس بهذا القصد رفع البلاء أو دفعه.

(٤) أي شرع في التفصيل وإلا فكل الكتاب في تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله.

أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٥٤ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ٥٥ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ﴾ (هود: ٥٤-٥٦). الآية.

قلت: حاصله أن الله تعالى أمر نبيه ﷺ أن يقول للمشركين: أرأيتم، أي أخبروني عما تدعون من دون الله، أي تعبدونهم وتسألونهم من الأنداد والأصنام والآلهة المسميات بأسماء الإناث الدالة أسماؤهن على بطلانهن وعجزهن، لأن الأنوثة من باب اللين والرخاوة، كاللات والعزى. ﴿إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ أي: بمرض أو فقر أو بلاء أو شدة. ﴿هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ أي: لا يقدرون على ذلك أصلاً. ﴿أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ﴾ أي: صحة، وعافية، وخير، وكشف بلاء. ﴿هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ﴾ قال مقاتل: فسألهم النبي ﷺ فسكتوا[1]، أي لأنهم لا يعتقدون ذلك فيها، إنما كانوا يدعونها على معنى أنها وسائط وشفعاء عند الله، لا لأنهم يكشفون الضر ويجيبون دعاء المضطر، فهم يعلمون أن ذلك لله وحده كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ٥٣ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ٥٤﴾ (النحل: ٥٣-٥٤)، وقد دخل في ذلك كل من دُعي من دون الله من الملائكة والأنبياء والصالحين، فضلاً عن غيرهم[2] فلا يقدر أحد على كشف ضر ولا إمساك رحمة كما قال تعالى: ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢﴾ (فاطر: ٢). وإذا كان كذلك

---

(١) قول مقاتل هذا مرسل، وقد فهمه من النصوص، بل إن النصوص دلت على أوضح مما فهمه مقاتل وهو أنهم معترفون بأن آلهتهم لا تقدر على شيء من ذلك بل ذلك كله لله وحده كما قال تعالى: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ الآية.

(٢) من الأصنام والأوثان.

بطلت عبادتهم من دون الله، وإذا بطلت عبادتهم[١] فبطلان دعوة الآلهة والأصنام أبطل وأبطل، ولبس الحلقة والخيط لرفع البلاء أو دفعه كذلك، فهذا وجه استدلال المصنف بالآية وإن كانت الترجمة في الشرك الأصغر، فإن السلف يستدلون بما نزل في الأكبر على الأصغر[٢]، كما استدل حذيفة وابن عباس وغيرهما وكذلك من جعل رؤوس الحُمُر ونحوها في البيت والزرع لدفع العين كما يفعله أشباه المشركين، فإنه يدخل في ذلك، وقد يحتجون على ذلك بما رواه أبو داود في «المراسيل» عن علي بن الحسين مرفوعاً: «**احرثوا فإن الحرث مبارك، وأكثروا فيه من الجماجم**» وعنه أجوبة:

أحدها: أنه حديث ساقط مرسل، وأبو داود لم يشترط في «مراسيله» جمع المراسيل الصحيحة الإسناد، وقد ضعفه السيوطي وغيره[٣].

الثاني: أنه اختلف في تفسير الجماجم، فقيل: هي البذر. ذكره العزيزي في «شرح الجامع»[٤]، وقيل الخشبة التي يكون في رأسها سكة الحرث. قاله أبو السعادات ابن الأثير في «النهاية»، وقيل: هي جماجم رؤوس الحيوان. ذكره العزيزي وغيره، وعلى هذا فقيل أمر بجعلها لدفع الطير. ذكره العزيزي وغيره. وهذا هو الأقرب لو ثبت الحديث مع أنه باطل. وقيل: بل لدفع العين، وفيه حديث ساقط أنه أمر بالجماجم في الزرع من أجل العين، وهو مع ذلك منقطع. ذكره السيوطي وغيره، وهذا المعنى هو الذي تعلق به أشباه المشركين ولا ريب أنه معنى باطل لم يرده النبي ﷺ لو كان الحديث صحيحاً، وكيف يريده وقد أمر بقطع الأوتار كما في «الصحيح» وقال: «**من تعلق شيئاً وكل إليه**»، وقال: «**من تعلق**

---

(١) الأنبياء والملائكة والصالحين.

(٢) لاشتراكهما في مسمى الشرك ولاشتراكهما في التحريم، وإن كان الأكبر أعظم وأقبح وأخطر.

(٣) وإذا ضعفه السيوطي مع تساهله فهو شديد الضعف.

(٤) أي: «الجامع الصغير» للحافظ السيوطي.

ودعة فلا ودع الله له»، وكانوا يجعلون ذلك من أجل العين كما سيأتي، فهلا أرخص لهم فيها؟!

الثالث: أن هذا مضاد لدين الإسلام الذي بعث الله به رسله، فإنه تعالى إنما أرسل الرسل وأنزل الكتب ليُعبد وحده ولا يُشرك به شيئاً، لا في العبادة ولا في الاعتقاد، وهذا من جنس فعل الجاهلية الذين يعتقدون البركة والنفع والضر فيما لم يجعل الله فيه شيئاً من ذلك، ويعلِّقون التمائم والودع ونحوهما على أنفسهم لدفع الأمراض والعين فيما زعموا.

فإن قيل: الفاعل لذلك لم يعتقد النفع فيه استقلالاً، فإن ذلك لله وحده فهو النافع الضار، وإنما اعتقد أن الله جعله سبباً كغيره من الأسباب.

قيل: هذا باطل أيضاً، فإن الله لم يجعل ذلك سبباً أصلاً وكيف يكون الشرك سبباً لجلب الخير ودفع الضر، ولو قدر أن فيه بعض النفع فهو كالخمر والميسر فيهما إثم كبير ومنافع للناس، وإثمهما أكبر من نفعهما[1].

فإن قيل: كيف يكون شركاً وقد روى أبو داود ذلك في «مراسيله» وغيره من العلماء يروون الحديث ولم ينكروه.

قيل: أهل العلم يروون الأحاديث الضعيفة والموضوعة لبيان حالها وإسنادها لا للاعتماد عليها واعتقادها، وكتب المحدثين مشحونة بذلك فبعضهم يذكر علة الحديث، ويبيِّن حاله وضعفه إن كان ضعيفاً، ووضعه إن كان موضوعاً، وبعضهم يكتفي بإيراد الحديث بإسناده ويرى أنه قد برئ من عهدته إذا أورده بإسناده لظهور حال رواته. كما يفعل ذلك الحافظ أبو نعيم، وأبو القاسم بن عساكر وغيرهما، فليس في رواية من رواه وسكوته عنه دليل على أنه عند صحيح أو حسن أو ضعيف، بل قد يكون موضوعاً عنده، فلا يدل سكوته عنه على جواز العمل به

(١) والحكم للأغلب الكثير.

عنده[1]، وسيأتي في الكلام على حديث قطع الأوتار ما يدل على النهي عن هذا من كلام العلماء.



(١) وقد يجمع الأحاديث أولاً لحفظها وتقييدها ثم بعد ذلك ينظر فيها وينقدها فتخترمه المنية قبل ذلك، وقد يخفى عليه بعض ذلك وقد يظن أنها صحيحة فيأتي من بعده فينقدها، مثل «مسند أحمد»، و«أبي يعلى»، و«صحيح ابن حبان»، و«الحاكم»، و«السنن الكبرى» للبيهقي، و«الدارقطني» وغيرها.

عَن عِمرَانَ بنِ حُصَينٍ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى رَجُلاً في يَدِهِ حَلْقَةٌ مِنْ صُفْرٍ، فَقَالَ: «مَا هَذِهِ؟» قَالَ: مِنَ الوَاهِنَةِ. فَقَالَ: «انْزِعْهَا؛ فَإِنَّهَا لاَ تَزِيدُكَ إِلاَّ وَهْنًا، فَإِنَّكَ لَو مُتَّ وَهِيَ عَلَيكَ مَا أَفلَحتَ أَبَدَاً». رَوَاهُ أَحمَدُ بِسَنَدٍ لاَ بَأسَ بِهِ.

هذا الحديث ذكره المصنف بمعناه، أما لفظه فقال الإمام أحمد: حدثنا خلف ابن الوليد، ثنا المبارك، عن الحسن قال أخبرني عمران بن حصين أن النبي ﷺ أبصر على عضد رجل حلقة قال: أراه قال: من صفر، فقال: «**ويحك ما هذه؟**» قال من الواهنة، قال: «**أما إنـها لا تزيدك إلا وهناً، انبذها عنك فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبداً**»، ورواه ابن ماجه دون قوله: «**انبذها**» إلى آخره، وابن حبان في «صحيحه»، وقال: «**فإنك إن مت وكلت إليها**»، والحاكم، وقال: صحيح الإسناد، وأقره الذهبي. قال المنذري: رووه كلهم عن مبارك بن فضالة، عن الحسن، عن عمران، ورواه ابن حبان أيضاً بنحوه عن أبي عامر الخزاز عن الحسن، وهذه متابعة جيدة، إلا أن الحسن اختلف في سماعه من عمران. قال ابن المديني وغيره: لم يسمع منه. وقال الحاكم وأكثر مشايخنا: على أنه سمع منه.

قلت: رواية الإمام أحمد ظاهرة في سماعه منه فهو الصواب.

قوله: «عن عمران بن حصين»: أي ابن عبيد بن خلف الخزاعي، أبو نُجيد -بنون وجيم مصغر- صحابي ابن صحابي، أسلم عام خيبر، ومات سنة اثنتين وخمسين بالبصرة.

قوله: «رأى رجلاً». في رواية الحاكم دخلت على رسول الله ﷺ وفي عضدي حلقة صفر، فقال: «**ما هذه؟**» **قلت**: من الواهنة، فقال: «**انبذها**» فالمبهم في رواية أحمد ومن وافقه هو عمران راوي الحديث.

قوله: «فقال ما هذا؟». يحتمل أن الاستفهام للاستفصال، هل لبسها تحلياً أم

لا؟ ويحتمل أن يكون للإنكار فظن اللابس أنه استفصل.

قوله: «**من الواهنة**». قال أبو السعادات: الواهنة: عرق يأخذ في المنكب وفي اليد كلها، فيرقى منها، وقيل: هو مرض يأخذ في العضد، وربما علق عليها جنس من الخرز يقال له: خرز الواهنة، وهي تأخذ الرجال دون النساء، قال: وإنما نهاه عنها، لأنه اتخذها على معنى أنها تعصمه من الألم، فكان عنده في معنى التمائم المنهي عنها.

قلت: وفيه استفصال المفتي واعتبار المقاصد.

قوله: «**انزعها فإنـها لا تزيدك إلا وهناً**». لفظ الحديث: «**انبذها**» وهو أبلغ، أي: اطرحها. والنزع هو الجذب بقوة، والنبذ يتضمن ذلك وزيادة، وهو الطرح والإبعاد، أمره بطرحها عنه، وأخبر أنها لا تنفعه بل تضره، فلا تزيده إلا وهناً، أي: ضعفاً. وكذلك كل أمر نهى عنه فإنه لا ينفع غالباً أصلاً، وإن نفعه بعضه فضره أكبر من نفعه، وفيه النهي عن تعليق الحلق والخرز ونحوهما على المريض أو غيره، والتنبيه على النهي عن التداوي بالحرام. وروى أبو داود بإسناد حسن، والبيهقي عن أبي الدرداء مرفوعاً في حديث: «**تداووا ولا تداووا بحرام**» فإن قيل: كيف قال ﷺ: «**لا تزيدك إلا وهناً**» وهي ليس لها تأثير؟ قيل: هذا -والله أعلم- يكون عقوبة له على شركه لأنه وضعها لدفع الواهنة، فعوقب بنقيض مقصوده.

قوله: «**فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبداً**». أي: لأنه مشرك والحالة هذه، والفلاح هو الفوز والظفر والسعادة.

قال المصنف: فيه شاهد لكلام الصحابة أن الشرك الأصغر أكبر الكبائر، وأنه لم يعذر بالجهالة، والإنكار بالتغليظ على من فعل مثل ذلك.

قلت: وفيه أن الصحابي لو مات وهي عليه ما أفلح أبداً، ففيه رد على المغرورين الذين يفتخرون بكونهم من ذرية الصالحين، أو من أصحابهم، ويظنون

أنهم يشفعون لهم عند الله، وإن فعلوا المعاصي. وفيه أن رتب الإنكار متفاوتة فإذا كفى الكلام في إزالة المنكر لم يحتج إلى ضرب ونحوه. وفيه أن المسلم إذا فعل ذنباً وأنكر عليه فتاب منه فإن ذلك لا ينقصه، وأنه ليس من شرط أولياء الله عدم الذنوب.

قوله: «رواه أحمد بسند لا بأس به». هو الإمام أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال ابن أسد الشيباني، أبو عبدالله المروزي، ثم البغدادي، إمام أهل عصره وأعلمهم بالفقه والحديث، وأشدهم ورعاً ومتابعة للسنة. روى عن الشافعي، ويزيد بن هارون، وابن مهدي، ويحيى القطّان، وابن عيينة، وعفّان، وخلف. وروى عنه ابناه عبدالله، وصالح، والبخاري، ومسلم، وأبو داود، وأبو بكر الأثرم، والمرُّوذي، وخلق لا يحصون، مات سنة إحدى وأربعين ومئتين وله سبع وسبعون سنة.



وَلَهُ عَن عُقبَةَ بنِ عَامِرٍ مَرفُوعَاً: «مَنْ تَعَلَّقَ تَـمِيمَةً، فَلاَ أَتَمَّ اللهُ لَهُ، وَمَنْ تَعَلَّقَ وَدعَةً، فَلاَ وَدَعَ اللهُ لَهُ». وَفِي رِوَايَةٍ: «مَنْ تَعَلَّقَ تَـمِيمَةٍ فَقَد أَشرَكَ».

الحديث الأول رواه أحمد كما قال المصنف، ورواه أيضاً أبو يعلى، والحاكم، وقال: صحيح الإسناد، وأقره الذهبي.

وقوله: «وفي رواية». هذا يوهم أن هذا في بعض الأحاديث المذكورة، وليس كذلك، بل المراد أنه في حديث آخر رواه أحمد أيضاً فقال: حدثنا عبدالصمد بن عبدالوارث، ثنا عبدالعزيز بن مسلم، ثنا يزيد بن أبي منصور، عن دُخين[1] الحجْري، عن عقبة بن عامر الجهني أن رسول الله ﷺ أقبل إليه رهط فبايع تسعة وأمسك عن واحد. فقالوا يا رسول الله، بايعت تسعة وأمسكت عن هذا! قال: «**إن عليه تميمة**» فأدخل يده فقطعها، فبايعه وقال «**من علق تميمة فقد أشرك**»[2]، ورواه الحاكم بنحوه، ورواته ثقات.

وقوله: «في هذا الحديث: «فأدخل يده فقطعها»: أي الرجل، بيَّنه الحاكم في روايته.

قوله: «عن عقبة بن عامر»: هو الجهني، صحابي مشهور، وكان فقيهاً فاضلاً ولي إمارة مصر لمعاوية ثلاث سنين، ومات قريباً من الستين.

قوله: «من تعلق تميمة»: أي متمسكاً بها عليه أو على غيره من طفل أو دابة ونحو ذلك. قال المنذري: يقال إنها خرزة كانوا يعلقونها يرون أنها تدفع عنهم الآفات واعتقاد هذا الرأي جهلٌ وضلالة إذ لا مانع ولا دافع غير الله تعالى.

---

(١) دُخَيْن: هو أبو ليلى، دُخَيْن بن عامر الحَجْري، من حَجْرِ ذي رُعَيْن، كان كاتبا لعقبة بن عامر، ويروي عنه. عداده في أهل مصر. قتلته الروم سنة مئة. كما في «جامع الأصول».

(٢) فيه زيادة فائدة وهي هجر من علق تميمة زيادة على كونها من الشرك.

وقال أبو السعادات: التمائم: جمع تميمة وهي خرزات كانت العرب تعلقها على أولادهم، يتقون بها العين في زعمهم، فأبطلها الإسلام. قال: وكأنهم كانوا يعتقدون أنها تمائم الدواء والشفاء[١].

قوله: «فلا أتم الله له». دعاء عليه بأن الله لا يتم له أموره.

قوله: «ومن تعلق ودعة» بفتح الواو وسكون المهملة. قال في «مسند الفردوس» شيء يخرج من البحر يشبه الصدف يتقون به العين.

قوله: «فلا ودع الله له» بتخفيف الدال، أي لا جعله في دعة وسكون.

وقيل: هو لفظ بُني من الودعة، أي لا خفف الله عنه ما يخافه. قاله أبو السعادات، وهذا دعاء عليه، فيه وعيد شديد لمن فعل ذلك، فإنه مع كونه شركاً فقد دعا عليه رسول الله ﷺ بنقيض مقصوده.

قوله: «من تعلق تميمة فقد أشرك». قال ابن عبد البر: إذا اعتقد الذي علقها أنها ترد العين، فقد ظن أنها ترد القدر، واعتقاد ذلك شرك[٢]. وقال أبو السعادات: إنما جعلها شركاً لأنهم أرادوا دفع المقادير المكتوبة عليهم، وطلبوا دفع الأذى من غير الله الذي هو دافعه.



---

(١) وليس هذا خاصاً بالخرزات بل هو يشمل الحلقة والخيط ونحوها فإنه من باب العلاج وتوقي أسباب المرض استدلالاً بحديث: **«من تصبّح بسبع تمرات من تمر المدينة»**، وفي رواية: **«عجوة، لم يصبه سم ولا سحر فإذا أكلها قاصداً أنه لا يضره سحر ولا سم»** فلا حرج عليه ومثله التطعيم.

(٢) أصغر وقد تكون أكبر بحسب حال قائله ومقصده كأن يعتقد أن التميمة تؤثر بنفسها من دون الله مثلاً.

قال: وَلِابنِ أَبِي حَاتِمٍ عَن حُذَيفَةَ «أَنَّهُ رَأَى رَجُلاً في يَدِهِ خَيطٌ مِنَ الحُمّى فَقَطَعَهُ» وَتَلاَ قَولُهُ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ (يوسف: ١٠٦).

هذا الأثر رواه ابن أبي حاتم كما قال المصنف.

ولفظه: حدثنا محمد بن الحسين بن إبراهيم بن إشْكاب، ثنا يونس بن محمد، ثنا حماد بن سلمة، عن عاصم الأحول، عن عزرة[1] قال دخل حذيفة على مريض، فرأى في عضده سيراً فقطعه أو انتزعه ثم قال: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾، وابن أبي حاتم هو الإمام أبو محمد عبدالرحمن بن أبي حاتم محمد بن إدريس الرازي التميمي الحنظلي، الحافظ ابن الحافظ صاحب «الجرح والتعديل» و«التفسير» وغيرهما. مات سنة سبع وعشرين وثلاثمئة. وحذيفة هو ابن اليمان، واسم اليمان حُسيل بمهملتين مصغراً ويقال حِسْل بكسر ثم سكون، العبسي بالموحدة، حليف الأنصار، صحابي جليل من السابقين. ويقال صاحب السر[2]، وأبوه أيضاً صحابي، مات حذيفة في أول خلافة علي سنة ست وثلاثين.

قوله: «رأى رجلاً في يده خيط من الحمى». أي: من أجل الحمى لدفعها، وكان الجهال يعلقون لذلك التمائم والخيوط ونحوها. وروى وكيع عن حذيفة أنه دخل على مريض يعوده، فلمس عضده فإذا فيه خيط فقال: ما هذا؟ فقال شيء

---

(١) وفي نسخة عاصم بن أبي النجود، وهو الموجود في تفسير ابن كثير حيث قال: روى حماد بن سلمة عن عاصم بن أبي النجود عن عروة عن حذيفة، والذي يظهر -والله أعلم- أنه لا عروة ولا عزرة، وإنما الاسم قد صحف عن زر، وهو ابن حبيش، فهو الذي يروي عن حذيفة، ويروي عنه عاصم بن أبي النجود.

(٢) أسرّ إليه النبي ﷺ أسماء المنافقين لما أرادوا قتله عند رجوعه من غزوة تبوك حين مر ﷺ بعقبة في جبل كان مسلكها صعبا وضيقا.

رقي لي فيه، فقطعه فقال: لو مت وهو عليك ما صليت عليك[١].

قوله: «**فقطعه**»: فيه إنكار هذا ، وإن كان يعتقد أنه سبب فإن الأسباب لا يجوز منها إلا ما أباحه الله ورسوله ﷺ مع عدم الاعتماد عليه؛ فكيف بما هو شرك كالتمائم والخيوط والخرز والطلاسم[٢] ونحو ذلك مما يعقله الجهال؟ وفيه إزالة المنكر باليد بغير إذن الفاعل، وإن كان يظن أن الفاعل يزيله[٣] وأن إتلاف آلات المنكر واللهو جائز[٤] وإن لم يأذن صاحبها.

قوله: «**وتلا قوله:** ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾» (يوسف: ١٠٦): استدل حذيفة بهذه الآية على أن تعليق الخيط ونحوه لما ذكر شرك، أي أصغر كما تقدم في الحديث. ففيه صحة الاستدلال بما نزل في الأكبر على الأصغر[٥]، ومعنى الآية أن الله أخبر عن المشركين أنهم يجمعون بين الإيمان بالله، أي: بوجوده، وأنه الخالق الرازق المحيي المميت، ثم مع ذلك يشركون في عبادته فسرها بذلك ابن عباس وعطاء ومجاهد والضحاك وابن زيد وغيرهم.



---

(١) من باب الإنكار كما لا يصلى على الغال ولا على قاتل نفسه لكن يصلي غيره عليه لأنه مسلم.

(٢) حروف مقطعة ونقط لا يعرف معناها إلا الخواص وهي ممنوعة لأنها قد تكون شركاً وإشارة إلى أسماء شياطين.

(٣) إذا لم يحصل من ذلك مفسدة فإن كان يخشى مفسدة فإنه يأمره أن يزيله بنفسه.

(٤) المراد بالجواز ما هو أعم فيشمل الوجوب.

(٥) لاشتراكهما في مسمى الشرك وفي التحريم فكل منهما شرك ومحرم فجاز الاستدلال بما نزل في الأكبر على الأصغر.

باب
ما جاء في الرقى والتمائم

في الصَّحِيح عَن أَبِي بَشِيرٍ الأَنصَارِيّ: أَنَّهُ كَانَ مَعَ النَّبي ﷺ في بَعْضِ أَسْفَارِهِ»، فَأَرْسَلَ رَسُولاً: «أَن لاَ يَبْقَيَنَّ في رَقَبَةِ بَعِيرٍ قِلاَدَةٌ مِنْ وَتَرٍ أَو قِلاَدَةٌ(١) إِلاَّ قُطِعَتْ».

الشَّرْح:

أي: في حكمها. ولما كانت الرقى على ثلاثة أقسام، قسم يجوز، وقسم لا يجوز، وقسم في جوازه خلاف؛ لم يجزم المصنف بكونهما من الشرك لأن في ذلك تفصيلاً بخلاف لبس الحلقة والخيط ونحوهما مما ذكر فإن ذلك شرك مطلقاً.

قوله: «الصحيح». أي: في «الصحيحين».

قوله: «عن أبي بشير». بفتح أوله وكسر المعجمة، الأنصاري، قيل: اسمه قيس ابن عبيد. قاله ابن سعد، وقال ابن عبدالبر: لا يوقف له على اسم صحيح(٢)، وهو صحابي شهد الخندق، ومات بعد الستين، يقال: جاوز المئة.

قوله: «في بعض أسفاره»: قال الحافظ: لم أقف على تعيينها.

قوله: «فأرسل رسولاً»: هو زيد بن حارثة. وروى ذلك الحارث بن أبي أسامة في مسنده قاله الحافظ.

قوله: «أن لا يَبْقَيَنَّ»: هو بالمثناة والقاف المفتوحتين؛ وفي رواية **«لا تبقَيَنَّ»** بحذف أن والمثناة الفوقية والقاف المفتوحتين أيضاً. وقلادة مرفوع على أنه فاعل. والوتر بفتحتين واحد أوتار القوس.

---

(١) شك من الراوي.

(٢) وإنما اشتهر بكنيته.

قوله: «**أو قلادة إلا قطعت**»: هو برفع قلادة أيضاً، وعطف على الأول، ومعناه أن الراوي شك، هل قال شيخه قلادة من وتر؟ فقيد القلادة بأنها من وتر، أو قال قلادة وأطلق ولم يقيد. ويؤيده ما روي عن مالك أنه سئل عن القلادة فقال: ما سمعت بكراهتها إلا في الوتر. وفي رواية أبي داود: «**ولا قلادة**» بغير شك، والأولى[١] أصح لاتفاق الشيخين عليها، وللرخصة في القلائد، إلا في الأوتار[٢] ولما روى أبوداود والنسائي من حديث أبي وهب الجشمي[٣] مرفوعاً «**اربطوا الخيل وقلدوها، ولا تقلدوها من الأوتار**»، ولأحمد عن جابر مرفوعاً مثله وإسناده جيد.

قال البغوي: في «شرح السنة» تأول مالك أمره -عليه السلام- بقطع القلائد على أنه من أجل العين، وذلك أنهم كانوا يشدون بتلك الأوتار والتمائم والقلائد، ويعلقون عليها العوذ، يظنون أنها تعصم من الآفات، فنهاهم النبي ﷺ عنها، وأعلمهم أنها لا ترد من أمر الله شيئاً. وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: كانوا يقلدون الإبل الأوتار لئلا تصيبها العين، فأمرهم النبي ﷺ بإزالتها إعلاماً لهم بأن الأوتار لا ترد شيئاً، وكذلك قال ابن الجوزي وغيره.

قال الحافظ: ويؤيده حديث عقبة بن عامر رفعه: «**من تعلق تميمة فلا أتم الله له**» رواه أبو داود، وهي ما علق من القلائد خشية العين ونحو ذلك. انتهى.

فعلى هذا يكون تقليد الإبل وغيرها الأوتار وما في معناها لهذا المعنى حراماً، بل شركاً لأنه من تعليق التمائم المحرمة، ومن تعلق تميمة فقد أشرك، ولم يصب من قال: إنه مكروه كراهة تنزيه[٤].



(١) وهي ما فيها شك «قلادة من وتر أو قلادة».

(٢) فإذا كانت القلادة للزينة والجمال لا لدفع العين فإنها جائزة.

(٣) وفي نسخة الجيشاني، وهو خطأ.

(٤) بل هو محرم وشرك.

وَعَن ابنِ مَسعُودٍ: سَمِعتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ الرُّقَى وَالتَّمَائِمَ وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ» رَوَاهُ أَحمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ.

الحديث رواه أحمد وأبو داود، كما قال المصنف، وفيه قصة كأن المصنف اختصرها. ولفظ أبي داود: عن زينب امرأة عبدالله بن مسعود أن عبدالله بن مسعود رأى في عنقي خيطاً فقال: ما هذا: قلت خيطٌ رقي له فيه. قالت: فأخذه فقطعه، ثم قال: أنتم آل[١] عبدالله لأغنياء عن هذا الشرك[٢] سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الرقى والتمائم والتولة شرك**»، فقلت لم تقول هكذا؟ لقد كانت عيني تقذف، وكنت أختلف إلى فلان اليهودي يرقيها، فإذا رقاها سكنت. فقال عبدالله إنما ذلك عمل الشيطان ينخسها بيده، فإذا رقى[٣] كف[٤] عنها، إنما كان يكفيك أن تقولي كما كان رسول الله ﷺ يقول: «**أذهب البأس رب الناس واشف أنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك، شفاءً لا يغادر سقماً**»، ورواه ابن ماجه وابن حبان، والحاكم، وقال: صحيح وأقره الذهبي.

قوله: «إن الرقى»: قال المصنف الرقى هي التي تسمى العزائم، وخص منه الدليل[٥] ما[٦] خلا من الشرك، فقد رخص فيه رسول الله ﷺ من العين

---

(١) بالنصب على إضمار فعل (أخص) و (أنتم) مبتدأ خبره (لأغنياء) ودخلت اللام في الخبر والأكثر دخولها في المبتدأ.

(٢) وهذا يدل على أن المريض قد يحمله حب الشفاء على أن يتداوى بمحرم، فهذه امرأة رجل من أصلح عباد اللهّ، حملها حب الشفاء إلى أ ن تختلف إلى هذا اليهودي.

(٣) اليهودي.

(٤) الشيطان.

(٥) بالجواز.

(٦) (ما) موصولة بمعنى (الذي).

والحمة[١]. يشير إلى أن الرقى الموصوفة بكونها شركاً هي الرقى التي فيها شرك من دعاء غير الله، والاستغاثة والاستعاذة به كالرقى بأسماء الملائكة والأنبياء والجن ونحو ذلك، أما الرقى بالقرآن وأسماء الله وصفاته ودعائه والاستعاذة به وحده لا شريك له، فليست شركاً، بل ولا ممنوعة، بل مستحبة أو جائزة.

قوله: «فقد رخص فيه رسول الله ﷺ من العين والحمة»: تقدم ذلك في باب من حقق التوحيد، وكذلك رخص فيه من غيرها كما في «صحيح مسلم» عن عوف بن مالك قال: كنا نرقي في الجاهلية فقلنا يا رسول الله، كيف ترى في ذلك فقال: «**اعرضوا عليَّ رقاكم، لا بأس بالرقى، ما لم يكن فيها شرك**»، وفيه عن أنس قال: رخص رسول الله ﷺ في الرقية من العين والحمة والنملة، وعن عمران بن حصين مرفوعاً: «**لا رقية إلا من عين أو حمة أو دم**»[٢] رواه أبو داود وفي الباب أحاديث كثيرة[٣].

قال الخطابي: وكان -عليه السلام- قد رَقَى ورُقِي، وأمر بها وأجازها فإذا كانت بالقرآن أو بأسماء الله تعالى فهي مباحة أو مأمور بها، وإنما جاءت الكراهية والمنع فيما كان منها بغير لسان العرب، فإنه ربما كان كفراً، أو قولاً يدخله الشرك. قال: ويحتمل أن يكون الذي يُكره من ذلك ما كان على مذاهب الجاهلية التي يتعاطونها، وأنها تدفع عنهم الآفات، ويعتقدون ذلك من قبل الجن ومعونتهم.

قلت: ويدل على ذلك قول علي بن أبي طالب: إن كثيراً من هذه الرُّقى والتمائم شرك، فاجتنبوه. رواه وكيع، فهذا يبيِّن معنى حديث ابن مسعود ونحوه.

---

(١) لسعة العقرب والحية.

(٢) أي خروج الدم، فقد جاء في المستدرك: «لا رقية إلا من عين أو حمى أو دم لا يرقأ».

(٣) وعلى كل حال فالرقية جائزة إذا خلت من الشرك كما في الحديث: «**اعرضوا عليّ رقاكم**»، أما حديث: «**لا رقية إلا من عين أو حمة**» فالمراد لا رقية أشفى وأولى من الرقية في العين والحمة.

وقال ابن التين[١]: الرقى بالمعوذات وغيرها من أسماء الله تعالى هو الطب الروحاني، فإذا كان على لسان الأبرار من الخلق حصل الشفاء بإذن الله تعالى، فلما عزّ[٢] هذا النوع، فزع الناس إلى الطب الجسماني وتلك الرقى المنهي عنها التي يستعملها المُعزِّم وغيره ممن يدعي تسخير الجن له، فيأتي بأمور مشتبهة مركبة من حق وباطل يجمع إلى ذكر الله تعالى وأسمائه ما يشوبه من ذكر الشياطين والاستعانة بهم والتعوذ بمردتهم. ويقال: إن الحية لعداوتها الإنسان بالطبع تصادق الشياطين لكونهم أعداء بني آدم، فإذا عَزَم على الحية بأسماء الشياطين أجابت وخرجت من مكانها وكذا اللديغ إذا رُقي بتلك الأسماء سالت سمومها من بدن الإنسان، ولذلك كُره الرقى ما لم تكن بآيات الله وأسمائه خاصة، وباللسان العربي الذي يُعرف معناه ليكون بريئاً من شوب الشرك.

وعلى كراهية[٣] الرقى بغير كتاب الله علماء الأمة. قال شيخ الإسلام: كل اسم مجهول فليس لأحد أن يرقي به؛ فضلاً عن أن يدعو به ولو عَرَف معناه، لأنه يكره الدعاء بغير العربية لمن عرفها، وإنما يُرخَّص لمن لا يعرف العربية، فأما جعل الألفاظ العجمية شعاراً فليس من الإسلام.

قلت: وسئل ابن عبدالسلام عن الحروف المقطعة فمنع منها ما لا يُعرف لئلا يكون فيه كفرٌ، وقال السيوطي: قد أجمع العلماء على جواز الرقى عند اجتماع ثلاثة شروط:

أن يكون بكلام الله تعالى أو بأسمائه وصفاته، وباللسان العربي وبما يعرف معناه، وأن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها بل بتقدير الله تعالى، فتلخص أن الرقية

(١) هو عبد الواحد بن التين أبو محمد الصفاقسي المغربي المالكي فقيه محدث مفسر، من تصانيفه «المخبر الفصيح في شرح البخاري الصحيح» ينقل عنه ابن حجر وغيره، توفي سنة (٦١١).

(٢) أي قلّ، ومنه الحديث العزيز، أي لم يروه إلا اثنان، سمي عزيزاً لقلة من رواه.

(٣) المراد بالكراهية التحريم.

ثلاثة أقسام[١]:

قوله: «**والتمائم**». تقدم كلام المنذري وابن الأثير في معناه في الباب قبله وظاهره تخصيص التمائم بما ذكراه. وقال المصنف: التمائم شيء يعلق على الأولاد من العين. وقال الخلخالي: التمائم جمع تميمة وهي ما يعلق بأعناق الصبيان من خرزات وعظام[٢] لدفع العين، وهذا منهي عنه؛ لأنه لا دافع إلا الله، ولا يطلب دفع المؤذيات إلا بالله وأسمائه وصفاته، وظاهره أن ما عُلِّق لدفع العين وغيرها فهو تميمة من أي شيء كان، وهذا هو الصحيح. وقد يقال: إن كلام المنذري وابن الأثير وغيرهما لا يخالفه.

قال المصنف: لكن إذا كان المعلق من القرآن فرخص فيه بعض السلف، وبعضهم لم يرخص فيه ويجعله من المنهي عنه، منهم ابن مسعود.

اعلم أن العلماء من الصحابة والتابعين فمن بعدهم اختلفوا في جواز تعليق التمائم التي من القرآن وأسماء الله وصفاته، فقالت طائفة يجوز ذلك، وهو قول عبدالله بن عمرو بن العاص وغيره، وهو ظاهر ما روي عن عائشة، وبه قال أبو جعفر الباقر وأحمد في رواية، وحملوا الحديث[٣] على التمائم الشركية، أما التي فيها القرآن وأسماء الله وصفاته فكالرقية بذلك.

قلت: وهو ظاهر اختيار ابن القيم. وقالت طائفة لا يجوز ذلك، وبه قال ابن مسعود، وابن عباس وهو ظاهر قول حذيفة، وعقبة بن عامر، وابن عكيم[٤] -

---

(١) قسم يجوز وهو ما توفرت فيه الشروط الثلاثة، وقسم لا يجوز وهو ما كان فيه شرك، وقسم مختلف فيه وهو ما كان بغير العربية ولم يُعرف أنه شرك.

(٢) وليست خاصة بذلك، بل تشمل جميع ما قصد به دفع العين كشعر الذئب أو عين الفرس وما أشبه ذلك.

(٣) «**إن الرقى والتمائم والتولة شرك**».

(٤) اختلف في صحبته، وجزم ابن حجر أنه مخضرم كما في «التقريب»، وهو مذهب الجمهور، =

رضي الله عنهم-، وبه قال جماعة من التابعين، منهم أصحاب ابن مسعود، وأحمد في رواية اختارها كثير من أصحابه، وجزم بها المتأخرون، واحتجوا بهذا الحديث وما في معناه فإن ظاهره العموم لم يفرق بين التي من القرآن وغيرها، بخلاف الرقى فقد فرّق[1] فيها، ويؤيد ذلك أن الصحابة الذين رووا الحديث فهموا العموم كما تقدم عن ابن مسعود. وروى أبو داود عن عيسى بن حمزة قال: دخلت على عبدالله بن عكيم وبه حُمْرة فقلت: ألا تعلق تميمة؟ فقال: نعوذ بالله من ذلك قال رسول الله ﷺ: «**من تعلق شيئاً وكل إليه**»، وروى وكيع عن ابن عباس قال: اتفل بالمعوذتين ولا تعلق، وأما القياس على الرقية بذلك، فقد يقال بالفرق، فكيف يقاس التعليق الذي لا بد فيه من ورق أو جلود ونحوهما على ما لا يوجد ذلك فيه، فهذا إلى الرقى المركبة من حق وباطل أقرب. هذا اختلاف العلماء في تعليق القرآن وأسماء الله وصفاته[2] فما ظنك بما حدث بعدهم من الرقى بأسماء الشياطين وغيرهم وتعليقها؟ بل والتعلق عليهم، والاستعاذة بهم، والذبح لهم، وسؤالهم كشف الضر، وجلب الخير مما هو شرك محض، وهو غالب على كثير من الناس إلا من سلم الله، فتأمل ما ذكره النبي ﷺ، وما كان عليه أصحابه والتابعون، وما ذكره

= وقال أبو حاتم: له سماع كما في «التهذيب» لابن حجر.

(١) في حديث: «**اعرضوا عليَّ رقاكم، لا بأس بالرقى ما لم تكن شركاً**».

(٢) هذه المسألة من مسائل النزاع، ومسائل النزاع ترد إلى الكتاب والسنة كما قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ وإذا رددنا هذه المسألة إلى النصوص وجدناها عامة لا تفرق بين تعليق القرآن وغيره فيكون الصواب المنع مطلقاً استناداً إلى قاعدة الرد إلى الله والرسول، وقاعدة أخرى وهي قاعدة: سد الذرائع التي دلت عليها نصوص كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا﴾، فنهى عن سب آلهة المشركين لئلا يُسب اللهّ، كذلك هنا فإن تعليق القرآن يفضي إلى تعليق غير القرآن ومن الذي يراقب الناس ويفتش عليهم في تمائهم فيجيز ما كان من القرآن ويمنع ما كان من غيره.

العلماء بعدهم في هذا الباب وغيره من أبواب الكتاب، ثم انظر إلى ما حدث في الخلوف المتأخرة، يتبين لك دين الرسول ﷺ وغُربتُه الآن في كل شيء، فالله المستعان.

قوله: «والتولة شرك». قال المصنف: هو شيء يصنعونه يزعمون أنه يحبب المرأة إلى زوجها، والزوج إلى امرأته، وكذا قال غيره أيضاً وبهذا فسره ابن مسعود راوي الحديث كما في «صحيح ابن حبان»، والحاكم. قالوا يا أبا عبدالرحمن هذه الرقى والتمائم قد عرفناهما، فما التولة؟ قال: شيء يصنعه النساء يتحببن إلى أزواجهن. قال الحافظ[1]: التولة بكسر المثناة وفتح الواو واللام مخففاً شيء كانت المرأة تجلب به محبة زوجها[2] وهو ضرب من السحر، وإنما كان ذلك من الشرك؛ لأنهم أرادوا دفع المضار وجلب المنافع من عند غير الله.



(١) ابن حجر.

(٢) وقد يصنع للبغضاء والتنفير فإذا رأى الرجل امرأته كرهها أو هي إذا رأته كرهته.

وَعَن عَبدِالله بنِ عُكيم[١] **مرفوعاً: «مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ» رَواهُ أحمد والترمذي.**

ورواه أيضاً أبو داود والحاكم.

قوله: «عن عبدالله بن عُكيم». هو بضم المهملة مصغراً، ويكنى أبا معبد الجهني الكوفي. قال البخاري: أدرك زمن النبي ﷺ، ولا يعرف له سماع صحيح، وكذا قال أبو حاتم: وقال معناه أبو زرعة، وابن حبان وابن منده، وأبو نعيم، وقال البغوي: يُشك في سماعه. وقال الخطيب: سكن الكوفة، وقدم المدائن في حياة حذيفة، وكان ثقة، وذكر ابن سعد عن غيره أنه مات في ولاية الحجاج، وظاهر كلام هؤلاء الأئمة أن الحديث مرسل[٢].

قوله: «من تعلق شيئاً وكل إليه». التعلق يكون بالقلب ويكون بالفعل، ويكون بهما جميعاً، أي من تعلق شيئاً بقلبه، أو تعلقه بقلبه وفعله، وكل إليه، أي: وكله الله إلى ذلك الشيء الذي تعلقه، فمن تعلقت نفسه بالله، وأنزل حوائجه بالله، والتجأ إليه، وفوض أمره كله إليه كفاه كل مؤنة، وقرب إليه كل بعيد، ويسر له كل عسير، ومن تعلق بغيره، أو سكن إلى علمه وعقله ودوائه وتمائمه، واعتمد على حوله وقوته، وكله الله إلى ذلك وخذله، وهذا معروف بالنصوص والتجارب. قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ (الطلاق: ٣).

وقال الإمام أحمد: حدثنا هاشم بن القاسم، ثنا أبو سعيد المؤدب، ثنا من سمع عطاء الخراساني، قال: لقيت وهب بن منبه[٣] وهو يطوف بالبيت، فقلت له:

---

(١) اختلف في صحبته، وجزم ابن حجر أنه مخضرم كما في «التقريب»، وهو مذهب الجمهور، وقال أبو حاتم: له سماع كما في «التهذيب» لابن حجر.

(٢) وإذا كان صحابياً فلا يضر إرساله.

(٣) هذا من الإسرائيليات؛ لأن وهب بن منبه وكعب الأحبار وغيرهما يحدثان عن بني إسرائيل =

حدثني حديث أحفظه عنك في مقامي هذا وأوجز قال: نعم، «أوحى الله تبارك وتعالى إلى داود: يا داود أما وعزتي وعظمتي لا يعتصم بي عبد من عبيدي دون خلقي أعرف ذلك من نيته فتكيده السماوات السبع ومن فيهن والأرضون السبع، ومن فيهن إلا جعلت له من بينهن مخرجاً، أما وعزتي وعظمتي لا يعتصم عبد من عبيدي بمخلوق دوني أعرف ذلك من نيته إلا قطعت أسباب السماء من يده وأسخت الأرض من تحت قدميه، ثم لا أبالي بأي وادٍ هلك».



= وفيه راوٍ لم يسمّ وهو من سمع من عطاء الخراساني، وبكل حال فهو من الإسرائيليات.

وَرَوَى الإمام أَحْمَدُ عَنْ رُويفعٍ، قَالَ: قَالَ لِـي رَسُولُ الله ﷺ: «يَا رُوَيْفِعُ! لَعَلَّ الحَيَاةَ ستَطُولُ بِكَ، فَأَخْبِرِ النَّاسَ أَنَّ مَنْ عَقَدَ لِحِيَتَهُ، أَوْ تَقَلَّدَ وَتَرًا، أَوِ اسْتَنْجَى بِرَجِيعِ دَابَّةٍ أَوْ عَظْمٍ؛ فَإِنَّ مُحَمَّدًا بَرِيءٌ مِنْهُ».

الحديث رواه الإمام أحمد عن يحيى بن إسحاق، والحسن بن موسى الأشيب، كلاهما عن ابن لهيعة، وفيه قصة فاختصرها المصنف، وهذا لفظ الحسن. قال: حدثنا ابن لهيعة، ثنا عياش بن عباس، عن شييم بن بيْتان قال: ثنا رويفع بن ثابت قال: كان أحدنا في زمان رسول الله ﷺ يأخذ جمل أخيه على أن يعطيه النصف مما يغنم، وله النصف حتى إن أحدنا ليصير له النصل والريش، والآخر القِدْح[1] ثم قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**يا رويفع لعل الحياة ستطول بك، فأخبر الناس أنه من عقد لحيته، أو تقلد وتراً، او استنجى برجيع دابة أو عظم، فإن محمداً برئ منه**»، ثم رواه أحمد عن يحيى بن غيلان، ثنا المفضل، حدثني عياش بن عباس أن شييم بن بيتان أخبره أنه سمع شيبان القتباني يقول استخلف مسلمة بن مخلد رويفع ابن ثابت الأنصاري على أسفل الأرض، فقال: فسرنا معه، فقال قال لي رسول الله ﷺ... الحديث.

وفي الإسناد الأول ابن لهيعة، وفيه مقال[2]، وفي الثاني شيبان القتباني قيل فيه

---

(١) وهذه هي المضاربة التي جاء بها الشرع كأن يدفع إليه جمله أو سيارته أو ماله فيعمل الآخر فيه ويشتغل فيه ويكون الربح بينهما نصفين أو ثلثين أو ثلث مثلاً، وإذا تلف الجمل أو السيارة أو المال أو أصابه شيء فإنه لا يضمن إذا لم يفرط وإلا ضمن.

فـائـدة: الشارح الشيخ سليمان له عناية عظيمة بالحديث والأسانيد حتى أنه مشهور بذلك عند أهل الدرعية.

(٢) عيبه من جهة أنه ساء حفظه بعد احتراق كتبه، فمن روى عنه قبل ذلك كعبدالله بن المبارك، وعبدالله بن وهب فهي مقبولة، وأما من روى عنه بعد ذلك فهي ضعيفة.

مجهول، وبقية رجالها ثقات، ورواه أبوداود من طريق المفضل به مطولاً وسكت عليه، ثم قال: حدثنا يزيد بن خالد، أنا مفضل عن عياش أن شُيَيْم بن بَيْتان أخبره أيضاً بهذا الحديث عن أبي سالم الجيشاني، عن عبدالله بن عمرو يذكر ذلك وهو معه مرابط بحصن باب اليون. قال أبو داود: حصن اليون بالفسطاط على جبل[١].

قلت: وهذا إسناد جيد؛ رواه النسائي من رواية شييم عن رويفع وصرح بسماعه منه ولم يذكر شيبان، فإن كان ذكر شيبان وهماً فالإسناد صحيح، وحسنه النووي، وصححه بعضهم. قال الحافظ أبو زرعة[٢] في «شرح أبي داود»: ورواه الطحاوي مختصراً فذكر منه الاستنجاء برجيع دابة أو عظم فقط، ورواه محمد بن الربيع الجَيْزي[٣] في كتاب «من دخل مصر من الصحابة» مطولاً، وفيه: أن من عقد لحيته في الصلاة.

قوله: «**فأخبر الناس**»: دليل على وجوب إخبار الناس بذلك على رويفع، وليس هذا مختصاً به، بل كل من كان عنده علم ليس عند غيره مما يحتاج إليه الناس وجب عليه تبليغه للناس، وإعلامهم به، فإن اشترك هو وغيره في علم ذلك، فالتبليغ فرض كفاية[٤]. هذا كلام أبي زرعة.

قوله: «**الحياة ستطول بك**»: علم من أعلام النبوة، لأنه وقع كما أخبر به ﷺ، فإن رويفعاً طالت حياته إلى سنة ست وخمسين، فمات فيها ببُرقة[٥] من أعمال مصر

---

(١) قال الزبيدي في «تاج العروس من جواهر القاموس» باب اليون: اسم عام لديار مصر عامة بلغة القدماء، وقيل: هو اسم لموضع الفسطاط خاصة بمصر.

(٢) ابن عبدالرحيم العراقي اشترك مع أبيه عبدالرحيم ولي الدين في شرح أبي داود وكتابه ليس موجوداً ويحتمل أنه مخطوط في تركيا أو مكتبات أوربا.

(٣) نسبة إلى الجيزة قرية بمصر.

(٤) لكن من طالت حياته فالواجب في حقه آكد من غيره كرويفع مثلاً.

(٥) قرية بمصر.

أميراً عليها، وهو من الأنصار. وقيل: مات سنة ثلاث وخمسين. قاله ابن يونس..

قوله: «أن من عقد لحيته»: بكسر اللام لا غير[١] قاله في «المشارق» والجمع لُحى، بالكسر والضم. قاله الجوهري.

قال الخطابي: وأما نهيه عن عقد اللحية، فإن ذلك يفسر على وجهين: **أحدهما**: ما كانوا يفعلونه من ذلك في الحروب، كانوا في الجاهلية يعقدون لحاهم، وذلك من زي بعض الأعاجم يفتلونها ويعقدونها.

قلت: كأنهم كانوا يفعلونه تكبراً وعجباً، كما ذكره أبو السعادات[٢]. قال: **ثانيهما**: أن معناه معالجة الشعر ليتعقد ويتجعد، وذلك من فعل أهل التوضيع[٣] والتأنيث. وقال أبو زرعة ابن العراقي: والأولى حمله على عقد اللحية في الصلاة كما دلت عليه رواية محمد بن الربيع المتقدم ذكرها، فهو موافق للحديث الصحيح في النهي عن كف الشعر والثوب، فإن عقد اللحية فيه كفها وزيادة.

قوله: «أو تقلد وتراً»: أي جعله قلادة في عنقه أو عنق دابته ونحو ذلك.

وفي رواية محمد بن الربيع: **«أو تقلد وتراً»**: يريد تميمة، فهذا يدل على أنهم كانوا يتقلدون الأوتار من أجل العين، إذ فسره بالتميمة وهي تُجعلُ لذلك[٤].

قوله: «أو استنجى برجيع دابة أو عظم فإن محمداً بريء منه»:

قال النووي: أي بريء من فعله. وقال بهذه الصيغة ليكون أبلغ في الزجر[٥].

قلت: فيه النهي عن الاستنجاء برجيع الدواب والعظام. وقد ورد في ذلك

---

(١) فلا تضم اللام ولا تفتح.

(٢) ابن الأثير الجزري صاحب «جامع الأصول»، و«النهاية في غريب الحديث».

(٣) ذكره البغوي في «شرح السنة».

(٤) فمن تقلد للزينة في رقبة الدابة لا لرفع العين فلا حرج ولا بأس فيه.

(٥) كلام النووي فيه تأويل والصواب أنه برئ من الفاعل والفعل، وهذا من باب الزجر والتحذير، ولا يلزم من ذلك أن يخرج عن الإسلام.

أحاديث، منها ما في «صحيح مسلم» عن ابن مسعود مرفوعاً: «**لا تستنجوا بالروث، ولا بالعظام، فإنه زاد إخوانكم من الجن**» وعلى هذا فلا يجزئ الاستنجاء بهما كما هو ظاهر مذهب أحمد، واختار شيخ الإسلام وجماعة الإجزاء وإن كان محرماً؛ قالوا لأنه لم ينه عنه لكونهما لا ينقيان بل لإفسادهما[1].

قلت: الأول أولى، لما رواه ابن خزيمة والدارقطني من طريق الحسن بن الفرات، عن أبيه، عن أبي حازم الأشجعي، عن أبي هريرة أن النبي ﷺ نهى أن يستنجى بعظم أو روث وقال: «**إنـهما لا يطهِّران**»[2] وهذا إسناد جيد.



(١) أي على الجن.

(٢) وهذا أبلغ في التحذير وإن كانا لا يطهران.

وَعَن سَعِيدِ بنِ جُبَيرٍ قَالَ: «مَنْ قَطَعَ تَـمِيمَةً مَن إِنسَانٍ، كَانَ كَعِدْلِ رَقَبَةٍ». رَوَاهُ وَكِيعٌ.

هذا عند أهل العلم له حكم الرفع؛ لأن مثل هذا لا يقال بالرأي[1] فيكون أي الحديث على هذا مرسلاً لأن سعيداً تابعي، وفيه فضل قطع التمائم لأنها من الشرك. ووكيع هو ابن الجراح بن وكيع[2]، الكوفي، ثقة إمام، صاحب تصانيف منها: «الجامع» وغيره. روى عنه الإمام أحمد وطبقته. مات سنة سبع وتسعين ومئة.



---

(١) ويمكن أن يكون قال ذلك عن اجتهاد؛ لأن قطع التمائم إعتاق للشخص وإحراز له من الشيطان فهو يشبه عتق الرقاب من الرق الذي يكون صاحبه كالبهيمة، وقد يقال: إنه أفضل من عتق الرقاب لأنه عتق من الشرك وذلك عتق من الرق. فهو محتمل أن يكون قاله عن اجتهاد، ويحتمل أن يكون سمعه من الصحابة فيكون مرسلاً.

(٢) صوابه بن مليح الرؤاسي.

وَلَهُ عَن إِبرَاهِيمَ: «كَانُوا يَكرَهُونَ التَّمَائِمَ كُلَّهَا، مِنَ القُرآنِ وَغَيرِ القُرآنِ».

إبراهيم هو إبراهيم بن يزيد النخعي الكوفي، يكنى أبا عمران، ثقة إمام، من كبار فقهاء الكوفة. قال المزي: دخل على عائشة ولم يثبت له سماع منها، مات سنة ست وتسعين وله خمسون سنة ونحوها.

قوله: «كانوا يكرهون التمائم» إلى آخره[1]: مراده بذلك أصحاب عبدالله ابن مسعود كعقلمة والأسود وأبي وائل والحارث بن سويد وعبيدة السلماني ومسروق والربيع بن خثيم، وسويد بن غَفَلَة[2] وغيرهم من أصحاب ابن مسعود وهم من سادات التابعين، وهذا الصيغة يستعلمها إبراهيم في حكاية أقوالهم كما بين ذلك الحفاظ كالعراقي وغيره.



(١) والصواب في هذا المسألة ما ذهب إليه عبدالله بن مسعود وأصحابه من المنع من التمائم مطلقاً من القرآن وغير القرآن لأمرين:
الأول: عموم الأحاديث حيث لم تفرق بين المعلق من القرآن وغير القرآن، **والثاني**: قطع وحسم ومنع مادة الشرك إذ أن التمائم من القرآن يفضي إلى تعليق غير القرآن.
(٢) بفاء مفتوحة.

باب
من تبرك بشجرة أو حجر ونحوهما[(١)]

وَقَوْلُ الله تَعَالَى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩﴾ (النجم: ١٩). **الآيات.**

الشَّرْح:

قوله: «باب من تبرك بشجرة أو حجر ونحوهما».

كبقعة وغار وعين وقبر ونحو ذلك مما يعتقد كثير من عباد القبور وأشباههم فيه البركة فيقصدونه رجاء البركة. ويعني بقوله: تبرك أي طلب البركة ورجاها واعتقدها، أي ما حكمه هل هو شرك أم لا؟

قال: «وقول الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ۝٢٠ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝٢١ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ۝٢٢ إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ۝٢٣﴾» (النجم: ١٩-٢٣).

هكذا ثبت في خط المصنف الآيات يعنى إلى قوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ۝٢٣﴾ (النجم: ٢٣). قال القرطبي: لما ذكر الوحي إلى النبي ﷺ وذكر من آثار قدرته ما ذكر، حاج المشركين، إذ عبدوا ما لا يعقل. وقيل: أفرأيتم هذه الآلهة التي تعبدونها أَوْحَيْنَ إليكم شيئاً كما أوحي إلى محمد ﷺ وكانت اللات لثقيف، والعزى لقريش وبني كنانة، ومناة لبني هلال. وقال هشام: كانت مناة لهذيل وخزاعة.

---

(١) أي فقد أشرك شركاً أكبر.

ذكر صفة هذه الأوثان:

ليعرف المؤمن كيفية الأوثان، وكيفية عبادتها، وما هو شرك العرب الذي كانوا يفعلونه حتى يفرِّق بين التوحيد والإخلاص وبين الشرك والكفر، فأما اللات فقرأ الجمهور بتخفيف التاء، وقرأ ابن عباس وابن الزبير ومجاهد وحميد وأبو صالح ورويس عن يعقوب اللاّت بتشديد التاء، فعلى القراءة الأولى بتخفيف التاء. قال الأعمش: سموا اللات من الإله والعزى من العزيز. قال ابن جرير: وكانوا قد اشتقُّوا اسمها من الله تعالى، فقالوا اللات مؤنثة منه. تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً.

قال: وكذا العزى من العزيز. قال ابن كثير: وكانت صخرةً بيضاء منقوشة عليها بيت بالطائف، له أستار وسدنة، وحوله فناء معظم عند أهل الطائف، وهم ثقيف ومن تابعها، يفتخرون به على من عداهم من أحياء العرب بعد قريش. قال هشام: وكانت في موضع مسجد الطائف اليسرى[١]، فلم يزل كذلك إلى أن أسلمت ثقيف، فبعث رسول الله ﷺ المغيرة بن شعبة فهدمها وحرقها بالنار، وعلى الثانية[٢] قال ابن عباس كان رجلاً يلت السويق للحاج، فلما مات عكفوا على قبره. ذكره البخاري. وقال ابن عباس كان يبيع السويق والسمن عند صخرة ويلتُّه عليها، فلما مات ذلك الرجل عبدت ثقيفُ[٣] تلك الصخرة إعظاماً لصاحب السويق. وعن مجاهد نحوه، وقال: فلما مات عبدوه. رواه سعيد بن منصور والفاكهي[٤]، وكذا روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس: أنهم عبدوه. وقال ابن

---

(١) ذكره القرطبي في تفسيره، وهشام هو ابن محمد بن السائب الكلبي صاحب النسب، وليس ابن هشام صاحب السيرة كما في أكثر الطبعات.

(٢) القراءة بتشديد التاء.

(٣) بالضم بدون تنوين اسم للقبيلة، وبه مع التنوين اسم للرجل الذي تنتسب إليه القبيلة.

(٤) الفاكهي: هو أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن العباس المكي صاحب كتاب «أخبار مكة» توفي =

جريج: كان رجل من ثقيف يلتُّ السويق بالزيت، فلما توفي جعلوا إلى قبره وثناً، وبنحو ذلك قال جماعة من أهل العلم ولا تَخَالُف بين القولين، فإن من قال: إنها صخرة لم يَنْفِ أن تكون صخرةً على القبر أو حواليه فعُظِّمت وعُبدتْ تبعاً لا قصداً، فالعبادة إنما أرادوا بها صاحب القبر، فهو الذي عبدوه بالأصالة؛ يدل على ذلك ما روى الفاكهي عن ابن عباس أن اللات لما مات قال لهم عمرو بن لحي: إنه لم يمت، ولكنه دخل الصخرة فعبدوها، وبنوا عليها بيتاً، فتأمّل فعل المشركين مع هذا الوثن، ووازن بينه وبين بناء القباب على القبور والعكوف عندها ودعائها، وجعلها ملاذاً عند الشدائد.

وأما العزى فقال ابن جرير كانت شجرة عليها بناء وأستار بنخلة بين مكة والطائف كانت قريش يعظمونها، كما قال أبو سفيان يوم أحد: لنا العزى ولا عزى لكم. فقال رسول الله ﷺ: «**قولوا الله مولانا ولا مولى لكم**»، وروى النسائي وابن مردويه عن أبي الطفيل لما فتح رسول الله ﷺ مكة بعث خالد بن الوليد إلى نخلة وكانت بها العزى فأتاها خالد وكانت على ثلاث سمرات فقطع السمرات، وهدم البيت الذي كان عليها، ثم أتى النبي ﷺ فأخبره، فقال: «**ارجع فإنك لم تصنع شيئاً**»، فرجع خالد، فلما أبصرته السدنة وهم حجبتها أمعنوا[1] في الجبل وهم يقولون: يا عزى يا عزى فأتاها خالد، فإذا امرأة عُريانة ناشرة شعرها، تحفن التراب على رأسها فعلاها[2] بالسيف حتى قتلها، ثم رجع إلى رسول الله ﷺفأخبره فقال: «**تلك العزى**».

قال هشام وكانوا يسمعون منها الصوت. وقال أبو صالح: العزى نخلة كانوا

= سنة (٣٥٣).

(١) أي علوه محتمين به.

(٢) وفي نسخة فعمّها وكذلك في الخطية.

يعلقون عليها السيوف والعهن. رواه عبد بن حميد وابن جرير فتأمل فعل المشركين مع هذا الوثن، ووزان بينه وبين ما يفعله عباد القبور من دعائها، والذبح عندها، وتعليق الخيوط وإلقاء الخرق في ضرائح الأموات ونحو ذلك. فالله المستعان.

وأما «مَناة» فكانت بالمشلل عند قُديد، بين مكة والمدينة، وكانت خزاعة والأوس والخزرج يعظمونها، ويهلون منها للحج إلى الكعبة، وأصل اشتقاقها من اسم الله المنان، وقيل: منْ مَنَى الله الشيء إذا قدّره. وقيل: سميت مناة لكثرة ما يُمْنى، أي يراق عندها من الدماء للتبرك بها. قال هشام: فبعث رسول الله ﷺ علياً فهدمها عام الفتح. قال ابن إسحاق في «السيرة»: وقد كانت العرب اتخذت مع الكعبة طواغيت، وهي بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة، لها سدنة وحجاب، وتهدي لها كما يهدى للكعبة، وتطوف بها وتنحر عندها، وهي تعرف فضل الكعبة عليها لأنها كانت قد عرفت أنها بيت إبراهيم -عليه السلام- ومسجده.

قلت: هذا الذي ذكره ابن إسحاق من شرك العرب هو بعينه الذي يفعله عباد القبور، بل زادوا على الأولين. إذا تبين هذا فمعنى الآية كما قال القرطبي: إن فيها حذفاً تقديره: أفرأيتم هذه الآلهة هل نفعت أو ضرت حتى تكون شركاء لله؟!

وقال غيره: ومناة الثالثة الأخرى، ذم، وهي المتأخرة الوضيعة المقدار كقوله: ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ﴾ (الأعراف: ٣٩)[1]، أي وضعاؤهم لرؤسائهم. وقوله: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾﴾ (النجم: ٢١). قال ابن كثير: أي أتجعلون له ولداً وتجعلوه ولده أنثى، وتختارون لكم الذكور؟!.

وقال غيره: يجوز أن يراد اللات والعزى ومناة إناث، وقد جعلتموهن لله

---

(١) المراد بالأولى الرؤساء وبالأخرى الأتباع الوضعاء وذلك بالنسبة لدخولهم النار، فالرؤساء يدخلون النار أولاً ثم يدخلها الأتباع والوضعاء.

شركاء، ومن شأنكم أن تحتقروا الإناث وتستنكفوا[1] من أن يولدن لكم أو يُنْسَبْنَ إليكم، فكيف تجعلون هؤلاء الإناث أنداداً لله وتسمونهن آلهة.

قلت: ما أقرب هذا القول إلى سياق الآية.

وقوله: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾﴾ (النجم: ٢٢). أي: جور وباطلة، فكيف تقاسمون ربكم هذه القسمة التي لو كانت بين مخلوقين كانت جوراً وسفهاً، فتنزهون أنفسكم عن الإناث، وتجعلونهن لله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً؟!

وقوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم﴾ قال ابن كثير: ثم قال منكراً عليهم فيما ابتدعوه، وأحدثوه من الكذب والافتراء والكفر من عبادة الأصنام، وتسميتها آلهة: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم﴾ أي: من تلقاء أنفسكم ﴿مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾، أي: من حجة ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ أي: ليس لهم مستند إلا حسن ظنهم بآبائهم الذين سلكوا هذا المسلك الباطل قبلهم، وإلا حظ أنفسهم في رياستهم، وتعظيم آبائهم الأقدمين!

وقوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ ﴿٢٣﴾﴾. قال ابن كثير: ولقد أرسل الله إليهم الرسل بالحق المنير، والحجة القاطعة، ومع هذا ما اتبعوا ما جاؤهم به ولا انقادوا له.

قلت: في هذه الآيات من الدلائل القطعية على بطلان عبادة هذه الطواغيت، وأشباهها بما لا مزيد عليه، فسبحان من جعل كلامه شفاء وهدى ورحمة، وبشرى للمسلمين، منها أنها أسماء مؤنثة دالة على اللين والرخاوة، وما كان كذلك فليس بإله، ومنها أنكم قاسمتم الله بزعمكم فجعلتم له هذه الأسماء المؤنثة شركاء ودعوتم له الأولاد، ثم جعلتموهم بنات واختصصتم بالذكور، فجعلتم له

---

(١) تستكبروا.

المكروه الناقص، ولكم المحبوب الكامل ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ (النحل: ٦٠)، ومنها أنها أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم، وابتدعتموها، ومنها أنها ما أنزل الله بها من سلطان، أي: حجة وبرهان، ومنها أنكم لم تستندوا في تسميتها إلى علم ويقين، وإنما استندتم في ذلك إلى الظن والهوى اللَّذيْن هما أصلا الهلاك دنيا وأخرى[1]. ومنها ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ ﴿٢٣﴾﴾[2] أي: بإبطال عبادتها، وما كان كذلك فهو عين المحال البيّن البطلان، وكل واحد من هذه الأدلة كافٍ شافٍ في بطلان عبادتها. فإن قلت: فأين دليل الترجمة من الآيات؟ قيل: هو بيِّن بحمد الله؛ لأنه إن كان التبرك بالشجر والقبور والأحجار من الأكبر، فواضح، وإن كان من الأصغر فالسلف يستدلون بما نزل في الأكبر على الأصغر (النجم: ٢٣).



(١) أصل الضلال والهلاك أمران: **أحدهما**: الظن، **والثاني**: الهوى، الأول حسن الظن بالأسلاف، والأشياخ والآباء واستبعاد أن يكونوا على باطل أو ضلال، والثاني الهوى من رياسة ومنصب أو أكلة مال.

(٢) هو من الأكبر لأنهم يتبركون بها ويدعونها ويرجونها من دون الله ويصرفون لها كثيراً من أنواع العبادات.

وَعَن أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِي قَالَ: خَرَجنَا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ إِلَى حُنَيْنٍ، وَنَحنُ حُدَثَاءُ عَهدٍ بِكُفرٍ، وَلِلمُشرِكِينَ سِدْرَةٌ يَعْكُفُونَ عِنْدَهَا، وَيَنُوطُونَ بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ، يُقَالَ لَـهَا: ذَاتُ أَنْوَاطٍ. فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ الله! اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَـهُم ذَاتُ أَنواطٍ. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «الله أَكبَرُ! إِنَّهَا السُّنَنُ! قُلْتُمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ كَمَا قَالَت بَنُو إِسرائِيلَ لِمُوسَى ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾، لَتَـرْكَبُنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ» رَوَاهُ التِّرمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ.

الحديث رواه الترمذي كما قال المصنف، ولفظه: حدثنا سعيد بن عبدالرحمن المخزومي، حدثنا سفيان، عن الزهري، عن سنان بن أبي سنان، عن أبي واقد الليثي أن رسول الله ﷺ، لما خرج إلى حنين مرّ بشجرة للمشركين يقال لها ذات أنواط يعلقون عليها أسلحتهم، قالوا يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال النبي ﷺ: «**سبحان الله هذا كما قال قوم موسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾، والذي نفسي بيده لتركبن سنة من كان قبلكم**»، هذا حديث حسن صحيح.

وأبو واقد الليثي: اسمه الحارث بن عوف وفي الباب عن أبي سعيد، وأبي هريرة، هذا لفظ الترمذي بحروفه، وفيه مخالفة لما في الكتاب لفظاً ومعنىً، وقد اتفق اللفظان على المقصود هنا. وقد رواه أحمد، وأبو داود، وأبو يعلى، وابن أبي شيبة، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني بنحوه. وروى ابن أبي حاتم، وابن مردويه، والطبراني من طريق كثير بن عبدالله بن عمرو بن عوف، عن أبيه، عن جده نحوه أيضاً.

قوله: «عن أبي واقد الليثي». اسمه الحارث بن عوف، كما قال الترمذي،

وقيل: الحارث بن مالك، صحابي مشهور. مات سنة ثمان وستين وله خمس وثمانون سنة.

قوله: «خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين». في حديث عمرو بن عوف قال: غزونا مع رسول الله ﷺ يوم الفتح ونحن ألف ونيِّف حتى إذا كنا بين حنين والطائف. ولا مخالفة بينهما في المعنى، فإن غزوة الفتح وحنين كانتا في سفر واحد.

قوله: «ونحن حدثاء عهد بكفر». أي: قريبو عهد بكفر، ففيه دليل على أن غيرهم لا يجهل هذا، وأن المنتقل من الباطل الذي اعتاده قلبه لا يأمن أن يكون في قلبه بقية من تلك العادات الباطلة. ذكره المصنف.

قوله: «يعكفون عندها». الاعتكاف: هو الإقامة على الشيء في المكان، ولزومه، ومنه قوله: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾﴾ (الأنبياء: ٥٢)، وكانوا يعكفون عند هذه السدرة تبركاً بها. وفي حديث عمرو بن عوف قال: كان يناط بها السلاح فسميت ذات أنواط، وكانت تعبد من دون الله، فلما رآها رسول الله ﷺ، صرف عنها في يوم صائف إلى ظل هو أدنى منها... الحديث، فيجمع بينهما بأن عبادتها هي العكوف عندها رجاءً لبركتها.

قوله: «وينوطون» . أي يعلقونها عليها للبركة.

قوله: «يقال لها ذوات أنواط». قال أبو السعادات[(١)]: سألوه أن يجعل لهم مثلها فنهاهم عن ذلك. وأنواط جمع نوط، وهو مصدر سمي به المنوط.

قوله: «فقلنا يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط»: أي شجرة مثلها نعلق عليها، ونعكف حواليها، ظنوا أن هذا أمر محبوب عند الله فقصدوا التقرب إلى الله بذلك، وإلا فهم أجل قدراً، وإن كانوا حديثي عهد بكفر عن قصد مخالفة النبي ﷺ.

قوله: «فقال النبي ﷺ: الله أكبر» هكذا في بعض الروايات. وفي رواية

---

(١) ابن الأثير الجزري، صاحب «النهاية في غريب الحديث» و«جامع الأصول».

الترمذي «**سبحان الله**» والمقصود باللفظين واحد؛ لأن المراد تعظيم الله، وتنزيهه عن الشرك، والتقرب به إليه، وفيه تكبير الله وتنزيهه عند التعجب، أو ذكر الشرك خلافاً لمن كرهه.

قوله: «إنها السنن»، بضم السين: أي الطرق.

قوله: «قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى اجعل لنا إلهاً... إلخ» أخبر ﷺ أن هذا الأمر الذي طلبوه منه، وهو اتخاذ شجرةٍ للعكوف عندها، وتعليق الأسلحة بها تبركاً كالأمر الذي طلبه بنو إسرائيل من موسى -عليه السلام- حيث قالوا: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾، فإذا كان اتخاذ شجرة لتعليق الأسلحة، والعكوف عندها، اتخاذ إله مع الله مع أنهم لا يعبدونها، ولا يسألونها. فمن الظن بما حدث من عباد القبور من دعاء الأموات، والاستغاثة بهم، والذبح، والنذر لهم، والطواف بقبورهم، وتقبيلها، وتقبيل أعتابها وجدرانها، والتمسح بها، والعكوف عندها، وجعل السدنة والحجاب لها؟، وأي نسبة بين هذا، وبين تعليق الأسلحة على شجرة تبركاً.

قال الإمام أبو بكر الطرطوشي من أئمة المالكية: فانظروا رحمكم الله أينما وجدتم سدرة أو شجرة يقصدها الناس، ويعظمونها، ويرجون البرء والشفاء من قبلها، ويضربون بها المسامير والخرق فهي ذات أنواط فاقطعوها. وقال الحافظ أبو محمد عبدالرحمن بن إسماعيل الشافعي المعروف بأبي شامة في كتاب: «البدع والحوادث»: ومن هذا القسم أيضاً: ما قد عم الابتلاء به من تزيين الشيطان للعامة تخليق الحيطان والعمد، وسَرْج مواضع مخصوصة في كل بلد يحكي لهم حاكٍ أنه رأى في منامه بها أحداً ممن شهر بالصلاح والولاية[1] فيفعلون ذلك، ويحافظون

---

(١) بالفتح المولاة وبالكسر الوظيفة كالإمارة.

فـائـدة: التولي: أصله المحبة في القلوب والنصرة والتأييد دليلها.

عليه مع تضييعهم فرائض الله تعالى وسننه، ويظنون أنهم متقربون بذلك، ثم يتجاوزون هذا إلى أن يعظم وقع تلك الأماكن في قلوبهم فيعظمونها، ويرجون الشفاء لمرضاهم وقضاء حوائجهم بالنذر لهم، وهي من بين عيون وشجر وحائط وحجر، وفي مدينة دمشق صانها الله من ذلك مواضع متعددة كعُويْنة الحمّا خارج باب توما، والعمود المخلق داخل باب الصغير، والشجرة الملعونة اليابسة خارج باب النصر في نفس قارعة الطريق سهل الله قطعها واجتثاثها من أصلها، فما أشببها بذات أنواط الواردة في الحديث ثم ذكر الحديث المتقدم، وكلام الطُرطوشي الذي ذكرنا، ثم قال: ولقد أعجبني ما صنعه الشيخ أبو إسحاق الجُبْنياني -رحمه الله تعالى- أحد الصالحين ببلاد إفريقية في المئة الرابعة حكى عنه صاحبه الصالح أبو عبدالله محمد بن أبي العباس المؤدِّب أنه كان إلى جانبه عين تسمى عين العافية، كان العامة قد افتتنوا بها يأتونها من الآفاق، من تعذّر عليها نكاح أو ولد قالت: امضوا بي إلى العافية، فتعرف بها الفتنة، قال أبو عبدالله فأنا في السحر ذات ليلة سمعت أذان أبي إسحاق نحوها، فخرجت فوجدته قد هدمها وأذّن الصبح عليها ثم قال: اللهم إني هدمتها لك فلا ترفع لها رأساً، قال: فما رفع لها رأس إلى الآن.

قلت: أبو إسحاق الذي هدمها إمام مشهور من أئمة المالكية زاهد اسمه إبراهيم ابن أحمد بن علي بن أسلم، وكان الإمام أبو محمد بن أبي زيد يعظم شأنه، ويقول: طريق أبي إسحاق خالية لا يسلكها أحد في الوقت[1]، وكان القابسي يقول: الجُبْنياني: إمام يُقتدَى به. مات سنة تسع وستين وثلاثمئة. وذكر ابن القيم نحو ما ذكره أبو شامة، ثم قال: فما أسرع أهل الشرك إلى اتخاذ الأوثان من دون الله، ولو كانت ما كانت، ويقولون: إن هذا الحجر، وهذه الشجرة، وهذه العين تقبل النذر، أي تقبل العبادة من دون الله، فإن النذر عبادة وقربة يتقرب بها الناذر

(١) من النشاط والقوة في الحق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

إلى المنذور له، وسيأتي شيء يتعلق بهذا الباب عند قوله: «**اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد**» وفي هذه الجملة من الفوائد، أن ما يفعله من يعتقد في الأشجار والقبور، والأحجار من التبرك بها، والعكوف عندها، والذبح لها، هو الشرك، ولا يغتر بالعوام والطغام، ولا يستبعد كون هذا شركاً، ويقع في هذه الأمة فإذا كان بعض الصحابة ظنوا ذلك حسناً وطلبوه من النبي ﷺ حتى بيّن لهم أن ذلك كقول بني إسرائيل: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا﴾ فكيف بغيرهم مع غلبة الجهل وبعد العهد بآثار النبوة؟ وفيها أن الاعتبار في الأحكام بالمعاني لا بالأسماء، ولهذا جعل النبي ﷺ طلبتهم كطلبة بني إسرائيل، ولم يلتفت إلى كونهم سموها ذات أنواط، فالمشرك وإن سمى شركه ما سماه، كمن يسمي دعاء الأموات، والذبح لهم والنذر ونحو ذلك تعظيماً ومحبة، فإن ذلك هو الشرك، وإن سماه ما سماه، وقس على ذلك. وفيها أن من عُبد فهو إله، لأن بني إسرائيل والذين سألوا النبي ﷺ لم يريدوا من الأصنام والشجرة الخلق والرزق، وإنما أرادوا البركة، والعكوف عندها، فكان ذلك اتخاذاً له مع الله تعالى. وفيها أن معنى الإله المعبود، وأن من أراد أن يفعل الشرك جهلاً فنهي عن ذلك فانتهى لا يكفر. وأن لا إله إلا الله تنفي هذا الفعل مع دقته وخفائه على أولئك الصحابة. ذكره المصنف، فكيف بما هو أعظم منه؟ ففيه رد على الجهال الذين يظنون أن معناها الإقرار بأن الله خالق كل شيء، وأن ما سواه مخلوق ونحو ذلك من العبارات، والإغلاظ على من وقع منه ذلك جهلاً.

قوله: «**لتركبن**»: بضم الموحدة أي لتتبعن أنتم أيها الأمة سنن من كان قبلكم بضم السين، أي طرقهم ومناهجهم وأفعالهم ويجوز فتح السين[1]، وهذا خبر

---

(١) هذا الحديث يدل على ثلاثة أمور:

الأول: أنه يقع في الأمة ما أخبر به وأنه لا بد أن يقع ذلك.

الثاني: التحذير من ذلك والحرص على التباعد والكون مع الطائفة المنصورة التي تقل وتكثر =

صحيح وجد كما أخبر ﷺ فيه دليل على شهادة أن محمداً رسول الله، وفي الحديث من الفوائد غير ما تقدم، النهي عن التشبه بأهل الجاهلية من أهل الكتاب والمشركين، وأنه متقرر عندهم أن العبادات مبناها على الأمر، فصار فيها التنبيه على مسائل القبر، أما من ربك؟ فواضح[١]، وأما من نبيك؟[٢] فمن إخباره بأنباء الغيب، وأما ما دينك؟ فمن قولهم: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا﴾ إلى آخره. قاله المصنف، وفيه أن الشرك لا بد أن يقع في هذه الأمة كما وقع فيمن قبلها، ففيه رد على من قال: إن الشرك لا يقع في هذه الأمة[٣]، وفيه سد الذرائع والغضب عند التعليم، وأن ما ذم الله به اليهود والنصارى فإنه لنا لنحذره. ذكره المصنف.

تنبيه: ذكر بعض المتأخرين أن التبرك بآثار الصالحين مستحب كشرب سؤرهم، والتمسح بهم أو بثيابهم، وحمل المولود إلى أحدهم منهم ليحنّكه بتمرة حتى يكون أول ما يدخل جوفه ريق الصالحين، والتبرك بعرقهم ونحو ذلك، وقد أكثر من ذلك أبو زكريا النووي[٤] في «شرح مسلم» في الأحاديث التي فيها أن الصحابة فعلوا شيئاً من ذلك مع النبي ﷺ، وظن أن بقية الصالحين في ذلك كالنبي ﷺ، وهذا خطأ صريح لوجوه: منها عدم المقاربة فضلاً عن المساواة للنبي ﷺ في الفضل والبركة؟ ومنها عدم تحقق الصلاح فإنه لا يتحقق إلا بصلاح

= وتكون مجتمعة ومتفرقة في أمكنة.

الثالث: فيه علم من أعلام النبوة حيث وقع كما أخبر ففيه دليل على صدقه وأنه رسول الله حقاً.

(١) لأنه معروف عند المشركين أنه الخالق الرازق.

(٢) لأن فيه تشريعاً في قوله: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ﴾.

(٣) وأما حديث: «**إن الشيطان يئس أن يعبد في جزيرة العرب**» فيجاب عنه بأنه غير معصوم في يأسه، كما أنه غير معصوم في رجائه، ولم يقل إن الله أيأسه، وقيل إنه يئس أن تطبق الأمة على الشرك، وقيل إنه يئس أن يعبده الصحابة أو المصلون في جزيرة العرب.

(٤) وكما ذكر الحافظ ابن حجر في «فتح الباري شرح صحيح البخاري».

القلب، وهذا أمر لا يمكن الاطلاع عليه إلا بنص، كالصحابة الذين أثنى الله عليهم ورسوله، أو أئمة التابعين، أو من شُهر بصلاح ودين كالأئمة الأربعة ونحوهم من الذين تشهد لهم الأمة بالصلاح وقد عد أولئك، أما غيرهم فغاية الأمر أن نظن أن أنهم صالحون فنرجو لهم، ومنها أنا لو ظننا صلاح شخص فلا نأمن أن يُختم له بخاتمة سوء، والأعمال بالخواتيم، فلا يكون أهلاً للتبرك بآثاره[1]، ومنها أن الصحابة لم يكونوا يفعلون ذلك مع غيره لا في حياته، ولا بعد موته، ولو كان خيراً لسبقونا إليه، فهلا فعلوه مع أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ونحوهم من الذين شهد لهم النبي ﷺ بالجنة، وكذلك التابعون هلا فعلوه مع سعيد بن المسيب، وعلي بن الحسين، وأويس القَرَني[2]، والحسن البصري، ونحوهم ممن يُقطع بصلاحهم، فدل أن ذلك مخصوص بالنبي ﷺ، ومنها أن فعل هذا مع غيره ﷺ لا يؤمن أن يفتنه، وتعجبه نفسه، فيورثه العُجب والكبر والرياء، فيكون هذا كالمدح في الوجه بل أعظم.



(١) ما ذكره المصنف هو الصواب للأمور التي ذكرها وأحسنها ثلاثة أمور:
أحدها: أن ذلك خاص بالنبي ﷺ لما جعل الله في شعره وريقه وفضلاته من البركة ولا يقاس عليه غيره لعدم مساواته.
الثاني: أن الصحابة لم يفعلوا ذلك مع بعضهم ولم يفعله صغار الصحابة مع كبار الصحابة ولا التابعين مع الصحابة.
الثالث: أن ذلك وسيلة إلى الشرك فإن التبرك قد يؤدي إلى دعائه والتقرب إليه من دون الله فيكون المنع سداً لذريعة الشرك.
(٢) بفتح الراء.

باب
ما جاء في الذبح لغير الله

وَقَولُ الله تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ (الأنعام: ١٦٢).

الشَّرح:

أي: من الوعيد، وهل يكون شركاً أم لا؟

قال ابن كثير: يأمر ه تعالى أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير الله ويذبحون لغير اسمه وحده لا شريك له، وهذا كقوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾﴾ (الكوثر: ٢). أي: أخلص له صلاتك وذبيحتك، فإن المشركين يعبدون الأصنام، ويذبحون لها، فأمر الله بمخالفتهم، والانحراف عما هم فيه، والإقبال بالقصد والنية، والعزم على الإخلاص لله تعالى.

قال مجاهد في قوله: ﴿صَلَاتِى وَنُسُكِى﴾. قال: النسك الذبح في الحج والعمرة، وقال الثوري عن السدي، عن سعيد بن جبير: ونسكي: ذبحي، وكذا قال الضحاك، وقال غيره: ومحياي ومماتي، أي: وما آتيه في حياتي، وأموت عليه من الإيمان والعمل الصالح لله رب العالمين خالصة لوجهه، لا شريك له، وبذلك من الإخلاص أمرت، وأنا أول المسلمين؛ لأن إسلام كل نبي متقدم لإسلام أمته، كما قال قتادة: وأنا أول المسلمين، أي: من هذه الأمة. قال ابن كثير: وهو كما قال، فإن جميع الأنبياء قبله كلهم كانت دعوتهم إلى الإسلام، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ (الأنبياء: ٢٥)، وأخبر تعالى عن نوح -عليه الصلاة السلام- أنه

قال لقومه: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾ (يونس: ٧٢)، وذكر آيات في هذا المعنى.

قلت: وفي الآية دلائل متعددة على أن الذبح لغير الله شرك، كما هو بيِّن عند التأمل، وفيها بيان العبادة، وأن التوحيد مناف للشرك مضاد له.



وَقَوْلُهُ: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾ (الكوثر: ٢).

وقوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾. قال شيخ الإسلام: أمره الله أن يجمع بين هاتين العبادتين، وهما الصلاة والنسك الدالتان على القرب، والتواضع، والافتقار، وحسن الظن، وقوة اليقين، وطمأنينة القلب إلى الله، وإلى عدته، عكس حال أهل الكبر والنفرة، وأهل الغنى عن الله الذين لا حاجة لهم في صلاتهم إلى ربهم يسألونه إياها، والذين لا ينحرون له خوفاً من الفقر، ولهذا جمع بينهما في قوله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ (الأنعام: ١٦٢). الآية، والنسك: الذبيحة لله تعالى ابتغاء وجهه، فإنها أجل ما يتقرب به إلى الله، فإنه أتى فيها بالفاء[١] الدالة على السبب[٢]، لأن فعل ذلك سبب للقيام بشكر ما أعطاه الله من الكوثر، وأجل العبادات البدنية الصلاة، وأجل العبادات المالية النحر، وما يجتمع للعبد في الصلاة لا يجتمع له في غيرها، كما عرفه أرباب القلوب الحية. وما يجتمع له في النحر إذا قارنه الإيمان والإخلاص من قوة اليقين، وحسن الظن أمر عجيب. وكان ﷺ كثير الصلاة، كثير النحر، وقال غيره: أي: فاعبد ربك الذي أعزك بإعطائه، وشرّفك وصانك من منن الخلق مراغماً لقومك الذين يعبدون غير الله، وانحر لوجهه وباسمه إذا نحرت مخالفاً لهم في النحر للأوثان. انتهى.

وهذا هو الصحيح في تفسيرها. وأما ما رواه الحاكم عن علي بن أبي طالب قال: لما نزلت هذه السورة على النبي ﷺ ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾ (الكوثر: ١-٢). قال رسول الله ﷺ لجبريل: «**ما هذه النحيرة التي**

(١) ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾.

(٢) أي أن ما قبله سبب له وهو قوله: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾.

أمرني بـها ربي؟ قال: إنـها ليست بنحيرة، ولكن يأمرك إذا أحرمت للصلاة أن ترفع يديك إذا كبرت، وإذا ركعت، وإذا رفعت رأسك من الركوع» الحديث. فهو حديث منكر جداً، وفي إسناده إسرائيل بن حاتم، قال ابن حبان: يروي عن مقاتل الموضوعات، وغيره من الثقات، الأوابد والطامات، يروي عن مقاتل بن حيان ما وضعه عليه ابن عمر بن صبح كان يسرقها منه. وروى عن مقاتل الأصبغ بن نباتة عن علي لما نزلت: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾ الحديث.

في نسخة: ثم قال ابن حبان: يروي عن مقاتل الموضوعات والأوابد والطامات من ذلك خبر يرويه عمر بن صبح عن مقاتل، وظفر به إسرائيل فرواه عن مقاتل عن الأصبغ عن نباتة عن علي... إلخ.



قَالَ عَلِيٌّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: حَدَّثَنِي رَسُولُ الله ﷺ بِأَرْبعِ كَلِماتٍ: «لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ الله، وَلَعَنَ الله مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ، وَلَعَنَ الله مَنْ آوَى مُحدِثاً، وَلَعَنَ الله مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الأَرْضِ». رَوَاهُ مُسلِمٌ.

الحديث رواه مسلم من طرق بمعنى ما ذكره المصنف، وفيه قصة.

ورواه الإمام أحمد كذلك، وعلي بن أبي طالب هو الإمام أبو الحسن الهاشمي ابن عم النبي ﷺ وزوج ابنته فاطمة الزهراء، واسم أبي طالب عبد مناف بن عبدالمطلب بن هاشم القرشي، كان من السابقين الأولين إلى الإسلام[1]، ومن أهل بدر وبيعة الرضوان، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة، ورابع الخلفاء الراشدين، ومناقبه كثيرة -رضي الله عنه-. قتله ابن مُلجَم الخارجي[2] في رمضان سنة أربعين.

قوله: «لعن الله»: قالوا اللعنة: البعد عن مظان الرحمة ومواطنها، وقيل: واللعين والملعون من حقت عليه اللعنة، أو دُعي عليه بها. قال أبو السعادات: أصل اللعنة، الطرد والإبعاد من الله، ومن الخلق: السب والدعاء.

قوله: «من ذبح لغير الله»:

قال النووي: المراد به أن يذبح باسم غير اسم الله تعالى، كمن يذبح للصنم أو للصليب أو لموسى أو لعيسى صلى الله عليهما وسلم، أو للكعبة ونحو ذلك، وكل هذا حرام، ولا تحل هذه الذبيحة سواء كان الذابح مسلماً أو نصرانياً أو يهودياً نص

---

(١) أي علي بن أبي طالب.

(٢) الخوارج؛ الجمهور على أنهم عصاة فسقة لأنهم متأولون، يتأولون النصوص يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان، وذهب طائفة من أهل العلم إلى تكفيرهم واستدلوا بقوله -عليه السلام-: «**يخرجون من الإسلام ثم لا يعودون إليه**»، واستدل الأولون بأنهم متأولون وبقول علي لما سئل عنهم: أكفار هم؟ قال: من الكفر فروا.

عليه الشافعي واتفق عليه أصحابنا، فإن قصد مع ذلك تعظيم المذبوح له غير الله والعبادة له، كان ذلك كفراً[١]، فإن كان الذابح مسلماً قبل ذلك صار بالذبح مرتداً. ذكره في «شرح مسلم» ونقله غير واحد من الشافعية وغيرهم، وقال شيخ الإسلام قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ﴾ (البقرة: ١٧٣). ظاهره أنه ما ذبح لغير الله مثل أن يقال هذه ذبيحة لكذا، وإذا كان هذا هو المقصود فسواء لفظ به أو لم يلفظ. وتحريم هذا أظهر من تحريم ما ذبحه للحم، وقال فيه: باسم المسيح ونحوه، كما أن ما ذبحناه متقربين به إلى الله كان أزكى وأعظم مما ذبحناه للحم، وقلنا عليه باسم الله فإن عبادة الله بالصلاة له والنسك له أعظم من الاستعانة باسمه في فواتح الأمور، فكذلك الشرك بالصلاة لغيره والنسك لغيره أعظم من الاستعانة باسم غيره في فواتح الأمور، فإذا حرم ما قيل فيه باسم المسيح أو الزهرة، فلأن يحرم ما قيل فيه لأجل المسيح أو الزهرة أو قصد به ذلك أولى، فإن العبادة لغير الله أعظم كفراً من الاستعانة بغير الله، وعلى هذا فلو ذبح لغير الله متقرباً إليه لحرم، وإن قال فيه: باسم الله، كما قد يفعله طائفة من منافقي هذه الأمة، الذين يتقربون إلى الكواكب بالذبح والبخور ونحو ذلك، وإن كان هؤلاء مرتدين لا تباح ذبيحتهم بحال، لكن يجتمع في الذبيحة مانعان[٢]. ومن هذا الباب ما يفعله الجاهلون بمكة من الذبح للجن، ولهذا روي عن النبي ﷺ أنه نهى عن ذبائح الجن.

قلت: هذا الحديث رواه البيهقي عن الزهري مرسلاً، وفي إسناده عمر بن هارون، وهو ضعيف عند الجمهور، إلا أن أحمد بن سيار روى عن قتيبة أنه كان يوثقه ورواه ابن حبان في «الضعفاء» من وجه آخر عن عبدالله بن أذينة، عن ثور بن

---

(١) ظاهر كلام النووي أنه لا يكون كفراً إلا إذا قصد تعظيم المذبوح له والصواب أنه يكون كفراً إذا ذبح لغير الله، فإن قصد تعظيم المذبوح له كان أشد.

(٢) **أحدهما:** كونها ذبيحة مرتد، **والثاني:** كونها مما أهل لغير الله.

يزيد، عن الزهري، عن حميد بن عبدالرحمن، عن أبي هريرة مرفوعاً. قال ابن حبان: وعبدالله يروي عن ثور ما ليس من حديثه. قال الزمخشري: كانوا إذا اشتروا داراً أو بنوها أو استخرجوا عيناً ذبحوا ذبيحة خوفاً أن تصيبهم الجن فأضيفت الذبائح إليهم، لذلك قال النووي، وذكر الشيخ إبراهيم المروذي من أصحابنا أن ما ذبح عند استقبال السلطان تقرباً إليه أفتى أهل بخارى بتحريمه لأنه مما أهل به لغير الله.

قال الرافعي: هذا إنما يذبحونه استبشاراً بقدومه، فهو كذبح العقيقة لولادة المولود.

قلت: إن كانوا يذبحون استبشاراً كما ذكر الرافعي فلا يدخل في ذلك، وإن كانوا يذبحونه تقرباً إليه فهو داخل في الحديث[1].

قوله: «**لعن الله من لعن والديه**»: قال بعضهم: يعني أباه وأمه وإن عليا[2]، وفي «الصحيح»: أن رسول الله ﷺ قال: «**إن من الكبائر شتم الرجل والديه**»، قالوا: يا رسول الله، وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: «**نعم، يسب أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه**». فإذا كان هذا حال المتسبب فما ظنك بالمباشر[3]؟

قوله: «**ولعن الله من آوى محدثاً**»: أما أوى بفتح الهمزة ممدودة - أي ضمّ إليه وحمى، وقال أبو السعادات: يقال: أويت إلى المنزل، وآويت غيري وأويته، وأنكر بعضهم المقصور المتعدي. وقال الأزهري: هي لغة فصيحة. وأما محدِثاً. فقال أبو السعادات: يروى بكسر الدال وفتحها على الفاعل والمفعول، فمعنى الكسر: من نصر جانياً وآواه وأجاره من خصمه، وحال بينه وبين أن يُقتص منه؛ والفتح هو الأمر المبتدع نفسه، ويكون معنى الإيواء فيه الرضى به والصبر عليه، فإنه إذا رضي بالبدعة وأقر عليها فاعلها ولم ينكر عليه فقد آواه.

---

(١) والأولى المنع مطلقاً سداً للذريعة وحسماً لمادة الشرك.

(٢) ويجوز وإن علوا فهو واوي يائي والأفصح الواو.

(٣) وهذا يدل على قبح سب الوالدين وأن ذلك لا يصدر إلا من مجنون أو شبهه لمخالفته للعقل والفطرة فضلاً عن الشرع حتى لو كان كافراً فإنه ينفر من ذلك.

قلت: الظاهر أنه على الرواية الأولى يعم المعنيين، لأن المحدث أعم من أن يكون بجناية أو ببدعة في الدين، بل المحدث بالبدعة في الدين شر من المحدث بالجناية؛ فإيواؤه أعظم إثماً، ولهذا عده ابن القيم في كتاب «الكبائر»[١] وقال: هذه الكبيرة تختلف مراتبها باختلاف مراتب الحدَث في نفسه، فكلما كان الحدَث في نفسه أكبر، كانت الكبيرة أعظم.

قوله: «ولعن الله من غيّر منار الأرض»: قال المصنف: هي المراسيم التي تفرق بينك وبين جارك[٢]، وقال النووي: مَنار الأرض -بفتح الميم- علامات حدودها، والمعنى واحد. قيل: وتغييرها أن يقدمها أو يؤخرها، فيكون هذا من ظلم الأرض الذي قال فيه ﷺ: «**من ظلم شبراً من الأرض طُوِّقه يوم القيامة من سبع أرضين**» [رواه البخاري ومسلم]، وفي الحديث دليل على جواز لعن أنواع الفساق كقوله: «**لعن الله آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه**»، ونحو ذلك، فأما لعن الفاسق المعين ففيه قولان ذكرهما شيخ الإسلام **أحدهما**: أنه جائز. اختاره ابن الجوزي وغيره.

والثاني: لا يجوز، اختاره أبو بكر بن عبدالعزيز وشيخ الإسلام[٣]. قال: والمعروف عن أحمد كراهة لعن المعين كالحجاج وأمثاله، وأن يقول كما قال الله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾﴾ (هود: ١٨).



(١) لابن القيم كتاب في الكبائر لم نطلع عليه.

(٢) ويشمل منار الأرض العلامات التي يهتدي بها السابلة والمسافرون لأن تغييرها يفضي إلى أن يسلك الإنسان طريقاً مخوفاً مهلكاً فيه مسبعة أو قطاع طريق.

(٣) وهذا هو الأرجح لأنه لا يدرى ما يختم له فلعله يتوب ولعله معذور، بل يدعى له بالهداية إن كان حياً ويُمسك عنه إن كان ميتاً لأنه أفضى إلى ما قدم؛ اللهم إلا أن يكون سبّه على وجه التحذير من بدعته وأفعاله القبيحة كما سبّ جماعة الحجاج لذلك.

وَعَن طَارِقٍ بنِ شِهَابٍ؛ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «دَخَلَ الجَنَّةَ رَجُلٌ في ذُبَابٍ. وَدَخَلَ النَّارَ رَجُلٌ في ذُبَابٍ». قَالَوا: وَكَيفَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «مَرَّ رَجُلاَنِ عَلَى قَومٍ لَـهُم صَنَمٌ لاَ يُجَاوِزُهُ أَحَدٌ حَتَّى يُقرِّبَ لَهُ شَيئَاً، فَقَالُوا لأَحَدِهِمَا: قَرِّب. قَالَ: مَا عِندِي شَيءٌ، قَالَوا: قَرِّب وَلَو ذُبَابَاً، فَقَرَّبَ ذُبَاباً، فَخَلُّوا سَبِيلَهُ، فَدَخَلَ النَّارَ. وَقَالَوا للآخَرِ: قَرِّب، قَالَ: مَا كُنتُ لأُقَرِّبَ لأَحَدٍ شَيئَاً دُونَ الله عَزَّ وَجَلَّ، فَضَرَبُوا عُنُقَهُ، فَدَخَلَ الجَنَّةَ». رَوَاهُ أَحمَدُ.

هذا الحديث ذكره المصنف معزواً لأحمد، وأظنه تبع ابن القيم في عزوه لأحمد.

قال ابن القيم: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن سليمان ابن ميسرة[1]، عن طارق بن شهاب يرفعه قال: «**دخل رجل الجنة في ذباب...**» الحديث. وقد طالعت «المسند» فما رأيته فيه، فلعل الإمام رواه في كتاب «الزهد» أو غيره.

قوله: «**عن طارق بن شهاب**»: أي البجلي الأحمسي، أبو عبدالله رأى النبي ﷺ، وهو رجل، ويقال: إنه لم يسمع منه شيئاً.

قال البغوي: ونزل الكوفة. قال أبو حاتم: ليست له صحبة. والحديث الذي رواه مرسل. وقال أبو داود: رأى النبي ﷺ ولم يسمع منه شيئاً. قال الحافظ: إذا ثبت أنه لقي النبي ﷺ فهو صحابي على الراجح، وإذا ثبت أنه لم يسمع منه فروايته عن مرسل صحابي، وهو مقبول على الراجح. وقد أخرج له النسائي عدة أحاديث، وذلك مصير منه[2] إلى إثبات صحبته[1] وكانت وفاته على ما جزم به ابن

---

(١) مدلس وقد رواه بالعنعنة، لكن في الصحيحين اعتنيا بروايته فلم يرويا عنه فيهما إلا ما ثبت سماعه بخلاف غيرهما، ولا بأس بسليمان.

(٢) أي النسائي.

حبان سنة ثلاث وثمانين.

قوله: «دخل الجنة رجل في ذباب»: أي من أجل ذباب.

قوله: «قالوا وكيف ذلك يا رسول الله»: سألوا عن هذا الأمر العجيب لأنهم قد علموا أن الجنة لا يدخلها أحد إلا بأعماله الصالحة كما قال تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ (النحل: ٣٢). وأن النار لا يدخلها أحد إلا بالأعمال السيئة فكأنهم تقالُّوا ذلك وتعجبوا واحتقروه(٢)، فبيَّن لهم النبي ﷺ ما صير هذا الأمر الحقير عندهم عظيماً يستحق هذا عليه الجنة، ويستحق الآخر عليه النار. ولعل هذين الرجلين من بني إسرائيل، فإن النبي ﷺ يحدثهم عن بني إسرائيل كثيراً(٣).

قوله: «فقال: مرّ رجلان على قوم لهم صنم». الصنم: ما كان منحوتاً على صورة(٤).

قوله: «لا يجاوزه»: أي لا يمر به ولا يتعداه أحد حتى يقرِّب له شيئاً وإن قل.

---

(١) وعلى كل حال فما رواه له شواهد من الكتاب والسنة في تحريم الشرك والأمر بعبادة الله.

(٢) أي الذباب.

(٣) من المعلوم في الشريعة أن الإنسان إذا أكره فإنه يكون معذوراً في الشرك فما دونه في القول أو الفعل على الراجح، وإن كان بعضهم قال لا يكون الإكراه على الزنا واللواط، وقال بعضهم الإكراه يكون في القول دون الفعل لكنه قول ضعيف؛ لأن الشهوة لا تنتشر مع الإكراه وهذا فيه نظر، قال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ﴾ وهذا الرجل الذي قتل بسبب الذباب لم يترخص بالإكراه فيحتمل أن الإكراه ليس رخصة في شريعتهم كما هو معروف من تكليفهم بالآصار والأغلال، ويحتمل أنه أراد أن يسلك الأعلى ويصبر على القتل، كما لم يترخص الإمام أحمد في فتنة القول بخلق القرآن، بينما ترخص علي بن المديني ويحيى بن معين لئلا يكون إجماع منهم على الترخص فيغتر بذلك الناس.

(٤) ويسمى وثناً وما لم يكن على صورة فهو وثن ولا يسمى صنماً فكل صنم وثن وليس كل وثن صنماً، والتمثال ما كان مثل الشيء وهو يشمل الصنم والوثن، ويشمل الوثن ما كان معنوياً كمن يعبد شيئاً يتخيَّله.

قوله: «قالوا قرب ولو ذباباً فقرب ذباباً فخلوا سبيله فدخل النار»: في هذا بيان عظمة الشرك ولو في شيء قليل، وأنه يوجب النار، ألا ترى إلى هذا لما قرب لهذا الصنم أرذل الحيوان وأخسه وهو الذباب كان جزاؤه النار؛ لإشراكه في عبادة الله؛ إذ الذبح على سبيل القربة والتعظيم عبادة، وهذا مطابق لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ (المائدة: ٧٢)، وفيه الحذر من الذنوب وإن كانت صغيرة في الحسبان، كما قال أنس: «إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر، كنا نعدها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات» [رواه البخاري].

قال المصنف ما معناه: وفيه أنه دخل النار بسبب لم يقصده[١]، بل فعله تخلصاً من شرهم، وفيه أن الذي دخل النار مسلم؛ لأنه لو كان كافراً لم يقل دخل النار في ذباب، وفيه أن عمل القلب هو المقصود[٢] الأعظم حتى عند عبدة الأوثان[٣].

قوله: «وقالوا للآخر: قرِّب. قال ما كنت لأقرِّب لأحد شيئاً دون الله عز وجل» إلى آخره. قال المصنف: في هذا بيان فضيلة التوحيد والإخلاص.

قال المصنف: وفيه معرفة قدر الشرك في قلوب المؤمنين، كيف صبر على القتل ولم يوافقهم على طلبتهم مع كونهم لم يطلبوا إلا العمل الظاهر، وفيه شاهد للحديث الصحيح: «**الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله، والنار مثل ذلك**».

قلت: وفيه التنبيه على سعة مغفرة الله وشدة عقوبته، وأن الأعمال بالخواتيم.



---

(١) أي ابتداءً وإن كان قصده لما ألزموه.

(٢) لأن المقصود الموافقة فإذا وافقهم كفر ولو لم يقرب شيئاً، وهذا الذي دخل النار لم يقل إنه لا يوافقهم بل اعتذر بعدم وجود شيء يقربه وإلا فهو موافق فطلبوا منه ما يدل على الموافقة وهو أن يقرِّب، فلما قرَّب الذباب علموا منه الموافقة فخلوا سبيله فدخل النار.

(٣) لأن العقيدة لها شأن فمن اعتقد حل محرم كفر ولو لم يفعله أو اعتقد تحريم مباح كفر وإن فعله أو اعتقد عدم وجوب الصلاة أو الزكاة أو الصيام أو الحج كفر، وإن فعله.

باب
لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله

وَقَوْلُ الله تَعَالَى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ (التوبة: ١٠٨).

الشَّرْحُ:

أي أن ذلك لا يجوز لما سيذكره المصنف.

قال: وقول الله تعالى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ (التوبة: ١٠٨) الآية.

حاصل كلام المفسرين في الآية أن الله نهى رسوله ﷺ أن يقوم في مسجد الضرار في الصلاة فيه أبداً، والأمة تبع له في ذلك، ثم حثه على الصلاة في مسجد قباء الذي أسس من أول يوم بني فيه على التقوى، وهي طاعة الله ورسوله ﷺ، وجمعاً لكلمة المؤمنين، ومعقلاً ومنزلاً للإسلام وأهله بقوله: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ﴾ (التوبة: ١٠٨). والسياق إنما هو في مسجد قباء، ولهذا جاء في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «**صلاة في مسجد قباء كعمرة**»[(١)]، وفي «الصحيح» أن رسول الله ﷺ كان يزور قباء راكباً وماشياً وقد صرح بأن المسجد المؤسس على التقوى هو مسجد قباء. ذكره جماعة من السلف، منهم ابن عباس وعروة وعطية والشعبي والحسن وغير واحد. وقيل هو مسجد

---

(١) ورد أنه ﷺ يزور قباء في كل سبت ويصلي فيه أطلق الجزء وأراد الكل، أي: أطلق اليوم وهو السبت على الأسبوع، فيحتمل أن المراد كل أسبوع، فكل سبت أي كل أسبوع ويحتمل أن المراد الأسبوع واليوم هو السبت، كما أن المراد ويصلي فيه الصلاة المطلقة ولم يقيد بركعتين.

رسول الله ﷺ لحديث أبي سعيد قال: تمارى رجلان في المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم فقال رجل: هو مسجد قباء، وقال الآخر: هو مسجد رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «**هو مسجدي هذا**» [رواه مسلم]، وهو قول عمر وابنه وزيد بن ثابت وغيرهم.

قال ابن كثير: وهذا صحيح، ولا منافاة بين الآية وبين هذا، لأنه إذا كان مسجد قباء قد أسس على التقوى من أول يوم، فمسجد رسول الله ﷺ بطريق الأولى. وهذا بخلاف مسجد الضرار الذي أسس على معصية الله تعالى كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ (التوبة: ١٠٧). فلهذه الأمور نهى الله نبيه ﷺ عن القيام فيه للصلاة. وكان المنافقون الذين بنوه جاءوا إلى النبي ﷺ قبل خروجه إلى تبوك فسألوه أن يصلي فيه ليحتجوا بصلاته فيه على تقريره. وذكروا أنهم بنوه للضعفاء وأهل العلة في الليلة الشاتية، فعصمه الله من الصلاة فيه فقال: «**إنا على سفر ولكن إذا رجعنا إن شاء الله**» فلما قفل -عليه الصلاة والسلام- راجعاً إلى المدينة ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم، نزل عليه الوحي بخبر المسجد، فبعث إليه فهدمه قبل مقدمه إلى المدينة.

ووجه الدلالة من الآية على الترجمة من جهة القياس، لأنه إذا منع الله رسوله ﷺ عن القيام لله تعالى في هذا المسجد المؤسس على هذه المقاصد الخبيثة مع أنه لا يقوم فيه إلا لله فكذلك المواضع المعدة للذبح لغير الله لا يذبح فيها الموحد لله، لأنها قد أسست على معصية الله والشرك به، ويؤيده حديث ثابت بن الضحاك الآتي.

وقوله: ﴿فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾ روى الإمام أحمد وابن خزيمة

والطبراني والحاكم عن عويم بن ساعدة الأنصاري أن النبي ﷺ أتاهم في مسجد قباء فقال: «**إن الله قد أحسن عليكم الثناء في الطهور في قصة مسجدكم، فما هذا الطهور الذي تطهرون به؟**» فقالوا والله يا رسول الله ما نعلم شيئاً إلا أنه كان لنا جيران من اليهود فكانوا يغسلون أدبارهم من الغائط فغلسنا كما غسلوا، وفي رواية عن جابر وأنس مرفوعاً: «**هو ذاك فعليكموه**» [رواه ابن ماجه وابن أبي حاتم والدارقطني والحاكم]

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ۝١٠٨﴾[1]: أي الذين يتنزهون من القاذورات والنجاسات بعد ما يتنزهون من أوضار الشرك وأقذاره. قال أبو العالية[1]: إن الطهور بالماء لحسن ولكنهم المتطهرون من الذنوب. قال ابن كثير: وفيه دليل على استحباب الصلاة مع الجماعة الصالحين المتنزهين عن ملابسة القاذورات، المحافظين على إسباغ الوضوء.

قلت: وفيه إثبات المحبة[2].



(١) من التابعين اسمه: رويفع الرياحي.

(٢) على ما يليق بالله.

عَن ثَابِتِ بنِ الضَّحَاكِ قَالَ: نَذَرَ رَجُلٌ أَن يَنحَرَ إبلاً بِبُوانَةٍ، فَسَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ، فقَالَ: «هَلْ كَانَ فِيهَا وَثَنٌ مِنْ أَوْثَانِ الجَاهِلِيَّةِ يُعْبَدُ؟» قَالُوا لاَ. قَالَ: «فَهَلْ كَانَ فِيهَا عِيدٌ مِنْ أَعْيَادِهِمْ؟» قَالَوا: لاَ. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «أَوْفِي بِنَذْرِكَ؛ فَإِنَّهُ لاَ وَفَاءَ لِنَذْرٍ فِي مَعْصِيَةِ الله، وَلاَ فِيمَا لاَ يَمْلِكُ ابْنُ آدَمَ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَإِسنَادُهُ عَلَى شَرطِهِمَا.

هذا الحديث رواه أبو داود فقال حدثنا داود بن رُشَيد قال: ثنا شعيب بن إسحاق، عن الأوزاعي قال: حدثني يحيى بن أبي كثير[1] قال: حدثني أبو قلابة: قال حدثني ثابت بن الضحاك قال: نذر رجل على عهد رسول الله ﷺ أن ينحر إبلاً ببوانة، فأتى النبي ﷺ فقال: إني نذرتُ أن أنحر إبلاً ببوانة، فقال النبي ﷺ: «**هل كان فيها وثن...**» الحديث. وهذا إسناد جيد، وروى أبو داود أيضاً عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده أن امرأة أتت النبي ﷺ فقالت إني نذرتُ أن أذبح بمكان كذا وكذا؛ مكان يذبح فيه أهل الجاهلية قال:«**لصنم؟**» قالت: لا، قال: «**لوثن؟**» قالت لا، قال: «**أوف بنذرك**». مختصر. ومعنى قوله: «لصنم؟» إلى آخره أي هل يذبحون فيه لصنم أو وثن فيكون كحديث ثابت[2].

قوله: «عن ثابت بن الضحاك»: أي ابن خليفة الأشهلي، صحابي، مشهور، روى عنه أبو قلابة وغيره. مات سنة أربع وستين.

---

(١) مدلس لكنه صرح بالسماع من أبي قلابة.

(٢) حمل حديث عمرو بن شعيب في المرأة على حديث ثابت ليس بجيد، لأنهما مختلفان، فحديث ثابت سأل فيه عن المكان، والحديث سأله فيه عن القرب في العبادة ولم يسأل عن المكان لأنه معروف عندها أو لأنه سبق التنبيه عليه كما أن في حديث ثابت لم يسأل عن العبادة لله أو لغيره لأنه معروف فالمقصود أنه يقيد كل حديث بما ذكر في الآخر فيكون العبادة يشترط لها شرطان أن تكون لله وأن تكون بمكان سالم من شرك الجاهلية.

قوله: «**نذر رجل**»: يحتمل أن يكون هو كردم بن سفيان والد ميمونة؛ لما روى أبو داود عنها قالت: خرجت مع أبي في حجة رسول الله ﷺ فرأيت رسول الله ﷺ قالت فدنا إليه أبي فقال: يا رسول الله إني نذرت إن وُلد لي ولدٌ ذكر أن أنحر على رأس بُوانة في عَقَبةٍ من الثنايا عدة من النعم قال لا أعلم إلا أنها خمسين، فقال رسول الله ﷺ: «**هل بها من هذه الأوثان شيء؟**» قال: لا، قال: «**فأوف بما نذرت لله**» وذكر الحديث.

قوله: «**أن ينحر إبلاً**» في حديث ميمونة، قال: «**فأوف بما نذرت لله**» قال: فجمعها فجعل يذبحها، فانفلتت منه شاة فطلبها، وهو يقول: اللهم أوف بنذري فظفر بها فذبحها. فيحتمل أن يكون نذر إبلاً وغنماً ويحتمل أن يكون ذلك قضيتين[1].

قوله: «**ببوانة**»: بضم الباء وقيل بفتحها. قال البغوي: موضع في أسفل مكة دون يلملم. وقال أبو السعادات: هضبة من وراء ينبع.

قوله: «**فقال هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد؟**»: قال في «عروة المفتاح»: الصنم: هو ما له صورة، والوثن ما ليس له صورة.

قلت: هذا هو الصحيح في الفرق بينهما[2] وقد جاء عن السلف ما يدل على ذلك. وفيه المنع من الوفاء بالنذر إذا كان في المكان وثن من أوثانهم، وبعد زواله. ذكره المصنف.

قوله: «**فهل كان فيها عيد من أعيادهم؟**». قال شيخ الإسلام: العيد اسم لما يعود من الاجتماع العام على وجه معتاد إما بعود السنة أو بعود الأسبوع، أو الشهر

---

(١) وهذا هو الأرجح لأن الوقائع تتعدد والأسئلة تكثر وهم يكثرون النذر.

(٢) ويطلق على الصورة وثن كما في قوله تعالى عن إبراهيم: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ ۝٥٢﴾.

ونحو ذلك، والمراد به هنا الاجتماع المعتاد من اجتماع الجاهلية، فالعيد يجمع أموراً منها يوم عائد كيوم الفطر، ويوم الجمعة، ومنها اجتماع فيه، ومنها أعمال تتبع ذلك من العبادات والعادات. وقد يختص العيد بمكان بعينه، وقد يكون مطلقاً. وكل من هذه الأمور قد يسمى عيداً، فالزمان كقول النبي ﷺ في يوم الجمعة: «**إن هذا يوم جعله الله للمسلمين عيداً**»، والاجتماع والأعمال كقول ابن عباس: شهدت العيد مع رسول الله ﷺ. والمكان كقوله: «**لا تتخذوا قبري عيداً**» وقد يكون لفظ العيد اسماً لمجموع اليوم والعمل فيه، وهو الغالب كقول النبي ﷺ لأبي بكر «**دعهما يا أبا بكر فإن لكل قوم عيداً**». انتهى.

وفيه استفصال المفتي والمنع من الوفاء بالنذر إذا كان في المكان عيد من أعياد الجاهلية ولو بعد زواله، والحذر من مشابهة المشركين في أعيادهم ولو لم يقصده. ذكره المصنف.

قوله: «فأوف بنذرك»: هذا يدل على أن الذبح في المكان الذي يذبح فيه المشركون لغيره، أو في محل أعيادهم معصية؛ لأن قوله: «**فأوف بنذرك**» تعقيب للوصف بالحكم بحرف الفاء، وذلك يدل على أن الوصف سبب الحكم فيكون سبب الأمر بالوفاء وجود النذر خالياً عن هذين الوصفين(١)، فيكونان مانعين من الوفاء، ولو لم يكن معصية لجاز الوفاء به، ولأنه عقبه بقوله: «**فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله**» فدل على أن الصورة المسؤول عنها مندرجة في هذا اللفظ العام؛ لأن العام إذا ورد على سبب، فلا بد أن يكون السبب مندرجاً فيه، ولأنه لو كان الذبح فيما ذكر جائزاً لسوغ ﷺ للناذر الوفاء به كما سوّغ لمن نذر الضرب بالدف أن تضرب به لأنه -عليه السلام- استفصل فلما قالوا لا، قال له: «**فأوف بنذرك**» وهذا يقتضي أن كون البقعة مكاناً لعيدهم، أو بها وثن من أوثانهم مانع من الذبح

(١) كون المكان يذبح فيه لغير الله وكون المكان محل لأعياد المشركين.

بها وإن نذر، وإلا ما حسن الاستفصال، هذا معنى كلام شيخ الإسلام، وفيه أن تخصيص البقعة بالنذر لا بأس به إذا خلا من الموانع(١).

قوله: «فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله»: دليل على أن هذا نذر معصية، لا يجوز الوفاء به لما تقدم(٢)، وعلى أن نذر المعصية لا يجوز الوفاء به. وقد أجمع العلماء على ذلك لهذا الحديث، وحديث عائشة الآتي وما في معناهما، واختلفوا هل تجب فيه كفارة يمين؟ على قولين: هما روايتان عن أحمد.

أحدهما: تجب وهو المذهب المشهور عن أحمد، وروي عن ابن مسعود وابن عباس، وبه قال أبو حنيفة وأصحابه لحديث عائشة مرفوعاً: «**لا نذر في معصية وكفارته كفارة يمين**» رواه أحمد وأهل السنن، واحتج به أحمد وإسحاق(٣).

والثاني: لا كفارة عليه(٤). روي ذلك عن مسروق والشعبي، والشافعي لحديث الباب، وحديث عائشة الآتي ولم يذكر فيهما كفارة، وجوابه أن عدم ذكر الكفارة لا يدل على عدم وجوبها.

قوله: «ولا فيما لا يملك ابن آدم». قال في «شرح المصابيح»(٥): يعني إذا أضاف النذر إلى معين لا يملكه بأن قال: إن شفى الله مريضي فله عليَّ أن أعتق عبد فلان، أو أتصدق بثوبه ونحو ذلك فإما إذا التزم في الذمة شيئاً لا يملكه فيصح نذره، مثاله: إن شفى الله مريضي فلله عليَّ أن أعتق رقبة، وهو في ذلك الحال لا

---

(١) إذا خصَّ نذره بمكان معين لمقصد صالح من فقراء أو أقارب فإنه لا بأس بذلك إذا لم يكن هناك محذور شرعي

(٢) قوله: لما تقدم، أي من أن العام إذا ورد على سبب فلا بد أن يكون داخلاً فيه.

(٣) إسحاق بن إبراهيم الحنظلي، التميمي، من أقران أحمد في العلم والزمان، من علماء خراسان، ولد عام (١٦٦هـ)، وتوفي (٢٣٨هـ) وأحمد ولد عام (١٦٤هـ)، وتوفي عام (٢٤١هـ).

(٤) الراجح وجوب الكفارة حملاً لمطلق هذا الحديث على المقيد وهو حديث عائشة.

(٥) هو «مشارق الأنوار» للقاضي عياض.

يملك رقبة ولا قيمتها، فيصح نذره وإذا شفي ثبت النذر في ذمته[١].

قوله: «رواه أبو داود وإسناده على شرطهما»: أي شرط البخاري ومسلم، وأضمرهما للعلم بذلك، وأبو داود اسمه سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد الأزدي السجستاني، صاحب الإمام أحمد، ومصنف «السنن» وغيرهما ثقة، إمام حافظ من كبار العلماء. مات سنة خمس وسبعين ومئتين.



(١) وهذا التفصيل صحيح.

باب
من الشرك النذر لغير الله

وَقَولُ الله تَعَالَى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ۝٧﴾ (الإنسان: ٧).

الشَّرح:

أي إنه من العبادة، فيكون صرفه لغير الله شركاً، فإذا نذر نذر طاعة وجب عليه الوفاء بها، وهو عبادة، وقربة إلى الله. ولهذا مدح الله الموفين به، فإن نذر لمخلوق تقرباً إليه ليشفع له عند الله، ويكشف ضره ونحو ذلك فقد أشرك في عبادة الله تعالى غيره ضرورة، كما أن من صلى لله وصلى لغيره، فقد أشرك، وكذلك هذا.

لقوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ (الإنسان: ٧). وجه الدلالة من الآية على الترجمة أن الله تعالى مدح الموفين بالنذر، والله تعالى لا يمدح إلا على فعل واجب أو مستحب، أو ترك محرم، لا يمدح على فعل المباح المجرد، وذلك هو العبادة، فمن فعل ذلك لغير الله متقرباً إليه فقد أشرك.



وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ (البقرة: ٢٧٠).

قال: «وقوله: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾». وجه الدلالة من الآية على الترجمة أن الله تعالى أخبر بأن ما أنفقناه من نفقة أو نذرناه من نذر متقربين بذلك إليه أنه يعلمه، ويجازينا عليه. فدل ذلك على أنه عبادة وبالضرورة يدري كل مسلم أن من صرف شيئاً من أنواع العبادة لغير الله فقد أشرك.

قال ابن كثير: يخبر تعالى بأنه عالم بجميع ما يعمله العاملون من الخيرات من النفقات والمنذورات. وتضمن ذلك مجازاته على ذلك أوفر الجزاء للعاملين لذلك، ابتغاء وجهه، ورجاء موعوده. إذا علمت ذلك فهذه النذور الواقعة من عبّاد القبور وأشباههم لمن يعتقدون فيه نفعاً أو ضراً فيتقرب إليه بالنذر، ليقضي حاجته أو ليشفع له. كل ذلك شرك في العبادة، وهو شبيه بما ذكر الله عن المشركين في قوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ (الأنعام: ١٣٦). الأنعام، روى ابن أبي حاتم في الآية. يعني جعلوا لله جزءاً من الحرث ولشركائهم ولأوثانهم جزءاً، فلما ذهبت به الريح مما سموا لله إلى جزء أوثانهم تركوه، وقالوا: الله عن هذا غني، وما ذهبت به الريح من جزء أوثانهم إلى جزء الله أخذوه. وعباد القبور يجعلون لله جزءاً من أموالهم بالنذر والصدقة، وللأموات والطواغيت جزءاً كذلك، وقد نص غير واحد من العلماء، على أن النذر لغير الله شرك. قال شيخ الإسلام: وأما ما نذره لغير الله كالنذر للأصنام والشمس والقمر

والقبور ونحو ذلك فهو بمنزلة أن يحلف بغير الله من المخلوقات، والحالف بالمخلوقات لا وفاء عليه ولا كفارة[(١)]، وكذلك الناذر للمخلوق ليس عليه وفاء ولا كفارة، فإن كلاهما شرك؛ والشرك ليس له حرمة، بل عليه أن يستغفر الله من هذا العقد ويقول ما قال النبي ﷺ حيث قال: «**من حلف باللات والعزى فليقل لا إله إلا الله**»[(٢)]، وقال أيضاً فيمن نذر للقبور ونحوها دهناً لتُنوَّر به ويقول: إنها تقبل[(٣)] النذر كما يقول بعض الضالين، فهذا النذر معصية باتفاق العلماء، لا يجوز الوفاء به، وكذلك إذا نذر مالاً من النقد أو غيره للسدنة أو المجاورين العاكفين بتلك البقعة، فإن هؤلاء السدنة فيهم شبه من السدنة التي كانت للات والعزى ومناة يأكلون أموال الناس بالباطل، ويصدون عن سبيل الله والمجاورون هناك فيهم شبه من العاكفين الذين قال فيهم إبراهيم الخليل -عليه السلام-: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ۝٥٢﴾ (الأنبياء: ٥٢) والذين اجتاز بهم موسى -عليه السلام- قومه، قال تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ (الأعراف: ١٣٨). فالنذر لأولئك السدنة والمجاورين في هذه البقاع التي لا فضل للشريعة في المجاورة فيها نذر معصية، وفيه شبه من النذر لسدنة الصلبان المجاورين عندها، أو لسدنة الأبدال في الهند والمجاورين عندها، ثم هذا المال إذا صرفه في جنس تلك العبادة من المشروع مثل أن يصرفه في عمارة المساجد أو للصالحين من فقراء المسلمين يستعينون بالمال على عبادة الله كان حسناً. وقد

---

(١) ليس عليه كفارة لأن الأصل براءة الذمة إلا إن ثبت الحديث في وجوب الكفارة فإنه يجب العمل بما دل عليه.

(٢) الحديث في «الصحيحين».

(٣) أي تنفع الناذر بأن تشفع له وتنفعه.

تقدم كلام ابن القيم في قوله: ويقولون إنها تقبل النذر أي: تقبل العبادة[١] من دون الله، فإن النذر عبادة إلى آخره.

وقال الإمام الأذْرُعي في «شرح منهاج النووي»: وأما النذر للمشاهد التي بنيت على قبر ولي أو شيخ، أو على اسم من حلها من الأولياء، أو تردد في تلك البقعة من الأنبياء والصالحين، فإن قصد الناذر بذلك وهو الغالب أو الواقع من قصد العامة في تعظيم البقعة والمشهد والزاوية، أو تعظيم من دفن بها أو نسبت إليه، أو بنيت على اسمه، فهذا النذر باطل غير منعقد، فإن معتقدهم أن لهذه الأماكن خصوصيات لأنفسها، ويرون أنها مما يدفع به البلاء، ويستجلب به النعماء، ويستشفى بالنذر لها من الأدواء حتى إنهم ينذرون لبعض الأحجار لما قيل: أنه جلس إليها أو استند إليها عبد صالح، وينذرون لبعض القبور السرج والشموع والزيت ويقولون القبر الفلاني أو المكان الفلاني يقبل النذر، يعنون بذلك أنه يحصل به الغرض المأمول من شفاء مريض، وقدوم غائب، وسلامة مال، وغير ذلك من أنواع نذر المجازاة. فهذا النذر على هذا الوجه باطل لا شك فيه، بل نذر الزيت والشمع ونحوهما للقبور باطل مطلقاً من ذلك نذر الشموع الكثيرة العظمة وغيرها لقبر الخليل -عليه السلام-، ولقبر غيره من الأنبياء والأولياء[٢]، فإن الناذر لا يقصد بذلك إلا الإيقاد على القبر تبركاً وتعظيماً، ظاناً أن ذلك قربة، فهذا مما لا ريب في بطلانه. والإيقاد المذكور محرم سواء انتفع به هناك منتفع أم لا إلى آخر كلامه.

وقال الشيخ قاسم الحنفي في «شرح درر البحار»: النذر الذي ينذره أكثر

---

(١) فتنفع الناذر بأن تشفع له.

(٢) لا يعلم موضع قبر أحد من الأنبياء غير قبر نبينا ﷺ وقبر إبراهيم -عليه السلام- في المغارة لكنها واسعة لا يعلم موضعه منها.

العوام على ما هو مشاهد، كأن يكون للإنسان غائب أو مريض له أو له حاجة ضرورية، فيأتي إلى بعض الصلحاء، ويجعل على رأسه سترة ويقول: يا سيدي فلان إن رد الله غائبي أو عوفي مريضي أو قُضيت حاجتي فلك من الذهب كذا، أو من الفضة كذا، أو من الطعام كذا، أو من الماء ومن الشمع والزيت كذا، فهذا النذر باطل بالإجماع لوجوه منها: أنه نذر لمخلوق، والنذر للمخلوق لا يجوز لأنه عبادة، والعبادة لا تكون لمخلوق، ومنها أن المنذور له ميت والميت لا يملك. ومنها أنه ظن أن الميت يتصرف في الأمور دون الله، واعتقاد ذلك كفر، إلى أن قال: إذا علمت هذا فما يؤخذ من الدراهم والشمع والزيت وغيرها وينقل إلى ضرائح الأولياء تقرباً إليهم فحرام بإجماع المسلمين. نقله عنه ابن نجيم في «البحر الرائق» في آخر كتاب الصوم، ومنه نقله المرشدي أيضاً في «تذكرته» ونقله غيرهما عنه وزاد: وقد ابتلي الناس بهذا لا سيما في مولد أحمد البدوي[1].

وقال الشيخ صنع الله الحلبي الحنفي في الرد على من أجاز الذبح والنذر للأولياء، وأثبت الأجر في ذلك: فهذا الذبح والنذر إن كان على اسم فلان وفلان فهو لغير الله فيكون باطلاً، وفي التنزيل: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ (الأنعام: ١٢١)، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ (الأنعام: ١٦٢-١٦٣). أي: صلاتي وذبحي لله، كما فسر به قوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾﴾ (الكوثر: ٢)، وفي الحديث: «**لا نذر في معصية الله**» رواه أبو داود وغيره. والنذر لغير الله إشراك مع الله، إلى أن قال: فالنذر لغير الله كالذبح لغيره.

وقال الفقهاء خمسة لغير الله شرك: الركوع والسجود والنذر والذبح واليمين. قال: والحاصل أن النذر لغير الله فجور، فمن أين تحصل لهم الأجور؟. انتهى

(١) والفتنة به تزداد، ولا نشاط لعلماء الأزهر في التوحيد إنما نشاطهم داخل جدران الأزهر.

ملخصاً.

وقال القاضي أبو بكر بن العربي المالكي: قد نهي عن النذر، ونُدب إلى الدعاء والسبب فيه أن الدعاء عبادة عاجلة، ويظهر به التوجه إلى الله تعالى، والتضرع له، وهذا بخلاف النذر فإنه فيه تأخير العبادة إلى حين الحصول وترك العمل إلى حين الضرورة. فقد نص أبو بكر على أن الدعاء والنذر عبادتان ولا يمتري مسلم أن من عبد غير الله فقد أشرك، ولكن كما قال تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ (يونس: ١٠١).



وَفِي الصَّحِيحِ عَن عَائِشَةَ: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ الله فَلْيُطِعْهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ الله، فَلاَ يَعْصِهِ».

قوله: «**في الصحيح**»: «أي صحيح البخاري».

قوله: «**عن عائشة**»: هي أم المؤمنين، وزوج النبي ﷺ، وبنت أبي بكر الصديق -رضي الله عنهما-، تزوجها النبي ﷺ وهي بنت سبع سنين، ودخل بها وهي بنت تسع سنين، وهي أفقه النساء مطلقاً، وأفضل أزواج النبي ﷺ إلا خديجة ففيهما خلاف كثير[1]. ماتت سنة سبع وخمسين على الصحيح. قاله الحافظ.

قوله: «**من نذر أن يطيع الله فليطعه**»: أي فليفعل ما نذر من طاعة الله وقد أجمع العلماء على أن من نذر طاعة بشرط يرجوه كقوله: إن شفى الله مريضي فعلي أن أتصدق بكذا ونحو ذلك، وجب عليه أن يوفي بها مطلقاً إذا حصل الشرط؛ إلا أنه حكي عن أبي حنيفة أنه لا يلزمه الوفاء بها لا أصل له في الوجوب، كالاعتكاف، وعيادة المريض، والحديث حجة عليه؛ لأنه لم يفرق بين ما له أصل في الوجوب وما لا أصل له، فإن نذر ابتداءً كقوله: لله تعالى علي صوم شهر فالحكم أيضاً كذلك في قول الأكثرين. وعن بعضهم أنه لا يلزم، والحديث حجة عليه أيضاً؛ لأنه لم يفرق بين ما علقه على شرط وبين ما نذر ابتداءً.

قوله: «**ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه**» زاد الطحاوي: «**وليكفر عن يمينه**»: قال ابن القطان: عندي شك في رفع هذه الزيادة أي لا يفعل المعصية التي نذرها. وقد أجمع العلماء على أنه لا يجوز الوفاء بنذر المعصية.

---

(١) واختلف أيهما أفضل عائشة وخديجة فقيل عائشة وقيل خديجة، وقيل خديجة أفضل في أول الإسلام وعائشة أفضل بعد ذلك، والصحيح أن عائشة أفضل لعلمها ونفعها المسلمين، ومن النساء الفضليات: مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون، وفاطمة بنت رسول الله.

قال الحافظ في «الفتح»: واتفقوا على تحريم النذر في المعصية، وتنازعوا هل ينعقد موجباً للكفارة أم لا؟ وقد تقدم ذلك في الباب قبله. وقد يستدل بقوله: «**ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه**» بصحة النذر في المباح، كما هو مذهب أحمد وغيره. ويؤيده ما رواه أبو داود عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده ورواه أحمد والترمذي عن بريدة أن امرأة قالت: يا رسول الله إني نذرت أن أضرب على رأسك بالدف[١] فقال: «**أوف بنذرك**» وإذا صححناه فحكمه حكم الحلف على فعله، فيخير بين فعله وكفارة اليمين، وأما نذر اللجاج والغضب فهو يمين عند أحمد، فيخير بين فعله وكفارة اليمين، لحديث عمران بن حصين مرفوعاً: «**لا نذر في غضب، وكفارته كفارة يمين**»، رواه سعيد وأحمد، والنسائي، وله طرق، وفيه كلام فإن نذر مكروهاً كالطلاق، استحب أن يكفر ولا يفعله[٢].



(١) الضرب بالدف ليس مباحاً فقط بل هو مشروع ومستحب في الأعراس، وهذه المرأة نذرت الضرب بالدف إذا قدم من غزاة كذا إظهاراً للسرور والفرح، فهو مشروع بحسبه لا مباح فقط.

(٢) ذكر الشارح الأحكام الخمسة للنذر.

باب
من الشرك الاستعاذة بغير الله

الشرح:

الاستعاذة: الالتجاء والاعتصام، والتحرز، وحقيقتها: الهروب من شيء تخافه إلى من يعصمك منه، ولهذا يسمى المستعاذ به معاذاً، وملجأً ووزراً، فالعائذ بالله قد هرب مما يؤذيه أو يهلكه إلى ربه ومالكه، وفر إليه، وألقى نفسه بين يديه واعتصم به، واستجار به، والتجأ إليه، وهذا تمثيل وتفهيم، وإلا فما يقوم بالقلب من الالتجاء إلى الله، والاعتصام به، والاطراح بين يدي الرب، والافتقار إليه، والتذلل بين يديه، أمر لا تحيط به العبارة. هذا معنى كلام ابن القيم.

وقال ابن كثير: الاستعاذة هي الالتجاء إلى الله والالتصاق بجنابه من شر كل ذي شر. والعياذ يكون لدفع الشر. واللياذ لطلب الخير. وهذا معنى كلام غيرهما من العلماء، فتبين بهذا أن الاستعاذة بالله عبادة لله، ولهذا أمر الله بالاستعاذة به في غير آية، وتواترت السنن عن النبي ﷺ بذلك. قال الله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾ (فصلت: ٣٦)، وقال: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾ (المؤمنون: ٩٧-٩٨)، وقال: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾﴾ (غافر: ٥٦)، وقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾﴾ (الفلق: ١)، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾﴾ (الناس: ١-٢). فإذا كان تعالى هو ربنا وملكنا وإلهنا، فلا مفزع لنا في الشدائد سواه، ولا ملجأ لنا منه إلا إليه، ولا معبود لنا غيره، فلا ينبغي أن يدعى ولا يخاف ولا يرجى ولا يحب غيره، ولا يذل ولا يخضع لغيره، ولا يتوكل إلا عليه، لأن من

تخافه وترجوه وتدعوه وتتوكل عليه، إما أن يكون مربيك، والقيِّم بأمورك ومتولي شأنك، فهو ربك، فلا رب لك سواه، وتكون مملوكه وعبده الحق، فهو ملك الناس حقاً، وكلهم عبيده ومماليكه، أو يكون معبودك وإلهك الذي لا تستغني عنه طرفة عين، بل حاجتك إليه أعظم من حاجتك إلى حياتك وروحك، فهو الإله الحق إله الناس، فمن كان ربهم وملكهم وإلههم فهم جديرون أن لا يستعيذوا بغيره، ولا يستنصروا بسواه ولا يلجأون إلى غير حماه، فهو كافيهم وحسبهم وناصرهم ووليهم ومتولي أمورهم جميعاً بربوبيته وملكه وإلهيته لهم، فكيف لا يلتجئ العبد عند النوازل ونزول عدوه به إلى ربه وملكه وإلهه، وهذه طريقة القرآن يحتج عليهم بإقرارهم بهذا التوحيد على توحيد الإلهية، وهذا معنى كلام ابن القيم، فإذا تحقق العبد بهذه الصفات: الرب والملك والإله، وامتثل أمر الله واستعاذ به فلا ريب أن هذه عبادةٌ من أجل العبادات، بل هو من حقائق توحيد الإلهية، فإن استعاذ بغيره فإنه عابد لذلك الغير، كما أن من صلى لله وصلى لغيره يكون عابداً لغير الله كذلك الاستعاذة، ولا فرق؛ إلا أن المخلوق يطلب منه ما يقدر عليه ويستعاذ به فيه، بخلاف ما لا يقدر عليه إلا الله، فلا يستعاذ فيه إلا بالله، كالدعاء، فإن الاستعاذة من أنواعه[1].



(١) العبادات نوعان: نوع لا يكون إلا لله كالصلاة والصيام والحج، ونوع يكون لله ويكون أمراً عادياً جائزاً إذا كان من حي حاضر، كالدعاء والاستعانة والاستغاثة والاستعاذة، فإن كان من حي غير قادر، أو من غائب ميت كان شركاً.

وَقَولُ الله تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾ (الجن: ٦).

المعنى والله أعلم على قول أن الإنس زادو الجن باستعاذتهم بهم رهقاً، أي: إثماً وطغياناً وشراً، فضمير الفاعل على هذا للعائذين من الإنس وضمير المفعول للمستعاذ بهم من الجن، وعلى القول الثاني بالعكس، وزيادتهم للإنس رهقاً بإغوائهم وإضلالهم، وذلك أن الرجل من العرب كان إذا أمسى في وادٍ قَفْر في بعض مسايره[1] وخاف على نفسه قال: أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه، يريد الجن وكبيرهم. قال مجاهد: كانوا يقولون إذا هبطوا وادياً: نعوذ بعظيم هذا الوادي، فزادوهم رهقاً. قال: زادوا الكفار طغياناً. رواه عبد بن حميد، وابن المنذر، والآثار بذلك عن السلف مشهورة، ووجه الاستدلال بالآية على الترجمة أن الله حكى عن مؤمني الجن أنهم لما تبين لهم دين الرسول ﷺ وآمنوا به، ذكروا أشياء من الشرك كانوا يعتقدونها في الجاهلية من جملتها الاستعاذة بغير الله.

وقد أجمع العلماء على أنه لا تجوز الاستعاذة بغير الله، ولهذا نهوا عن الرقى التي لا يعرف معناها، خشية أن يكون فيها شيء من ذلك. قال ملا علي القاري الحنفي: ولا تجوز الاستعاذة بالجن، فقد ذم الله الكافرين على ذلك فقال: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾ (الجن: ٦). إلى أن قال: وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ (الأنعام: ١٢٨). الآية فاستمتاع الإنسي بالجني في قضاء حوائجه وامتثال أوامره، أو إخباره بشيء من المغيبات، واستمتاع الجني بالإنسي

---

(١) مسايره لأنه من سار يسير.

تعظيمه إياه واستعاذته به، واستغاثته وخضوعه له وفيه أن كون الشيء يحصل به منفعه دنيوية من كف شر أو جلب نفع لا يدل على أنه ليس من الشرك. ذكره المصنف[١].



(١) وهذه قاعدة وهو أن الميزان الشريعة، ليس لمنفعة فقد يحصل في الربا منفعة وكذلك غيره.

وَعَن خَولَةُ بِنتُ حَكِيمٍ قَالَت: سَمِعتُ رَسُول الله ﷺ يقول: «مَنْ نَزَلَ مَنْزِلاً، فَقَالَ: أَعُوذُ بِكَلِـماتِ الله التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ؛ لَمْ يَضُرَّهُ[(١)] شَيْءٌ حَتَّى يَرْحَلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ» رَوَاهُ مُسلِمٌ.

قوله: «**وعن خولة بنت حكيم**»: أي ابن أمية السُّلَمية، يقال لها أم شريك، ويقال لها: خُويلة بالتصغير، ويقال إنها هي الواهبة[(٢)]، وكانت قبل تحت عثمان بن مظعون. قال ابن عبدالبر وكانت صالحة فاضلة.

قوله: «**أعوذ بكلمات الله التامات**»: هذا ما شرعه الله لأهل الإسلام أن يستعيذوا به بدلاً عما يفعله أهل الجاهلية من الاستعاذة بالجن، فشرع الله للمسلمين أن يستعيذوا به أو بصفاته.

قال القرطبي: في «المفهم»[(٣)]: قيل معناه الكاملات اللاتي لا يلحقها نقص ولا عيب، كما يلحق كلام البشر، وقيل: معناه الشافية الكافية، وقيل الكلمات هنا هي القرآن فإن الله أخبر عنه بأنه ﴿هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ (فصلت: ٤٤). وهذا الأمر على جهة الإرشاد إلى ما يدفع به الأذى. ولما كان ذلك استعاذة بصفات الله تعالى والالتجاء إليه، كان ذلك من باب المندوب إليه المرغب فيه وعلى هذا فحق المتعوِّذ بالله تعالى وبأسمائه وصفاته أن يَصْدُق الله في التجائه إليه، ويتوكل في ذلك عليه، ويحضر ذلك في قلبه، فمتى فعل ذلك وصل إلى منتهى طلبه، ومغفرة ذنبه.

وقال غيره: وقد اتفق العلماء على أن الاستعاذة بالمخلوق لا تجوز، واستدلوا بحديث خولة، وقالوا: فيه دليل على أن كلمات الله غير مخلوقة، وردوا به على

---

(١) لم يضرَّه: بفتح الراء لأن المُضعَّف المجزوم يفتح ويجوز الضم للراء اتباعاً للهاء المضمومة لأنها مبنية على الضم.

(٢) أي التي وهبت نفسها للنبي ﷺ.

(٣) شرح «لصحيح مسلم» وهو مطبوع.

الجهمية والمعتزلة في قولهم بخلق القرآن، وقالوا: فلو كانت كلمات الله مخلوقةً لم يأمر النبي ﷺ بالاستعاذة بها؛ لأن الاستعاذة بالمخلوق شرك.

وقال شيخ الإسلام: وقد نص الأئمة كأحمد وغيره على أنه لا يجوز الاستعاذة بمخلوق، وهذا مما استدلوا به على أنه كلام الله غير مخلوق. قالوا لأنه ثبت عن النبي ﷺ أنه استعاذ بكلمات الله وأمر بذلك؟ ولهذا نهى العلماء عن التعازيم والتعاويذ التي لا يعرف معناها خشية أن يكون فيها شرك.

وقال ابن القيم: ومن ذبح للشيطان ودعاه واستغاث به، وتقرب إليه بما يحب، فقد عبده، وإن لم يسم ذلك عبادة، ويسميه استخداماً[(١)]، وصدق هو استخدام الشيطان له، فيصير من خدم الشيطان وعابديه، وبذلك يخدمه الشيطان لكن خدمة الشيطان له ليست خدمة عبادة، فإن الشيطان لا يخضع له ويعبده كما يفعل هو به.

قوله: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾ (الفلق: ٢). أي من كل شر في أي مخلوق قام به من الشر من حيوان، أو من غيره، إنسياً كان أو جنياً أو هامة أو دابة، أو ريحاً أو صاعقة، أي نوع كان من أنواع البلاء في الدنيا والآخرة[(٢)] «وما» ها هنا موصولة ليست إلا، وليس المراد بها العموم الإطلاقي، بل المراد التقييدي الوصفي والمعنى من شر كل مخلوق فيه شر، لا من شر كل ما خلقه الله تعالى، فإن الجنة والملائكة والأنبياء ليس فيهم شر، هذا معنى كلام ابن القيم.

قال: والشر يقال على شيئين على الألم وعلى ما يفضي إليه.

---

(١) وتسمية استخداماً لأن العبرة في الأحكام والأسماء للمعاني لا للألفاظ، ولذلك قال النبي ﷺ للصحابة الذين قالوا لما مروا بسدرة اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، قال: «**قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى:** ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾».

(٢) وهي أربعة أنواع شرور الدنيا، ووسائلها وشرور الآخرة ووسائلها.

قوله: «لم يضره شيء حتى يرحل من منزله ذلك»: قال القرطبي[(١)]: هذا خبر صحيح، وقول صادق علمنا صدقه دليلاً وتجربة[(٢)]، فإني منذ سمعت هذا الخبر عملت عليه فلم يضرني شيء إلى أن تركته، فلدغتني عقرب بالمهدية[(٣)] ليلاً، فتفكرت في نفسي فإذا بي قد نسيت أن أتعوذ بتلك الكلمات.

قال المصنف: فيه فضيلة هذا الدعاء مع اختصاره.



(١) هو أبو العباس في «شرحه على مسلم»، المسمى بـ «المُفْهِم».

(٢) تجربة جمعها تجارب بكسر الراء فيها، وما شاع عن بعض الكتاب والخطباء بضم الراء فيها خطأ شائع.

(٣) قرية من قرى الأندلس.

باب
من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره

الشَّرْحُ:

قال شيخ الإسلام: الاستغاثة: هي طلب الغوث، وهو إزالة الشدة كالاستنصار طلب النصر، والاستعانة طلب العون[١]. وقال غيره: الفرق بين الاستغاثة والدعاء: أن الاستغاثة لا تكون إلا من المكروب، كما قال تعالى: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ (القصص: ١٥)، وقال: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ (الأنفال: ٩). والدعاء أعم من الاستغاثة لأنه يكون من المكروب وغيره، فعلى هذا عطف الدعاء على الاستغاثة من عطف العام على الخاص. وقال أبو السعادات: الإغاثة الإعانة، فعلى هذا تكون الاستغاثة هي الاستعانة. ولا ريب أن من استغاثك فأغثته فقد أعنته، إلا أن لفظ الاستغاثة مخصوص بطلب العون في حالة الشدة، بخلاف الاستعانة.

وقوله: «**أو يدعو غيره**»: المراد بالدعاء هنا هو دعاء المسألة فيما لا يقدر عليه إلا الله تعالى[٢]، فإن ذلك شرك لما سيذكره المصنف من الآيات.

واعلم أن الدعاء نوعان: دعاء عبادة، ودعاء مسألة كما حققه غير واحد منهم شيخ الإسلام وابن القيم وغيرهما، ويراد به في القرآن هذا تارة، وهذا تارة، ويراد به مجموعهما، وهما متلازمان. فدعاء المسألة هو طلب ما ينفع الداعي من جلب نفع أو كشف ضُر، فالمعبود لا بد أن يكون مالكاً للنفع والضر، ولهذا أنكر الله

(١) كالذي أحاط به الأعداء ومن قُدِّم للقتل فدعا فإن دعاءه استغاثة.

(٢) أي ممن يطلب منه حين ذلك كالأموات. أما الأموات والأشجار والأحجار فليسوا أهلاً للدعاء فدعاؤهم شرك.

تعالى على من عبد من دونه ما لا يملك ضراً ولا نفعاً كقوله: ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ ﴾ (المائدة: ٧٦)، وقوله: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ ﴾ (يونس: ١٨). وذلك كثير في القرآن يبين أن المعبود لا بد وأن يكون[1] مالكاً للنفع والضر، فهو يُدعى للنفع والضر دعاء المسألة ويُدعى خوفاً ورجاءً دعاء العبادة[2]، فعلم أن النوعين متلازمان. فكل دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة، وكل دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة[3]. وبهذا التحقيق يندفع عنك ما يقوله عباد القبور إذا احتج عليهم بما ذكر الله في القرآن من الأمر بإخلاص الدعاء له. قالوا: المراد به العبادة، فيقولون في مثل قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ ﴾ (الجن: ١٨). أي لا تعبدوا مع الله أحداً، فيقال لهم: وإن أريد به دعاء العبادة فلا ينفي أن يدخل دعاء المسألة في العبادة، لأن دعاء العبادة مستلزم لدعاء المسألة، كما أن دعاء المسألة متضمن لدعاء العبادة، هذا ولم يرد في دعاء المسألة بخصوصه من القرآن إلا الآيات التي ذكر فيها دعاء العبادة فكيف وقد ذكره الله في القرآن في غير موضع. قال الله تعالى: ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ (الأعراف: ٥٥)، وقال تعالى: ﴿ وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ ﴾ (الأعراف: ٥٦)، وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ

---

(١) الصواب أن يقال: لا بد أن يكون؛ بدون واو فإنه لا معنى لها هنا، وقد شاع ذلك عند كثير من الكتاب يقولون: سبق وأن قلت، فالواو خطأ لا معنى لأن أن تسبك مع فعلها بمصدر أي سبق قولي كذا، فلا معنى للواو.

(٢) والعابد سائل في المعنى لأنه يطلب الثواب، والسائل عائذ ضمناً.

(٣) لأن السائل عابد لمن سأله ودعاه.

ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ (آل عمران: ١٣٥)، وقال تعالى: ﴿وَسْئَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ﴾ (النساء: ٣٢). وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾ (الأنعام: ٤٠-٤١).

وقال تعالى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿١٤﴾﴾ (الرعد: ١٤)، وقال تعالى عن إبراهيم -عليه السلام-: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾﴾ (إبراهيم: ٣٩)، وقال عنه أيضاً: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ (مريم: ٤٨-٤٩)، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾﴾ (النحل: ٥٣-٥٤)، وقال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾﴾ (الإسراء: ٥٦)، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ (الإسراء: ٦٧)، وقال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ (الإسراء: ١١٠)، وقال تعالى عن زكريا -عليه السلام- : ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾﴾ (مريم: ٤)، وقال تعالى: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا﴾ (القصص: ٦٤)، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ (العنكبوت: ٦٥). فكفى بهذه الآيات نجاة وحجة وبرهاناً في الفرق بين التوحيد والشرك عموماً وفي هذه المسألة خصوصاً.

وقال تعالى: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ (العنكبوت: ١٧)، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾﴾ (الزمر: ٨)، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ (فاطر: ١٣-١٤)، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ (غافر: ٦٠). وغير ذلك من الآيات.

وفي الأحاديث عن النبي ﷺ ما لا يحصى منها قوله ﷺ فيما رواه عن ربه تبارك وتعالى أنه قال: «**يا عبادي، كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عارٍ إلا من كسوته فاستكسوني أكسُكم يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم، يا عبادي إنكم تخطؤون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم**»(١) [رواه مسلم]، وقوله ﷺ: «**ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، ثم يقول: من يدعوني فأستجب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له**» [رواه البخاري ومسلم]، وقوله: «**ليس شيء أكرم على الله من الدعاء**» رواه أحمد والترمذي وابن ماجه، وابن حبان والحاكم وصححه، وقوله: «**من لم يدع الله يغضب عليه**» رواه أحمد وابن أبي شيبة والحاكم، وقوله: «**سلو الله من فضله فإن الله يحب أن يسأل**» رواه الترمذي، وقوله: «**الدعاء سلاح المؤمن، وعماد الدين، ونور السماوات**

---

(١) هذه الجمل تفيد اللجوء إلى الله والضراعة إليه سبحانه وهي تفيد الأمر بالدعاء كقوله: ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾.

والأرض» رواه الحاكم وصححه، وقوله: «**الدعاء هو العبادة**» رواه أحمد والترمذي وفي حديث آخر: «**الدعاء مخ العبادة**» رواه الترمذي[1]. وقوله لما سئل أي العبادة أفضل؟ قال: «دعاء المرء لنفسه» رواه البخاري في «الأدب»، وقوله: «لن ينفع حذر من قدر، ولكن الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل فعليكم بالدعاء يا عباد الله» رواه أحمد، وقوله: «سلوا الله كل شيء حتى الشِّسْع[2] إذا انقطع، فإنه إن لم ييسره لم يتيسر» رواه أبو يعلى بإسناد صحيح، وقوله: «ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى يسأله شِسْع نعله إذا انقطع وحتى يسأله الملح» رواه البزار بإسناد صحيح.

وقال عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-: «إني لا أحمل همّ الإجابة، ولكن همّ الدعاء، فإذا ألهمت الدعاء علمت أن الإجابة معه»[3]، وقال ابن عباس -رضي الله عنهما-: «أفضل العبادة الدعاء، وقرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (غافر: ٦٠). رواه ابن المنذر والحاكم، وصححه. وقال مطرِّف: تذكرت ما جِمَاعُ الخير؟ فإذا الخير كثير، الصلاة والصيام، وإذا هو في يد الله تعالى، وإذا أنت لا تقدر على ما في يد الله إلا أن تسأله فيعطيك. رواه أحمد، والأحاديث والآثار في ذلك لا يحيط بها إلا الله تعالى، فثبت بهذا أن الدعاء عبادة من أجل العبادات، بل هو أكرمها على الله كما تقدم؛ فإن لم يكن الإشراك فيه شركاً فليس في الأرض شرك، وإن كان في الأرض شرك فالشرك في الدعاء أولى أن يكون شركاً من الإشراك في غيره من أنواع العبادة، بل الإشراك في الدعاء هو أكبر شرك المشركين الذين بعث إليهم رسول الله ﷺ فإنهم يدعون الأنبياء والصالحين والملائكة، ويتقربون إليهم

---

(١) وسنده ضعيف.

(٢) بكسر الشين المشددة وسكون السين.

(٣) وهذا من فقهه -رضي الله عنه-.

ليشفعوا لهم عند الله، ولهذا يخلصون في الشدائد لله وينسون ما يشركون، حتى جاء أنهم إذا جاءتهم الشدائد في البحر يلقون أصنامهم في البحر ويقولون: يا الله يا الله، لعلمهم أن آلهتهم لا تكشف الضر ولا تجيب المضطر، وقال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ (النمل: ٦٢). فهم كانوا يعلمون أن ذلك لله وحده، وأن آلهتهم ليس عندها شيء من ذلك، ولهذا احتج سبحانه وتعالى عليهم بذلك أنه هو الإله الحق، وعلى بطلان، إلهية ما سواه. وقال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ (العنكبوت: ٦٥). فهذه حال المشركين الأولين. وأما عباد القبور اليوم فلا إله إلا الله، كم ذا بينهم وبين المشركين الأولين من التفاوت العظيم في الشرك؛ فإنهم إذا أصابتهم الشدائد براً وبحراً أخلصوا لآلهتهم وأوثانهم التي يدعونها من دون الله، وأكثرهم قد اتخذ ذكر إلهه وشيخه ديدنه، وهِجِّيراهَ إن قام وإن قعد وإن عثر. هذا يقول يا علي[(١)]، وهذا يا عبدالقادر[(٢)]، وهذا يقول يا ابن علوان[(٣)]، وهذا يدعو البدوي[(٤)]، وهذا يدعو العيدروس[(٥)]، وبالجملة ففي كل بلد في الغالب أناس يدعونهم ويسألونهم قضاء الحاجات، وتفريج الكربات، بل بلغ الأمر أن سألوهم مغفرة الذنوب، وترجيح الميزان ودخول الجنة والنجاة من النار، والتثبيت عند الموت والسؤال، وغير ذلك من أنواع المطالب التي لا تطلب إلا من الله، وقد يسألون ذلك من أناس يدَّعون

---

(١) في الطرق.

(٢) عبدالقادر الجيلاني في العراق له عثرات وليس عنده البصيرة الكاملة.

(٣) في عدن في اليمن الجنوبي.

(٤) في مصر لا يعرف إلا أنه بال في المسجد.

(٥) في اليمن الشمالي؛ يقولون يا عيدروس يا محيي النفوس.

الولاية، وينصبون أنفسهم لهذه الأمور وغيرها من أنواع النفع والضر التي هي خواص الإلهية[١]، ويلفقون لهم من الأكاذيب في ذلك عجائب[٢]. منها أنهم يدعون أنهم يخلِّصون من التجأ إليهم ولاذ بحماهم من النار والعذاب، فيقول أحدهم: إنه يقف عند النار فلا يدع أحداً ممن يرتجيه ويدعوه يدخلها أو نحو هذا، وقد قال تعالى لسيد المرسلين صلى الله عليه وعليهم أجمعين: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ﴿١٩﴾﴾ (الزمر: ١٩). فإذا كان النبي ﷺ لا يقدر على تخليص أحد من النار، فكيف بغيره، بل كيف بمن يدعي نفسه أنه هو يفعل ذلك؟ ومنها أن أكثرهم يلفق حكايات في أن بعض الناس استغاث بفلان فأغاثه، أو دعا الولي الفلاني فأجابه، أو في كربة ففرَّج عنه، وعند عباد القبور شيء كثير من جنس ما عند عباد الأصنام الذين استولت عليهم الشياطين، ولعبوا بهم لعب الصبيان بالكرة، ويوجد شيء من ذلك في أشعار المادحين لسيد المرسلين ﷺ الذين جاوزوا الحد في مدحه ﷺ وعصوه في نهيه من الغلو فيه، وإطرائه كما أطرت النصارى ابن مريم، وصار حظهم منه ﷺ هو مدحه بالأشعار والقصائد، والغلو الزائد، مع عصيانهم له في أمره ونهيه؛ فتجد هذا النوع من أعصى الخلق له صلوات الله عليه وسلامه. ويقع من ذلك كثير في مدح غيره، فإن عباد القبور لا يقتصرون على بعض من يعتقدون فيه الضر والنفع، بل كل من ظنوا فيه ذلك بالغوا في مدحه وأنزلوه منزلة الربوبية وصرفوا له خالص العبودية، حتى إنهم إذا جاءهم رجل وادعى أنه رأى رؤيا مضمونها أنه دفن في المحل الفلاني رجل صالح، بادروا إلى المحل وبنوا عليه قبة وزخرفوها بأنواع الزخارف، وعبدوها بأنواع من العبادات، وأما القبور المعروفة أو المتوهمة، فأفعالهم معها وعندها لا يمكن حصره، فكثير

---

(١) ينصبون أنفسهم للولاية، يدعون إلى عبادتهم.

(٢) يكذبون حتى يعبدوا.

منهم إذا رأوا القباب التي يقصدونها كشفوا الرؤوس فنزلوا عن الأكوار[١]، فإذا أتوها طافوا بها واستلموا أركانها، وتمسحوا بها، وصلوا عندها ركعتين، وحلقوا عندها الرؤوس ووقفوا باكين متذللين متضرعين سائلين مطالبهم، وهذا هو الحج[٢]، وكثير منهم يسجدون لها إذا رأوها ويعفِّرون وجوههم في التراب تعظيماً لها، وخضوعاً لمن فيها، فإن كان لإنسان منهم حاجة في شفاء مريض أو غير ذلك، نادى صاحب القبر، يا سيدي فلان جئتك قاصداً من مكان بعيد لا تُخَيِّبني، وكذلك إذا قَحِط[٣] المطر أو عَقِرت المرأة عن الولد أو دهمهم عدو أو جراد، فزعوا إلى صاحب القبر وبكوا عنده فإن جرى المقدور بحصول شيء مما يريدون، استبشروا وفرحوا ونسبوا ذلك إلى صاحب القبر، فإن لم يتيسر شيء من ذلك اعتذروا عن صاحب القبر بأنه إما غائب في مكان آخر، أو ساخط لبعض أعمالهم، أو أن اعتقادهم في الولي ضعيف، أو أنهم لم يعطوه نذره ونحو هذه الخرافات، ومن بعض أشعار المادحين لسيد المرسلين ﷺ، قول البوصيري:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به   سواك عند حلول الحادث العمم
ولن يضيق رسول[٥] الله جاهك بي   إذا الكريم تحلى باسم منتقم
فإن لي ذمّةً منه بتسميتي   محمداً وهو أوفى الخلق بالذمم
إن لم يكن في معادي آخذاً بيدي   فضلاً وإلا فقل يا زلة القدم

فتأمل ما في هذه الأبيات من الشرك.

منها: أنه نفى أن يكون له ملاذاً إذا حلّت به الحوادث، إلا النبي ﷺ، وليس

---

(١) التي على الإبل.
(٢) ويسمى حج المشاهد، أي القبور.
(٣) بفتح القاف وبكسر الحاء.
(٤) بفتح الميمين.
(٥) أي يا رسول الله.

ذلك إلا لله وحده لا شريك له، فهو الذي ليس للعباد ملاذ إلا هو.

الثاني: أنه دعاه وناداه بالتضرع وإظهار الفاقة والاضطرار إليه، وسأل منه هذه المطالب التي لا تطلب إلا من الله، وذلك هو الشرك في الإلهية.

الثالث: سؤاله منه أن يشفع له في قوله:

ولن يضيق رسول الله... البيت.

وهذا هو الذي أراده المشركون ممن عبدوه، وهو الجاه والشفاعة عند الله، وذلك هو الشرك وأيضاً فإن الشفاعة لا تكون إلا بعد إذن الله، فلا معنى لطلبها من غيره، فإن الله تعالى هو الذي يأذن للشافع أن يشفع لا أن الشافع يشفع ابتداءً

الرابع: **قوله**: فإن لي ذمة... إلى آخره. كذب على الله وعلى رسوله ﷺ فليس بينه وبين من اسمه محمد ذمة إلا بالطاعة، لا بمجرد الإشراك في الاسم مع الشرك.

الخامس: قوله: إن لم يكن في معادي... البيت.

تناقض عظيم وشرك ظاهر، فإنه طلب أولاً أن لا يضيق به جاهه، ثم طلب هنا أن يأخذ بيده فضلاً وإحساناً، وإلا فيا هلاكه.

فيقال: كيف طلبت منه أولاً الشفاعة ثم طلبت منه أن يتفضل عليك فإن كنت تقول: إن الشفاعة لا تكون إلا بعد إذن الله، فكيف تدعو النبي ﷺ وترجوه وتسأله الشفاعة؟ فهلا سألتها مَنْ له الشفاعة جميعاً الذي له ملك السماوات والأرض الذي لا تكون الشفاعة إلا من بعد إذنه، فهذا يبطل عليك طلب الشفاعة من غير الله.

وإن قلت: ما أريد إلا جاهه وشفاعته بإذن الله.

قيل: فكيف سألته أن يتفضل عليك ويأخذ بيدك في يوم الدين، فهذا مضاد لقول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٧ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٨ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ١٩﴾ (الانفطار: ١٧-١٩). فكيف يجتمع في قلب

عبد الإيمان بهذا وهذا، وإن قلت: سألته أن يأخذ بيدي، ويتفضل علي بجاهه وشفاعته.

قيل: عاد الأمر إلى طلب الشفاعة من غير الله، وذلك هو محض الشرك(١).

السادس: في هذه الأبيات من التبري من الخالق -تعالى وتقدس- والاعتماد على المخلوق في حوادث الدنيا والآخرة، ما لا يخفى على مؤمن، فأين هذا من قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ (الفاتحة: ٥)، وقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۝﴾ (التوبة: ١٢٩)، وقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ۚ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ۝﴾ (الفرقان: ٥٨)، وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ۝ إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ ۚ﴾ (الجن: ٢٢-٢٣).

فإن قيل: هو لم يسأله أن يتفضل عليه، إنما أخبر أنه إن لم يدخل في عموم شفاعته فيا هلاكه.

قيل: المراد بذلك سؤاله، وطلب الفضل منه، كما دعاه أول مرة وأخبر أنه لا ملاذ له سواه، ثم صرّح بسؤال الفضل والإحسان منه بصيغة الشرط والدعاء، والسؤال كما يكون بصيغة الطلب يكون بصيغة الشرط، كما قال نوح -عليه السلام-: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ۝﴾ (هود: ٤٧).

ومن شعر البرعي قوله:

ماذا تُعامِلُ يا شمس النبوة من ... أضحى إليك من الأشواق في كبد

---

(١) إملاء شيخنا: مراده رحمه الله طلب الشفاعة من الأموات ونحوهم، أما طلبها من الحي في الدنيا فلا بأس كما كان الصحابة -رضي الله عنهم- يطلبون منه ﷺ أن يشفع لهم، وكما يطلب فيه أهل الموقف ذلك يوم القيامة فيخرّ ساجداً بين يدي الله حتى يأذن له بالشفاعة.

فامنع جناب صريع لا صريخ له   نائي المزار غريب الدار مُبتعد
حليف ودِّك واهِ الصبر منتظر   لغارة منك يا ركني ويا عضدي
أسير ذنبي وزلاَّتي ولا عمل   أرجو النجاة به إن أنت لم تجُدِ

وجرى في شركه إلى أن قال:

وحلَّ عُقدة كربي يا محمد من   همٍّ على خطرات القلب مطّرد
أرجوك في سكرات الموت تشهدني   كيما يهون إذ الأنفاس في صعد
وإن نزلت ضريحاً لا أنيس به   فكن أنيس وحيد فيه منفرد
وارحم مؤلفها عبدالرحيم ومن   يليه من أجله وانعشه وافتقد
وإن دعا فأجبه واحم جانبه   من حاسد شامت أو ظالم نكد

وقوله من أخرى:

يا رسول الله يا ذا الفضل يا   بهجةً في الحشر جاهاً ومقاما
عُدْ على عبدالرحيم الملتجي   بحمى عزك يا غوث اليتامى
وأقلني عثرتي يا سيدي   في اكتساب الذنب في خمسين عاما

وقوله:

يا سيدي يا رسول الله يا أملي   يا موئلي يا ملاذي يوم يلقاني
هبني بجاهك ما قدمتُ من زلل   جوداً ورجِّح بفضل منك ميزاني
واسمع دعائي واكشف ما يساورني   من الخطوب ونفِّس كل أحزاني
فأنت أقرب من تُرجى عواطفه   عندي وإن بعُدتْ داري وأوطاني
إني دعوتك من «نيابتي برع»   وأنت أسمع من يدعوه ذو شان
فامنع جنابي وأكرمني وصل نسبي   برحمة وكرامات وغفران

لقد أنسانا هذا ما قبله، وهذا بعينه هو الذي ادعته النصارى في عيسى -عليه

السلام-، إلا أن أولئك أطلقوا عليه اسم الإله، وهذا لم يطلقه ولكن أتى بلباب دعواهم وخلاصتها، وترك الاسم، إذ في الاسم نوع تمييز، فرأى الشيطان أن الإتيان بالمعنى دون الاسم أقرب إلى ترويج الباطل، وقبوله عند ذوي العقول السخيفة، إذ كان من المتقرر عند الأمة المحمدية أن دعوى النصارى في عيسى -عليه السلام- كفر. فلو أتاهم بدعوى النصارى اسماً ومعنى لردوه وأنكروه، فأخذ المعنى وأعطاه البرعي وأضرابه، وترك الاسم للنصارى وإلا فما ندري ماذا أبقى هذا المتكلم الخبيث للخالق، تعالى وتقدَّس من سؤال مطلب أو تحصيل مأرب، فالله المستعان. وهذا كثير جداً في أشعار المادحين لرسول الله ﷺ، وهو حجة أعداء دينه الذين يُجوِّزون الشرك بالله، ويحتجون بأشعار هؤلاء، ولم يقتصروا أيضاً على طلب ذلك من النبي ﷺ، بل يطلبون مثل ذلك من غيره، كما حدّث بعض الثقات أنه رأى في راية صاحب مشهد من المشاهد: هذه راية البحر التيار، به أستغيث، وأستجير، وبه أعوذ من النار.

وقال بعضهم في قصيدة في بعض آلهتهم:

يا سيدي يا صفيَّ الدين يا سندي ... يا عمدتي بل ويا ذخري ومفتخري
أنت الملاذ لما أخشى ضرورته ... وأنت لي ملجأٌ من حادث الدهر

إلى أن قال:

وامنن عليّ بتوفيق وعافية ... وخير خاتمة مهما انقضى عمري
وكفَّ عنا أكفَّ الظالمين إذا امـ ... ـتدت بسوء لأمر مؤلم نكر
فإنني عبدك الراجي بودك ما ... أملته يا صفيَّ السادة الغرر

قال بعض العلماء: فلا ندري أي معنى اختص به الخالق تعالى بعد هذه المنزلة، وماذا أبقى هذا المتكلم الخبيث لخالقه من الأمر، فإن المشركين أهل الأوثان ما يؤهلون من عبدوه لشيء من هذا. انتهى.

وكثير من عباد القبور ينادون الميت من مسافة شهر وأكثر يسألونه حوائجهم، ويعتقدون أنه يسمع دعاءهم ويستجيب لهم، وتسمع عندهم حال ركوبهم البحر واضطرابه من دعاء الأموات والاستغاثة بهم ما لا يخطر على بال، وكذلك إذا أصابتهم الشدائد، من مرض، أو كسوف، أو ريح شديدة، أو غير ذلك، فالولي في ذلك نصب أعينهم، والاستغاثة به هي ملاذهم، ولو ذهبنا نذكر ما يشبه هذا لطال الكلام.

إذا عرفت هذا، فقد تقدم ذكر دعاء المسألة.

وأما دعاء العبادة فهو عبادة الله تعالى بأنواع العبادات، من الصلاة، والذبح، والنذر، والصيام، والحج وغيرها، خوفاً وطمعاً، يرجو رحمته ويخاف عذابه، وإن لم يكن في ذلك صيغة سؤال وطلب، فالعابد الذي يريد الجنة ويهرب من النار هو سائل راغب راهب، يرغب في حصول مراده، ويهرب من فواته، وهو سائل لما يطلبه بامتثال الأمر في فعل العبادة، وقد فسر قوله تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[1] بهذا وهذا وقيل: اعبدوني امتثلوا أمري أستجب لكم، وقيل: سلوني أعطكم، وعلى هذا القول تدل الأحاديث والآثار.

إذا تبين ذلك، فاعلم أن العلماء أجمعوا على أن من صرف شيئاً من نوعي[2] الدعاء لغير الله فهو مشرك، ولو قال: لا إله إلا الله محمد رسول الله وصلى وصام، إذ شرط الإسلام مع التلفظ بالشهادتين أن لا يعبد إلا الله، فمن أتى بالشهادتين وعبد غير الله فما أتى بهما حقيقة وإن تلفظ بهما كاليهود الذين يقولون لا إله إلا الله وهم مشركون، ومجرد التلفظ بهما لا يكفي في الإسلام بدون العمل بمعناهما

(١) لكن الآية أظهر في دعاء المسألة.
(٢) دعاء العبادة ودعاء المسألة.

واعتقاده إجماعاً[١].

ذكر شيء من كلام العلماء في ذلك. وإن كنا غنيين بكتاب ربنا وسنة نبينا ﷺ عن كل كلام، إلا أنه قد صار بعض الناس منتسباً إلى طائفة معينة، فلو أتيته بكل آية من كتاب الله وكل سنة عن رسول الله ﷺ لم يقبل حتى تأتيه بشيء من كلام العلماء، أو بشيء من كلام طائفته التي ينتسب إليها.

قال الإمام أبو الوفاء علي بن عقيل الحنبلي صاحب كتاب «الفنون» الذي ألفه في نحو أربعمئة مجلد[٢]، وغيره من التصانيف قال في الكتاب المذكور: لما صعبت التكاليف على الجهال والطغام، عدلوا عن أوضاع الشرع إلى تعظيم أوضاع وضعوها لأنفسهم، فسهلت عليهم إذا لم يدخلوا بها تحت أمر غيرهم، وهم عندي كفار لهذه الأوضاع، مثل تعظيم القبور، وخطاب الموتى بالحوائج، وكتب الرقاع فيها: يا مولاي افعل بي كذا وكذا، أو إلقاء الخرق على الشجر اقتداءً بمن عبد اللات والعزى، نقله غير واحد مقررين له، راضين به، منهم الإمام أبو الفرج ابن الجوزي، والإمام ابن مفلح صاحب كتاب «الفروع» وغيرهما.

قال شيخ الإسلام في «الرسالة السُّنِّيَّة»: فإذا كان على عهد النبي ﷺ من انتسب إلى الإسلام من مرق منه مع عبادته العظيمة، فليعلم أن المنتسب إلى الإسلام والسنة في هذه الأزمان أيضاً قد يمرق أيضاً من الإسلام وذلك بأسباب:

---

(١) وعلى ذلك تدل النصوص كحديث معاذ دلني على عمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار قال: «**تعبد اللهّ ولا تشرك به شيئاً**»، وحديث معاذ لما بعثه إلى اليمن قال: «**فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا اللهّ**»، وفي رواية «**توحيد اللهّ**»، وحديث ابن عمر «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا اللهّ**»، وفي رواية: «**إلى أن يوحدوا اللهّ**»، وفي رواية «**إلى أن يعبدوا اللهّ**».

(٢) وبعضهم عده ثمانمئة مجلد، وهذا يختلف باختلاف المجلدات فبعضها الصغير والكبير والمتوسط، وهو في كل فن يضرب بسهم كالزراعة، وغيرها وقد طبع منه ثلاثة أجزاء.

منها الغلو الذي ذمه الله في كتابه حيث قال: ﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾(النساء: ١٧١). الآية. وكذلك الغلو في بعض المشايخ، بل الغلو في علي بن أبي طالب، بل الغلو في المسيح -عليه السلام-[١] فكل من غلا في نبي أو رجل صالح وجعل فيه نوعاً من الإلهية، مثل أن يقول: يا سيدي فلان انصرني، أو أغثني، أو ارزقني، أو أجبرني، أو أنا في حسبك، ونحو هذه الأقوال، فكل هذا شرك وضلال يستتاب صاحبه[٢]، فإن تاب وإلا قتل، فإن الله إنما أرسل الرسل وأنزل الكتب ليعبد وحده، ولا يدعى معه إله آخر والذين يدعون مع الله آلهة أخرى، مثل المسيح، والملائكة، والأصنام لم يكونوا يعتقدون أنها تخلق الخلائق، أو تنزل المطر، أو تنبت النبات، وإنما كانوا يعبدونهم أو يعبدون قبورهم، أو يعبدون صورهم يقولون: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ (الزمر: ٣). ويقولون: ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ (يونس: ١٨). فبعث الله رسله تنهى أن يدعى أحد من دونه، لا دعاء عبادة، ولا دعاء استغاثة. أ.هـ.

وقد نص الحافظ أبو بكر أحمد بن علي المقريزي صاحب كتاب «الخطط» في كتاب له في التوحيد على أن دعاء غير الله شرك.

وقال شيخ الإسلام: من جعل بينه وبين الله وسائط يتوكل عليهم يدعوهم ويسألهم، كفر إجماعاً، نقله عنه غير واحد مقررين له، منهم ابن مفلح في «الفروع»، وصاحب «الإنصاف»، وصاحب «الغاية»، وصاحب «الإقناع»، وشارحه، وغيرهم، ونقله صاحب «القواطع» في كتابه عن صاحب «الفروع».

قلت: وهو إجماع صحيح معلوم بالضرورة من الدين، وقد نص العلماء من

---

(١) ترقّى من الغلو في المشايخ إلى الغلو في الصحابة إلى الغلو في الأنبياء.

(٢) وردت آثار عن الصحابة في الاستتابة مثل ما روي عن عمر أنه أمر بالاستتابة والاستتابة واجبة بل مستحبة أو جائزة.

أهل المذاهب الأربعة، وغيرهم في باب حكم المرتد، على أن من أشرك بالله فهو كافر، أي: عبد مع الله غيره بنوع من أنواع العبادات. وقد ثبت بالكتاب والسنة والإجماع أن دعاء الله عبادة له، فيكون صرفه لغير الله شركاً.

وقال الإمام ابن النحاس الشافعي في كتاب «الكبائر»: ومنها إيقادهم السرج عند الأحجار، والأشجار والعيون، والآبار، ويقولون: إنها تقبل النذر، وهذه كلها بدع شنيعة ومنكرات قبيحة تجب إزالتها ومحو أثرها، فإن أكثر الجهال يعتقدون أنها تنفع وتضر، وتجلب وتدفع، وتشفي المرض وترد الغائب، إذا نذر لها، وهذا شرك ومحادة لله تعالى ولرسوله ﷺ.

قلت: فصرّح -رحمه الله- أن الاعتقاد في هذه الأمور أنها تضر، وتنفع، وتجلب، وتدفع، وتشفي المريض، وترد الغائب، إذا نذر لها، أن ذلك شرك، وإذا ثبت أنه شرك، فلا فرق في ذلك بين اعتقاده في الملائكة والنبيين، ولا بين اعتقاده في الأصنام والأوثان، إذ لا يجوز الإشراك بين الله تعالى وبين مخلوق فيما يختص بالخالق سبحانه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًاۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ (آل عمران: ٨٠). وهذا بعينه هو الذي يعتقده من دعا الأنبياء والصالحين، ولهذا يسألونهم قضاء الحاجات، وتفريج الكربات، وشفاء ذوي الأمراض والعاهات، فثبت أن ذلك شرك.

وقال الإمام ابن القيم -رحمه الله تعالى- في «شرح المنازل»: ومن أنواعه -أي: الشرك- طلب الحوائج من الموتى، والاستغاثة بهم، والتوجه إليهم، وهذا أصل شرك العالم، فإن الميت قد انقطع عمله وهو لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، فضلاً عمن استغاث به أو سأله أن يشفع إلى الله، وهذا من جهله بالشافع والمشفوع عنده، فإن الله سبحانه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، والله سبحانه لم يجعل سؤال غيره سبباً لإذنه، وإنما السبب لإذنه كمال التوحيد، فجاء هذا المشرك بسبب

يمنع الإذن، والميت محتاج إلى من يدعو له، كما أمرنا النبي ﷺ إذا زرنا قبور المسلمين أن نترحم عليهم، وندعو لهم، ونسأل الله لهم العافية والمغفرة، فعكس المشركون هذا وزاروهم زيارة العبادة، وجعلوا قبورهم أوثاناً تعبد، فجمعوا بين الشرك بالمعبود وتغيير دينه، ومعاداة أهل التوحيد، ونسبتهم إلى التنقص بالأموات، وهم قد تنقصوا الخالق سبحانه بالشرك وأولياءه الموحدين بذمهم ومعاداتهم، وتنقصوا من أشركوا به غاية التنقص، إذ ظنوا أنهم راضون منهم بهذا، وأنهم أمروهم به، وهؤلاء هم أعداء الرسل في كل زمان ومكان، وما أكثر المستجيبين لهم! ولله در خليله إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- حيث قال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ (إبراهيم: ٣٥-٣٦)، وما نجا من أشرك بهذا الشرك الأكبر، إلا من جرد توحيده لله، وعادى المشركين في الله، وتقرب بمقتهم إلى الله.

وقال الإمام الحافظ ابن عبدالهادي في رده على السبكي وقوله: أي قول السبكي: إن المبالغة في تعظيمه، أي تعظيم الرسول ﷺ واجبة إن أريد بها المبالغة بحسب ما يراه كل أحد تعظيماً، حتى الحج إلى قبره والسجود له، والطواف به، واعتقاد أنه يعلم الغيب، وأنه يعطي ويمنع، ويملك لمن استغاث به من دون الله الضر والنفع، وأنه يقضي حوائج السائلين، ويفرِّج كربات المكروبين، وأنه يشفع فيمن يشاء، ويدخل الجنة من يشاء، فدعوى المبالغة في هذا التعظيم مبالغة في الشرك وانسلاخ من جملة الدين.

قلت: هذا هو اعتقاد عباد القبور فيمن هو دون الرسول ﷺ فضلاً عن الرسول ﷺ كما تقدم بعض ذلك، والأمر أعظم من ذلك وفي «الفتاوى البزازية» من كتب الحنفية، قال علماؤنا من قال أرواح المشايخ حاضرة تعلم يكفر، فإن أراد بالعلماء علماء الشريعة فهو حكاية للإجماع على كفر معتقد ذلك، وإن أراد علماء

الحنفية خاصة فهو حكاية لاتفاقهم على كفر معتقد ذلك، وعلى التقديرين تأمَّلْهُ تجدْه صريحاً في كفر من دعا أهل القبور؛ لأنه ما دعاهم حتى اعتقد أنهم يعلمون ذلك، ويقدرون على إجابة سؤاله، وقضاء مأموله.

وقال الشيخ صنع الله الحلبي الحنفي في كتابه الذي ألفه في الرد على من ادعى أن للأولياء تصرفاً في الحياة وبعد الممات على سبيل الكرامة: هذا وإنه قد ظهر الآن فيما بين المسلمين جماعات يدعون أن للأولياء تصرفات في حياتهم وبعد مماتهم، ويُستغاث بهم في الشدائد والبليات وبِهِمَمِهِم تكشف المهمات، فيأتون قبورهم، وينادونهم في قضاء الحاجات، مستدلين على أن ذلك منهم كرامات، وقالوا منهم أبدال ونقباء، وأوتاد، ونجباء وسبعون[1] وسبعة وأربعون وأربعة، والقطب هو الغوث للناس[2]، وعليه المدار بلا التباس، وجوزوا لهم الذبائح والنذور، وأثبتوا لهم فيها الأجور. قال: وهذا الكلام فيه تفريط وإفراط، بل فيه الهلاك الأبدي، والعذاب السرمدي، لما فيه من روائح الشرك المحقق، ومصادمة الكتاب العزيز المصدَّق، ومخالف لعقائد الأئمة وما اجتمعت عليه الأمة، وفي التنزيل: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ١١٥﴾ (النساء: ١١٥). إلى أن قال: الفصل الأول فيما انتحلوه من الإفك الوخيم والشرك العظيم .. إلى أن قال: فأما قولهم: إن للأولياء تصرفات في حياتهم وبعد مماتهم، فيرده قوله تعالى: ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾ (النمل: ٦٠)، ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ (الأعراف: ٥٤)، ﴿لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ (المائدة: ١٢٠). ونحوه من الآيات الدالة على أنه المنفرد بالخلق والتدبير، والتصرف والتقدير، ولا شيء لغيره في شيء ما بوجه من الوجوه، فالكل تحت ملكه وقهره تصرفاً وملكاً،

(١) أي السبعون يرجعون إلى سبعة والأربعون إلى أربعة.

(٢) المرجع الذي يستمد منه القوة والنشاط.

وإحياء وإماتة، وخلقاً، وتمدح الرب سبحانه بانفراده في ملكه بآيات من كتابه كقوله: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾ (فاطر: ٣)، ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾ (فاطر: ١٣)، وذكر آيات في هذا المعنى ثم قال: فقوله في الآيات: ﴿مِن دُونِهِ﴾[1] أي من غيره، فإنه عام يدخل فيه من اعتقدته من ولي وشيطان تستمده، فإن من لم يقدر على نصر نفسه كيف يُمِدُّ[2] غيره، إلى أن قال: فكيف يتصور لغيره من يمكن أن يتصرف، إن هذا من السفاهة لقول وخيم، وشرك عظيم، إلى أن قال: وأما القول بالتصرف بعد المات فهو أشنع وأبدع من القول بالتصرف في الحياة. قال جل ذكره: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾ (الزمر: ٤٢)، ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ (آل عمران: ١٨٥)، ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ (المدثر: ٣٨)، وفي الحديث: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله**...» الحديث، فجميع ذلك وما هو ونحوه دال على انقطاع الحسّ والحركة من الميت، وأن أرواحهم مُمْسَكة، وأن أعمالهم منقطعة[3] عن زيادة ونقصان، فدل ذلك أن ليس للميت تصرفاً في ذاته فضلاً عن غيره بحركة، وأن روحه محبوسة مرهونة بعملها من خير وشر، فإذا عجز عن حركة نفسه فكيف يتصرف في غيره؟ فالله سبحانه يخبر أن الأرواح عنده، وهؤلاء الملحدون يقولون: إن الأرواح مطلقة متصرفة ﴿قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾.

(١) أي: مخلوق.

(٢) مدّ وأمدّ؛ أمدَّ تكون في الخير، ومنه: ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾﴾، ومدَّ تكون في الشرك، ومنه قوله: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾.

(٣) مراده إلا ما استثناه الدليل، كحديث: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث**»، وما ورد من أن المجاهد والمرابط يجري عليه عمله.

قال: وأما اعتقادهم أن هذه التصرفات لهم من الكرامات، فهو من المغالطة؛ لأن الكرامة شيء من عند الله يكرم بها أولياءه لا قصد لهم فيه ولا تحدي، ولا قدرة ولا علم، كما في قصة مريم بنت عمران وأسيد بن حضير وأبي مسلم الخولاني[(١)].

قال: وأما قولهم فيستغاث بهم في الشدائد، فهذا أقبح مما قبله، وأبدع لمصادمته قوله جل ذكره: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ﴾ (النمل: ٦٢)، ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ (الأنعام: ٦٣)، وذكر آيات في هذا المعنى ثم قال: فإنه جل ذكره قرر أنه الكاشف للضر لا غيره، وأنه المتعين لكشف الشدائد والكرب وأنه المتفرد بإجابة المضطرين، وأنه المستغاث لذلك كله، وأنه القادر على دفع الضر، والقادر على إيصال الخير، فهو المتفرد بذلك، فإذا تعيَّن هو جل ذكره خرج غيره من مِلك ونبي وولي.

قال: والاستغاثة تجوز في الأسباب الظاهرة العادية من الأمور الحسية في قتال أو إدراك عدو أو سبع ونحوه كقولهم: يا لزيد[(٢)]، يا لقوم يا للمسلمين كما ذكروا ذلك في في كتب النحو بحسب الأسباب الظاهرة بالفعل، وأما الاستغاثة بالقوة والتأثير، أو في الأمور المعنوية من الشدائد، كالمرض وخوف الغرق والضيق والفقر وطلب الرزق ونحوه؛ فمن خصائص الله، فلا يطلب فيها غيره. قال: وأما كونهم معتقدين التأثير منهم في قضاء حاجاتهم كما تفعله جاهلية العرب والصوفية الجهال، وينادونهم ويستنجدون بهم، فهذا من المنكرات، إلى أن قال: فمن اعتقد أن لغير الله من نبي أو ولي أو روح أو غير ذلك في كشف كُرْبة أو قضاء حاجته

---

(١) والكرامة تحصل للإنسان بدون علمه واختياره وميزان ذلك الاستقامة على الشريعة وإلا فهي من المخرقة والسحر.

(٢) اللام للاستغاثة والأصل في جواز ذلك قول الله تعالى: ﴿فَٱسْتَغَـٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾.

تأثيراً؛ فقد وقع في وادي جهل خطير، فهو على شفا حفرة من السعير. وأما كونهم مستدلين على أن ذلك منهم كرامات، فحاشى لله أن تكون أولياء الله بهذه المثابة، فهذا ظن أهل الأوثان كذا أخبر الرحمن ﴿هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ (يونس: ١٨)، ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ (الزمر: ٣). ﴿أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾﴾ (يس: ٢٣) فإن ذكر ما ليس من شأنه النفع ولا دفع الضر من نبي وولي وغيره على وجه الإمداد منه، إشراك مع الله، إذا لا قادر على الدفع غيره، ولا خير إلا خيره. قال: وأما ما قالوه من أن منهم أبدالاً ونقباء، وأوتاداً ونجباء، وسبعين وسبعة وأربعين وأربعة. والقطب هو الغوث للناس[1]، فهذا من موضوعات إفكهم، كما ذكره القاضي المحدث ابن العربي في «سراج المريدين» وابن الجوزي وابن تيمية. انتهى باختصار.

ومثل هذا يوجد في كلام غيرهم من العلماء، والمقصود أن أهل العلم ما زالوا ينكرون هذه الأمور ويبينون أنها شرك، وإن كان بعض المتأخرين ممن ينتسب إلى العلم والدين، ممن أصيب في عقله ودينه قد يرخص في بعض هذه الأمور، وهو مخطئ في ذلك، ضال مخالف لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وإجماع المسلمين فكل أحد مأخوذ من قوله ومتروك إلا قول ربنا وقول رسوله ﷺ، فإن ذلك لا يتطرق إليه الخطأ بحال، بل واجب على الخلق اتباعه في كل زمان، على أنه لو أجمع المتأخرون على جواز هذا لم يعتد بإجماعهم المخالف لكلام الله وكلام رسوله في محل النزاع، لأنه إجماع غير معصوم، بل هو من زلة العالم التي حذرنا من اتباعها، وأما الإجماع المعصوم، فهو إجماع الصحابة والتابعين وما وافقه، وهو السواد الأعظم الذي ورد الحث على أتباعه، وإن لم يكن عليه إلا الغرباء الذين أخبر بهم

(١) التي يستمد منه القوة والنشاط.

ﷺ في قوله: «**بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء**»، رواه مسلم. لا ما كان عليه العوام والطغام، والخلف المتأخرون، الذين يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون.



وَقَولُ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾ (يونس: ١٠٦-١٠٧).

قال ابن عطية: معناه قيل لي: ولا تدع، فهو عطف على «أقم»، وهذا الأمر والمخاطبة للنبي ﷺ إذا كانت هكذا، فأحرى أن يحذر من ذلك غيره، وقال غيره: ﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾ معناه: فإن دعوت من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك، فكنّى عنه بالفعل إيجازاً، ﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ إذا جزاء للشرط وجواب لسؤال مقدر، كأن سائلاً سأل عن تبعة عبادة الأوثان، وجعل من الظالمين، لأنه لا ظلم أعظم من الشرك ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ (لقمان: ١٣).

قلت: حاصل كلام المفسرين أن الله تعالى نهى رسوله ﷺ أن يدعو من دونه ما لا ينفعه ولا يضره، والمراد به كل ما سوى الله، فإنهم لا ينفعون ولا يضرون وسواء في ذلك الأنبياء والصالحون وغيرهم، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ (الجن: ١٨)، وقال النبي ﷺ لابن عباس: «**إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك**» رواه الترمذي، وقال حسن صحيح.

وفي الآية تنبيه على أن المدعو لا بد أن يكون مالكاً للنفع والضر حتى يعطي من دعاه أو يبطش بمن عصاه، وليس ذلك إلا لله وحده، فتعيَّن أن يكون هو المدعو دون ما سواه؛ والآية شاملة لنوعي الدعاء[1].

---

(١) دعاء العبادة ودعاء المسألة.

وقوله: ﴿فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٦﴾ (يونس: ١٠٦). أي المشركين، وهذا كقوله: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ٢١٣﴾ (الشعراء: ٢١٣)، وقوله: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ٦٥﴾ (الزمر: ٦٥). وقوله في الأنبياء: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٨٨﴾ (الأنعام: ٨٨). فإذا كان هذا الأمر لو يصدر من الأنبياء وحاشاهم من ذلك لم يفكوا أنفسهم من عذاب الله، فما ظنك بغيرهم، فلم يبق شيء يقرِّب إلى الله ويباعد من سخطه إلا توحيده والعمل بما يرضاه، لا الاعتماد على شخص أو قبر أو صنم أو وثن أو مال أو غير ذلك من الأسباب ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ١١٧﴾ (المؤمنون: ١١٧)، والآية نص في أن دعاء غير الله والاستغاثة به شرك أكبر، ولهذا قال: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ﴾ (يونس: ١٠٧)، لأنه المتفرد بالملك والقهر والعطاء والمنع، ولازم ذلك إفراده بتوحيد الإلهية لأنهما متلازمان، وإفراده بسؤال كشف الضر وجلب الخير؛ لأنه لا يكشف الضر إلا هو، ولا يجلب الخير إلا هو ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ٢﴾ (فاطر: ٢). فتعين أن لا يدعى لذلك إلا هو، وبطل دعاء من سواه ممن لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً فضلاً عن غيره، وهذا ضد ما عليه عباد القبور؛ فإنهم يعتقدون أن الأولياء والطواغيت الذين يسمونهم المجاذيب[1] ينفعون ويضرون ويمسّون بالضر ويكشفونه، وأن لهم التصرف المطلق في الملك، أي على سبيل الكرامة، وهذا فوق شرك كفار العرب، وإما على سبيل الوساطة

---

(١) لأنهم يجذبون القلوب إليهم.

بينهم وبين الله بالشفاعة وهذا شرك الذين قالوا: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ (الزمر: ٣). وفي الآية دليل على أن أصلح الناس لو يفعله إرضاءً لغيره صار من الظالمين. ذكره المصنف. وقوله: ﴿يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ﴾ (يونس: ١٠٧). فلا يرد عنه راد؛ لأنه العزيز الذي لا يغالب ولا يمانع ولا راد لقضائه، ولا معقِّب لحكمه، فأي فائدة في دعاء غيره لشفاعة أو غيرها؟ فإنه تعالى فعال لما يريد لا يثنيه عنه شفيع ولا غيره، بل لا يتكلم أحد عنده إلا بإذنه، ولا يشفع أحد إلا بإذنه: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ٤﴾ (السجدة: ٤)، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ١٠٧﴾ (يونس: ١٠٧) أي لمن تاب إليه وأقبل عليه حتى ولو كان المتاب من الشرك.



وَقَولُهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ١٧﴾ (العنكبوت: ١٧). **الآية.**

قال: «وقوله: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ﴾»: أمر الله تعالى بابتغاء الرزق عنده لا عند غيره ممن لا يملك رزقاً من الأوثان والأصنام وغيرها، كما قال في أول الآية: ﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ﴾ (العنكبوت: ١٧) قال ابن كثير: وهذا أبلغ في الحصر كقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥﴾ (الفاتحة: ٥) ﴿رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾ (التحريم: ١١)، ولهذا قال: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ﴾[1] أي لا عند غيره لأنه المالك له وغيره لا يملك شيئاً من ذلك ﴿فَٱعۡبُدُوهُ﴾ أي أخلصوا له العبادة وحده لا شريك له ﴿وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓ﴾ أي على ما أنعم عليكم ﴿إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ١٧﴾ أي فيجازي كل عامل بعمله.

قلت: في الآية الرد على المشركين الذين يدعون غير الله ليشفعوا لهم عنده في جلب الرزق؛ فما ظنك بمن دعاهم أنفسهم، واستغاث بهم ليرزقوه وينصروه كما هو الواقع من عباد القبور؟.

وقال المصنف: وفيه أن طلب الرزق لا ينبغي إلا من الله كما أن أهل الجنة لا تطلب إلا منه.



---

(١) الرزق عام قد يكون علماً نافعاً، وقد يكون عملاً صالحاً، وقد يكون زوجة صالحة، وقد يكون مالاً وقد يكون ولداً. كله بيد الله ويطلب من الله.

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾ (الأحقاف: ٥، ٦).

قال: «وقوله: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾﴾. حاصل كلام المفسرين: أن الله تعالى حكم بأنه لا أضل ممن يدعون من دون الله لا دعاء عبادة ولا دعاء مسألة واستغاثة من هذه حاله. ومعنى الاستفهام فيه إنكار أن يكون في الضلال كلهم أبلغ ضلالاً ممن عبد غير الله ودعاه، حيث يتركون دعاء السميع المجيب القادر على تحصيل كل بغية ومرام، ويدعون من دونه من لا يستجيب لهم، ولا قدرة به على استجابة أحد منهم ما دام في الدنيا وإلى أن تقوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾﴾ (الرعد: ١٤)، وقوله: ﴿وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾﴾. أي: لا يشعرون بدعاء من دعاهم، لأنهم إما عباد مسخرون مشتغلون بأحوالهم كالملائكة، وإما أموات كالأنبياء والصالحين، وإما أصنام وأوثان.

وقوله: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً﴾. أي: إذا قامت القيامة وحشر الناس للحساب عادوهم، وكانوا بعبادتهم بالدعاء وغيره من أنواع العبادة كافرين، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ (مريم: ٨١-٨٢)، فليسوا في الدارين إلا على نكد ومضرة، لا تتولاهم بالاستجابة في الدنيا، وتجحد عبادتهم في الآخرة وهم أحوج ما كانوا إليها.

وفي الآيتين مسائل نبـّه عليها المصنف:

أحدها: أنه لا أضل ممن دعا غير الله.

الثانية: أنه غافل عن دعاء الداعي لا يدري عنه.

الثالثة: أن تلك الدعوة سبب لبغض المدعو للداعي وعداوته له.

الرابعة: تسمية تلك الدعوة عبادة للمدعو.

الخامسة: كفر المدعو بتلك العبادة.

السادسة: أن هذه الأمور هي سبب كونه أضل الناس.



وَقولُهُ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٦٢﴾ (النمل: ٦٢).

قال: «وقوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾».

يقرر تعالى أنه الإله الواحد الذي لا شريك له، ولا معبود سواه مما يشترك في معرفته المؤمن والكافر، لأن القلوب مفطورة على ذلك، فمتى جاء الاضطرار رجعت القلوب إلى الفطرة، وزال ما ينازعها، فالتجأت إليه وأنابت إليه وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ۝٥٣ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ۝٥٤﴾ (النحل: ٥٣- ٥٤)، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ ۝٨﴾ (الزمر: ٨). ومثل هذا كثير في القرآن.

يبيِّن تعالى أنه المدعو عند الشدائد، الكاشف للسوء وحده، فيكون هو المعبود، وكذا قال في هذه الآية: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ أي من هو الذي لا يلجأ المضطر إلا إليه والذي لا يكشف ضر المضطرين سواه، ومن المعلوم أن المشركين كانوا يعلمون أنه لا يقدر على هذه الأمور إلا الله وحده، وإذا جاءتهم الشدائد أخلصوا الدعاء لله، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ۝٦٥﴾ (العنكبوت: ٦٥) فتبين أن من اعتقد في غير الله أنه يكشف السوء أو يجيب دعوة المضطر، أو دعاه لذلك فقد أشرك شركاً أكبر من شرك العرب كما هو الواقع من عباد القبور[١].

---

(١) فإنهم عند الشدائد يلهجون بمعبوديهم فيقولون يا علي، يا حسين، يا ابن علوان.

وَرَوَى الطَّبَرَانِيُّ بِإِسنَادِهِ، أَنَّهُ كَانَ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ مُنَافِقٌ يُؤْذِي المُؤمِنِينَ، فَقَالَ بَعضُهُم: قُومُوا بِنَا نَستَغِيثُ بِرَسُولِ الله ﷺ مِن هَذَا المُنَافِقِ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّهُ لاَ يُستَغَاثُ بِي، وَإِنَّمَا يُستَغَاثُ بِالله»(١).

قوله: «**روى الطبراني**». هو الإمام الحافظ، الثقة، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الطبراني صاحب المعاجم الثلاثة وغيرها. روى عن النسائي وإسحاق ابن إبراهيم الدَّبري(٢)، وخلق كثير، ومات سنة ستين وثلاثمئة(٣)، وقد بيض المصنف لاسم الراوي، وكأنه والله أعلم نقله عن غيره أو كتبه من حفظه، والحديث عن عبادة ابن الصامت -رضي الله عنه-.

قوله: «**إنه كان في زمن النبي ﷺ منافق يؤذي المؤمنين**». هذا المنافق لم أقف على تسميته، ويحتمل أن يكون هو عبدالله بن أبي، فإنه معروف بالأذى للمؤمنين بالكلام في أعراضهم ونحو ذلك، أما أذاهم بنحو ضرب أو زجر فلا نعلم منافقاً

---

(١) هذا الحديث يحتاج إلى البحث عن سنده، فقد أورده الهيثمي في «مجمع الزوائد»، وقال: «رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير ابن لهيعة وهو حسن الحديث»، ومع ثبوته فإن الحديث محمول على أحد أمرين:

أحدهما: أن النبي ﷺ لا يقدر أن يغيثهم من هذا المنافق لأنه ممنوع من قتله لئلا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه، أو لأنه له منزلة عند الأوس فيغضب له كثيرون فترك قتله حرصاً على اجتماع القلوب فهو لا يقدر فالاستغاثة هنا ممنوعة لأنه فيما لا يقدر.

الثاني: أن النبي ﷺ قادر على إغاثتهم لكنه قال «لا يستغاث بي» من باب سد الذرائع فمنعهم ليتعودوا الاستغاثة بالله والضراعة إليه وحده ويلهجوا به وحده ويعتادوا ذلك وإن كانت استغاثتهم به جائزة لأنه قادر على إغاثتهم.

(٢) الدَّبَري بالياء، نسبة إلى دبر محل باليمن.

(٣) وقد عاش مئة عام، ويكنى أبا القاسم وقد ألحق الأسلاف بالأجداد.

بهذا الصفة[١].

قوله: «فقال بعضهم»: أي بعض المؤمنين، وهذا البعض القائل لذلك يحتمل أن يكون واحداً، وأن يكون جماعة؛ والظاهر أنه واحد، وأظن في بعض الروايات أنه أبو بكر الصديق -رضي الله عنه-[٢].

قوله: «قوموا بنا نستغيث[٣] برسول الله ﷺ»: مرادهم الاستغاثة به فيما يقدر عليه بكف المنافق عن أذاهم، بنحو ضربه أو زجره، لا الاستغاثة به فيما لا يقدر عليه إلا الله.

قوله: «إنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث بالله»: قال بعضهم: فيه التصريح بأنه لا يستغاث بالنبي ﷺ في الأمور، وإنما يستغاث بالله. والظاهر أن مراده ﷺ إرشادهم إلى التأدب مع الله في الألفاظ، لأن استغاثتهم به ﷺ من المنافق من الأمور التي يقدر عليها، إما بزجره أو تعزيره ونحو ذلك، فظهر أن المراد بذلك الإرشاد إلى حسن اللفظة والحماية منه ﷺ لجناب التوحيد، وتعظيم الله تبارك وتعالى.

فإذا كان هذا كلامه ﷺ في الاستغاثة به فيما يقدر عليه، فكيف بالاستغاثة به أو بغيره في الأمور المهمة التي لا يقدر عليها أحد إلا الله، كما هو جار على ألسنة كثير من الشعراء وغيرهم؟! وقلّ من يعرف أن ذلك منكر، فضلاً عن معرفة كونه شركاً.

فإن قلت: ما الجمع بين هذا الحديث وبين قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ (القصص: ١٥)، فإن ظاهر الحديث المنع من إطلاق لفظ

---

(١) لأنه لو فعل ذلك لأخذ وعوقب أو قتل.

(٢) وقد ثبت أنه هو.

(٣) الحديث فيه ضعف؛ لكن له شواهد في المعنى.

الاستغاثة على المخلوق فيما يقدر عليه، وظاهر الآية جوازه. قيل: تحمل الآية على الجواز، والحديث على الأدب والأولى، والله أعلم.

وقد تبين بما ذكر في هذا الباب وشرحه من الآيات، والأحاديث، وأقوال العلماء: أن دعاء الميت والغائب والحاضر فيما لا يقدر عليه إلا الله والاستغاثة بغير الله في كشف الضر أو تحويله، هو الشرك الأكبر، بل هو أكبر أنواع الشرك، لأن الدعاء مخ العبادة، ولأن من خصائص الإلهية إفراد الله بسؤال ذلك إذ معنى الإله هو الذي يعبد لأجل هذه الأمور، ولأن الداعي إنما يدعو إلهه عند انقطاع أمله مما سواه، وذلك هو خلاصة التوحيد، وهو انقطاع الأمل مما سوى الله، فمن صرف شيئاً من ذلك لغير الله، فقد ساوى بينه وبين الله، وذلك هو الشرك، ولهذا يقول المشركون لآلهتهم وهم في الجحيم ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ (الشعراء: ٩٧-٩٨)، ولكن لعباد القبور على هذا شبهات، ذكر المصنف كثيراً منها في «كشف الشبهات» ونحن نذكر هنا ما لم يذكره. فمن ذلك أنهم احتجوا بحديث رواه الترمذي في «جامعه» حيث قال: حدثنا محمود بن غيلان، ثنا عثمان بن عمر[١]، ثنا شعبة، عن أبي جعفر، عن عمارة بن خزيمة بن ثابت، عن عثمان بن حنيف أن رجلا ضرير البصر أتى النبي ﷺ فقال: ادع الله أن يعافيني، قال: «**إن شئت دعوت، وإن شئت صبرت فهو خير لك**» قال: فادعه: فأمره أن يتوضأ، ويحسن وضوءه، ويدعو بهذا الدعاء: «**اللهم إني أسألك، وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، إني توجهت به إلى ربي في حاجتي هذه لتقضى، اللهم فشفعه في**» قال هذا حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من رواية أبي جعفر، وهو غير الخطمي. هكذا رواه الترمذي، ورواه النسائي وابن شاهين والبيهقي

---

(١) في بعض النسخ عمرو، وهو خطأ، والصواب عثمان بن عمر -بدون واو- بن فارس العبدي، كما في «تقريب التهذيب»، وغيره.

كذلك، وفي بعض الروايات «يا محمد إني أتوجه إليك» إلى آخره وهذه اللفظة هي التي تعلق بها المشركون، وليست عند هؤلاء الأئمة. قالوا فلو كان دعاء غير الله شركاً لم يعلِّم النبي ﷺ الأعمى هذا الدعاء الذي فيه نداء غير الله.. **والجواب من وجوه:**

الأول: أن هذا الحديث من أصله وإن صححه الترمذي فإن في ثبوته نظر؛ لأن الترمذي يتساهل في التصحيح كالحاكم، لكن الترمذي أحسن نقداً، كما نص على ذلك الأئمة ووجه عدم ثبوته أنه قد نص أن أبا جعفر الذي عليه مدار هذا الحديث هو غير الخطمي، وإذا كان غيره؛ فهو لا يعرف[1]، ولعل عمدة الترمذي في تصحيحه أن شعبة لا يروي إلا عن ثقة، وهذا فيه نظر، فقد قال عاصم بن علي: سمعت شعبة يقول: لو لم أحدثكم إلا عن ثقة لم أحدثكم إلا عن ثلاثة، وفي نسخة عن ثلاثين. ذكره الحافظ العراقي، وهذا اعتراف منه بأنه يروي عن الثقة وغيره فينظر في حاله، ويتوقف في الاحتجاج به على ثبوت صحته.

الثاني: أنه في غير محل النزاع، فأين طلب الأعمى من النبي ﷺ أن يدعو له، وتوجهه بدعائه مع حضوره[2] من دعاء الأموات، والسجود لهم، ولقبورهم، والتوكل عليهم، والالتجاء إليهم في الشدائد والنذر والذبح لهم، وخطابهم بالحوائج من الأمكنة البعيدة: يا سيدي يا مولاي افعل بي كذا؟! فحديث الأعمى شيء، ودعاء غير الله تعالى والاستغاثة به شيء آخر، فليس في حديث الأعمى شيء غير أنه طلب من النبي ﷺ أن يدعو له، ويشفع له، فهو توسل بدعائه وشفاعته، ولهذا قال في آخره: «**اللهم فشفعه فيَّ**» فعلم أنه شفع له، وفي رواية أنه طلب من

(١) وقد ذكره أبو العباس ابن تيمية في «قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة» وذكر أن أبا جعفر معروف ولكن ليس في الحديث حجة لعباد القبور.

(٢) السؤال بالجاه والحق والذات من البدع وإنما المشروع السؤال بأسماء الله أو التوسل بالأعمال الصالحة.

النبي ﷺ أن يدعو له، فدل الحديث على أنه ﷺ شفع له بدعائه، وأن النبي ﷺ أمره هو أن يدعو الله ويسأله قبول شفاعته، فهذا من أعظم الأدلة على أن دعاء غير الله شرك، لأن النبي ﷺ أمره أن يسأل قبول شفاعته فدل على أن النبي ﷺ لا يدعى، ولأنه ﷺ لم يقدر على شفائه إلا بدعاء الله له. فأين هذا من تلك الطوام؟! والكلام إنما هو في سؤال الغائب أو سؤال المخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله، أما أن تأتي شخصاً يخاطبك فتسأله أن يدعو لك فلا إنكار في ذلك على ما في حديث الأعمى، فالحديث سواء كان صحيحاً أو لا، وسواء ثبت قوله فيه: يا محمد أو لا، لا يدل على سؤال الغائب، ولا على سؤال المخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله بوجه من وجوه الدلالات، ومن ادعى ذلك فهو مفترٍ على الله وعلى رسوله ﷺ لأنه إن كان سأل النبي ﷺ نفسه، فهو لم يسأل منه إلا ما يقدر عليه، وهو أن يدعو له، وهذا لا إنكار فيه وإن كان توجه به من غير سؤال منه نفسه، فهو لم يسأل منه، وإنما سأل من الله به. وسواء كان متوجهاً بدعائه، كما هو نص أول الحديث وهو الصحيح، أو كان متوجهاً بذاته على قول ضعيف، فإن التوجه بذوات المخلوقين، والإقسام بهم على الله بدعة منكرة، لم تأت عن النبي ﷺ، ولا عن أحد من أصحابه، والتابعين لهم بإحسان، ولا الأئمة الأربعة ونحوهم من أئمة الدين. قال أبو حنيفة: لا ينبغي لأحد أن يدعو الله إلا به، وقال أبو يوسف: أكره بحق فلان، وبحق أنبيائك ورسلك، وبحق البيت والمشعر الحرام. وقال القدوري[1]: المسألة بحق المخلوق لا تجوز، لا يقول: أسألك بفلان، أو بملائكتك، أو أنبيائك ونحو ذلك، لأنه لا حق للمخلوق على الخالق. واختار العز بن عبدالسلام[2]، إلا في حق

---

(١) من علماء الشافعية نسبة إلى قدور بلد.

(٢) من الشافعية.

النبي ﷺ خاصة إن ثبت الحديث، يشير إلى حديث الأعمى[١]، وقد تقدم أنه على تقدير ثبوته ليس فيه إلا أنه توسل بدعائه لا بذاته. وقد ورد في ذلك حديث رواه الحاكم في «مستدركه» فأبعد النجعة[٢] من طريق عبدالرحمن بن زيد بن أسلم لما أذنب آدم الذنب الذي أذنبه، رفع رأسه إلى العرش، فقال: «**أسألك بحق محمد إلا غفرت لي...**»[٣] الحديث. وهو حديث ضعيف بل موضوع[٤]؛ لأنه مخالف للقرآن قال تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ (الأعراف: ٢٣) فهذا هو الذي قاله آدم. قال الذهبي في هذا الحديث: أظنه موضوعاً، وعبدالرحمن بن زيد متفق على ضعفه، قال ابن معين: ليس حديثه بشيء.

الثالث: أن قوله: يا محمد أتوجه إلخ لم تثبت في أكثر الروايات، وبتقدير ثبوتها لا يدل على جواز دعاء غير الله؛ لأن هذا خطاب لحاضر معيّن يراه ويسمع كلامه، ولا إنكار في ذلك؛ فإنه الحي يُطلب منه الدعاء كما يطلب منه ما يقدر عليه، فأين هذا من دعاء الغائب والميت لو كان أهل البدع والشرك يعلمون؟

واحتجوا أيضاً بحديث رواه أبو يعلى وابن السُّنِّي في «عمل اليوم والليلة» فقال ابن السُّنِّي: حدثنا أبو يعلى، ثنا الحسن بن عمرو بن شقيق، ثنا معروف بن حسان أبو معاذ السمرقندي، عن سعيد، عن قتادة، عن أبي بردة، عن أبيه، عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا انفلتت دابة أحدكم بأرض فليناد يا عباد الله احبسوا**» هكذا في كتاب ابن السني، وفي «الجامع الصغير» «**فإن الله عز**

(١) وقد خفي على العز بن عبدالسلام أن حديث الأعمى إن ثبت فهو توسل بدعائه -عليه السلام- لا بذاته.

(٢) أي بعد عن الصواب و«النُجعة» بضم النون كما في القاموس.

(٣) وبقية الحديث «أن الله سأله ما الذي أعلمك بمحمد وفضله قال: رأيته مكتوباً بقائمة العرش».

(٤) وممن نص على أنه موضوع أبو العباس ابن تيمية وجماعة.

وجل في الأرض حاضراً سيحبسه عليكم»، والجواب أن هذا الحديث مداره على معروف بن حسان، وهو أبو معاذ السمرقندي فقوله في الأصل: ثنا أبو معاذ السمرقندي خطأ أظنه من الناسخ. قال ابن عدي: منكر الحديث، وقال الذهبي في «الميزان»: قال ابن عدي: منكر الحديث ، قد روي عن عمر بن ذر نسخة طويلة كلها غير محفوظة، وقال السيوطي: حديث ضعيف. وأقول: بل هو باطل، إذ كيف يكون عند سعيد، عن قتادة، ثم يغيب عن أصحاب سعيد الحفاظ الأثبات مثل يحيى القطان، وإسماعيل بن علية، وأبي أسامة، وخالد بن الحارث، وأبي خالد الأحمر، وسفيان، وشعبة، وعبدالوارث، وابن المبارك، والأنصاري، وغندر، وابن أبي عدي ونحوهم، حتى يأتي به الشيخ المجهول المنكر الحديث. فهذا من أقوى الأدلة على وضعه، وبتقدير ثبوته لا دليل فيه، لأن هذا من دعاء الحاضر فيما يقدر عليه كما قال: «**فإن لله في الأرض حاضراً سيحبسه عليكم**».

واحتجوا أيضاً بحديث رواه الطبراني في «المعجم الكبير» فقال: حدثنا طاهر بن عيسى بن قيرس المصري، ثنا أصبغ بن الفرج، ثنا ابن وهب، عن أبي سعيد المكي، عن روح بن القاسم، عن أبي جعفر الخطمي المديني، عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف أن رجلاً كان يختلف إلى عثمان بن عفان في حاجة له، فكان عثمان لا يلتفت إليه، ولا ينظر في حاجته، فلقي ابن حنيف فشكا إليه ذلك، فقال له عثمان بن حنيف: ائت الميضأة فتوضأ، ثم ائت إلى المسجد فصلِّ فيه ركعتين، ثم قل: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبينا محمد نبي الرحمة يا محمد إني أتوجه بك إلى ربك ليقضي لي حاجتي ... الحديث.

والجواب من وجوه:

الأول: أن رواية طاهر بن عيسى ممن لا يعرف بالعدالة بل هو مجهول، قال الذهبي: طاهر بن عيسى بن قيرس أبو الحسين المصري المؤدب، عن سعيد بن أبي

مريم، ويحيى بن بكير، وأصبغ بن الفرج. وعنه الطبراني. توفي سنة اثنتين وتسعين ومئتين، ولم يذكر فيه جرحاً ولا تعديلاً فهو إذاً مجهول الحال لا يجوز الاحتجاج بخبره، لا سيما فيما يخالف نصوص الكتاب والسنة.

الثاني: قوله: عن أبي سعيد المكي أشد جهالة من الأول، فإن مشايخ ابن وهب المكيين معروفون كداود بن عبدالرحمن، وزمعة بن صالح، وابن عيينة، وطلحة بن عمرو الحضرمي، وابن جريج، وعمر بن قيس، ومسلم بن خالد الزنجي، وليس فيهم من يكنى أبا سعيد، فتبيَّن أنه مجهول.

الثالث: إن قلنا بتقدير ثبوته فليس فيه دليل على دعاء الميت والغائب، غاية ما فيه أنه توجه به في دعائه، فأين هذا من دعاء الميت؟ فإن التوجه بالمخلوق سؤال به لا سؤال منه[1]، والكلام إنما هو في سؤال المخلوق نفسه ودعائه والاستغاثة به فيما لا يقدر عليه إلا الله، وكل أحد يفرق بين سؤال الشخص، وبين السؤال به، فإنه في السؤال به قد أخلص الدعاء لله، ولكن توجه على الله بذاته أو بدعائه، وأما في سؤاله نفسه ما لا يقدر عليه إلا الله فقد جعله شريكاً لله في عبادة الدعاء، فليس في حديث الأعمى، وحديث ابن حنيف هذا إلا إخلاص الدعاء لله كما هو صريح فيه، إلا قوله: يا محمد أتوجه بك، وهذا ليس في المخاطبة لميت فيما يقدر عليه، إنما فيه مخاطبته مستحضراً له في ذهنه كما يقول المصلي: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته.

الرابع: أنهم زعموا أنه دليل على دعاء كل غائب وميت من الصالحين، فخرجوا عما فهموه من الحديث بفهمهم الفاسد إلى أنه دليل على دعاء كل غائب وميت صالح ولا دليل فيه أصلاً على دعاء الرسول ﷺ بعد موته، ولا في حياته فيما لا يقدر عليه، ثم لو كان فيه دليل على ذلك لم يكن فيه دليل على دعاء الغائب

---

(١) وهناك فرق بين الأمرين فالسؤال به أي بذاته بدعة، والسؤال منه شرك والكلام في الشرك لا في البدع.

والميت مطلقاً؛ لأنه قياس(١) مع وجود الفارق، وهو باطل بالإجماع، إذ ما ثبت للنبي ﷺ من الفضائل والكرامات لا يساويه فيه أحد، فلا يجوز قياس غيره عليه. وأيضاً فالقياس إنما يجوز للحاجة ولا حاجة إلى قياس غيره عليه، فبطل قياسهم بنفس مذهبهم. هذا غاية ما احتجوا به مما هو موجود في بعض الكتب المعروفة، وما سوى هذه الأحاديث الثلاثة فهو مما وضعوه بأنفسهم، كقولهم: إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأصحاب القبور، وقولهم: لو حسّن أحدكم ظنّه بحجر لنفعه. قال ابن القيم: وهو من وضع المشركين عباد الأوثان(٢).



(١) قياس غير الرسول عليه وهو قياس فاسد.

(٢) ومما احتجوا به حديث: «إذا سألتم الله فاسألوه بجاهي فإن جاهي عند الله عظيم» قال شيخ الإسلام: وهو حديث موضوع لم يروه أحد من أهل العلم، ولا هو في شيء من كتب المسلمين المعتمدة في الدين.

باب

قَولُ الله تَعَالَى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝١٩١ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ۝١٩٢﴾ (الأعرف: ١٩١-١٩٢).

الشَّرْحُ:

المراد من هذه الترجمة بيان حال المدعوين من دون الله أنهم لا ينفعون ولا يضرون، وسواء في ذلك الملائكة والأنبياء والصالحون والأصنام، فكل من دعي من دون الله فهذه حاله[1]، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ۝٧٣ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝٧٤﴾ (الحج: ٧٣-٧٤). ويكفيك في ذلك قوله تعالى لأكرم الخلق: ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ۝٢١ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ۝٢٢ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ﴾ (الجن: ٢١-٢٣)، وقال: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝١٨٨﴾ (الأعراف: ١٨٨)، وقال: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ۝٣﴾ (الفرقان: ٣)، ومن المعلوم أنهم كانوا قد عبدوا الملائكة والأنبياء والصالحين، ولهذا أخبر سبحانه وتعالى عن الملائكة أنهم يتبرؤون منهم يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ

---

(١) ﴿لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ (الأعرف: ١٩١).

كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ (سبأ: ٤٠-٤١).

إذا تبيَّن ذلك فحاصل كلام المفسرين على الآية المترجم لها أن قوله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾﴾ (الأعراف: ١٩١). توبيخ وتقريع وتعنيف للمشركين بأنهم يعبدون مع الله تعالى عباداً لا تخلق شيئاً وليس فيها ما تستحق به العبادة من الخلق والرزق والنصر لأنفسهم أو لمن عبدهم وهم مع ذلك مخلوقون محدثون ولهم خالق خلقهم، وإن خرج الكلام مخرج الاستفهام فالمراد به ما ذكرناه.

وقوله: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾﴾ (الأعراف: ١٩٢). أي ويشركون به، ويعبدون من هذه حاله لا يستطيع نصر عابديه ولا نصر نفسه بأن يدفع عن نفسه من أراد به الضر، ومن هذه حاله فهو في غاية العجز، فكيف يكون إلهاً معبوداً؟ وجميع الأنبياء والملائكة والصالحين وغيرهم داخلون في هذه الأوصاف، فلا يقدر أحد منهم أن يخلق شيئاً ولا يستطيعون لمن عبدهم نصراً ولا ينصرون أنفسهم، وإذا كان كذلك بطلت دعوتهم من دون الله.



وَقَولُهُ تَعَالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ١٣ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ﴾ (سورة: ١٣) الآية.

حاصل كلام المفسرين كابن كثير وغيره أنه تعالى يخبر عن حال المدعوين من دونه من الملائكة والأنبياء والأصنام وغيرها، بما يدل على عجزهم وضعفهم، وأنهم قد انتفت عنهم الشروط التي لا بد أن تكون في المدعو وهي الملك، وسماع الدعاء، والقدرة على استجابته، فمتى عُدم شرط بطل أن يكون مدعواً، فكيف إذا عُدمت كلها، فنفى عنهم الملك بقوله: ﴿مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ١٣﴾.

قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وعطاء، والحسن، وقتادة: القطمير: اللفافة التي تكون على نواة التمر، أي: ولا يملكون من السماوات والأرض شيئاً، ولا بمقدار هذا القطمير، كما قال: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ٧٣﴾ (النحل: ٧٣)، وقال: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ (سبأ: ٢٢)، فمن كان هذا حاله فكيف يدعى من دون الله؟ ونفى عنهم سماع الدعاء بقوله: ﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ﴾ (فاطر: ١٤)، يعني أن الآلهة التي تدعونها لا يسمعون دعاءكم لأنهم أموات أو ملائكة مشغولون بأحوالهم مسخرون لما خلقوا له أو جماد، فلعل المشرك يقول: هذا في الأصنام، أما الملائكة والأنبياء والصالحون فيسمعون ويستجيبون، فنفى سبحانه ذلك بقوله: ﴿وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ﴾ أي: لا يقدرون على ما تطلبون منهم، وما خص تعالى الأصنام، بل عم جميع من يدعى من دونه. ومن المعلوم أنهم كانوا يعبدون الملائكة والأنبياء والصالحين، كما ذكر الله تعالى ذلك في كتابه، فلم يرخص في دعاء أحد منهم لا استقلالاً ولا

وساطة بالشفاعة. وقوله: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ كقوله: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ (مريم: ٨١-٨٢) وهذا نص صريح على أن من دعا غير الله فقد أشرك بشرطه[1]، وأن المدعوين يكفرون به يوم القيامة، ويتبرؤون منهم كقوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ (البقرة: ١٦٦) فهل على كلام رب العزة استدراك؟ ولهذا قال: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ (فاطر: ١٤) أي: ولا يخبرك بعواقب الأمور ومآلها وما تصير إليه مثل خبير بها. قال قتادة: يعني نفسه تبارك وتعالى، فإنه أخبر بالواقع لا محالة.



---

(١) قوله: «بشرطه»: أي بشرط الشرك وهو أن يكون المدعو ميتاً أو غائباً أوحياً حاضر غير قادر، أما دعاء الحي الحاضر القادر كسؤال الغريق حياً حاضراً أن ينقذه فليس من الشرك؛ لأن هذا من باب فعل الأسباب، كما قال تعالى: ﴿فَٱسْتَغَـٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ فهو من الأسباب المقدور عليها والشرك هو ما كان وراء الأسباب بأمور غيبية لا يقدر عليها إلا الله.

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: شُجَّ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ، فَقَالَ: «كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهِمْ؟» فَنَزَلَتْ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ (آل عمران: ١٢٨).

قوله: «في الصحيح». أي «الصحيحين» فعلقه البخاري عن حميد، وثابت عن أنس، ووصله أحمد والترمذي والنسائي عن حميد عن أنس به. ووصله مسلم عن ثابت، عن أنس وقال ابن إسحاق في «المغازي»: حدثني حميد الطويل، عن أنس، قال: كسرت رباعية النبي ﷺ يوم أحد وشج في وجهه، فجعل يمسح والدم يسيل على وجهه، وجعل يمسح الدم وهو يقول: «**كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم؟**» فأنزل الله الآية.

قوله: «شج النبي ﷺ» قال أبو السعادات[1]: الشج في الرأس خاصة في الأصل، وهو أن يضربه بشيء فيجرحه فيه ويشقّه؛ ثم استعمل في غيره من الأعضاء. وذكر ابن هشام من حديث أبي سعيد الخدري أن عتبة بن أبي وقاص وهو الذي كسر رباعية النبي ﷺ السفلى، وجرح شفته السفلى، وأن عبدالله بن شهاب الزهري هو الذي شجه في جبهته، وأن عبدالله بن قَمِئَة جرحه في وجنته، فدخلت حلقتان من حِلَقِ المِغْفَر في وجنته، وأن مالك بن سنان مص الدم من وجه رسول الله ﷺ ثم ازدرده[2]، فقال له: «**لن تمسك النار**»[3].

وروى الطبراني من حديث أبي أمامة قال: رمى عبدالله بن قمئة رسول الله ﷺ يوم أحد فشجّه في وجهه، وكسر رباعيته فقال: خذها وأنا ابن قمئة فقال رسول

---

(١) هو ابن الأثير في «النهاية غريب الحديث».

(٢) أي: ابتلعه.

(٣) الأصل أن يلقيه ولا يبتلعه لأن الدم نجس فإن ثبت الحديث فهو خاص بالنبي ﷺ كما في «الخصائص الكبرى» للسيوطي وانظر ترجمة مالك بن سنان في «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر فقد ذكر القصة هناك.

الله ﷺ: «**ما لك أقمأك الله**» فسلط الله عليه تيس جبل(١)، فلم يزل ينطحه حتى قطّعه قطعةً قطعةً. قال القرطبي: والرباعية - بفتح الراء وتخفيف الياء، وهي كل سن بعد ثنية(٢) قال النووي: وللإنسان أربع رباعيات. قال الحافظ: والمراد أنها كسرت فذهب منها فِلقة لم تقلع من أصلها.

قلت: فظهر بهذا أن قول بعضهم: إنه شج في رأسه فيه نظر(٣). قال النووي: وفي هذا وقوع الأسقام والابتلاء بالأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم لينالوا جزيل الأجر والثواب، ولتعرف أممهم وغيرهم ما أصابهم، وليتأسوا بهم(٤). قال القرطبي(٥): وليعلم أنهم من البشر تصيبهم محن الدنيا، ويطرأ على أجسامهم ما يطرأ على أجسام البشر ليتيقنوا أنهم مخلوقون مربوبون، ولا يفتتن بما ظهر على أيديهم من المعجزات، ويلبس الشيطان من أمرهم ما لبسه على النصارى وغيرهم(٦).

قوله: «**يوم أحد**». جبل معروف إلى الآن، كانت عنده الواقعة المشهورة فأضيفت إليه.

قوله: «**فقال كيف يفلح قوم شجوا نبيهم؟**» زاد مسلم من طريق ثابت عن

---

(١) وهو الوعل.

(٢) سميت رباعية لأنها رابعة ثنتان ورباعيتان.

(٣) النظر فيه نظر، التنظير فيه تنظير لم يظهر وجهه فلعله خطأ من بعض النساخ.

(٤) وفيه فائدة أعظم وهي أن الأنبياء لا يصلحون للعبادة وأن العبادة حق لله حيث لم يستطيعوا دفع ما نزل بهم عن أنفسهم.

(٥) وفي نسخة قال القاضي، وهو القاضي عياض في شرحه على مسلم، والقرطبي هو غير المفسر أبو عبدالله الذي هو صاحب «التذكرة» بل المفسر تلميذ له وهو أبو العباس وهو شارح مسلم، وهو «المفهم على مسلم»، ولقد أحسن في تنبيهه على هذه الفائدة وهو أن الأنبياء بشر لا يصلحون للعبادة.

(٦) حتى عبدوا عيسى وأمه.

أنس «وكسروا رباعيته وأدموا وجهه».

قوله: «فأنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ (آل عمران: ١٢٨)»: قال ابن عطية: كان النبي ﷺ لحقه في تلك الحال يأس من فلاح كفار قريش؛ فمالت نفسه إلى أن يستأصلهم الله ويريح منهم فقيل له بسبب ذلك: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾[1]: أي عواقب الأمور بيد الله فامض أنت لشأنك، ودُمْ على الدعاء لربك.

وقال غيره: المعنى أن الله تعالى مالك أمرهم، فإما أن يهلكهم أو يكبتهم، أو يتوب عليهم إن أسلموا، أو يعذبهم إن أصروا ، وليس لك من أمرهم شيء، وإنما أنت عبد مأمور بإنذارهم وجهادهم، فعلى هذا يكون قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه[1]. وقال ابن إسحاق: أي ليس لك من الحكم بشيء في عبادي إلا ما أمرتك به فيهم.



(١) المعطوف عليه قوله في الآية السابقة: ﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾﴾ والمعطوف عليه قوله: ﴿يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾، وقوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ معترضة عليها.

وَفِيهِ عَن ابنِ عُمَرَ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ فِي الرَّكْعَةِ الأَخِيرَةِ مِنَ الفَجْرِ: «اللَّهُمَّ العَنْ فُلاَنًا وَفُلاَنًا، بَعْدَ مَا يَقُولُ: سَمِعَ الله لِمَنْ حَمِدَهُ، رَبَّنَا وَلَكَ الحَمْدُ»، فَأَنْزَلَ الله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

وَفِي رِوَايَةٍ: «يَدعُو عَلَى صَفوَانَ بنُ أُمَيَّةَ وَسُهَيلِ بنِ عَمرٍو، وَالحَارِثِ بنِ هِشَامٍ، فَنَزَلَت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾».

قوله: «وفيه». أي: في «الصحيح» والمراد به «صحيح البخاري»، ورواه النسائي.

قوله: «عن ابن عمر»: هو عبدالله بن عمر بن الخطاب، صحابي جليل، من عُبّاد الصحابة وعلمائهم أيضاً، شهد له رسول الله ﷺ بالصلاح. مات سنة ثلاث وسبعين في آخرها أو أول التي تليها.

قوله: «إنه سمع رسول الله ﷺ» إلى آخره، هذا القنوت على هؤلاء هو بعد ما شُجَّ، وكسرت رباعيته يوم أحد.

قوله: «اللهم العن فلاناً وفلاناً». قال أبو السعادات: أصل اللعن: الطرد والإبعاد من الله، ومن الخلق السب والدعاء.

قلت: الظاهر أنه من الخلق طلب طرد الملعون وإبعاده من الله بلفظ اللعن، لا مطلق السب والشتم.

قوله: «فلاناً وفلاناً». يعني: صفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، والحارث ابن هشام كما بيَّنه في الرواية التي بعدها. وفيه جواز الدعاء على المشركين في الصلاة وتسمية المدعو عليهم ولهم بأسمائهم في الصلاة، وأن ذلك لا يضر الصلاة.

قوله: «بعد ما يقول: سمع الله لمن حمده». قال أبو السعادات: أجاب حمده وتقبله. وقال السهيلي: مفعول «سمع» محذوف، لأن السمع متعلق بالأقوال

والأصوات دون غيرها، فاللام تؤذن بمعنى زائد وهو الاستجابة المقارنة للسمع، فاجتمع في الكلمة الإيجاز والدلالة على الزائد، وهو الاستجابة لمن حمده. وقال ابن القيم -رحمه الله تعالى- ما معناه: عدي سمع الله لمن حمده باللام لتضمنه معنى: استجاب له، ولا حذف هناك، وإنما هو مضمن.

قوله: «ربنا ولك الحمد». وفي بعض روايات البخاري بإسقاط الواو. قال النووي: لا ترجيح لإحداهما على الأخرى. وقال ابن دقيق العيد: كأن إثباتها دال على معنى زائد، لأن يكون التقدير مثلاً: ربنا استجب ولك الحمد، فيشتمل على معنى الدعاء ومعنى الخبر.

قال شيخ الإسلام: والحمد ضد الذم، والحمد يكون على محاسن المحمود مع المحبة له، كما أن الذم على مساوئه مع البغض له، وكذا قال ابن القيم، وفرق بينه وبين المدح بأن الإخبار عن محاسن الغير، إما أن يكون إخباراً مجرداً عن حب وإرادة، أو مقروناً بحبه وإرادته، فإن كان الأول، فهو المدح، وإن كان الثاني، فهو الحمد. فالحمد إخبار عن محاسن المحمود مع حبه وإجلاله وتعظيمه، ولهذا كان خبراً يتضمن الإنشاء بخلاف المدح، فإنه خبر مجرد. فالقائل إذا قال الحمد لله، و قال: ربنا ولك الحمد، تضمن كلامه الخبر عن كل ما يحمد عليه تعالى باسم جامع محيط متضمن لكل فرد من أفراد الجملة المحققة والمقدرة، وذلك يستلزم إثبات كل كمال يحمد عليه الرب تعالى، ولهذا لا تصلح هذه اللفظة على هذا الوجه، ولا تنبغي إلا لمن هذا شأنه، وهو الحميد المجيد. وفيه التصريح بأن الإمام يجمع بين التسميع والتحميد، وهو قول الشافعي وأحمد وأبو يوسف. وخالف في ذلك مالك وأبو حنيفة فقالا: يقتصر على قول سمع الله لمن حمده.

قوله: «وفي رواية يدعو على صفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، والحارث بن

هشام»[(١)]، إنما دعا عليهم رسول الله ﷺ لأنهم رؤساء المشركين يوم أحد، والسبب تلك الأفاعيل التي جرت على سيد المرسلين ﷺ هم وأبو سفيان، ومع ذلك فما استجيب له فيهم، بل أنزل الله عليه: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ (آل عمران: ١٢٨) فتاب عليهم وآمنوا، مع أنهم فعلوا أشياء لم يفعلها أكثر الكفار، منها غزوهم نبيهم ﷺ في بلاده، وشجهم له، وكسر رباعيته، وقتلهم بني عمهم المؤمنين، وقتلهم الأنصار والتمثيل بقتلى المسلمين، وإعلانهم بشركهم وكفرهم، ومع هذا كله لم يقدر النبي ﷺ أن يدفعهم عن نفسه، ولا عن أصحابه كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ (الجن: ٢١-٢٣) بل لجأ ﷺ إلى ربه المالك القادر على النفع والضر وإهلاكهم، ودعا عليهم ﷺ في الصلاة المكتوبة جهراً، وخلفه سادات الأولياء يؤمِّنون على دعائه، ومع هذا كله ما استجاب الله له فيهم، بل تاب عليهم وآمنوا، فلو كان عنده ﷺ من النفع والضر شيء لكان يفعل بهم ما يستحقونه على هذه الأفعال العظيمة، ولكن الأمر كما قال تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾ (إبراهيم: ٥٢) فأين هذا مما يعتقده عباد القبور في الأولياء والصالحين بل في الطواغيت الذين يسمونهم المجاذيب[(٢)] والفقراء أنهم ينفعون من دعاهم، وينصرون من لاذ بحماهم، ويدعونهم براً وبحراً في غيبتهم وحضرتهم.



(١) وهؤلاء الثلاثة كلهم أسلموا.

(٢) لأنهم يجذبون القلوب أو تنجذب إليهم بزعمهم!

وَفِيهِ عَن أَبِي هُرَيرَةَ قَالَ: قَامَ رَسُولُ الله ﷺ حِينَ أُنزِلَ عَلَيهِ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾ (الشعراء: ٢١٤) قَالَ: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ -أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا-، اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ لاَ أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ الله شَيْئًا، يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِالمُطَّلِبِ، لاَ أُغْنِي عَنْكَ مِنَ الله شَيْئًا، يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ الله ﷺ، لاَ أُغْنِي عَنْكِ مِنَ الله شَيْئًا، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ، سَلِينِي مِنْ مَالِي ما شِئْتِي، لاَ أُغْنِي عَنْكِ مِنَ الله شَيْئًا».

قوله: «وفيه»: أي في «صحيح البخاري».

قوله: «عن أبي هريرة»: اختلف الحفاظ في اسمه على أكثر من ثلاثين قولاً وصحّح النووي أن اسمه عبدالرحمن بن صخر[1]، كما رواه الحاكم في «المستدرك» عن أبي هريرة قال: كان اسمي في الجاهلية عبد شمس بن صخر، فسميت في الإسلام عبدالرحمن. وقال غيره: اسمه عبدالله بن عمرو، وقيل ابن عامر. وقال ابن الكلبي: اسمه عمير بن عامر، ويقال: كان اسمه في الجاهلية عبد شمس وكنيته أبو الأسود، فسماه رسول الله ﷺ عبدالله، وكنّاه أبا هريرة. وروى الدولابي بإسناده عن أبي هريرة أن النبي ﷺ سماه عبدالله وهو دوسي من فضلاء الصحابة، وحفاظهم، وعلمائهم، حفظ عن النبي ﷺ أكثر مما حفظه غيره، وروي له في كتب السنة أكثر من خمسة آلاف حديث، ومات سنة سبعة أو ثمان أو تسع وخمسين، وهو ابن ثمان وسبعين سنة.

قوله: «قام فينا رسول الله ﷺ في «الصحيح» من رواية ابن عباس صعد النبي ﷺ على الصفا.

---

(١) وهو الصواب.

قوله: «**حين أنزل الله عليه:** ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾». عشيرة الرجل: هم بنو أبيه الأدنون أو قبيلته، والأقربين: أي الأقرب فالأقرب منهم، لأنهم أحق الناس ببرك وإحسانك الديني والدنيوي، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ (التحريم: ٦)، وقال النبي ﷺ لمن قال له: من أبر؟ قال: «**أمك**»، ثم قال: من؟ قال: «**ثم أباك، ثم أختك وأخاك**»، ولأنه إذا قام عليهم في أمر الله كان أدعى لغيرهم إلى الانقياد، والطاعة له، ولئلا يأخذ ما يأخذ القريب للقريب من الرأفة والمحاباة فيحابيهم في الدعوة والتخويف، ولذلك أمر بإنذارهم خاصة، وقد أمره الله أيضاً بالنذارة العامة، كما قال: ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾﴾ (مريم: ٩٧)، وقال: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾﴾ (يس: ٦) ولا تنافي بينهما؛ لأن النذارة الخاصة فرد من أفراد العامة.

قوله: «**يا معشر قريش**». المعشر كمسكن الجماعة.

قوله: «**أو كلمة نحوها**». هو بنصب «كلمة» على أنه معطوف على ما قبله، أي: أو قال كلمة نحو قوله: «يا معشر قريش»، أي: بمعناها.

قوله: «**اشتروا أنفسكم**». أي: بتوحيد الله، وإخلاص العبادة له، وعدم الإشراك به، وطاعته فيما أمر، والانتهاء عما عنه زجر، فإن جميع ذلك ثمن النجاة، والخلاص من عذاب الله، لا الاعتماد على الأنساب وترك الأسباب، فإن ذلك غير نافع عند رب الأرباب. ودفع بقوله: لا أغني عنكم من الله شيئاً ما عساه أن يتوهم بعضهم أنه يغني عنهم من الله شيئاً بشفاعته، فإذا كان لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، ولا يدفع عن نفسه عذاب ربه لو عصاه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾ (الأنعام: ١٥)، فكيف يملك لغيره نفعاً أو

ضراً، أو يدفع عنه عذاب الله؟! وأما شفاعته ﷺ في بعض العصاة، فهو أمر من الله ابتداءً، فضلاً عليه وعليهم، لا أنه يشفع فيمن يشاء، ويدخل الجنة من يشاء، وفي «صحيح البخاري» به.

قوله: «**لا أغني عنكم من الله شيئاً: يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئاً**»، فلعل المصنف اختصرها.

قوله: «**يا عباس بن عبدالمطلب**». بنصب «ابن»، ويجوز في «عباس» الرفع والنصب، وكذا القول في قوله: «**ويا صفية عمة رسول الله، ويا فاطمة بنت محمد ﷺ**».

قوله: «**سليني من مالي ما شئت**»، في رواية مسلم عن عائشة قالت: لما نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾، قام رسول الله ﷺ فقال: «**يا فاطمة بنت محمد، يا صفية بنت عبدالمطلب، يا بني عبدالمطلب، سلوني من مالي ما شئتم**»، فبيَّن ﷺ أنه لا ينجيهم من عذاب الله، ولا يدخلهم الجنة، ولا يقرِّبهم إلى الله، وإنما الذي يقرِّب إلى الله، ويدخل الجنة، وينجي من النار برحمة الله، هو طاعة الله، وأما ما يقدر عليه ﷺ من أمور الدنيا فلا يبخل بها عنهم، كما قال: «**سلوني من مالي ما شئتم**»، وكما قال: «**ألا إن لكم رحماً سأبلها ببلالها**» رواه أحمد، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وهو عند مسلم في حديث آخر. فإذا صرح وهو سيد المرسلين لأقاربه المؤمنين وغيرهم، خصوصاً سيدة نساء العالمين وعمه وعمته، وآمن الإنسان أنه لا يقول إلا الحق، ثم نظر إلى ما وقع في قلوب كثير من الناس من الاعتقاد فيه وفي غيره من الأنبياء والصالحين، أنهم ينفعون ويضرون، ويغنون من عذاب الله حتى يقول صاحب البردة:

فإن من جودك الدنيا وضرتها ... ومن علومك علم اللوح

تبيّن له التوحيد، وعرف غربة الدين، فأين هذا من قول صاحب «البردة»،

والبرعي وأضرابهما من المادحين له ﷺ بما هو يتبرأ منه ليلاً ونهاراً، ويبيِّن اختصاصه بالخالق تعالى وتقدس كما قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ (الأعراف: ١٨٨) ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾ (يونس: ٣٢-٣٣) تالله لقد تاهت عقول تركت كلام ربها، وكلام نبيها لوساوس صدورها، وما ألقاه الشيطان في نفوسها.

ومن العجب أن اللعين كادهم مكيدة أدرك بها مأموله، فأظهر لهم هذا الشرك في صورة محبته ﷺ وتعظيمه، ومحبة الصالحين وتعظيمهم[1] ولعمر[2] الله إن تبرئتهم من هذا التعظيم والمحبة هو التعظيم لهم والمحبة، وهو الواجب المتعين وأظهر لهم التوحيد والإخلاص في صورة بغض النبي ﷺ، وبغض الصالحين، والتنقص بهم، وما شعروا أنهم تنقصوا الخالق سبحانه وتعالى، وبخسوه حقه، وتنقصوا النبي ﷺ والصالحين بذلك.

أما تنقصهم للخالق تعالى، فلأنهم جعلوا المخلوق العاجز مثل الرب القادر في القدرة على النفع والضر.

وأما بخسهم حقه تعالى، فلأن العبادة بجميع أنواعها حق لله تعالى، فإذا جعلوا شيئاً منها لغيره، فقد بخسوه حقه.

وأما تنقصهم للنبي ﷺ، وللصالحين؛ فلأنهم ظنوا أنهم راضون منهم بذلك أو أمروهم به، وحاشا لله أن يرضوا بذلك أو يأمروا به، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ

(١) فإذا نهاهم أحد عن الشرك والغلو في تعظيم الرسول ﷺ وتعظيم الصالحين قالوا أنت لا تحب الرسول والصالحين.

(٢) فائدة: لعمري ليس قسماً وإنما هو تأكيد للمقام واللام للابتداء.

أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ (الأنبياء: ٢٥).

وفي الحديث من الفوائد غير ما تقدم، جِّده ﷺ في هذا الأمر، بحيث فعل ما نسب به إلى الجنون، وكذلك لو يفعله مسلم الآن. قاله المصنف.

وفيه دليل على الاجتهاد في الأعمال وترك البطالة والاعتماد على مجرد الانتساب إلى الأشخاص كما يفعله أهل الطيش والحمق ممن ينتسب إلى نبي أو صالح ونحو ذلك؛ لأنه ﷺ إذا خاطب بنته وعمه وعمته وقرابته بهذا الخطاب كان تنبيهاً لذريتهم ونحوهم على ذلك؛ لأنه إذا كان لا يغني عنهم من الله شيئاً كان ذريتهم أولى أن لا يغني عنهم من الله شيئاً، وقد قال تعالى لمن اكتفى بالانتساب إلى الأنبياء عن متابعتهم: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾ (البقرة: ١٤١)، وفيه أن أولى الناس برسول الله ﷺ هم أهل طاعته، ومتابعته في محياه ومماته، كما قال ﷺ: «**ألا إن آل أبي -يعني فلاناً- ليسوا لي بأولياء، إنما وليي الله وصالح المؤمنين**» رواه مسلم، وروى عبد بن حميد عن الحسن أن النبي ﷺ جمع أهل بيته قبل موته فقال: «**ألا إن لي عملي ولكم عملكم، ألا إني لا أغني عنكم من الله شيئاً، ألا أن أوليائي منكم المتقون، ألا لا أعرفنكم يوم القيامة تأتون بالدنيا تحملوها على رقابكم ويأتي الناس يحملون الآخرة**».



باب[1]

قَوْلُ الله تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ (سبأ: ٢٣).

الشَّرْحُ:

أراد المصنف -رحمه الله- بهذه الترجمة بيان حال الملائكة الذين هم أقوى وأعظم من عبد من دون الله، فإذا كان هذا حالهم مع الله تعالى، وهيبتهم منه، وخشيتهم له، فكيف يدعوهم أحد من دون الله؟ وإذا كانوا لا يدعون مع الله تعالى لا استقلالاً ولا وساطة بالشفاعة، فغيرهم ممن لا يقدر على شيء من الأموات والأصنام أولى أن لا يُدعى، ولا يُعبد، ففيه الرد على جميع فرق المشركين الذين يدعون مع الله من لا يداني الملائكة، ولا يساويهم في صفة من صفاتهم. وقد قال تعالى فيهم: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ (الأنبياء: ٢٦-٢٨) فهذه حالهم وصفاتهم، وليس لهم من الربوبية والإلهية شيء، بل ذلك لله وحده لا شريك له، وكذا قال في هذه الآية: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾، أي: زال الفزع عنها، قاله ابن عباس، وابن عمر، وأبو عبدالرحمن السلمي، والشعبي، والحسن

---

(١) أراد -رحمه الله- بالترجمة بيان أن الملائكة مع عظمة خلقهم يصعقون ويفزعون ويصيبهم الغشي ومن كانت هذه حاله فإنه لا يصلح للعبادة وإذا كانت الملائكة لا تصلح للعبادة فغيرهم من المخلوقين من باب أولى فالعبادة محضُ خالص حق الله لا يصلح فيها شيء لغيره لا لملك ولا لنبي فضلاً عن غيرهما.

وغيرهم. والضمير عائد على ما عادت عليه الضمائر التي للغيبة في قوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾، ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا﴾، ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم﴾.

﴿حَتَّىٰٓ﴾ تدل على الغاية، وليس في الكلام ما يدل على أنه غاية له، فقال ابن عطية: في الكلام حذف يدل عليه ظاهره، كأنه قال: ولا هم شفعاء كما تزعمون أنتم، بل هم عبدة مسلمون أبداً، يعني: منقادون، حتى إذا فزع عن قلوبهم، والمراد الملائكة على ما اختاره ابن جرير، وغيره. قال ابن كثير: وهو الحق الذي لا مرية فيه، لصحة الأحاديث فيه والآثار. وقال أبو حيان: تظاهرت الأحاديث عن رسول الله ﷺ، أن قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ إنما هي في الملائكة، إذا سمعت الوحي إلى جبريل[1]، يأمر الله به سمعت كجر سلسلة الحديد على الصفوان فتفزع عند ذلك تعظيماً وهيبة. قال وبهذا المعنى من ذكر الملائكة في صدر الآيات تتسق هذه الآية على الأولى، ومن يشعر أن الملائكة مشار إليهم من أول قوله: ﴿ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ لم تتصل له هذه الآية بما قبلها. وقال ابن كثير: هذا مقام رفيع في العظمة، وهو أنه تعالى إذا تكلم بالوحي فسمع أهل السماوات كلامه أرعدوا من الهيبة حتى يلحقهم من الغَشْي. قاله ابن مسعود ومسروق وغيرهما.

وقوله: ﴿قَالُواْ ٱلْحَقَّ﴾: أي قالوا: قال الله الحق، وذلك لأنهم إذا سمعوا كلام الله وصعقوا ثم أفاقوا أخذوا يتساءلون فيقولون: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ فيقولون: ﴿قَالُواْ ٱلْحَقَّ﴾.

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ أي العالي، فهو فوق كل شيء، فهو تعالى على العرش الذي هو فوق السماوات كما قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ (طه: ٥)[2].



(١) وجبرائيل فيه لغات.

(٢) قال أئمة السلف نعرف ربنا بأنه على سماواته مستوٍ على عرشه بائن من خلقه وعلمه في كل مكان.

في «الصَّحِيحِ» عَن أَبِي هُرَيرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «إِذَا قَضَى اللهُ الأَمْرَ في السَّماءِ؛ ضَرَبَتِ المَلائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَولِهُ[١]، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ، يَنْفُذُهُمْ ذَلِكَ، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ (سبأ: ٢٣)، فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُ السَّمْعِ، وَمُسْتَرِقُ السَّمْعِ هَكَذَا بَعضُهُ فَوْقَ بَعضٍ، وَصَفَهُ سُفْيَانُ بِكَفِّهِ، فَحَرَّفَهَا وَبدَدَّ بَيْنَ أَصَابِعِهِ، فَيَسمَعُ الكَلِمَةَ، فَيُلقِيها إِلَى مَن تَحتَهُ، ثُمَّ يُلقِيها الآخَر إِلَى مَن تَحتَهُ، حَتَى يُلقِيها عَلَى لِسَانِ السَّاحِرِ والكَاهِنِ، فَرُبَّمَا أَدرَكَهُ الشِّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقيها، وَرُبَّما أَلقَاهَا قَبلَ أَن يُدْرِكْهُ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِئَةَ كَذْبَةٍ، فَيُقَالَ: أَلَيسَ قَد قَالَ لَنا يَومَ كَذَا كَذَا، فَيُصَدَّقُ بِتِلكَ الكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِنَ السَّماءِ».

قوله: «في «الصحيح»»: أي «صحيح البخاري».

قوله: «إذا قضى الله الأمر في السماء». أي: إذا تكلم الله بأمره الذي قضاه في السماء مما يكون، كما روى سعيد بن منصور، وأبو داود، وابن جرير، عن ابن مسعود قال: إذا تكلم الله بالوحي، سمع أهل السماوات صلصلة كجر السلسلة على الصفوان. وروى ابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن عباس قال: لما أوحى الجبار إلى محمد ﷺ، دعا الرسول من الملائكة ليبعثه بالوحي، فسمعت الملائكة صوت الجبار يتكلم بالوحي، فلما كشف عن قلوبهم سألوا عما قال الله، فقالوا: الحق، وعلموا أن الله لا يقول إلا حقاً.

---

(١) في الحديث دليل على فضل الملائكة، وفضل جبريل حيث إنه يكون أول من يرفع رأسه من الغشي، وفيه أدب الملائكة مع الله حيث يقولون قال الحق وأدب الملائكة مع جبريل حيث يقولون كما قال جبريل لفضله وكونه الواسطة بين الله وبين الرسل وينتهي بالوحي إلى حيث أمره الله.

قوله: «**ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله**» أي: لقول الله تعالى. قال الحافظ: خضعاناً بفتحتين من الخضوع، وفي رواية بضم أوله وسكون ثانيه، وهو مصدر بمعنى خاضعين.

قوله: «**كأنه سلسلة**». أي: كأن الصوت المسموع سلسلة على صفوان، وهو الحجر الأملس. قال الحافظ: هو مثل قوله في بدء الوحي: «صلصلة كصلصلة الجرس»، وهو صوت الملك بالوحي. وقد روى ابن مردويه من حديث ابن مسعود رفعه: «**إذا تكلم الله بالوحي، سمع أهل السماوات صلصلة كصلصلة السلسلة على الصفوان**» الحديث.

قوله: «**ينفذهم ذلك**». هو بفتح التحتية وسكون النون وضم الفاء والذال المعجمة، ذلك، أي القول، والضمير في ينفذهم عائد على الملائكة. أي: ينفذ الله ذلك القول إلى الملائكة، أي: يلقيه إليهم. وقيل: وهو أظهر، أي: يخلص ذلك القول، ويمضي في قلوب الملائكة حتى يفزعوا من ذلك، كما في حديث النواس. وفي حديث ابن عباس عند ابن مردويه من طريق عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عنه: فلا ينزل على أهل سماء إلا صعقوا. وفي حديث ابن مسعود عند أبي داود وغيره مرفوعاً: «**إذا تكلم الله بالوحي، سمع أهل السماء الدنيا صلصلة كجر السلسلة على الصفا، فيصعقون، فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبريل...**» الحديث.

قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ﴾ (سبأ: ٢٣): أي أزيل عنها الخوف والغشي.

قوله: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ﴾: أي قال الملائكة بعضهم لبعض: ماذا قال ربكم.

قوله: ﴿قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ﴾: أي قالوا: قال الله الحق، علموا أن الله لا يقول إلا حقاً.

قوله: «**فيسمعها مسترق السمع**»: أي يسمع الكلمة التي قضاها الله مسترق السمع، وهم الشياطين يركب بعضهم بعضاً، فيسمعون أصوات الملائكة بالأمر

يقضيه الله كما قال تعالى: ﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾ (الحجر: ١٧، ١٨)، وفي «صحيح البخاري» عن عائشة مرفوعاً: «**إن الملائكة تنزل في العنان وهو السحاب، فتذكر الأمر قضي في السماء، فتسترق الشياطين السمع فتسمعه، فتوحيه إلى الكهان فيكذبون معها مئة كذبة من عند أنفسهم**». وظاهر هذا أنهم لا يسمعون كلام الملائكة الذين في السماء، وإنما يسمعون كلام الملائكة الذين في السحاب(١).

قوله: «**وصفه سفيان بكفه**»: أي وصف ركوب بعضهم فوق بعضه وسفيان هو ابن عيينة أبو محمد الهلالي الكوفي ثم المكي. ثقة حافظ فقيه، حجة، إلا أنه تغير حفظه بآخره، وربما دلّس لكن عن الثقات. مات سنة ثمان وتسعين ومئة وله إحدى وتسعون سنة.

قوله:«**فحرفها**»(٢): بحاء مهملة وراء مشددة وفاء.

قوله: «**وبدد**»: أي فرق بين أصابعه(٣).

قوله: «**فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته**»: أي يسمع المسترق الفوقاني الكلمة من الوحي ، فيلقيها إلى الشيطان الذي تحته، ثم يلقيها الآخر من تحته، حتى يلقيها على لسان الساحر والكاهن، وحينئذٍ يقع الرجم.

قوله: «**فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها**»: الشهاب: هو النجم الذي يرمى به، أي ربما أدرك المسترق الشهاب إذا رمي به قبل أن يلقي الكلمة إلى من تحته، وربما ألقاها المسترق قبل أن يدركه الشهاب، وهذا يدل على أن الرجم بالنجوم

---

(١) والظاهر أنه لا منافاة؛ بل يسمعون أصوات الملائكة أحياناً في السماء وأحياناً في العنان.

(٢) أي حرّف سفيان كفه أي جعلها غير مبسوطة وفرّق بين أصابعه من دون ملاصقة.

(٣) ففيه دليل على أن الشياطين غير متلاصقين وإن كان بعضهم فوق بعضه حتى يتمكن كل واحد أن يناول الكلمة من تحته لأن الله أعطاهم من الخفة ما يستطيعون به الصعود في طبقات الجو.

كان قبل المبعث، كما روى أحمد ومسلم والترمذي والنسائي عن معمر، عن الزهري، عن علي بن حسين، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ جالساً في نفر من أصحابه فرمي بنجم فاستنار فقال: «**ما كنتم تقولون إذا كان هذا في الجاهلية؟**» قالوا: كنا نقول يولد عظيم، أو يموت عظيم، قال: «**فإنها لا يرمى بها لموت أحد، ولا لحياته، ولكن ربنا إذا قضى أمراً سبّح حملة العرش، ثم سبّح أهل السماء الذين يلون حملة العرش، فيقول الذين يلون حملة العرش لحملة العرش ماذا قال ربكم؟، فيخبرونهم، ويخبر أهل كل سماء سماء حتى ينتهي الخبر إلى هذه السماء، وتخطف الجن السمع فيرمون، فما جاءوا به على وجهه فهو حق ولكنهم يحرفونه ويزيدون فيه**» قال معمر قلت للزهري: أكان يرمى بها في الجاهلية؟ قال نعم. قال أرأيت ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْآنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩﴾ (الجن: ٩) قال: غُلِّظت وشدد أمرها حين بعث رسول الله ﷺ. وفيه الرد على المنجّمين الذين ينسبون الخير والشر، والإعطاء والمنع إلى الكواكب بحسب السعود منها والنحوس، وعلى حسب كونها في البروج الموافقة أو المنافرة، ونحو ذلك لما في الرمي بها من الدلالة على تسخيرها لما خلقت له، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ [1] وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٥٤﴾ (الأعراف: ٥٤).

قوله: «فيكذب معها مئة كذبة»: أي يكذب الكاهن أو الساحر مع الكلمة التي ألقاها إليه وليه من الشياطين مئة كذبة، بفتح الكاف وسكون الذال المعجمة، أو يكذب الشيطان مع الكلمة التي استرقها مئة كذبة، ويخبر بالجميع وليه من

---

(١) أي وخلق الشمس والقمر.

الإنس، فما جاءوا به على وجهه فهو صدق، وما خلط فيه فهو كذب، ومع هذا فيفتتن الإنس بالإنس الساحر والكاهن، ويفتتنان بوليهما من الشياطين ويقبلون ما جاءوا به من الصدق والكذب؛ لكونهم قد يصدقون فيما يأتون به من خبر السماء.

قوله: «**فيقال أليس قد قال لنا يوم كذا كذا؟**»: هكذا بيَّض المصنف في هذا الموضع، ولفظ الحديث في «الصحيح» : «**فيقال أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا هكذا**» والمعنى أن الذين يأتون الكهان يصدقونهم في كذبهم، ويستدلون على ذلك بكونهم يصدقون بعض الأحيان فيما سمعوه من الوحي، ويذكرون أنه أخبرهم بشيء مرة فوجده حقاً، وتلك الكلمة من الحق كما في «الصحيح» عن عائشة قلت: يا رسول الله: إن الكهان كانوا يحدثونا بالشيء فنجده حقاً، قال: «**تلك الكلمة الحق التي يخطفها الجني فيقذفها**[1] **في أذن وليه، ويزيد فيها مئة كذبة**»، وفيه قبول النفوس للباطل، كيف يتعلقون بواحدة، ولا يعتبرون بمئة كذبة؟! ذكره المصنف.

وفيه أن الشيء إذا كان فيه نوع من الحق لا يدل على أنه حق كله، بل لا يدل على إباحته كما في الكهانة والسحر والتنجيم.

قوله: «**فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء**» : أي يستدلون على صدقها.



(١) وفي رواية: «فيقُرُّها في أذن وليه -أي عليها- كقر الدجاجة»، (ويقُرُّها) بضم القاف والراء وفتح الياء.

وَعَنِ النوَّاسِ بنِ سَمعَانَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِذَا أَرَادَ الله تَعَالَى أَن يُوحِي بالأَمرِ، تَكَلَّمَ بِالوَحيِ، أَخَذَتِ السَّمَواتِ مِنهُ رَجفَةٌ، أَو قَالَ: رَعدَةً شَدِيدَةً، خَوفاً مِنَ الله عَزَّ وَجَلَّ، فَإِذَا سَمِعَ ذَلكَ أَهلُ السَّمَواتِ صُعقُوا وَخَرُّوا لله سُجَّداً، فَيَكُونُ أَوَّلُ مَن يَرفَعُ رَأسَهُ جِبرِيلُ، فَيُكَلِّمُهُ اللهُ مِن وَحيِهِ بِمَا أَرَادَ، ثُمَّ يَمُرُّ جِبريلَ عَلَى المَلائِكَةِ، كُلَّمَا مَرَّ بِسَمَاءٍ يَسْأَلُهُ مَلائِكَتهُ: مَاذَا قَالَ رَبُّنَا يَا جِبرِيلُ؟ فَيَقُولُ جِبرِيلُ: قَالَ الحقَّ، وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ. قَالَ: فَيقُولُونَ كُلُّهُم مِثلَ مَا قَالَ جِبرِيلُ، فَينتَهِي جِبرِيلُ بِالوَحيِ إِلَى حَيثُ أَمَرهُ الله عزَّ وَجَلَّ».

قوله: «عن النواس بن سِمعان»: بكسر السين[1]، أي: ابن خالد الكُلابي، ويقال: الأنصاري، صحابي، ويقال: إن أباه صحابي أيضاً. قال أبو حاتم الرازي: سكن الشام.

قوله: «إذا أراد الله أن يوحي بالأمر...» إلخ هذا والله أعلم في جميع الأمور التي يقضيها الرب تبارك وتعالى، كما يدل عليه عموم اللفظ، ويدل على ذلك أيضاً حديث أبي هريرة الذي تقدم وغيره من الأحاديث المتقدمة.

قوله: «أخذت السماوات منه رجفة»: وهو برفع رجفة على أنه فاعل، أي أصاب السماوات منه رجفة، أي ارتجفت كما روى ابن أبي حاتم عن عكرمة[2]. قال: **«إذا قضى الله أمراً وتكلم تبارك وتعالى، رجفت السماوات والأرض والجبال، وخرَّت الملائكة كلهم سجداً»**.

---

(١) وذكر بعض الشراح أن فيه فتح السين أيضاً، ولكنه خفي على الشارح.

(٢) هذا الأثر عن عكرمة وهو من التابعين ومن أصحاب ابن عباس ونقله عن بني إسرائيل وهو يحتمل أن يصدقوا وأن يكذبوا وليس هذا مرفوعاً إلى النبي ﷺ وإنما المرفوع أن الرجفة تكون للسماوات ولو فرض صحة أثر عكرمة فيكون رجفة الأرض والجبال تليق بها لا نحسّ بها.

قوله: «أو قال رعدة شديدة»: يعني: أن الراوي شك هل قال النبي ﷺ رجفة، أو قال رعدة، وهو بفتح الراء بمعنى الأول.

قوله: «خوفاً من الله عز وجل»: لا ينكر أن السماوات والأرض ترجف وترتعد خوفاً من الله عز وجل، فقد قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ (الإسراء: ٤٤)، وقال تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾ (فصلت: ١١)، وقال تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾﴾ (مريم: ٩٠)، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ (البقرة: ٧٤)، وفي «البخاري» عن ابن مسعود قال: «كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل»، وفي حديث أبي ذر: أن النبي ﷺ، أخذ في يده حُصَيَّات فسمع لهن تسبيح كحنين النحل، وكذا في يد أبي بكر وعمر وعثمان، وهو حديث مشهور في «المسانيد»، وكذلك في «الصحيح» قصة حنين الجذع الذي كان يخطب عليه النبي ﷺ قبل اتخاذ المنبر، ومثل هذا كثير.

قوله: «صعقوا وخروا لله سجداً»: أي يقع منهم الأمران الصعق وهو الغشي والسجود، والله أعلم أيهما قبل الآخر، فإن الواو لا تقتضي ترتيباً.

قوله: «فيكون أول من يرفع رأسه جبريل»: معنى جبريل: عبدالله كما روى ابن جرير، وأبو الشيخ الأصبهاني عن علي بن حسين قال: اسم جبريل: عبدالله، واسم ميكائيل عبيدالله، وإسرافيل عبدالرحمن، وكل شيء راجع إلى إيل[1] فهو معبد لله عز وجل، وفيه دليل على فضيلة جبريل -عليه السلام-، كما قال تعالى:

---

(١) أي كل ما فيه «إيل» فهو عبدالله.

﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ﴿٢١﴾﴾ (التكوير: ١٩-٢١) قال أبو صالح[1] في قوله: ﴿عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴿٢٠﴾﴾ قال: جبريل يدخل في سبعين حجاباً من نور بغير إذن، وقد ورد في صفة جبريل أحاديث صحيحة، منها ما رواه أحمد بإسناد صحيح عن عبدالله بن مسعود قال: رأى رسول الله ﷺ جبريل في صورته، وله ستمئة جناح، كل جناح منها قد سد الأفق، يسقط من جناحه من التهاويل والدر والياقوت. ما الله به عليم.

قوله: «ثم يمر جبريل على الملائكة» إلى آخره: معناه ظاهر، فإذا كان هذا حال الملائكة الذين هم أقوى وأعظم ممن عُبد من دون الله، وشدة خشيتهم من الله، وهيبتهم له مع ما أعطاهم الله من القوة العظيمة التي لا يعلمها إلا الله، ومع هذا فقد نفى عنهم الشفاعة بغير إذنه كما قال: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ (النجم: ٢٦)، وأخبر أنهم لا يملكون كشف الضر عمن دعاهم ولا تحويلاً فقال: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا ﴿٥٦﴾﴾ (الإسراء: ٥٦)، وفي ضمن ذلك النهي عن دعائهم وعبادتهم للشفاعة أو غيرها، كما قال تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ﴾ (الزمر: ٤٣-٤٤) فكيف يدعوهم المشرك ويظن أنهم يشفعون له عند الله كما يشفع الوزراء عند الملوك، وإذا بطلت دعوتهم مع أنهم أحياء ناطقون مقربون عند الله فدعاء غيرهم من الأموات الذين لا يستطيعون سمعاً ولا يملكون ضراً ولا نفعاً أولى بالبطلان. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ

---

(١) إذا أطلق فالمراد به صاحب أبي هريرة وهو أبو صالح السمّان وهو ذكوان ويقال له: الزيّات لأنه يبيع الزيت.

فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ (الأعراف: ١٩٤)، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ (النحل: ٢٠-٢٢).

قوله: «**ثم ينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله عز وجل**»: قد بيّض المصنف -رحمه الله- بعد هذا، ولعله أراد أن يكتب تمام الحديث ومن رواه وتمامه: «**إلى حيث أمره الله عز وجل من السماء والأرض**» رواه ابن جرير، وابن خزيمة، وابن أبي حاتم، والطبراني، وفي الحديث من الفوائد إثبات الكلام خلافاً للجهمية، وإثبات الصوت خلافاً لهم وللأشاعرة.



باب
الشفاعة[1]

الشَّرْح :

لما كان المشركون في قديم الزمان وحديثه إنما وقعوا في الشرك لتعلقهم بأذيال الشفاعة كما قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ (يونس: ١٨)، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ (الزمر: ٣) وكذلك قطع الله أطماع المشركين منها، وأخبر أنه شرك، ونزّه نفسه عنه، ونفى أن يكون للخلق من دونه ولي أو شفيع، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾﴾ (السجدة: ٤). أراد المصنف في هذا الباب إقامة الحجج على أن ذلك هو عين الشرك وأن الشفاعة التي يظنها من دعا غير الله ليشفع له كما يشفع الوزير عند الملك منتفية دنيا وأخرى، وإنما الله هو الذي يأذن للشافع ابتداءً، لا يشفع ابتداءً كما يظنه أعداء الله، فإن قلت إذا كان من اتخذ شفيعاً عند الله إنما قصده تعظيم الرب تعالى وتقدس أن يتوصل إليه بالشفعاء فَلِمَ كان هذا القدر شركاً قيل قصده للتعظيم لا يدل على أن ذلك تعظيم لله تعالى فكم من يقصد التعظيم لشخص ينقصه بتعظيمه ولهذا قيل في المثل المشهور يضر الصديق الجاهل ولا يضر العدو العاقل فإن اتخاذ الشفعاء والأنداد من دون الله هضم لحق الربوبية وتنقص للعظمة الإلهية وسوء

---

(١) هذا الباب معقود لبيان الشفاعة المثبتة والشفاعة المنفية، والمثبتة تكون لأهل التوحيد والمنفية هي التي تطلب من غير الله كما يفعله أهل الشرك.

ظن برب العالمين كما قال تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ (الفتح: ٦). الآية فإنهم ظنوا به ظن السوء حتى أشركوا به ولو أحسنوا به الظن لوحدوه حق توحيده ولهذا أخبر سبحانه وتعالى عن المشركين إنهم ما قدروه حق قدره وكيف يقدره حق قدره من اتخذ من دونه نداً أو شفيعاً يحبه ويخافه ويرجوه ويذل له ويخضع له ويهرب من سخطه ويؤثر مرضاته ويدعوه ويذبح له وينذر وهذه هي التسوية التي أثبتها المشركون بين الله وبين آلهتهم وعرفوا وهم في النار أنها كانت باطلاً وضلالاً فيقولون وهم في النار: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ (الشعراء: ٩٧-٩٨)، ومعلوم أنهم ما ساووهم به في الذات والصفات والأفعال ولا قالوا إن آلهتكم خلقت السموات والأرض وأنها تحيي وتميت و إنما ساووهم به في المحبة والتعظيم والعبادة كما ترى عليه أهل الإشراك ممن ينتسب إلى الإسلام وإنما كان ذلك هضماً لحق الربوبية وتنقصاً لعظمة الإلهية وسوء ظن برب العالمين لأن المتخذ للشفعاء والأنداد إما أن يظن أن الله سبحانه يحتاج إلى من يدبر أمر العالم معه من وزير أو ظهير أو معين وهذا أعظم التنقص لمن هو غني عن كل ما سواه بذاته، وكل ما سواه فقير إليه بذاته، وإما أن يظن أن الله سبحانه إنما تتم قدرته بقدرة الشفيع، وإما أن يظن أنه لا يعلم حتى يُعلمه الشفيع، أو لا يرحم حتى يجعله الشفيع يرحم، أو لا يكفي وحده، أو لا يفعل ما يريد العبد حتى يشفع عنده كما يشفع عند المخلوق، أو لا يجيب دعاء عباده حتى يسألوا الشفيع أن يرفع حاجتهم إليه، كما هو حال ملوك الدنيا. وهذا أصل شرك الخلق، أو يظن أنه لا يسمع حتى يرفع الشفيع إليه ذلك، أو يظن أن للشفيع عليه حقاً، فهو يقسم عليه بحقه، ويتوسل إليه بذلك الشفيع، كما يتوسل الناس إلى الأكابر والملوك بمن يعز عليهم، ولا تمكنهم مخالفته، وكل هذا تنقص للربوبية وهضم لحقها. ذكر معناه ابن القيم

فلهذه الأمور وغيرها أخبر سبحانه وتعالى أن ذلك شرك، ونزّه نفسه عنه فقال: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ (يونس: ١٨).

فإن قلت: إنما حكم سبحانه وتعالى بالشرك على من عبد الشفعاء، أما من دعاهم للشفاعة فقط؛ فهو لم يعبدهم، فلا يكون ذلك شركاً.

قيل: مجرد اتخاذ الشفعاء ملزوم للشرك، والشرك لازم له، كما أن الشرك ملزوم لتنقص الرب سبحانه وتعالى، والتنقص لازم له ضرورة، شاء المشرك أم أبى، وعلى هذا فالسؤال باطل من أصله لا وجود له في الخارج، وإنما هو شيء قدره المشركون في أذهانهم، فإن الدعاء عبادة، بل هو مخ العبادة[1]، فإذا دعاهم للشفاعة فقد عبدهم وأشرك في عبادة الله شاء أم أبى.



(١) لحديث «الدعاء هو العبادة»، وفي بعض روايات الحديث وإن كان فيها ضعف.

«**وَقَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ**: ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ ﴾» (الأنعام: ٥١).

قال: «وقول الله عز وجل: ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾».

الإنذار: هو الإعلام بموضع المخافة، وقوله: به. قال ابن عباس بالقرآن، وقوله: ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ أي أنذر يا محمد بالقرآن الذين هم من خشية ربهم مشفقون. الذين يخشون ربهم ويخافون سوء الحساب، وهم المؤمنون، كما روي ذلك عن ابن عباس والسدي، وعن الفضيل بن عياض: ليس كل خلقه عاتب، إنما عاتب الذين يعقلون فقال: ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ أي: وهم المؤمنون أصحاب القلوب الواعية فإنهم المقصودون، والمنظور إليهم لا أصحاب التجمل والسيادة، فإن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم.

وقوله: ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ قال الزجاج: موضع ليس نصب على الحال كأنه قال: متخلين من ولي وشفيع، والعامل فيه يخافون. وقال ابن كثير: ليس لهم من دونه يومئذٍ ولي ولا شفيع من عذابه إن أرادهم به لعلهم يتقون، فيعملون في هذه الدار عملاً ينجيهم الله به من عذابه يوم القيامة.

قلت: فنفى سبحانه وتعالى عن المؤمنين أن يكون لهم ولي أو شفيع من دون الله كما هو دين المشركين، فمن اتخذ من دون الله شفيعاً، فليس من المؤمنين، ولا تحصل له الشفاعة، وليس في الآية دليل على نفي الشفاعة لأهل الكبائر بإذن الله كما ادعته المعتزلة، بل فيه دليل على نفي اتخاذ الشفعاء من المؤمنين، وعلى نفيها بغير

إذن الله، ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه في مواضع كما قال: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾ (يونس: ٣).



وَقَوْلُهُ: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾[1].

قال: «وقوله: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ﴾» (الزمر: ٤٣-٤٤). هكذا أوردها المصنف، ونتكلم عليها وعلى الآية التي قبلها ليتضح المعنى. قال الله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾ (الزمر: ٤٣-٤٤)، فقوله: أم اتخذوا، أي: بل اتخذوا، أي: المشركون، والهمزة للإنكار من دون الله شفعاء، أي: تشفع لهم عند الله بزعمهم، كما قال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ (يونس: ١٨)، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾﴾ (الزمر: ٣) فكذَّبهم وكفَّرهم بذلك، وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۖ بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾ (الأحقاف: ٢٨) فهذا هو مقصود المشركين ممن عبدوهم وهو الشفاعة لهم عند الله.

---

(١) الشفاعة تكون في الدنيا بدون إذن المشفوع ورضاه لأنه يخاف الشافع ويرجوه ولو كان ملكاً يخاف أن يفسد عليه جنده، وكذلك امرأته أو ولده يشفع ولو لم يرض خشية من أذاهما، أما الرب فلا يشفع عنده أحد إلا بإذنه ورضاه عن المشفوع لأنه سبحانه لا يخاف أحد ولا يرجو أحد بل هو المالك المدبر المتصرف وحده، والشفاعة في الدنيا بمعنى الدعاء في موضعين أحدهما من المؤمن الحي الحاضر، والثاني في يوم القيامة من الأنبياء آدم فمن بعده.

وقوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾. أي: من دون إذنه وأمره، والحال أنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، وأن يكون المشفوع له مرتضى، وها هنا الشرطان مفقودان، فإن الله سبحانه لم يجعل اتخاذ الشفعاء ودعاءهم من دونه سبباً لإذنه ورضاه، بل ذلك سبب لمنعه وغضبه.

قوله: ﴿أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾﴾. أي: أيشفعون ولو كانوا على هذه الصفة كما تشاهدونهم جمادات لا تقدر ولا تعلم، أو أموات كذلك، حتى ولا يملكون الشفاعة، كما قال: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾. أي: هو مالكها كلها فليس لمن تدعونهم منها شيء. قال البيضاوي: لعله رد لما عسى أن يجيبون به، وهو أن الشفعاء أشخاص مقربون، هي تماثيلهم. والمعنى: أنه مالك الشفاعة كلها، لا يستطيع أحد شفاعة إلا بإذنه، ولا يستقل بها.

وقوله: ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾. تقرير لبطلان اتخاذ الشفعاء من دونه بأنه مالك الملك كله، لا يملك أحد أن يتكلم في أمره دون إذنه ورضاه، فاندرج في ذلك ملك الشفاعة، فإذا كان هو مالكها بطل اتخاذ الشفعاء من دونه كائناً من كان.

وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾. أي فتعلمون أنهم لا يشفعون، ويخيب سعيكم في عبادتهم، بل يكونون عليكم ضداً ويتبرؤون من عبادتكم، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ (مريم: ٨٢)، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ (يونس: ٢٨-٢٩).



وَقَولُهُ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ (البقرة: ٢٥٥).

قال: «وقوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾». في هذه الآية رد على المشركين الذين اتخذوا الشفعاء من دون الله من الملائكة والأنبياء، والأصنام المصورة على صور الصالحين، وغيرهم، وظنوا أنهم يشفعون عنده بغير إذنه، فأنكر ذلك عليهم، وبيّن عظيم ملكوته وكبريائه، وأن أحداً لا يتمالك أن يتكلم يوم القيامة إلا إذا أذن له في الكلام، كقوله: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ (النبأ: ٣٨).

وقوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ (هود: ١٠٥). قال ابن جرير في هذه الآية: نزلت لما قال الكفار: ما نعبد أوثاننا هذه إلا ليقربونا إلى الله زلفى، فقال الله تعالى: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، وتقرر في هذه الآية أن الله يأذن لمن يشاء بالشفاعة، وهم الأنبياء والعلماء وغيرهم، والإذن راجع إلى الأمر فيما نص عليه، كمحمد ﷺ إذا قيل له: اشفع تشفع، وكذلك قاله غير واحد من المفسرين.



وَقَوْلُهُ: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ (النجم: ٢٦).

قال: «وقوله ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾». قال أبو حيان: «كم» خبرية، ومعناها: التكثير، وهي في موضع رفع بالابتداء، والخبر «لا تغني»، والغناء جلب النفع ودفع الضرر بحسب الأمر الذي يكون فيه الغناء و«كم»: لفظها مفرد، ومعناها جمع. وإذا كانت الملائكة المقربون لا تغني شفاعتهم إلا بعد إذن الله ورضاه أن يرضاه أهلاً للشفاعة، فكيف تشفع الأصنام لمن عبدها؟

قلت: في هذه الآيات من الرد على من عبد الملائكة والصالحين لشفاعة أو غيرها ما لا يخفى، لأنهم إذا كانوا لا يشفعون إلا بإذن من الله ابتداءً، فلأي معنى يدعون ويعبدون؟ وأيضاً فإن الله لا يأذن إلا لمن ارتضى قوله وعمله، وهو الموحد لا المشرك، كما قال: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾﴾ (طه: ١٠٩)، والله لا يرتضي إلا التوحيد، كما قال: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ (آل عمران: ٨٥)، وقال النبي ﷺ: **«أسعد الناس بشفاعتي من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه»**. فلم يقل: أسعد الناس بشفاعتي من دعاني. فإن قال المشرك: أنا أعلم أنهم لا يشفعون إلا بإذنه لكن أدعوهم ليأذن الله لهم في الشفاعة لي. قيل: فإن الله لم يجعل الشرك به ودعاء غيره سبباً لإذنه ورضاه، بل ذلك سبب لغضبه، ولهذا نهى عن دعاء غيره في غير آية، كقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ (يونس: ١٠٦).

فتبيّن أن دعاء الصالحين من الملائكة والأنبياء وغيرهم شرك، كما كان المشركون الأولون يدعونهم ليشفعوا لهم عند الله، فأنكر الله عليهم ذلك، وأخبر أنه لا يرضاه، ولا يأمر به، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ (آل عمران: ٨٠)، وقال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ (البقرة: ١٦٦).

قال ابن كثير: تبرأت منهم الملائكة الذين كانوا يزعمون أنهم يعبدونهم في الدنيا؛ فتقول الملائكة: ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾﴾ (القصص: ٦٣)، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ﴾ (المائدة: ١١٦)، وقال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾﴾ (الإسراء: ٥٦).

روى سعيد بن منصور، والبخاري، والنسائي، وابن جرير عن ابن مسعود في الآية: كان نفر من الإنس يعبدون نفراً من الجن فأسلم نفر من الجن وتمسك الإنسيون بعبادتهم، فأنزل الله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ (الإسراء: ٥٧)، كلاهما بالياء.

وروى ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في الآية: قد كان أهل الشرك يعبدون الملائكة والمسيح وعزيراً، وفي رواية عنه عندهما في قوله: ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾﴾ (الإسراء: ٥٦) قال: عيسى وأمه وعزير.

وقال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ (الأنبياء: ٩٨) إلى قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ (الأنبياء: ١٠١).

قال ابن إسحاق: لما ذكر قصة ابن الزبعري ومخاصمته لرسول الله ﷺ عند نزول هذه الآية، قال: وأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾، الآيتين أي: عيسى وعزير ومن عُبد من الأحبار والرهبان الذين مضوا على أمر الله، فاتخذهم من يعبدهم من أهل الضلالة أرباباً من دون الله، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ (الحج: ٥٢).

وروى ابن أبي حاتم، عن الزهري، قال: نزلت سورة النجم وكان المشركون يقولون: لو كان هذا الرجل يذكر آلهتنا بخير أقررناه وأصحابه، ولكن لا يذكر من خالف دينه من اليهود والنصارى بمثل الذي يذكر آلهتنا من السب والشتم والشر، وكان رسول الله ﷺ قد اشتد عليه ما نال أصحابه من أذاهم وتكذيبهم، وأحزنه ضلالتهم، فكان يتمنى هداهم، فلما أنزل الله سورة النجم قال: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ (النجم: ١٩-٢٠)، ألقى الشيطان عندها كلمات حين ذكر الطواغيت، فقال: تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى وكان ذلك من سجع الشيطان وفتنته، فوقعت هاتان الكلمتان في قلب كل مشرك بمكة، وزلت بها ألسنتهم، وتباشروا بها، وقالوا: إن محمداً قد رجع إلى دينه الأول ودين قومه فلما بلغ رسول الله ﷺ آخر النجم، سجد، وسجد كل من حضر من مسلم ومشرك، ففشت تلك الكلمة في الناس، وأظهرها الشيطان حتى بلغت أرض الحبشة فأنزل الله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾﴾ (الحج: ٥٢) فلما بيّن الله قضاءه وبرأه من سجع الشيطان انقلب المشركون بعداوتهم وضلالتهم للمسلمين، واشتدوا عليه. وهي قصة مشهورة صحيحة رويت عن ابن عباس من طرق بعضها صحيح. ورويت عن جماعة من

التابعين بأسانيد صحيحة منهم عروة، وسعيد بن جبير، وأبو العالية، وأبو بكر بن عبدالرحمن، وعكرمة والضحاك، وقتادة، ومحمد بن كعب القرظي، ومحمد بن قيس، والسدي وغيرهم. وذكرها أيضاً أهل السير، وغيرهم، وأصلها في «الصحيحين» والمقصود منها قوله: تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى، فإن الغرانيق هي الملائكة على قول، وعلى آخر، هي الأصنام ولا تنافي بينهما. فإن المقصود بعبادتهم الأصنام، الملائكة والصالحون كما تقدم عن البيضاوي. فلما سمع المشركون هذا الكلام المقتضي لجواز عبادة الملائكة رجاء شفاعتهم عند الله، ظنوا أن رسول الله ﷺ قاله، فرضوا عنه وسجدوا معه، وحكموا بأنه قد وافقهم على دينهم من دعاء الملائكة والأصنام للشفاعة، حتى طارت الكلمة كل مطار، وبلغ المهاجرين إلى الحبشة أنهم صالحوا رسول الله ﷺ، فعرفت أن الفارق بينهم وبين رسول الله ﷺ هي مسألة الشفاعة، لأنهم يقولون: نريد من الملائكة والأصنام المصورة على صورهم بزعمهم أن يشفعوا لنا عند الله، والرسول ﷺ قد أتاهم بإبطال ذلك، والنهي عنه، وتكفير من دان به، وتضليلهم، وتسفيه عقولهم، ولم يرخص لهم في سؤال الشفاعة من الملائكة، ولا من الأنبياء، ولا الأصنام، بل أتاهم بقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ﴾ (الزمر: ٤٤).

وقوله: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ (يس: ٢٣-٢٤)، وهذا كثير جداً لمن تتبعه. والمقصود أن المشركين الأولين يدعون الملائكة والصالحين ليشفعوا لهم عند الله، كما تشهد به نصوص القرآن، وكتب التفسير والسير، والآثار طافحة بذلك، ويكفي العاقل المنصف قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ (سبأ: ٤٠-٤١).



وَقَوْلُهُ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ (سبأ: ٢٢-٢٣).

قال: «وقوله: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾» هذه الآية هي التي قال فيها بعض العلماء: إنها تقطع عروق شجرة الشرك من القلب لمن عقلها. قال ابن القيم في الكلام عليها: وقد قطع الله الأسباب التي يتعلق بها المشركون جميعاً قطعاً، يعلم من تأمله وعرفه أن من اتخذ من دون الله ولياً، فمثله كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت، فالمشرك إنما يتخذ معبوده لما يحصل له به من النفع، والنفع لا يكون إلا ممن يكون فيه خصلة من هذه الأربع: إما مالك لما يريد عابده منه، فإن لم يكن مالكاً كان شريكاً للمالك، فإن لم يكن شريكاً له كان معيناً له وظهيراً، فإن لم يكن معيناً ولا ظهيراً، كان شفيعاً عنده، فنفى سبحانه المراتب الأربع نفياً مرتباً منتقلاً من الأعلى إلى ما دونه، فنفى الملك والشركة والمظاهرة والشفاعة التي يطلبها المشرك، وأثبت شفاعة لا نصيب فيها لمشرك وهي الشفاعة بإذنه، قال: فهو الذي يأذن للشافع، وإن لم يأذن له لم يتقدم في الشفاعة بين يديه كما يكون في حق المخلوقين، فإن المشفوع عنده يحتاج إلى الشافع ومعاونته له، فيقبل شفاعته وإن لم يأذن له فيها، وأما كل ما سواه فقير إليه بذاته وهو الغني بذاته عن كل ما سواه، فكيف يشفع عنده أحد بدون إذنه؟! فكفى بهذه الآية نوراً، وبرهاناً ونجاة وتجريداً للتوحيد، وقطعاً لأصول الشرك ومواده لمن عقلها.

والقرآن مملوء من أمثالها ونظائرها، ولكن أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته، وتضمنه له، ويظنه في نوع، وقوم قد خلوا من قبل ولم يعقبوا وارثاً،

وهذا الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن، ولعمر الله إن كان أولئك قد خلوا، فقد ورثهم من هو مثلهم وشر منهم ودونهم، وتناول القرآن لهم كتناوله لأولئك، ولكن الأمر كما قال عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-: إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة، إذا نشأ في الإسلام من لم يعرف الجاهلية. وهذا لأنه إذا لم يعرف الجاهلية والشرك، وما دعا به القرآن وذمه، وقع فيه وأقره، ودعا إليه وصوَّبه وحسّنه، وهو لا يعرف أنه الذي كان عليه الجاهلية، أو نظيره أو شر منه أو دونه، فتنتقض بذلك عرى الإسلام، ويعود المعروف منكراً، والمنكر معروفاً، والبدعة سنة، والسنة بدعة، ويكفر الرجل بمحض الإيمان وتجريد التوحيد، ويُبدَّع بتجريد متابعة الرسول ﷺ ومفارقة الأهواء والبدع. ومن له بصيرة وقلب حي يرى ذلك عياناً، والله المستعان.

وقال الله تعالى حاكياً عن أسلاف هؤلاء المشركين: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾﴾ (الزمر: ٣)، فهذه حال من اتخذ من دون الله ولياً يزعم أنه يقرِّبه إلى الله تعالى، وما أعز من يخلص من هذا بل ما أعز من يعادي من أنكره. والذي في قلوب هؤلاء المشركين وسلفهم أن آلهتهم تشفع لهم عند الله، وهذا عين الشرك. وقد أنكره الله عليهم في كتابه، وأبطله وأخبره أن الشفاعة كلها له، وأنه لا يشفع عنده أحد إلا لمن أذن الله تعالى أن يشفع له فيه، ورضي قوله وعمله، وهم أهل التوحيد الذين لم يتخذوا من دون الله شفعاء، فإنه سبحانه وتعالى يأذن في الشفاعة فيهم لمن يشاء، حيث لم يتخذوهم شفعاء من دونه، فيكون أسعد الناس بشفاعته من يأذن الله تعالى له، صاحب التوحيد الذي لم يتخذ شفيعاً من دون الله. والشفاعة التي أثبتها الله تعالى ورسوله ﷺ هي الشفاعة الصادرة عن إذنه لمن وحده، والتي نفاها الله تعالى هي الشفاعة

الشركية التي في قلوب المشركين المتخذين من دون الله شفعاء، فيعاملون بنقيض مقصودهم من شفاعتهم، ويفوز بها الموحدون. انتهى.

ولكن تأمل الآية كيف أمرهم تعالى بدعاء الملائكة أمر تعجيز، والمراد بيان أنهم لا يملكون شيئاً فلا يدعون لا لشفاعة ولا غيرها، ثم أخبر أنهم هم الذين اتخذوهم بزعمهم شفعاء فنسبه إلى زعمهم وإفكهم الذي ابتدعوه من غير برهان ولا حجة من الله، وهذه الآية نزلت في دعوة الملائكة، ودخول غيرهم فيها من باب أولى، كما روى ابن أبي حاتم، عن السدي في قوله: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ٢٢﴾ (سبأ: ٢٢)، يقول: من عون الملائكة، وكما يدل عليه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ (سبأ: ٢٣)، كما تقدم. فإذا كان اتخاذ الملائكة شفعاء من دون الله شركاً، فكيف باتخاذ الأموات كما يفعله عُبَّاد القبور؟ أم كيف باتخاذ الفُجَّار والفُسَّاق إخوان الشياطين من المجاذيب الذين جذبهم إبليس إلى جانبه وطاعته شفعاء؟ وأعظم من ذلك اعتقاد الربوبية في هؤلاء الملاعين مع ما يشاهده الناس منهم من الفجور، وأنواع الفسوق، وترك الصلوات، وفعل المنكرات، والمشي في الأسواق عراة. كما قال بعض المتأخرين:

كقوم عراة في ذرى مصر ما يُرى ... على عورة منهم هناك ثياب
يدورون فيها كاشفين لعورة ... تواتر هذا لا يقال كذاب
يعدونهم في مصرهم فضلاءهم ... دعاؤهم فيما يرون مجاب

ومن العجب أنهم لم يأتوا بشيء يدل على كون هؤلاء الشياطين من جملة المسلمين، فضلاً عن كونهم أولياء، فضلاً عن كونهم يُدْعَونَ ويُستغاث بهم إلا بشيء من المخاريق والسحر والشعبذة، يدعون أن لهم كرامات، وأنهم أولياء لما يظهرونه من المخاريق.

واعلم أن الضلال والكفر إنما استولى على أكثر المتأخرين بسبب نبذهم كتاب

الله وراء ظهورهم، وإحسان الظن بمن سحرهم، ودعا إلى نفسه، واقتصارهم على القوانين والدعاوى والأوضاع التي وضعوها لأنفسهم، وإلا فلو قرؤوا كتاب الله، وعملوا بما فيه، ورجعوا عند الاختلاف إليه؛ لوجدوا فيه الهدى، والشفاء، والنور، ولكن نبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً، فبئس ما يشترون، وتقدم الكلام على بقية الآية.



قَالَ أَبُو العَبَّاسِ: نَفَى اللهُ عَمَّا سِوَاهُ كُلَّ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ المُشرِكُونَ، فَنَفى أَنْ يَكُونَ لِغَيرِهِ مُلكٌ أَو قِسطٌ مِنهُ، أَو يَكُونَ عَوناً لله. وَلَم يَبقَ إلاَّ الشَّفَاعَةُ، فَبَيَّنَ أَنَّهَا لاَ تَنفَعُ إلاَّ لِمَن أَذِنَ لَهُ الرَّبُّ، كَمَا قَالَ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ (الأنبياء: ٢٨). **فَهَذِهِ الشَّفَاعَةُ الَّتِي يَظُنُّها المشرِكُونَ هِيَ مُنْتَفِيةٌ يَومَ القِيَامَةِ، كَمَا نَفَاهَا القُرآنُ، وَأَخبَرَ النبيُّ ﷺ «أنه يأتي فَيَسْجُدُ لربه وَيَحْمَدُهُ، لاَ يَبدَأُ بالشَّفَاعَةِ أَولاً، ثُمَّ يُقَالَ لَهُ: ارفَع رَأسَكَ، وقُلْ يُسمعْ، وَسَلْ تُعْطَ، واشفَع تُشَفَّع».**

قوله: «**قال أبو العباس**»: هو شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام بن تيمية، الإمام المشهور، صاحب المصنفات، شهرته وإمامته في علوم الإسلام وتفننه تغني عن الإطناب في وصفه.

قال الذهبي: لم يأت قبله بخمس مئة سنة مثله، وفي رواية بأربع مئة، وقال: أيضاً: لو حلفت بين الركن والمقام لحلفت أني لم أر مثله، وما رأى بعينه مثل نفسه رحمه الله، وقال ابن دقيق العيد: لما اجتمعت بابن تيمية رأيت رجلاً كل العلوم بين عينيه، يأخذ ما يشاء ويدع ما يشاء. وبالجملة فما أتى بعد عصر الإمام أحمد له نظير، وكانت وفاته سنة ثمان وعشرين وسبعمئة[1].

قوله: «**نفى الله عما سواه كل ما يتعلق به المشركون**» أي: أن الله نفى في هذه الآية المذكورة كل ما يتعلق به المشركون من الاعتقاد في غير الله من الملك والشركة فيه والمعاونة والشفاعة. فهذه الأمور الأربعة هي التي يتعلق بها المشركون.

قوله: «**فنفى الله أن يكون لغيره ملك**». وذلك في قوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ (سبأ: ٢٢) ومن لا يملك

---

(١) وولادته سنة إحدى وستين وستمئة.

هذا المقدار فليس بأهل أن يُدعى.

قوله: «**أو قسط منه**». أي: من الملك، والقسط -بكسر القاف- هو النصيب من الشيء، وذلك في قوله: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ أي: ما لمن تدعون من الملائكة وغيرهم فيهما، أي: في السماوات والأرض من شرك، ومن ليس بمالك ولا شريك للمالك فكيف يدعى من دون الله؟

قوله: «**أو أن يكون عوناً لله**». وذلك في قوله: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ أي ما لله ممن تدعونهم عون.

قوله: «**ولم يبق إلا الشفاعة**». فتبين أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب... إلخ. جملة الشروط التي لا بد وأن يكون أحدها في المدعو، أربعة حتى يقدر على إجابة من دعاه.

الأول: الملك، فنفاه بقوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ (سبأ: ٢٢).

الثاني: إذا لم يكن مالكاً فيكون شريكاً للمالك، فنفاه بقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾.

الثالث: إذا لم يكن مالكاً ولا شريكاً للمالك فيكون عوناً ووزيراً فنفاه بقوله: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾.

الرابع: إذا لم يكن مالكاً ولا شريكاً ولا عوناً فيكون شفيعاً، فنفى سبحانه وتعالى الشفاعة عنده إلا بإذنه، فهو الذي يأذن للشافع ابتداءً فيشفع، فبنفي هذه الأمور بطلت دعوة غير الله، إذ ليس عند غيره من النفع والضر ما يوجب قصده بشيء من العبادة، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾﴾

(الفرقان: ٣)، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ (يس: ٧٤-٧٥)، وقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾﴾ (الفرقان: ٥٥).

قوله: «فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون، هي منتفية يوم القيامة، كما نفاها القرآن». يعني أن الشفاعة التي يطلبها المشركون من الشفعاء والأنداد من دون الله منتفية دنيا وأخرى، كما قال تعالى -عن مؤمن يس-: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ (يس: ٢٣-٢٤)، وقال تعالى عن -مؤمن آل فرعون-: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ (غافر: ٤٣)، وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾ (الأحقاف: ٢٨)، وقال تعالى: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾﴾ (هود: ١٠١)، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ (الأنعام: ٩٤)، وقال تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾﴾ (القصص: ٦٤)، فهذه حال كل من دعي من دون الله لشفاعة، أو غيرها في الدنيا والآخرة.

قوله: «وأخبر النبي ﷺ أنه يأتي فيسجد لربه ويحمده لا يبدأ بالشفاعة أولاً...» إلى آخره. هذا ثابت في «الصحيحين» وغيرهما من حديث أنس وغيره عنه ﷺ في حديث الشفاعة قال: «فأقوم فأمشي بين سماطين من المؤمنين حتى أستأذن على ربي، فإذا رأيته وقعت له، أو خررت ساجداً لربي فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم

قال: ارفع يا محمد، قل يسمع، واشفع تشفع، وسل تعطه، فأرفع رأسي فأحمد بتحميد يعلمنيه، ثم أشفع فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة، ثم أعود إليه الثانية، فإذا رأيت ربي وقعت له، أو خررت ساجداً لربي فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقول: ارفع محمد، قل يسمع فتعطه، واشفع تشفع. فأرفع رأسي فأحمده بتحميد يعلمنيه، ثم أشفع فيحد لي حداً، فأدخلهم الجنة، ثم أعود الثالثة، فإذا رأيت ربي وقعت له، أو خررت ساجداً لربي، فيدعني ما شاء الله أن يدعني ثم يقال: ارفع محمد، قل يسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع، فأرفع راسي فأحمده بتحميد يعلمنيه، ثم أشفع فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة، ثم أعود الرابعة، فأقول: يا رب ما بقي إلا من حبسه القرآن...»[1] الحديث، فبيّن ﷺ أنه لا يشفع إلا بعد الإذن في الشفاعة وفي المشفوع فيهم، كما قال: «فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة» .



(١) أي منعه القرآن من الخروج وهم الكفار.

وَقَالَ لَهُ أَبُو هُرَيرَةُ: مَن أَسعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ؟ قَالَ: «مَن قَالَ لاَ إِلهَ إِلاَّ اللهُ خَالِصاً مِن قَلبِهِ»، فَتِلكَ الشَّفَاعَةُ لأَهلِ الإِخلاَصِ، بِإِذنِ اللهِ، ولاَ تَكُونُ لِمَن أَشرَكَ بِاللهِ. وَحَقِيقَتُهُ أَنَّ اللهَ سبحانَهُ هُوَ الَّذِي يَتَفَضَّلُ عَلَى أَهلِ الإِخلاَصِ فَيَغفِرَ لَـهُم بِواسِطَةِ دُعَاءِ مَنْ أَذِنَ لَهُ أَن يَشفَعَ، لِيُكرِمَهُ وَيَنَالَ المَقَامَ المَحمُودَ.

فَالشَّفَاعَةُ الَّتِي نَفَاهَا القُرآنُ مَا كَانَ فِيهَا شِركٌ، وَلِهذَا أَثبَتَ الشَّفَاعَةَ بِإِذنِهِ فِي مَوَاضِعَ. وَقَد بَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهَا لاَ تَكُونُ إِلاَّ لأَهلِ التَّوحِيدِ وَالإِخلاَصِ. انتَهَى كَلاَمُهُ.

قوله: «**وقال أبو هريرة من أسعد الناس بشفاعتك**» إلى آخره. هذا الحديث رواه البخاري ومسلم والنسائي عن أبي هريرة قال قلت يا رسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؛ فقال: «لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك، لما رأيت من حرصك على الحديث، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصاً من قبل نفسه»، وفي رواية: «خالصاً مخلصاً من قلبه أو نفسه» رواه أحمد من طريق آخر، وصححه ابن حبان، وفيه: «وشفاعتي لمن شهد أن لا إله إلا الله مخلصاً، يصدق قلبه لسانه ولسانه قلبه». قال شيخ الإسلام: فجعل أسعد الناس بشفاعته أكملهم إخلاصاً. وقال في الحديث الصحيح: «من سأل الله لي الوسيلة حلت عليه شفاعتي يوم القيامة»، ولم يقل: كان أسعد الناس بشفاعتي، فعلم أنها يحصل للعبد بالتوحيد والإخلاص من شفاعة الرسول ﷺ وغيرها ما لا يحصل بغيره من الأعمال، وإن كان صالحاً لسؤال الوسيلة للرسول ﷺ فكيف بما لم يأمر به من الأعمال، بل نهى عنه، فذلك لا ينال به خير لا في الدنيا ولا في الآخرة، مثل غلو النصارى في المسيح فإنه يضرهم ولا ينفعهم، ونظير هذا في «الصحيح» عنه ﷺ أنه قال: «لكل نبي دعوة مستجابة،

وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة إن شاء الله من مات لا يشرك بالله شيئاً»، وكذلك في أحاديث الشفاعة كلها، إنما يشفع في أهل التوحيد، فبحسب توحيد العبد لربه وإخلاصه دينه لله تعالى يستحق كرامة الله بالشفاعة وغيرها.

وقال ابن القيم ما معناه: تأمل هذا الحديث كيف جعل أعظم الأسباب التي تنال بها شفاعته تجريد التوحيد؛ عكس ما عند المشركين من أن الشفاعة تنال باتخاذهم شفعاء، وعبادتهم وموالاتهم من دون الله، فقلب النبي ﷺ ما في زعمهم الكاذب، وأخبر أن سبب الشفاعة تجريد التوحيد، فحينئذٍ يأذن الله للشافع أن يشفع. ومن جهل المشرك اعتقاده أن من اتخذه ولياً أو شفيعاً أنه يشفع له، وينفعه عند الله كما يكون خواص الملوك والولاة تنفع من والاهم، ولم يعلموا أن الله لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، ولا يأذن في الشفاعة إلا من رضي قوله وعمله، كما قال تعالى في الفصل الأول: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ (البقرة: ٢٥٥)، وفي الفصل الثاني: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ (الأنبياء: ٢٨) وبقي فصل ثالث هو أنه لا يرضى من القول والعمل إلا توحيده، واتباع رسوله ﷺ(١). فهذه ثلاثة فصول تقطع شجرة الشرك من قلب من وعاها وعقلها. انتهى ملخصاً.

وقال الحافظ المراد بهذه الشفاعة المسؤول عنها هنا بعض أنواع الشفاعة، وهي التي يقول ﷺ: «أمتي أمتي» فيقال له: أخرج من النار من كان في قلبه وزن كذا من الإيمان» فأسعد الناس بهذه الشفاعة من يكون إيمانه أكمل ممن دونه، وأما الشفاعة العظمى فللراحة من كرب الموقف فأسعد الناس بها من يسبق إلى الجنة،

---

(١) ودليل هذا الفصل قوله تعالى: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ﴾ ورأس الإسلام التوحيد، ودليل آخر قوله: ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ﴾.

وهم الذين يدخلونها بغير حساب، ثم الذين يلونهم وهو من يدخلها بغير عذاب بعد أن يحاسب ويستحق العذاب، ثم من يصيبه لفح من النار ولا يسقط.

واعلم أن شفاعته ﷺ في القيامة ستة أنواع كما ذكره ابن القيم:

الأول: الشفاعة الكبرى التي يتأخر عنها أولو العزم عليهم الصلاة والسلام حتى تنتهى إليه فيقول: «أنا لها» وذلك حين يرغب الخلائق إلى الأنبياء ليشفعوا لهم إلى ربهم حتى يريحهم من مقامهم في الموقف. وهذه شفاعة يختص بها، لا يشركه فيها أحد.

الثاني: شفاعته لأهل الجنة في دخولها. وقد ذكرها أبو هريرة في حديثه الطويل المتفق عليه.

الثالث: شفاعته لقوم من العصاة من أمته قد استوجبوا النار، فيشفع لهم أن لا يدخلوها.

الرابع: شفاعته في العصاة من أهل التوحيد الذين دخلوا النار بذنوبهم، والأحاديث بها متواترة عن النبي ﷺ. وقد أجمع عليها الصحابة وأهل السنة قاطبة، وبدعوا من أنكرها[١] وصاحوا به من كل جانب، ونادوا عليه بالضلال.

الخامس: شفاعته لقوم من أهل الجنة في زيادة ثوابهم ورفع درجتهم، وهذه مما لم ينازع فيها أحد.

السادس: شفاعته في بعض الكفار من أهل النار أن يخفف عذابه، وهذه خاصة بأبي طالب وحده[٢].

قوله: «**وحقيقته**»: أي حقيقة الأمر، أي أمر الشفاعة أن الله سبحانه هو الذي

---

(١) وهم الخوارج والمعتزلة الذين يقولون: من يدخل النار فلا يخرج منها بل يخلد فيها مطلقاً كافراً أو صاحب كبيرة فإنه يكون عندهم كافراً.

(٢) وبالنبي ﷺ وحده.

يتفضل على أهل الإخلاص، فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع ليكرمه وينال المقام المحمود فهذا هو حقيقة الشفاعة، لا كما يظن المشركون والجهال أن الشفاعة هي كون الشفيع يشفع ابتداءً فيمن شاء، فيدخله الجنة وينجيه من النار. ولهذا يسألونها من الأموات وغيرهم إذا زاروهم وذلك أنهم قالوا: إن الميت المعظم الذي لروحه قرب ومزية عند الله لا تزال تأتيه الألطاف من الله، وتفيض على روحه الخيرات، فإذا علق الزائر روحه به وأدناها منه فاض من روح المزور على روح الزائر من تلك الألطاف بواسطتها، كما ينعكس الشعاع من المرآة الصافية والماء ونحوه على الجسم المقابل له. قالوا: فتمام الزيارة أن يتوجه الزائر بروحه وقلبه إلى الميت، ويعكف بهمته عليه، ويوجه قصده كله وإقباله عليه بحيث لا يبقى فيه التفات إلى غيره. وكل ما كان جمع الهمة والقلب عليه أعظم كان أقرب إلى انتفاعه به، وشفاعته له[1].

قال ابن القيم: وقد ذكر هذه الزيارة على هذا الوجه ابن سينا والفارابي وغيرهما، وصرح بها عباد الكواكب في عبادتها وقالوا: إذا تعلقت النفوس الناطقة بالأرواح العلوية فاض عليها من النور وبهذا السر عُبدت الكواكب، واتخذت لها الهياكل، وصنفت لها الدعوات، واتخذت الأصنام المجسدة لها؛ وهذا بعينه هو الذي أوجب لعباد القبور اتخاذ أعياد، وتعليق الستور عليها، وإيقاد السُرج عليها، وبناء المساجد عليها، وهو الذي قصد الرسول ﷺ إبطاله ومحوه بالكلية، وسد الذرائع المفضية إليه؛ فوقف المشركون في طريقه وناقضوه في قصده وكان ﷺ في شق وهؤلاء في شق. وهذا الذي ذكره هؤلاء المشركون في زيارة القبور هو الشفاعة التي ظنوا أن آلهتهم تنفعهم بها. وتشفع لهم عند الله قالوا: فإن العبد إذا تعلقت روحه بروح الوجيه المقرَّب عند الله، وتوجه بهمته إليه، وعكف بقلبه

---

(١) يعني وينسى الله، تعالى عن هذا الشرك علواً كبيراً.

عليه، صار بينه وبينه اتصال يفيض به عليه منه نصيب مما يحصل له من الله وشبهوا ذلك بمن يخدم ذا جاهٍ وحُظْو وقرب من السلطان؛ فهو شديد التعلق به، فما يحصل لذلك السلطان من الإنعام والإفضال ينال ذلك المتعلق بحسب تعلقه به. فهذا سر عبادة الأصنام وهو الذي بعث الله رسله، وأنزل كتبه بإبطاله وتكفير أصحابه، ولعنهم، وأباح دماءهم، وأموالهم، وسبي ذراريهم، وأوجب لهم النار، والقرآن من أوله إلى آخره، مملوء من الرد على أهله وإبطال مذهبهم. انتهى.

قوله: «وينال المقام المحمود»: أي المقام الذي يحمده فيه الخلائق كلهم وخالقهم تبارك وتعالى. قال ابن جرير: قال أكثر أهل التأويل ذلك المقام الذي يقومه ﷺ الشفاعة للناس ليريحهم ربهم مما هم فيه من شدة ذلك اليوم. وقال ابن عباس: المقام المحمود مقام الشفاعة. وكذا قال ابن أبي نجيح عن مجاهد. وقال قتادة: هو أول من تنشق عنه الأرض، وأول شافع، وكان أهل العلم يرون أنه المقام المحمود.

قوله: «فالشفاعة التي نفاها القرآن ما كان فيها شرك»[1]: يعني أن الشفاعة التي نفاها الله في القرآن هي الشفاعة التي فيها شرك بالله، من دعاء غير الله وعبادته ليشفع له عند الله، فإن الله سبحانه نفى هذه الشفاعة وأخبر أنها لا تكون أبداً، بل أخبر أن ذلك شرك ونزّه نفسه عنه، ونفى أن يكون للمؤمنين ولي أو شفيع من دونه، مع أن الشفاعة يوم القيامة لهم بإذنه، لا تكون للمشركين كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾﴾ (طه: ١٠٩) فنفى سبحانه أن تنفع الشفاعة أحداً إلا من أذن له الرحمن ورضي قوله وعمله، وهو المؤمن المخلص، وأما المشرك الداعي لغير الله ليشفع له فلا تنفعه الشفاعة، ولا يؤذن لأحد في الشفاعة فيه كما قال: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ (المدثر: ٤٨)

---

(١) الشفاعة المنفية هي التي تكون لأهل الشرك.

وقال تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾﴾ (القصص: ٦٤).

قوله: «وقد بيّن النبي ﷺ» إلى آخره تقدم ما يتعلق بذلك والله أعلم.



باب

قَولُ الله تَعَالَى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ (القصص: ٥٦) الآية[١].

الشَّرْحُ:

أراد المصنف -رحمه الله- الرد على عباد القبور الذي يعتقدون في الأنبياء والصالحين أنهم ينفعون ويضرون، فيسألونهم مغفرة الذنوب، وتفريج الكروب، وهداية القلوب، وغير ذلك من أنواع المطالب الدنيوية والأخروية؛ ويعتقدون أن لهم التصرف بعد الموت على سبيل الكرامة. وقد وقفت على رسالة لرجل منهم في ذلك، ويحتجون على ذلك بقوله: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[٢] يقول قائلهم[٣] في حق رسول الله ﷺ:

فإن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم

فإذا عرف الإنسان معنى هذه الآية ومن نزلت فيه؛ تبيّن له بطلان قولهم وفساد شركهم؛ لأن رسول الله ﷺ أفضل الخلق وأقربهم من الله، وأعظمهم جاهاً عنده؛ ومع ذلك حرص واجتهد على هداية عمه أبي طالب في حياة أبي طالب وعند موته[٤] فلم يتيسر ذلك ولم يقدر عليه، ثم استغفر له بعد موته فلم يغفر له حتى نهاه الله عن ذلك. ففي هذا أعظم البيان، وأوضح البرهان على أنه ﷺ لا يملك ضراً ولا نفعاً، ولا عطاء ولا منعاً؛ وأن الأمر كله بيد الله، فهو الذي يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، ويعذب من يشاء، ويرحم من يشاء، ويكشف الضر

(١) المقصود من الترجمة: وجوب إخلاص العبادة لله لأنه هو الذي بيده الأمر وهداية القلوب.

(٢) وهذه الآية: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ﴾ في الجنة ليس معناه أنهم يعبدون من دون الله.

(٣) وهو البوصيري.

(٤) حتى صار مثلاً فيقال النبي ما هدى عمه، وإبراهيم ما هدى أباه، ونوح ما هدى ولده.

عمن يشاء، ويصيب من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم. وهو الذي من جوده الدنيا والآخرة؛ وهو بكل شيء عليم. ولو كان عنده ﷺ من هداية القلوب ومغفرة الذنوب وتفريج الكروب شيء؛ لكان أحق الناس به، وأولاهم من قام معه أتم القيام ونصره، وأحاطه من بلوغه ثمان سنين، وإلى ما بعد النبوة بثمان سنين أو أكثر[1]، بل قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١٨٨﴾ (الأعراف: ١٨٨)، وقال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ﴾ (الأنعام: ٥٠) الآية. فهل يجتمع في قلب عبد الإيمان بهذه الآيات وما أشبهها، والإيمان بذلك البيت وما أشبهه، ولكن قاتل الله أعداءه الذين جاوزوا الحد في إطرائه والغلو فيه.

وأما معنى الآية فقال ابن كثير: يقول تعالى لرسوله ﷺ: إنك يا محمد لا تهدي من أحببت أي ليس إليك ذلك، إنما عليك البلاغ والله يهدي من يشاء، وله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة كما قال تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ﴾ (البقرة: ٢٧٢)، وقال: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾ (يوسف: ١٠٣) وهذه الآية أخص من هذا كله فإنه قال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ٥٦﴾ (القصص: ٥٦). أي أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية. وقد ثبت في «الصحيحين» أنها نزلت في أبي طالب؛ وقد كان يحوطه وينصره، ويقوم في حقه، ويحبه حباً طبعياً[2] لا حباً شرعياً، فلما حضرته الوفاة وحان أجله دعاه رسول الله ﷺ إلى الإيمان

(١) وهو عمه أبو طالب.
(٢) أفصح من طبيعياً، كما يقول حنفياً.

والدخول في الإسلام فسبق القدر فيه، واختطف من يده، فاستمر على ما كان عليه من الكفر ولله الحجة البالغة.

فإن قلت: قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ٥٢﴾ (الشورى: ٥٢) فالجمع بينها وبين الآية المترجم لها، قيل: الهداية التي تصح نسبتها لغير الله بوجه ما هي هداية الإرشاد والدلالة كما قال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ٥٢﴾ أي ترشد وتبين، والهداية المنفية عن غير الله هي التوفيق[1] وخلق القدرة على الطاعة، وذكره بعضهم بمعناه.



(١) هذا الحديث فيه فوائد:

أحدها: أن هداية التوفيق وقبول الحق والرضا به وإيثاره على من سواه بيد الله فهو الذي يوفق العبد لقبول الحق وإيثاره، وأما هداية الإرشاد والبيان والبلاغ والدلالة فهذه تكون للرسل والمصلحين كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ٥٢﴾.

الثاني: في هذه الآية تسلية للرسول ﷺ.

الثالث: وفيها بيان أن الرسل بشر لا يستحقون العبادة.

الرابع: وفيه مضرة قرناء السوء والحذر منهم ومن مجالستهم وزيارتهم.

الخامس: فيه جواز عيادة المريض من المشركين لدعوته إذا كان يرجى إسلامه كما زار النبي اليهودي فأسلم.

السادس: وفيه تكرار الدعوة للإسلام وكما كررها لأهل خيبر.

وَفِي «الصَّحِيحِ» عَن ابنِ المُسَيِّبِ، عَن أَبيهِ قَالَ: لَـمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الوَفَاةُ، جَاءَهُ رَسُولُ الله ﷺ وَعِنْدَهُ عَبْدَالله بْنَ أَبِي أُمَيَّةَ وَأَبُو جَهلٍ، فَقَالَ: «يَا عَمِّ قُلْ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ الله»، فَقَالاَ لَهُ: أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِالمُطَّلِبِ؟ فَأَعَادَ عَلَيهِ النَّبِيُّ ﷺ، فَأَعَادَا، فَكَانَ آخِرَ مَا قَالَ: هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِالمُطَّلِبِ، وَأَبَى أَنْ يَقُولَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ». فَأَنْزَلَ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ ﴾ (التوبة: ١١٣)، وأَنزَلَ فِي أَبِي طَالِبٍ: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾» (القصص: ٥٦).

قوله: «في الصحيح»: أي «الصحيحين».

قوله: «عن ابن المسيب»: هو سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم القرشي المخزومي، أحد العلماء الأثبات، الفقهاء الكبار، الحفاظ العباد، اتفقوا على أن مرسلاته أصح المراسيل[1]. وقال ابن المديني: لا أعلم في التابعين أوسع علماً منه. مات بعد التسعين وناهز الثمانين، وأبوه المسيب صحابي بقي إلى خلافة عثمان -رضي الله عنه-، وكذلك جده حزن صحابي، استشهد باليمامة.

قوله: «لما حضرت أبا طالب الوفاة»: أي حضرت علامات الوفاة وإلا فلو كان انتهى إلى المعاينة لم ينفعه الإيمان لو آمن. ويدل على ذلك ما وقع من المراجعة بينه وبينهم، ويحتمل أن يكون انتهى إلى تلك الحالة، لكن رجا النبي ﷺ أنه إذا أقر

---

(١) ومراسيل سعيد بن المسيب حجة عند الجمهور لأنها فُتشت فُوجدت مسندة بخلاف مراسيل غيره فإنها ليست حجة، وذهب أبو حنيفة ومالك أن المرسل حجة.

بالتوحيد ولو في تلك الحالة أن ذلك ينفعه بخصوصه، ويسوغ فيه شفاعته ﷺ. ولهذا قال: «أجادل لك بـها وأشهد لك بـها، وأحاج لك بـها» ويدل على الخصوصية أنه بعد أن امتنع من الإقرار بالتوحيد، ومات على الامتناع منه لم يترك النبي ﷺ الشفاعة له، بل شفع له حتى خفف عنه العذاب بالنسبة إلى غيره. وكان ذلك من الخصائص في حقه.

قوله: «جاءه رسول الله ﷺ». يحتمل أن يكون المسيب حضر هذه القصة، فإن المذكورين من بني مخزوم وهو أيضاً مخزومي، وكانوا يومئذٍ كفاراً فمات أبو جهل على كفره، وأسلم الآخران. وقول بعض الشراح: إن هذا الحديث من مراسيل الصحابة مردود، وفي هذا جواز عيادة المشرك إذا رُجِيَ إسلامه وجواز حمل العلم إذا كان فيه مصلحة راجحة على عدمه.

قوله: «يا عم». منادى مضاف يجوز فيه إثبات الياء وحذفها.

قوله: «قل لا إله إلا الله». أي: قل هذه الكلمة، عارفاً لمعناها، معتقداً له في هذه الحال وإن لم تعمل به، إذ لا يمكن عند الموت إلا ذلك، ولا بد مع ذلك من شهادة أن محمداً رسول الله.

قوله: «كلمة». قال القرطبي: أحسن ما تقيد «كلمة» بالنصب على أنه بدل من لا إله إلا الله، ويجوز رفعها على احتمال المبتدأ.

قوله: «أحاج لك بـها عند الله». هو بتشديد الجيم من «المحاجة»، وهي مفاعلة من الحجة، والجيم مفتوحة، على الجزم جواب الأمر، أي: أشهد لك بها عند الله كما في الرواية الأخرى. وفيه دليل على أن الأعمال بالخواتيم، لأنه لو قالها لنفعته، وإن مات على التوحيد نفعته الشفاعة، وإن لم يعمل شيئاً غير ذلك، وأن من كان كافراً يجحدها إذا قالها عند الموت أجريت عليه أحكام الإسلام، فإن كان صادقاً من قلبه نفعته عند الله، وإلا فليس لنا إلا الظاهر، بخلاف من يتكلم بها في

حال كفره[١].

قوله «فقالا له: أترغب عن ملة عبدالمطلب»: ذكَّراه الحجة الملعونة التي يتعلق بها المشركون من الأولين والآخرين، ويردون بها على الرسل، وهي تقليد الآباء والكبراء[٢]، وأخرجا الكلام مخرج الاستفهام مبالغة في الإنكار لعظمة هذه الحجة في قلوب الضالين؛ وكذلك اكتفيا بها في المجادلة مع مبالغته ﷺ وتكريره؛ فلأجل عظمتها ووضوحها عندهم اقتصرا عليها.

قال المصنف: وفيه تفسير لا إله إلا الله بخلاف ما عليه أكثر من يدعي العلم، وفيه أن أبا جهل ومن معه يعرفون مراد النبي ﷺ إذا قال للرجل: قل لا إله إلا الله، فقبّح الله من أبو جهل أعلم منه بأصل الإسلام.

قوله: «فأعاد النبي ﷺ وأعادا»: أي أعاد عليه النبي ﷺ مقالته، وأعادا عليه مقالتهما مبالغة منه ﷺ وحرصاً على إسلام عمه؛ ومع ذلك لم يقدر النبي ﷺ على ذلك، ولا على تخليصه من عذاب الله بل سبق فيه القضاء المحتوم، واستمر على كفره ليعلم الناس أن لا إله إلا الله فلو كان عند النبي ﷺ من هداية القلوب، وتفريج الكروب شيء لكان أحق الناس بذلك وأولاهم عمه الذي فعل معه ما فعل، وفيه الحرص في الدعوة إلى الله، والصبر على الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وأن رد ذلك على صاحبه وتكريره وعدم الاكتفاء بمرة واحدة.

قوله: «فكان آخر ما قاله» -هو بنصب آخر على الظرفية- أي آخر زمن تكليمه إياهم ويجوز رفعه[٣].

قوله: «هو على ملة عبدالمطلب»: الظاهر أن أبا طالب قال: أنا، فغيره

---

(١) فإنها لا تنفعه.

(٢) وهي قوله تعالى عنهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

(٣) على أنه اسم كان وهو أحسن.

الراوي[١] أنفة أن يحكي كلام أبي طالب استقباحاً للفظ المذكور، وهي من التصرفات الحسنة. قاله الحافظ. وقد رواه الإمام أحمد بلفظ «أنا» فدل على ما ذكرناه.

قوله: «وأبى أن يقول لا إله إلا الله» قال الحافظ: هذا تأكيد من الراوي في نفي وقوع ذلك من أبي طالب، وكأنه استند في ذلك إلى عدم سماعه منه في تلك الحال. كذا قال وفيه نظر، بل نفيه مستند إلى إباء أبي طالب عن قولها بقوله: «هو على ملة عبدالمطلب»[٢].

قال المصنف: وفيه الرد على من زعم إسلام عبدالمطلب[٣] وأسلافه، ومضرة أصحاب السوء على الإنسان، ومضرة تعظيم الأسلاف والأكابر، أي زيادة على المشروع بحيث يجعل أقوالهم حجة يرجع إليها عند التنازع[٤].

قوله: «فقال النبي: لأستغفرن لك ما لم أنه عنك»: أقسم ﷺ ليستغفرن له إلا أن ينهى عن ذلك، كما في رواية مسلم: «أما والله لأستغفرن لك» قال النووي: وفيه جواز الحلف من غير استحلاف؛ وكأن الحلف هنا لتأكيد[٥] العزم على

---

(١) استقباحاً لأنه ينسبه لنفسه.

(٢) وقد كان أبو طالب عارفاً بصحة دين الإسلام ولكن منعه الحمية لآبائه أن يشهد عليهم بالكفر وأن يخالفهم كما قال:

لولا الملامة أو حذاري مسبة ... لوجدتني سمحاً بذاك مبيناً

وفي بيت آخر:

فوالله لولا أن أجيء بسبة ... تجرُّ على أشياخنا في المحافل

لكنّا اتبعناه على كل حالة ... من الدهر جدا غير قول التهازل

(٣) أو أنه أسلم في الخفية أو أن الله أحيا أبوي النبي فأسلما فكل هذا باطل.

(٤) أما تعظيمهم في حدود المشروع كالدعاء لهم والاقتداء بأفعالهم الطيبة فلا بأس.

(٥) وكان ﷺ كثيراً ما يحلف لتأكيد المقام كقوله: «إني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين...» الحديث.

الاستغفار، وتطييباً لنفس أبي طالب. وكانت وفاة أبي طالب بمكة قبل الهجرة بقليل. قال ابن فارس: مات أبو طالب ولرسول الله ﷺ تسع وأربعون سنة وثمانية أشهر وأحد عشر يوماً. وتوفيت خديجة أم المؤمنين -رضي الله عنها- بعد موت أبي طالب بثمانية أيام.

قوله: «فأنزل الله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ (التوبة: ١١٣)»: أي ما ينبغي لهم ذلك، وهو خبر بمعنى النهي. وقد روى الطبري عن عمرو بن دينار قال: قال رسول الله ﷺ: «استغفر إبراهيم لأبيه وهو مشرك، فلا أزال أستغفر لأبي طالب حتى نـهاني عنه ربي» فقال أصحابه: نستغفر لآبائنا كما استغفر نبيه لعمه فنزلت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ (التوبة: ١١٣-١١٤)، وهذا فيه إشكال لأن وفاة أبي طالب بمكة قبل الهجرة اتفاقاً. وقد ثبت أن النبي ﷺ أتى قبر أمه لما اعتمر فاستأذن ربه أن يستغفر لها فنزلت هذه الآية. وفيه دلالة على تأخر نزول الآية عن وفاة أبي طالب، ولكن يحتمل أن يكون نزول الآية تأخر وإن كان سببها تقدم، ويكون لنزولها سببان: متقدم، وهو أمر أبي طالب، ومتأخر، وهو أمر أمه، ويؤيد تأخر النزول استغفاره ﷺ للمنافقين حتى نزل النهي عن ذلك فإن ذلك يقتضي تأخر النزول وإن تقدم السبب ويشير إلى ذلك أيضاً قوله في حديث الباب، وأنزل الله في أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ (القصص: ٥٦) لأنه يشعر بأنه الأولى نزلت في أبي طالب وفي غيره، والثانية فيه وحده. ويؤيد تعدد السبب ما أخرج أحمد عن علي

قال: سمعت رجلاً يستغفر لوالديه وهما مشركان[١]. فذكرت ذلك للنبي ﷺ فأنزل الله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ (التوبة: ١١٣-١١٤)[٢] الآية.

قال الحافظ: وفيه تحريم الاستغفار للمشركين، وتحريم موالاتهم ومحبتهم؛ لأنه إذا حرم الاستغفار لهم، فموالاتهم ومحبتهم أولى.



(١) ولا مانع من تعدد الأسباب.

(٢) أصلها المحبة في القلب ثم تتبعها النصرة والمعاونة.

باب
ما جاء في أن سبب كفر بني آدم تركهم دينهم هو[١] الغلو في الصالحين[٢]

وَقَوْلُ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾ [النساء: ١٧١].

الشَّرح:

أما تركهم فهو مجرور عطفاً على المضاف إليه، ولما ذكر المصنف -رحمه الله- بعض ما يفعله عباد القبور مع الأموات من الشرك، أراد أن يبيّن السبب في ذلك ليحذر، وهو الغلو مطلقاً لا سيما في الصالحين، فإنه أصل الشرك قديماً وحديثاً لقرب الشرك بالصالحين من النفوس فإن الشيطان يظهره في قالب المحبة والتعظيم.

وقول الله عز وجل: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ[٣] فِي دِينِكُمۡ﴾ (المائدة: ٧٧): قال العلماء: الغلو هو مجاوزة الحد[٤] في مدح الشي أو ذمه وضابطه تعدي ما أمر الله به وهو الطغيان الذي نهى الله عنه في قوله: ﴿وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ﴾ (طه: ٨١)، وكذا قال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ (المائدة: ٧٧) أي لا تتعدوا ما حدد الله لكم. وأهل الكتاب هنا هم اليهود والنصارى فنهاهم عن الغلو في الدين ونحن كذلك، كما قال تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١١٢﴾ (هود: ١١٢).

---

(١) محبة الصالحين قربة ودين؛ لكن لا يجوز الغلو فيهم برفعهم إلى مقام الألوهية والعبادة.

(٢) هذا هو الأغلب وإلا فقد يكون كفرهم بعبادة الكواكب أو بالسحر أو غيره.

(٣) مناسبة الآية للترجمة أن محبة الصالحين دين وقربة فالغلو فيها غلو في الدين.

(٤) وأصله الغلو مطلقاً يقال: غلت القدور إذا زادت النار من تحته فظهر الماء من القدر.

والغلو كثير في النصارى، فإنهم غلوا في عيسى -عليه السلام-، فنقلوه من حيز النبوة إلى أن اتخذوه إلهاً من دون الله يعبدونه كما يعبدون الله، بل غلوا فيمن زعم أنه على دينه من أتباعه، فادعوا فيه العصمة، فاتبعوهم في كل ما قالوه، سواء كان حقاً أو باطلاً، وناقضتهم اليهود في أمر عيسى -عليه السلام- فغلوا فيه فحطوه من منزلته حتى جعلوه ولد بغي.

قال شيخ الإسلام: ومن تشبه من هذه الأمة باليهود والنصارى وغلا في الدين بإفراط فيه أو تفريط وضاهاهم في ذلك فقد شابههم كالخوارج المارقين من الإسلام الذين خرجوا في خلافة علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-، وقاتلهم حين خرجوا على المسلمين بأمر النبي ﷺ كما ثبت من عشرة أوجه في «الصحاح» و«المسانيد»، وغير ذلك، وكذلك من غلا في دينه من الرافضة والقدرية والجهمية والمعتزلة والأشاعرة. وقال أيضاً: فإذا كان على عهد النبي ﷺ من انتسب إلى الإسلام وقد مرق منه مع عبادته العظيمة، فليعلم أن المنتسب إلى الإسلام والسنة في هذه الأزمان قد يمرق أيضاً من الإسلام وذلك بأسباب: منها الغلو الذي ذمه الله في كتابه حيث قال: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾ (المائدة: ٧٧) وعلي بن أبي طالب -رضي الله عنه حرق الغالية من الرافضة، فأمر بأخاديد خُدّت لهم عند باب كندة[١] فقذفهم فيها واتفق الصحابة -رضي الله عنهم- على قتلهم، لكن ابن عباس كان مذهبه أن يقتلوا بالسيف من غير تحريق، وهو قول أكثر العلماء[٢].



(١) موضع في الكوفة.

(٢) وهو الصحيح ولكن علياً -رضي الله عنه- من شدة غضبه عليهم بسبب غلوهم وعظم جريمتهم حرقهم.

في الصَّحِيحِ عَن ابنِ عَبَّاسٍ في قَولِ الله تَعَالَى: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ (نوح: ٢٣). قَالَ: «هَذِهِ أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا، أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ: أَنِ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِم الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ فِيهَا أَنْصَابًا، وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا، وَلَمْ تُعْبَدْ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ، وَنُسِيَ العِلْمُ؛ عُبِدَتْ».

قوله: «في الصحيح»: أي «صحيح البخاري» وهذا الأثر اختصره المصنف، وقد رواه البخاري عن ابن عباس ولفظه: صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد، أما ودّ فكانت لكلب بدومة الجندل، وأما سواع فكانت لهذيل، وأما يغوث فكانت لمراد، ثم لبني غُطَيف بالجُرْف عند سبأ، وأما يعوق فكانت لهمْدَان[1]، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي الكلاَع، أسماء رجال صالحين في قوم نوح .. إلى آخره. وهكذا روي عن عكرمة والضحاك وابن إسحاق نحو هذا. وقال ابن جرير: حدثنا ابن حُمَيد، حدثنا مِهْران[2]، عن سفيان، عن موسى، عن محمد بن قيس: أن يغوث ويعوق ونسر كانوا قوماً صالحين من بني آدم، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صورناهم كانوا أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم، فصوروهم، فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس فقال: إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر فعبدوهم. قال سفيان عن أبيه عن عكرمة قال: كان بين آدم ونوح عشروة قرون كلهم على الإسلام،

---

(١) هَمْدان بإسكان الميم والدال المهملة المفتوحة قبيلة قحطان وأما «همذان» بفتح الميم والذال المعجمة المفتوحة فهي بلدة في خراسان «إيران».

(٢) حُميد بضم الحاء مصغراً، ومِهْران بكسر الميم وإسكان الهاء.

وروى ابن أبي حاتم عن عروة بن الزبير أنهم كانوا أولاد آدم لصلبه[(١)] وكان ود أكبرهم وأبرهم به، هكذا رواه عمر بن شبَّة[(٢)] في «أخبار مكة» من طريق محمد بن كعب القرظي، وذكر السهيلي في «التعريف»: أن يغوث بن شيث بن آدم فيما قيل وكذا سواع وما بعده فكانوا يتبركون بدعائهم وكلما مات منهم أحد مثلوا صورته وتمسحوا بها إلى زمن مهلاييل، فعبدوها بتدرج الشيطان لهم، ثم صارت سنة في العرب في الجاهلية.

ولا أدري من أين سرت تلك الأسماء أمن قبل الهند؟ فقد قيل: إنهم كانوا في المبدأ في عبادة الأصنام بعد نوح -عليه السلام-؛ أم الشيطان ألهم العرب ذلك. انتهى.

وقد روى الفاكهي عن ابن الكلبي قال: كان لعمرو بن ربيعة[(٣)] رئي من الجن فأتاه فقال: أجب أبا ثمامة وادخل بلا ملامة ثم ائت سيف جدة تجد بها أصناماً معدة، ثم أوردها تهامة ولا تهب ثم ادع العرب على عبادتها تجب، قال: فأتى عمرو ساحل جدة فوجد بها وداً وسواعاً ويغوث ويعوق ونسراً، وهي الأصنام التي عبدت على عهد نوح وإدريس، ثم إن الطوفان طرحها هناك فسفى عليها الرمل، فاستثارها عمرو وخرج بها إلى تهامة، وحضر الموسم ودعا إلى عبادتها فأجيب.

وعمرو بن ربيعة: هو عمرو بن لحي. قاله الحافظ.

---

(١) كونهم ولد آدم لصلبه أو لا يترتب عليه شيء لأن العبرة فيما حصل منهم من الغلو حتى وقعوا في الشرك، والأقرب والله أعلم أنهم ليسوا ولد آدم لصلبه وأن بينهم وبينه بطون لأن أولاده كانوا على التوحيد ثم حدث الشرك بعد ذلك.

(٢) ابن شبَّة بشين معجمة وباء مشددة مؤلف كتاب «أخبار مكة».

(٣) الخزاعي وكان سيداً لخزاعة كثر ماله حتى إنه في كل ألف بعير يخسف عين بعير لتسلم من العين وهو عمرو بن لحي أول من سيّب السوائب وبحّر البحيرة وجلب الأصنام إلى بلاد العرب.

قلت: وهو سيد خزاعة، وكان أول من سيّب السوائب، وغيّر دين إبراهيم -عليه السلام-، وكانت العرب قبله على دين أبيهم إبراهيم -عليه السلام-، حتى نشأ فيهم عمرو فأحدث الشرك، كما روى ابن جرير عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لأكثم بن الجون: «**يا أكثم رأيت عمرو بن لحي بن قَمْأَة بن خِنْدَف يجر قصبه في النار فما رأيت رجلاً أشبه برجل منك به ولا به منك**» فقال أكثم أتخشى أن يضرني شبهه يا رسول الله؟! فقال رسول الله ﷺ: «**إنك مؤمن، وهو كافر، إنه أول من غيّر دين إبراهيم، وبحّر البحيرة، وسيّب السائبة، وحمى الحامي**» إسناده حسن.

وفي «الصحيحين» من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبه في النار، كان أول من سيّب السوائب».

قوله: «**أن انصبوا**»: بكسر الصاد المهملة.

قوله: «**أنصاباً**»: جمع نَصْب، وأصله ما نصب كغرض ونحوه، والمراد به هنا الأصنام المصورة على صورهم المنصوبة في مجالسهم.

قوله: «**حتى إذا هلك أولئك**»: أي الذين نصبوها ليكون أشوق إليهم إلى العبادة، وليتذكروا برؤيتها أفعال أصحابها.

قوله: «**ونسي العلم**»: أي[1]: زالت المعرفة بحالها وما قصده من صورها وغلب الجهال الذين لا يميزن بين التوحيد والشرك، وذهب العلماء الذين يعرفون ذلك.

قوله: «**عبدت**»: تقدم أنه دب إليهم إبليس فقال: إنما كانوا يعبدونهم، وبهم يسقون المطر، فعبدوهم، وفي رواية: أنهم قالوا: «ما عظم أولنا هؤلاء إلا وهم يرجون شفاعتهم عند الله، فعبدوهم» فهذا هو السبب في عبادة هؤلاء الصالحين،

---

(١) وهكذا إذا حلّ الجهل خفي الحق وكثر الشر.

وهو رجاء شفاعتهم عند الله، وكذلك هو السبب في عبادة صورهم، وهذه هي الشبهة التي ألقاها الشيطان على المشركين من الأولين والآخرين. وقد بيّن الله ذلك في القرآن بياناً شافياً، وتقدم في هذا الكتاب من الكلام على ذلك ما يكفي لمن هداه الله.



وَقَالَ ابنُ القَيِّمِ: قَالَ غَيرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ: لَـمَّا مَاتُوا، عَكَفُوا عَلَى قُبُورِهِم، ثُمَّ صَوَّرُوا تَـمَاثِيلَـهُم، ثُمَّ طَالَ عَلَيهِم الأَمَدُ فَعَبَدُوهُم.

قوله: «**وقال ابن القيم**»: هو الإمام العلامة محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي المعروف بابن قيم الجوزية، تلميذ شيخ الإسلام، وصاحب المصنفات الكثيرة في فنون العلم. قال السخاوي في حقه: العلامة الحجة، المتقدم في سعة العلم ومعرفة الخلاف وقوة الجنان، المجمع عليه بين الموافق والمخالف، صاحب التصانيف السائرة والمحاسن الجمة. مات سنة إحدى وخمسين وسبعمئة(١).

قوله: «**قال غير واحد من السلف**» **إلى آخره**: الظاهر أن ابن القيم ذكر ذلك بالمعنى لا باللفظ. وقد روي عن غير واحد من السلف معنى ذلك، منهم أبو جعفر الباقر وغيره، وتقدم ما يدل على ذلك.

قوله: «**ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم**»: أي طال عليهم الزمان، ونسوا ما قصده الأولون بتصوير صورهم، فعبدوهم، فتبيَّن أن مبدأ الشرك بالصالحين هو الغلو فيهم، كما أن سبب الشرك بالنجوم هو الغلو فيها(٢) واعتقاد النحوس فيها والسعود، ونحو ذلك، وهذا هو الغالب على الفلاسفة ونحوهم، كما أن ذاك هو الغالب على عباد القبور ونحوهم، وهو أصل عبادة الأصنام، فإنهم عظَّموا الأموات تعظيماً مبتدعاً، فصوروا صورهم، وتبركوا بها، فآل الأمر إلى أن عبدت الصور ومَنْ هي صورته، وهذا أول شرك حدث في الأرض، وهو الذي أوحاه الشيطان إلى عباد القبور في هذه الأزمان، فإنه ألقى إليهم أن البناء على القبور والعكوف عليها من محبة الصالحين وتعظيمهم، وأن الدعاء عندها أرجى في

---

(١) كانت ولادته سنة إحدى وتسعين وستمئة فعمره ستون سنة ومع قصر عمره فقد ألف المؤلفات الكثيرة النافعة.

(٢) باعتقاد أن في اجتماعها وافتراقها وقُربها وبُعدها سعادة لقوم ونحساً لآخرين.

الإجابة من الدعاء في المسجد الحرام والمساجد، فاعتادوها لذلك. فإذا تقرر ذلك عندهم نقلهم منه إلى الدعاء به والإقسام على الله به. قال ابن القيم -رحمه الله تعالى-: وهذا أعظم من الذي قبله، فإن شأن الله أعظم من أن يقسم عليه، أو يسأل بأحد من خلقه، فإذا تقرر ذلك عندهم؛ نقلهم منه إلى دعائه وعبادته، وسؤاله الشفاعة من دون الله، واتخاذ قبره وثناً يعكف عليه، وتعلق عليه القناديل والستور ويطاف به ويستلم، ويقبّل ويحج إليه، ويذبح عنده، فإذا تقرر ذلك عندهم؛ نقله منه إلى دعاء الناس إلى عبادته، واتخاذه عيداً ومنسكاً، ورأوا أن ذلك أنفع لهم في دنياهم وأخراهم، وكل هذا مما قد علم بالاضطرار من دين الإسلام أنه مضاد لما بعث به رسوله ﷺ من تجريد التوحيد لله، وأن لا يعبد إلا الله، فإذا تقرر ذلك عندهم نقلهم منه إلى أن من نهى عن ذلك فقد تنقص أهل الرتب العالية، وحطّهم عن منزلتهم، وزعم أنهم لا حرمة لهم، ولا قدر، وغضب المشركون، واشمأزت قلوبهم كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ (الزمر: ٤٥) وسرى ذلك في نفوس كثير من الجهال والطغام، وكثير ممن ينتسبون إلى العلم والدين، حتى عادوا أهل التوحيد، ورموهم بالعظائم، ونفّروا الناس عنهم، ووالوا أهل الشرك وعظّموهم، وزعموا أنهم أولياء لله وأنصار دينه ورسوله، ويأبى الله ذلك، ﴿وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ (الأنفال: ٣٤).

قلت: وفي القصة فوائد نبّه المصنف على بعضها.

منها: أن من فهم هذا الباب وما بعده تبيّن لهم غربة الإسلام، ورأى من قدرة الله، وتقليبه القلوب العجب.

ومنها: معرفة أن أول شرك حدث في الأرض بشبهة محبة الصالحين.

ومنها: معرفة أول شيء غُيِّر به دين الأنبياء.

ومنها: معرفة سبب قبول البدع مع كون الشرائع والفطر تنكرها.

ومنها: أن سبب ذلك كله مزج الحق بالباطل، فالأول محبة الصالحين، والثاني فعل أناس من أهل العلم والدين شيئاً أرادوا به خيراً، فظن من بعدهم أنهم أرادوا غيره.

ومنها: معرفة جبلة الإنسان في كون الحق ينقص في قلبه، والباطل يزيد.

ومنها: أن فيها شاهداً لما نقل عن بعض السلف أن البدعة سبب للكفر، وأنها أحب إلى إبليس من المعصية، لأن المعصية يتاب منها، والبدعة لا يتاب منها.

ومنها: معرفة الشيطان بما تؤول إليه البدعة، ولو حسن قصد الفاعل.

ومنها: معرفة القاعدة الكلية وهي النهي عن الغلو، ومعرفة ما يؤول إليه.

ومنها: مضرة العكوف على قبر لأجل عمل صالح.

ومنها: معرفة النهي عن التماثيل والحكمة في إزالتها.

ومنها: معرفة عظم شأن هذه القصة، وشدة الحاجة إليها مع الغفلة عنها.

ومنها: -وهي أعجب العجب-: قراءتهم إياها في كتب التفسير والحديث، ومعرفتهم بمعنى الكلام، وكون الله حال بين قلوبهم، حتى اعتقدوا أن فعل قوم نوح هو أفضل العبادات، واعتقدوا أن نهي الله ورسوله هو الكفر المبيح للدم والمال.

ومنها: التصريح أنهم لم يريدوا إلا الشفاعة.

ومنها: ظنهم أن العلماء الذين صوروا الصور أرادوا ذلك.

ومنها: التصريح بأنها لم تعبد حتى نسي العلم، ففيها معرفة قدر وجوده، ومضرة فقده.

ومنها: أن سبب فقد العلم موت العلماء. انتهى بمعناه.

ومنها: شدة حاجة الخلق بل ضرورتهم إلى الرسالة، وأن ضرورتهم إليها أشد

وأعظم من ضرورتهم إلى الطعام والشراب.

ومنها: الرد على من يقدم الشبهات التي يسميها عقليات على ما جاء من عند الله؛ لأن ذلك الذي أوقع المشركين في الشرك.

ومنها: مضرة التقليد وكيف آل بأهله إلى المروق من الإسلام[1].



(١) قال الله عنهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

وَعَن عُمَرَ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «لاَ تُطْرُونِي كَمَا أَطرَتِ النَّصَارَى ابنَ مَريَمَ، إِنَّمَا أَنَا عَبدٌ، فَقُولُوا: عَبدُ الله وَرَسُولُهُ» أَخرَجَاهُ[(١)].

قوله: «**عن عمر**»: هو ابن الخطاب بن نفيل بنون وفاء مصغراً بن عبدالعزى ابن رباح بتحتانية بن عبدالله بن قرط بضم القاف بن رزاح براء ثم زاي خفيفة بن عدي بن كعب القرشي العدوي، أمير المؤمنين وأفضل الصحابة بعد الصديق -رضي الله عنهما-، ولي الخلافة عشر سنين ونصفاً فامتلأت الدنيا عدلاً، وفتحت في أيامه ممالك كسرى وقيصر، واستشهد في ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين.

قوله: «**لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم**»: الإطراء: مجاوزة الحد في المدح، والكذب فيه. قاله أبو السعادات. وقال غيره: «**لا تُطروني**» بضم التاء وسكون الطاء المهملة من الإطراء أي: لا تمدحوني بالباطل، أو لا تجاوزوا الحد في مدحي.

قوله: «**إنما أنا عبد فقولوا عبدالله ورسوله**»: أي لا تمدحوني فتغلوا في مدحي كما غلت النصارى في عيسى فادعوا فيه الربوبية، وإنما أنا عبد الله فصفوني بذلك كما وصفني به ربي، وقولوا عبدالله ورسوله. فأبى عُبّاد القبور إلا مخالفة لأمره، وارتكاباً لنهيه، وناقضوه أعظم المناقضة، وظنوا أنهم إذا وصفوه بأنه عبد الله ورسوله، وأنه لا يدعى ولا يستغاث به، ولا ينذر له، ولا يطاف بحجرته، وأنه ليس له من الأمر شيء، ولا يعلم من الغيب إلا ما علّمه الله، أن في ذلك هضماً لجنابه، وغضاً من قدره، فرفعوه فوق منزلته، وادعوا فيه ما ادعت النصارى في عيسى، أو قريباً منه، فسألوه مغفرة الذنوب، وتفريج الكروب.

(١) أخرجاه، أي: «البخاري ومسلم»، والحديث ليس في مسلم بل في البخاري فقط فهو من أفراد البخاري ويحتمل أن المصنف -رحمه الله- قلّد غيره في عزو الحديث لهما كشيخ الإسلام ابن تيمية في «الجواب الصحيح» و«الفتاوى».

وقد ذكر شيخ الإسلام في كتاب «الاستغاثة»، عن بعض أهل زمانه: أنه جوز الاستغاثة بالرسول ﷺ في كل ما يستغاث فيه بالله، وصنّف فيه مصنفاً. وكان يقول: إن النبي ﷺ يعلم مفاتيح الغيب التي لا يعلمها إلا الله. وحكي عن آخر من جنسه يباشر التدريس، وينسب إلى الفتيا أنه كان يقول: إن النبي ﷺ يعلم ما يعلمه الله، ويقدر على ما يقدر الله عليه، وأن هذا السر انتقل بعده إلى الحسن، ثم انتقل في ذرية الحسن إلى أبي الحسن الشاذلي، وقالوا: هذا مقام القطب الغوث الفرد الجامع، ومن هؤلاء من يقول في قول الله تعالى: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ (الأحزاب: ٤٢): إن الرسول ﷺ هو الذي يسبِّح بكرة وأصيلاً. ومنهم من يقول: نحن نعبد الله ورسوله، فيجعلون الرسول معبوداً.

قلت: وقال البوصيري:

فإن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم

فجعل الدنيا والآخرة من جوده، وجزم بأنه يعلم ما في اللوح المحفوظ، وهذا هو الذي حكاه شيخ الإسلام عن ذلك المدرس، وكل ذلك كفر صريح. ومن العجب أن الشيطان أظهر لهم ذلك في صورة محبته -عليه السلام- وتعظيمه ومتابعته، وهذا شأن اللعين لا بد وأن يمزج الحق بالباطل ليروج على أشباه الأنعام اتباع كل ناعق، الذين لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجؤوا إلى ركن وثيق، لأن هذا ليس بتعظيم، فإن التعظيم محله القلب واللسان والجوارح وهم أبعد الناس منه، فإن التعظيم بالقلب ما يتبع اعتقاد كونه عبداً رسولاً، من تقديم محبته على النفس والولد والوالد والناس أجمعين.

ويصدق هذه المحبة أمران:

أحدهما: تجريد التوحيد، فإنه ﷺ كان أحرص الخلق على تجريده، حتى قطع أسباب الشرك ووسائله من جميع الجهات، حتى قال له رجل: ما شاء الله وشئت.

قال: «**أجعلتني لله نداً؟ بل ما شاء الله وحده**»، ونهى أن يُحلف بغير الله، وأخبر أن ذلك شرك. ونهى أن يُصلى إلى القبر أو يتخذ مسجداً، أو عيداً، أو يوقد عليه سراج، بل مدار دينه على هذا الأصل الذي هو قطب رحى النجاة، ولم يقرر أحد ما قرره النبي بقوله وفعله، وسد الذرائع المنافية له، فتعظيمه ﷺ بموافقته على ذلك لا بمناقضته فيه.

الثاني: تجريد متابعته، وتحكيمه وحده في الدقيق والجليل من أصول الدين وفروعه، والرضى بحكمه، والانقياد له، والتسليم، والإعراض عما خالفه، وعدم الالتفات إلى ما خالفه، حتى يكون وحده هو الحاكم المتبع المقبول قوله، المردود ما خالفه، كما كان ربه تعالى وحده هو المعبود المألوه المخوف المرجو المستغاث به، المتوكل عليه، الذي له الرغبة والرهبة، الذي يؤمل وحده لكشف الشدائد ومغفرة الذنوب، الذي من جوده الدنيا والآخرة، الذي خلق الخلق وحده، ويرزقهم وحده، ويبعثهم وحده، ويغفر ويرحم ويهدي ويضل، ويسعد ويشقي وحده، وليس لغيره من الأمر شيء كائناً من كان، لا للنبي ﷺ ولا لجبريل -عليه السلام- ولا غيرهما. فهذا هو التعظيم الحق المطابق لحال المعظم، النافع للمعظم في معاشه ومعاده، والذي هو لازم إيمانه وملزومه.

وأما التعظيم باللسان، فهو الثناء عليه بما هو أهله مما أثنى به عليه ربه، وأثنى على نفسه من غير غلو ولا تقصير، كما فعل عُبَّاد القبور، فإنهم غلوا في مدحه إلى الغاية.

وأما التعظيم بالجوارح، فهو العمل بطاعته، والسعي في إظهار دينه، ونصر ما جاء به، وجهاد ما خالفه.

وبالجملة: فالتعظيم النافع هو التصديق فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، والانتهاء عما عنه نهى وزجر، والموالاة والمعاداة والحب والبغض لأجله، وتحكيمه وحده

والرضى بحكمه، وأن لا يتخذ من دونه طاغوت يكون التحاكم إلى أقواله فما وافقها من قوله ﷺ قبله، وما خالفها رده أو تأوله أو أعرض عنه، والله سبحانه يشهد وكفى به شهيداً وملائكته ورسله وأولياؤه، أن عباد القبور وخصوم الموحدين ليسوا كذلك، والله المستعان.



قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِيَّاكُم وَالغُلُو؛ فَإِنَّمَا أَهلَكَ مَنْ كَانَ قَبلَكُم الغلو».

هكذا ثبت هذا البياض في أصل المصنف، وذكره أيضاً غير معزو. والحديث رواه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه عن ابن عباس، وهذا لفظ ابن ماجه: حدثنا علي بن محمد، حدثنا أبو أسامة، عن عوف، عن زياد بن الحصين، عن أبي العالية، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ غداه العقبة وهو على ناقته: «**القط لي حصى**» فلقطت له سبع حصيات هن حصى الخذف فجعل ينفضهن في كفه ويقول: «**أمثال هؤلاء فارموا، وإياكم والغلو في الدين، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين**». وهذا إسناد صحيح، وعوف، هو الأعرابي ثقة مشهور.

قوله: «إياكم والغلو...» إلى آخره: قال شيخ الإسلام: هذا عام في جميع أنواع الغلو في الاعتقادات والأعمال، وسبب هذا اللفظ العام رمي الجمار وهو داخل فيه، مثل الرمي بالحجارة الكبار، بناء على أنه أبلغ من الصغار ثم علّله بما يقتضي مجانبة هديهم، أي هدي من كان قبلنا إبعاداً عن الوقوع فيما هلكوا به، وأن المشارك لهم في بعض هديهم يخاف عليه من الهلاك.



وَلِمُسلِمٍ عَنِ ابنِ مَسعُودٍ: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «هَلَكَ المُتَنَطِّعُونَ»[1] قَالَـهَا ثَلاَثَاً.

قوله: «هلك المتنطعون»: قال الخطابي: المتنطع المتعمق في الشيء، المتكلف البحث عنه على مذاهب أهل الكلام، الداخلين فيما لا يعنيهم الخائضين فيما لا تبلغه عقولهم. وقال أبو السعادات: هم المتعمقون في الكلام، المتكلمون بأقصى حلوقهم؛ مأخوذ من النطع وهو الغار الأعلى من الفم، ثم استعمل في كل متعمق قولاً وفعلاً. وقال غيره: هم الغالون في عبادتهم بحيث تخرج عن قوانين الشريعة، ويسترسل مع الشيطان في الوسوسة. وكل هذه الأقوال صحيحة؛ فإن المتكلفين من أهل الكلام متنطعون، والمتقعرون في الكلام ومخارج الحروف متنطعون، والغالون في عباداتهم متنطعون، وبالجملة فالتنطع: التعمق في قول أو فعل كما قاله أبو السعادات.

وقال النووي: فيه كراهة المتقعر في الكلام بالتشدق، وتكلف الفصاحة، واستعمال وحشي اللغة ودقائق الإعراب في مخاطبة العوام ونحوهم.

قوله: «قالها ثلاثاً»: أي قال هذه الكلمة ثلاث مرات، مبالغة في التحذير والتعليم، فصلوات الله وسلامه على من بلغ البلاغ المبين، فما ترك شيئاً يقرِّب من الجنة ويباعد من النار إلا أخبرنا به، وإنما ضلّ الأكثرون بمخالفة هذه الأحاديث وما في معناها، فغلوا وتنطعوا فهلكوا، ولو اقتصروا على ما جاءهم من ربهم على يدي رسول الله ﷺ لسلموا وسعدوا، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ

---

(١) التنطع والغلو هو التعمق والزيادة في قول أو فعل أو اعتقاد وما من عمل إلا وللشيطان فيه لمتان لمّة بالزيادة والغلو ولمّة بالنقص والجفاء؛ لأنه يشم القلوب، فإذا وجد في القلب صلابة وتمسكاً جاءه من باب الغلو، وإن وجد فيه عدم تمسك جاءه من باب التفريط والإهمال، فاليهود والنصارى جفوا وغلوا من ناحية أخرى وقوم نوح غلوا.

ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾

(العنكبوت: ٥١).



باب
ما جاء من التغليظ فيمن عَبدَ الله عند قبر رجل صالح(١) فكيف إذا عبده(٢)؟!

في «الصَّحِيحِ» عَن عَائِشَةَ: «أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ ذَكَرَت لِرَسُولِ الله ﷺ كَنِيسَةً رَأتهَا بأَرْضِ الحَبَشَةِ، وَمَا فِيهَا مِن الصُّوَرِ، فَقَالَ: أُولَئِكَ إِذَا مَاتَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ أَو العَبدُ الصَّالِحُ؛ بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ، أُولَئِكَ شِرَارُ الخَلْقِ عِنْدَ الله».

فَهَؤُلاَءِ جَمَعُوا بَينَ الفِتنَتَينِ: فِتنَةِ القُبُورِ، وَفِتنَةِ التَّماثِيلِ.

الشَّرْح:

أي: عبد القبر أو الرجل الصالح، ولما كان عُبّاد القبور إنما داهوا من حيث ظنوا أنهم محسنون، فرأوا أن أعمالهم القبيحة حسنة، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ (فاطر: ٨) الآية.

نوّع المصنف التحذير من الافتتان بالقبور، وأخرجه في أبواب مختلفة، ليكون أوقع في القلب، وأحسن في التعليم، وأعظم في الترهيب، فإذا كان قصد قبور الصالحين لعبادة الله عندها فيه من النهي والوعيد ما سيمر بك إن شاء الله، فكيف بعبادة أربابها من دون الله واعتيادها لذلك في اليوم والأسبوع والشهر مرات

---

(١) إذا كان فعل الوسيلة وهو عبادة الله عند قبور الصالحين يغلظ عليه ويلعن ويوصف بأنه من شرار الخلق ويقرن بمن تقوم عليه الساعة فالذي فعل الغاية وهي عبادة الصالحين وصرف شيء من العبادة لهم أشد وأعظم تغليظاً لأنهم وقعوا في الشرك الأكبر وقد وصلت الحال ببعضهم إلى أن عبدوا قوماً فسقة عصاة، وعبدوا المجانين والمعتوهين.

(٢) فهو أعظم تغليظاً.

كثيرة.

قوله: «في الصحيح»: أي في «الصحيحين».

قوله: «أن أم سلمة». هي هند بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبدالله بن عمرو بن مخزوم القرشية المخزومية؛ تزوجها النبي ﷺ بعد أبي سلمة سنة أربع، وقيل ثلاث، وكانت قد هاجرت مع أبي سلمة إلى الحبشة، ماتت سنة اثنتين وستين.

قوله: «ذكرت لرسول الله ﷺ». كان ذكر أم سلمة هذه الكنيسة للنبي ﷺ في مرض موته، كما جاء مبيناً في رواية في «الصحيح»، وفي «الصحيحين»: أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا ذلك لرسول الله ﷺ.

قوله: «كنيسة»: وفي رواية يقال لها مارية، وهي بفتح الكاف وكسر النون، معبد النصارى.

قوله: «أولئك»: بفتح الكاف وكسرها.

قوله: «إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح»: هذا والله أعلم شك من بعض رواة الحديث، هل قال النبي ﷺ هذا أو هذا، ففيه التحري في الرواية[(١)]، وجواز رواية الحديث بالمعنى.

قوله: «بنوا على قبره مسجداً»: أي موضعاً للعبادة، وإن لم يسم مسجداً كالكنائس والمشاهد.

قوله: «وصوروا فيه تلك الصور»: الإشارة بتلك الصور إلى ما ذكرت أم سلمة وأم حبيبة من التصاوير التي في الكنيسة، كما في بعض ألفاظ الحديث فذكرتا من حسنها وتصاوير فيها.

قوله: «أولئك شرار الخلق عند الله»: مقتضى هذا التحريم ما ذكر، لا سيما وقد ثبت اللعن عليه. قال البيضاوي: لما كانت اليهود والنصارى يسجدون لقبور

---

(١) فيه شدة تحري الصحابة رضوان الله عليهم للفظ الحديث.

الأنبياء تعظيماً لشأنهم، ويجعلونها قبلة يتوجهون في الصلاة نحوها، واتخذوها أوثاناً، لعنهم النبي ﷺ ومنع المسلمين عن مثل ذلك. قال القرطبي: وإنما صور أوائلهم الصور ليتأسوا بها، ويتذكروا أفعالهم الصالحة، فيجتهدون كاجتهادهم، ويعبدون الله عند قبورهم، ثم خلفهم قوم جهلوا مرادهم، ووسوس لهم الشيطان أن أسلافكم كانوا يعبدون هذه الصور ويعظِّمونها، فحذر النبي ﷺ عن مثل ذلك سداً للذريعة المؤدية إلى ذلك.

قوله: «**فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين...**» **إلى آخره**: هذا من كلام شيخ الإسلام، ذكره المصنف عنه. يعني أن الذين بنوا هذه الكنيسة جمعوا فيها بين فتنتين، ضل بها كثير من الخلق. **الأولى**: فتنة القبور؛ لأنهم افتتنوا بقبور الصالحين، وعظِّموها تعظيماً مبتدعاً، فآل بهم إلى الشرك، وهي أعظم الفتنتين، بل هي مبدأ الفتنة، **الثانية**: وهي فتنة التماثيل، أي: الصور، فإنهم لما افتتنوا بقبور الصالحين، وعظموها، وبنوا عليها المساجد، وصوروا فيها الصور للقصد الذي ذكره القرطبي، فآل الأمر إلى أن عبدت الصور، ومن هي صورته من دون الله، وهاتان الفتنتان هما سبب عبادة الصالحين كاللات، وود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر، وغيرهم من الصالحين.

قال شيخ الإسلام -رحمه الله تعالى-: وهذه العلة هي التي لأجلها نهى الشارع عن اتخاذ المساجد على القبور، وهي التي أوقعت كثيراً من الأمم إما في الشرك الأكبر، أو فيما دونه من الشرك، فإن النفوس قد أشركت بتماثيل القوم الصالحين، وتماثيل يزعمون أنها طلاسم لكواكب ونحو ذلك، فإن الشرك بقبر الرجل الذي يعتقد صلاحه أقرب إلى النفوس من الشرك بخشبة أو حجر. ولهذا تجد أهل الشرك يتضرعون عندها ويخشعون ويخضعون، ويعبدون بقلوبهم عبادة لا يفعلونها في بيوت الله ولا وقت السحر، ومنهم من يسجد لها، وأكثرهم يرجون

من بركة الصلاة عندها والدعاء ما لا يرجونه في المساجد، فلأجل هذه المفسدة حسم النبي ﷺ مادتها حتى نهى عن الصلاة في المقبرة مطلقاً، وإن لم يقصد المصلي بركة البقعة بصلاته، كما يقصد بصلاته بركة المساجد. كما نهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس وغروبها، لأنها أوقات يقصد المشركون فيها الصلاة للشمس، فنهى أمته حينئذٍ وإن لم يقصد ما قصده المشركون سداً للذريعة. قال: وأما إذا قصد الرجل الصلاة عند القبور متبركاً بالصلاة في تلك البقعة، فهذا عين المحادة لله ورسوله، والمخالفة لدينه، وابتداع دين لم يأذن به الله فإن المسلمين قد أجمعوا على ما علموه بالاضطرار من دين رسول الله ﷺ أن الصلاة عند القبور منهي عنها، وأنه لعن من اتخذها مساجد. فمن أعظم المحدثات وأسباب الشرك الصلاة عندها، واتخاذها مساجد، وبناء المساجد عليها فقد تواترت النصوص عن النبي ﷺ بالنهي عن ذلك والتغليظ فيه. وقد صرح عامة الطوائف بالنهي عن بناء المساجد عليها متابعة منهم للسنة الصحيحة الصريحة. وصرح أصحاب أحمد وغيرهم من أصحاب مالك والشافعي بتحريم ذلك، وطائفة أطلقت الكراهة والذي ينبغي أن تحمل على كراهة التحريم إحساناً للظن بالعلماء، وأن لا يظن بهم أن يجوزوا فعل ما تواتر عن رسول الله ﷺ لعن فاعله والنهي عنه.



وَلَـهُمَا عَنهَا، قَالَت: لَـمَّا نُزِلَ بِرَسُولِ الله ﷺ طَفِقَ يَطْرَحُ خَمِيصَةً لَهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَإِذَا اغْتَمَّ بِهَا؛ كَشَفَهَا، فَقَالَ وَهُوَ كَذَلِكَ: «لَعْنَةُ الله عَلَى اليَهُودِ وَالنَّصَارَى؛ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ، يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا»، وَلَولاَ ذَلِكَ أُبرِزَ قَبرُهُ، غَيرَ أَنَّهُ خُشِيَ أَن يُتخَذَ مَسجِدَاً. أَخرَجَاهُ.

هكذا ثبت في أول الحديث، ولهما وفي آخره: أخرجاه، بخط المصنف. وأحد اللفظين يغني عن الآخر؛ لأن المراد صاحبا «الصحيحين».

قوله: «لما نزل»: هو بضم النون وكسر الزاي: أي نزل به ملك الموت والملائكة الكرام -عليهم السلام-.

قوله: «طفق»: بكسر الفاء وفتحها والكسر أفصح[(١)]، وبه جاء القرآن ومعناه جعل[(٢)].

قوله: «خميصة» بفتح المعجمة كساء له أعلام.

قوله: «فإذا اغتم بـها كشفها»: أي إذا احتبس نفسه[(٣)] عن الخروج كشفه عن وجهه.

قوله: «لعن الله اليهود والنصارى...» إلى آخره. لعنهم ﷺ على هذا الفعل بعينه وهو اتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد، أي: كنائس وبيع يتعبدون ويسجدون فيها لله؛ وإن لم يسموها مساجد، فإن الاعتبار بالمعنى لا بالاسم، ومثل ذلك القباب والمشاهد المبنية على قبور الأنبياء والصالحين، فإنها هي المساجد الملعون من بناها على قبورهم، وإن لم يسمها من بناها مساجد. وفيه رد على من

---

(١) وهي من أفعال الشروع، وفعلها أنشأ وأخذ.

(٢) ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾.

(٣) وضيقت عليه نفسه.

أجاز البناء على قبور العلماء والصالحين تمييزاً لهم عن غيرهم؛ فإذا كان ﷺ لعن من بنى المساجد على قبور الأنبياء؛ فكيف بمن بناها على قبور غيرهم؟!

قوله: «**يحذر ما صنعوا**»: الظاهر أن هذا من كلام عائشة -رضي الله عنها- أي: أن الرسول ﷺ لعن اليهود والنصارى على ذلك تحذيراً لأمته أن تصنع ما صنعوا. قال القرطبي: وكل ذلك لقطع الذريعة المؤدية إلى عبادة من فيها كما كان السبب في عبادة الأصنام[(١)].

قوله: «**ولولا ذاك**» أي: لولا تحذير النبي ﷺ ما صنعوا ولعن من فعل ذلك[(٢)].

قوله: «**لأبرز قبره**»: أي لدفن خارج بيته، ومنه الحديث: «كان رسول الله ﷺ يوماً بارزاً للناس»: أي جالساً خارج بيته.

قوله: «**غير أنه خشي أن يتخذ مسجداً**»: روي بفتح الخاء وضمها بالبناء للفاعل والمفعول، قالوا: فأما رواية الفتح فإنها تقتضي أن النبي ﷺ هو الذي أمرهم بذلك، وأما رواية الضم فيحتمل أن تكون عائشة هي التي خشيت كما في لفظ آخر، «**غير أني أخشى**»، أو هي ومن معها من الصحابة.

قلت: وهذا أظهر ورواية: «**غير أني أخشى**» لا تخالفه. قال القرطبي: ولهذا بالغ المسلمون في سد الذريعة في قبر النبي ﷺ، فأعلوا حيطان تربته، وسدوا المداخل إليها وجعلوها محدقة بقبره ﷺ، ثم خافوا أن يتخذ موضع قبره قبلة إذا كان مستقبل المصلين، فتصور الصلاة إليه بصورة العبادة، فبنوا جدارين من ركني القبر الشماليين، وحرفوها حتى التقيا على زاوية مثلثة من ناحية الشمال حتى لا

---

(١) وقد وقع ما خافه عليه السلام من وقوع الشرك به في المدينة وخارجها من الغلو فيه وسؤاله المدد واعتقاد أنه يعلم الغيب وما ذاك إلا بسبب انتشار الجهل وقلة العلم.

(٢) وقد خفي على عائشة حديث «أن النبي يدفن في المكان الذي مات فيه».

يتمكن أحد من استقبال قبره.

قلت: وفي الحديثين مسائل نبه المصنف على بعضها:

منها: ما ذكر الرسول ﷺ فيمن بنى مسجداً يعبد الله فيه على قبر رجل صالح، ولو صحت نية الفاعل.

ومنها: النهي عن التماثيل بتغليظ الأمر

ومنها: نهيه عن فعله عند قبره قبل أن يوجد القبر

ومنها: أنه من سنن اليهود والنصارى في قبور أنبيائهم.

ومنها: لعنه إياهم على ذلك.

ومنها: مراده بذلك تحذيره إيانا عن قبره.

ومنها: العلة في عدم إبراز قبره.

ومنها: ما بُلي به ﷺ من شدة النزع.

قلت: **ومنها**: التنبيه على علة تحريم ذلك، وعلة لعن من فعله(١).



---

(١) ولا تصح الصلاة في المسجد الذي فيه قبر لأن النبي ﷺ نهى عن ذلك والنهي يقتضي الفساد ولأنه لعن فاعل ذلك ولا يصح فعل ما لعن عليه، وعلى ذلك فالحكم للسابق، فإن كان القبر هو الأول هدم المسجد، وإن كان المسجد هو الأول نبش القبر، وأما مسجد النبي ﷺ فإن النبي ﷺ لم يدفن في المسجد وإنما دفن في بيت عائشة اجتهاداً من الصحابة حتى لا يعبد، ثم أدخل الوليد بن عبدالملك البيت في المسجد فمن صلى في المسجد الذي فيه قبر جاهلاً أو ناسيا وجب عليه إعادة الصلاة وإذا لم يجد مسجداً غيره صلى في بيته ولو منفرداً.

وَلِمُسلِمٍ عَن جُنْدُبِ بنِ عَبدِالله قَالَ: سَمِعتُ النَّبِيَّ ﷺ قَبلَ أنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ يَقُولُ: «إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى الله أَنْ يَكُونَ لِـي مِنْكُمْ خَلِيلٌ، فَإِنَّ الله قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلاً كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلاً، لاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً أَلاَ وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ[(١)]، أَلاَ فَلاَ تَتَّخِذُوا القُبُورَ مَسَاجِدَ؛ إِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ».

فَقَد نَهَى عَنهُ وهو في آخِرِ حَياتِهِ، ثُمَّ إِنَّهُ لَعَنَ -وَهُوَ فِي السِّيَاقِ- مَنْ فَعَلَهُ، وَالصَّلاَةُ عِندَهَا مِن ذَلِكَ، وَإِن لَم يُبنَ مَسجِدٌ، وَهُوَ مَعنَى قَوله: «أخشَى أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا»؛ فَإِنَّ الصَّحَابَةَ لَم يَكُونُوا لِيَبنُوا حَولَ قَبرِهِ مَسجِدَاً[(٢)]، وَكُلُّ[(٣)] مَوضِعٍ قُصِدَت الصَّلاَةُ فِيهِ؛ فَقَد اتُّخِذَ مَسجِدَاً، بَل كُلُّ مَوضِعٍ يُصَلَّى فِيهِ؛ يُسَمَّى مَسجِدَاً، كَمَا قَالَ ﷺ: «جُعِلَت لِيَ الأَرضُ مَسجِدَاً وَطَهُورَاً».

قوله: «عن جندب بن عبدالله»: أي ابن أبي سفيان البجلي، أبو عبدالله، وينسب إلى جده، صحابي مشهور. مات بعد الستين.

قوله: «إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل»: أي أمتنع من هذا وأنكره. والخليل هو المحبوب غاية المحبة، مشتق من الخلة بفتح الخاء وهي تخلل المودة في القلب كما قال الشاعر:

قد تخللت مسلك الروح منّي وبـذا سُـمِّيَ الخليـلُ خلـيلاً

هذا هو الصحيح في معناه، كما ذكره شيخ الإسلام وابن القيم، وابن كثير

---

(١) في «صحيح مسلم» «كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد».

(٢) لما علموه من التشديد والتغليظ وإنما خشوا أن يعتاده بعض الجهال للصلاة عنده.

(٣) هذا نقله من كتاب «اقتضاء الصراط المستقيم» لشيخ الإسلام ابن تيمية.

وغيرهم. قال القرطبي: وإنما كان في ذلك لأن قلبه ﷺ قد امتلأ من محبة الله وتعظيمه ومعرفته فلا يتسع لمخالة غيره.

قوله: «فإن الله قد اتخذني خليلاً»: فيه التصريح بأن الخلة أكمل من المحبة. قال ابن القيم: وأما ما يظنه بعض الغالطين من أن المحبة أكمل من الخلة، وأن إبراهيم خليل الله، ومحمد ﷺ حبيب الله، فمن جهلهم، فإن المحبة عامة والخلة خاصة، وهي نهاية المحبة.

قال: وقد أخبر النبي ﷺ أن الله قد اتخذه خليلاً، ونفى أن يكون له خليل غير ربه، مع إخباره بحبه لعائشة ولأبيها ولعمر بن الخطاب -رضي الله عنهم- وغيرهم. وأيضاً فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين، ويحب الصابرين، وخلته خاصة بالخليلين، وفيه جواز ذكر الإنسان ما فيه من الفضل إذا دعت الحاجة الشرعية إلى ذلك.

قوله: «ولو كنت متخذاً من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً»: فيه دليل على أن الصديق أفضل الصحابة، حيث صرح ﷺ أنه لو اتخذ خليلاً غير ربه، لاتخذ أبا بكر، ففيه رد على الرافضة[1] وعلى الجهمية[2] الذين هم شر أهل البدع بل أخرجهم بعض السلف من الثنتين والسبعين فرقة وبسبب الرافضة حدث الشرك وعبادة القبور، وهم أول من بني عليها المساجد قاتلهم الله. قاله المصنف.

وفيه إشارة إلى خلافته، لأن من كانت محبته لشخص أشد فهو أحق الناس بالنيابة عنه لا سيما وقد قال ذلك في مرض موته، خصوصاً وقد استخلفه على الصلاة بالناس، وغضب لما صلى بهم عمر. واسم أبي بكر عبدالله بن عثمان بن

---

(١) في تنقصهم لأبي بكر وسبّه وتفضيل عليّ وأهل البيت عليه.

(٢) في إنكارهم صفة المحبة والخلّة.

عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تميم بن مرة[(١)]، الصديق الأكبر[(٢)]، خليفة رسول الله ﷺ، وأفضل الصحابة بإجماع من يعتد به من أهل السنة. مات في جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة[(٣)]، وله ثلاث وستون سنة.

قوله: «ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد...» إلى آخر الحديث. قال الخِلخَالي: وإنكار النبي ﷺ صنيعهم هذا يُخرَّج على وجهين:

أحدهما: أنهم يسجدون لقبور الأنبياء تعظيماً لها، **والثاني**: أنهم يجوِّزون الصلاة في مدافن الأنبياء والسجود في مقابرهم، والتوجه إليها حالة الصلاة نظراً منهم بذلك إلى عبادة الله، والمبالغة في تعظيم الأنبياء، والأول هو الشرك الجلي، والثاني: الخفي، فلذلك استحقوا اللعن.

قلت: الحديث أعم من ذلك، فيشمله ويشمل بناء المساجد والقباب عليها.

قوله: «فقد نـهى عنه في آخر حياته»: أي كما في حديث جندب.

قوله: «إنه لعن وهو في السياق من فعله»: أي كما في حديث عائشة.

قوله: «والصلاة عندها من ذلك وإن لم يبن مسجداً». يعني: أن الصلاة عند القبور وإليها من اتخاذها مساجد الملعون من فعله، وإن لم يبن مسجد، فتحرم الصلاة في المقبرة وإلى القبور، بل لا تنعقد أصلاً لما في هذه الأحاديث الصحيحة وغيرها، ومن لعن من اتخذها مساجد وروى مسلم عن أبي مرثد الغَنَوي -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها**»، وعن أبي سعيد الخدري مرفوعاً: «**الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام**» رواه أحمد وأهل السنن، وصححه ابن حبان والحاكم من طرق على شرط الشيخين.

---

(١) يجتمع مع النبي ﷺ في مرة.

(٢) وعمر وعثمان وعلي كلهم صديقون دون أبي بكر في المرتبة.

(٣) والصواب أن وفاته في ربيع الآخر كما يعلم ذلك من «البداية» لابن كثير وغيرها.

وفي «صحيح البخاري» أن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- رأى أنس بن مالك يصلي عند قبر فقال: القبر القبر[١]، وهذا يدل على أنه كان من المستقر عند الصحابة ما نهاهم عنه نبيهم ﷺ من الصلاة عند القبور.

وفعل أنس يدل على اعتقاد جوازه، فإنه لعله لم يره، أو لم يعلم أنه قبر أو ذهل عنه، فلما نبهه عمر تنبه. وفي هذا كله إبطال قول من زعم أن النهي عن الصلاة فيها[٢] لأجل النجاسة[٣]، فهذا أبعد شيء عن مقاصد الرسول ﷺ، بل العلة في ذلك الخوف على الأمة أن يقعوا فيما وقعت فيه اليهود والنصارى، وعباد اللات والعزى من الشرك، ويدل على ذلك أن النبي ﷺ لعن اليهود والنصارى على اتخاذ قبور أنبيائهم مساجد، ومعلوم قطعاً أن هذا ليس لأجل النجاسة؛ لأن قبور الأنبياء من أطهر البقاع، فإن الله حرم على الأرض أن تأكل أجسادهم، فهم في قبورهم طريون وقد لعن النبي ﷺ متخذي المساجد عليها وموقدي السرج عليها، ومعلوم أن إيقاد السرج عليها إنما لعن فاعله لكونه وسيلة إلى تعظيمها وجعلها نصباً يوفض إليها المشركون كما هو الواقع، فهكذا اتخاذ المساجد عليها.

قال ابن القيم: وبالجملة فمن له معرفة بالشرك وأسبابه، وذرائعه، وفهم عن الرسول ﷺ مقاصده جزم جزماً لا يحتمل النقيض أن هذه المبالغة واللعن والنهي

---

(١) أي احذر القبر أو اجتنب.

(٢) ولو قدر أن في القبر نجاسة لكانت في داخل القبر في اللحد يكون القيح والصديد، أما ظاهر القبر فليس فيه شيء.

(٣) كما ذهب فقهاء الحنابلة وغيرهم وقرروا أن العلة لأجل النجاسة الحسية كما في «المنتهى» و«الإقناع»، كما قرروا أيضاً أن القبر والقبرين لا ينهى عن الصلاة عندهما؛ لأن النبي ﷺ نهى عن اتخاذ القبور مساجد وأقل ما يصدق عليه الجمع ثلاثة قبور، والصحيح أن النجاسة معنوية وهي نجاسة الشرك، كما أن القبر والقبرين لا يجوز الصلاة عندهما، وهل يجوز الصلاة إلى جدار المقبرة الراجح والأحوط عدم الجواز، أما إذا استقبل جداراً غير جدار المقبرة فلا بأس به. (شيخنا ابن حميد).

بصيغتيه، صيغة «**لا تفعلوا**» وصيغة «**إني أنهاكم**» ليس لأجل النجاسة بل هو لأجل نجاسة الشرك اللاحقة بمن عصاه، وارتكب ما عنه نهاه واتبع هواه ولم يخش ربه ومولاه، وقل نصيبه، أو عدم من تحقيق لا إله إلا الله، فإن هذا وأمثاله من النبي ﷺ صيانة لحمى التوحيد أن يلحقه الشرك ويغشاه، وتجريد له وغضب لربه أن يعدل به سواه، فأبى المشركون إلا معصية لأمره ارتكاباً لنهيه، وغرهم الشيطان بأن هذا التعظيم لقبور المشايخ والصالحين، وكلما كنتم أشد لها تعظيماً وأشد فيهم غلواً كنتم بقربهم أسعد، ومن أعدائهم أبعد.

ولعمر الله من هذا الباب بعينه دخل على عباد يغوث ويعوق ونسر، ودخل على عباد الأصنام منذ كانوا إلى يوم القيامة. فجمع المشركون بين الغلو فيهم والطعن في طريقتهم، وهدى الله أهل التوحيد لسلوك طريقهم وإنزالهم منازلهم التي أنزلهم الله إياها من العبودية، وسلب خصائص الإلهية.

قلت: وممن علل بخوف الفتنة والشرك الشافعي وأبو بكر الأثرم وأبو محمد المقدسي[١] وشيخ الإسلام ابن تيمية وغيرهم وهو الحق.

قوله: «**فإن الصحابة لم يكونوا ليبنوا حول قبره مسجداً**» أي: لما علموا من تشديده في ذلك وتغليظه، ولعن من فعله، فكيف يتخذون على قبره مسجداً؟ وإنما خشوا أن يعتاده بعض الجهال للصلاة عنده، ومن غير شعور من الصحابة بذلك، فلذلك دفنوه في بيته.

قوله: «**وكل موضع قصدت الصلاة فيه فقد اتخذ مسجداً**»: أي وإن لم يبن مسجداً.

قوله: «**بل كل موضع يُصلى فيه يسمى مسجداً**»: الظاهر أن الأول في الأمكنة المعدة للصلاة، وإن لم يبن مسجداً. وهذا في أي موضع صلي فيه، وإن لم يعد

---

(١) هو ابن قدامة صاحب «المغني».

لذلك، كالمواضع التي يصلي فيها المسافر ونحو ذلك، فعلى هذا إذا صلى عند القبور ولو مرة واحدة وإن لم يكن هناك مسجد فقد اتخذها مساجد.

قوله: «**كما قال ﷺ: جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً**»: أي فسمى الأرض مسجداً، وليست مسجداً مبنياً، لكن لما كانت يسجد فيها سميت مسجداً. فدل هذا الحديث أن من صلى عند القبور أو إليها فقد اتخذها مساجد وهذا الحديث طرف من حديث صحيح متفق عليه عن جابر.

قال البغوي في «شرح السنة»: أراد أن أهل الكتاب لم تُبح لهم الصلاة إلا في بِيَعهم وكنائسهم، وأباح الله لهذه الأمة الصلاة حيث كانوا تخفيفاً عليهم وتيسيراً، ثم خص من جميع المواضع الحمام والمقبرة والمكان النجس.

قوله: «**طهوراً**»: أراد به التيمم. وفي حديث جندب من الفوائد أيضاً: العبرة في مبالغته ﷺ في النهي عن بناء المساجد على القبور، كيف بيّن لهم ذلك أولاً، ثم قبل موته بخمس قال ما قال، ثم لما كان في النزع لم يكتف بما تقدم، بل لعن من فعل ذلك(١). فدلت هذه الأحاديث الصحيحة الصريحة على تحريم البناء على القبور مطلقاً، فلذلك اكتفى المصنف بإيرادها عن غيرها، كحديث جابر أن النبي ﷺ «**نهى أن يجصص القبر، وأن يُقعد عليه، وأن يُبنى عليه**». رواه مسلم وغيره وزاد أبو داود والحاكم: «**وأن يكتب عليه**».



(١) أي أنه ﷺ نهى وشدد في اتخاذ القبور مساجد في الأطوار الثلاثة في حياته ثم قبل موته بخمس ليال، ثم عند السياق ونزع الروح.

[وَلأَحْمَدَ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ] عَن ابنِ مَسعُودٍ مَرفُوعَاً: «إِنَّ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ مَنْ تُدْرِكُهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، وَالَّذِينَ يَتَّخِذُونَ القُبُورَ مَسَاجِدَ». رَوَاهُ أَبُو حَاتِمٍ فِي «صَحِيحِهِ».

قوله: «**إن من شرار الناس**»: هو بكسر الشين جمع شر.

قوله: «**من تدركهم الساعة وهم أحياء**[1]»: أي من تقوم عليهم الساعة بحيث ينفخ في الصور وهم أحياء، وهذا كحديثه الآخر الذي في مسلم «**لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق**».

فإن قلت: ما الجمع بين هذا وبين حديث ثوبان: «**لا تزال طائفة من أمتي على الحق**» وما في معناه.

قيل: حديث ثوبان مستغرق للأزمنة، عام فيها، وهذا مخصِّص وسيأتي زيادة لذلك عند الكلام على حديث ثوبان إن شاء الله.

قوله: «**والذين يتخذون القبور مساجد**»: الذين في محل نصب عطفاً على مَنْ الموصولة، أي: إن من شرار الناس الذين يتخذون القبور مساجد بالصلاة عندها وإليها، وبناء المساجد عليها، وهذا المعنى متواتر عن النبي ﷺ، معلوم بالاضطرار من دينه وكل ذلك شفقة على الأمة وخوفاً عليهم أن يقودهم ذلك إلى الشرك بها وبأصحابها، كما قاد إلى ذلك اليهود والنصارى فأبى عُبّاد القبور إلا الضرب بهذه الأحاديث على الجدر ونبذها وراء الظهر، أو الدفع في صدورها وأعجازها بحمل ذلك على غير قبور الأنبياء والصالحين. أما قبورهم فتجوز الصلاة إليها وعندها، وبناء المساجد والقباب عليها رجاء أن تصل عليهم العواطف الروحانية، ولا ريب أن هذا مراغمة ومحاداة لله ورسوله، وهذا هو قول اليهود: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾

---

(١) لخلوهم من الخير وانتشار الشرك والكفر فيهم.

(البقرة: ٩٣) فإن النبي ﷺ إنما لعن من اتخذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد كما هو نص حديث عائشة -رضي الله عنها- وغيره، وقبور غيرهم إنما أخذ النهي عن البناء عليها من هذه الأحاديث ونحوها بقياس الأولى، أو من عموم أحاديث أخر، فمن أعظم المراغمة والمناصبة والمحاداة لله ورسوله أن تحمل على غير ما وردت فيه، ويباح ما وردت بالنهي عنه، ولعن من فعله، ولكن هذا شأن عباد القبور ﴿أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ (القصص: ٥٠) وقد أجمع العلماء على النهي عن البناء على القبور وتحريمه ووجوب هدمه لهذه الأحاديث الصحيحة الصريحة التي لا مطعن فيها بوجه من الوجوه، ولا فرق في ذلك بين البناء في مقبرة مسبّلة[١]، أو مملوكة[٢]، إلا أنه في المملوكة أشد[٣] ولا عبرة بمن شذّ من المتأخرين فأباح ذلك، إما مطلقاً، وإما في المملوكة. قال الإمام أبو محمد بن قدامة: ولا يجوز اتخاذ المساجد على القبور لأن النبي ﷺ قال: «**لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يحذر مما صنعوا**»، ولأن تخصيص القبور بالصلاة عندها يشبه تعظيم الأصنام بالسجود لها والتقرب إليها. وقد روينا أن ابتداء عبادة الأصنام تعظيم الأموات باتخاذ صورهم والتمسح بها والصلاة عندها.

قال شيخ الإسلام: أما بناء المساجد على القبور فقد صرح عامة علماء الطوائف بالنهي عنه متابعة للأحاديث الصحيحة، وصرح أصحابنا وغيرهم من أصحاب مالك والشافعي بتحريمه قال ولا ريب في القطع بتحريمه، ثم ذكر الأحاديث في ذلك... إلى أن قال: فهذه المساجد المبنية على قبور الأنبياء

---

(١) للناس للدفن فيه.

(٢) أي الدفن في أرض مملوكة.

(٣) لأنه بني على قبر في أرض مغتصبة.

والصالحين، أو الملوك وغيرهم، تتعين إزالتها بهدم أو بغيره هذا مما لا أعلم فيه خلافاً بين العلماء المعروفين. وقال ابن القيم: يجب هدم القباب التي على القبور لأنها أسست على معصية الرسول ﷺ. وقال أبو حفص: تحرم الحجرة بل تهدم فإذا كان هذا كلامه في الحجرة فكيف بالقبة. وقال الشافعي: أكره[١] أن يعظم مخلوق، حتى يجعل قبره مسجداً مخافة الفتنة عليه، وعلى من بعده من الناس. وقال أيضاً: تسطح[٢] القبور ولا تبنى ولا ترفع، وتكون على وجه الأرض، وقد أفتى جماعة من الشافعية بهدم ما في القرافة[٣] من الأبنية، منهم ابن الجميزي والظهير الترميني وغيرهما. وقال القاضي بن كُجّ: ولا يجوز أن تجصص القبور، ولا أن يبنى عليها قباب ولا غير قباب، والوصية بها باطلة، وقال الأذرعي: وأما بطلان الوصية ببناء القباب وغيرها من الأبنية العظيمة وإنفاق الأموال الكثيرة فلا ريب في تحريمه، قلت: وجزم النووي في شرح «المهذب» بتحريم البناء مطلقاً، وذكر في «شرح مسلم» نحوه أيضاً، وقال القرطبي في حديث جابر: «**نـهى أن يجصص القبر أو يبنى عليه**»، وبظاهر هذا الحديث قال مالك: وكره البناء والجص على القبور، وقد أجازه غيره. وهذا الحديث حجة عليه، ووجه النهي عن البناء والتجصيص في القبور أن ذلك مباهاة، واستعمال زينة الدنيا في أول منازل الآخرة، وتشبّه بمن كان يعبد القبور ويعظمها، وباعتبار هذه المعاني وبظاهر هذا النص، ينبغي أن يقال: هو حرام كما قال به بعض أهل العلم. وقال ابن رشد: كره مالك البناء على القبر،

---

(١) المراد بالكراهة عند الشافعي التحريم كما هو معروف في الكتاب والسنة أن الكراهة إذا أطلقت فالمراد بها التحريم.

(٢) اختلف العلماء في القبور هل تسطّح أو تسنّم كما اختلف في قبر النبي ﷺ هل كان مسطحاً أو مسنّماً وورد في البخاري في حديث سفيان أنه مسنّم وهو الأرجح والأمر في ذلك سهل والأرجح أن يجعل القبر مسنّماً ليزل عنه الماء بخلاف المسطح فإنه يستقر عليه الماء

(٣) القرافة مقبرة في مصر.

وجعل البلاطة المكتوبة، وهو من بدع أهل الطَّوْل[1]، أحدثوه إرادة الفخر والمباهاة والسمعة، وهو مما لا اختلاف فيه، وقال الزيلعي في «شرح الكنز»: ويكره أن يبنى على القبر. وفي «الخلاصة»: ولا يُجصَّص القبر ولا يُطيَّن، ولا يُرفع عليه بناء. وذكر أيضاً قاضي خان أنه لا يُجصَّص القبر، ولا يُبنى عليه، لما روي عن النبي ﷺ أنه نهى عن التجصيص وعن البناء على القبر، والمراد بالكراهة عند الحنفية كراهة التحريم التي هي في مقابلة ترك الواجب. وقد ذكر ابن نجيم في «شرح الكنز». ومثل هذا كثير في كلام العلماء أتباع الأئمة الأربعة وغيرهم، والمقصود أن كلام العلماء موافق لما دلت عليه السنة الصحيحة في النهي عن البناء على القبور.

واعلم أنه قد وقع بسبب البناء على القبور من المفاسد التي لا يحيط بها على التفصيل إلا الله، ما يغضب من أجله كل من في قلبه رائحة إيمان، كما نبه عليه ابن القيم وغيره.

فمنها: اعتيادها للصلاة عندها، وقد نهى النبي ﷺ عن ذلك.

ومنها: تحري الدعاء عندها. ويقولون: من دعا الله عند قبر فلان استجاب له، وقبر فلان الترياق المجرب، وهذا بدعة منكرة.

ومنها: ظنهم أن لها خصوصيات بأنفسها في دفع البلاء وجلب النعماء. ويقولون: إن البلاء يُدفع عن أهل البلدان بقبور من فيها من الصالحين، ولا ريب أن هذا مخالف للكتاب والسنة والإجماع. فالبيت المقدس كان عنده من قبور الأنبياء الصالحين ما شاء الله، فلما عصوا الرسول وخالفوا ما أمرهم الله به، سلَّط الله عليهم من انتقم منهم. وكذلك أهل المدينة لما تغيروا بعض التغير، جرى عليهم عام الحرَّة من النهب والقتل وغير ذلك من المصائب ما لم يجر عليهم قبل ذلك. وهذا أكثر من أن يحصر.

---

(١) أهل الغنى والأموال.

ومنها: الدخول في لعنة رسول الله ﷺ، باتخاذ المساجد عليها وإيقاد السرج عليها.

ومنها: أن ذلك يتضمن عمارة المشاهد، وخراب المساجد، كما هو الواقع، ودين الله بضد ذلك.

ومنها: اجتماعهم لزيارتها واختلاط النساء بالرجال، وما يقع في ضمن ذلك من الفواحش وترك الصلوات، ويزعمون أن صاحب التربة تحملها عنهم، بل اشتهر عنهم أن البغايا يسقطن أجرتهن على البغاء في أيام زيارة المشايخ، كالبدوي وغيره تقرباً إلى الله بذلك، فهل بعد هذا في الكفر غاية؟

ومنها: كسوتها بالثياب النفيسة المنسوجة بالحرير والذهب والفضة ونحو ذلك.

ومنها: جعل الخزائن والأموال ووقف الوقوف لما يحتاج إليه من ترميمها ونحو ذلك.

ومنها: إهداء الأموال ونذر النذور لسدنتها العاكفين عليها الذين هم أصل كل بلية كفر، فإنهم الذين يكذبون على الجهال والطغام بأن فلاناً دعا صاحب التربة فأجابه، واستغاثه فأغاثه، ومرادهم بذلك تكثير النذر والهدايا لهم.

ومنها: جعل السدنة لها كسدنة عُبَّاد الأصنام.

ومنها: الإقسام على الله في الدعاء بالمدفون فيها.

ومنها: أن كثيراً من الزوَّار إذا رأى البناء الذي على قبر صاحب التربة سجد له. ولا ريب أن هذا كفر بنص الكتاب والسنة وإجماع الأمة، بل هذا هو عبادة الأوثان، لأن السجود للقبة عبادة لها، وهو من جنس عبادة النصارى للصور التي في كنائسهم على صور من يعبدونه بزعمهم الباطل، فإنهم عبدوها ومن هي صورته، وكذلك عُبَّاد القبور لما بنوا القباب على القبور آل بهم إلى أن عُبدت القباب ومن بُنيت عليه من دون الله عز وجل.

ومنها: النذر للمدفون فيها، وفرض نصيب من المال والولد، وهذا هو الذي

قال الله فيه: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ (الأنعام: ١٣٦)، بل هذا أبلغ فإن المشركين ما كانوا يبيعون أولادهم لأوثانهم.

ومنها: أن المدفون فيها أعظم في قلوب عُبَّاد القبور من الله وأخوف، ولهذا لو طلبت من أحدهم اليمين بالله تعالى أعطاك ما شئت من الأيمان كاذباً، أو صادقاً، وإذا طلبت بصاحب التربة لم يقدم إن كان كاذباً. ولا ريب أن عُباد الأوثان ما بلغ شركهم إلى هذا الحد، بل كانوا إذا أرادوا تغليظ اليمين، غلَّظوها بالله كما في قصة القسامة وغيرها.

ومنها: سؤال الميت قضاء الحاجات، وتفريج الكربات، والإخلاص له من دون الله في أكثر الحالات.

ومنها: التضرع عند مصارع الموت، والبكاء بالهيبة والخشوع لمن فيها أعظم مما يفعلونه مع الله في المساجد والصلوات.

ومنها: تفضيلها على خير البقاع وأحبها إلى الله وهي المساجد، فيعتقدون أن العبادة والعكوف فيها أفضل من العبادة والعكوف في المساجد، وهذا أمر ما بلغ إليه شرك الأولين، فإنهم يعظمون المسجد الحرام أعظم من بيوت الأصنام، يرون فضله عليها، وهؤلاء يرون العكوف في المشاهد أفضل من العكوف في المساجد.

ومنها: أن الذي شرعه الرسول ﷺ في زيارة القبور إنما هو تذكر الآخرة، كما قال: «**زوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة**»، والإحسان إلى المزور بالترحم عليه، والدعاء له والاستغفار، وسؤال العافية له، فيكون الزائر محسناً إلى نفسه وإلى الميت، فقلب عُبَّاد القبور الأمر، وعكسوا الدين، وجعلوا المقصود بالزيارة الشرك بالميت والدعاء به، وسؤاله حوائجهم ونصرهم على الأعداء ونحو ذلك. فصاروا مسيئين إلى نفوسهم وإلى الميت، ولو لم يكن إلا بحرمانه بركة ما شرعه الله من

الدعاء والترحم عليه والاستغفار له.

ومنها: إيذاء أصحابها بما يفعله عُبَّاد القبور بها، فإنه يؤذيهم ما يفعلونه عند قبورهم ويكرهونه غاية الكراهة، كما أن المسيح -عليه السلام- يكره ما يفعله النصارى، وكذلك غيره من الأنبياء والأولياء يؤذيهم ما يفعله أشباه النصارى عند قبورهم، ويوم القيامة يتبرؤون منهم، كما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾﴾ (الأحقاف: ٥-٦).

ومنها: محاداة الله ورسوله ومناقضة ما شرعه فيها.

ومنها: التعب العظيم مع الوزر الكبير، والإثم العظيم، وكل هذه المفاسد العظيمة وغيرها مما لم يذكر، إنما حدثت بسبب البناء على القبور، ولهذا تجد القبور التي ليس عليها قباب لا يأتيها أحد ولا يعتادها لشيء مما ذكر إلا ما شاء الله، وصاحب الشرع أعلم بما يؤول إليه هذا الأمر؛ فلذلك غلظ فيه وأبدأ وأعاد، ولعن من فعله، فالخير والهدى في طاعته، والشر والضلال في معصيته ومخالفته. والعجب ممن يشاهد هذه المفاسد العظيمة عند القبور، ثم يظن أن النبي ﷺ إنما نهى عن اتخاذ المساجد عليها لأجل النجاسة[1] كما يظنه بعض متأخري الفقهاء، ولو كان ذلك لأجل النجاسة لكان ذكر المجازر والحشوش بل ذكر التحرز من البول والغائط أولى. وإنما ذلك لأجل نجاسة الشرك التي وقعت من عُبّاد القبور لما خالفوا ذلك ونبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون.



(١) ولو كان لأجل النجاسة لكانت النجاسة في داخل القبر. أما ظاهره فليس فيه شيء، ولو كان لأجل النجاسة لكان الأنبياء يستثنون منهم لأن أجسامهم طاهرة أحياءً وأمواتاً، والله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء.

باب
ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين[١] يصيرها أوثاناً تعبد من دون الله

رَوَى مَالِكٌ في «المُوَطَّأ»: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «اللَّهُمَّ لاَ تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعبَدُ؛ اشتَدَّ غَضَبُ الله عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ».

الشَّرْحُ:

أراد المصنف -رحمه الله- بهذه الترجمة أموراً:

الأول: التحذير من الغلو في قبور الصالحين.

الثاني: أن الغلو فيها يؤول إلى عبادتها.

الثالث: أنها إذا عبدت سميت أوثاناً ولو كانت قبور الصالحين.

الرابع: التنبيه على العلة في المنع من البناء عليها واتخاذها مساجد. والأوثان هي المعبودات التي لا صورة لها كالقبور والأشجار والعمد والحيطان والأحجار ونحوها، وقد تقدم بيان ذلك، وقيل الوثن هو الصنم، والصنم هو الوثن، وهذا غير صحيح إلا مع التجريد، فأحدهما قد يعنى به الآخر، وأما مع الاقتران فيفسر كل واحد بمعناه[٢].

«اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد؛ اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» هذا الحديث رواه مالك في باب جامع الصلاة مرسلاً عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار أن رسول الله ﷺ قاله، ورواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» عن أبي خالد الأحمر، عن ابن عجلان، عن زيد بن أسلم به ولم يذكر عطاء، ورواه البزار

---

(١) وذلك لأن محبة الصالحين دين وقربة، فلا يتجاوز الحد لأن الغلو هو مجاوزة الحد يقال في القدر إذا زاد في الغليان قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾.

(٢) يفسر الصنم بما له صورة والوثن بما ليس له صورة.

عن عمر بن محمد، عن زيد، عن عطاء، عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً، وعمر بن محمد بن زيد بن عبدالله بن عمر بن الخطاب ثقة من أشراف أهل المدينة روى عنه مالك والثوري وسليمان بن بلال؛ فالحديث صحيح عند من يحتج بمراسيل الثقات، وعند من قال بالمسند لإسناد عمر بن محمد له بلفظ «الموطأ» سواء، وهو ممن تقبل زيادته، وله شاهد عند الإمام أحمد والعقيلي من طريق سفيان عن حمزة بن المغيرة، عن سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة رفعه: «**اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد، لعن الله قوماً اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**».

قوله: «**روى مالك في «الموطأ»**»: هو الإمام مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمر الأصبحي أبو عبدالله المدني الفقيه، إمام دار الهجرة، وأحد الأئمة الأربعة، وأحد المتقنين في الحديث، حتى قال البخاري: أصح الأسانيد كلها: مالك عن نافع، عن ابن عمر. مات سنة تسع وسبعين ومئة، وكان مولده سنة ثلاث وتسعين. وقال الواقدي: بلغ تسعين سنة.

قوله: «**اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد**»: قد استجاب الله دعاء رسوله ﷺ، فمنع الناس من الوصول إلى قبره لئلا يعبد استجابة لدعاء رسوله ﷺ كما قال ابن القيم:

فأجـاب رب العـالـمين دعـاءه ... وأحاطه بثلاثـة[1] من الجـدران[2]

---

(١) وقبله:

ودعـا بـأن الله لا يجعـل قبـره وثنـاً مـن الأوثـان

(٢) والمراد بأن الله استجاب دعاءه في الوصول إلى قبره وعبادته مباشرة فيكون وثناً يعبد، ولكنه عُبد وعُبد غيره من الأنبياء والصالحين بالدعاء والنذر وطلب الشفاعة وسؤالهم قضاء الحاجات وتفريج الكربات، وفيه الرد على من أنكر وقوع الشرك في هذه الأمة لأنه لو كان لا يقع لما دعا النبي ﷺ ربه أن لا يجعل قبره وثناً، ويدل على ذلك أيضاً الأحاديث كحديث: «**لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض الله الله**» [رواه مسلم]، وحديث: «**لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس عند ذي الخلصة**» [رواه مسلم في الصحيح]، وحديث: «**لا تذهب الليالي والأيام حتى تُعبد اللات والعزى**»، وأما حديث: «**إن الشيطان يئس أن يعبد في جزيرة** =

ودل الحديث على أن قبر الرسول ﷺ لو عبد لكان وثناً، فما ظنك بقبر غيره من القبور التي عبدت هي وأربابها من دون الله، وإذا أريد تغيير شيء من ذلك أنف عُبّادها، واشمأزت قلوبهم، واستكبرت نفوسهم، وقالوا: تنقَّص أهل الرُّتَب العالية، ورَمَوْهم بالعظائم، فماذا يقولون لو قيل لهم: إنها أوثان تعبد من دون الله؟ فالله المستعان على غربة الإسلام، وهذه هي الفتنة العظمى التي قال فيها عبدالله بن مسعود: كيف أنتم إذا لبستكم فتنة يهرم فيها الكبير، وينشأ فيها الصغير، تجري على الناس يتخذونها سنة، إذا غُيِّرت قيل غيِّرت السنة. ويؤخذ من الحديث المنع من تتبع آثار الأنبياء والصالحين كقبورهم ومجالسهم، ومواضع صلاتهم للصلاة، والدعاء عندها، فإن ذلك من البدع، أنكره السلف من الصحابة والتابعين وغيرهم، ولا نعلم أحداً أجازه أو فعله إلا ابن عمر على وجه غير معروف عند عُبّاد القبور؛ وهو إرادة التشبه برسول الله ﷺ في الصلاة فيما صلى فيه ونحو ذلك، ومع ذلك فلا نعلم أحداً وافقه عليه من الصحابة، بل خالفه أبوه وغيره؛ لئلا يفضي ذلك إلى اتخاذها أوثاناً كما وقع. قال ابن عبدالبرّ في «شرح الموطأ»: روى أشهب عن مالك أنه كره لذلك أن يدفن في المسجد قال: وإذا منع من ذلك فسائر آثاره أحرى بذلك. وقد كره مالك طلب موضع شجرة بيعة الرضوان مخالفة لليهود والنصارى. انتهى.

وقال ابن وضاح: سمعت عيسى بن يونس يقول: أمر عمر بن الخطاب بقطع الشجرة التي بويع تحتها النبي ﷺ فقطعها، لأن الناس كانوا يذهبون فيصلون تحتها، فخاف عليهم الفتنة. قال عيسى بن يونس: وهو عندنا من حديث ابن عون، عن نافع أن الناس كانوا يأتون الشجرة فقطعها عمر -رضي الله عنه-.

وقال المعرور بن سويد: صليت مع عمر بن الخطاب في طريق مكة صلاة

= **العرب»** فأجيب عنه بأجوبة ثلاثة؛ **أحسنها**: أن الشيطان يئس أن يعبد لما رأى ظهور الإسلام وانتشاره يئس أن يعبد وظن أنه لا يعبد وهو ليس معصوماً في يئسه، ولم يقل في الحديث إن الله أيأسه، **والثاني**: أنه يئس من إطباق الناس على عبادته حتى يعودوا إلى حالتهم الأولى، **والثالث**: أن ذلك خاص بالصحابة فهو يئس أن يعبده الصحابة.

الصبح، فقرأ فيها: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١﴾ (الفيل: ١)، و﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١﴾ (قريش: ١) ثم رأى الناس يذهبون مذاهب فقال: أين يذهب هؤلاء؟ فقيل: يا أمير المؤمنين مسجد صلى فيه رسول الله ﷺ فهم يصلون فيه، فقال: «**إنما أهلك من كان قبلكم بمثل هذا، كانوا يتتبعون آثار أنبيائهم، ويتخذونها كنائس وبيعاً، فمن أدركته الصلاة في هذه المساجد فليصل، ومن لا فليمض ولا يتعمدها**»، وفي «مغازي ابن إسحاق» من زيادات يونس بن بكير عن أبي خلدة: خالد بن دينار، حدثنا أبو العالية قال: لما فتحنا تستر وجدنا في بيت مال الهرمزان سريراً عليه رجل ميت عند رأسه مصحف، فأخذنا المصحف فحملناه إلى عمر، فدعا له كعباً فنسخه بالعربية، فأنا أول رجل قرأه من العرب، قرأته مثل ما أقرأ القرآن، فقلت لأبي العالية: ما كان فيه؟ قال: سيرتكم وأموركم ولحون كلامكم، وما هو كائن بعد. قلت: فما صنعتم بالرجل؟ قال: حفرنا له بالنهار ثلاثة عشر قبراً متفرقة، فلما كان بالليل دفناه وسوينا القبور كلها لنعميه على الناس لا ينبشونه، قلت: وما يرجون منه؟ قال: كانت السماء إذا حُبست عنهم برزوا بسريره فيمطرون. فقلت: من كان الرجل؟ قال: رجل يقال له: دانيال. فقلت: منذ كم وجدتموه مات؟ قال: منذ ثلاثمئة سنة. قلت: ما كان تغير منه شيء؟ قال: لا إلا شعيرات من قفاه، إن لحوم الأنبياء لا تبليها الأرض.

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى-: ففي هذه القصة ما فعله المهاجرون والأنصار من تعمية قبره لئلا يفتتن به، ولم يبرزوه للدعاء عنده والتبرك به، ولو ظفر به المتأخرون لجالدوا عليه بالسيوف ولعبدوه من دون الله[1]. قال شيخ الإسلام -رحمه الله-: وهو إنكار منهم لذلك، فمن قصد بقعة يرجو الخير بقصدها ولم يستحب الشارع قصدها فهو من المنكرات، وبعضه أشد من بعض سواء قصدها ليصلي عندها، أو ليدعو عندها أو ليقرأ عندها، أو ليذكر الله عندها،

(١) وما ذاك إلا لقلة علم المتأخرين وقلة بصيرتهم وفقههم في الدين.

أو ليسْكُن عندها بحيث يخص تلك البقعة بنوع من العبادة التي لم يشرع تخصيصها به لا نوعاً ولا عيناً؛ لأن ذلك قد يجوز بحكم الاتفاق لا لقصد الدعاء فيها كمن يدعو الله في طريقه، ويتفق أن يمر في طريقه بالقبور أو كمن يزورها ويسلم عليها، ويسأل الله العافية له وللموتى كما جاءت به السنة، فإن ذلك ونحوه لا بأس به، وأما تحري الدعاء عنده بحيث يستشعر أن الدعاء هناك أجوب منه في غيره فهذا هو المنهي عنه، والفرق بين النوعين ظاهر، فإن الرجل لو كان يدعو الله واجتاز في ممره بصنم أو صليب أو كنيسة أو دخل إليها ليبيت فيها مبيتاً جائزاً ودعا الله في الليل، أو أتى بعض أصدقائه ودعا الله في بيته لم يكن بهذا بأس، ولو تحرى الدعاء عند هذه المواضع لكان من العظائم بل قد يكون كفراً.

قوله: «اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»: هذه الجملة بعد الأولى تنبيه على سبب لحوق اللعن بهم، وهو توسلهم بذلك إلى أن تصير أوثاناً تعبد. ففيه إشارة إلى ما ترجم له المصنف، وفيه تحريم البناء على القبور، وتحريم الصلاة عندها، وقد روى أصحاب مالك عنه أنه كره أن يقول القائل: زرت قبر النبي ﷺ، وعلّل وجه الكراهة بقوله: «**اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد؛ اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**» فكره إضافة هذا اللفظ إلى القبر لئلا يقع التشبه بفعل أولئك سداً للذريعة وحسماً للباب. ذكره الطبري[1].

وفيه أنه ﷺ لم يستعذ إلا مما يخاف وقوعه. ذكره المصنف.



(١) مبالغة في الحذر من التشبه وسداً للذريعة، وأما الجمهور فلا يكرهون أن تقول: زرت قبر النبي ﷺ لأن زيارة القبور جائزة لقوله ﷺ: «**زوروا القبور فإنـها تذكركم الآخرة**»، وإنما المحذور شدّ الرحل إلى القبور.

[وَلابنِ جَرِيرٍ بِسَنَدِهِ عَن سُفيَانَ]، عَن مَنصُورٍ، عَن مُجَاهِدٍ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩﴾ (النجم: ١٩)؛ قَالَ: «كَانَ يَلُتُّ لَـهُم السُّويقَ، فَمَاتَ فَعَكَفُوا عَلَى قَبرِهِ». وَكَذَا قَالَ أَبُو الجَوزَاءِ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ: «كَانَ يَلُتُّ السُّويقَ للحَاجِّ».

قوله: «ولابن جرير»: هو الإمام الحافظ محمد بن جرير بن يزيد الطبري صاحب «التفسير» و«التاريخ» وغيرهما. قال ابن خزيمة: لا أعلم على الأرض أعلم من محمد بن جرير، وكان من الأئمة المجتهدين لا يقلد أحداً، وله أصحاب يتفقهون على مذهبه. ولد سنة أربع وعشرين ومئتين، ومات ليومين بقيا من شوال سنة عشر وثلاثمئة.

قوله: «**عن سفيان**»: هو أحد السفيانين؛ إما ابن عيينة، وإما الثوري. فإن كان ابن عيينة فقد تقدمت ترجمته، وإن كان الثوري وهو الأظهر فهو سفيان بن سعيد بن مسروق أبو عبدالله الكوفي، ثقة حافظ، إمام حجة عابد، وكان مجتهداً، له أتباع وأصحاب يتفقهون على مذهبه. مات سنة إحدى وستين ومئة وله أربع وستون سنة[(١)].

قوله: «**عن منصور**»: هو ابن المعتمر بن عبدالله السلمي أبو عتاب -بمثناة ثقيلة ثم موحدة-، الكوفي، ثقة ثبت فقيه. مات سنة اثنتين وثلاثين ومئة.

قوله: «**عن مجاهد**»: هو ابن جبر -بالجيم والموحدة- أبو الحجاج المخزومي، مولاهم المكي، ثقة إمام في التفسير والعلم، أخذ التفسير عن ابن عباس وغيره. مات سنة أربع ومئة. قاله يحيى القطان. وقال ابن حبان: مات سنة اثنتين أو ثلاث

---

(١) وهو معاصر لسفيان بن عيينة إلا أنه أكبر منه وقد أخذ ابن عيينة عن الثوري، واشتركا جميعاً في الأخذ عن بعض الشيوخ وانفرد الثوري بالسابقين عن ابن عيينة، والثوري أوثق وأحفظ من ابن عيينة.

ومئة وهو ساجد، وكان مولده سنة إحدى وعشرين في خلافة عمر -رضي الله عنه-.

قوله: «كان يلت لهم السويق فمات، فعكفوا على قبره». لَتُّ السويق هو خلطه بسمن ونحوه. وقد قيل: إن اسم الرجل صرمة بن غنم، وعن ابن عباس: كان يلتُّ السويق على الحجر فلا يشرب منه أحد إلا سمن فعبدوه، رواه ابن أبي حاتم. وعن مجاهد: كان اللات رجلاً في الجاهلية، وكان له غنم فكان يسلُو من رِسْلها، ويأخذ من زبيب الطائف والأقط، فيجعل منه حيساً ويطعم من يمر من الناس، فلما مات عبدوه وقالوا: هو اللات. وكان يقرأ اللات مشددة، رواه سعيد بن منصور والفاكهي.

قوله: «وكذا قال أبو الجوزاء» إلى آخره. هو أوس بن عبدالله الربعي، بفتح الراء والباء، ثقة مشهور، مات سنة ثلاث وثمانين. وهذا الأثر ذكره المصنف ولم يعزه، وقد رواه البخاري، ولا تخالف بين هذا التفسير والقراءة، وبين قراءة من قرأ بالتخفيف. وقال: إنه كان حجراً فعبدوه، واشتقوا له من اسم الله الإله، كما تقدم تقريره في باب: من تبرك بشجرة، وأيضاً فيجاب على الأول بأن أصله التشديد، وخُفِّف لكثرة الاستعمال، وأما كونهم اشتقوا هذا الاسم من اسم الله الإله، فلا ينافي ذلك أيضاً، فقد رأيت أن سبب عبادة اللات هو الغلو في قبره حتى صار وثناً يُعبد، كما كان ذلك هو السبب في عبادة الصالحين: ود وسواع، ويغوث ويعوق ونسرا، وغيرهم، وكما كان ذلك هو السبب في عبادة الصالحين من الأموات وغيرهم اليوم، فإنهم غلوا فيهم، وبنوا على قبورهم القباب والمشاهد، وجعلوها ملاذاً لقضاء المآرب.

وبالجملة: فالغلو أصل الشرك في الأولين والآخرين إلى يوم القيامة. وقد أمرنا الله تعالى بمحبة أوليائه وإنزالهم منازلهم من العبودية، وسلب خصائص

الإلهية عنهم، وهذا غاية تعظيمهم وطاعتهم، ونهانا عن الغلو فيهم، فلا نرفعهم فوق منزلتهم ولا نحطهم منها لما يعلمه تعالى في ذلك من الفساد العظيم، فما وقع الشرك إلا بسبب الغلو فيهم فإن الشرك بهم غلو فيهم، وأنزلوهم منازل الإلهية وعصوا أمرهم وتنقصوهم في صورة التعظيم لهم، فتجد أكثر هؤلاء الغالين فيهم العاكفين على قبورهم معرضين عن طريقة من فيها وهديه وسنته، عائبين لها مشتغلين بقبورهم عما أمروا به ودعوا إليه. وتعظيم الأنبياء والصالحين ومحبتهم إنما هي باتباع ما دعوا إليه من العلم النافع والعمل الصالح، واقتفاء آثارهم، وسلوك طريقتهم دون عبادتهم وعبادة قبورهم، والعكوف عليها كالذين يعكفون على الأصنام واتخاذها أعياداً ومجامع للزيارات والفواحش وترك الصلوات، فإن من اقتفى آثارهم كان متسبباً في تكثير أجورهم باتباعه لهم، ودعوته الناس إلى اتباعهم؛ فإذا أعرض عما دعوا إليه واشتغل بضده حرم نفسه وحرمهم ذلك الأجر. فأي تعظيم لهم واحترام في هذا.



وَعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ قَالَ: «لَعَنَ رَسُولُ الله ﷺ زَائِرَاتِ القُبُورِ، وَالْمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا المَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ». [رَوَاهُ أَهلُ السُّنَنِ].

قوله: «**لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور**[1]»: أي من النساء وهذا يدل على تحريم زيارة القبور عليهن كما هو مذهب أحمد وطائفة.

وقيل في تعليل ذلك أنه يخرجها إلى الجزع والندب والنياحة والافتتان بها وبصورتها وتأذي الميت ببكائها، كما في حديث آخر: «**فإنكن تفتنّ الحي وتؤذنّ الميت**» وإذا كان زيارة النساء مظنة وسبباً للأمور المحرمة في حقهن وحق الرجال، وتقدير ذلك غير مضبوط لأنه لا يمكن حد المقدار الذي لا يفضي إلى ذلك ولا التمييز بين نوع ونوع.

ومن أصول الشريعة أن الحكمة إذا كانت خفية أو منتشرة عُلِّق الحكم بمظنتها، فتحرم سداً للذريعة، كما حرم النظر إلى الزينة الباطنة لما في ذلك من الفتنة، وكما حرمت الخلوة بالأجنبية، وليس في زيارتها من المصلحة ما يعارض هذه المفسدة، لأنه ليس في زيارتها إلا دعواها[2] للميت أو اعتبارها به، وذلك ممكن في بيتها.

وقد روى الإمام أحمد وابن ماجه والحاكم عن حسان بن ثابت مرفوعاً: «**لعن الله زوَّرات القبور**»، وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ «**لعن زورات القبور**». رواه

---

(١) الحديث دليل على تحريم زيارة النساء للقبور؛ لأن اللعن لا يكون إلا على محرم لما فيه من فتنتهن والافتتان بهن، **أما الأول**: فلأن النساء ضعيفات التحمل والصبر فزيارتهن تفضي إلى النياحة والجزع، **وأما الثاني**: فلما فيه من الافتتان للرجل بصورتها وبصوتها، كما نهيت النساء عن اتباع الجنائز كما في حديث أم عطية: «**نهينا عن اتباع الجنائز**»، وأما حديث عائشة: «ما أقول في زيارة القبر» فمحمول على أن المراد ما يقول الزائر من الرجال، أو أن ذلك قبل نسخ جواز الزيارة للنساء، أو أن ذلك إذا مرَّت بالمقبرة، وأما حديث «**زوروا القبور**» فهو خطاب للرجال وعلى القول بدخول النساء فيه فإنه مخصص بالأحاديث المانعة من زيارة النساء، وذهب الجمهور إلى جواز زيارة النساء إذا لم يكثر ذلك، والصواب المنع مطلقاً.

(٢) لعلها إلا دعاؤها.

أحمد وابن ماجه والترمذي وصححه، وضعفه عبدالحق، وحسنه ابن القطان، ولا يعارض هذا حديث: «**كنت نـهيتكم عن زيارة القبور فزوروها**» رواه مسلم وغيره؛ لأنه هذا إن سلم دخول النساء فيه، فهو عام والأول خاص، والخاص مقدم عليه، وأيضاً ففي دخول النساء في خطاب الذكور خلاف عند الأصوليين[١].

قوله: «**والمتخذين عليها المساجد**»: تقدم في الباب قبله شرحه وتعليله[٢].

قوله: «**والسرج**»: هذا دليل على تحريم اتخاذ السرج على القبور[٣]. قال أبو محمد المقدسي[٤]: لو أبيح اتخاذ السرج عليها لم يلعن من فعله؛ لأن فيه تضييعاً للمال في غير فائدة، وإفراطاً في تعظيم القبور، أشبه تعظيم الأصنام[٥].

وقال ابن القيم: اتخاذها مساجد وإيقاد السرج عليها من الكبائر ووجه إيراد المصنف هذا الحديث في هذا الباب دون الذي قبله، هو أنه لعن المتخذين عليها المساجد والسرج، وقرن بينهما، فهما قرينان في اللعنة، فدل ذلك على أنه ليس المنع من اتخاذ المساجد عليها لأجل النجاسة، بل لأجل نجاسة الشرك، ولذلك قرن بينه وبين الإسراج عليها، وليس النهي عن الإسراج لأجل النجاسة، فكذلك البناء.

قوله: «**رواه أهل السنن**»: يعني هنا أبا داود، وابن ماجه، والترمذي فقط، ولم يروه النسائي.



---

(١) الأصل دخولهن إلا بمخصص يخرجهن.

(٢) وأنه سبب في الشرك.

(٣) لما فيه من تعظيم القبور.

(٤) كنيته أبو محمد ولقبه موفق الدين واسمه عبدالله بن قدامة وهو صاحب «المغني» و«الكافي» و«المقنع» و«العمدة».

(٥) لأن الإسراج سبب في الإكثار من المجيء ليلاً وسبب في الاستراحة في المقام عندها وذلك من البدع والوسائل إلى الشرك.

باب
ما جاء في حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد[١]
وسده كل طريق يوصل إلى الشرك

«وَقَوْلُ الله تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾[٢]» الآية (التوبة: ١٢٨).

الشَّرْحُ:

الجناب: هو الجانب، واعلم أن في الأبواب المتقدمة شيئاً من حمايته ﷺ لجناب التوحيد، ولكن أراد المصنف هنا بيان حمايته الخاصة، ولقد بالغ ﷺ، وحذّر وأنذر، وأبدأ وأعادَ، وخصّ وعمّ في حماية الحنيفية السمحة التي بعثه الله بها، فهي حنيفية في التوحيد، سمحة في العمل، كما قال بعض العلماء هي أشدُّ الشرائع في التوحيد والإبعاد عن الشرك، وأسمح الشرائع في العمل[٣].

قال: «وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾» الآية.

قوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ﴾: هذا خطاب من الله تعالى للعرب في قول الجمهور، وهذا على جهة تعديده نعمه عليهم، إذ جاءهم بلسانهم، وبما يفهمونه من الأغراض والفصاحة، وشرفوا به أبد الآبدين.

قوله: ﴿رَسُولٌ﴾: أي رسول عظيم أرسله الله إليكم من أنفسكم، أي ترجعون معه إلى نفس واحدة؛ لأنه وأنتم من أب قريب، كما قال تعالى عن إبراهيم

---

(١) من الشرك الأكبر والأصغر.

(٢) قرئ من أَنْفَسِكم -بفتح الفاء من النفاسة- لكنها غير مشهورة، والأولى هي المشهورة.

(٣) والحنيف هو المائل عن الشرك إلى التوحيد.

-عليه السلام- أنه قال: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ (البقرة: ١٢٩)، وذلك أقرب وأسرع إلى فهم الحجة، وأبعد من المحكّ[١] واللجاجة، وهذا يقتضي مدحاً لنسب النبي ﷺ، وأنه من صميم العرب. قال جعفر بن محمد في قوله: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ قال: لم يصبه شيء من ولادة الجاهلية.

قوله: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾: أي شديد عليه جداً ما عنتم[٢]: أي عنتكم وهو لحاق الأذى الذي يضيق به الصدر، ولا يهتدي للمخرج، وهي هنا لفظ عام، أي ما شق عليكم من كفر وضلال وقتل وأسر وامتحان بسبب الحق و (ما) مصدرية وهي مبتدأ، و (عزيز) خبر مقدم، ويجوز أن يكون (ما عنتم) فاعلاً بـ (عزيز) و (عزيز) صفة للرسول، وهذا أصوب.

قوله: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾: أي بليغ الحرص عليكم، أي على نفعكم وإيمانكم وهداكم، والحرص: شدة طلب الشيء على الاجتهاد فيه.

وروى الطبراني بإسناد جيد عن أبي ذر -رضي الله عنه- قال: تركنا رسول الله ﷺ وما طائر يقلِّب جناحيه في الهواء إلا وهو يذكر لنا منه علماً. قال: وقال: «**وما بقي شيء يقرِّب من الجنة ويباعد من النار إلا وقد بينته لكم**».

وروى مسلم في «صحيحه» عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**مثلي كمثل رجل استوقد ناراً قد أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدواب التي في النار يقعن فيها، وجعل يحجزهن ويغلبنه فيتقحمن فيها قال فكذلك مثلي ومثلكم، أنا آخذ بحجزكم عن النار هلم عن النار هلم عن النار فتغلبونني وتقحّمون فيها**».

---

(١) المحاكّة والمجادلة.

(٢) الشرك أعظم ما يشق ويعنت.

قوله: ﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾. أي: لا بغيرهم، كما يفيده تقديم الجار.

﴿رَءُوفٞ﴾. أي: بليغ الشفقة. قال أبو عبيدة: الرأفة أرق الرحمة ﴿رَّحِيمٞ﴾. أي: بليغ الرحمة، كما هو اللائق بشريف منصبه، وعظيم خلقه، فتأمل هذه الآية وما فيها من أوصافه الكريمة ومحاسنه الجمة التي تقتضي أن ينصح لأمته، ويبلغ البلاغ المبين، ويسد الطرق الموصلة إلى الشرك، ويحمي جناب التوحيد غاية الحماية، ويبالغ أشد المبالغة في ذلك لئلا تقع الأمة في الشرك، وأعظم ذلك الفتنة بالقبور، فإن الغلو فيها هو الذي جرّ الناس في قديم الزمان وحديثه إلى الشرك، لا جرم فعل النبي ﷺ ذلك، وحمى جناب التوحيد حتى في قبره الذي هو أشرف القبور، حتى نهى عن جعله عيداً، ودعا الله أن لا يجعله وثناً يُعبد.

وفي الآية مسائل:

منها: التنبيه على هذه النعمة العظيمة، وهي إرسال الرسول ﷺ فينا، كما قال تعالى: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ١٦٤﴾ (آل عمران: ١٦٤).

ومنها: كونه منا نعمة أخرى عظيمة.

ومنها: كونه بهذه الصفات نعم متعددة.

ومنها: مدح نسبه ﷺ، فهو أشرف العرب بيتاً ونسباً.

ومنها: رأفته بالمؤمنين.

ومنها: غلظته على الكفار والمنافقين.



عَنْ أَبِي هُرَيرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لاَ تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، وَلاَ تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّ صَلاَتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ». [رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ، رُوَاتُهُ ثِقَاتٌ].

قوله: «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً». قال شيخ الإسلام -نوَّر الله ضريحه- أي: لا تُعطِّلوها من الصلاة فيها والدعاء والقراءة فتكون بمنزلة القبور، فأمر بتحري العبادة في البيوت، ونهى عن تحرِّيها عند القبور، عكس ما يفعله المشركون من النصارى، ومن تشبّه بهم.

وفي «الصحيحين» عن ابن عمر مرفوعاً: **«اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ولا تتخذوها قبوراً»**.

وفي «صحيح مسلم» عن ابن عمر مرفوعاً: **«لا تجعلوا بيوتكم مقابر، فإن الشيطان يفر من البيت الذي يسمع سورة البقرة تقرأ فيه»**، وفيه أن الصلاة في المقبرة لا تجوز، وأن التطوع في البيت أفضل منه في المسجد.

وفي حديث أبي هريرة الذي ذكرنا كراهة القراءة في المقابر، وكل هذا إبعاد لأمته عن الشرك.

قوله: «ولا تجعلوا قبري عيداً». قال شيخ الإسلام: العيد اسم لما يعود من الاجتماع العام على وجه معتاد، عائداً إما بعود السنة أو بعود الأسبوع أو الشهر ونحو ذلك، وتقدم ذلك.

وقال ابن القيم -رحمه الله تعالى-: العيد ما يعتاد مجيئه وقصده من زمان ومكان مأخوذ من المعاودة والاعتياد، فإن كان اسماً للمكان فهو المكان الذي يقصد فيه الاجتماع وانتيابه للعبادة أو لغيرها، كما أن المسجد الحرام ومِنَى ومزدلفة وعرفة والمشاعر جعلها الله عيداً للحنفاء ومثابة، كما جعل أيام العيد فيها عيداً،

وكان للمشركين أعياد زمانية ومكانية، فلما جاء الله بالإسلام أبطلها وعوَّض الحنفاء منها عيد الفطر وعيد النحر وأيام مِنَى، كما عوَّضهم عن أعياد المشركين المكانية بالكعبة ومِنَى ومزدلفة وعرفة والمشاعر.

وقال غيره: هذا أمر بملازمة قبره والعكوف عنده واعتياد قصده وانتيابه، ونهى أن يُجعل كالعيد الذي إنما يكون في العام مرة أو مرتين، فكأنه قال: لا تجعلوه كالعيد الذي يكون من الحول إلى الحول، واقصدوه كل ساعة وكل وقت.

قال ابن القيم -رحمه الله-: وهذا مراغمة ومحادة ومناقضة لما قصده الرسول ﷺ وقلب للحقائق، ونسبة الرسول ﷺ إلى التلبيس والتدليس بعد التناقض، فقاتل الله أهل الباطل أنَّى يؤفكون. ولا ريب أن من أمر الناس باعتياد أمر وملازمته وكثرة انتيابه بقوله: لا تجعلوا عيداً، فهو إلى التلبيس وضد البيان أقرب منه إلى الدلالة والبيان، وهكذا غُيِّرَتْ أديان الرسل، ولولا أن الله أقام لدينه الأنصار والأعوان الذابين عنه، لجرى عليه ما جرى على الأديان قبله. ولو أراد رسول الله ﷺ ما قاله هؤلاء الضُلاَّل، لم ينه عن اتخاذ قبور الأنبياء مساجد، ويلعن فاعل ذلك، فإنه إذا لعن من اتخذها مساجد يُعبد الله فيها، فكيف يأمر بملازمتها والعكوف عندها، وأن يُعتاد قصدها وانتيابها، ولا تجعل كالعيد الذي يجيء من الحول إلى الحول، وكيف يسأل ربه أن لا يجعل قبره وثناً يُعبد، وكيف يقول أعلم الخلق بذلك: ولولا ذلك لأبرز قبره، ولكن خشي أن يتخذ مسجداً، وكيف يقول: «لا تجعلوا قبري عيداً، وصلوا عليَّ حيثما كنتم»؟! وكيف لم يفهم أصحابه وأهل بيته من ذلك ما فهمه هؤلاء الضُلاَّل الذين جمعوا بين الشرك والتحريف؟! وهذا أفضل التابعين من أهل بيته علي بن الحسين -رضي الله عنهما- نهى ذلك الرجل أن يتحرى الدعاء عند قبره ﷺ، واستدل بالحديث وهو الذي رواه وسمعه من أبيه الحسين، عن جده علي -رضي الله عنهما- وهو أعلم بمعناه من هؤلاء

الضُلاَّل، وكذلك ابن عمه الحسن بن الحسين شيخ أهل بيته، كره أن يقصد الرجل القبر إذا لم يكن يريد المسجد، ورأى أن ذلك من اتخاذه عيداً. انتهى.

قلت: وكيف يريد النبي ﷺ هذا المعنى وعبر عنه بهذا الكلام، مع أنه أفصح الخلق وأنصحهم، وكان يمكنه أن يقول: أكثروا زيارة قبري، أو اجعلوه عيداً تعتادون المجيء إليه والعبادة عنده؟! فظهر بطلان هذا القول.

إذا تبيَّن ذلك، فمعنى الحديث نهيه عن زيارة قبره على وجه مخصوص، واجتماع معهود كالعيد الذي يكون على وجه مخصوص في زمان مخصوص، وذلك يدل على المنع في جميع القبور وغيرها لأن قبر رسول الله ﷺ أفضل قبر على وجه الأرض، وقد نهى عن اتخاذه عيداً فقبر غيره أولى بالنهي كائناً من كان.

قال المصنف: وفيه النهي عن الإكثار من الزيارة[١].

قوله: «**وصلوا عليَّ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم**»: قال شيخ الإسلام: يشير بذلك إلى أن ما ينالني منكم من الصلاة والسلام يحصل مع قربكم من قبري وبعدكم، فلا حاجة بكم إلى اتخاذه عيداً. انتهى.

وقد روى أبو داود عن أبي هريرة مرفوعاً: «**ما من أحد يسلم عليّ إلا رد الله عليّ روحي حتى أرد عليه السلام**»، وعن أوس بن أوس مرفوعاً: «**أكثروا من الصلاة عليّ يوم الجمعة وليلة الجمعة فإن صلاتكم معروضة علي**» قالوا يا رسول الله كيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت؟[٢] قال: «**إن الله حرم على الأرض أن تأكل لحوم الأنبياء**» رواه أبو داود، والنسائي، وابن ماجه، فهذه الأحاديث وغيرها تدل على أن صلاتنا عليه تبلغه سواء كنا عند قبره أو لم نكن، فلا مزية لمن سلّم عليه أو صلّى عند قبره، كما قال الحسن بن الحسن: ما أنتم ومن بالأندلس إلا

---

(١) لأن الإكثار منها يفضي إلى الغلو.

(٢) بفتح الراء.

سواء، وأما حديث: «**من صلّى عليّ عند قبري سمعته، ومن صلّى عليّ غائباً بُلِّغته**» فرواه البيهقي وغيره من حديث العلاء بن عمرو الحنفي: حدثنا أبو عبدالرحمن، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ فذكره. قال البيهقي: أبو عبدالرحمن هذا، هو محمد بن مروان السدي فيما أرى، وفيه نظر.

قلت: محمد بن مروان السدي الصغير قال فيه يحيى بن معين: ليس بثقة، وقال الجوزجاني: ذاهب الحديث، وقال النسائي: متروك الحديث، وكذلك قال أبو حاتم الرازي والأزدي. وقال صالح بن محمد: كان يضع الحديث على أن معناه صحيح معلوم من أحاديث أخر، كإخباره بسماع الموتى لسلام من يسلم عليهم إذا مرّ على قبورهم. فإن قيل: إذا سمع سلام المسلم عليه عند قبره حصلت المزية بسماعه:

قيل: هذا لو حصل الوصول إلى قبره، أما وقد منع الناس من الوصول إليه بثلاثة الجدران، فلا تحصل مزية، فسواء سلّم عليه عند قبره أو في مسجده إذا دخله، أو في أقصى المشرق والمغرب، فالكل يبلغه، كما وردت به الأحاديث، وليس في شيء منها أنه يسمع صوت المصلي والمسلِّم بنفسه، إنما فيها أن ذلك يعرض عليه ويبلغه ﷺ ومعلوم أنه أراد بذلك الصلاة والسلام الذي أمر به الله، سواء صلى عليه في مسجده أو في مدينته أو في مكان آخر، فعلم أن ما أمر الله به من ذلك فإنه يبلغه، وأما من سلّم عليه عند قبره فإنه يرد عليه، وذلك كالسلام على سائر المؤمنين ليس هو من خصائصه، ولكن لا يوصل إلى قبره ﷺ.



وَعَن عَلِيّ بنِ الحُسَينِ: أَنَّهُ رَأَى رَجُلاً يَجِيءُ إِلَى فُرجَةٍ كَانَت عِندَ قَبرِ النَّبِيِّ ﷺ، فَيَدخُلَ فِيهَا، فَيَدعُو، فَنَهَاهُ، وَقَالَ: أَلاَ أُحَدِّثُكُم حَدِيثاً سَمِعْتُهُ مِن أَبِي عَن جَدِّي عَن رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: «لاَ تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا، وَلاَ بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّ تَسلِيمَكُم يَبْلُغُنِي أَينَ كُنتُم». [رَوَاهُ فِي المُختَارَةِ].

هذان الحديثان جيدان، حسنا الإسنادين، أما الحديث الأول فرواه أبو داود وغيره من حديث عبدالله بن نافع الصائغ، قال: أخبرني ابن أبي ذئب، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة فذكره. ورواته ثقات مشاهير، لكن عبدالله بن نافع فيه لين لا يمنع الاحتجاج به. قال ابن معين: هو ثقة، وقال أبو زرعة: لا بأس به. وقال أبو حاتم الرازي: ليس بالحافظ تعرف وتنكر. قال شيخ الإسلام -رحمه الله-: ومثل هذا قد يخاف أن يغلط أحياناً، فإذا كان لحديثه شواهد علم أنه محفوظ، وهذا له شواهد متعددة. وقال الحافظ ابن عبدالهادي: هو حديث حسن جيد الإسناد، وله شواهد كثيرة يرتقي بها إلى درجة الصحة.

وأما الحديث الثاني، فرواه أبو يعلى، والقاضي إسماعيل، والحافظ الضياء في «المختارة».

قال أبو يعلى: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، ثنا زيد بن الحباب، ثنا جعفر بن إبراهيم من «ولد» ذي الجناحين، ثنا علي بن عمر، عن أبيه، عن علي بن حسين، فذكره. وعلي بن عمر: هو علي بن عمر بن علي بن الحسين. قال شيخ الإسلام: فانظر كيف هذه السنة كيف مخرجها من أهل المدينة وأهل البيت الذين لهم من رسول الله ﷺ قرب بالنسب وقرب الدار، لأنهم إلى ذلك أحوج من غيرهم، فكانوا أضبط.

قلت: وللحديثين شواهد، منها ما رواه ابن أبي شيبة، حدثنا أبو خالد الأحمر،

عن ابن عجلان، عن سهيل، عن جبير بن حنين، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تتخذوا قبري عيداً ولا بيوتكم قبوراً، وصلوا عليَّ حيث ما كنتم فإن صلاتكم تبلغني**». وقال سعيد بن منصور: حدثنا عبدالعزيز بن محمد، أخبرني سهيل بن أبي سهيل، قال: أتى الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عند القبر فناداني وهو في بيت فاطمة يتعشى، فقال: هلم إلى العشاء فقلت: لا أريده. فقال: ما لي رأيتك عند القبر؟ فقلت: سلمت على النبي ﷺ، فقال: إذا دخلت المسجد فسلّم، ثم قال: إن الرسول ﷺ قال: «**لا تتخذوا قبري عيداً ولا تتخذوا بيوتكم مقابر، وصلوا عليَّ فإن صلاتكم تبلغني حيث ما كنتم، لعن الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»، ما أنتم ومن بالأندلس إلا سواء.

ورواه القاضي إسماعيل في كتاب «فضل الصلاة على النبي ﷺ».

ولم يذكر ما أنتم ومن بالأندلس إلا سواء، وقال سعيد: أيضاً حدثنا حبان بن علي، ثنا محمد بن عجلان، عن أبي سعيد مولى المهري، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تتخذوا قبري عيداً ولا بيوتكم قبوراً، وصلوا عليَّ فإن صلاتكم تبلغني**»، قال شيخ الإسلام: فهذان المرسلان من هذين الوجهين المختلفين يدلان على ثبوت الحديث لا سيما وقد احتج به من أرسله، وذلك يقتضي ثبوته عنده هذا لو لم يروه من وجوه مسندة غير هذين، فكيف وقد تقدم مسنداً.

قوله: «عن علي بن الحسين»: أي ابن علي بن أبي طالب[1] المعروف بزين العابدبن -رضي الله عنه- وهو أفضل التابعين من أهل بيته وأعلمهم. قال الزهري: ما رأيت قرشياً أفضل منه. مات سنة ثلاث وتسعين على الصحيح، وأبوه الحسين سبط النبي ﷺ وريحانته، حفظ عن النبي ﷺ، واستشهد يوم عاشوراء سنة إحدى وستين وله ست وخمسون سنة.

---

(١) رابع الخلفاء، قتله عبدالرحمن بن ملجم -بالجيم المعجمة المفتوحة-.

قوله: «إنه رأى رجلاً يجيء إلى فرجة»: -هو بضم الفاء وسكون الراء واحدة الفرج- وهي الكوة في الجدار والخوخة ونحوهما.

قوله: «فيدخل فيها فيدعوه فنهاه» إلى آخر الحديث: هذا يدل على النهي عن قصد القبور والمشاهد لأجل الدعاء والصلاة عندها كما تقدم بعض ذلك لأن ذلك من اتخاذها عيداً كما فهمه علي بن الحسين من الحديث فنهى ذلك الرجل عن المجيء إلى قبر النبي ﷺ للدعاء عنده، فكيف بقبر غيره؟ ويدل أيضاً على أن قصد الرجل القبر لأجل السلام إذا لم يكن يريد المسجد من اتخاذه عيداً المنهي عنه، ولهذا لما رأى الحسن بن الحسن سهيلاً عند القبر نهاه عن ذلك وذكر له الحديث مستدلاً به وأمر بالسلام عليه عند دخول المسجد.

قال شيخ الإسلام: ما علمت أحداً، أي: من علماء السلف رخص فيه لأن ذلك نوع من اتخاذه عيداً، ويدل أيضاً على أن قصد القبر للسلام إذا دخل المسجد ليصلي منهي عنه، لأن ذلك من اتخاذه عيداً، وكره مالك لأهل المدينة كلما دخل إنسان المسجد أن يأتي قبر النبي ﷺ، لأن السلف لم يكونوا يفعلون ذلك. قال: ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها. بل كان الصحابة والتابعون يأتون إلى مسجده ﷺ فيصلون خلف أبي بكر وعمر وعثمان وعلي -رضي الله عنهم-، ثم إذا قضوا الصلاة قعدوا، أو خرجوا ولم يكونوا يأتون القبر للسلام، لعلمهم أن الصلاة والسلام عليه في الصلاة أكمل وأفضل.

وأما دخولهم عند قبره للصلاة والسلام عليه هناك، أو للصلاة والدعاء فلم يشرعه لهم بل نهاهم بقوله: «**لا تتخذوا قبري عيداً وصلوا عليَّ فإن صلاتكم تبلغني**». فبيَّن أن الصلاة تصل إليه من بعد وكذلك السلام. ولعن من اتخذ قبور الأنبياء مساجد، وكانت الحجرة في زمانهم يدخل إليها من الباب إذ كانت عائشة فيها، وبعد ذلك، إلى أن بني الحائط الآخر. وهم مع ذلك التمكن من الوصول إلى

قبره لا يدخلون إليه لا لسلام ولا لصلاة ولا لدعاء لأنفسهم ولا لغيرهم، ولا لسؤال عن حديث أو علم. ولا كان الشيطان يطمع فيهم حتى يسمعهم كلاماً أو سلاماً فيظنون أنه هو كلَّمهم وأفتاهم وبيَّن لهم الأحاديث، أو أنه قد ردّ عليهم السلام بصوت يسمع من خارج كما طمع الشيطان في غيرهم، فأضلهم عن قبره وقبر غيره، حتى ظنوا أن صاحب القبر يأمرهم وينهاهم ويفتيهم ويحدِّثهم في الظاهر، وأنه يخرج من القبر ويرونه خارجاً من القبر، ويظنون أن نفس أبدان الموتى خرجت تكلمهم، وأن روح الميت تجسّدت لهم، فرأوها كما رآهم النبي ﷺ ليلة المعراج. والمقصود أن الصحابة ما كانوا يعتادون الصلاة والسلام عليه عند قبره، كما يفعله من بعدهم من الخلوف، وإنما كان بعضهم يأتي من خارج فيسلِّم عليه إذا قدم من سفر، كما كان ابن عمر -رضي الله عنه- يفعل.

قال عبيدالله بن عمر، عن نافع: كان ابن عمر إذا قدم من سفر أتى قبر النبي ﷺ فقال السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا أبا بكر، السلام عليك يا أبتاه، ثم ينصرف. قال عبيدالله: ما نعلم أحداً من أصحاب النبي ﷺ فعل ذلك إلا ابن عمر، وهذا يدل على أنه لا يقف عند القبر للدعاء إذا سلّم كما يفعله كثير.

قال شيخ الإسلام: إن ذلك لم ينقل عن أحد من الصحابة، فكان بدعة محضة، وفي «المبسوط» قال مالك: لا أرى أن يقف عند قبر النبي ﷺ ولكن ليسلِّم ويمضي. والحكاية التي رواها القاضي عياض بإسناده عن مالك في قصته مع المنصور، وأنه قال لمالك: يا أبا عبدالله أستقبل القبلة وأدعو، أم أستقبل رسول الله ﷺ؟ فقال: ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم إلى الله يوم القيامة، بل استقبله واستشفع به يشفعه الله فيك. فهذه الرواية ضعيفة، أو موضوعة لأن في إسنادها من يتهم، محمد بن حميد، ومن يجهل حاله.

ونص أحمد أنه يستقبل القبلة، ويجعل الحجرة عن يساره لئلا يستدبره وذلك

بعد تحيته والسلام عليه، فظاهر هذا أنه يقف للدعاء بعد السلام. وذكر أصحاب مالك أنه يدعو مستقبلاً القبلة يوليه ظهره. وبالجملة فقد اتفق الأئمة على أنه إذا دعا لا يستقبل القبر، وتنازعوا هل يستقبله عند السلام عليه أم لا؟

ومن الحجة في ذلك: ما روى ابن زبالة وهو في «أخبار المدينة»، عن عمر بن هارون، عن سلمة بن وردان، وهما ساقطان، قال: رأيت أنس بن مالك يسلِّم على النبي ﷺ، ثم يسند ظهره إلى جدار القبر، ثم يدعو.

وفي الحديث دليل على منع شد الرحال إلى قبره ﷺ، وإلى غيره من القبور والمشاهد، لأن ذلك من اتخاذها أعياداً، بل من أعظم أسباب الإشراك بأصحابها، كما وقع من عُبَّاد القبور الذين يشدون إليها الرحال، وينفقون في ذلك الكثير من الأموال، وليس لهم مقصود إلا مجرد الزيارة للقبور تبركاً بتلك القباب والجدران فوقعوا في الشرك. هذه المسألة التي أفتى فيها شيخ الإسلام، أعني من سافر لمجرد زيارة قبور الأنبياء والصالحين ومشاهدهم، ونقل فيها اختلاف العلماء في الإباحة والمنع، فمن مبيح لذلك كأبي حامد الغزالي وأبي محمد المقدسي، ومن مانع لذلك كابن بطة وابن عقيل وأبي محمد الجويني والقاضي عياض، وهو قول الجمهور نص عليه مالك، ولم يكن يخالفه أحد من الأئمة وهو الصواب. فقام عليه بعض المعاصرين له كالسبكي ونحوه، فنسبه إلى إنكار الزيارة مطلقاً وهو لم ينكر منها إلا ما كان بشد رحل، كما أنكره جمهور العلماء قبله أو الزيارة التي يكون فيها دعاء الأموات والاستغاثة بهم في الملمات، مع ما ينضم إلى ذلك من أنواع المنكرات.

ومما يدل على النهي عن شد الرحال إلى القبور ونحوها ما أخرجاه في «الصحيحين» عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: «**لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى**» فدخل في ذلك شاهد لزيارة القبور والمشاهد فإما أن يكون نهياً، وإما أن يكون نفياً للاستحباب.

وقد جاء في رواية في «الصحيح» بصيغة النهي صريحاً فتعين أن يكون للنهي.

ولهذا فهم منه الصحابة المنع، كما في «الموطأ» و«السنن»، عن بصرة بن أبي بصرة الغفاري، أنه قال لأبي هريرة وقد أقبل من الطور: لو أدركتك قبل أن تخرج إليه لما خرجت، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا تعمل المطي إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى**»، وروى الإمام أحمد وعمر بن شبة في «أخبار المدينة» بإسناد جيد عن قزعة. قال: أتيتُ ابن عمر، فقلت: إني أريد الطور. فقال: إنما تشد الرحال إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجد المدينة، والمسجد الأقصى، فدع عنك الطور فلا تأته.

وروى أحمد وعمر بن شبة أيضاً، عن شهر بن حوشب قال: سمعت أبا سعيد، وذكر عنده الصلاة في الطور. فقال: قال رسول الله ﷺ: «**لا ينبغي للمطي أن تُشد رحالها إلى مسجد يبتغى فيه الصلاة غير المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى**». فأبو سعيد جعل الطور مما نهي عن شد الرحال إليه، مع أن اللفظ الذي ذكره إنما فيه النهي عن شدها إلى المساجد، فدل على أنه علم أن غير المساجد أولى بالنهي، والطور إنما يسافر من يسافر إليه لفضيلة البقعة وأن الله تعالى سمّاه الوادي المقدس والبقعة المباركة، وكلَّم الله موسى هناك. وهذا ظاهر لا يخفى على أحد ممن يقول بفحوى الخطاب وتنبيهه، وهم الجمهور والأئمة الأربعة وأتباعهم ولهذا لم يوجبوا على من نذر أن يسافر إلى أثر نبي من الأنبياء قبورهم أو غير قبورهم الوفاء بذلك، بل لو سافر إلى مسجد قباء من بلد بعيد لم يكن هذا مشروعاً باتفاق الأئمة الأربعة، مع أن النبي ﷺ كان يأتيه كل سبت راكباً وماشياً، وإن كان في وجوب الوفاء بنذر إتيانه خلاف، والجمهور على أنه لا يجب.

وقد صرح مالك وغيره بأن من نذر السفر إلى المدينة النبوية إن كان مقصوده الصلاة في مسجد النبي ﷺ، وفَّى بنذره، وإن كان مقصوده مجرد زيارة القبر من غير

صلاة في المسجد لم يفِ بنذره. قال: لأن النبي ﷺ قال: «**لا تعمل المطي إلا إلى ثلاثة مساجد**» ذكره إسماعيل بن إسحاق في «المبسوط»، ومعناه في «المدونة»، و«الجلاب» وغيرهما من كتب أصحاب مالك.

وبالجملة: فقد تنازع العلماء في شد الرحال إلى غير المساجد الثلاثة، فالجمهور على المنع، وطائفة من المتأخرين على الجواز، فاستحباب شد الرحال إلى القبور والمشاهد والتقرب به إلى الله كما ظنه السبكي وغيره، قول مبتدع مخالف للإجماع قبله، والأحاديث التي احتج بها كحديث: «**من زارني بعد وفاتي فكأنما زارني في حياتي**»، ونحوها، لا يصح منها شيء عن رسول الله ﷺ، ولا عن أحد من أصحابه البتة، بل هي ما بين ضعيف وموضوع، أو كلها موضوعة كما قد بيَّن عللها شيخ الإسلام وغيره. وكثير منها لا يدل على محل النزاع، إذ ليس فيه إلا مطلق الزيارة. فذلك لا ينكره شيخ الإسلام ولا غيره من العلماء، لأنه محمول على الزيارة الشرعية الجارية على وفق مراد النبي ﷺ، وهي التي لا يكون فيها شرك ولا شد رحل إلى قبر، وبتقدير ثبوتها **لا** تدل على شد الرحال إلى قبر غيره، والسبكي أجاز ذلك في سائر القبور فخالف الأحاديث وخرق الإجماع، والله أعلم.

قال المصنف: وفيه أنه ﷺ في البرزخ تعرض عليه أعمال أمته في الصلاة والسلام عليه.

قوله: «**رواه في المختارة**»: «المختارة» كتاب جمع فيه مؤلفه الأحاديث الجياد الزائدة على «الصحيحين»، ومؤلفه هو أبو عبدالله محمد بن عبدالواحد المقدسي الحافظ ضياء الدين الحنبلي، أحد الأعلام وحفاظ الحديث. قال الذهبي: أفنى عمره في هذا الشأن مع الدين المتين والورع والفضيلة التامة والثقة والإتقان. انتفع الناس بتصانيفه والمحدثون بكتبه فالله يرحمه ويرضى عنه. وقال شيخ الإسلام:

تصحيحه في «مختارته» خير من تصحيح الحاكم[1] بلا ريب. مات سنة ثلاث وأربعين وستمئة.



(١) فشرطه أحسن من شرط الحاكم.

باب
ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان(١)

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ (النساء: ٥١).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ﴾ (المائدة: ٦٠).

الشَّرْحُ:

أراد المصنف بهذه الترجمة الرد على عُبَّاد القبور، الذي يفعلون الشرك ويقولون: إنه لا يقع في هذه الأمة المحمدية وهم يقولون: لا إله إلا الله محمد

---

(١) قصد المصنف -رحمه الله- الرد على ما قال: إن هذه الأمة معصومة؛ لأنها أمة مرحومة مطهرة من وقوع الشرك ولا يرى الاستغاثة بالقبور وعبادة الأوثان شركاً بل يتأولها بأنواع التأويلات وقد يستدل بحديث: «**إن الشيطان يئس أن يعبد في جزيرة العرب**» وهذا الحديث أجيب عنه **بأجوبة منها**:أن المراد يئس أن يعبده الصحابة في جزيرة العرب «**وأن يعبده المصلون**» كما في رواية، والمراد بالمصلين الصحابة، **الثاني**: أنه يئس أن تطبق الأمة الشرك، **الثالث**: أنه يئس من وقوع الشرك لما رأى ظهور الإسلام وعلوه وانتشاره ودخول الناس فيه وجهاد الرسول فظن أنه لا يقع الشرك ولكن وقع خلاف ظنه فهو ليس بمعصوم في يأسه ولا في رجائه فقد ييأس من شيء فيقع وقد يرجو شيئاً فلا يقع ولم يقل النبي إن الله يأَّسَهُ فيقع خلاف ما يخافه ويظنه كما يقع خلاف ما يرجوه، ورجحه شيخنا عبدالعزيز بن باز، ويدل على وقوع الشرك في هذه الأمة قوله ﷺ: «**لا تذهب الليالي والأيام حتى تعبد اللات والعزى**»، وحديث: «**لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس عند ذي الخلصة**»، وكما سيذكر المصنف حديث: «**لا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان**».

رسول الله فبيّن في هذا الباب من كلام الله وكلام رسوله ﷺ ما يدل على تنوع الشرك في هذه الأمة ورجوع كثير منها إلى عبادة الأوثان وإن كانت طائفة منها لا تزال على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى.

قال: «وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾»[٢].

يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا﴾: أي أعطوا نصيباً أي: حظاً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت. روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: لما قدم كعب بن الأشرف مكة قالت قريش: ألا ترى إلى هذا الصنبور المنتبر من قومه، يزعم أنه خير منا ونحن أهل الحجيج، وأهل السدانة وأهل السقاية قال: أنتم خير، قال فنزلت فيهم: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾ (الكوثر: ٣) ونزل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ۝٥١ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ۝٥٢﴾ (النساء: ٥١-٥٢)، وروى ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: جاء حيي بن أخطب[١] وكعب بن الأشرف إلى أهل مكة فقالوا لهم: أنتم أهل الكتاب، وأهل العلم فأخبرونا عنا وعن محمد فقال: ما أنتم وما محمد قالوا: نحن نصل الأرحام، وننحر الكوماء، ونسقي الماء على اللبن، ونفك العناة، ونسقي الحجيج، ومحمد صنبور قطع أرحامنا واتبعه سراق الحجيج من غفار، فنحن خير أم هو فقالوا: أنتم خير وأهدى سبيلاً فأنزل الله ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ۝٥١﴾ (النساء: ٥١). قال عمر بن الخطاب -رضي الله

(١) من رؤساء اليهود.

عنه-: الجبت: السحر، والطاغوت: الشيطان، وكذلك قال ابن عباس وأبو العالية ومجاهد والحسن وغيرهم، وعن ابن عباس وعكرمة وأبي مالك: الجبت: الشيطان زاد ابن عباس بالحبشية، وعن ابن عباس أيضاً: الجبت الشرك، وعنه الجبت الأصنام، وعنه الجبت حيي بن أخطب، وعن الشعبي: الجبت الكاهن، وعن مجاهد الجبت: كعب ابن الأشرف.

قلت: الظاهر أنه يعم ذلك كله كما قال الجوهري: الجبت كلمة تقع على الصنم والكاهن والساحر ونحو ذلك، وفي الحديث: «**الطيرة والعيافة والطرق من الجبت**» قال: وهذا ليس من محض العربية لاجتماع الجيم والباء في حروف واحد من غير حرف ذولقي[1] قال المصنف: وفيه معرفة الإيمان بالجبت والطاغوت في الموضع هل هو اعتقاد قلب أو هو موافقة أصحابها مع بغضها ومعرفة بطلانها[2]؟ وأما الطاغوت فتقدم الكلام عليه في أول الكتاب.

قال: «**وقوله تعالى**: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ۚ﴾» (المائدة: ٦٠).

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من أهل الكتاب، الطاعنين في دينكم الذي هو توحيد الله وإفراده بالعبادة دون ما سواه ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ﴾[4] أي هل أخبركم بشرٍّ جزاء عند الله يوم القيامة مما تظنونه بنا هم أنتم أيها المتصفون بهذه الصفات المذمومة المفسرة بقوله: من لعنه الله أي أبعده وطرده من رحمته وغضب عليه، أي غضباً لا يرضى بعده، وجعل منهم القردة والخنازير، أي مسخ منهم الذين عصوا أمره فجعلهم

---

(١) لعلها ذلقي، حروف الذلق مجموعة في قولك: «مر بنفل -الميم والراء والباء الموحدة والنون، والفاء واللام-».

(٢) المراد الثاني.

قردة وخنازير كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ (البقرة: ٦٥) وذلك أن الله تعالى أخذ عليهم تعظيم السبت، والقيام بأمره، وترك الاصطياد فيه، وكانت الحيتان لا تأتيهم إلا يوم السبت فتحيلوا على اصطيادها فيه بما وضعوه لها من الشصوص والحبائل والبرك قبل يوم السبت فلما جاءت الحيتان يوم السبت على عادتها نشبت بتلك الحبائل فلم تخلص منها يومها ذلك؛ فلما كان الليل أخذوها بعد انقضاء السبت، فلما فعلوا ذلك مسخهم الله تعالى إلى صورة القردة، وهي أشبه شيء بالأناسي في الشكل الظاهر وليست بإنسان حقيقة، فكذلك أعمال هؤلاء وحيلتهم كانت مشابهة للحق في الظاهر ومخالفة له في الباطن، فكان جزاؤهم من جنس عملهم. قال العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ (البقرة: ٦٥) فجعل الله منهم القردة والخنازير فزعم أن شباب القوم صاروا قردة والمشيخة صاروا خنازير.

وروى مسلم في «صحيحه» عن ابن مسعود قال: سئل رسول الله ﷺ عن القردة والخنازير أهي مما مسخ الله؟ فقال: إن الله لم يهلك قوماً أو قال: لم يمسخ قوماً فيجعل الله لهم نسلاً ولا عاقبة، وإن القردة والخنازير كانت قبل ذلك[1]. وفي هذه القصة دليل قاطع على تحريم الحيل التي يتوصل بها إلى تحليل الحرام وتحريم الحلال ونحو ذلك[2].

وقوله: ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾: قال شيخ الإسلام: الصواب أنه معطوف على قوله: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾ (المائدة: ٦٠) فهو فعل

---

(١) القردة والخنازير أمتان، أما الممسوخون فورد أنهم لا يعيشون أكثر من ثلاثة أيام.
(٢) أما الحيل الشرعية كشراء ما عند أخيك فلا بأس.

ماض معطوف على ما قبله من الأفعال الماضية؛ أي من لعنه الله ومن غضب عليه، ومن جعل منهم القردة والخنازير، ومن عبد الطاغوت لكن الأفعال المقدمة الفاعل فيها هو اسم الله مظهراً ومضمراً، وهنا الفاعل اسم من عبد الطاغوت وهو الضمير في «عبد» ولم يعد سبحانه لفظ مَنْ لأنه جعل هذه الأفعال كلها صفة لصنف واحد وهم اليهود.



وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ۝٢١﴾ (الكهف: ٢١).

قال: «**وقوله:** ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ۝٢١﴾».

يخبر تعالى عن الذي غلبوا على أمر أصحاب الكهف أنهم قالوا هذه المقالة لنتخذن عليهم مسجداً. وقد حكى ابن جرير في القائلين في ذلك قولين:

أحدهما: أنهم المسلمون، **والثاني:** أنهم المشركون، وعلى القولين فهم مذمومون لأن النبي ﷺ قال: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم[1] مساجد يحذر ما فعلوا» رواه البخاري ومسلم، ولما يفضي إليه ذلك من الإشراك بأصحابها كما هو الواقع، ولهذا ما فعلته اليهود والنصارى جرهم ذلك إلى الشرك، فدل ذلك على أن هذه الأمة تفعله كما فعلته اليهود والنصارى فيجرها ذلك إلى الشرك، لأن ما فعلته اليهود والنصارى ستفعله هذه الأمة شبراً بشبر وذراعاً بذراع، كما أخبر بذلك الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحي، وبهذا يظهر وجه استشهاد المصنف بهذه الآيات.



---

(١) الذي فيه «وصالحيهم» غير حديث اللعن وهو، «**لعن الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»، وهو في الصحيحين، أما حديث «**إن من كان قبلكم كانوا يتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم**» فهو في صحيح مسلم.

قال: عَن أَبِي سَعِيدٍ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «لَتَتَّبِعُنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذوَ القُذَّةِ بِالقُذَّةِ، حَتَّى[1] لَوْ دَخَلُوا جُحْرِ ضَبٍّ؛ لَدَخَلْتُمُوهُ». قَالَوا: يَا رَسُولَ الله! اليَهُودُ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: «فَمَنْ!». [أَخرَجَاهُ].

هذا الحديث أورده المصنف بهذا اللفظ معزواً لـ «الصحيحين» ولعله نقله عن غيره ولفظهما، والسياق لمسلم عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لاتبعتموهم**» قلنا يا رسول الله: اليهود والنصارى؟ قال: «**فمن!**»، ويحتمل أن يكون مروياً عند غيرهما باللفظ الذي ذكره المصنف وأراد أصله لا لفظه.

قوله: «**لتتبعن**»: هو بضم العين وتشديد النون.

قوله: «**سنن**»: بفتح المهملة، أي طريق من كان قبلكم، أي: الذين قبلكم قال المهلب: الفتح أولى. وقال ابن التين: قرأناه بضمها.

قوله: «**حذو القذة بالقذة**» هو بنصب حذو على المصدر، والقذة -بضم القاف- واحدة القذذ وهي ريش السهم، وله قذتان متساويتان، أي: لتفعلن أفعالهم ولتتبعن طرائقهم حتى تشبهوهم وتحاذوهم كما تشبه قذة السهم القذة الأخرى، ثم إن هذا اللفظ خبر معناه النهي عن متابعتهم، ومنعهم من الالتفات لغير دين الإسلام، لأن نوره قد بهر الأنوار وشريعته نسخت الشرائع، وهذا من معجزاته، فقد اتبع كثير من أمته سنن اليهود والنصارى وفارس في شيمهم[2] ومراكبهم وملابسهم، وإقامة شعارهم في الأديان والحروب والعادات من زخرفة

---

(١) قصد به المبالغة في التشبه بهم واتباعهم إذ أنه لا يمكن دخول جحر الضب والحديث يدل على أمرين **أحدهما**: وقوع ما أخبر به، **والثاني**: التحذير من التشبه بهم.

(٢) أخلاقهم.

المساجد، وتعظيم القبور واتخاذها مساجد، حتى عبدوها ومن فيها من دون الله، وإقامة الحدود والتعزيرات على الضعفاء دون الأقوياء، وترك العمل يوم الجمعة والتسليم بالأصابع[(١)] وعدم عيادة المريض يوم السبت، والسرور بخميس البيض، وأن الحائض لا تمس عجيناً، واتخاذ الأحبار والرهبان أرباباً من دون الله، والإعراض عن كتاب الله، والإقبال على كتب الضلال من السحر والفلسفة والكلام والتكذيب بصفات الله التي وصف الله بها نفسه أو وصفه بها رسوله ﷺ، ووصفه بما لا يليق من النقائص والعيوب إلى غير ذلك مما اتبعوا فيه اليهود والنصارى.

قوله: «حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه»: الجحر -بضم الجيم بعدها حاء مهملة- معروف، وفي حديث آخر: «**حتى لو كان فيهم من أتى أمه علانية لكان في أمتي من يصنع ذلك**»، وفي حديث آخر «**لو أن أحدهم جامع امرأته في الطريق لفعلتموه**» صحت بذلك الأحاديث، فأخبر أن أمته ستفعل ما فعلته اليهود والنصارى وفارس من الأديان والعادات والاختلاف

قال شيخ الإسلام: هذا خرج مخرج الخبر والذم لمن يفعله كما كان يخبر عما يكون بين يدي الساعة من الأشراط والأمور المحرمة. وقال غيره: وجمع ذلك أن كفر اليهود أشد من جهة عدم العمل بعلمهم فهم يعلمون الحق ولا يتبعونه عملاً ولا قولاً، وكفر النصارى من جهة عملهم بلا علم، فهم يجتهدون في أصناف العبادات بلا شريعة من الله، ويقولون: ما لا يعلمون، ففي هذه الأمة من يحذو حذو الفريقين، ولهذا كان السلف كسفيان بن عيينة يقولون: من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود، ومن فسد من عُبَّادنا ففيه شبه من النصارى وقضاء الله نافذ بما أخبر به رسول الله ﷺ بما سبق في علمه، لكن ليس الحديث له إخباراً عن جميع

---

(١) بالإشارة بها.

الأمة لما تواتر عنه أنها لا تجتمع على ضلالة.

قوله: «قالوا يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟»: هو برفع اليهود خبر مبتدأ محذوف، أي: أهم اليهود والنصارى الذي نتبع سنتهم؟ وقوله: قال: «**فمن**» استفهام إنكار. أي فمن هم غير أولئك؟ ثم إنه فُسِّر هنا باليهود والنصارى، وفي رواية أبي هريرة في البخاري بفارس والروم ولا تعارض، كما قال بعضهم لاختلاف الجواب بحسب اختلاف المقام، فحيث قيل فارس والروم كان ثم قرينة تتعلق بالحكم بين الناس، وسياسة الرعية، وحيث قيل اليهود والنصارى كان هناك قرينة تتعلق بأمور الديانات، أصولها وفروعها كذا قال. ولا يلزم من وجود قرينة بل الظاهر أنه أخبر أن هذه الأمة ستفعل ما فعلته الأمم قبلها من الديانات والعادات والسياسات مطلقاً، والتفسير ببعض الأمم لا ينفي التفسير بأمة أخرى، إذ المقصود التمثيل لا الحصر. ووجه مطابقة الحديث للترجمة واضح لأن الأمم قبلنا وجد فيها الشرك، فكذلك يوجد في هذه الأمة كما هو الواقع.



[وَلِمُسلِمٍ] عَن ثَوبَانَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «إِنَّ الله زَوَى[1] لِيَ الأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ الكَنْزَيْنِ: الأَحْمَرَ وَالأَبْيَضَ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لأُمَّتِي أَنْ لاَ يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ بعَامَّةٍ، وَأَنْ لاَ يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لاَ يُرَدُّ، وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لأُمَّتِكَ أَنْ لاَ أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَ، وَلاَ أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا، حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا». رَوَاهُ البَرْقَانِيُّ فِي «صَحِيحِهِ».

وَزَادَ: «وَإِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الأَئِمَّةَ المُضِلِّينَ، وَإِذَا وَقَعَ عَلَيهِمُ السَّيْفُ؛ لَمْ يُرْفَعْ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، وَلاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَلْحَقَ حَيٌّ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ، وَحَتَّى تَعْبُدَ فِئَامٌ مِنْ أُمَّتِي الأَوْثَانَ، وَإِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي كَذَّابُونَ ثَلاَثُونَ[2]، كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، لاَ نَبِيَّ بَعْدِي، وَلاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الحَقِّ مَنصُورَةً، لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ[3]، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ الله تَبَارَكَ[4] وَتَعَالَى».

---

(١) قارب أطرافها من جهة الشرق والغرب فاتسع ملك أمته شرقاً إلى ما وراء خراسان والنهر وغرباً إلى طنجة.

(٢) المراد بالثلاثين الذي لهم شوكة وقوة وأتباع وإلا فهم -أي المدعون للنبوة- أكثر من الثلاثين، منهم من يدعي النبوة لخلل في عقله ورأسه أو لا يكون له أتباع أو يرجع.

(٣) في رواية: «لا يضرهم من خالفهم»، وفي رواية: «من خذلهم ولا من خالفهم»، وهذه الطائفة تزيد وتنقص وليس لها مكان معين وقد تكون متفرقة، وهذه بشرى خير لهذه الأمة بأن الخير لا يزال فيها حتى يأتي أمر الله وهي الريح التي تقبض أرواح المؤمنين.

(٤) تبارك مختصة به تعالى لا تطلق على غيره، بل يقال مبارك أو فيه بركة.

هذا الحديث رواه أبو داود في «سننه»، وابن ماجه بالزيادة التي ذكرها المصنف، ورواه الترمذي مختصراً ببعضها.

قوله: «عن ثوبان»: هو ثوبان مولى النبي ﷺ صحبه ولازمه ونزل بعده الشام، ومات بحمص سنة أربع وخمسين.

قوله: «زوى لي الأرض» قال: التوربشتي: زويت الشيء جمعته وقبضته، يريد به تقريب البعيد منها حتى اطلع عليه من اطلاعه على القريب. وحاصله أن الله طوى له الأرض وجعلها مجموعة كهيئة كف في مرآة نظره. وقال القرطبي: أي جمعها لي حتى أبصرتُ ما تملك أمتي من أقصى المشارق والمغارب منها، وظاهر هذا اللفظ يقتضي أن الله تعالى قوَّى إدراك بصره، ورفع عنه الموانع المعتادة فأدرك البعيد من موضعه كما أدرك بيت المقدس من مكة، وأخذ يخبرهم عن آياته وهو ينظر إليه وكما قال: «**إني لأبصر قصر المدائن الأبيض**» ويحتمل أن يكون مثّلها الله له، والأول أولى.

قوله: «وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى[1] لي منها» قال القرطبي: هذا الخبر وجد مَخْبَره كما قاله، فكان ذلك من دلائل نبوته، وذلك أن ملك أمته اتسع إلى أن بلغ أقصى بحر طنجة، بالنون والجيم الذي هو منتهى عمارة المغرب إلى أقصى المشرق، ما وراء خراسان والنهر وكثير من بلاد الهند والسند والصغد، ولم يتسع ذلك الاتساع من جهة الجنوب والشمال.

ولذلك لم يذكر عليه السلام أنه أريه ولا أخبر أن ملك أمته يبلغه وقوله زوي يحتمل أن يكون مبنيا للفاعل وأن يكون مبنيا للمفعول والأول أظهر قوله وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض قال القرطبي يعني بهما كنز كسرى وهو ملك الفرس وكنز قيصر وهو ملك الروم وقصورهما وبلادهما وقد دل على ذلك قوله

---

(١) بفتح الزاي وضمها وكذلك الواو.

عليه السلام حين أخبر عن هلاكهما والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله وعبر بالأحمر عن كنز قيصر لأن الغالب عندهم كان الذهب وبالأبيض عن كنز كسرى لأن الغالب عندهم كان الجوهر والفضة وقد ظهر ذلك ووجد كذلك في زمان الفتوح في أمارة عمر رضي الله عنه فإنه سيق إليه تاج كسرى وحليته وما كان في بيوت أمواله وجميع ما حوته مملكته على سعتها وعظمتها وكذلك فعل الله بقيصر لما فتحت بلاده كذا قال في الغالب على كنوز كسرى وقيصر وعكس ذلك التوربشتي والخلخالي والأبيض والأحمر منصوبان على البدل قوله وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة بعامة هكذا ثبت في أصل المصنف بعامة بالباء وهي رواية صحيحة في أصل مسلم وفي بعض أصوله بسنة عامة بحذفها قال القرطبي وكأنها زائدة لأن عامة صفة لسنة فكأنه قال بسنة عامة ويعني بالسنة الجدب العام الذي يكون به الهلاك العام ويسمى الجدب والقحط سنة ويجمع على سنين كما قال تعالى ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين أي بالجدب المتوالي قوله من سوى أنفسهم أي من غيرهم يعني الكفار.

قوله: «فيستبيح بيضتهم»: قال الجوهري: بيضة كل شي حوزته، وبيضة القوم ساحتهم، وعلى هذا فيكون معنى الحديث: أن الله تعالى لا يسلط العدو على كافة المسلمين حتى يستبيح جميع ما حازوه من البلاد والأرض، ولو اجتمع عليهم كل من بين أقطار الأرض، وهو جوانبها، وقيل: بيضتهم معظمهم وجماعتهم.

قلت: وهذا هو الظاهر، وأن الله تعالى لا يسلط الكفار على معظم المسلمين وجماعتهم وإمامهم ما داموا بضد هذه الأوصاف المذكورة في قوله؛ حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً، فأما إذا وجدت هذه الأوصاف فقد يسلط الكفار على جماعتهم ومعظمهم وإمامهم كما وقع.

قوله: «وإن ربي قال: يا محمد إني إذا قضيت قضاءً فإنه لا يرد»: قال بعضهم:

أي إذا حكمت حكماً مبرماً فإنه نافذ لا يرد بشي، ولا يقدر أحد على رده، بل كل جميع الخلق تمضي عليهم الأقدار طوعاً وكرهاً كما قال النبي ﷺ: «**لا راد لما قضيت**».

قلت: الظاهر أنه سواء في ذلك المبرم والمعلق[١]، فالكل لا يرد فإن هذا إخبار عن عدم الرد لجنس القضاء، والنبي ﷺ سأل ذلك مطلقاً فأجيب بهذا واستجاب دعاءه ما لم يوجد الشرط المقتضي لتسليط العدو، فإذا وجد ذلك وجد القضاء المعلق.

قوله: «حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً» إلى آخره: أي: حتى يوجد ذلك منهم فإن وجد فإنه يسلط عليهم عدوهم من الكفار، فيستبيح جماعتهم وإمامهم ومعظمهم لا كل الأمة، ثم أيضاً تكون العاقبة لهذه الأمة إن رجعوا عما هم فيه من الأسباب الموجبة للتسليط، وكذلك وقع فإن هذه الأمة لما جعل بأسها بينها اقتتلوا فأهلك بعضهم بعضاً، وسبى بعضهم بعضاً فلما فعلوا ذلك تفرقت جماعتهم، واشتغل بعضهم ببعض عن جهاد العدو، واستولوا عليهم، كما وقع ذلك في المئة السابعة في المشرق والمغرب، فاختلف ملوك المشرق وتخاذلوا واستولى التتار على غالب أرض خراسان، وعلى العراق وديار الروم، وقتلوا الخليفة والعلماء والملوك الكبار[٢]، وكذلك ملوك المغرب اختلفوا وتخاذلوا واستولت الإفرنج على جميع بلاد الأندلس والجزر القريبة منها فهي في أيديهم إلى اليوم، بل استولوا على كثير من بلدان الشام حتى استنقذها منهم صلاح الدين بن أيوب وغيره.

قوله: «ورواه البرقاني[٣] في صحيحه»: البرقاني هو الحافظ الكبير أبو بكر محمد

---

(١) ومعلق بسبب؛ كالموت بانقلاب سيارة أو بحرق أو بغرق، أو بتصادم سيارتين أو قطارين، أو طائرة أو غير ذلك.

(٢) وكان ذلك عام ٦٥٦هـ وهو عام سقوط بغداد في أيدي التتار.

(٣) نسبة إلى برقة بلدة بمصر -بفتح الباء الموحدة- وكسرها يقال: البَرقاني والبِرقاني.

بن أحمد بن غالب الخوارزمي[1] الشافعي، ولد سنة ست وثلاثين وثلاثمئة، ومات سنة خمس وعشرين وأربعمئة. قال الخطيب: كان ثبتاً ورعاً، لم نر في شيوخنا أثبت منه، عارفاً بالفقه كثير التصنيف، صنف مسنداً ضمنه ما اشتمل عليه «الصحيحان» وجمع حديث الثوري وحديث شعبة، وطائفة وكان حريصاً على العلم منصرف الهمة إليه.

قلت: وهذا «المسند» الذي ذكره الخطيب هو «صحيحه» الذي عزا إليه المصنف.

قوله: «وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين» أي: الأمراء والعلماء العباد الذين يقتدى بهم والناس، ويحكمون فيهم بغير علم فيَضلون ويُضلون، فهم فهم ضالون عن الحق مضلون لغيرهم، كما قال تعالى عن أهل النار: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ (الأعراف: ٣٨)، وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾﴾ (الأحزاب: ٦٧)[2]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ (الكهف: ١٠٣، ١٠٤) ولشدة الضرورة إلى اتباع أئمة الهدى ومعرفتهم، والتفريق بينهم وبين أئمة الضلال المغضوب عليهم والضالين، أمرنا الله أن نسأله الهداية إلى سلوك صراط أئمة الهدى وهم المنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، غير المغضوب عليهم الذين يعلمون الحق ولا يعملون به، ولا الضالين الذين يعملون على غير شرع من الله، بل بما تهوى أنفسهم. فصراط المنعم عليهم هو الجامع بين العلم بالهدى والعمل به، وقد وصف النبي ﷺ أئمة الهدى لما ذكر التفرق من بعده، بأنهم الذين

(١) بضم الخاء المعجمة.

(٢) ويدخل في الآية الملوك ورؤساء الجمهوريات والأمراء وعلماء السوء.

كانوا على ما كان عليه النبي ﷺوأصحابه، كما رواه أبو داود وغيره. فمن كان على ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه فهو من الأئمة المهديين، ومن خالفهم فهو من الضالين، كالذي يقول لأصحابه: من كانت له حاجة فليأت إلى قبري فإني أقضيها له، ولا خير في رجل يحجبه عن أصحابه ذراع من تراب، أو نحو هذا الذي يدعي أنه يخلِّص أصحابه ومريديه من النار، وأنه يحفظ الناس ويكلؤهم إذا اعتقدوه، ويضر بهم إذا كفروا به وحاربوه ويدعي أن ذلك من كراماته. وكالذي يمشي في الأسواق عرياناً ولا يشهد بصلاة ولا ذكر الله ولا علماً، بل يعيب علماء الشرع، ويغمزهم ويسميهم أهل علم الظاهر، ويدعي أنه صاحب علم الباطن، وربما يدعي أنه يسعه الخروج من شريعة محمد ﷺ، كما وسع الخضر الخروج عن شريعة موسى -عليه السلام- ونحو ذلك من الكفر والهذيان. وكالذي يدعي أن العبد يصل مع الله إلى حال تسقط عنه التكاليف، أو يدعي أن الأولياء يدعون ويستغاث بهم في حياتهم وفي مماتهم، وأنهم ينفعون ويضرون، ويدبرون الأمور على سبيل الكرامة، أو أنه يطلع على اللوح المحفوظ، ويعلم أسرار الناس وما في ضمائرهم، أو يجوز بناء المساجد على قبور الأنبياء والصالحين، وإيقادها بالسرج والشموع، وكسوتها بالحرير والديباج، والفرش النفيسة، أو يدعي أن من عمل بالقرآن والسنة في أصول الدين وفروعه، فقد ضل وأضل وابتدع، أو أن ظواهر القرآن في آيات الصفات تشبيه وتمثيل، وأن الهدى لا يؤخذ منه في هذا الباب ولا في غيره، وإنما يؤخذ من الشبهات الوهمية التي يسميها بزعمه براهين عقلية. فكل هؤلاء وأشباههم من أئمة الضلال الذين خاف النبي ﷺ على أمته وحذر منهم. والضابط في الفرق بين أئمة المتقين وبين الأئمة المضلين قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ (آل عمران: ٣١-٣٢) فافهم عن ربك

وكن على بصيرة، ولا يغرّك جلالة شخص أو عظمته في النفوس، فربك أعظم واتباعك لكلامه وكلام رسوله ﷺ هو الفرض، والعصمة منتفية عن غير الرسول، وربك أدرى بما في الضمائر؛ فرب من تعتقده إمام هدى ليس كذلك، وقد قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾ (الجاثية: ١٨) فكل من أتى بشيء يخالف ما جاء عن الله وعن رسوله، فهو من أهواء الذين لا يعلمون، ومن لم يستجب للرسول ﷺ فإنما يتبع هواه. قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ (القصص: ٥٠)، وقال تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ (الأعراف: ٣)، وعن زياد بن حَدِير قال: قال لي عمر هل تعرف ما يهدم الإسلام؟ قلت: لا، قال: يهدمه زلة عالم، وجدال المنافق بالكتاب، وحكم الأئمة المضلين، رواه الدارمي وقال يزيد بن عميرة(١): كان معاذ بن جبل لا يجلس مجلساً للذكر إلا قال حين يجلس: الله حكم قسط هلك المرتابون ... الحديث، وفيه واحذروا زيغة الحكيم، فإن الشيطان قد يقول الضلالة على لسان الحكيم، وقد يقول المنافق كلمة الحق. قلت لمعاذ ما يدريني رحمك الله أن الحكيم قد يقول كلمة الضلالة، وأن المنافق قد يقول كلمة الحق؟ قال: لي اجتنب من كلام الحكيم المشتبهات التي يقال: ما هذه ولا يثنيك ذلك عنه، فإنه لعله يراجع الحق، وتلقّ الحق إذا سمعته فإن على الحق نوراً. رواه أبو داود وغيره وما أحسن ما قال ابن المبارك -رضي الله عنه-:

---

(١) بفتح العين والميم المهملتين.

وهل أفسد الدين إلا الملوك وأحبار سوء ورهبانها[١]

قوله: «وإذا وقع السيف لم يرفع إلى يوم القيامة»: أي إذا وقعت الفتنة والقتال بينهم بقي إلى يوم القيامة، وكذلك وقع. فإن السيف لما وضع فيهم بقتل عثمان[٢] -رضي الله عنه- لم يرتفع إلى اليوم، وكذلك يكون إلى يوم القيامة. ولكن يكثر تارة ويقل أخرى، ويكون في جهة ويرتفع عن أخرى.

قوله: «ولا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين»: الحي واحد الأحياء، وهي القبائل، وفي رواية أبي داود: «ولا تقوم الساعة حتى يلحق قبائل من أمتي بالمشركين» والمعنى أنهم ينزلون معهم في ديارهم، ويصيرون منهم بالردة ونحوها[٣].

قوله: «وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان»: الفئام -مهموز- الجماعات الكثيرة. قاله أبو السعادات، وفي رواية أبي داود «وحتى تعبد قبائل من أمتي الأوثان»: ومعناه ظاهر. وهذا هو شاهد الترجمة، ففيه الرد على من قال بخلافه من عباد القبور الذين ينكرون وقوع الشرك، وعبادة الأوثان في هذه الأمة، وفي معنى هذا ما في «الصحيحين» عن أبي هريرة مرفوعاً: «لا تقوم الساعة حتى تضطرب

---

(١) وقبله قوله:

رأيت الذنوب تميت القلوب وقد يورث الذل إدمانها
وترك الذنوب حياة القلوب وخير لنفسك عصيانها

(٢) والأقرب أنه بقتل عمر ثم بعده كان قتل عثمان، ثم حصلت الفتن بالحروب التي بين الصحابة وبين علي ومعاوية بسبب التأويل فإن معاوية ومن معه من الصحابة وأهل الشام تأولوا الانتصار للشهيد المظلوم لئلا يتجرأ الناس على ولاة الأمور فطالبوا بدمه، وعلي ومن معه من الصحابة تأولوا أنهم أهل الحق وأن البيعة تجب على معاوية ومن معه.

(٣) ولا سيما في هذه الأزمنة فإن الناس اختلطوا بالكفار وسافروا إليهم في بلادهم ولذلك كثرت الشبه وارتدّ بعضهم عن دينه.

أليات[1] نساء دوس على ذي الخلصة[2]» قال: وذو الخلصة طاغية دوس التي كانوا يعبدون في الجاهلية. وروى ابن حبان عن معمر قال: إن عليه الآن بيتاً مغلقاً. وفي «صحيح مسلم» عن عائشة مرفوعاً: «لا يذهب الليل والنهار حتى تُعبد اللات والعزى»، وقيل: إن القبر المنسوب إلى ابن عباس بالطائف إنه قبر اللات، وكانوا يعبدونه، ويطوفون به، ويقربون إليه القرابين، وينذرون له النذور، ويسألونه قضاء حاجتهم، وتفريج كربتهم.

قوله: «وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون، كلهم يزعم أنه نبي». قال القرطبي: وقد جاء عددهم معيناً في حديث حذيفة، قال: قال رسول الله ﷺ: «يكون في أمتي كذابون دجالون سبع وعشرون، منهم أربع نسوة» أخرجه أبو نعيم، وقال: هذا حديث غريب تفرد به معاوية بن هشام.

قلت: حديث ثوبان أصح من هذا. قال القاضي: عدد من تنبأ من زمن رسول الله ﷺ إلى الآن ممن اشتهر بذلك، وعرف واتبعه جماعة على ضلالته، فوجد هذا العدد فيهم ومن طالع كتب الأخبار والتواريخ عرف صحة هذا.

وقال الحافظ: قد ظهر مصداق ذلك في زمن النبي ﷺ فخرج مسيلمة الكذاب باليمامة، والأسود العنسي باليمن، ثم خرج في خلافة أبي بكر طليحة بن خويلد في بني أسد بن خزيمة، وسجاح التميمية في بني تميم، وقتل الأسود قبل أن يموت النبي ﷺ، وقتل مسيلمة الكذاب في خلافة أبي بكر -رضي الله عنه-، وتاب طليحة ومات على الإسلام على الصحيح في زمن عمر -رضي الله عنه-، ويقال: إن سجاح تابت أيضاً.

---

(١) أَلَيَات -بفتح الألف واللام- جمع أَلْية -بفتح الألف وإسكان اللام- كتمَرَات جمع تمْرة، وجمَرَات جمع جمرة.

(٢) وقد عُبد ذو الخلصة من قبل دوس قرب بلدة «بيشة» فهدم في أول دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب وسيعبد مرة أخرى.

ثم خرج المختار بن أبي عبيد الثقفي، وتغلب على الكوفة في أول خلافة ابن الزبير فأظهر محبة أهل البيت، ودعا الناس إلى طلب قتلة الحسين، فاتبعهم فقتل كثيراً ممن باشر ذلك، أو أعان عليه فأحبه الناس، ثم إنه زين له الشيطان أن يدعي النبوة، وزعم أن جبريل -عليه السلام- يأتيه.

ومنهم الحارث الكذاب خرج في خلافة عبدالملك بن مروان فقتل، وخرج في خلافة بني العباس جماعة. وليس المراد بالحديث من ادعى النبوة مطلقاً فإنهم لا يحصون كثرة لكون غالبهم ينشأ عن جنون أو سوداء[1]، وإنما المراد من قامت له شوكة، وبدت له شبهة كمن وصفنا وقد أهلك الله تعالى من وقع له منهم ذلك وبقي منهم من يلحقه بأصحابه وآخرهم الدجال الأكبر.

قوله: «وأنا خاتم النبيين» -بفتح التاء- بمعنى الطابع، وبكسرها بمعنى فاعل الطبع، والختم. قال الحسن: خاتم: الذي ختم به؛ أي آخر النبيين، كما قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ (الأحزاب: ٤٠)، وإنما ينزل عيسى بن مريم -عليه السلام- في آخر الزمان حاكماً بشريعة محمد ﷺ، مصلياً إلى قبلته، فهو كآحاد أمته[2] كما قال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده لينزلن فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً، فليكسرن الصليب، وليقتلن الخنزير، وليضعن الجزية[3]».

قوله: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم»: قال يزيد بن هارون، وأحمد بن حنبل: إن لم يكونوا أهل الحديث فلا

---

(١) مرض في الرأس كالجنون ثم يشفى.

(٢) فهو نبي قديم لكنه لا يحكم بشريعة التوراة إذا نزل ولكن يحكم بشريعة محمد فهو كآحاد أمته.

(٣) أي لا يقبل عيسى الجزية وهذا خبر من النبي ﷺ أن الجزية تنسخ وينتهي وقت أخذها بنزول عيسى -عليه السلام-.

أدري من هم[١]»، وكذلك قال إنهم أهل الحديث عبدالله بن المبارك، وعلي بن المديني، وأحمد بن سنان، والبخاري وغيرهم. وقال ابن المديني في رواية «هم العرب»، واستدل برواية من روى «هم أهل الغَرْب»، وفسر الغَرْب بالدلو العظيمة لأن العرب هم الذين يستقون بها.

قلت: ولا تعارض بين القولين، إذ يمتنع أن تكون الطائفة المنصورة لا تعرف الحديث، ولا سنن رسول الله ﷺ بل لا يكون منصوراً على الحق إلا من عمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وهم أهل الحديث من العرب وغيرهم، فإن قيل: فلم خصصه بالعرب؟ قيل: المراد التمثيل لا الحصر، أي أن العرب إن استقاموا على العمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ فهم الطائفة المنصورة حال استقامتهم. قال القرطبي: وفيه دليل على أن الإجماع حجة؛ لأن الأمة إذا أجمعت فقد دخل فيهم الطائفة المنصورة.

وقال المصنف: وفيه الآية العظيمة مع قلتهم لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، والبشارة بأن الحق لا يزول بالكلية كما زال فيما مضى، بل لا تزال عليه طائفة.

قوله: «حتى يأتي أمر الله»: الظاهر أن المراد بأمر الله ما رُوي من قبض من بقي من المؤمنين بالريح الطيبة، ووقوع الآيات العظام، ثم لا يبقى إلا شرار الناس كما روى الحاكم، وأصله في «مسلم» عن عبدالرحمن بن شَماسة أن عبدالله ابن عمرو قال: «لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق، هم شر من أهل الجاهلية» فقال عقبة بن عامر لعبدالله: أعلم ما تقول، وأما أنا فسمعت النبي ﷺ يقول: «لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على أمر الله، ظاهرين لا يضرهم من خالفهم حتى تأتيهم الساعة على ذلك» فقال عبدالله: «ويبعث الله ريحاً ريحها المسك، ومسها مس الحرير، فلا تترك أحداً في قلبه مثقال حبة من إيمان إلا قبضته، ثم يبقى شرار الناس فعليهم تقوم الساعة».

---

(١) المراد بهم العاملون بالكتاب والسنة من يطلب الحديث ويعمل به ويرجع إلى النصوص عند التنازع ويتحاكم إليها ويشمل هذا الفقهاء والعلماء الذين يطلبون الدليل ولا يشمل المقلد فإنه كما قال ابن عبدالبر: «أجمع العلماء على أن المقلد ليس معدوداً من أهل العلم».

وفي «صحيح مسلم» عن ابن مسعود مرفوعاً: «لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس»[(١)]، وفي «صحيحه» أيضاً: «لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض الله الله» وذلك إنما يقع بعد طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة وسائر الآيات العظام، وقد ثبت أن الآيات العظام مثل السلك إذا انقطع تناثر الخرز بسرعة. رواه أحمد، ويؤيده حديث عمران بن حصين مرفوعاً: «لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم حتى يقاتل آخرهم الدجال[(٢)]» رواه أبو داود والحاكم. وعلى هذا فالمراد بقوله في حديث عقبة وما أشبهه من الأحاديث «حتى تأتيهم الساعة» ساعتهم وهي وقت موتهم بهبوب الريح؛ ذكره الحافظ وهو المعتمد. وقد اختلف في محل هذه الطائفة؛ فقال ابن بطّال: إنها تكون ببيت المقدس إلى أن تقوم الساعة[(٣)] كما روى الطبري من حديث أبي أمامة قيل يا رسول الله وأين هم؟ قال: «ببيت المقدس»، وقال معاذ بن جبل -رضي الله عنه-: «هم بالشام» وهذا قول أكثر الشارحين. وفي كلام الطبري ما يدل على أنه لا يجب أن تكون في الشام أو في بيت المقدس دائماً إلى أن يقاتلوا الدجال، بل قد تكون في موضع آخر، لكن لا تخلو الأرض منها حتى يأتي أمر الله.

قلت: وهذا هو الحق فإنه ليس في الشام منذ أزمان أحدٌ بهذه الصفات، بل ليس فيه إلا عُبّاد القبور، وأهل الفسق وأنواع الفواحش والمنكرات، ويمتنع أن يكونوا هم الطائفة المنصورة، وأيضاً فهم منذ أزمان لا يقاتلون أحداً من أهل الكفر، وإنما بأسهم وقتالهم بينهم[(٤)] وعلى هذا فقوله في الحديث: «هم ببيت

(١) ورد أنهم في خفة الطير وأحلام السباع وأنه ينزو بعضهم على بعض كالبهائم.

(٢) وأما بعد الدجال فالله أعلم أنه ينتهي الجهاد لقرب طلوع الشمس من مغربها وحينئذٍ لا توبة ولا إيمان.

(٣) ولا تقوم الساعة إلا على قوم لا يعرفون الله ولا يعبدونه كما في الأحاديث التي ذكرها الشارح.

(٤) وهذا في زمان الشارح الشيخ سليمان، أما الآن ففي الشام أخيارٌ يُقاتَلون، ومجاهدون للدولة =

المقدس»، وقول معاذ: هم بالشام المراد أنهم يكونون فيه بعض الأزمان دون بعض، وكذلك الواقع فدل على ما ذكرنا.

قوله: «**تبارك وتعالى**»: قال ابن القيم: البركة نوعان: أحدهما: بركة وهي فعله تبارك وتعالى، والفعل منها بارك، ويتعدى بنفسه تارة وبأداة على تارة، وبأداة في تارة والمفعول منها مبارك، وهو ما جعل كذلك فكان مباركاً بجعله تعالى، والنوع الثاني: بركة تضاف إليه إضافة الرحمة والعزة، والفعل منها تبارك، ولهذا لا يقال لغيره ذلك ولا يصلح إلا له عز وجل فهو سبحانه المتبارك، وعبده ورسوله المبارك، كما قال المسيح -عليه السلام-: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ فمن بارك الله فيه وعليه فهو المبارَك، وأما صفة تبارك فمختصة به كما أطلقها على نفسه بقوله: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦٤﴾ (غافر: ٦٤) ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾ (الملك: ١) أفلا تراها كيف اطّردت في القرآن جاريةً عليه مختصةً به لا تُطلق على غيره، وجاءت على بناء السعة والمبالغة ، كتعالى وتعاظم ونحوه فجاءت تبارك على بناء تعالى الذي هو دالٌّ على كمال العلو ونهايته، فكذلك تبارك، دالٌّ على كمال بركته وعظمتها وسعتها. وهذا معنى قول من قال من السلف تبارك وتعاظم. وقال ابن عباس: جاء بكل بركة. واعلم أن هذا الحديث بجملته مما عدّ من الأدلة على الشهادتين فإن كل جملة منه وقعت كما أخبر[1] بها ﷺ.



= الكافرة النصيرية.

(١) كما في إخباره أنه يلحق حي من أمته بالمشركين وإعطاؤه الكنزين وسؤاله لأمته أن لا يهلكها بسنة عامة، وإخباره بخروج الكذابين الثلاثين، وإخباره بأنه لا تزال طائفة من أمته على الحق، وغير ذلك.

باب
ما جاء في السحر

الشَّرْحُ:

السحر في اللغة: عبارة عما خفي ولطف سببه، ولهذا جاء في الحديث: «**إن من البيان لسحرا**»، وسمي السحور سحوراً لأنه يقع خفياً آخر الليل وقال تعالى: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ (الأعراف: ١١٦) أي: أخفوا عنهم علمهم. ولما كان السحر من أنواع الشرك إذ لا يأتي السحر بدونه، ولهذا جاء في الحديث: «**ومن سحر فقد أشرك**» أدخله المصنف في كتاب «التوحيد» ليبيِّن ذلك تحذيراً منه كما ذكر غيره من أنواع الشرك. قال أبو محمد المقدسي[1] في «الكافي»: السحر عزائم ورقى وعُقد يؤثر في القلوب والأبدان فيمرض ويقتل ويفرق المرء وزوجته ويأخذ أحد الزوجين عن صاحبه قال الله تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنۡهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَزَوۡجِهِۦۚ﴾ (البقرة: ١٠٢)، وقال سبحانه: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ①﴾ إلى قوله: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ ④﴾ (الفلق: ٤) يعني السواحر اللاتي يعقدن في سحرهن وينفثن في عقدهن، ولولا أن للسحر حقيقة لم يأمر بالاستعاذة منه.

وروت عائشة أن النبي ﷺ سُحر حتى إنه ليخيل إليه أن يفعل الشيء وما يفعله، وإنه قال لها ذات يوم: «**أتاني ملكان فجلس أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي فقال ما وجع الرجل؟ قال: مطبوب، قال: من طبه؟ قال: لبيد بن أعصم في**

(١) ابن قدامة.

مُشط[١] **ومُشاطة في جُفّ طلعة ذكر في بئر ذي أروان»** رواه البخاري. انتهى.

وقد زعم قوم من المعتزلة وغيرهم أن السحر تخييل لا حقيقة له، وهذا ليس بصحيح على إطلاقه، بل منه ما هو تخييل ومنه ماله حقيقة كما يفهم مما تقدم[٢].



(١) بضم الميم في مشط ومشاطة وضم الجيم في جُف.

(٢) وهو الصواب.

وَقَوْلُ الله تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ (البقرة: ١٠٢).

أي ولقد علم اليهود الذين استبدلوا(١) السحر عن متابعة الرسل والإيمان بالله لمن اشتراه، أي: استبدل ما تتلوا الشياطين بكتاب الله ومتابعة رسله، ماله في الآخرة من خلاق. قال ابن عباس: من نصيب. قال قتادة: وقد علم أهل الكتاب فيما عهد الله إليهم أن الساحر لا خلاق له في الآخرة. وقال الحسن: ليس له دين فدلت الآية على تحريم السحر، وهو كذلك، بل هو محرم في جميع أديان الرسل - عليهم السلام- كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴿٦٩﴾﴾ (طه: ٦٩) واستدل بها بعضهم على كفر الساحر لعموم قوله: ﴿لَمَنِ اشْتَرَاهُ﴾ دل عليه قوله: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ (البقرة: ١٠٢) وقد نص أصحاب أحمد على أنه يكفر بتعلمه وتعليمه، وروى عبدالرزاق عن صفوان بن سليم قال: قال رسول الله ﷺ: «**من تعلم شيئاً من السحر قليلاً كان أو كثيراً كان آخر عهده من الله**» وهذا مرسل واختلفوا هل يكفر الساحر أو لا؟ فذهب طائفة من السلف إلى أنه يكفر، وبه قال مالك وأبو حنيفة وأحمد، وقال أصحابه: إلا أن يكون سحره بأدوية وتدخين وسقي شيء يضر فلا يكفر، وقيل: لا يكفر إلا أن يكون في سحره شرك فيكفر، وهذا قول الشافعي(٢) وجماعته!!.

قال الشافعي -رحمه الله-: إذا تعلم السحر قلنا له: صف لنا سحرك، فإن وصف ما يوجب الكفر، مثل ما اعتقده أهل بابل من التقرب إلى الكواكب السبعة

---

(١) واستعاضوا به.

(٢) العبارة غير واضحة لأنه إن أريد به أتباع الشافعي قال وأصحابه وإن أراد غيرهم قال: وجماعة لا جماعته.

وأنها تفعل ما يُلتمس منها فهو كافر، وإن كان لا يوجب الكفر فإن اعتقد إباحته كفر، وعند التحقيق ليس بين القولين اختلاف، فإن من لم يكفر لظنه أنه يتأتى بدون الشرك وليس كذلك بل لا يأتي السحر الذي من قبل الشياطين إلا بالشرك وعبادة الشيطان والكواكب، ولهذا سماه الله كفراً في قوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ (البقرة: ١٠٢)، وقوله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ (البقرة: ١٠٢)، وفي حديث مرفوع رواه رزين: «**الساحر كافر**»، وقال أبو العالية: السحر من الكفر، وقال ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾[٣] وذلك أنهما علماه[١] الخير والشر والكفر والإيمان فعرفا أن السحر من الكفر، وقال ابن جريج في الآية: لا يجترئ على السحر إلا الكافر، وأما سحر الأدوية والتدخين ونحوه فليس بسحر، وإن سمي سحراً فعلى سبيل المجاز كتسمية القول البليغ والنميمة سحراً، ولكنه يكون حراماً لمضرته يُعزَّر من يفعله تعزيراً بليغاً[٢].



(١) لعل الهاء زائدة.

(٢) هذا هو الصواب.

وَقَولُهُ: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾.

قَالَ عُمَرُ: «الجِبْتُ: السِّحْرُ، وَالطَّاغُوتُ: الشَّيْطَانُ».

قال: «وقوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ (النساء: ٥١)».

تقدم الكلام عليها في الباب الذي قبله؛ ووجه إيرادها هنا ظاهر، لأن السحر من الجبت كما قال عمر بن الخطاب.

هذا الأثر رواه ابن أبي حاتم وغيره، وفيه معرفة الجبت والطاغوت والفرق بينهما.



وَقَالَ جَابِرٌ: «الطَّوَاغِيتُ: كُهَّانٌ[١] كَانَ يَنزِلُ عَلَيهِمُ الشَّيطَانُ، فِي كُلِّ حَيٍّ وَاحِدٍ».

هذا الأثر رواه ابن أبي حاتم بنحوه مطولاً عن وهب بن منبه قال: سألت جابر ابن عبدالله عن الطواغيت التي كانوا يتحاكمون إليها. قال: إن في جهينة واحداً وفي أسلم واحداً، وفي هِلالٍ واحداً، وفي كل حي واحداً، وهم كهان تنزل عليهم الشياطين.

قوله: «قال جابر»: هو ابن عبدالله بن عمرو أبو عبدالله الأنصاري ثم السَّلَمي[٢] بفتحتين، صحابي جليل ابن صحابي جليل مكثر عن النبي ﷺ مات بالمدينة بعد السبعين، وقد كفّ بصره وله أربع وتسعون سنة.

قوله: «الطواغيت كهان» إلى آخره: المراد بهذا أن الكهان من الطواغيت لا أنهم الطواغيت لا غير[٣].

قوله: «كان ينزل عليهم الشيطان»: أراد الجنس لا الشيطان الذي هو إبليس فقط، بل تنزل عليهم الشياطين ويخاطبونهم ويخبرونهم ببعض الغيب مما يسترقونه من السمع فيصدقون مرة ويكذبون مئة.

قوله: «في كل حي واحد»: الحي واحد الأحياء، وهم القبائل: أي: في كل قبيلة من قبائل العرب كاهن يتحاكمون إليه، ويسألونه عن الغيب. وكذلك كان الأمر قبل مبعث النبي ﷺ، فأبطل الله ذلك بالإسلام وحُرست السماء بالشهب،

---

(١) الكاهن هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل.

(٢) سَلَمي بفتح السين المهملة نسبة إلى بني سَلِمة بكسر اللام قبيلة الأنصار، أما سُلمي بضم السين المهملة نسبة إلى بني سُليم، مثل الجهني نسبة إلى جهينة، وكالعرني نسبة إلى عُرنة.

(٣) وذلك لأن الكهان من أعظم الطواغيت كقوله -عليه السلام-: «الحج عرفة» لأن عرفة ركن الحج الأعظم وإلا فهي من الحج فكذلك الكهان من أعظم الطواغيت وإلا فهم منهم.

ومطابقة هذا للترجمة ظاهر من جهة أن الساحر طاغوت من الطواغيت إذا كان هذا الاسم يطلق على الكاهن فالساحر أولى لأنه أشر وأخبث.

وَعَن أَبِي هُرَيرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ»، قَالَوا: يَا رَسُولَ الله! وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «الشِّرْكُ بِالله، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ الله [قَتْلَهَا](١) **إلاَّ بِالحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ اليَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ المُحْصَنَاتِ الغَافِلاَتِ المُؤْمِنَاتِ».**

هكذا أورد المصنف هذا الحديث غير معزوٍ؛ وقد رواه البخاري ومسلم.

قوله: «اجتنبوا السبع»: أي أبعدوا، وهو أبلغ من لا تفعلوا، لأن نهي القِربان(٢) أبلغ من نهي المباشرة. ذكره الطيبي.

قوله: «السبع الموبقات»: بموحدة، وقاف، أي: المهلكات: وسميت الكبائر موبقات لأنها تهلك فاعلها في الدنيا بما يترتب عليها من العقوبات، وفي الآخرة من العذاب.

قلت: هكذا ثبت في هذه الرواية عن السبع الموبقات، وكذلك في كتاب عمرو بن حزم الذي أخرجه النسائي وابن حبان في «صحيحه»، والطبراني من طريق سليمان بن داود، عن الزهري، عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، عن أبيه، عن جده قال: كتب رسول الله ﷺ كتاب الفرائض والديات والسنن، وبعث به مع عمرو بن حزم إلى اليمن... الحديث بطوله. وفيه: وكان في الكتاب: «**وإن أكبر الكبائر الشرك**» فذكر مثل حديث أبي هريرة سواء، وأخرجه البزار وابن المنذر من طريق عمرو بن أبي سلمة بن عبدالرحمن، عن أبيه عن أبي هريرة رفعه: «**الكبائر الشرك بالله وقتل النفس...**» الحديث. وذكر بدل السحر الانتقال إلى الأعرابية بعد

---

(١) المحفوظ أن المفعول «قتلها» ليس في متن الحديث وإن كان مراداً في المعنى.

(٢) القِربان: بكسر القاف المثناة الفوقية هو القرب من الشيء، أما القُربان بضم القاف المثناة الفوقية فهو التقرب بالشيء مما يتقرب به إلى الله كالذبائح والمراد هنا الأول.

الهجرة[1] وكذلك في حديث عند الطبراني، وقال عبدالرزاق أنبأنا معمر عن الحسن قال: «**الكبائر الإشراك بالله**» فذكر مثل الأول سواء إلا أنه قال: «**اليمين الفاجرة**» بدل السحر وفي حديث ابن عمر عند البخاري في «الأدب المفرد» والطبري في «التفسير»، وعبدالرزاق مرفوعاً وموقوفاً: «**الكبائر تسع**» فذكر السبع المذكورة وزاد: «**والإلحاد في الحرم وعقوق الوالدين**».

وأخرج إسماعيل القاضي بسند صحيح إلى سعيد بن المسيب قال: «**هن عشر**» فذكر السبع التي في الأصل وزاد: «**عقوق الوالدين، واليمين الغموس، وشرب الخمر**» ولابن أبي حاتم عن علي قال: الكبائر... فذكر السبع إلا أكل مال اليتيم، وزاد: العقوق والتعرب بعد الهجرة وفراق الجماعة، ونكث الصفقة.

وللطبراني عن أبي أمامة أنهم تذاكروا الكبائر، فقالوا: الشرك وأكل مال اليتيم والفرار من الزحف والسحر والعقوق وقول الزور والغلول والربا. فقال رسول الله ﷺ: «**فأين تجعلون الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً؟**»، وقد جاء في أحاديث غير ما ذكرنا جملة من الكبائر منها اليمين الغموس، وشهادة الزور والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، وسوء الظن بالله، والزنا، والسرقة وغير ذلك. قال الحافظ: ويحتاج عندها إلى الجواب عن الحكمة في الاقتصار على سبع، ويجاب بأن مفهوم العدد ليس بحجة وهو جواب ضعيف، أو بأنه أعلم أولاً بالمذكورات، ثم أعلم بما زاد، فيجب الأخذ بالزائد أو أن الاقتصار وقع حسب المقام بالنسبة للسائل، أو من وقعت له واقعة ونحو ذلك، وقد أخرج الطبري وإسماعيل القاضي عن ابن عباس أنه قيل له: الكبائر سبع؟ فقال: هن أكثر من

---

(١) لما في ترك المدينة من فراق الجماعة وحضور صلاة الجمعة والجماعـة، وسماع العلم، أمـا إذا فسدت المدينة وصارت الصحراء أسلم لدين المرء جاز الانتقال إليها كما في الحديث: يوشك أن يكون خير مال المرء غنم يتبع بـها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن».

سبع، وفي رواية عنه: هي إلى السبعين أقرب، وفي رواية: إلى السبعمئة. وإذا تقرر ذلك عرف عن فساد من عرّف الكبيرة بأنها ما وجب فيها الحد لأن أكثر المذكورات لا يجب فيها الحد. انتهى. وسيأتي مزيد لذلك إن شاء الله[١].

قوله: «قال الشرك بالله»: هو أن يجعل لله نداً يدعوه كما يدعو الله، ويرجوه كما يرجو الله، ويخافه كما يخاف الله[٢] وبدأ به لأنه أعظم ذنب عُصي الله به كما في «الصحيحين» عن ابن مسعود سألت النبي ﷺ: أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: **«أن تجعل لله نداً وهو خلقك»**.

قوله: «والسحر»: تقدم معناه، وهذا وجه إيراد المصنف لهذا الحديث في الباب.

قوله: «وقتل النفس التي حرم الله»: أي حرم قتلها[٣] إلا بالحق، أي بفعل موجب للقتل كقتل المشرك المحارب، والنفس بالنفس، والزاني بعد الإحصان كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا ... عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ (النساء: ٩٣) وسواء في ذلك القتل عمداً أو شبه[٤] عمد، كما صرح به طائفة من الشافعية بخلاف قتل الخطأ فإنه لا كبيرة ولا صغيرة لأنه غير معصية.

قلت: ويلتحق بذلك قتل المعاهد[٥] كما في الحديث: **«من قتل مُعَاهَداً لم يرح رائحة الجنة...»** الحديث.

---

(١) وأرجح الأقوال في تعريف الكبيرة أنها ما وجب فيها حد أو وعيد في الآخرة بنار أو لعنة أو غضب وزاد بعضهم أو نفي إيمان.

(٢) وألحق به إنكار وجوب أو تحريم ما هو معلوم من الدين بالضرورة كوجوب الصلاة وتحريم الزنا.

(٣) وهذا يدل على أن المفعول «قتلها» ليس في متن الحديث.

(٤) لأن شبه العمد قد تعمد الفعل وإن لم يتعمد القتل.

(٥) لأنها نفس معصومة دون المؤمنة.

قوله: «وأكل الربا»: أي تناوله بأي وجه كان كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ (البقرة: ٢٧٥). إلى قوله: ﴿وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾﴾ (البقرة: ٢٧٥) قال ابن دقيق العيد: وهو مجرب[١] لسوء الخاتمة نعوذ بالله من ذلك.

قوله: «وأكل مال اليتيم»: يعني التعدي فيه[٢]، وعبّر بالأكل لأنه أهم وجوه الانتفاع كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ (النساء: ١٠).

قوله: «والتولي يوم الزحف»: أي الإدبار من وجوه الكفار وقت ازدحام الطائفتين في القتال، وإنما يكون كبيرة إذا فرّ إلى غير فئة، أو غير متحرِّف لقتال كما تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾ (الأنفال: ١٥-١٦).

قوله: «وقذف المحصنات الغافلات[٣] المؤمنات»: هو بفتح الصاد المحفوظات من الزنا، وبكسرها الحافظات فروجهن منه، والمراد الحرائر العفيفات، ولا يختص بالمتزوجات بل حكم البكر كذلك بالإجماع كما ذكره الحافظ[٤] إلا إن كانت دون تسع سنين، والمراد رميهن بزنا أو لواط. والغافلات

---

(١) أي أكل الربا

(٢) والتصرف فيه بغير وجه شرعي.

(٣) وصفهن بالغافلات وصف أغلبي وإلا فلو كان عندها علم بذلك لكان الحكم واحداً، وكذلك كون المقذوف محصنة وصف أغلبي لأن الغالب أن المرأة هي التي تُقذف وإلا لو قُذف الرجل حكمه حكم قذف المرأة وهو كبيرة وفيه الحد.

(٤) ابن حجر كما نوّه عليه الشارح في المقدمة.

أي: عن الفواحش وما رُمين به، لا خبر عندهن من ذلك، فهو كناية عن البريئات لأن الغافل برئ عما بهت به من الزنا، والمؤمنات. أي بالله تعالى؛ احترازاً عن قذف الكافرات، فإنه من الصغائر.



وَعَن جُندُبٍ مَرفُوعاً: «حَدُّ السَّاحِرِ ضَرْبَةٌ بِالسَّيْفِ». [رَوَاهُ التِّرمِذِيُّ، وَقَالَ: الصَّحِيحُ أَنَّهُ مَوقُوفٌ].

هذا الحديث رواه الترمذي كما قال المصنف من طريق إسماعيل بن مسلم المكي وقال بعد أن رواه: لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه، وإسماعيل بن مسلم المكي يضعّف في الحديث من قبل حفظه، وإسماعيل بن مسلم العبدي البصري. قال وكيع: هو ثقة؛ ويروي عن الحسن أيضاً، والصحيح عن جندب موقوف. انتهى.

ورواه أيضاً الدارقطني والبيهقي والحاكم وقال: صحيح غريب، وقال الترمذي في «العلل»: سألت عنه[1] محمداً يعني البخاري فقال: هذا لا شيء؛ وإسماعيل ضعيف جداً، وقال الذهبي في «الكبائر»: إنه من قول جندب، وأشار مُغْلَطاي إلى أنه وإن كان ضعيفاً يتقوّى بكثرة طرقه وقال: خرّجه جَمْعٌ: منهم البغوي الكبير والصغير والطبراني والبزار ومن لا يحصى كثرة[2].

قوله: «عن جندب»: ظاهر صنيع الطبراني في «الكبير» أنه جندب بن عبدالله البجلي لا جندب الخير الأزدي قاتل الساحر، فإنه رواه في ترجمة جندب البجلي من طريق خالد العبد، عن الحسن بن جندب، عن النبي ﷺ وذكره وخالد العبد ضعيف.

وقال الحافظ[3]: والصواب أنه غيره، فقد رواه ابن قانع والحسن بن سفيان من وجهين؛ عن الحسن، عن جندب الخير أنه جاء إلى ساحر فضربه بالسيف حتى مات. وقال سمعت رسول الله ﷺ يقول: فذكره. وجندب الخير هو جندب بن

---

(١) عن حديث جندب أو عن إسماعيل المكي.

(٢) وعلى القول بأنه موقوف فله حكم المرفوع لأنه مما لا مجال للرأي فيه.

(٣) ابن حجر.

كعب، وقيل جندب بن زهير، وقيل هما واحد كما قاله ابن حبان أبو عبدالله الأزدي الغامدي صحابي. وروى ابن السَّكن من حديث بريدة أن النبي ﷺ قال: «**يضرب ضربة فيكون أمة واحدة**».

قوله: «**حد الساحر ضربة بالسيف**»: روي بالهاء وبالتاء وكلاهما صحيح، وبهذا الحديث أخذ أحمد ومالك وأبو حنيفة فقالوا: يقتل الساحر، وروي ذلك عن عمر وعثمان وابن عمر وحفصة وجندب بن عبدالله البجلي وجندب بن كعب الأزدي وقيس بن سعد وعمر بن عبدالعزيز ولم ير الشافعي عليه القتل بمجرد السحر إلا إن عمل في سحره ما يبلغ الكفر. وبه قال ابن المنذر وهو رواية عن أحمد، والأول أولى للحديث، ولأثر عمر الذي ذكره المصنف وعمل به الناس في خلافته من غير نكير فكان إجماعاً.



وَفِي «صَحِيحُ البُخَارِيّ» عَنْ بَجَالَةَ بن عَبَدَةَ؛ قَالَ: «كَتَبَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ أَنِ اقْتُلُوا كُلَّ سَاحِرٍ وَسَاحِرَةٍ». قَالَ: فَقَتَلْنَا ثَلاَثَ سَوَاحِرَ.

هذا الأثر رواه البخاري كما ذكره المصنف، لكنه لم يذكر قتل السحرة، ولفظه عن بجالة بن عبدة قال: كنت كاتباً لجَزء بن معاوية عمّ الأحنف فأتانا كتاب عمر بن الخطاب قبل موته بسنة: فرِّقوا بين كل محرم من المجوس ولم يكن عمر أخذ الجزية من المجوس حتى شهد عبدالرحمن بن عوف أن رسول الله ﷺ أخذها من مجوسي هجر. وعلى هذا فعزو المصنف إلى البخاري يحتمل أنه أراد أصله لا لفظه، ورواه الترمذي والنسائي مختصراً، ورواه عبدالرزاق وأحمد وأبو داود والبيهقي مطولاً، ورواه القطيعي في الجزء الثاني من «فوائده» بزيادة. فقال حدثنا أبو علي بشر بن موسى الأسدي، ثنا هوذة بن خليفة، ثنا عوف، عن عمار مولى بني هاشم، عن بجالة بن عبدة قال: كتب إلينا عمر بن الخطاب أن اعرضوا على من كان قبلكم[1] من المجوس أن يدعوا نكاح أمهاتهم وبناتهم وأخواتهم ويأكلوا جميعاً كيما نلحقهم بأهل الكتاب، ثم اقتلوا كل كاهن وساحر.

قلت: إسناده حسن.

قوله: «عن بجالة»: هو بفتح الموحدة بعدها جيم ابن عبدة بفتحتين التيمي[2] العنبري، بصري ثقة.

قوله: «كتب إلينا عمر بن الخطاب أن اقتلوا كل ساحر وساحرة...» إلى آخره: صريح في قتل الساحر والساحرة، وهو من حجج الجمهور القائلين بأنه يقتل، وظاهره أن يقتل من غير استتابة، وهو كذلك على المشهور عن أحمد وبه قال مالك

---

(١) أي مروا من كان عندكم.

(٢) التميمي بميمين.

إن الصحابة لم يستتيبوهم، ولأن علم الساحر لا يزول بالتوبة[(١)].

وعن أحمد يستتاب فإن تاب قبلت توبته وخلي سبيله، وبه قال الشافعي؛ لأن ذنبه لا يزيد على الشرك، والمشرك يستتاب وتقبل توبته، فكذلك الساحر وعلمه بالسحر لا يمنع توبته، بدليل ساحر أهل الكتاب إذا أسلم ولذلك صح إيمان سحرة فرعون وتوبتهم.

قلت: الأول أصح لظاهر عمل الصحابة فلو كانت الاستتابة واجبة لفعلوها أو بيَّنوها وأما قياسه على المشرك فلا يصح لأنه أكثر فساداً وتشويهاً من المشرك، وكذلك لا يصح قياسه على ساحر أهل الكتاب لأن الإسلام يجُّب ما قبله، وهذا الخلاف إنما هو في إسقاط الحدّ عنه بالتوبة؛ أما فيما بينه وبين الله فإن كان صادقاً قبلت توبته[(٢)].



(١) فهو كالزنديق فلا تقبل توبته بعد القدرة عليه، إما إذا جاء تائباً قبل القبض عليه وقبل أن يفعل شيئاً فالصحيح قبولها لعدم تهمته حينئذٍ.

(٢) وهذا مما لا خلاف فيه.

وَصَحَّ عَن حَفصَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْها- «أَنَّهَا أَمَرَت بِقَتلِ جَارِيَةٍ لَـهَا سَحَرَتهَا، فَقُتِلَت». وَكَذَا صَحَّ عَن جُندَبٍ.

قَالَ أَحمَدُ: عَن ثَلاَثَةٍ مِن أَصحَابِ النَّبِيِّ ﷺ.

هذا الأثر رواه مالك في «الموطأ» عن محمد بن عبدالرحمن بن سعد بن زرارة أنه بلغه أن حفصة زوج النبي ﷺ قتلت جارية لها سحرتها وكانت قد دبرتها فأمرت بها فقتلت، ورواه عبدالرزاق وحفصة هي أم المؤمنين بنت عمر بن الخطاب تزوجها النبي ﷺ بعد خنيس بن حذافة سنة ثلاث، وماتت سنة خمس وأربعين.

قوله: «وكذا صح عن جندب».

المراد به هنا قطعاً جندب الخير الأزدي قاتل الساحر، وهو جندب بن كعب ابن عبدالله. قال أبو حاتم: جندب بن كعب قاتل الساحر، ويقال: جندب بن زهير فجعلهما واحداً وفرق بينهما ابن الكلبي وغيره. قال ابن عبدالبر: ذكر الزبير أن جندب ابن زهير قاتل الساحر والصحيح أنه غيره وأشار المصنف بهذا إلى قتله الساحر كما رواه البخاري في «تاريخه» عن أبي عثمان النهدي قال: كان عند الوليد رجل يلعب فذبح إنساناً وأبان رأسه فعجبنا فأعاد رأسه فجاء جندب الأزدي فقتله، ورواه البيهقي في «الدلائل» مطولاً، وفيه، فقال الناس: سبحان الله يحيي الموتى. ورآه رجل صالح من المهاجرين، فنظر إليه فلما كان من الغد اشتمل على سيفه فذهب يلعب لعبه ذلك، فاخترط الرجل سيفه فضرب عنقه، وقال: إن كان صادقاً فليحيي نفسه، فأمر به الوليد فسجن. وذكر القصة بتمامها ولها طرق كثيرة.

قوله: «قال أحمد عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ». أحمد هو: الإمام أحمد ابن محمد بن حنبل.

قوله: «عن ثلاثة». أي: صح قتل الساحر عن ثلاثة أو جاء قتل الساحر عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ يعني عمر وحفصة وجندباً والله أعلم.



بيان شيء من أنواع السحر

الشَّرْحُ:

لما ذكر المصنف ما جاء في السحر أراد هنا أن يبيِّن شيئاً من أنواعه لكثرة وقوعها وخفائها على الناس حتى اعتقد كثير من الناس أن من صدرت عنه هذه الأمور، فهو من الأولياء، وعدوها من كرامات الأولياء وآل الأمر إلى أن عُبد أصحابها ورجي منهم النفع والضر، والحفظ والكلاءة والنصر أحياءً وأمواتاً، بل اعتقد كثير في أناس من هؤلاء أن لهم التصرف التام المطلق في الملك، ولا بد من ذكر فرقان يفرق به المؤمن بين ولي الله وبين عدو الله، من كاهن وساحر وعائف، وزاجر ومتطير ونحوه ممن قد يجري على يده شيء من الخوارق.

فاعلم أنه ليس كل من جرى على يده شيء من خوارق العادة يجب أن يكون ولياً لله تعالى، لأن العادة تنخرق بفعل الساحر والمشعوذ وخبر المنجم والكاهن بشيء من الغيب، مما يخبره به الشياطين المسترقون للسمع. وفعل الشياطين لأناس ممن يُنسبون إلى دين وصلاح ورياضة مخالفة للشريعة كأناس من الصوفية وكرهبان النصارى ونحوهم فيطيرون بهم في الهواء ويمشون بهم على الماء ويأتون بالطعام والشراب والدراهم وقد يكون ذلك بعزائم ورقى شيطانية وبحيل وأدوية، كالذين يدخلون النار بحجر الطلق ودهن النارنج. وقد يكون برؤية صادقة فيها وما يستدل به على وقوع ما لم يقع وهذه مشتركة بين ولي الله وعدوه. وقد يكون ذلك بنوع طيرة يجدها الإنسان في نفسه فتوافق القدر، وتقع كما أخبر، وقد يكون بعلم الرمل والضرب بالحصى، وقد يكون ذلك استدراجاً والأحوال الشيطانية كثيرة. وقد فرق الله بين أوليائه وأعدائه في كتابه فاعتصم به وحده، لا

إله إلا هو، فإنه لا يضل من اعتصم به ولا يشقى.

قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ (يونس: ٦٢-٦٣) فذكر تعالى أن أولياءه الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون هم المؤمنون المتقون ولم يشترط أن يجري على أيديهم شيء من خوارق العادة. فدل أن الشخص قد يكون ولياً لله وإن لم يجر على يديه شيء من الخوارق إذا كان مؤمناً تقياً، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ (آل عمران: ٣١) فأولياء الله المحبوبون عند الله هم المتبعون للرسول ﷺ باطناً وظاهراً، ومن كان بخلاف هذا فليس بمؤمن فضلاً عن أن يكون ولياً لله تعالى، وإنما أحبهم الله تعالى لأنهم والوه فأحبوا ما يحب، وأبغضوا ما يبغض، ورضوا بما يرضى، وسخطوا ما يسخط، وأمروا بما يأمر، ونهوا عما ينهى، وأعطوا من يحب أن يعطى ومنعوا من يحب أن يمنع. وأصل الولاية المحبة والقرب وأصل العداوة البغض والبعد.

وبالجملة: فأولياء الله هم أحبابه المقربون إليه بالفرائض والنوافل وترك المحارم، الموحدون الذين لا يشركون بالله شيئاً وإن لم تجر على أيديهم خوارق فإن كانت الخوارق دليلاً على ولاية الله فلتكن دليلاً على ولاية الساحر والكاهن والمنجم والمتفرِّس[1]، ورهبان اليهود والنصارى، وعُبّاد الأصنام؛ فإنهم يجري لهم من الخوارق ألوف، ولكن هي من قبل الشياطين؛ فإنهم يتنزلون عليهم لمجانستهم لهم في الأفعال والأقوال كما قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ

---

(١) الذي له فراسة كالذي ينظر في الشخص ويتفرَّس فيه كما تفرَّس شخص في شخص أنه يطلب شخصاً أعور فسئل فقال: لأنه كلما رأى رجلاً أعور نظر فيه وبحّر به بعينيه، وقد ورد في الحديث: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله»، والحديث حسن له طرق ومعناه اتقوا فراسة المؤمن لا تصيبكم.

﴿عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢)﴾ (الشعراء: ٢٢١-٢٢٢)، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ (٣٦)﴾ (الزخرف: ٣٦) وقد طارت الشياطين ببعض من ينتسب إلى الولاية، فقال لا إله إلا الله فسقط وتجد عمدة كثير من الناس في اعتقادهم الولاية في شخص أنه قد صدر عنه مكاشفة في بعض الأمور أو بعض الخوارق للعادة مثل أن يشير إلى شخص فيموت أو يطير في الهواء إلى مكة أو غيرها أحياناً أو يمشي على الماء أو يملأ إبريقاً من الهواء أو يخبر في بعض الأوقات بشيء من الغيب، أو يختفي أحياناً عن أعين الناس، أو يخبر بعض الناس بما سرق له أو بحال غائب أو مريض، أو أن بعض الناس استغاث به وهو غائب أو ميت، فرآه قد جاء فقضى حاجته أو نحو ذلك، وليس في شيء من هذه الأمور ما يدل على أن صاحبها مسلم فضلاً عن أن يكون ولياً لله، بل قد اتفق أولياء الله على أن الرجل لو طار في الهواء ومشى على الماء لم يغترّ به حتى ينظر متابعته لرسول الله ﷺ، وموافقته لأمره ونهيه. ومثل هذه الأمور قد يكون صاحبها ولياً لله وقد يكون عدواً له، فإنها قد تكون لكثير من الكفار والمشركين واليهود والنصارى والمنافقين وأهل البدع، وتكون لهؤلاء من قبل الشياطين أو تكون استدراجاً، فلا يجوز أن يظن أن كل من كان له شيء من هذه الأمور فهو ولي لله، بل يعرف أولياء الله بصفاتهم وأحوالهم وأفعالهم التي دل عليها الكتاب والسنة، وأكثر هذه الأمور قد توجد في أشخاص يكون أحدهم لا يتوضأ ولا يصلي المكتوبة ولا يتنظف ولا يتطهر الطهارة الشرعية، بل يكون ملابساً للنجاسات معاشراً للكلاب، يأوي إلى المزابل، رائحته خبيثة، ركّاباً للفواحش، يمشي في الأسواق كاشفاً لعورته، غامزاً للشرع، مستهزئاً به، وبحملته، يأكل العقارب والخبائث التي تحبها الشياطين، كافراً بالله، ساجداً لغير الله من القبور وغيرها، يكره سماع القرآن وينفر منه، ويُؤْثِر سماع الأغاني والأشعار ومزامير الشيطان على كلام الرحمن. فلو جرى على يدي

شخص من الخوارق ماذا عساه أن يجري فلا يكون ولياً لله، محبوباً عنده حتى يكون متبعاً لرسوله ﷺ باطناً وظاهراً.

فإن قلت: فعلى هذا ما الفرق بين الكرامة وبين الاستدراج والأحوال الشيطانية؟

قيل: إن علمت ما ذكرنا عرفت الفرق، لأنه إذا كان الشخص مخالفاً للشرع، فما يجري له من هذه الأمور ليس بكرامة، بل هي إما استدراج وإما من عمل الشياطين، ويكون سببها هو ارتكاب ما نهى الله عنه ورسوله ﷺ، فإن المعاصي لا تكون سبباً لكرامة الله، ولا يستعان بالكرامات عليها، فإذا كانت لا تحصل بالصلاة والذكر وقراءة القرآن والدعاء بل تحصل بما تحبه الشياطين كالاستغاثة بغير الله، أو كانت مما يستعان بها على ظلم الخلق وفعل الفواحش، فهي من الأحوال الشيطانية لا من الكرامات الرحمانية، وكلما كان الإنسان أبعد عن الكتاب والسنة كانت الخوارق الشيطانية له أقوى وأكثر من غيره، فإن الجن الذين يقترنون بالإنس من جنسهم فإن كان كافراً ووافقهم على ما يختارونه من الكفر والفسوق والضلال والإقسام عليهم بأسماء من يعظمونه، وللسجود لهم وكتابة أسماء الله أو بعض كلامه بالنجاسة فعلوا معه كثيراً مما يشتهيه بسبب ما برطلهم(١) به من الكفر وقد يأتونه بما يهواه من امرأة وصبي، بخلاف الكرامة فإنها لا تحصل إلا بعبادة الله والتقرب إليه ودعائه وحده لا شريك له، والتمسك بكتابه، واجتناب المحرمات، فما يجري من هذا الضرب فهو كرامة، وقد اتفق على هذا الفرق جميع العلماء.

وبالجملة: فإن عَرَفْتَ الأسباب التي يُنال بها ولاية الله عرفت أهلها وعرفت أنهم أهل الكرامة؛ وإن كنت ممن يسمع بالأولياء وهو لا يعرف الولاية ولا أسبابها

---

(١) البرطيل: الرشوة.

ولا أهلها بل يميل مع كل ناعق وساحر ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَـٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ (يونس: ١٠١) ولشيخ الإسلام كتاب «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» فراجعه فإنه أتى فيه بالحق المبين.



قَالَ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بنُ جَعفَرٍ[١]، حَدَّثَنَا عَوفٌ، عَن حَيَّانَ[٢] بنِ العَلاَءِ، وثَنَا قَطَنُ بنُ قَبِيصَةَ، عَن أَبِيهِ، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ العِيَافَةَ وَالطَّرْقَ وَالطِّيَرَةَ مِنَ الجِبْتِ».

قَالَ عَوفٌ: العِيَافَةُ: زَجرُ الطَّيرِ. وَالطَّرْقُ: الخَطُّ يُخَطُّ بِالأَرضِ. وَالجِبْتُ[٣]: قَالَ الحَسَنُ: «رَنَّةُ الشَّيطَانِ» إِسنَادُهُ جَيِّدٌ[٤].

وَلأَبِي دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ وابنُ حِبَّانَ في «صَحِيحِهِ»: المُسنَدُ مِنهُ.

قوله: «قال أحمد»: هو الإمام أحمد بن محمد بن حنبل، ومحمد بن جعفر هو المشهور بغندر الهذلي البصري، ثقة مشهور، ثبت في شعبة حتى فضّله علي بن المديني فيه على عبدالرحمن بن مهدي بل أقر له ابن مهدي بذلك. مات سنة ست ومئتين[٥]. وعوف هو ابن أبي جميلة -بفتح الجيم- العبدي البصري المعروف بعوف الأعرابي ثقة. مات سنة ست أو سبع وأربعين ومئة، وله ست وثمانون سنة. وحيان بن العلاء هو بالتحتية ويقال حيان بن مخارق أبو العلاء البصري مقبول. وقَطَن -بفتحتين- أبو سهلة البصري صدوق.

قوله: «عن أبيه»: هو قبيصة -بفتح أوله وكسر الموحدة ابن المخارق- بضم

---

(١) هو غندر.

(٢) حيّان بالياء المثناة التحتية، إنما ذكر المصنف الإسناد وليس من عادته لأن الحديث فيه شيء من ناحية السند فأراد أن يزيله.

(٣) هذه الأمور العيافة والطرق والطيرة والعقد والنفث فيها والاقتباس من النجوم إن اعتقد أنها مؤثرة بنفسها فهو شرك أكبر ومعتقده كافر خارج من الملة وإن اعتقد أنها سبب فهو شرك أصغر.

(٤) سنده جيد؛ وهو كما قال المصنف وهذه الأنواع من السحر وإن لم تكن عن طريق الشياطين بل هي مما يدعي فيه الغيب فهو كالسحر في الضرر والإفساد فألحقت به ومنها النميمة.

(٥) في «تهذيب التهذيب» و«الخلاصة» سنة ثلاث وتسعين ومئة أو أربع وتسعين.

الميم وتخفيف المعجمة أبو عبدالله الهلالي، صحابي نزل البصرة.

قوله: «إن العيافة والطرق والطيرة من الجبت»: قال عوف: العيافة: زجر الطير. هذا التفسير ذكره غير واحد كما قال عوف، وهو كذلك. قال أبو السعادات: العيافة: زجر الطير والتفاؤل بأسمائها وأصواتها وممرها، وهو من عادة العرب كثيراً وهو كثير في أشعارهم يقال: عاف يعيف عيفاً إذا زجر وحدس وظن[١].

قوله: «والطرق الخط يخط في الأرض»: هكذا فسره عوف، وهو تفسير صحيح. وقال أبو السعادات: هو الضرب بالحصى الذي يفعله النساء[٢].

قلت: وأياً ما كان فهو من الجبت. وأما الطيرة فسيأتي الكلام عليها في بابها إن شاء الله تعالى.

قوله: «من الجبت»: أي من أعمال السحر. قال القاضي: والجبت في الأصل الفَشِل[٣] الذي لا خير فيه[٤] ثم استعير لما يُعبد من دون الله وللساحر والسحر. وقال الطيبي: من فيه إما ابتدائية أو تبعيضية، فعلى الأول المعنى الطيرة ناشئة من الساحر، وعلى الثاني المعنى الطيرة من جملة السحر والكهانة، أو من جملة عبادة غير الله، أي الشرك يؤيده قوله في الحديث الآتي: «**الطيرة شرك**». انتهى. وفي الحديث دليل على تحريم التنجيم لأنه إذا كان الخط ونحوه الذي هو من فروع النجامة من

---

(١) ومن ذلك قول الشاعر: خبير بن لهب:

خبير بنو لهب فلا تك ملغياً   مقالة لهبيّ إذا الطير مرّت

(٢) هو خطوط توضع فيها حصى أو ودع.

(٣) قال المناوي في «فيض القدير» الجبت في الأصل الفشل الذي لا خير فيه، وقيل أصله جبس فأبدلت السين تاء تنبيها على مبالغته في الفشولة، ثم استعير لما يعبد من دون الله.

(٤) فتكون العيافة، والطرق والطيرة من الجبت لا خير فيها.

الجبت فكيف بالنّجامة؟!

قوله: «قال الحسن»: رنة الشيطان: لم أجد فيه كلاماً[١].

قوله: «ولأبي داود والنسائي وابن حبان في «صحيحه» المسند منه». يعني أن هؤلاء رووا الحديث واقتصروا على المرفوع منه، ولم يذكروا التفسير الذي فسره به عوف. وقد رواه أبو داود في التفسير المذكور بدون كلام الحسن. والنسائي هو الإمام الحافظ أحمد بن شعيب بن علي بن سنان بن بحر بن دينار أبو عبدالرحمن صاحب «السنن» وغيرها من المصنفات. روى عن محمد بن المثنى وابن بشار وقتيبة بن سعيد وخلق. وكان إليه المنتهى في الحفظ والعلم لعلل الحديث. مات سنة ثلاث وثلاثمئة وله ثمان وثمانون سنة.



---

(١) هذا من ورعه -رحمه الله- لم يتكلم فيه ورنة الشيطان صوت مما يتألم منه عند رؤية ما يغيظه من الخيرات فهي للتألم أو صوت ما يفرح به عند رؤية ما يسره كالطرب والغناء.

وَعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُما- قَالَ: قَالَ رَسولُ الله ﷺ: «مَنِ اقْتَبَسَ شُعبةً مِنَ النُّجُومِ، فَقَد اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ، زَادَ مَا زَادَ». [رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بإِسنَاد صَحِيح].

هذا الحديث رواه أبو داود كما قال المصنف بإسناد صحيح. وكذا صححه النووي والذهبي، ورواه أحمد وابن ماجه.

قوله: «من اقتبس». قال أبو السعادات: قبست العلم واقتبسته: إذا تعلمته. انتهى. وعلى هذا، فالمعنى من تعلم.

قوله: «شعبة». أي: طائفة وقطعة من النجوم، والشعبة: الطائفة من الشيء والقطعة منه، ومنه الحديث: «**الحياء شعبة من الإيمان**» أي: جزء منه.

قوله: «فقد اقتبس شعبة من السحر». أي: المعلوم تحريمه. قال شيخ الإسلام: فقد صرح رسول الله ﷺ بأن علم النجوم من السحر. وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾ (طه: ٦٩).

وهكذا الواقع فإن الاستقراء يدل على أن أهل النجوم لا يفلحون في الدنيا ولا في الآخرة.

قوله: «زاد ما زاد». يعني: كلما زاد من علم النجوم زاد له من الإثم مثل إثم الساحر، أو زاد اقتباس شعب السحر ما زاد اقتباس علم النجوم.

قلت: والقولان متلازمان لأن زيادة الإثم فرع عن زيادة السحر، وذلك لأنه تحكم على الغيب الذي استأثر الله بعلمه، فعلم أن تأثير النجوم باطل محرم، وكذا العمل بمقتضاه كالتقرب إليها بتقريب القرابين لها كفر. قاله ابن رجب.



وَلِلنِّسَائِي مِن حَدِيثِ أَبِي هُرَيرَةَ[(١)]: «مَنْ عَقَدَ عُقْدَةً، ثُمَّ نَفَثَ فِيهَا، فَقَدْ سَحَرَ، وَمَنْ سَحَرَ، فَقَدْ أَشْرَكَ، وَمَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا، وُكِلَ إِلَيْهِ».

هذا الحديث ذكره المصنف من حديث أبي هريرة وعزاه للنسائي ولم يبين هل هو موقوف أو مرفوع؟ وقد رواه النسائي مرفوعاً وذكر المصنف عن الذهبي أنه قال: لا يصح وحسّنه ابن مفلح.

قوله: «من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر»: اعلم أن السحرة إذا أرادوا عمل السحر عقدوا الخيوط ونفثوا على كل عقدة حتى ينعقد ما يريدونه من السحر ولهذا أمر الله بالاستعاذة من شرهم في قوله: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلْعُقَدِ ۝٤﴾ (الفلق: ٤) يعني: السواحر اللاتي يفعلن ذلك والنفث هو النفخ مع ريق وهو دون التفل وهو مرتبة بينهما، والنفث فعل الساحر فإذا تكيفت نفسه بالخبث والشر الذي يريده بالمسحور ويستعين عليه بالأرواح الخبيثة نفخ في تلك العقد نفخاً معه ريق فيخرج من نفْسه[(٢)] الخبيثة نَفَس ممازج للشر والأذى مقترن بالريق الممازج لذلك. وقد تساعد هو والروح الشيطانية على أذى المسحور. فيصيبه السحر بإذن الله الكوني القدري لا الإذن الشرعي. قاله ابن القيم.

قوله: «ومن سحر فقد أشرك»: نص في أن الساحر مشرك إذ لا يتأتى السحر بدون الشرك كما حكاه الحافظ عن بعضهم.

قوله: «ومن تعلق شيئاً وكل إليه»: أي من تعلق قلبه شيئاً بحيث يتوكل عليه، ويرجوه وكله الله إلى ذلك الشيء فإن تعلق العبد على ربه وإلهه وسيده ومولاه،

---

(١) هذا الحديث ضعيف لأنه من رواية الحسن عن أبي هريرة وهو لم يسمع من أبي هريرة ولكن حسّنه ابن مفلح لشواهده -يعني في المعنى-.

(٢) روحه.

وربِّ كل شيء ومليكه وكله إليه فكفاه ووقاه وحفظه وتولاه، ونعم المولى ونعم النصير كما قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ (الزمر: ٣٦) ومن تعلق على السحر والشياطين وكله الله إليهم فأهلكوه في الدنيا والآخرة، وبالجملة فمن توكل على غير الله كائناً من كان وكل إليه وأتاه الشر في الدنيا والآخرة من جهته مقابلةً له بنقيض قصده، وهذه سنة الله في عباده التي لا تُبدَّل وعادته التي لا تُحوَّل، أن من اطمأن إلى غيره أو وثق بسواه أو ركن إلى مخلوق يدبره أجرى الله تعالى له بسببه أو من جهته خلاف ما علَّق به آماله وهذا أمر معلوم بالنص والعِيان[1]. ومن تأمل ذلك في أحوال الخلق بعين البصيرة النافذة رأى ذلك عياناً. وفائدة هذه الجملة بعد ما قبلها الإشارة إلى أن الساحر متعلق على غير الله فإنه متعلق على الشياطين.



(١) العِيان، بكسر العين المهملة.

وَعَن ابنِ مَسعُودٍ: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «أَلاَ هَل أُنبِّئُكُمْ مَا العَضَه؟ هِيَ النَّمِيمَةُ، القَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ» [رَوَاهُ مُسلِمٌ].

قوله: «هل أنبئكم»: أي أخبركم.

قوله: «ما العضه». هو بفتح العين المهملة وسكون المعجمة. قال أبو السعادات: هكذا تروى في كتب الحديث والذي جاء في كتب الغريب[1] ألا أنبئكم ما العِضَه[2] بكسر العين وفتح الضاد، وفي حديث آخر: «**إياكم والعضه**» قال الزمخشري: أصلها العَضْه فعلة من العضه[3]. وهو البهت فحذفت لامه، كما حذفت من السَّنة والشَّفة وتجمع على عضين[4]. ثم فسره بقوله: هي النميمة القالة بين الناس وعلى هذا فأطلق عليها العَضَهْ لأنها لا تنفك عن الكذب. والبهتان غالباً ذكره القرطبي.

قلت: ظاهر إيراد المصنف لهذا الحديث هنا يدل على أن معنى العَضَهْ عنده هنا هو السحر[5]، ويدل على ذلك حديث: «**كادت النميمة أن تكون سحراً**» رواه ابن لال في «مكارم الأخلاق» بإسناد ضعيف، وذكر ابن عبدالبر عن يحيى بن أبي كثير قال: يفسد النمام والكذاب في ساعة ما لا يفسده الساحر في سنه. وقال أبو الخطاب في «عيون المسائل»: ومن السحر السعي بالنميمة والإفساد بين الناس.

---

(١) أي غريب اللغة.

(٢) عند أهل اللغة والهاء للسكت.

(٣) عند أهل السنة من عَضَهَ يْعضَهُ، الماضي (عَضَهَ) بفتحتات (يَعْضَهُ).

(٤) والعَضْهُ: القطع، وعضين أجزاء وفيه: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾ أي أجزاء وأقساماً فآمنوا بالبعض وكفروا بالبعض الآخر.

(٥) وإنما أدخل المصنف النميمة في باب السحر -وهي ليست سحراً- لأنها تعمل عمل السحر في الإفساد بين الناس.

قال في «الفروع»: ووجهه أنه يقصد الأذى بكلامه وعمله على وجه المكر والحيلة، أشبه السحر؛ ولهذا يعلم بالعرف والعادة أنه يؤثر وينتج ما يعمله الساحر أو أكثر فيعطي حكمه تسوية بين المتماثلين أو المتقاربين، لكنه يقال الساحر إنما كفر لوصف السحر وهو أمر خاص، ودليله خاص، وهذا ليس بساحر وإنما يؤثر عمله ما يؤثره فيعطى حكمه إلا فيما اختص به من الكفر وعدم قبول التوبة. انتهى ملخصاً.

وبه يظهر مطابقة الحديث للترجمة، والحديث دليل على تحريم الغيبة والنميمة، وهو كذلك بالإجماع. وقد قال أبو محمد بن حزم: اتفقوا على تحريم الغيبة والنميمة في غير النصيحة الواجبة، وفيه دليل على أنها من الكبائر.

وقوله: «القالة بين الناس»: قال أبو السعادات: أي كثرة القول وإيقاع الخصومة بين الناس بما يحكى للبعض عن البعض، ومنه الحديث «**ففشت القالة بين الناس**».



[وَلَـهُمَا] عَنِ ابنِ عُمَرَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُما- أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «إِنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْرًا»[1].

البيان: البلاغة والفصاحة. قال صعصعة بن صوحان: صدق نبي الله، أما قوله: «**إن من البيان لسحراً**» فالرجل يكون عليه الحق وهو ألحن بالحجج من صاحب الحق فيسحر القوم ببيانه، فيذهب الحق. وقال ابن عبدالبر: تأولته طائفة على الذم؛ لأن السحر مذموم. وذهب[2] أكثر أهل العلم وجماعة أهل الأدب إلى أنه على المدح لأن الله تعالى مدح البيان. قال: وقد قال عمر بن عبدالعزيز لرجل سأله عن حاجة فأحسن المسألة فأعجبه قوله فقال: هذا والله السحر الحلال.

قلت: الأول أصح وهو أنه خرج مخرج الذم لبعض البيان[3] لا كله، وهو الذي فيه تصويب الباطل وتحسينه حتى يتوهم السامع أنه حق أو يكون فيه بلاغة زائدة عن الحد، أو قوة في الخصومة حتى يسحر القوم ببيانه، فيذهب بالحق ونحو ذلك فسماه سحراً لأنه يستميل القلوب كالسحر، ولهذا قال ﷺ لما جاءه رجلان من المشرق فخطبا، فعجب الناس لبيانهما، فقال رسول الله ﷺ: «**إن من البيان لسحراً**» كما رواه مالك والبخاري وغيرهم. وأما جنس البيان فمحمود، بخلاف الشعر فجنسه مذموم إلا ما كان حكماً ولكن لا يحمد البيان إلا إذا لم يخرج إلى حد الإسهاب والإطناب أو تصوير الباطل في صورة الحق، فإذا خرج إلى هذا الحد فهو مذموم وعلى هذا تدل الأحاديث كقوله ﷺ: «**إن الله يبغض البليغ من الرجال**

---

(١) سمي البيان سحراً -وإن لم يكن سحراً- لأنه يستميل كالسحر.

(٢) فالجمهور على أن الحديث سيق للمدح، والصحيح أن الحديث خرج مخرج الذم لبعض البيان لا كله وهو ما كان فيه تصويب للباطل أو قلب للحقائق، فإن كان فيه نصر للحق وإظهار له ورد للباطل فهو ممدوح.

(٣) هذا هو الصواب.

الذي يتخلل بلسانه كما تتخلل البقرة بلسانـها» رواه أحمد وأبو داود. وقوله: **«ولقد رأيت أو لقد أمرت أن أتجوز[١] في القول فإن الجواز[٢] هو خير»** رواه أبو داود.



(١) أختصر.

(٢) الاختصار وقد أوتي ﷺ جوامع الكلم.

باب
ما جاء في الكهان ونحوهم

الشَّرْحُ:

اعلم أن الكهان الذين يأخذون عن مسترقي السمع موجودون إلى اليوم لكنهم قليل بالنسبة لما كانوا عليه في الجاهلية، لأن الله تعالى حرس السماء بالشهب ولم يبق من استراقهم إلا ما يخطفه الأعلى فيلقيه إلى الأسفل قبل أن يصيبه الشهاب، وأما ما يخبر به الجني مواليه من الإنس بما غاب عن غيره مما لا يطلع عليه الإنسان غالباً فكثير جداً في أناس ينتسبون إلى الوَلاية[1] والكشف، وهم من الكهان إخوان الشياطين لا من الأولياء. ولما ذكر المصنف شيئاً مما يتعلق بالسحر ذكر ما جاء في الكهان ونحوهم كالعرّاف لمشابهة هؤلاء للسحرة. والكهانة ادعاء علم الغيب كالإخبار بما سيقع في الأرض مع الاستناد إلى سبب، والأصل فيه استراق الجن السمع من كلام الملائكة فتلقيه في أُذُن الكاهن؛ والكاهن لفظ يطلق على العراف والذي يضرب الحصى والمنجم. وقال في «المحكم»: الكاهن القاضي بالغيب. وقال الخطابي: الكهان فيما عُلم بشهادة الامتحان؛ قوم لهم أذهان حادّة ونفوس شريرة، وطبائع نارية، فهم يفزعون إلى الجن في أمورهم ويستفتونهم في الحوادث، فيلقون إليهم الكلمات.



(١) بفتح الواو أما الكسر فهي الإمارة.

ورَوَى مُسلِمٌ في «صَحِيحِهِ» عَن بَعضِ أَزوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَتَى عَرَّافًا، فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ، فَصَدَّقَهُ[1]؛ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلاَةٌ أَرْبَعِينَ يَوماً».

هذا الحديث رواه مسلم كما قال المصنف، ولفظه: حدثنا محمد بن المثنى العنزي، ثنا يحيى بن سعيد، عن عبيدالله في -نسخة: عبدالله-، عن نافع، عن صفية، عن بعض أزواج النبي ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين يوماً وليلة**» هكذا رواه، وليس فيه «فصدقه»[2].

قوله: «عن بعض أزواج النبي ﷺ»: هي حفصة على ما ذكره أبو مسعود الدمشقي لأنه ذكر هذا الحديث في «الأطراف» في مسندها، وكذلك سماه بعض الرواة.

قوله: «من أتى عرافاً فسأله عن شيء»: العراف سيأتي بيانه وهو من أنواع الكهان وظاهر الحديث أن هذا الوعيد مرتب على مجيئه وسؤاله سواء صدقه، أو شك في خبره، لأن إتيان الكهان منهي عنه كما في حديث معاوية بن الحكم السلمي قلت: يا رسول الله إن منا رجالاً يأتون الكهان قال: «**فلا تأتـهم**» رواه مسلم، ولأنه إذا شك في خبره فقد شك في أنه لا يعلم الغيب، وذلك موجب للوعيد بل يجب عليه أن يقطع ويعتقد أنه لا يعلم الغيب إلا الله.

قوله:«لم تقبل له صلاة أربعين يوماً»: إذا كانت هذه حال السائل فكيف بالمسؤول؟ قال النووي وغيره: معناه أنه لا ثواب له فيها، وإن كانت مجزئة في

---

(١) كلمة «فصدقه» ليست في «صحيح مسلم» بل هي في «مسند أحمد» بسند مسلم سواء.

(٢) كلمه «فصدقه» في «مسند أحمد» ولعلها سبق قلم، والمراد بالحديث البعد عن الكهان وعدم سؤالهم لأن سؤالهم فيه تعظيم لهم واعتراف بما هم عليه وقد قال ﷺ لما سئل عن الكهان «ليسوا بشيء إظهارا لشأنـهم».

سقوط الفرض عنه ولا يحتاج معها إلى إعادة، ونظير هذه الصلاة في أرض مغصوبة مجزئة مسقطة للقضاء، لكن لا ثواب له فيها. قاله جمهور أصحابنا[١] قالوا: فصلاة الفرض إذا أتى بها على وجهها الكامل ترتب عليها شيئان سقوط الفرض، وحصول الثواب، فإذا أداها في أرض مغصوبة حصل له الأول دون الثاني ولا بد من هذا التأويل في هذا الحديث فإن العلماء متفقون على أنه لا يلزم من أتى العراف إعادة صلاة أربعين ليلة فوجب تأويله هذا كلامه وهو مبني على الملازمة بين الإجزاء وعدم الإعادة والصواب أن عدم الإعادة لا يستلزم الإجزاء لكن الصلاة في الأرض المغصوبة في إجزائها نزاع والمشهور من مذهب أحمد أنها لا تجزئ وتجب إعادتها. وفي الحديث النهي عن إتيان الكاهن ونحوه قال القرطبي: يجب على من قدر على ذلك من محتسب وغيره أن يقيم على من يتعاطى شيئاً من ذلك من التعزيرات وينكر عليهم أشد النكير وعلى من يجئ إليهم، ولا يُغْتَر بصدقهم في بعض الأمور ولا بكثرة من يجيء إليهم ممن ينسب إلى العلم فإنهم غير راسخين في العلم، بل من الجهال بما في إتيانهم من المحذور.



(١) أي الشافعية لأن النووي شافعي.

وَعَن أَبِي هُرَيرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَتَى كَاهِنًا، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ[1] بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ». [رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ].

هذا الحديث رواه أبو داود ولفظه: حدثنا موسى بن إسماعيل ثنا حماد وحدثنا مسدد، ثنا يحيى، عن حماد بن سلمة، عن حكيم الأثرم، عن أبي تميمة عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**من أتى كاهناً -قال موسى في حديثه فصدقه بما يقول أو أتى امرأة قال مسدد امرأته حائضا أو أتى أمرأة قال مسدد يعني امرأته في دبرها فقد برىء مما أنزل على محمد** ﷺ». ورواه الترمذي والنسائي وابن ماجه بنحوه، وقال الترمذي: لا نعرفه إلا من حديث الأثرم، وضعف محمد[2] هذا الحديث من جهة إسناده وقال البغوي: سنده ضعيف، وقال الذهبي: ليس إسناده بالقائم.

قلت: أطال أبو الفتح اليعمري في بيان ضعفه وادعى أن متنه منكر، وأخطأ في إطلاق ذلك فإن إتيان الكاهن له شواهد صحيحة منها ما ذكره المصنف بعده، وكذلك إتيان المرأة في الدبر له شواهد، منها ما رواه عبد بن حميد بإسناد صحيح عن طاووس أن رجلاً سأل ابن عباس عن إتيان المرأة في دبرها فقال: تسألني عن الكفر؟ ومنها ما رواه الترمذي والنسائي وابن حبان في «صحيحه» وصححه ابن حزم عن ابن عباس مرفوعاً: «لا ينظر الله إلى رجل أتى رجلاً أو امرأة في الدبر»، والأحاديث في ذلك كثيرة. وغاية ما ينكر من متنه ذكر إتيان الحائض[3] والله أعلم.



---

(١) إن صدقه في دعوى علم الغيب كفر وخرج من الملة وإن صدقه في هذه القضية أو المسألة لاحتمال أن تكون سمعت من السماء فقد غلط وأخطأ وعصى وفسق.

(٢) مقصود الترمذي بقوله «وضعف محمد» البخاري لأنه شيخه.

(٣) ولا نكارة في هذا فإن إتيان المرأة الحائض قد نهى الله عنه، فلا يستغرب أن ينفِّر عنه الرسول -عليه السلام- بقوله: «فقد كفر».

[وَلِلأَربَعَةِ وَالحَاكِمِ، وَقَالَ: صَحِيحٌ عَلَى شَرطِهِمَا...][(١)]: «مَنْ أَتَى عَرَّافاً أَو كَاهِنًا، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ».

وَلأَبِي يَعلَى بِسَنَدٍ جَيِّدٍ عَنِ ابنِ مَسعُودٍ مِثلُهُ مَوقُوفاً.

هكذا بيّض المصنف اسم الراوي. وقد رواه أحمد والبيهقي عن أبي هريرة مرفوعاً ولفظ أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، عن عوف، عن خِلاَس[(٢)]، عن أبي هريرة والحسن، عن النبي ﷺ فذكره. وهذا إسناد على شرط البخاري فقد روى عوف عن خِلاَس، عن أبي هريرة حديث أن موسى كان رجلاً حيياً... الحديث.

قال العراقي في «أماليه»: حديث صحيح، وقال الذهبي: إسناده قوي، وعلى هذا فعزو المصنف إلى الأربعة ليس كذلك فإنه لم يروه أحد منهم وأظنه تبع في ذلك الحافظ فإنه عزاه في «الفتح» إلى أصحاب «السنن» والحاكم فوهِمَ ولعله أراد الذي قبله.

قوله: «من أتى كاهناً[(٣)]» إلى آخره: قال بعضهم: لا تعارض بين هذا الخبر، وبين حديث: **«من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة»** إذ الغرض في هذا الحديث أنه سأله معتقداً صدقه وأنه يعلم الغيب فإنه يكفر، فإن اعتقد أن الجن تلقي إليه ما سمعته من الملائكة، أو أنه بإلهام فصدقه من هذه الجهة لا يكفر كذا قال. وفيه نظر وظاهر الحديث أنه يكفر متى اعتقد صدقه بأي وجه كان لاعتقاده أنه يعلم الغيب، وسواء كان ذلك من قبل الشياطين أو من قبل الإلهام لا سيما وغالب الكهان في وقت النبوة إنما كانوا يأخذون عن الشياطين، وفي

---

(١) كذا بياض في المخطوطتين.

(٢) بكسر الخاء المعجمة، وفتح اللام المخففة.

(٣) الكاهن: هو الذي رئي من الجن، وهو بفتح الراء وكسر الهمزة وتشديد الياء المثناة.

حديث رواه الطبراني عن واثلة مرفوعاً: «**من أتى كاهناً فسأله عن شيء حجبت عنه التوبة أربعين ليلة فإن صدقه بما قال كفر**». قال المنذري: ضعيف -فهذا لو ثبت- نص في المسألة لكن ما تقدم من الأحاديث يشهد له، فإن الحديث الذي فيه الوعيد بعدم قبول الصلاة أربعين ليلة ليس فيه ذكر تصديقه والأحاديث التي فيها إطلاق الكفر مقيدة بتصديقه.

قوله: «فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ»: قال الطيبي: المراد بالمنزل الكتاب والسنة؛ أي: من ارتكب هذه فقد برئ من دين محمد ﷺ وما أنزل عليه. انتهى. وهل الكفر في هذا الموضوع كفر دون كفر أو يجب التوقف؟ فلا يقال ينقل عن الملة. ذكروا فيه روايتين عن أحمد، وقيل: هذا على التشديد والتأكيد أي قارب الكفر، والمراد كفر النعمة، وهذان القولان باطلان.

قوله: «ولأبي يعلى بسند جيد عن ابن مسعود مثله موقوفاً».

أبو يعلى: اسمه أحمد بن علي بن المثنى الموصلي الإمام صاحب التصانيف كـ «المسند» وغيره روى عن يحيى بن معين وأبي خيثمة وأبي بكر ابن أبي شيبة وخلق، وكان من الأئمة الحفاظ. مات سنة سبع وثلاثمئة. وهذا الأثر رواه البزار أيضاً وإسناده على شرط مسلم ولفظه: «**من أتى كاهناً أو ساحراً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ**»، وفيه دليل على كفر الكاهن والساحر والمصدِّق لهما لأنهما يدعيان علم الغيب وذلك كفر، والمصدِّق لهما يعتقد ذلك ويرضى به وذلك كفر أيضاً[1].



---

(١) كفر أكبر يخرج من الملة.

وَعَن عِمرَانَ بنِ حُصَينٍ مَرفُوعاً: «لَيسَ مِنَّا مَن تَطَيَّرَ أَو تُطُيِّرَ لَهُ، أَو تَكَهَّنَ أَو تُكُهِّنَ لَهُ، أَو سَحَرَ، أَو سُحِرَ لَهُ، وَمَن أَتَى كَاهِناً فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَد كَفَرَ بِمَا أُنزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ» رَوَاهُ البَزَّارُ بِإِسنَادٍ جَيِّدٍ، وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ بِإِسنَادٍ حَسَنٍ مِن حَدِيثِ ابنِ عَبَّاسٍ دُونَ قَولُهُ: «وَمَن أَتَى» إِلَى آخِرِهِ.

هذا الحديث رواه الطبراني كما قال المصنف في «الأوسط» قال المنذري: إسناد الطبراني حسن، وإسناد البزار جيد.

قوله: «ليس منا»: أي ليس يفعل ذلك من هو من أشياعنا العاملين باتباعنا المقتفين لشرعنا(١).

قوله: «من تطيَّر»: أي فعل الطيرة **«أو تطير له»** أي من يتطير له، وكذلك معنى **«تكهن» «أو تكهن له» «أو سحر له»**.

قوله: «رواه البزار»: اسمه أحمد بن عمرو بن عبدالخالق أبو بكر البزار البصري صاحب «المسند الكبير» الذي عزا إليه المصنف، روى عن ابن بشار وابن المثنى وخلق. قال الدارقطني: ثقة يخطئ ويتكل على حفظه. مات سنة اثنين وتسعين ومئتين(٢).



---

(١) أراد الشارح الرد على الخوارج والمعتزلة الذين يكفرون بالمعصية ويخلدونه في النار، وإلا فالأصل أن مثل ذلك لا يفسر بل يترك ليفيد الزجر ، ومثله: «ليس منا من ضرب الخدود»، «من غشنا فليس منا» ليس المراد أنه يكفر بل المراد التنفير من هذا العمل لأنه كبيرة.

(٢) عاش مئة سنة، ولد سنة ستين ومئة، ومات سنة ستين ومئتين.

قَالَ البَغَوِيُّ: «العَرَّافُ: الَّذِي يَدَّعِي مَعرِفَةَ الأُمُورِ بِمُقَدِّمَاتٍ يُستَدَلُّ بِهَا عَلَى المَسرُوقِ وَمَكَانِ الضَّالَّةِ. وَنَحوِ ذَلِكَ».

وَقِيلَ: هُوَ الكَاهِنُ. وَالكَاهِنُ: هُوَ الَّذِي يُخبِرُ عَنِ المُغَيَّبَاتِ فِي المُستَقبَلِ، وَقِيلَ: الَّذِي يُخبِر عَمَّا فِي الضَّمِيرِ.

وَقَالَ أَبُو العَبَّاسِ ابنِ تَيمِيَّةَ: اسمٌ لِلكَاهِنِ وَالمُنَجِّمِ وَالرَّمَّالِ وَنَحوِهِم، مِمَّن يَتَكَلَّمُ فِي مَعرِفَةِ الأُمُورِ بِهَذِهِ الطُّرُقِ.

البغوي[1]: -بفتحتين-: اسمه الحسين بن مسعود بن الفراء المعروف بمحيي السنة الشافعي، صاحب التصانيف، وعالم أهل خراسان وكان ثقة فقيهاً زاهداً. مات في شوال سنة ست عشرة وخمسمئة.

قوله: **«العراف**[2] **الذي يدعي معرفة الأمور» إلى آخره**: هذا تفسير حسن وظاهره يقتضي أن العراف هو الذي يخبر عن الواقع كالمسروق والضالة، وأحسن منه كلام شيخ الإسلام: أن العراف اسم للكاهن والمنجّم والرمال ونحوهم كالحازر الذي يدعي علم الغيب أو يدَّعي الكشف، وقال أيضاً: والمنجِّم يدخل في اسم العراف، وعند بعضهم هو في معناه، وقال أيضاً: والمنجِّم يدخل في اسم الكاهن عند الخطابي وغيره من العلماء وحكي ذلك عن العرب وعند آخرين من جنس الكاهن وأسوأ حالاً منه، فيلحق به من جهة المعنى، وقال الإمام أحمد: العراف طرف من السحر والساحر أخبث. وقال أبو السعادات: العراف المنجِّم

---

(١) له كتاب «شرح السنة».

(٢) العرَّاف قسمان؛ **أحدهما**: الذي يدعي علم الغيب فهذا كاهن، **والثاني**: من يقص الأثر، ويعرف بذلك فهذا من القيافة وليس من علم الغيب.

والحازر الذي يدعي علم الغيب وقد استأثر الله تعالى به[١]، وقال ابن القيم: من اشتهر بإحسان الزجر عندهم سمَّوْه عائفاً وعرافاً، والمقصود من هذا معرفة أن من يدعي علم شيء من المغيِّبات فهو إما داخل في اسم الكاهن، وإما مشارك له في المعنى فيلحق به، وذلك أن إصابة المخبر ببعض الأمور الغائبة في بعض الأحيان يكون بالكشف ومنه ما هو من الشياطين ويكون بالفأل والزجر والضرب بالحصى والخط في الأرض والتنجيم والكهانة والسحر ونحو هذا من علوم الجاهلية. ونعني بالجاهلية كل من ليس من أتْباع الرسل كالفلاسفة والكهَّان والمنجِّمين وجاهلية العرب الذي كانوا قبل مبعث النبي ﷺ. فإن هذه علوم قوم ليس لهم علم بما جاءت به الرسل -عليهم السلام-، وكل هذه الأمور يسمى صاحبها كاهناً وعرّافاً أو في معناهما فمن أتاهم فصدّقهم بما يقولون لحقه الوعيد[٢]. وقد ورث هذه العلوم عنهم أقوام فادعو بها علم الغيب الذي استأثر الله تعالى بعلمه، وادعوا أنهم أولياء وأن ذلك كرامة، ولا ريب أن من ادعى الولاية واستدل عليها بإخباره عن المغيّبات فهو من أولياء الشيطان لا من أولياء الرحمن، إذ الكرامة أمر يجريه الله على يد عبده المؤمن المتقي، إما بدعاء أو أعمال صالحة لا صنع للولي فيها، ولا قدرة له عليها بخلاف من يدَّعي أنه ولي لله ويقول للناس اعلموا إني أعلم

---

(١) وأما الذي يقصّ الأثر فليس من الكهانة والتنجيم بل هذا من القيافة ولما سرقت إبل الصدقة وجاء الصريخ أرسل النبي ﷺ في أثرهم من يقصّ الأثر، فهذا قيافة الأثر، وأما قيافة الشبه فلما قال القائف لزيد بن حارثة وابنه أسامة وهما ملتحفان في قطيفة وقد بدت أرجلهما: «إن هذه الأرجل بعضها من بعض» فهذا ليس من هذا الباب.

(٢) إن صدقهم في دعوى علم الغيب فهو كافر خارج عن الملة، وإن صدقهم في هذه القضية والمسألة وأنه قد يأتيهم خبر من الملائكة أو الجن فيصدقون فهو كافر كفراً دون كفر لا يخرج عن الملة ولذلك من صدّق الكاهن في دعوى الغيب فقد كذب بقوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ ومن كذّب بالقرآن أو بشيء منه كفر وخرج عن الملة.

المغيِّبات فإن مثل هذه الأمور قد تحصل بما ذكرنا من الأسباب وإن كانت أسباباً محرمة كاذبة في الغالب، ولهذا قال ﷺ في وصف الكهّان: «**فيكذبون معها مئة كذْبة**» فبيّن أنهم يصدقون مرة ويكذبون مئة، وهكذا حال من سلك سبيل الكهّان ممن يدّعي الولاية والعلم بما في ضمائر الناس مع أن نفس دعواه دليل على كذبه لأن في دعواه تزكية النفس المنهي عنها بقوله: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ﴾ (النجم: ٣٢) وليس هذا من شأن الأولياء بل شأنهم الإزراء على نفوسهم وعيبهم لها وخوفهم من ربهم فكيف يأتون الناس ويقولون: اعرفوا أنا أولياء وأنا نعلم الغيب. وفي ضمن ذلك يطلب المنزلة في قلوب الخلق، واقتناص الدنيا بهذه الأمور وحسبك بحال الصحابة والتابعين وهم سادات الأولياء أفكان عندهم من هذه الدعاوى والشطحات شيء؟ لا والله، بل كان أحدهم لا يملك نفسه من البكاء إذا قرأ القرآن كالصديق، وكان عمر يسمع نشيجه من وراء الصفوف يبكي في صلاته، وكان يمر بالآية في ورده بالليل فيمرض منها ليالي يعوده الناس، وكان تميم الداري يتقلب في فراشه لا يستطيع النوم إلا قليلاً خوفاً من النار، ثم يقوم إلى صلاته ويكفيك في صفات الأولياء ما ذكر الله تعالى من صفاتهم في سورة الرعد والمؤمنين، والفرقان، والذاريات، والطور، فالمتصفون بتلك الصفات هم الأولياء الأصفياء لا أهل الدعوى والكذب، ومنازعة رب العالمين فيما اختص من الكبرياء والعظمة، وعلم الغيب بل مجرد دعواه علم الغيب كفر[1]، فكيف يكون المدَّعي لذلك ولياً؟ ولقد عظم الضرر واشتد الخطب بهؤلاء المفترين الذين ورثوا هذه العلوم عن المشركين ولبّسوا بها على خفافيش البصائر. نسأل الله السلامة والعافية في الدنيا والآخرة.

---

(١) أكبر يخرج من الملة لأنه مكذب بالقرآن.

فإن قلت: كيف يكون علم الخط[1] من الكهانة؟ وقد روى أحمد ومسلم عن معاوية بن الحكم السلمي أنه قال لرسول الله ﷺ ومنا رجال يخطّون فقال: «**كان نبي من الأنبياء يخط فمن وافق خطُّه فذاك**».

قلت: قال النووي معناه أن من وافق خطُّه فهو مباح له، لكن لا طريق لنا إلى العلم باليقين بالموافقة فلا يباح والقصد أنه لا يباح إلا بيقين الموافقة وليس لنا يقين. وقال غيره: المراد به النهي عنه والزجر عن تعاطيه لأن خط ذلك النبي كان معجزة وعَلَماً لنبوته. وقد انقطعت نبوته ولم يقل فذلك الخط حرام دفعاً لتوهم أن خط ذلك النبي حرام.

قلت: ويحتمل أن المعنى أن سبب إصابة صاحب الخط هو موافقته لخط ذلك النبي، فمن وافق خطُّه أصاب. وإذا كان كذلك وكانت الإصابة نادرة بالنسبة إلى الخط ولا طريق إلى اليقين بالموافقة صار ذلك بالنسبة إلى من يتعاطاه من أنواع الكهانة لمشاركته في المعنى.

إذا علمت ذلك فاعلم أن مذهب الإمام أحمد أن حكم الكاهن والعرّاف الاستتابة فإن تابا وإلا قُتلا. ذكره غير واحد من الأصحاب.

فأما المعزِّم الذي يعزم على المصروع، ويزعم أنه يجمع الجن وأنها تطيعه، والذي يَحُلُّ[2] السحر، فقال في «الكافي» ذكرهما أصحابنا في السحرة الذين ذكرنا حكمهم. وقد توقف أحمد لما سئل عن الرجل يحل السحر، فقال قد رخص فيه بعض الناس، قيل: إنه يجعل في الطنجير ماء ويغيِّب فيه، فنفض يده وقال: ما أدري هذه؟ قيل له: فترى أن يؤتى مثل هذا يحل؟ قال: ما أدري ما هذا؟! قال: وهذا يدل على أنه لا يكفر صاحبه، ولا يقتل.

---

(١) أي الخط في الرمل والتراب.

(٢) من حلَّ يَحُلُّ فَعَلَ يَفْعُل.

قلت: إن كان ذلك لا يحصل إلا بالشرك والتقرب إلى الجن فإنه يكفر ويُقتل، ونَصُّ أحمد لا يدل على أنه لا يكفر، فإنه قد يقول مثل هذا في الحرام البيِّن[١].



(١) من باب الورع والاحتياط.

وَقَالَ ابنُ عَبَّاسٍ فِي قَومٍ يَكتُبُونَ أَبَا جَادٍ، وَيَنظُرُونَ فِي النُّجُومِ: «مَا أَرَى مَن فَعَلَ ذَلِكَ لَهُ عِندَ الله مِن خَلَاقٍ».

هذا الأثر ذكره المصنف عن ابن عباس، ولم يعزه، وقد رواه الطبراني عن ابن عباس مرفوعاً، وإسناده ضعيف، ولفظه: «**رب معلم حروف أبي جاد دارس في النجوم ليس له عند الله من خلاق يوم القيامة**»، ورواه أيضاً حميد بن زنجويه عنه بلفظ: «**رب ناظر في النجوم ومتعلم حروف أبي جاد ليس له عند الله خلاق**».

قوله: «ما أرى»: يجوز فتح الهمزة من أرى بمعنى لا أعلم له عند الله من خلاق أي نصيب، ويجوز ضمها بمعنى لا أظن ذلك لاشتغاله بما فيه من اقتحام الخطر والجهالة وادعاء علم الغيب الذي استأثر الله به، وكتابة أبي جاد وتعلمها لمن يدعي بها معرفة علم الغيب هو الذي[1] يسمى علم الحروف. ولبعض المبتدعة فيه مصنف، فأما تعليمها للتهجي وحساب الجمل فلا بأس بذلك.

قوله: «وينظرون في النجوم»: هذا محمول على علم التأثير لا التسيير، كما سيجيء في باب التنجيم، وفيه عدم الاغترار بما يؤتاه أهل الباطل من معارفهم وعلومهم كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٨٣﴾﴾ (غافر: ٨٣).



---

(١) تعلم أبي جاد «أ ب ج د» سميت أبي جاد لأنها تركب فيقال: «أبجد هوّز حطي» فإذا تعلمها يدَّعي بها معرفة علم الغيب في التأثير في الكائنات كالسعادة والشقاوة والنحْس والخط وقيام الدول وزوالها فهذا علم التأثير الباطل المحرم لما فيه من ادعاء التأثير، وأما تعلمها للتهجي وحساب الجمل لضبط الأشياء والوفيات وولادة الأعلام ومعرفة القبلة والجهات ومعرفة فصول السنة ومتى يجيء الشتاء وأوقات البذر فيتعلم البروج ومنازل القمر فهذا علم التسيير الجائز، وسمي علم التسيير لأنه يعلم سير الكواكب والنجوم والمنازل.

باب
ما جاء في النشرة

الشَّرْح:

لما ذكر المصنف حكم السحر والكهانة ذكر ما جاء في النشرة، لأنها قد تكون من قبل الشياطين والسحرة، فتكون مضادة للتوحيد، وقد تكون مباحة، كما سيأتي تفصيله.

قال أبو السعادات: النشرة ضرب من العلاج والرقية، يعالج به من كان يظن أن به مسّاً من الجن، سميت نشرة لأنه ينْشَّر بها عنه ما خامره من الداء: أي يكشف ويزال.

وقال الحسن: النشرة من السحر، وقد نشرت عنه تنشيراً، ومنه الحديث: «**فلعل طباً أصابه ثم نشره بـ** ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾» (الناس: ١) أي رقاه.

وقال غيره: ونَشَره أيضاً إذا كتب له النشرة، وهي كالتعويذ والرقية.

وقال ابن الجوزي: النشرة حل السحر عن المسحور، ولا يكاد يقدر عليه إلا من يعرف السحر.



عَن جَابِرٍ: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ سُئِلَ عَنِ النُّشرَةِ؟ فَقَالَ: «هِيَ مِن عَمَلِ الشَّيطَانِ» [رَوَاهُ أَحمَدُ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ].

وأَبُو دَاوُدَ، وَقَالَ: سُئِلَ أَحمَدُ عَنهَا فَقَالَ: ابنُ مَسعُودٍ يَكرَهُ(١) هَذَا كُلَّهُ.

هذا الحديث رواه أحمد، ورواه عنه أبو داود في «سننه» والفضل بن زياد في كتاب «المسائل» عن عبدالرزاق، عن عقيل بن معقل بن منبه، عن عمه وهب بن منبه، عن جابر فذكره. قال ابن مفلح: إسناده جيد، وحسّن الحافظ إسناده، ورواه ابن أبي شيبة، وأبو داود في «المراسيل» عن الحسن رفعه: «**النشرة من عمل الشيطان**».

قوله: «سئل عن النشرة»: بالألف واللام في النشرة للعهد: أي النشرة المعهودة التي كان أهل الجاهلية يصنعونها هي من عمل الشيطان، لا النشرة بالرقى والتعوذات الشرعية والأدوية المباحة، فإن ذلك جائز كما قرره ابن القيم فيما سيأتي.

قوله: «وقال سئل أحمد عنها فقال ابن مسعود: يكره»: هذا كله مراد أحمد، والله أعلم أن ابن مسعود يكره النشرة التي من عمل الشيطان والنشرة التي بكتابة وتعليق كالتمائم(٢)، فإن ابن مسعود كان يكره التمائم كلها من القرآن وغير القرآن، أما النشرة بالتعويذ والرقى بأسماء الله وكلامه من غير تعليق فلا أعلم أحداً كرهه، وكذلك ما رواه ابن أبي شيبة عن إبراهيم(٣):كانوا يكرهون التمائم والرقى، والنُّشُر، محمول على ما ذكرنا.



---

(١) المراد بالكراهة التحريم، وهذا عند السلف، وفي القرآن والسنة، أما عند الفقهاء المتأخرين فيريدون بالكراهة التنزيه.

(٢) ولو كان من القرآن لأنه وسيلة إلى تعليق غيره فيمنع من باب سد الذرائع.

(٣) أي النخعي.

وَفِي «البُخَارِيِّ» عَن قَتَادَةَ قُلْتُ لابْنِ المُسَيَّبِ: رَجُلٌ بِهِ طِبٌّ، أَوْ يُؤَخَذُ عَنِ امْرَأَتِهِ، أَيُحَلُّ عَنْهُ أَوْ يُنَشَّرُ؟ قَالَ: لاَ بَأْسَ بِهِ[1]، إِنَّمَا يُرِيدُونَ بِهِ الإِصْلاَحَ، فَأَمَّا مَا يَنْفَعُ؛ فَلَمْ يُنْهَ عَنْهُ».

هذا الأثر علّقه البخاري، ووصله أبو بكر الأثرم في كتاب «السنن» من طريق أبان العطّار، عن قتادة مثله، ومن طريق هشام الدستوائي عن قتادة بلفظ: يلتمس من يداويه فقال: إنما نهى الله عما يضر ولم ينه عما ينفع.

قوله: «عن قتادة»: هو ابن دعامة بكسر الدال السَّدُوسي البصري ثقة ثبت فقيه من أحفظ التابعين، يقال إنه ولد أكْمَه. مات سنة بضع عشرة ومئة.

قوله: «رجل به طب»: بكسر الطاء أي سحر، يقال: طُب الرجل بالضم إذا سحر، ويقال: كنُّوا عن السحر بالطب تفاؤلاً، كما قالوا للديغ سليم.

وقال ابن الأنباري: الطب من الأضداد يقال لعلاج الداء: طب، والسحر من الداء، يقال له: طب.

قوله: «أو يؤخَّذ»: بفتح الواو مهموز وتشديد الخاء المعجمة وبعدها ذال معجمة أي: يحبس عن امرأته، ولا يصل إلى جماعها، والأُخذة بضم الهمزة الكلام الذي يقوله الساحر.

قوله: «يُحلُّ» : بضم الياء وفتح الحاء مبني للمفعول.

قوله: «وينشَّر»: بتشديد المعجمة.

قوله: «قال لا بأس به...» إلى آخره: يعني أن النشرة لا بأس بها لأنهم يريدون بها الإصلاح أي إزالة السحر، ولم ينه عما يراد به الإصلاح، إنما ينهى عما يضر، وهذا الكلام من ابن المسيب يحمل على نوع من النشرة لا يعلم هل هو نوع من

---

(١) وهذا محمول منه على النشرة الجائزة أو المجهولة لأن الأصل الجواز.

السحر أم لا[1]، فأما أن يكون ابن المسيب يفتي بجواز قصد الساحر الكافر المأمور بقتله ليعمل السحر، فلا يظن به ذلك، حاشاه منه، ويدل على ذلك قوله: «إنما يريدون به الإصلاح» فأي إصلاح في السحر؟ بل كله فساد وكفر والله أعلم.



(١) وهو المجهول لأن الأصل الجواز فيحمل على النشرة الجائزة لأن ابن المسيب ورع عالم زاهد وهو من أبعد الناس عن المحرمات وخصوصاً السحر.

وَرُوِيَ عَنِ الحَسَنِ أَنَّهُ قَالَ: «لاَ يَحِلُّ السِّحرَ إِلاَّ سَاحِرٌ».

هذا الأثر ذكره ابن الجوزي في «جامع المسانيد» بغير إسناد، ولفظه: «**لا يطلق السحر إلا ساحر**»، وروى ابن جرير في «التهذيب» من طريق يزيد بن زريع عن قتادة، عن سعيد بن المسيب أنه كان لا يرى بأساً إذا كان بالرجل سحر أن يمشي إلى من يطلق عنه، فقال: هو صلاح قال قتادة: وكان الحسن يكره ذلك يقول: لا يعلم ذلك إلا ساحر، قال: فقال سعيد بن المسيب: إنما نهى الله عما يضر، ولم ينه عما ينفع.

قوله: «عن الحسن»: هو ابن أبي الحسن، واسمه يسار بالتحتانية والمهملة البصري الأنصاري مولاهم ثقة فقيه إمام فاضل من خيار التابعين. مات سنة عشر ومئة، وقد قارب التسعين.



وقالَ ابنُ القَيِّمِ: النُّشرَةُ: حَلُّ السِّحرِ عَنِ المَسحُورِ، وَهِيَ نوعَانِ: حَلٌّ بِسِحرٍ مِثلِهِ، وَهُوَ الَّذِي مِن عَمَلِ الشَّيطَانِ، وَعَلَيهِ يُحمَلُ قَولُ الحَسَنِ، فَيَتَقَرَّبُ النَّاشِرُ وَالمُنتَشِرُ إِلَى الشَّيطَانِ بِمَا يُحِبُّ، فَيَبطِلُ عَمَلَهُ عَنِ المَسحُورِ.

وَالثَّانِي: النُّشرَةُ بِالرُّقيَةِ وَالتَّعَوُّذَاتِ وَالأَدوِيَةِ وَالدَّعَواتِ المُبَاحَةِ. فَهَذَا جَائِزٌ.

هذا الثاني هو الذي يحمل عليه كلام ابن المسيب، أو على نوع لا يدرى هل من السحر أم لا؟[1] وكذلك ما روي عن الإمام أحمد من إجازة النشرة، فإنه محمول على ذلك وغلط من ظن أنه أجاز النشرة السحرية، وليس في كلامه ما يدل على ذلك، بل لما سئل عن الرجل يحل السحر قال: قد رخص فيه بعض الناس، قيل: إنه يجعل في الطنجير ماء ويغيِّب فيه فنفض يده، وقال: لا أدري ما هذا؟ قيل له: أفترى أن يؤتى مثل هذا؟ قال: لا أدري ما هذا؟ وهذا صريح في النهي عن النشرة على الوجه المكروه، وكيف يجيزه؟ وهو الذي روى الحديث أنها من عمل الشيطان لكن لما كان لفظ النشرة مشتركاً بين الجائزة والتي من عمل الشيطان ورأوه قد أجاز النشرة ظنّوا أنه قد أجاز التي من عمل الشيطان، وحاشاه من ذلك، ومما جاء في صفة النشرة الجائزة ما رواه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ليث بن أبي سُلَيم قال: بلغني أن هؤلاء الآيات شفاء من السحر بإذن الله تُقرأ في إناء فيه ماء ثم

---

(١) وعلى هذا فتكون النشرة ثلاثة أنواع:

أحدها: حلٌّ بسحرٍ مثله فهذا محرم وهو من عمل الشيطان.

الثاني: حلٌّ بالرقية والتعوذات والأدوية المباحة فهذا جائز.

الثالث: حلٌّ بنوع من النشرة لا يدرى هل هو من السحر أم لا؟ فهذا جائز حملاً له على الأصل؛ لأن الأصل الإباحة والجواز.

تُصب على رأس المسحور الآية التي في يونس[٢] ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾ (يونس: ٨١-٨٢)، وقوله تعالى: ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾﴾ (الأعراف: ١١٨-١٢١)، وقوله: ﴿إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾ (طه: ٦٩) وقال ابن بطال: في كتاب وهب بن منبه أنه يأخذ سبع ورقات من سدر أخضر فيدقّه بين حجرين ثم يضربه بالماء ويقرأ فيه آية الكرسي والقواقل[١] ثم يحسو من ثلاث حسوات ثم يغتسل به فإنه يذهب عنه كل ما به وهو جيّد للرجل إذا حُبس عن أهله[٢].



(١) القواقل: سورة قل يا أيها الكافرون، وقل هو اللهّ أحد، والمعوذتين.

(٢) مُنع من جماع أهله.

باب
ما جاء في التطير

الشَّرْحُ:

مصدر تطيّر يتطيَّر[1] والطِّيرة أيضاً -بكسر الطاء وفتح الياء وقد تسكّن- مصدرها تطيَّر. يقال: تطيَّر طِيَرة وتخيَّرة خِيَرة ولم يجئ من المصادر هكذا غيرهما، وأصله فيما يقال: التطير بالسوانح، والبوارح من الطير والظباء وغيرهما، وكان ذلك يصدهم عن مقاصدهم. فإذا أرادوا أمراً فإن رأوا الطير مثلاً طار يَمْنةً تيمَّنوا به، وإن طار يَسرة تشاءموا به. فنفاه الشارع وأبطله ونهى عنه، وأخبر أنه ليس له تأثير في جلب نفع أو دفع ضر. قال المدائني: سألت رؤبة بن العجاج ما السانح؟ قال: ما ولاك ميامنه. قلت: فما البارح؟ قال: ما ولاك مياسره. والذي يجيء من أمامك فهو الناطح والنطيح، والذي يجيء من خلفك فهو القاعد والقعيد. ولما كانت الطيرة باباً من الشرك منافياً للتوحيد أو لكماله لأنها من إلقاء الشيطان وتخويفه ووسوسته ذكره المصنف في كتاب «التوحيد» تحذيراً منها وإرشاداً إلى كمال التوحيد بالتوكل على الله. واعلم أن من كان معتنياً بها قابلاً بها كانت إليه أسرع من السيل إلى منحدره، وتفتحت له أبواب الوساوس فيما يسمعه ويراه ويعطاه، ويفتح له الشيطان فيها من المناسبات البعيدة والقريبة في اللفظ والمعنى ما يفسد عليه دينه، وينكِّد عليه عيشه فالواجب على العبد التوكل على الله ومتابعة رسول الله ﷺ، وأن يمضي لشأنه لا يرده شيء من الطيرة عن حاجته فيدخل في الشرك.



---

(١) مثل تكلَّم تكلماً.

وَقَولُ الله تَعَالَى: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ١٣١﴾ (الأعراف: ١٣١).

أول الآية قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ﴾ (الأعراف: ١٣١) الآية المعنى أن آل فرعون إذا أصابتهم الحسنة أي الخِصب[1] والسعة والعافية على ما فسره مجاهد وغيره قالوا: لنا هذه أي نحن الجديرون الحقيقون به، ونحن أهله وإن تصبهم سيئة أي بلاء وضيق وقحط يطيروا بموسى ومن معه فيقولون: هذا بسبب موسى وأصحابه أصابنا بشؤمهم كما يقوله المتطير لمن يتطير به. فأخبر سبحانه أن طائرهم عنده فقال: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾ (الأعراف: ١٣١) قال ابن عباس: طائرهم ما قضي عليهم وقُدِّر لهم.

وفي رواية ذكرها ابن جرير عنه قال: الأمر من قبل الله، وفي رواية: شؤمهم عند الله ومن قبله، إنما جاءهم الشؤم من قبله بكفرهم وتكذيبهم بآياته ورسله، وقيل المعنى أن الشؤم العظيم هو الذي لهم عند الله من عذاب النار لا هذا الذي أصابهم في الدنيا والظاهر أن هذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ حَسَنَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾ (النساء: ٧٨) أي أن الكل من الله لكن هذا الشؤم الذي أجراه عليهم من عنده هو بسبب أعمالهم لا بسبب موسى -عليه السلام- ومن معه. وكيف يكون ذلك وما جاء به خير محض.

والطيرة إنما تكون بالشر لا بالخير، وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٥﴾ أي: أن أكثرهم جهال لا يدرون، ولو فهمو أو عقلوا لعلموا أنه ليس فيما جاء به

---

(١) بكسر الخاء المعجمة.

موسى -عليه السلام- شيء يقتضي الطيرة.

وقال ابن جرير: يقول تعالى ذكره: ألا إنما طائر آل فرعون وغيرهم، وذلك أنصباؤهم من الرخاء والخصب، وغير ذلك من أنصباء الخير والشر عند الله، ولكن أكثرهم لا يعلمون أن ذلك كذلك؛ فلجهلهم بذلك كانوا يتطيرون بموسى ومن معه[1].



---

(١) رواه ابن جرير في تفسيره عن ابن عباس -رضي الله عنهما-.

وَقَولُهُ: ﴿قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم(١) مَّعَكُمۡۚ(٢) أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ١٩﴾ (يس: ١٩).

والمعنى والله أعلم أي حظكم وما نالكم من خير وشر معكم بسبب أفعالكم وكفركم ومخالفتكم الناصحين ليس من أجلنا ولا بسببنا بل ببغيكم وعداوتكم فطائر الباغي الظالم معه وهو عند الله كما قال تعالى: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا ٧٨﴾ (النساء: ٧٨) ولو فقهوا أو فهموا لما تطيروا بما جئت به؛ لأنه ليس فيما جاء به الرسول ﷺ ما يقتضي الطيرة، بل كأنه خير محض لا شر فيه وصلاح لا فساد فيه، وحكمه لا عيب فيه ورحمة لا جور فيها. فلو كان هؤلاء القوم من أهل الفهم والعقول السليمة لم يتطيروا من هذا لأن الطيرة إنما تكون بالشر لا بالخير المحض والحكمة والرحمة بل طائرهم معهم بسبب كفرهم وشركهم وبغيهم وهو عند الله كسائر حظوظهم وأنصبائهم التي ينالونها منه بأعمالهم، ويحتمل أن يكون المعنى ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ﴾ أي راجع عليكم فالتطير الذي حصل لكم إنما يعود عليكم وهذا من باب القصاص في الكلام ونظيره قوله -عليه السلام-: «**إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا وعليكم**»(٣). ذكره ابن القيم.

وقوله: ﴿أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ﴾ أي من أجل أنا ذكرناكم وأمرناكم بتوحيد الله،

---

(١) أي نحسكم وشؤمكم.

(٢) أي بسبب أفعالكم وكسبكم ومباشرتكم كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾، والجمع بين هذه الآية والتي قبلها أفادت أن ما أصابهم من شر وشؤم إنما هو بسبب أفعالهم، والآية التي قبلها تفيد أنما أصابهم إنما هو بقضاء اللهّ وقدره.

(٣) ويكون هذا مخصصاً لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ﴾ لأن السنة تفسر القرآن وتخصصه وتوضحه وتبينه.

وإخلاص العبادة له قابلتمونا بهذا الكلام، وتوعدتمونا بل أنتم قوم مسرفون.

وقال قتادة: أئن ذكرناكم بالله تطيرتم بنا؟ ومطابقة الآيتين لمقصود الباب ظاهرة لأن الله تعالى لم يذكر التطير إلا عن أعدائه فهو من أمر الجاهلية لا من أمر الإسلام.



وَعَنْ أَبِي هُرَيرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لاَ عَدْوَى[١]، وَلاَ طِيَرَةَ[٢]، وَلاَ هَامَةَ[٣]، وَلاَ صَفَرَ»[٤] [أَخرَجَاهُ]. زَادَ مُسلِمٌ: «وَلاَ نَوْءَ[٥]، وَلاَ غُولَ»[٦].

قوله: «**لا عدوى**»: قال أبو السعادات: العدوى اسم من الإعداء كالدعوى والبقوى من الادعاء والإبقاء. يقال: أعداه الداء يعديه إعداء، وهو أن يصيبه مثل ما بصاحب الداء، وذلك أن يكون ببعير جرب مثلاً يتقي مخالطته بإبل أخرى حذار أن يتعدى ما به من الجرب إليها فيصيبها ما أصابه. انتهى. وفي بعض روايات هذا الحديث فقال أعرابي: يا رسول الله فما بال الإبل تكون في الرمل كأنها الظباء فيجيء البعير الأجرب فيدخل فيها فيجربها كلها؟ قال: «**فمن أعدى الأول**»، وفي رواية في «مسلم» أن أبا هريرة كان يحدِّث بحديث: «**لا عدوى**» ويحدث عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا يورد ممرض على مصح**»[٧]، ثم إن أبا هريرة اقتصر على حديث: «**لا يورد ممرض على مصح**» وأمسك عن حديث «**لا عدوى**» فراجعوه فيه فقالوا سمعناك تحدثه فأبى أن يعترف به. قال أبو سلمة الراوي عن أبي هريرة فلا أدري أنسي أبو هريرة أو نسخ أحد القولين الآخر.

وقد روى حديث «**لا عدوى**» جماعة من الصحابة منهم أنس بن مالك،

---

(١) نفي للعدوى بطبعها وذاتها وهذا لا ينافي اجتناب أسباب الهلاك ويجوز المخالطة لمن قوي إيمانه وصح توكله وللحاجة إلى المخالطة ولبيان أن المخالطة ليست دائماً تؤثر.

(٢) تشاؤم بطير ونحوه.

(٣) البومة تنعق على بيت أحدهم فيقول مؤذنة بخراب البيت.

(٤) مرض في البطن يعدي، أو شهر صفر.

(٥) النجم.

(٦) السعالي أو مخبَّلات الجن أو سفهاء الجن وفسَّاقهم، ومخبَّلات الجن ضعفاء العقول منهم، فإن الجن منهم الفاسق، ومنهم ضعيف العقل، ومنهم المستقيم المراقب لله كالإنس.

(٧) لا يورد بالبناء للفاعل أي لا تورد الإبل المريضة على الصحيحة مثلاً.

وجابر ابن عبدالله، والسائب بن يزيد، وابن عمر وغيرهم، فنسيان أبي هريرة له لا يضر. وفي بعض روايات هذا الحديث «**فرَّ من المجذوم كما تفر من الأسد**» وقد اختلف العلماء في ذلك اختلافاً كثيراً فردت طائفة حديث «**لا عدوى**» بأن أبا هريرة رجع عنه. قالوا: والأخبار الدالة على الاجتناب أكثر، فالمصير إليها أولى، وهذا ليس بشيء، لأن حديث «**لا عدوى**» قد رواه جماعة كما تقدم.

وعكست طائفة هذا القول، ورجحوا حديث «**لا عدوى**» وزيَّفوا ما خلافه من الأخبار، وأعلُّوا بعضها بالشذوذ كحديث «**فرَّ من المجذوم كما تفر من الأسد**» وبأن عائشة أنكرته كما روى ابن جرير عنها: أن امرأةً سألتها عنه فقالت: ما قال ذلك، ولكنه قال: «**لا عدوى**» وقال: «**فمن أعدى الأول؟**» قالت: وكان لي مولى به هذا الداء، فكان يأكل في صحافي، ويشرب في أقداحي، وينام على فراشي. وهذا أيضاً ليس بشيء، فإن الأحاديث في الاجتناب ثابتة.

وحملت طائفة أخرى الإثبات والنفي على حالتين مختلفتين، فحيث جاء «**لا عدوى**» كان المخاطب بذلك من قوي يقينه، وصحَّ توكله بحيث لا يستطيع أن يدفع عن نفسه اعتقاد العدوى كما يستطيع أن يدفع التطير الذي يقع في نفس كل واحد لكن القوي اليقين لا يتأثر به، وهذا كما أن قوة الطبيعة تدفع العلة وتبطلها. وحيث جاء الإثبات كان المراد به ضعيف الإيمان والتوكل ذكره بعض أصحابنا واختاره وفيه نظر. وقال مالك لما سئل عن حديث «**فرَّ من المجذوم**»: ما سمعت فيه بكراهية وما أرى ما جاء من ذلك إلا مخافة أن يقع في نفس المؤمن شيء. ومعنى هذا أنه نفى العدوى أصلاً، وحمل الأمر بالمجانبة على حسم المادة وسد الذريعة، لئلا يحدث للمخاطب شيء من ذلك فيظن أنه بسبب المخالطة، فيثبت العدوى التي نفاها الشارع. وإلى هذا ذهب أبو عبيد وابن جرير والطحاوي وذكره القاضي أبو يعلى عن أحمد.

قلت: وأحسن من هذا كله ما قاله البيهقي، وتبعه ابن الصلاح وابن القيم وابن رجب وابن مفلح وغيرهم أن قوله: «**لا عدوى**» على الوجه الذي كانوا يعتقدونه في الجاهلية من إضافة الفعل إلى غير الله تعالى، وأن هذه الأمراض تعدي بطبعها، وإلا فقد يجعل الله بمشيئته مخالطة الصحيح من به شيء من هذه العيوب سبباً لحدوث ذلك، ولهذا قال: «**فـرّ من المجذوم كما تفر من الأسد**»، وقال: «**لا يورد ممرض على مصح**»[١]، وقال في الطاعون: «**من سمع به بأرض فلا يقدم عليه**» وكل ذلك بتقدير الله تعالى كما قال: «**فمن أعدى الأول؟**» يشير إلى أن الأول إنما أجرب بقضاء الله وقدره، فكذلك الثاني وما بعده، وروى الإمام أحمد والترمذي عن ابن مسعود مرفوعاً: «**لا يعدي شيء**» قالها ثلاثاً فقال الأعرابي: يا رسول الله، النقبة من الجرب تكون بمشفر البعير أو بذنبه في الإبل العظيمة فتجرب كلها فقال رسول الله ﷺ: «**فمن أجرب الأول لا عدوى ولا هامة ولا صفر خلق الله كل نفس وكتب حياتـها ومصابـها ورزقها**» فأخبر -عليه السلام- أن ذلك كله بقضاء الله وقدره كما دل عليه قوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾[٢].

وأما أمره بالفرار من المجذوم ونهيه عن إيراد الممرض على المصح وعن الدخول إلى موضع الطاعون[٣]، فإنه من باب اجتناب الأسباب التي خلقها الله تعالى، وجعلها أسباباً للهلاك والأذى، والعبد مأمور باتقاء أسباب الشر إذا كان في عافية، فكما أنه يؤمر أنه لا يلقي نفسه في الماء أو في النار أو تحت الهدم أو نحو ذلك

---

(١) فالمخالطة سبب من أسباب العدوى وقد لا تحصل العدوى فالبعد عن المريض من جملة الأسباب.

(٢) وهذا القول هو أرجح الأقوال في الجمع بين الأحاديث.

(٣) فإنه اتقاء لأسباب الهلاك وأيضاً فيه قطع للوساوس التي يلقيها الشيطان على الإنسان فقد يلقي لو لم أقدم ولو لم أفعل لما حصل كذا، فعدم الدخول فيه قطع لهذه الوساوس.

كما جرت العادة بأنه يهلك ويؤذي؛ فكذلك اجتناب مقاربة المريض كالمجذوم، وقدوم بلد الطاعون فإن هذه كلها أسباب للمرض والتلف، والله تعالى هو خالق الأسباب ومسبَّباتها لا خالق غيره ولا مقدّر غيره.

وأما إذا قوي التوكل على الله، والإيمان بقضائه وقدره فقويت النفس على مباشرة بعض هذه الأسباب اعتماداً على الله ورجاءً منه أن لا يحصل به ضرر ففي هذه الحال تجوز مباشرة ذلك لا سيما إذا كانت فيه مصلحةٌ عامة أو خاصة وعلى هذا يحمل الحديث الذي رواه أبو داود والترمذي أن النبي ﷺ أخذ بيد مجذوم فأدخلها معه في القصعة ثم قال: «**كل بسم الله ثقة بالله وتوكلاً عليه**»، وقد أخذ به الإمام أحمد، وروي ذلك عن عمر وابنه وسلمان -رضي الله عنهم-، ونظير ذلك ما روي عن خالد بن الوليد من أكل السم[1] ومن مشي سعد بن أبي وقاص وأبي مسلم الخولاني بالجيوش على متن البحر. قاله ابن رجب.

قوله: «ولا طيرة»[2]: قال ابن القيم: هذا يحتمل أو يكون نفياً أن يكون نهياً أي لا تتطيروا، ولكن قوله في الحديث: «**ولا عدوى ولا صفر ولا هامة**» يدل على أن المراد النفي وإبطال هذه الأمور التي كانت الجاهلية تعانيها، والنفي في هذا أبلغ من النهي؛ لأن النفي يدل على بطلان ذلك وعدم تأثيره، والنهي إنما يدل على المنع منه، وفي «صحيح مسلم» عن معاوية بن الحكم السلمي أنه قال لرسول الله ﷺ: ومنا أناس يتطيرون فقال: «**ذاك شيء يجده أحدكم في نفسه فلا يصدنكم**» فأخبر

---

(١) حديث شرب خالد رضي الله عنه السم رواه أبو يعلى، والطبراني، ورجالهما ثقات لكن فيه انقطاع، وهو بمجموع الطريقين حسن، وإنما كان أكله للسم لما في ذلك المصلحة لأن أكله إقامة للحجة على من طلب ذلك ممن يرجى إيمانه، لكن لا ينبغي للإنسان أن يأكل السم أو يلقي بنفسه في الماء أو النار ويقول لا يصيبني، بل الواجب على الإنسان أن لا يجرب بنفسه بل يجتنب أسباب الهلاك كما أمره الله.

(٢) فنفى الطيرة وإنما هو شيء يجدونه في صدورهم.

أن تأذيه وتشاؤمه بالتطير إنما هو في نفسه وعقيدته لا في المتطير به، فوهمه وخوفه وإشراكه هو الذي يطيِّره ويصده لا ما رآه وسمعه، فأوضح ﷺ لأمته الأمر وبيّن لهم فساد الطيرة ليعلموا أن الله سبحانه لم يجعل لهم عليها علامة، ولا فيها دلالة ولا نصبها سبباً لما يخافونه ويحذرونه، ولتطمئن قلوبهم، وتسكن نفوسهم إلى وحدانيته تعالى التي أرسل بها رسله، ونزَّل بها كتبه، وخلق لأجلها السماوات والأرض، وعمَّر الدارين الجنة والنار بسبب التوحيد فقطع ﷺ عَلَق الشرك من قلوبهم، لئلا يبقى فيها علق منها ولا يتلبسوا بعمل من أعمال أهل النار البتة.

فمن استمسك بعروة التوحيد الوثقى واعتصم بحبله المتين وتوكل على الله، قطع هاجس الطيرة من قبل استقرارها وبادر خواطرها من قبل استمكانها.

قال عكرمة: كنا جلوساً عند ابن عباس فمرَّ طائر يصيح. فقال رجل من القوم: خير خير فقال ابن عباس: لا خير ولا شر فبادره بالإنكار عليه لئلا يعتقد تأثيره في الخير والشر. وخرج طاووس مع صاحب له في سفر، فصاح غراب، فقال الرجل: خير. فقال طاووس: وأي خير عند هذا لا تصحبني. انتهى ملخصاً.

ولكن يشكل عليه ما رواه ابن حبان في «صحيحه» عن أنس مرفوعاً: «**لا طيرة والطيرة على من تطير**» فظاهر هذا أنها تكون سبباً لوقوع الشر بالمتطير.

وجوابه: أن المراد بذلك من تطير تطيراً منهياً عنه، وهو أن يعتمد على ما يسمعه ويراه حتى يمنعه مما يريد من حاجته، فإنه قد يصيبه ما يكرهه عقوبة له، فأما من توكل على الله، ووثق به بحيث علَّق قلبه بالله خوفاً ورجاءً، وقطعه عن الالتفات إلى غير الله. وقال وفعل ما أمر به فإنه لا يضره ذلك. وأما من اتقى أسباب الضر بعد انعقادها بالأسباب المنهي عنها، فإنه لا ينفعه ذلك غالباً كمن ردته الطيرة عن حاجته خشية أن يصيبه ما تطير به، فإنه كثيراً ما يُصاب بما يخشى به.

وقد جاءت أحاديث ظن بعض الناس أنها تدل على جواز الطيرة، منها قوله

-عليه السلام-: «**الشؤم في ثلاث: في المرأة والدابة والدار**»، وفي رواية: «**لا عدوى ولا طيرة، والشؤم في ثلاث...**» الحديث وفي حديث آخر: «**إن كان ففي الفرس والمرأة والمسكن**» رواهما البخاري فأنكرت[1] -عائشة رضي الله عنها- ذلك وقالت: كذب والذي أنزل الفرقان على أبي القاسم من حدّث بها ولكن رسول الله ﷺ كان يقول: «**كان أهل الجاهلية يقولون: إن الطيرة في المرأة والدار والدابة**» ثم قرأت عائشة: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾ (الحديد: ٢٢) رواه أحمد وابن خزيمة والحاكم وصححه بمعناه، وقال الخطابي وابن قتيبة: هذا مستثنى من الطيرة أي الطيرة منهي عنها إلا أن يكون له دار يكره سكناها أو امرأة يكره صحبتها أو فرس أو خادم فليفارق الجميع بالبيع والطلاق ونحوه، ولا يقيم على الكراهة والتأذي به فإنه شؤم.

وقالت طائفة: لم يجزم النبي ﷺ بالشؤم في هذه الثلاثة، بل علقه على الشرط كما ثبت في «الصحيح»، ولا يلزم من صدق الشرطية صدق كل واحد بمفردها، قالوا والراوي غلط.

قلت: لا يصح تغليطه مع إمكان حمله على الصحة، ورواية تعليقه بالشرط لا تدل على نفي رواية الجزم.

وقالت طائفة أخرى: الشؤم بهذه الثلاثة إنما يلحق من تشاءم بها فيكون شؤمها عليه، ومن توكل على الله ولم يتشاءم ولم يتطير لم تكن مشؤومة عليه، قالوا ويدل عليه حديث أنس: «**الطيرة على من تطير**» وقد يجعل الله سبحانه تطير العبد وتشاءمه سبباً لحلول المكروه كما يجعل الثقة به والتوكل عليه، وإفراده بالخوف والرجاء من أعظم الأسباب التي يدفع بها الشر. وقال ابن القيم: إخباره ﷺ

---

(١) أنكرت عائشة الحديث مع أنه في «البخاري» وهذا من أغلاطها التي غلطت فيها، وقد غلّطها الصحابة والعلماء في أشياء مع أنها -رضي الله عنها- أعلم النساء وأفقههن.

بالشؤم في هذه الثلاثة ليس فيه إثبات الطيرة التي نفاها الله وإنما غايته أن الله سبحانه قد يخلق أعياناً منها مشؤومة على من قاربها وسكنها وأعياناً مباركة لا يلحق من قاربها منها شؤم ولا شر، وهذا كما يعطي سبحانه الوالدين ولداً مباركاً يريان الخير على وجهه، ويعطي غيرهما ولداً مشؤوماً يريان الشر على وجهه، وكذلك ما يعطاه العبد من ولاية أو غيرها، فكذلك الدار والمرأة والفرس، والله سبحانه خالق الخير والشر والسعود والنحوس فيخلق بعض هذه الأعيان سعوداً مباركة، ويقضي بسعادة من قاربها وحصول اليمن والبركة له، ويخلق بعضها نحوساً ينتحس بها من قاربها. وكل ذلك بقضائه وقدره كما خلق سائر الأسباب وربطها بمسبباتها المتضادة والمختلفة، كما خلق المسك وغيره من الأرواح الطيبة ولذذ بها من قاربها من الناس، وخلق ضدها وجعلها سبباً لألم من قاربها من الناس، والفرق بين هذين النوعين مدرك بالحس فكذلك في الديار والنساء والخيل فهذا لون والطيرة الشركية لون. انتهى.

قلت: ولهذا يشرع لمن استفاد زوجة أو أمة أو دابة، أن يسأل الله من خيرها وخير ما جُبلتْ عليه، ويستعيذ من شرها وشر ما جُبلتْ عليه، وكذلك ينبغي لمن سكن داراً أن يفعل ذلك ولكن يبقى على هذا أن يقال هذا جارٍ في كل مشؤوم فما وجه خصوصية هذه الثلاثة بالذكر؟ وجوابه أن أكثر ما يقع التطير في هذه الثلاثة فخُصتْ بالذكر لذلك. ذكره في «شرح السنن»[1].

ومنها: ما روى مالك عن يحيى بن سعيد قال: جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت يا رسول الله: دار سكناها والعدد كثير والمال وافر فقل العدد وذهب المال، فقال النبي ﷺ: «**دعوها ذميمة**» رواه أبو داود عن أنس بنحوه وجوابه أن هذا ليس من الطيرة المنهي عنها، بل أمرهم بالانتقال لأنهم استثقلوها واستوحشوا منها، لما لحقهم فيها ليتعجلوا الراحة مما دخلهم من الجزع، لأن الله قد جعل في

(١) الأربعة، أو «شرح السنة» للبغوي وهو الأقرب.

غرائز الناس استثقال ما نالهم الشر فيه، وإن كان لا سبب له في ذلك وحُبّ من جرى على يديه الخير لهم، وإن لم يردهم به، ولأن مقامهم فيها قد يقودهم إلى الطيرة، فيوقعهم ذلك في الشرك. والشر الذي يلحق المتطير بسبب طيرته، وهذا بمنزلة الخارج من بلد الطاعون غير فارّ منه، ولو مُنع الناس الرحلة من الدار التي تتوالى عليهم فيها المصائب والمحن، وتعذر الأرزاق مع سلامة التوحيد في الرحلة للزم كلّ من ضاق عليه رزق في بلد أو قلة فائدة صناعته أو تجارته فيها أن لا ينتقل عنها إلى غيرها.

ومنها: فإن قيل: ما الفرق بين الدار وبين موضع الوباء حيث رخّص في الارتحال عن الدار دون موضع البلاء؟ أجاب بعضهم أن الأمور بالنسبة إلى هذا المعنى ثلاثة أقسام، أحدها ما لا يقع التطير منه إلا نادراً، أو إلا مكرراً فهذا لا يصغى إليه كنعي الغراب في السفر، وصرخ بومة في دار، وهذا كانت العرب تعتبره، ثانيها ما يقع به ضرر، ولكنه يعم ولا يخص ويندر ولا يتكرر كالوباء، فهذا لا يقدم عليه ولا يفر منه، وثالثها سبب محض ولا يعم ويلحق به الضرر لطول الملازمة كالمرأة، والفرس والدار فيباح له الاستبدال، أو التوكل على الله، والإعراض عما يقع في النفس، ذكره في «شرح السنن».

ومنها: حديث اللقحة لما منع النبي ﷺ حرباً ومرة من حلبها وأذن ليعيش. رواه مالك.

وجوابه: أن ابن عبدالبر قال: ليس هذا عندي من باب الطيرة لأنه محال أن ينهى عن شيء ويفعله، وإنما من طلب الفأل الحسن. وقد كان قد أخبرهم عن أقبح الأسماء أنه حرب ومرة، فالمراد بذلك لا يتسمى بهما أحد، وقد روى ابن وهب في «جامعه» ما يدل على هذا فإنه قال في هذا الحديث فقام عمر بن الخطاب فقال: أتكلم يا رسول الله أم أصمت؟ فقال: **«بل اصمت وأخبرك بما أردت،**

ظننت يا عمر أنها طيرة ولا طيره، ولا خير إلا خيره، ولكن أحب الفأل الحسن»، وعلى هذا تجري بقية الأحاديث التي توهم بعضهم أنها من باب الطيرة.

قوله: «ولا هامة»: بتخفيف الميم على الصحيح قال الفراء الهامة طائر من طير الليل كأنه يعني البومة قال ابن الأعرابي: كانوا يتشاءمون بها إذا وقعت على بيت أحدهم يقول: نعت إليَّ نفسي أو أحداً من أهل داري، وقال أبو عبيد[(١)]: كانوا يزعمون أن عظام الميت تصير هامة فتطير ويسمون ذلك الطائر الصّدَى، وبه جزم ابن رجب قال: وهذا شبيه باعتقاد أهل التناسخ أن أرواح الموتى تنتقل إلى أجساد حيوانات من غير بعث ولا نشور، وكل هذه اعتقادات باطلة جاء الإسلام بإبطالها وتكذيبها، ولكن الذي جاءت به الشريعة أن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تأكل من ثمار الجنة وتشرب من أنهارها[(٢)] إلى أن يردّها الله في أجسادها، وذكر الزبير بن بكار في «المُوفَّقيَّات» أن العرب كانت في الجاهلية تقول إذا قُتل الرجل ولم يؤخذ بثأره خرجت من رأسه هامة، وهي دودة فتدور حول قبره وتقول: اسقوني، وفي ذلك يقول شاعرهم:

يا عمرو إنْ لا تدع شتمي ومنقصتي ... أضربك حتى تقول الهامة اسقوني

قال: وكانت اليهود تزعم أنها تدور حول قبره سبعة أيام ثم تذهب.

قوله: «ولا صفر»: -بفتح الفاء- روى أبو عبيد القاسم بن سلام في «غريب الحديث» له عن رؤبة أنه قال: هي حية تكون في البطن تصيب الماشية والناس وهي أعدى من الجرب عند العرب. فعلى هذا فالمراد بنفيه ما كانوا يعتقدونه من

---

(١) أبو عبيد: بدون تاء مربوطة فقيه عالم من شيوخ الدارمي صاحب السنن وغيره، وأما أبو عبيدة بتاء مربوطة فمعمر ابن المثنى من أئمة اللغة.

(٢) وهذه كرامة للشهداء جعل الله أرواحهم في حواصل طير خضر يكون لها بمثابة المراكب التي تركبها كالطيارات التي تطير بها، وأما أرواح المؤمنين عامة فورد أن نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه فتكون هي فيها قوة الطيران.

العدوى ويكون عطفه على العدوى من عطف الخاص على العام. وممن قال بهذا سفيان بن عيينة، وأحمد، والبخاري، وابن جرير، وقال آخرون: المراد به شهر صفر، والنفي لما كان أهل الجاهلية يفعلونه في النسيء، وكانون يحلون المحرم ويحرّمون صفر مكانه، وهذا قول مالك وفيه نظر. وروى أبو داود عن محمد بن راشد عمن سمعه يقول: إن أهل الجاهلية كانوا يستشئمون بصفر ويقولون: إنه شهر مشؤوم فأبطل النبي ﷺ ذلك.

قال ابن رجب: ولعل هذا القول أشبه الأقوال، وكثير من الجهال يتشاءم بصفر، وربما ينهى عن السفر فيه والتشاؤم بصفر هو من جنس الطيرة المنهي عنها، وكذلك التشاؤم بيوم من الأيام كيوم الأربعاء وتشاؤم أهل الجاهلية بشوال في النكاح فيه خاصة.

قوله: «**ولا نوء**»: النوء واحد الأنواء وسيأتي الكلام عليه في باب ما جاء في الاستسقاء بالأنواء[1].

قوله: «**لا غول**» هو -بالفتح- مصدر معناه البعد والهلاك وبالضم الاسم وجمعه أغوال غيلان [2] وهو المراد هنا. قال أبو السعادات: الغول واحد الغيلان، وهو جنس من الجن والشياطين كانت العرب تزعم أن الغول في الفلاة تتراءى للناس فتتغول تغولاً أي: تتلون تلوناً في صور شتى وتغوِّلهم أي تضلهم عن الطريق وتهلكهم فنفاه النبي ﷺ وأبطله، وقيل: قوله: «**لا غول**» ليس نفياً لعين الغول ووجوده، وإنما فيه إبطال زعم العرب في تلونه بالصور المختلفة واغتياله. فيكون المعنى بقوله: «**لا غول**» أنها لا تستطيع أن تضل أحداً ويشهد له الحديث

(١) وهو النجم وهي منازل القمر وهي ثمانية وعشرون، أربعة عشر شمالية وأربعة عشر يمانية.

(٢) من مخبَّلات الجن، أو هي ضعفاء العقول منهم أو فساقهم، إذ رآها الإنسان، فليبادر إلى الأذان ولو لم يتمَّه فإنه يذهب.

الآخر: «**لا غول ولكن السعالي سحرة الجن**» أي ولكن في الجن سحرة لهم تلبيس وتخييل، ومنه الحديث: «**إذا تغولت الغيلان فبادروا بالأذان**» أي: ادفعوا شرها بذكر الله، وهذا يدل على أنه لم يرد بنفيها عدمها، ومنه حديث أبي أيوب كان لي تمر في سهوة فكانت الغول تجيء فتأخذ.



وَلَهُمَا عَن أَنَسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لاَ عَدْوَى، وَلاَ طِيَرَةَ، وَيُعْجِبُنِي الفَأْلُ». وقَالُوا: وَمَا الفَأْلُ؟ قَالَ: «الكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ».

قوله: «ويعجبني الفأل»: قال أبو السعادات: الفأل مهموز فيما يسر ويسوء، والطيرة لا تكون إلا فيما يسوء، وربما استعملت فيما يسر، يقال: تفاءلت بكذا، وتفاولت على التخفيف والقلب. وقد أولع الناس بترك الهمزة تخفيفاً، وإنما أحب الفأل، لأن الناس إذا أمّلوا فائدة الله، ورجوا عائدته عند كل سبب ضعيف أو قوي فهم على خير، ولو غلطوا في جهة الرجاء، فإن الرجاء لهم خير، وإذا قطعوا أملهم ورجاءهم من الله كان ذلك من الشر، وأما الطيرة فإن فيها سوء الظن بالله وتوقّع البلاء ومعنى التفاؤل مثل أن يكون رجل مريض، فيتفاءل بما يسمع من كلام فيسمع آخر يقول: يا سالم، و يكون طالب ضالة فيسمع آخر يقول: يا واجد فيقع في ظنه أنه برئ من مرضه ويجد ضالته ومنه الحديث قيل يا رسول الله ما الفأل فقال: «**الكلمة الطيبة**».

قوله: «قالوا يا رسول الله ما الفأل؟ قال: الكلمة الطيبة»: بيّن لهم ﷺ أن الفأل يعجبه فدل أنه ليس من الطيرة المنهي عنها. قال ابن القيم: ليس في الإعجاب بالفأل ومحبته شيء من الشرك بل ذلك إبانة عن مقتضى الطبيعة ومن حب الفطرة الإنسانية التي تميل إلى ما يوافقها ويلائمها كما أخبرهم أنه حُبب إليه من الدنيا النساء والطيب، وكان يحب الحلوى والعسل، ويحب حُسَنَ الصوت بالقرآن والأذان ويستمع إليه ويحب معالي الأخلاق، ومكارم الشيم وبالجملة يحب كل كمال وخير وما يفضي إليهما، والله سبحانه وتعالى قد جعل في غرائز الناس الإعجاب بسماع الاسم الحسن ومحبته، وميل نفوسهم إليه، وكذلك جعل فيها الارتياح والاستبشار والسرور باسم الفلاح والسلام والنجاح والتهنئة والبشرى

والفوز والظفر ونحو ذلك فإذا قرعت هذه الأسماء الأسماع استبشرت بها النفس وانشرح لها الصدر، وقوي بها القلب، وإذا سمعت أضدادها أوجب لها ضد هذه الحال فأحزنها ذلك، وأثار لها خوفاً وطيرة وانكماشاً وانقباضاً عما قصدت له وعزمت عليه، فأورث لها ضرراً في الدنيا، ونقصاً في الإيمان، ومقارفة للشرك.

وقال الحليمي: وإنما كان ﷺ يعجبه الفأل، لأن التشاؤم سوء ظن بالله تعالى بغير سبب محقق، والتفاؤل حسن ظن به، والمؤمن مأمور بحسن الظن بالله تعالى على كل حال.



وَلأَبِي دَاوُدَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَن عُقبَةَ[١] بنِ عَامِرٍ، قَالَ: ذُكرتْ الطِّيَرَةُ عِندَ رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ: «أَحْسَنُهَا الفَأْلُ، وَلاَ تَرُدُّ مُسْلِمًا، فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مَا يَكْرَهُ، فَلْيَقُلِ: اللَّهُمَّ لاَ يَأْتِي بِالحَسَنَاتِ إِلاَّ أَنْتَ، وَلاَ يَدْفَعُ السَّيِّئَاتِ إِلاَّ أَنْتَ، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِكَ».

قوله: «عن عقبة بن عامر»: هكذا وقع في نسخ التوحيد، وصوابه عروة بن عامر كذا أخرجه أحمد وأبو داود وغيرهما، وهو مكي اختلف في نسبه، فقال أحمد ابن حنبل في روايته: عن عروة بن عامر القرشي، وقال غيره الجهني، واختلف في صحبته فقال الباردي: له صحبة، وذكره ابن حبان في ثقات التابعين، وقال المزي: لا صحبة له تصح.

قوله: «فقال أحسنها الفأل»: قد تقدم أنه ﷺ كان يعجبه الفأل، وروى الترمذي وصححه عن أنس أن النبي ﷺ كان إذا خرج لحاجته يحب أن يسمع يا نجيح يا راشد، وروى أبو داود عن بريدة أن النبي ﷺ كان لا يتطير من شيء، وكان إذا بعث عاملاً سأل عن اسمه فإذا أعجبه فرح به وإن كره اسمه، رؤي كراهيته في وجهه وإسناده حسن. فهذا في استعمال الفأل. قال ابن القيم في الكلام على الحديث المشروح: أخبر ﷺ أن الفأل من الطيرة وهو خيرها، فأبطل الطيرة وأخبر أن الفأل[٢] منها ولكنه خير منها، ففصل بين الفأل والطيرة لما بينهما من الامتياز والتضاد، ونفع أحدهما ومضرة الآخر، ونظير هذا منعه من الرقى بالشرك وإذنه في الرقية إذا لم يكن فيها شرك لما فيها من المنفعة الخالية عن المفسدة.

---

(١) صوابه عروة بن عامر القرشي، وليس عقبة بن عامر الجهني ولعل المؤلف كتبه من حفظه.

(٢) فالفأل من الطيرة لما فيه من ميل القلب وليس منها في الذم لما فيها من النفع، ولأنها تعرض للإنسان يسمعها من غير أن يقصد ذلك.

قوله: «**ولا ترد مسلماً**»: قال الطِّيِّبي: تعريض بأن الكافر بخلافه.

قوله: «**اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت**»: أي: لاتأتي الطيرة بالحسنات ولا تدفع المكروهات، بل أنت وحدك لا شريك لك، الذي تأتي بالحسنات وتدفع السيئات(١)، وهذا دعاء مناسب لمن وقع في قلبه شيء من الطيرة، وتصريح بأنها لا تجلب نفعاً ولا تدفع ضراً، ويُعَد من اعتقدها سفيهاً مشركاً.

قوله: «**ولا حول ولا قوة إلا بك**»: استعانة بالله تعالى على فعل التوكل، وعدم الالتفات إلى الطيرة التي قد تكون سبباً لوقوع المكروه وعقوبة لفاعلها وذلك إنما يصدر من تحقيق التوكل، الذي هو أقوى الأسباب في جلب الخيرات، ودفع المكروهات، والحول التحوّل والانتقال من حال إلى حال، والقوة على ذلك، أي لا حول ولا قوة على ذلك الحول إلا بك، وذلك يفيد التوكل على الله لأنه علم وعمل، فالعلم معرفة القلب بتوحد الله بالنفع والضر، وعامة المؤمنين بل كثير من المشركين يعلمون ذلك، والعمل هو ثقة القلب بالله وفراغه من كل ما سواه، وهذا عزيز(٢) ويختص به خواص المؤمنين، وهو داخل في هذه الكلمة لأن فيها من التبري من الحول والقوة والمشيئة بدون حول الله وقوته ومشيئته والإقرار بقدرته على كل شيء، وبعجز العبد عن كل شيء إلا ما أقدره عليه ربه، وهذا نهاية توحيد الربوبية الذي يثمر التوكل وتوحيد العبادة.



---

(١) المراد بالحسنات الخير والسعة والخصب ويدخل في ذلك الطاعات والمراد بالسيئات: الشر والضيق والجدب ونحوها ويدخل في ذلك المعاصي.

(٢) أي نادر وشاق.

[وَلَه] عَنِ ابنِ مَسعُودٍ مَرفُوعَاً: «الطِّيَرَةُ شِرْكٌ، وَمَا مِنَّا إلاَّ وَلَكِنَّ الله يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ» [رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ والتِّرمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ]. وَجَعَلَ آخِرَهُ مِن قَولِ ابنِ مَسعُودٍ[1].

هذا الحديث رواه أيضاً ابن ماجه وابن حبان ولفظ أبي داود: «**الطيرة شرك الطيرة شرك**».

قوله: «**الطيرة شرك**»: صريح في تحريم الطيرة وأنها من الشرك لما فيها من تعلق القلب على غير الله. وقال ابن حمدان في «الرعاية»: تكره الطيرة، وكذا قال غير واحد من أصحاب أحمد، وقال ابن مفلح: والأولى القطع بتحريمها، ولعل مرادهم بالكراهة التحريم.

قلت: بل الصواب القطع بتحريمها لأنها شرك وكيف يكون الشرك مكروهاً الكراهة الاصطلاحية؟ فإن كان القائل بكراهتها أراد ذلك فلا ريب في بطلانه. قال في «شرح السنن»[2]: وإنما جعل الطيرة من الشرك لأنهم كانوا يعتقدون أن التطير يجلب لهم نفعاً أو يدفع عنهم ضراً إذا عملوا بموجبه فكأنهم شركوه مع الله تعالى.

قوله: «**وما منا إلا**»: قال أبو القاسم الأصبهاني والمنذري: في الحديث إضمار والتقدير وما منا إلا وقد وقع في قلبه شيء من ذلك. انتهى.

وحاصله: وما منا إلا من يعتريه التطير ويسبق إلى قلبه الكراهة فيه، فحذف ذلك اعتماداً على فهم السامع، وقال الخِلْخَالي[3]: حذف المستثنى لما يتضمنه من

---

(١) لأن الله صان نبيه قبل البعثة أن يقع في قلبه شيء من الطيرة.

(٢) المقصود: «النهاية في غريب الحديث والأثر» لابن الأثير، أو «نيل الأوطار» للشوكاني، فقد ذكرا هذا الكلام بحروفه.

(٣) بكسر الخاء المعجمة.

الحالة المكروهة وهذا نوع من أدب الكلام.

قوله: «ولكن الله يذهبه بالتوكل»: أي: ما منا إلا من يقع في قلبه ذلك، ولكن لما توكلنا على الله وآمنا به، واتبعنا ما جاء به الرسول ﷺ واعتقدنا صدقه، أذهب الله ذلك عنا، وأقرّ قلوبنا على السنة واتباع الحق.

قوله: «وجعل آخره من قول ابن مسعود»: قال الترمذي: سمعت محمد بن إسماعيل[1] يقول: كان سليمان بن حرب يقول في هذا: «وما منا» هذا عندي من قول ابن مسعود، فالترمذي نقل ذلك عن سليمان بن حرب ووافقه على ذلك العلماء. قال ابن القيم: وهو الصواب، فإن الطيرة نوع من الشرك.



(١) يريد الإمام البخاري لأنه شيخه.

وَلأَحْمَدٍ مِن حَدِيثِ ابنِ عُمَرو: «مَنْ رَدَّتْهُ الطِّيَرَةُ عَنْ حَاجَتِهِ، فَقَدْ أَشْرَكَ». قَالَوا: فَمَا كَفَّارَةُ ذَلِكَ؟ قَالَ: «أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ لاَ خَيْرَ إِلاَّ خَيْرُكَ، وَلاَ طَيْرَ إِلاَّ طَيْرُكَ، وَلاَ إِلَهَ غَيْرُكَ».

هذا الحديث رواه الإمام أحمد والطبراني عن عبدالله عمرو بن العاص مرفوعاً وفي إسناده ابن لهيعة[١] وفيه اختلاف وبقية رجاله ثقات.

قوله: «من حديث ابن عمرو»: هو عبدالله بن عمرو بن العاص بن وائل السهمي، أبو محمد، وقيل أبو عبدالرحمن أحد السابقين المكثرين من الصحابة وأحد العبادلة الفقهاء. مات في ذي الحجة ليالي الحرة[٢] على الأصح بالطائف.

قوله: «من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك»: وذلك أن التطير هو التشاؤم بالشيء المرئي أو المسموع فإذا استعملها الإنسان فرجع بها عن سفره وامتنع بها عما عزم عليه؛ فقد قرع باب الشرك، بل ولجه وبرئ من التوكل على الله[٣]، وفتح على نفسه باب الخوف والتعلق بغير الله، وذلك قاطع له عن مقام «**إياك نعبد، وإياك نستعين**» فيصير قلبه متعلقاً بغير الله، وذلك شرك فيفسد عليه إيمانه[٤]، ويبقى هدفاً لسهام الطيرة، ويقيض له الشيطان من ذلك ما يفسد عليه دينه ودنياه، وكم ممن هلك بذلك وخسر الدنيا والآخرة.

قوله: «فما كفارة ذلك» إلى آخر الحديث: هذا كفارة لما يقع من الطيرة ولكن

---

(١) ابن لهيعة ليس ضعيفاً بالضعف الشديد، بل ضعفه من سوء حفظه بعد ما احترقت كتبه، أما من روى عنه قبل ذلك فلا بأس، وأما بعده فإنه إن كانت له شواهد فإنه ينجبر بها ويكون من باب الحسن لغيره.

(٢) وكانت الحرة عام ثلاث وستين للهجرة.

(٣) المراد التوكل العام فالعبارة فيها تسامح.

(٤) المراد كمال إيمانه فالعبارة فيها تسامح.

يمضي مع ذلك ويتوكل على الله، وفيه الاعتراف بأن الطير خلق مسخر مملوك لله، لا يأتي بخير ولا يدفع شراً، وأنه لا خير في الدنيا والآخرة إلا خير الله، فكل خير فيهما فهو من الله تعالى تفضلاً على عباده وإحساناً إليهم، وأن الإلهية كلها لله ليس فيها لأحد من الملائكة والأنبياء -عليهم السلام- شركة، فضلاً عن أن يشرك فيها ما يراه ويسمعه مما يتشاءم به.



وَلَهُ مِن حَدِيثِ الفَضْلِ بنِ العَبَّاس[١]: «إِنَّمَا الطِّيَرَةُ مَا أَمْضَاكَ أَوْ رَدَّكَ».

هذا الحديث رواه أحمد في «المسند» ولفظه: حدثنا حماد بن خالد قال: ثنا بن علاثة، عن مسلمة الجهني، قال: سمعته يحدث عن الفضل بن عباس قال: خرجت مع رسول الله ﷺ يوماً فبرح ظبي فمال في شقة فاحتضنته فقلت: يا رسول الله تطيرت قال: «**إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك**» هكذا رواه أحمد، وفي إسناده نظر وقرأت بخط المصنف فيه رجل مختلف فيه، وفيه انقطاع أي: بين مسلمة[٢] وبين الفضل وهو ابن العباس بن عبدالمطلب بن عم النبي ﷺ وأكبر ولد العباس. قال ابن معين: قتل يوم اليرموك في عهد أبي بكر -رضي الله عنه-، وقال غيره: قُتل يوم مرج الصفر، سنة ثلاث عشرة وهو ابن اثنتين وعشرين سنة، قال أبو داود: قتل بدمشق كان عليه درع النبي ﷺ، وقال الواقدي وابن سعد: مات في طاعون عمواس.

قوله: «**إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك**»: هذا حدٌّ للطيرة المنهي عنها بأنها ما أوجب للإنسان أن يمضي لما يريده ولو من الفأل، فإن الفأل إنما يستحب لما فيه من البشارة والملاءمة للنفس، فأما أن يعتمد عليه ويمضي لأجله مع نسيان التوكل على الله فإن ذلك من الطيرة، وكذلك إذا رأى أو سمع ما يكره فتشاءم به ورده عن حاجته[٣] فإن ذلك أيضاً من الطيرة.



(١) هذا الحديث والذي قبله في سندها لين وضعف.

(٢) مسلمة الجهني.

(٣) أما إذا مضى أو رجع لأن عنده ضيوف هذا اليوم أو لعمل أو غير ذلك فليس هذا من الطيرة.

باب
ما جاء في التنجيم

الشَّرْحُ:

المراد هنا ذكر ما يجوز من التنجيم وما لا يجوز وما ورد فيه من الوعيد.

قال شيخ الإسلام: التنجيم هو الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية. وقال الخطابي: علم النجوم المنهي عنه هو ما يدعيه أهل التنجيم من علم الكوائن والحوادث التي لم تقع وستقع في المستقبل، كأوقات هبوب الرياح، ومجيء المطر، وظهور الحر والبرد، وتغير الأسعار، وما كان في معناها من الأمور التي يزعمون أنهم يدركون معرفتها بمسير الكواكب في مجاريها واجتماعها وافتراقها، ويدعون أن لها تأثيراً في السفليات وأنها تجري على قضايا موجباتها. وهذا منهم تحكم على الغيب وتعاطي لعلم قد استأثر الله به لا يعلم الغيب سواه.

قلت: واعلم أن التنجيم على ثلاثة أقسام:

أحدها: ما هو كفر بإجماع المسلمين، وهو القول بأن الموجودات في العالم السفلي مركبة على تأثير الكواكب والرُّوْحانيات، وأن الكواكب فاعلة مختارة وهذا كفر بإجماع المسلمين، وهذا قول الصابئة المنجمين الذين بُعث إليهم إبراهيم الخليل -عليه السلام-، ولهذا كانوا يعظِّمون الشمس والقمر والكواكب تعظيماً يسجدون لها ويتذللون لها ويسبحونها تسابيح معروفة في كتبهم، ويدْعونها دعوات لا تنبغي إلا لخالقها وفاطرها وحده لا شريك له، ويبنون لكل كوكب هيكلاً أي: موضعاً لعبادته ويصورون فيه ذلك الكوكب، ويتخذونه لعبادته وتعظيمه، ويزعمون أن رُوحانية ذلك الكوكب تنزل عليهم وتخاطبهم وتقضي حوائجهم، وتلك الرُّوحانيات هي الشياطين التي تنزلت عليهم وخاطبتهم وقضت

حوائجهم، وقد صنّف بعض المتأخرين في هذا الشرك مصنفاً وذكر صاحب «التذكرة» فيها.

الثاني: الاستدلال على الحوادث الأرضية بمسير الكواكب واجتماعها وافتراقها ونحو ذلك، ويقول: إن ذلك بتقدير الله ومشيئته[(١)] فلا ريب في تحريم ذلك، واختلف المتأخرون في تكفير القائل بذلك، وينبغي أن يقطع بكفره لأنها دعوى لعلم الغيب الذي استأثر الله تعالى بعلمه بما لا يدل عليه.

الثالث: ما ذكره المصنف في تعلم المنازل، وسيأتي الكلام عليه.



---

(١) فهو لا يقول إن الكواكب مؤثرة بل يستدل بمسير الكواكب وحركاتها على دعوى علم الغيب وذلك كفر كالأول والأول شرك في الربوبية، وهذا ادّعاء لعلم الغيب وكلاهما كفر.

قَالَ البُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ»: قَالَ قَتَادَةَ: «خَلَقَ اللهُ هَذِهِ النُّجُومَ لِثَلاَثٍ: زِينَةً لِلسَّمَاءِ، وَرُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ، وَعَلاَمَاتٍ يُهْتَدَى بِهَا، فَمَنْ تَأَوَّلَ فِيهَا غَيْرَ ذَلِكَ؛ أَخْطَأَ وَأَضَاعَ نَصِيبَهُ، وَتَكَلَّفَ مَا لاَ عِلْمَ لَهُ بِهِ». انتَهَى.

هذا الأثر علقه البخاري في «صحيحه» كما قال المصنف وأخرجه عبدالرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ والخطيب في كتاب «النجوم» عن قتادة. ولفظه قال: إن الله إنما جعل هذه النجوم لثلاث خصال: جعلها زينة للسماء، وجعلها يهتدى بها، وجعلها رجوماً للشياطين، فمن تعاطى فيها غير ذلك، فقد قال برأيه، وأخطأ حظه، وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به، وإن ناساً جهلة بأمر الله قد أحدثوا في هذه النجوم كهانة: من أعرس بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا، ومن سافر بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا، ولعمري ما من نجم إلا يولد به الأحمر والأسود والطويل والقصير والحسن والذميم، وما علم هذه النجوم وهذه الدابة وهذا الطائر بشيء من هذا الغيب، ولو أن أحداً علم الغيب لعلمه آدم الذي خلقه الله بيده، وأسجد له ملائكته، وعلمه أسماء كل شيء.

قوله: «خلق الله هذه النجوم لثلاث...» إلى آخره. هذا مأخوذ من القرآن في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ (الملك: ٥)، وقوله تعالى ﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ١٦﴾ (النحل: ١٦). وفيه الإشارة إلى أن النجوم في السماء الدنيا كما هو ظاهر الآية، وفيه حديث رواه ابن مردويه عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «**أما السماء الدنيا، فإن الله خلقها من دخان، وجعل فيها سراجاً وقمراً ومنيراً، وزيّنها بمصابيح، وجعلها رجوماً للشياطين وحفظاً من كل شيطان رجيم**».

قوله: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ﴾. أي: دلالات على الجهات والبلدان ونحو ذلك يُهتدى

بها بصيغة المجهول. أي: يهتدي بها الناس في ذلك كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ (الأنعام: ٩٧)، وليس المراد: يهتدون بها في علم الغيب ولهذا قال: فمن تأول فيها ذلك، أي: زعم فيها غير ما ذكر الله تعالى في هذه الثلاث، فادعى بها علم الغيب، فقد أخطأ، أي: حيث تكلم رجماً بالغيب وأضاع نصيبه، أي: حظه من عمره، لأنه اشتغل بما لا فائدة فيه، بل مضرة محضة وتكلف ما لا علم له به، أي: تعاطى شيئاً لا يتصور علمه، لأن أخبار السماء، والأمور المغيبة لا تعلم إلا من طريق الكتاب والسنة، وليس فيهما أزيد مما تقدم. قال الداوودي: قول قتادة في النجوم حسن إلا قوله: أخطأ وأضاع نصيبه، فإنه قصر في ذلك، بل قائل ذلك كافر.

فإن قلت: إن المنجمين قد يصدقون بعض الأحيان.

قيل: صدقهم كصدق الكهان يصدقون مرة ويكذبون مئة، وليس في صدقهم مرة ما يدل على أن ذلك علم صحيح كالكهان.

وقد استدل بعض المنجمين بآيات من كتاب الله على صحة التنجيم منها قوله: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾.

والجواب: أنه ليس المراد بهذه الآية أن النجوم علامات على الغيب يهتدي بها الناس في علم الغيب وإنما المعنى ﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ﴾. أي: دلالات على قدرة الله وتوحيده. وعن قتادة ومجاهد: أن من النجوم ما يكون علامة لا يهتدى إلا بها، وقيل: إن هذا من تمام الكلام الأول وهو قوله: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍۚ﴾ (النحل: ١٥-١٦) أي: وألقى لكم معالم يعلم بها الطريق والأراضي من الجبال الكبار والصغير يستدل بها المسافرون في طرقهم، وقوله: ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ (النحل: ١٦) قال ابن

عباس في الآية: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ﴾ يعني: معالم الطرق بالنهار ﴿وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ۝١٦﴾ قال: يهتدون به في البحر في أسفارهم. رواه ابن جرير وابن أبي حاتم. فهذا القول ونحوه هو معنى الآية، فالاستدلال بها على صحة علم التنجيم استدلال على ما يعلم فساده بالاضطرار من دين الإسلام بما لا يدل عليه لا نصاً ولا ظاهراً وذلك أفسد أنواع الاستدلال، فإن الأحاديث جاءت عن النبي ﷺ بإبطال علم التنجيم وذمه، منها حديث: «**من اقتبس شعبة من علم النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر**». الحديث وقد تقدم. وعن عبدالله ابن مُحيريز التابعي الجليل أن سليمان بن عبدالملك دعاه فقال: لو علمت علم النجوم فازددت إلى علمك[1] فقال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أخوف ما أخاف على أمتي ثلاث: حيف الأئمة، وتكذيب بالقدر، وإيمان بالنجوم**»، وعن رجاء بن حيوة أن النبي ﷺ قال: «**مما أخاف على أمتي التصديق بالنجوم، والتكذيب بالقدر، وحيف الأئمة**» رواهما عبد بن حميد، فهذان المرسلان من هذين الوجهين المختلفين يدلان على ثبوت الحديث، لا سيما وقد احتج به من أرسله[2]، وعن أبي محجن مرفوعاً: «**أخاف على أمتي من بعدي ثلاثاً حيف الأئمة، وإيماناً بالنجوم، وتكذيباً بالقدر**» رواه ابن عساكر وحسّنه السيوطي، وعن أنس مرفوعاً: «**أخاف على أمتي بعدي خصلتين تكذيباً بالقدر، وإيماناً بالنجوم**» رواه أبو يعلى وابن عدي والخطيب في كتاب «النجوم» وحسّنه السيوطي أيضاً.

وروى الإمام أحمد والبخاري عن ابن عمر مرفوعاً: «**مفاتيح الغيب خمس لا**

---

(١) هذا الأثر عزاه في الدر المنثور لعبد بن حميد، ورواه الثعلبي في تفسيره عن عبد بن حميد، عن هاشم بن القاسم، عن محمد بن طلحة بن مصرف عن أبيه عن ابن محيريز عن سليمان بن عبدالملك، وسنده حسن، رجاله ثقات إلا أن محمد بن طلحة تكلموا فيه بما لا يقدح، وكلام سليمان بن عبدالملك محمول على علم التسيير.

(٢) وهو عبدالله بن محيريز تابعي احتج به سليمان بن عبدالملك.

يعلمها إلا الله: لا يعلم ما في غد إلا الله، ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله» لفظ البخاري. وعن العباس بن عبدالمطلب قال: قال رسول الله ﷺ: «**لقد طهر الله هذه الجزيرة من الشرك لم تضلهم النجوم**» رواه ابن مردويه. وعن ابن عمر مرفوعاً: «**تعلموا من النجوم ما تـهتدون به في ظلمات البر والبحر ثم انتهوا**»، وعن أبي هريرة قال: «نهى رسول الله ﷺ عن النظر في النجوم» رواهما ابن مردويه والخطيب.

وعن سمرة بن جندب أنه خطب فذكر حديثاً عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**أما بعد: فإن ناساً يزعمون أن كسوف هذه الشمس، وكسوف هذا القمر، وزوال هذه النجوم عن مواضعها لموت رجال عظماء من أهل الأرض، وأنهم قد كذبوا ولكنها آيات من آيات الله يعتبر بـها عباده لينظر من يحدث له منهم توبة**» رواه أبو داود. وفي الباب أحاديث وآثار غير ما ذكرنا. فتبين بهذا أن الاستدلال بالآية على صحة أحكام النجوم من أفسد أنواع الاستدلال.

ومنها: قوله تعالى عن إبراهيم: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ (الصافات: ٨٨-٨٩) والجواب: أن هذا من جنس استدلاله بالآية الأولى في الفساد، فأين فيها ما يدل على صحة أحكام النجوم بوجه من وجوه الدلالات، وهل إذا رفع إنسان بصره إلى النجوم، فنظر إليها، دل ذلك على صحة علم النجوم عنده؟! وكل الناس ينظرون إلى النجوم، فلا يدل ذلك على صحة علم أحكامها. وكأن هذا ما شعر أن إبراهيم -عليه السلام- إنما بعث إلى الصابئة المنجمين مبطلاً لقولهم مناظراً لهم على ذلك.

فإن قيل على هذا: فما فائدة نظرته في النجوم؟

قيل: نظرته في النجوم من معاريض الأفعال ليتوصل به إلى غرضه من كسر

الأصنام كما كان قوله: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ (الأنبياء: ٦٣) فمن ظن أن نظرته في النجوم ليستنبط منها علم الأحكام وعلم أن طالعه يقتضي عليه بالنحس فقد ضل ضلالاً بعيداً، ولهذا جاء في حديث الشفاعة الصحيح أنه -عليه السلام- يقول: «**لست هناكم ويذكر ثلاث كَذَبات**[1] **كذبهن**»، وعدها العلماء قوله: ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾، وقوله: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾، وقوله لسارة[2]: «**هي أختي**» فلو كان قوله: إني سقيم أخذه من علم النجوم لم يعتذر من ذلك، وإنما هي من معاريض الأفعال، فهذا اعتذر منها كما اعتذر من قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ﴾، ذكره ابن القيم.

لكن قوله: وعدها العلماء يدل على أنه لم يستحضر الحديث الوارد في عدها، وقد رواه أحمد والبخاري وأصحاب «السنن»، وابن جرير وغيرهم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**لم يكذب إبراهيم -عليه السلام- غير ثلاث كَذَبات اثنتين في ذات الله قوله: إني سقيم، وقوله: بل فعله كبيرهم هذا، وقوله: سارة هي أختي**» لفظ ابن جرير.

وروى ابن أبي حاتم عن أبي سعيد مرفوعاً: «**في كلمات إبراهيم الثلاث التي قال: ما منها كذبة إلا ماحلّ**[3] **بها عن دين الله، فقال: إني سقيم، وقال: بل فعله كبيرهم هذا، وقال للملك حين أراد امرأته: هي أختي**» وفي إسناده ضعف.

وقال قتادة في الآية: العرب تقول لمن تفكر: نظر في النجوم. قال ابن كثير يعني قتادة: أنه نظر إلى السماء متفكراً فيما يكذّبهم به فقال: إني سقيم أي ضعيف.



---

(١) كذبات بفتح الذال على وزن «فعَلاتَ» لأن مفرده كذْبة بإسكان الذال على وزن «فعْله»، وفعْله تجمع على فعلات، مثل تمْرة وتمَرات، وجمْرة وجمَرات، ومثله كذْبة وكذَبات.

(٢) سارة بتخفيف الراء وتشديدها.

(٣) ماحل، أي جادل بها عن دين الله.

وَكَرِهَ قَتَادَةَ تَعَلُّمَ مَنَازِلَ القَمَرِ. وَلَمْ يُرَخِّصِ ابنُ عُيَينَة فِيهِ. ذَكَرَهُ حَربٌ[(١)] عَنهُمَا. وَرَخَّصَ في تَعَلُّمِ المَنَازِلِ أحمَدُ وَإِسحَاقُ[(٢)].

هذا هو القسم الثالث من علم التنجيم وهو تعلم منازل الشمس والقمر، للاستدلال بذلك على القبلة وأوقات الصلوات والفصول، وهو كما ترى من اختلاف السلف فيه، فما ظنك بذينك القسمين؟! ومنازل القمر ثمانية وعشرون كل ليلة في منزلة منها، فكره قتادة وسفيان بن عيينة تعلم المنازل، وأجازه أحمد وإسحاق وغيرهما.

قال الخطابي: أما علم النجوم الذي يدرك من طريق المشاهدة والخبر الذي يعرف به الزوال، وتُعلَم به جهة القبلة، فإنه غير داخل فيما نهي عنه، وذلك أنَّ معرفة رصد الظل ليس شيئاً بأكثر من أن الظل ما دام متناقصاً، فالشمس بعد صاعدة نحو وسط السماء من الأفق الشرقي، وإذا أخذ في الزيادة، فالشمس هابطة من وسط السماء نحو الأفق الغربي.

وهذا علم يصح دركه بالمشاهدة، إلا أن هذه الصناعة قد دبروها بما اتخذوا له من الآلات التي يستغني الناظر فيها عن مراعاة مدته ومراصدته، وأما ما يستدل به من النجوم على جهة القبلة، فإنها كواكب رصدها أهل الخبرة بها من الأئمة الذين لا نشك في عنايتهم بأمر الدين، ومعرفتهم بها وصدقهم فيما أخبروا به عنها. مثل أن يشاهدوها بحضرة الكعبة ويشاهدوها على حال الغيبة عنها، فكان إدراكهم الدلالة منها بالعناية وإدراكنا ذلك بقبول خبرهم إذ كانوا عندنا غير

---

(١) هو حرب بن إسماعيل الكِرماني، صاحب أحمد يروي عنه مسائل وهو إمام ثقة.

(٢) الجمهور على جواز علم التسيير كما هو مذهب أحمد وإسحاق بن راهويه، وهو تعلم جهة القبلة ووقت الزوال وأوقات الحراثة، والقول بالكراهة قول ضعيف قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ الآية.

متهمين في دينهم، ولا مقصرين في معرفته.

وروى ابن المنذر عن مجاهد أنه كان لا يرى بأساً أن يتعلم الرجل منازل القمر.

قلت: لأنه لا محذور في ذلك. وعن إبراهيم أنه كان لا يرى بأساً أن يتعلم الرجل من النجوم ما يُهتدى به. رواه ابن المنذر.

قال ابن رجب: والمأذون في تعلمه علم التسيير لا علم التأثير فإنه باطل محرم قليله وكثيره. وأما علم التسيير فتعلم ما يحتاج إليه للاهتداء، ومعرفة القبلة، والطرق جائز عند بالجمهور، وما زاد عليه لا حاجة إليه لشغله عن ما هو أهم منه وربما أدى تدقيق النظر فيه إلى إساءة الظن بمحاريب المسلمين، كما وقع من أهل هذا العلم قديماً وحديثاً وذلك يفضي اعتقاده إلى خطأ السلف في صلاتهم وهو باطل. انتهى مختصراً.

قلت: وهذا هو الصحيح إن شاء الله، ويدل على ذلك الآيات والأحاديث التي تقدمت. وهل يدخل في النهي وقت الكسوف الشمسي والقمري أم لا؟ رجح ابن القيم أنه لا يدخل.

قوله: «ذكره حرب عنهما» هو الإمام الحافظ حرب بن إسماعيل أبو محمد الكِرماني، الفقيه من أجلة أصحاب الإمام أحمد روى عن أحمد وإسحاق وابن المديني وابن معين، وأبي خيثمة وابن أبي شيبة وغيرهم وله مصنفات جليلة منها كتاب «المسائل» التي سئل عنها الإمام أحمد وغيره وأورد فيها الأحاديث والآثار، وأظنه روى أثر قتادة وابن عيينة فيها. مات سنة ثمانين ومئتين. وإسحاق هو إبراهيم بن مخلد أبو يعقوب الحنظلي النيسابوري الإمام المعروف بابن راهويه، روى عن ابن المبارك وأبي أسامة وابن عيينة وطبقتهم. قال أحمد: إسحاق عندنا إمام من أئمة المسلمين، وروى عنه أحمد والبخاري ومسلم، وأبو داود وغيرهم، وروى هو أيضاً عن أحمد. مات سنة تسع وثلاثين ومئتين.



وَعَن أَبِي مُوسَى قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «ثَلاَثَةٌ لاَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ: مُدْمِنُ الخَمْرِ، وَقَاطِعُ الرَّحِمِ، وَمُصَّدِقُ السِّحْرِ»[١] رَوَاهُ أَحْمَدُ وَابنُ حِبَّانَ فِي «صَحِيحِهِ».

هذا الحديث رواه أيضاً الطبراني والحاكم، وقال: صحيح وأقره الذهبي، وتمام الحديث: «ومن مات وهو مدمن الخمر سقاه الله من نـهر الغُوطة نـهر يجري من فروج المومسات يؤذي أهل النار ريح فروجهن».

قوله: «عن أبي موسى»: هو عبدالله بن قيس بن سليم بن حضَّار بفتح المهملة وتشديد الضاد المعجمة، أبو موسى الأشعري، صحابي جليل استعمله النبي ﷺ وأمّره عمر ثم عثمان، وهو أحد الحكَمين بصفّين. مات سنة خمسين.

قوله: «ثلاثة لا يدخلون الجنة»: هذا من نصوص الوعيد التي كره السلف تأويلها وقالوا: أمروها كما جاءت، وإن كان صاحبها لا ينتقل عن الملة عندهم وكأن المصنف -رحمه الله- يميل إلى هذا القول، وقالت طائفة: هو على ظاهره فلا يدخل الجنة أصلاً مدمن الخمر ونحوه ويكون هذا مخصصاً لعموم الأحاديث الدالة على خروج الموحدين من النار ودخولهم الجنة، وحمله أكثر الشراح على من فعل ذلك مستحلاً، أو على معنى أنهم لا يدخلون الجنة إلا بعد العذاب إن لم يتوبوا والله أعلم[٢].

---

(١) التصديق بالسحر له وجهان:

أحدها: تصديق بوجوده وأنه ثابت وله حقيقة فهذا تصديق صحيح ونحن نصدِّق بذلك.

والثاني: تصديق بأنه حق وليس من الباطل وأنه علم صحيح، وأنه يهتدى به إلى علم الغيب فهذا هو الذي فيه الوعيد.

(٢) والصواب الأول وهو أنها من نصوص الوعيد التي تدل على أن صاحبها مرتكب لكبيرة وصاحبها إن مات من غير توبة فهو تحت المشيئة وتمرّ كما جاءت لتكون أبلغ في الزجر وتفسر =

قوله: «**مدمن الخمر**»: أي المداوم على شربها.

قوله: «**وقاطع الرحم**»: أي القرابة كما قال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾ (محمد: ٢٢-٢٣).

قوله: «**ومصدق بالسحر**»: مطلقاً ويدخل فيه التنجيم لحديث: «من اقتبس علماً من النجوم اقتبس علماً من السحر» وهذا وجه مطابقة الحديث للباب. قال الذهبي في «الكبائر»: ويدخل فيه تعليم السيمياء[1] وعلمها، وهو محض السحر، وعقد المرء عن زوجته، ومحبة الزوج لامرأته وبغضها وبغضه، وأشباه ذلك بكلمات مجهولة قال: وكثير من الكبائر بل عامتها إلا الأقل يجهل خلق من الأمة تحريمه وما بلغه الزجر فيه ولا الوعيد عليه، فهذا الضرب فيهم تفصيل، فينبغي للعالم أن لا يجهل على الجاهل بل يرفق به، ويعلِّمه سيما إذا قرُب عهده بجهله، كمن أُسر وجُلب إلى أرض الإسلام وهو تركي فباَلجَهْد أن يتلفظ بالشهادتين فلا يأثم أحد إلا بعد العلم بحاله وقيام الحجة عليه.



= لطلبة العلم.

(١) قال حاجي خليفة في «الكشف والظنون»: «السيمياء يطلق: على ما هو غير الحقيقي من السحر. وحاصله: إحداث مثالات خيالية في الجو لا وجود لها في الحس، وقد يظهر بعض الصور في الهواء فتزول سريعة لسرعة تغير جوهر الهواء».

باب
ما جاء في الاستسقاء بالأنواء

وَقَولُ الله تَعَالَى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ (الواقعة: ٨٢).

الشَّرح:

ما جاء في الاستسقاء بالأنواء: أي: من الوعيد، والمراد نسبة السقيا ومجيء المطر إلى الأنواء جمع نوء وهي منازل القمر. قال أبو السعادات: وهي ثمانية وعشرون منزلة ينزل القمر كل ليلة منزلة منها، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ (يس: ٣٩) يسقط في الغرب كل ثلاث عشرة ليلة منزلة مع طلوع الفجر، وتطلع أخرى مقابلتها ذلك الوقت في الشرق فتنقضي جميعها مع انقضاء السنة. وكانت العرب تزعم أن مع سقوط المنزلة وطلوع رقيبها يكون مطر، وينسبونه إليها فيقولون: مطرنا بنوء كذا، وإنما سمي نوءاً لأنه إذا سقط الساقط منها بالمغرب ناء الطالع بالمشرق. ينوء نوءاً، أي: نهض وطلع.

قال: «**وقول الله تعالى:** ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾» (الواقعة: ٨٢).

روى الإمام أحمد والترمذي وحسّنه وابن جرير وابن أبي حاتم والضياء في «المختارة» عن علي -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ يقول: شكركم أنكم تكذبون، يقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا، وبنجم كذا وكذا» وهذا أولى ما فسرت به الآية.

وروي ذلك عن علي وابن عباس وقتادة والضحاك وعطاء الخراساني وغيرهم. وهو قول جمهور المفسرين، وبه يظهر وجه استدلال المصنف بالآية على الترجمة، فالمعنى على هذا: وتجعلون شكركم لله على ما أنزل إليكم من الغيث

والمطر والرحمة أنكم تكذبون، أي: تنسبونه إلى غيره.

وقال ابن القيم: أي: تجعلون حظكم من هذا الرزق الذي به حياتكم التكذيب به. يعني: القرآن. قال الحسن: تجعلون حظكم ونصيبكم من القرآن أنكم تكذبون، قال: وخسر عبد لا يكون حظه من كتاب الله إلا التكذيب به.

قلت: والآية تشمل المعنيين.



وَعَن أَبِـي مَالِكٍ الأَشعَـرِيِّ: أَنَّ رَسُـولَ الله ﷺ قَالَ: «أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنَ أَمرِ الجَاهِلِيَّةِ لاَ يَترُكُونَهُنَّ: الفَخْرُ بِالأَحْسَابِ[1]، وَالطَعْنُ فِي الأَنْسَابِ، وَالاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ، وَالنِّيَاحَةُ». وَقَالَ: «النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوتِهَا؛ تُقَامُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سَرْبالٌ[2] مِنْ قَطِرَانٍ وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ» [رَوَاهُ مُسلِمٌ].

قوله: «**عن أبي مالك الأشعري**»: اسمه: الحارث بن الحارث الشامي، صحابي تفرد عنه بالرواية أبو سلام، وفي الصحابة أبو مالك الأشعري اثنان غير هذا. جزم به الحافظ.

قوله: «**أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونـهن**»: أي من أفعال أهلها بمعنى أنها معاصي ستفعلها هذه الأمة، إما مع العلم بتحريمها وإما مع الجهل بذلك كما كان أهل الجاهلية يفعلونها، والمراد بالجاهلية هنا ما قبل المبعث سموا بذلك لفرط جهلهم وكل ما يخالف ما جاءت به الأنبياء والمرسلون فهو جاهلية منسوبة إلى الجاهل، فإن ما كانوا عليه من الأقوال والأعمال إنما أحدثه لهم جاهل وإنما يفعله جاهل. قال شيخ الإسلام: أخبر أن بعض أمر الجاهلية لا يتركه الناس كلهم ذماً لمن لا يتركه، وهذا يقتضي أن ما كان من أمر الجاهلية وفعلهم فهو مذموم في دين الإسلام وإلا لم يكن في إضافة هذه المنكرات إلى الجاهلية ذم لها، ومعلوم أن إضافتها إلى الجاهلية خرج مخرج الذم وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ (الأحزاب: ٣٣) فإن في ذلك ذماً للتبرج وذماً لحال

---

(١) الأحساب: مآثر الآباء والأجداد كالكرم والجود والشجاعة كأن يقول: أنا ابن فلان الشجاع الكريم الجواد على وجه الفخر والتعاظم، أما إذا أخبر عن ذلك عند الحاجة لا على وجه الفخر فلا بأس.

(٢) ثوب.

الجاهلية الأولى وذلك يقتضي المنع من مشابهتهم في الجملة.

قوله: «الفخر بالأحساب»: أي: التشرُّف بالآباء والتعاظم بعدِّ مناقبهم ومآثرهم وفضائلهم وذلك جهل عظيم، إذ لا شرف إلا بالتقوى كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ (سبأ: ٣٧) الآية، وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ (الحجرات: ١٣)، وروى أبوداود عن أبي هريرة مرفوعاً: «**إن الله قد أذهب عنكم عُبِّيَّة الجاهلية وفخرها بالآباء مؤمن تقي، أو فاجر شقي الناس بنو آدم، وآدم من تراب لَيَدَعنَّ رجال فخرهم بأقوام إنما هم فحم من فحم جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجِعلان[1] التي تدفع بأنفها النتن[2]**» والأحساب جمع حسب وهو ما يعده الإنسان له ولآبائه من شجاعة وفصاحة ونحو ذلك.

قوله: «والطعن في الأنساب»: أي: الوقوع فيها بالذم والعيب أو يقدح في نسب أحد من الناس فيقول: ليس هو من ذرية فلان[3] أو يعيره بما في آبائه من المطاعن، ولهذا لما عير أبو ذر -رضي الله عنه- رجلاً بأمه قال النبي ﷺ لأبي ذر: «**أعيرته بأمه؟ إنك امرؤٌ فيك جاهلية**» متفق عليه، فدل ذلك على أن التعيير بالأنساب من أخلاق الجاهلية، وأن الرجل مع فضله وعلمه ودينه قد يكون فيه بعض هذه الخصال المسماة بجاهلية ويهودية ونصرانية، ولا يوجب ذلك كفره وفسقه. قاله شيخ الإسلام.

قوله: «والاستسقاء بالنجوم»: أي نسبة السقيا ومجيء المطر إلى النجوم

---

(١) الجعلان: بكسر المعجمة على وزن فِعلان بكسر الفاء ومفرده: جُعْل على وزن فُعْل لأن فُعْل يجمع على فعلان.

(٢) بإسكان التاء وبفتحها الرائحة المنتنة.

(٣) أو يقول خضيري على وجه التنقص.

والأنواء، وهذا هو الذي خافه النبي ﷺ على أمته، كما روى الإمام أحمد وابن جرير عن جابر السوائي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**أخاف على أمتي ثلاثاً: استسقاء بالنجوم، وحيف السلطان، وتكذيباً بالقدر**».

إذا تبيَّن هذا، فالاستسقاء بالنجوم نوعان:

أحدهما: أن يعتقد أن المنزِّل للمطر هو النجم، فهذا كفر ظاهر، إذ لا خالق إلا الله، وما كان المشركون هكذا، بل كانوا يعلمون أن الله هو المنزِّل للمطر، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ (العنكبوت: ٦٣)، وليس هذا معنى الحديث، فالنبي ﷺ أخبر أن هذا لا يزال في أمته، ومن اعتقد أن النجم ينزل المطر، فهو كافر.

الثاني: أن ينسب إنزال المطر إلى النجم، مع اعتقاده أن الله تعالى هو الفاعل لذلك المنزِّل له، إلا أنه سبحانه وتعالى أجرى العادة بوجود المطر عند ظهور ذلك النجم، فحكى ابن مفلح خلافاً في مذهب أحمد في تحريمه وكراهته، وصرَّح أصحاب الشافعي بجوازه، والصحيح أنه محرم، لأنه من الشرك الخفي، وهو الذي أراده النبي ﷺ، وأخبر أنه من أمر الجاهلية، ونفاه، وأبطله، وهو الذي كان يزعم المشركون، ولم يزل موجوداً في هذه الأمة إلى اليوم، وأيضاً فإن هذا من النبي ﷺ حماية لجناب التوحيد وسداً لذرائع الشرك ولو بالعبارات الموهمة التي لا يقصدها الإنسان، كما قال لرجل قال له: **ما شاء الله وشئت**، قال: «**أجعلتني لله نداً؟! بل ما شاء الله وحده**».

وفيه التنبيه على ما هو أولى بالمنع من نسبة السقيا إلى الأنواء كدعاء الأموات، وسؤالهم الرزق والنصر والعافية ونحو ذلك من المطالب، فإن هذا من الشرك الأكبر، سواء قالوا: إنهم شفعاؤنا إلى الله، كما قال المشركون: هؤلاء شفعاؤنا عند الله، أو اعتقدوا أنهم يخلقون، ويرزقون وينصرون استقلالاً على سبيل الكرامة، كما

ذكره بعض عُبَّاد القبور في رسالة صنفها في ذلك، لأنه إذا منع من إطلاق نسبة السقيا إلى الأنواء مع عدم القصد والاعتقاد، فلأن يمنع من دعاء الأموات والتوجه إليهم في الملمات مع اعتقاد أن لهم أنواع التصرفات أولى وأحرى.

قوله: «**والنياحة**». أي: رفع الصوت بالندب على الميت، لأنها سخط لقضاء الله ومعارضة لأحكامه وسوء أدب مع الله، ولا كذلك ينبغي أن يفعل المملوك مع سيده، فكيف يفعله مع ربه وسيده ومالكه وإلهه الذي لا إله له سواه، الذي كل قضائه عدل، وأيضاً ففيها تفويت الأجر مع ذهاب المصيبة.

وفي الحديث دليل على شهادة أن محمداً رسول الله، لأن هذه الأخبار من أنباء الغيب، فأخبر بها النبي ﷺ، فكان كما أخبر.

قوله: «**وقال النائحة إذا لم تتب قبل موتـها**». فيه تنبيه على أن الوعيد والذم لا يلحق من تاب من الذنب، وهو كذلك بالإجماع، فعلى هذا إذا عُرف شخص يفعل ذنوب توعَّد الشرع عليها بوعيد لم يجز إطلاق القول بلحوقه لذلك الشخص المعين، كما يظنه كثير من أهل البدع، فإن عقوبات الذنوب ترتفع بالتوبة، والحسنات الماحية، والمصائب المكفرة، ودعاء المؤمنين بعضهم لبعض، وشفاعة نبيهم ﷺ فيهم، وعفو الله عنهم.

وفيه أن من تاب قبل الموت ما لم يغرغر، فإن الله يتوب عليه، كما في حديث ابن عمر مرفوعاً: «**إن الله تعالى يقبل توبه العبد ما لم يغرغر**» رواه أحمد والترمذي وابن ماجه وابن حبان في «صحيحه».

قوله: «**تُقام يوم القيامة**». أي: تُبعث من قبرها، وعليها سربال من قطران ودرع من جرب، قال القرطبي: السربال: واحد السرابيل، وهي الثياب والقُمُص؛ يعني أنهن يلطخن بالقطران، فيصير لهن كالقميص حتى يكون اشتعال النار والتصاقها بأجسادهن أعظم، ورائحتهن أنتن وألمها بسبب الجرب أشد، وروي

عن ابن عباس أن القطران هو النحاس المذاب، وروى الثعلبي في «تفسيره» عن عمر بن الخطاب أنه سمع نائحة فأتاها فضربها بالدرة حتى وقع خمارها، فقيل يا أمير المؤمنين: المرأة المرأة قد وقع خمارها قال: إنها لا حرمة لها[1].



(١) يعني أنها تستحق التأديب ويمكنها أخذ خمارها.

[وَلَـهُمَا] عَن زَيدِ بنِ خَالِدٍ قَالَ: صَلَّى لَنَا رَسُولُ الله ﷺ صَلاةَ الصُّبْحِ بِالْحُدَيْبِيَةِ عَلَى إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلِ، فَلَـمَّا انْصَرَفَ، أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ، فَقَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟» قَالَوا: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «قَالَ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ الله وَرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرنَا بِنَوْءِ[1] كَذَا وَكَذَا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤمِنٌ بِالكَوكَبِ».

قوله: «عن زيد بن خالد»: أي الجهني المدني، صحابي مشهور، مات سنة ثمان وستين بالكوفة، وقيل غير ذلك، وله خمس وثمانون سنة.

قوله: «صلى لنا»: أي صلى بنا، فاللام بمعنى الباء. قال الحافظ: وفيه جواز إطلاق ذلك مجازاً، وإنما الصلاة لله.

قوله: «بالحديبية»: بالمهملة والتصغير، وتُخفف ياؤها وتثقَّل[2].

قوله: «على إثر»: بكسر الهمزة وسكون المثلثة على المشهور وهو ما يعقب الشيء.

قوله: «سماء»: أي مطر، وأُطلق عليه سماء لكونه ينزل من جهة السماء.

قوله: «فلما انصرف»: أي من صلاته لا من مكانه، كما يدل عليه قوله: «أقبل على الناس»: أي التفت إليهم بوجهه الشريف، ففيه دليل على أنه لا ينبغي للإمام

---

(١) قول القائل: مطرنا بنوء كذا، أقسام أو على مراتب: أحدها: أن النجم مؤثر في إنزال المطر فهذا شرك أكبر، والثاني: أن لا يعتقد تأثيره لكن من باب المصادفة والتجربة والعادة فهذا شرك أصغر، والثالث: أن يقول مطرنا بنوء كذا مخبراً عن الوقت فهذا لا بأس به، ولكن اللفظ ممنوع وهو الباء، أما إذا قال في نجم كذا بـ (في) مخبراً عن الوقت فهذا لا بأس به بلفظه ومعناه.

(٢) بالتشديد والتخفيف الحديبية، والحديبيّة، ومثله سارة وسارّة.

إذا صلى أن يجلس مستقبل القبلة، بل ينصرف إلى المأمومين، كما صحت بذلك الأحاديث.

قوله: «**هل تدرون**»: لفظ استفهام، ومعناه التنبيه، وفي رواية النسائي: «**ألم تسمعوا ما قال ربكم الليلة**» وهذا من الأحاديث القدسية. قال الحافظ: وهي تحمل على أن النبي ﷺ أخذها عن الله بواسطة أو بلا واسطة، وفيه إلقاء العالم المسألة على أصحابه ليختبرهم[1]، وإخراج العالم التعليم للمسألة بالاستفهام فيها. ذكره المصنف.

قوله: «**قالوا الله ورسوله أعلم**»: فيه حسن الأدب للمسؤول عما لا يعلم، وأنه يقول ذلك أو نحوه، ولا يتكلف ما لا يعنيه.

قوله: «**أصبح من عبادي**»: الإضافة هنا للعموم بدليل التقسيم إلى مؤمن وكافر.

فإن قيل: هذا يدل على أن المراد بالكفر هنا هو الأكبر؟

قيل: ليس فيه دليل إذ الأصغر يصدر من الكافر.

قوله: «**مؤمن بي وكافر**»: المراد بالكفر هنا هو الأصغر بنسبة ذلك إلى غير الله وكفران نعمته، وإن كان يعتقد أن الله تعالى هو الخالق للمطر المنزل له بدليل قوله في الحديث: «**فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته**» **إلى آخره**، فلو كان المراد هو الأكبر لقال أنزل علينا المطر نوء كذا، فأتى بباء السببية ليدل على أنهم نسبوا وجود المطر إلى ما اعتقدوه سبباً، وفي رواية: «**فأما من حمدني على سقياي وأثنى علي، فذاك من آمن بي**» فلم يقل فأما من قال: إني المنزِّل للمطر فذاك من آمن بي، لأن المؤمنين والكفار يقولون ذلك فدل على أن المراد إضافة ذلك إلى غير الله، وإن كان يعتقد أن الفاعل لذلك هو الله، وروى النسائي والإسماعيلي نحوه وقال في آخره: «**وكفر بي**

---

(١) من الاختبار لا الإخبار.

أو كفر نعمتي». وفي رواية أبي صالح عن أبي هريرة عند مسلم «**قال الله تعالى: ما أنعمت على عبادي من نعمة إلا أصبح فريق منهم بها كافرين**»، وله من حديث ابن عباس: «**أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر**» الحديث. وفي حديث معاوية الليثي مرفوعاً: «**يكون الناس مجدبين فينزل الله عليهم رزقاً من رزقه فيصبحون مشركين، يقولون: مُطِرنا بنوء كذا**» رواه أحمد، فبين الكفر والشرك المراد هنا بأن نسبة ذلك إلى غيره تعالى، بأن يقال: مطرنا بنوء كذا، قال ابن قتيبة: كانوا في الجاهلية يظنون أن نزول الغيث بواسطة النوء إما بصنعه على زعمهم، وإما بعلامته، فأبطل الشرع قولهم، وجعله كفراً، فإن اعتقد قائل ذلك أن للنوء صنعاً في ذلك، فكفره كفر شرك، وإن اعتقد أن ذلك من قبيل التجربة، فليس بشرك، لكن يجوز إطلاق الكفر عليه وإرادة كفر النعمة، لأنه لم يقع في ذلك من طرق الحديث بين الكفر والشرك واسطة، فيحمل الكفر فيه على المعنيين. وقال الشافعي: من قال: مطرنا بنوء كذا على معنى مطرنا في وقت كذا، فلا يكون كفراً، وغيره من الكلام أحب إليَّ منه.

قلت: قد يقال إن كلام الشافعي لا يدل على جواز ذلك، وإنما يدل على أنه لا يكون كفر شرك، وغيره من الكلام أحسن منه. أما كونه يجوز إطلاق ذلك أو لا يجوز، فالصحيح أنه لا يجوز، لما تقدم أن معنى الحديث هو نسبة السقيا إلى الأنواء لفظاً، وإن كان القائل لذلك يعتقد أن الله هو المنزل للمطر، فهذا من باب الشرك الخفي في الألفاظ، كقوله: لولا فلان لم يكن كذا، وفيه معنى قوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْۚ﴾ (البقرة: ٢١٦) فإن كثيراً من النعم قد تجر الإنسان إلى شر، كالذين قالوا: مطرنا بنوء كذا بسبب نزول النعمة.

وفيه التفطن للإيمان في هذا الموضع. ذكره المصنف، يشير على أن المراد به هنا نسبة النعمة إلى الله وحمده عليها، كما في قوله: «**فأما من حمدني على سقياي وأثنى علي فذاك من آمن بي**»، وقوله: «**فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته**» . الحديث.

وفيه أن من الكفر ما لا يخرج عن الملة. ذكره المصنف.

قوله: «فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته»: أي من نسبه إلى الله واعتقد أنه أنزله بفضله ورحمته من غير استحقاق من العبد على ربه وأثنى به عليه، فقال: مطرنا بفضل الله ورحمته، وفي الرواية الأخرى «**فأما من حمدني على سقياي، وأثنى عليّ فذاك مؤمن بي**» وهكذا يجب على الإنسان أن لا يضيف نعم الله إلى غيره ولا يحمدهم عليها بل يضيفها إلى خالقها ومقدرها الذي أنعم بها على العبد بفضله ورحمته، ولا ينافي ذلك الدعاء لمن أحسن بها إليك[1]، وذكر ما أولاكم من المعروف إذا سلم لك دينك[2]، والسر في ذلك -والله أعلم- أن العبد يتعلق قلبه بمن يظن حصول الخير له من جهته وإن كان لا صنع له في ذلك، وذلك نوع شرك خفي فمنع من ذلك.

قوله: «وأما من قال: مطرنا بنوء كذا» إلى آخره: كالصريح فيما ذكرنا أن المراد نسبة ذلك إلى غير الله، وإن كان يعتقد أن المنزل للمطر هو الله، ولهذا لم يقل فأما من قال: أنزل علينا المطر أو أمطرنا نوء كذا، قال المصنف: وفيه التفطن للكفر في هذا الموضع، يشير إلى أن المراد بالكفر هنا هو نسبة النعمة إلى غير الله كالنوء ونحوه على ما تقدم، ولما كان إنزال الغيث من أعظم نعم الله وإحسانه إلى عباده لما اشتمل عليه من منافعهم، فلا يستغنون عنه أبداً كان من شكره الواجب عليهم أن يضيفوه إلى البر الرحيم المنعم، ويشكروه فإن النفوس قد جُبلت على حب من أحسن إليها، والله تعالى هو المحسن المنعم على الإطلاق الذي ما بالعباد من نعمة فمنه وحده كما قال تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ (النحل: ٥٣).



(١) لأن الله أجرى تلك النعمة على يده.

(٢) فلم تنس المنعم بها الذي هو الخالق والمقدر والمسبب.

[وَلَهُمَا] مِن حَدِيثِ ابنِ عَبَّاسٍ مَعنَاه، وَفِيهِ: «قَالَ بَعضُهُم: لَقَد صَدَقَ نَوءُ كَذَا وَكَذَا[1]. فَأَنزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَة: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥﴾ (الواقعة: ٧٥) **إلى قوله: ﴿تُكَذِّبُونَ ٨٢﴾».**

قوله: «**ولهما**»: الحديث لمسلم فقط، ولفظه عن ابن عباس قال: «مُطر الناس على عهد النبي ﷺ فقال النبي ﷺ: «أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر، قالوا: هذه رحمة الله، وقال بعضهم: لقد صدق نوء كذا وكذا، قال: فنزلت هذه الآية: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥﴾ حتى بلغ: ﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ٨٢﴾».

قوله: «**قال بعضهم**»: ذكر الواقدي في «مغازيه»: عن أبي قتادة أن عبدالله ابن أُبيّ هو القائل في ذلك الوقت: مطرنا بنوء الشعرى، وفي صحة ذلك نظر.

قوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥﴾: هذا قسم من الله عز وجل، يقسم بما شاء من خلقه، وهو دليل على عظمة المقسم به وتشريفه وتقديره: أقسم بمواقع النجوم، ويكون جوابه: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ٧٧﴾ (الواقعة: ٧٧)، فعلى هذا تكون «لا» صلة لتأكيد النفي، فتقدير الكلام: ليس الأمر كما زعمتم في القرآن أنه سحر أو كهانة، بل هو قرآن كريم.

قال ابن جرير: قال بعض أهل العربية: معنى قوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾ فليس الأمر كما تقولون، ثم استؤنف بعد، فقيل: «أقسم».

ومواقع النجوم. قال ابن عباس: يعني نجوم القرآن، فإنه نزل جملة ليلة القدر من السماء العليا إلى السماء الدنيا، ثم نزل مفرقاً في السنين بعد، ثم قرأ ابن عباس هذه الآية. ومواقعها: نزولها شيئاً بعد شيء، وقيل: النجوم هي الكواكب،

---

(١) ولا يجوز هذا القول.

ومواقعها مساقطها عند غروبها، قال مجاهد: مواقع النجوم يقال: مطالعها ومشارقها، واختاره ابن جرير. وعلى هذا فتكون المناسبة بين ذكر النجوم في القسم وبين المقسم عليه وهو القرآن من وجوه: أحدها أن النجوم جعلها الله يُهتدى بها في ظلمات البر والبحر، وآيات القرآن يُهتدى بها في ظلمات الغي والجهل، فتلك هداية في الظلمات الحسية، وآيات القرآن هداية في الظلمات المعنوية، فجمع بين الهدايتين مع ما في النجوم من الزينة الظاهرة للعالم وما في القرآن من الزينة الباطنة، ومع ما في النجوم من الرجوم للشياطين، وفي آيات القرآن من رجوم شياطين الإنس والجن، والنجوم آياته المشهودة العيانية، والقرآن آياته المتلوة السمعية مع ما في مواقعها عند الغروب من العبرة والدلالة على آياته القرآنية ومواقعها عند النزول، ذكره ابن القيم.

قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ٧٦﴾ (الواقعة: ٧٦). قال ابن كثير: أي: وإن هذا القسم الذي أقسمتُ به لقسم عظيم، لو تعلمون عظمته لعظَّمتم المقسم عليه. وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٌ كَرِيمٌ ٧٧﴾ (الواقعة: ٧٧). هذا هو المقسم عليه، وهو القرآن أي: إنه وحي الله وتنزيله وكلامه، لا كما يقول الكفار: إنه سحر وكهانة أو شعر، بل هو قرآن كريم، أي: عظيم كثير الخير، لأنه كلام الله. قال ابن القيم: فوصفه بما يقتضي حسنه، وكثرة خيره، ومنافعه، وجلالته، فإن الكريم هو البهي كثير الخير، العظيم النفع، وهو من كل شيء أحسنه وأفضله، والله سبحانه وصف نفسه بالكرم، ووصف به كلامه، ووصف به عرشه، ووصف به ما كثر خيره، وحسن منظره من النبات وغيره، ولذلك فسّر السلف الكريم بالحسَن. قال الأزهري: «الكريم»: اسم جامع لما يُحمد، والله تعالى كريم جميل الفعال، وإنه لقرآن كريم يُحمد لما فيه من الهدى والبيان، والعلم والحكمة.

قوله: ﴿فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ٧٨﴾ (الواقعة: ٧٨). قال ابن كثير: أي: معظَّم في

كتاب معظم محفوظ موقر. وقال ابن القيم: اختلف المفسرون في هذا فقيل: هو اللوح المحفوظ، والصحيح أنه الكتاب الذي بأيدي الملائكة وهو المذكور في قوله: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾ (عبس: ١٣-١٦) ويدل على أنه الكتاب الذي بأيدي الملائكة.

قوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ (الواقعة: ٧٩). فهذا يدل على أنه بأيديهم يمسونه.

قوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾. قال ابن عباس: لا يمسه إلا المطهرون قال: الكتاب الذي في السماء. وفي رواية: لا يمسه إلا المطهرون. يعني: الملائكة، وقال قتادة: لا يمسه عند الله إلا المطهرون، أما في الدنيا، فإنه يمسه المجوسي النجس، والمنافق الرجس. قال: وهي في قراءة ابن مسعود: ما يمسه إلا المطهرون. واختار هذا القول كثيرون منهم ابن القيم ورجحه. وقال ابن زيد: زعمت قريش أن هذا القرآن تنزلت به الشياطين فأخبر الله تعالى أنه لا يمسه إلا المطهرون كما قال: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾ (الشعراء: ٢١٠-٢١٢). وقال ابن كثير: وهذا قول جيد وهو لا يخرج عن القول قبله. وقال البخاري في «صحيحه» في هذه الآية: لا يجد طعمه إلا من آمن به. قال ابن القيم: وهذا من إشارة الآية وتنبيهها وهو أنه لا يلتذ به وبقراءته وفهمه وتدبره إلا من يشهد أنه كلام الله تكلم به حقاً، وأنزله على رسوله وحياً، ولا ينال معانيه إلا من لم يكن في قلبه حرج منه بوجه من الوجوه. وقال آخرون: ﴿لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾: أي من الجنابة والحدث قالوا: ولفظ الآية خبر ومعناه الطلب. قالوا والمراد بالقرآن ها هنا المصحف كما في حديث ابن عمر مرفوعاً: «نهى أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو مخافة أن يناله العدو»، واحتجوا على ذلك بما رواه مالك في «الموطأ» عن عبدالله بن محمد بن أبي

بكر ابن محمد بن عمرو بن حزم أن في الكتاب الذي كتبه رسول الله ﷺ لعمرو بن حزم «أن لا يمس القرآن إلا طاهر»[(١)].

قوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ (الواقعة: ٨٠) قال ابن كثير: أي هذا القرآن منزَّل من الله رب العالمين، وليس كما يقولون: إنه سحر أو كهانة أو شعر، بل هو الحق الذي لا مرية فيه وليس وراءه حق نافع، وفي هذه الآية إثبات أنه كلام الله تكلم به. قال ابن القيم: ونظيره: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى﴾ (السجدة: ١٣)، وقوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ (النحل: ١٠٢) وإثبات علو الله سبحانه على خلقه، فإن النزول والتنزيل الذي تعقله العقول وتعرفه الفطر هو وصول الشيء من أعلى إلى أسفل ، ولا يرد عليه قوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ (الزمر: ٦) لأنا نقول: إن الذي أنزلها من فوق سماواته قد أنزلها لنا بأمره. قال ابن القيم: وذكر التنزيل مضافاً إلى ربوبيته للعالمين المستلزمة لملكه لهم، وتصرفه فيهم، وحكمه عليهم، وإحسانه وإنعامه عليهم وأن هذا شأنه مع الخلق كيف يليق به مع ربوبيته التامة أن يتركهم سدى، ويدعهم هملاً، ويخلقهم عبثاً، لا يأمرهم ولا ينهاهم، ولا يثيبهم ولا يعاقبهم؟ فمن أقرّ بأنه رب العالمين أقرّ بأن القرآن تنزيله على رسوله، واستدل بكونه رب العالمين على ثبوت رسالة رسوله وصحة ما جاء به. وهذا الاستدلال أقوى وأشرف من الاستدلال بالمعجزات والخوارق وإن كانت دلالتها أقرب إلى أذهان عموم الناس، وتلك إنما تكون لخواص العقلاء.

قوله: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾﴾ (الواقعة: ٨١)[(٢)]: قال مجاهد: أي:

---

(١) روي مرسلاً ومسنداً كما في «البلوغ».

(٢) الادهان الموافقة على الباطل لحظّ عاجل من الدنيا أو غيره، ومنه قوله تعالى: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ﴾ =

تريدون أن تمالؤوهم فيه وتركنوا إليهم. قال ابن القيم: ثم وبخهم سبحانه على وضعهم الادهان في غير موضعه وأنهم يداهنون فيما حقه أن يصدع به، ويفرق به، ويعض عليه بالنواجذ، وتثنى عليه الخناصر، وتعقد عليه القلوب والأفئدة، ويحارب ويسالم لأجله ولا يلتوي عنه يمنة ولا يسرة، ولا يكون للقلب التفات إلى غيره، ولا محاكمة إلا إليه، ولا مخاصمة إلا به، ولا اهتداء في طرق المطالب العالية إلا بنوره، ولا شفاء إلا به، فهو روح الوجود، وحياة العالم، ومدار السعادة، وقائد الفلاح، وطريق النجاة، وسبيل الرشاد، ونور البصائر، فكيف تطلب المداهنة بما هذا شأنه؟! ولم ينزل للمداهنة، وإنما أنزل بالحق وللحق، والمداهنة إنما تكون في باطل قوي لا يمكن إزالته، أو في حق ضعيف لا تمكن إقامته، فيحتاج المداهن إلى أن يترك بعض الحق، ويلتزم بعض الباطل. فأما الحق الذي قام به كل حق فكيف يداهن فيه؟، وقوله: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ (الواقعة: ٨٢) تقدم الكلام عليها أول الباب، والله أعلم.



= فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾﴾ أي ودوا لو توافقهم على باطلهم ويوافقونك أيضاً.

باب

قَولُ الله تَعَالَى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ(١) مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥]

الشرح:

لما كانت محبة الله هي أصل دين الإسلام الذي يدور عليه قطب رحاها فبكمالها يكمل الإيمان وبنقصانها ينقص توحيد الإنسان، نبّه المصنف -رحمه الله- على وجوبها على الأعيان ولهذا جاء في الحديث: «**أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه**» الحديث رواه الترمذي والحاكم، وفي حديث آخر: «**أحبوا الله بكل قلوبكم**»، وفي حديث معاذ بن جبل في حديث المنام: «**وأسألك حبك وحبَّ من يحبك وحب عمل يقربني إلى حبك**» رواه أحمد والترمذي وصححه.

وما أحسن ما قال ابن القيم في وصفها: هي المنزلة التي يتنافس فيها المتنافسون، وإلى عملها شمَّر السابقون، وعليها تفانى المحبون، فهي قوت القلوب، وغذاء الأرواح، وقرة العيون، وهي الحياة التي من حرمها، فهو من جملة الأموات، والنور الذي من فقده، ففي بحار الظلمات، والشفاء الذي من عدمه، حلت بقلبه جميع الأسقام، واللذة التي من لم يظفر بها، فعيشه كله هموم وآلام، وهي روح الإيمان والأعمال، والمقامات والأحوال التي متى خلت منها فهي

---

(١) أصل المحبة لله ورسوله واجبة وفرض عين، فمن لم يحب الله ورسوله فهو كافر، وكمال المحبة أن يقدم محبة الله ورسوله على الآباء والأبناء والأموال والتجارات والمساكن فمن قدم هذه الأشياء أو بعضها على محبة الله ورسوله والجهاد في سبيله فهو متوعد بوعيد شديد لارتكابه لهذه المعصية والكبيرة، والمراد بالمحبة هنا المحبة الخاصة التي تقتضي طاعة الله ورسوله وامتثال الأوامر واجتناب النواهي والذل والخضوع.

كالجسد الذي لا روح فيه، تحمل أثقال السائرين إلى بلاد لم يكونوا إلا بشق الأنفس بالغيها، وتوصلهم إلى منازل لم يكونوا أبداً بدونها واصليها، وتبوئهم من مقاعد الصدق مقامات لم يكن لولا هي لم يكونوا داخليها.

تالله لقد ذهب أهلها بشرف الدنيا والآخرة، وقد قضى الله تعالى يوم قدر مقادير الخلائق، بمشيئته وحكمته البالغة، أن المرء مع من أحب، فيا لها من نعمة على المحبين سابغة. تالله لقد سبق القوم السعادة، وهم على ظهور الفرش نائمون، ولقد تقدموا الركب بمراحل وهم في مسيرهم واقفون وأجابوا مؤذن الشوق، إذ نادى بهم: حيَّ على الفلاح، وبذلوا نفوسهم في طلب الوصول إلى محبوبهم، وكان بذلهم بالرضى والسماح، وواصلوا إليه المسير بالإدلاج والغدو والرواح، تالله لقد حمدوا عند الوصول مسراهم، وشكروا مولاهم على ما أعطاهم، وإنما يحمد القوم السُّرَى عند الصباح. وأطال في وصفها فراجعه في «المدارج».

واعلم أن المحبة قسمان: مشتركة وخاصة: فالمشتركة ثلاثة أنواع:

أحدها: محبة طبيعية كمحبة الجائع للطعام، والظمآن للماء، ونحو ذلك. وهذه لا تستلزم التعظيم.

الثاني: محبة رحمة وإشفاق كمحبة الوالد لولده الطفل، وهذه أيضاً لا تستلزم التعظيم.

الثالث: محبة أنس وإلف، وهي محبة المشتركين في صناعة، أو علم أو مرافقة أو تجارة أو سفر لبعضهم بعضاً، وكمحبة الإخوة بعضهم بعضاً. فهذه الأنواع الثلاثة، التي تصلح للخلق، بعضهم من بعض ووجودها فيهم لا يكون شركاً في محبة الله، ولهذا كان رسول الله ﷺ يحب الحلواء والعسل، وكان يحب نساءه وعائشة أحبهن إليه، وكان يحب أصحابه، وأحبهم إليه الصديق -رضي الله عنه-.

القسم الثاني: المحبة الخاصة التي لا تصلح إلا لله، ومتى أحب العبد بها غيره

كان شركاً لا يغفره الله، وهي محبة العبودية المستلزمة للذل والخضوع والتعظيم، وكمال الطاعة، وإيثاره على غيره. فهذه المحبة لا يجوز تعلقها بغير الله أصلاً كما حققه ابن القيم، وهي التي سوَّى المشركون بين الله تعالى وبين آلهتهم فيها. كما قال الله في الآية التي ترجم المصنف لها: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾ (البقرة: ١٦٥). قال ابن كثير: يذكر تعالى حال المشركين به في الدنيا وما لهم في الآخرة من العذاب حيث جعلوا لله أنداداً، أي أمثالاً ونظراء يحبونهم كحبه ويعبدونهم معه وهو الله الذي لا إله إلا هو، ولا ضد له، ولا ند له، ولا شريك معه، وقوله: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾. أي: يساوونهم بالله في المحبة والتعظيم، ولهذا يقولون: لأندادهم، وهم في النار: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ (الشعراء: ٩٧-٩٨). فهذا هو مساواتهم برب العالمين، وهو العدل المذكور في قوله: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾ (الأنعام: ١). أما مساواتهم بالله في الخلق والرزق وتدبير الأمور، فما كان أحد من المشركين يساوون أصنامهم بالله في ذلك. وهذا القول رجحه شيخ الإسلام، والثاني: أن المعنى يحبون أندادهم، كما يحب المؤمنون الله، ثم بيَّن أن محبة المؤمنين لله أشد من محبة أصحاب الأنداد لأندادهم.

قال شيخ الإسلام: وهذا متناقض، وهو باطل، فإن المشركين لا يحبون الأنداد، مثل محبة المؤمنين الله، ودلت الآية على أن من أحب شيئاً، كحب الله، فقد اتخذه نداً لله، وذلك هو الشرك الأكبر، قاله المصنف. وعلى وجوب إفراد الله بالمحبة الخاصة التي هي توحيد الإلهية، بل الخلق والأمر والثواب والعقاب، إنما نشأ عن المحبة، ولأجلها، فهي الحق الذي خلقت به السماوات والأرض، وهي الحق الذي تضمنه الأمر والنهي، وهي سر التأله، وتوحيدها هو شهادة أن لا إله إلا الله وليس كما زعم المنكرون، أن الإله هو الرب الخالق، فإن المشركين كانوا

مقرين، بأنه لا رب إلا الله، ولا خالق سواه، ولم يكونوا مقرين بتوحيد الإلهية الذي هو حقيقة لا إله إلا الله، فإن الإله الذي تألهه القلوب حباً وذلاً وخوفاً ورجاءً، وتعظيماً وطاعة، إله بمعنى مألوه، أي: محبوب معبود، وأصله من التأله، وهو التعبد الذي هو آخر مراتب الحب، فالمحبة حقيقة العبودية، ودلت أيضاً على أن المشركين يعرفون الله ويحبونه، وإنما الذي أوجب كفرهم مساواتهم به الأنداد في المحبة، فكيف بمن أحب الأنداد أكثر من حب الله، فكيف بمن لم يحب الله أصلاً، ولم يحب إلا الند وحده، فالله المستعان.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِۗ﴾. نتكلم عليها لتعلقها بما قبلها تكميلاً للفائدة، وإن لم يذكرها المصنف، وفيها قولان:

أحدهما: وهو الصحيح أن المعنى: والذين آمنوا أشد حباً لله من محبة المشركين بالأنداد لله، فإن محبة المؤمنين خالصة، ومحبة أصحاب الأنداد قد ذهبت أندادهم بقسط منها، والمحبة الخالصة أشد من المشتركة.

والثاني: والذين آمنوا أشد حباً لله من حب أصحاب الأنداد لأندادهم التي يحبونها من دون الله.

قال ابن القيم: والقولان مرتبان على القولين في قوله: يحبونهم كحب الله. وفي الآية دليل على أن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً، وأن الشرك محبط للأعمال.



وَقولُهُ: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [التوبة: ٢٤].

قال: «وقوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾». هذا أمر من الله تعالى لنبيه محمد ﷺ أن يتوعد من أحب أهله وعشيرته وأمواله ومساكنه، أو أحد من هذه الأشياء على الله ورسوله، وجهاد في سبيله، وقد خوطب بهذا المؤمنون في آخر الأمر، كما قاله شيخ الإسلام، فقيل لهم: إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها، أي: حصلتموها، وتجارة تخشون كسادها، أي: رخصها وفوات وقت نفاقها، ومساكن ترضونها، أي: لحسنها وطيبها، أحب إليكم من الله ورسوله، وجهاد في سبيله، فتربصوا حتى يأتي الله بأمره، أي: انتظروا ماذا يحل بكم من عذاب الله، والله لا يهدي القوم الفاسقين، أي: الخارجين عن طاعة الله.

وهو تنبيه على أن من فعل ذلك فهو من الفاسقين، فهذا تشديد ووعيد عظيم، ولا يخلص منه إلا من صح إيمانه فخلص لله سره وإعلانه، وعلى أن المحبة الصادقة تستلزم تقديم مراضي الله على هذه الثمانية كلها، فكيف بمن آثر بعضها على الله ورسوله، وجهاد في سبيله.

فإن قلت: قد قال شيخ الإسلام: إن كثيراً من المسلمين أو أكثرهم بهذه الصفة.

قيل: مراده أن كثيراً من المسلمين قد يكون ما ذكر أحب إليه من الله ورسوله، أي في إيثار ذلك على فعل أمر الله، وأمر رسوله الذي ينشأ عن المحبة لا في الحب

الذي يوجب قصد المحبوب بالتأله، فإن من ساوى بين الله، وبين غيره في هذا الحب، فهو مشرك، فكيف إذا كان غير الله أحب إليه كما هو الواقع من عُبَّاد القبور، فإنهم يحبون أندادهم أعظم من حب الله، وذلك أن أصل الحب يحتمل الشركة بخلاف الخلة، فإنها لا تقبل الشركة أصلاً، ولهذا قال النبي ﷺ في الحسن وأسامة: «**اللهم إني أحبهما وأحب من يحبهما**» حديث صحيح.

واعلم أن هذه الآية شبيهة بقوله: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي﴾ (آل عمران: ٣١) فلما كثر المدعون لمحبة الله، طولبوا بإقامة البينة، فجاءت هذه الآية ونحوها. فمن ادعى محبة الله، وهو يحب ما ذكر على الله ورسوله، فهو كاذب، كمن يدعي محبة الله وهو على غير طريق النبي ﷺ فإنه كاذب، إذ لو كان صادقاً لكان متبعاً له، قال مبارك بن فضالة، عن الحسن قال: كان ناس على عهد النبي ﷺ يقولون: يا رسول الله إننا نحب ربنا حباً شديداً، فأحب الله أن يجعل لحبه علماً فأنزل الله: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ﴾[1] وقد وقع لكثير من المدعين نوع انبساط في دعوى المحبة أخرجهم إلى شيء من الرعونة والدعاوى التي تنافي العبودية، ويدعي أحدهم دعاوى تتجاوز حدود الأنبياء، ويطلبون من الله ما لا يصلح بكل وجه إلا لله. وسبب هذا ضعف تحقيق المحبة التي هي محض العبودية، بل ضعف العقل الذي به يعرف العبد حقيقته، ومدعي ذلك فيه شبه من اليهود والنصارى الذين قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه.

وشرط المحبة موافقة المحبوب، فتحب ما يحب، وتكره ما يكره، وتبغض ما يبغض، وذلك كمن يدعي أن الذنوب لا تضره، لكون الله يحبه فيصر عليها أو يدعي أنه يصل إلى حد في محبة الله تسقط عنه التكاليف، وكقول بعضهم: أي مريد لي ترك في النار أحداً، فإنه بريئ منه، فقال الآخر: أي مريد لي ترك أحداً من المؤمنين يدخل النار، فإنه بريئ منه. ونحو ذلك من الدعاوى مع أن كثيراً من هذا ونحوه لا

يصدر إلا من كافر، والعاقل يتنبه. وما هكذا كان سادات المحبين: الأنبياء والمرسلون، والصحابة، والتابعون، فكن على حذر من ذلك، فإن كثيراً من جهال المتصوفة وقع فيه، وقد ينسب ذلك إلى بعض المشايخ المشهورين، وهو إما كذب عليهم، وإما خطأ منهم، فإن العصمة منتفية عن غير الرسول ﷺ.



عَن أَنَسٍ: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ». [أَخرَجَاهُ].

قوله: **«لا يؤمن أحدكم»**: أي: لا يحصل له الإيمان الذي تبرأ به ذمته، ويستحق به دخول الجنة بلا عذاب حتى يكون الرسول أحب إليه من أهله وولده ووالده والناس أجمعين، بل لا يحصل له ذلك حتى يكون الرسول أحب إليه من نفسه أيضاً، كما في حديث عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- أنه قال للنبي ﷺ: «لأنت يا رسول الله أحب إلي من كل شيء إلا نفسي فقال: **«والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك»**، فقال له عمر: فإنك الآن والله أحب إليّ من نفسي، فقال: **«الآن يا عمر»**(١) رواه البخاري؛ فمن لم يكن كذلك فهو من أصحاب الكبائر، إذا لم يكن كافراً، فإنه لا يعهد في لسان الشرع نفي اسم مسمى أمر الله به ورسوله إلا إذا ترك بعض واجباته، فأما إذا كان الفعل مستحباً في العبادة لم ينفها الانتفاء المستحب، ولو صح هذا لنفى عن جمهور المؤمنين اسم الإيمان والصلاة والزكاة والحج وحب الله ورسوله، لأنه ما من عمل إلا وغيره أفضل منه، وليس أحد يفعل أفعال البر مثل ما فعلها النبي ﷺ، بل ولا أبو بكر ولا عمر، فلو كان من لم يأت بكمالها المستحب يجوز نفيها عنه لجاز أن ينفى عن جمهور المسلمين، ومن الأولين والآخرين، وهذا لا يقوله عاقل، وعلى هذا فمن قال: إن المنفي الكمال، فإن أراد أنه نفي الكمال الواجب الذي يذم تاركه ويتعرض للعقوبة فقد صدق، وإن أراد أنه نفي الكمال المستحب فهذا لم يقع قط في كلام الله ورسوله ﷺ قاله شيخ الإسلام. وأكثر الناس يدّعي أن الرسول أحب إليه مما ذكر فلا بد من تصديق ذلك بالعمل والمتابعة له، وإلا فالمدعي كاذب؛ فإن القرآن بين أن المحبة

---

(١) أي الآن تمت المحبة وكملت.

التي في القلب تستلزم العمل الظاهر بحبها كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ (آل عمران: ٣١)، وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾ (النور: ٤٧-٥١). فنفى الإيمان عمن تولى عن طاعة الرسول، وأخبر أن المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله سمعوا وأطاعوا. فتبيَّن أن هذا من لوازم الإيمان والمحبة، لكن كل مسلم لا بد أن يكون محباً بقدر ما معه من الإسلام كما أن كل مؤمن لا بد أن يكون مسلماً، وكل مسلم لا بد أن يكون مؤمناً، وإن لم يكن كل مؤمن مؤمناً الإيمان المطلق، لأن ذلك لا يحصل إلا لخواص المؤمنين، فإن الاستسلام لله ومحبته لا تتوقف على هذا الإيمان الخاص.

قال شيخ الإسلام: وهذا الفرق يجده الإنسان من نفسه ويعرفه من غيره، فعامة الناس إذا أسلموا بعد كفر، أو ولدوا على الإسلام، والتزموا شرائعه، وكانوا من أهل الطاعة لله ورسوله، وهم مسلمون، ومعهم إيمان مجمل، لكن دخول حقيقة الإيمان إلى قلوبهم يحصل شيئاً فشيئاً إن أعطاهم الله ذلك، وإلا فكثير من الناس لا يصلون إلى اليقين، ولا إلى الجهاد ولو شككوا لشكوا، ولو أمروا بالجهاد لما جاهدوا، وليسوا كفاراً ولا منافقين، بل ليس عندهم من علم القلب ومعرفته ويقينه ما يدرأ الريب، ولا عندهم من قوة الحب لله ورسوله ما يقدمونه على الأهل والمال. وهؤلاء إن عوفوا من المحنة ماتوا دخلوا الجنة، وإن ابتلوا بمن يدخل عليهم شبهات توجب ريبهم فإن لم ينعم الله عليهم بما يزيل الريب، وإلا صاروا مرتابين وانتقلوا إلى نوع من النفاق. انتهى.

قوله: «أحب». هو بالنصب خبر أكون.

قوله: «والناس أجمعين». هو من عطف العام على الخاص وهو كثير.

وفي الحديث من الفوائد:

- إذا كان هذا شأن محبة الرسول ﷺ فما الظن بمحبة الله.

- وفيه أن الأعمال من الإيمان؛ لأنه المحبة عمل، وقد نفى الإيمان عمن لم يكن الرسول ﷺ أحب إليه مما ذكر فدل على ذلك.

- وفيه أن نفي الإيمان لا يدل على الخروج من الإسلام.

- وفيه وجوب محبته ﷺ على ما ذكر. ذكرهما المصنف.



[ولهما] عنهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ(١) مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلاَّ للهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ بَعدَ إِذْ أَنقَذَهُ اللهُ مِنهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ».

وَفِي رِوَايَةٍ: «لاَ يَجِدُ أَحَدٌ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ حَتَّى ...» إلى آخِرِهِ.

قوله: «ثلاث»: أي ثلاث خصال وجاز الابتداء بثلاث؛ لأن المضاف إليه منوي ولذلك جاء بالتنوين.

قوله: «من كن فيه»: أي وُجدن وحصلن، فهي تامة.

قوله: «وجد حلاوة الإيمان»: قال ابن أبي جمرة: إنما عبر بالحلاوة لأن الله شبّه الإيمان بالشجرة في قوله: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ (إبراهيم: ٢٤).

قلت: والشجرة لها ثمرة والثمرة لها حلاوة فكذلك شجرة الإيمان لا بد لها من ثمرة ولا بد لتلك الثمرة من حلاوة، لكن قد يجدها المؤمن وقد لا يجدها وإنما يجدها بما ذكر في الحديث.

قوله: «أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما»: أحب منصوب لأنه خبر يكون. قال البيضاوي: المراد بالحب هنا الحب العقلي الذي هو إيثار ما يقتضي العقل السليم رجحانه، وإن كان على خلاف هوى النفس كالمريض يعاف الدواء بطبعه، فينفر عنه بطبعه ويميل إليه بمقتضى عقله فيهوى تناوله. فإذا تأمل المرء أن الشارع لا يأمر ولا ينهى إلا بما فيه صلاح عاجل أو خلاص آجل، والعقل يقتضي

---

(١) محبة الله ورسوله لا بد منها في الإيمان، ومن لم يحب الله ورسوله فهو كافر، وكمال المحبة الواجبة أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما.

رجحان جانب ذلك تمرن على الائتمار بأمره بحيث يصير هواه تبعاً له، ويلتذ بذلك التذاذاً عقلياً إذ الالتذاذ العقلي إدراك ما هو كمال وخير من حيث هو كذلك.

قلت: وكلامه على قواعد الجهمية ونحوهم من نفي محبة المؤمنين لربهم ومحبته لهم. والحق خلاف ذلك بل المراد في الحديث أن يكون الله ورسوله عند العبد أحب إليه مما سواهما حباً قلبياً كما في بعض الأحاديث: «**أحبوا الله بكل قلوبكم**» فيميل بكليته إلى الله وحده حتى يكون وحده محبوبه ومعبوده، وإنما يحب من سواه تبعاً لمحبته كما يحب الأنبياء والمرسلين والملائكة والصالحين لما كان يحبهم ربه سبحانه، وذلك موجب لمحبة ما يحبه سبحانه وكراهة ما يكره، وإيثار مرضاته على ما سواه والسعي فيما يرضيه ما استطاع وترك ما يكره، فهذه علامات المحبة الصادقة ولوازمها، وأما مجرد إيثار ما يقضي العقل رجحانه، وإن كان على خلاف هوى النفس كالمريض يعاف الدواء بطبعه فينفر عنه إلى آخر كلامه فهذا قد يكون في بعض الأمور علامة على الحب ولازماً له، لا أنه هو الحب.

وقال شيخ الإسلام: أخبر النبي ﷺ أن هذه الثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان، لأن وجود الحلاوة للشيء يتبع المحبة له فمن أحب شيئاً واشتهاه إذا حصل له مراده فإنه يجد الحلاوة واللذة والسرور بذلك.

واللذة أمر يحصل عقيب إدراك الملائم الذي هو المحبوب أو المشتهى قال: فحلاوة الإيمان المتضمنة للذة والفرح يتبع كمال محبة العبد لله، وذلك بثلاثة أمور: تكميل هذه المحبة وتفريغها[١] ودفع ضدها. فتكميلها أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما فإن محبة الله ورسوله، لا يكتفى فيها بأصل الحب[٢]، بل لا بد أن

---

(١) تفريغها بالغين المعجمة كما يدل عليه ما يأتي بعد.

(٢) وأصل الحبّ لا بد منه في الإيمان فمن لم يكن عنده حب الله ورسوله فهو كافر.

يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما [١].

قلت: ولا يكون كذلك، إلا إذا وافق ربه فيما يحبه وما يكرهه، قال: وتفريغها أن يحب المرء لا يحبه إلا لله.

قلت: فإن من أحب مخلوقاً لله، لا لغرض آخر كان هذا من تمام حبه لله، فإن محبة محبوب المحبوب من تمام محبة المحبوب، فإذا أحب أنبياء الله، وأولياءه لأجل قيامهم بمحبوبات الله، لا لشيء آخر، فقد أحبهم لله لا لغيره قال ودفع ضدها أن يكره ضد الإيمان، كما يكره أن يقذف في النار.

قلت: وإنما كره الضدّ لما دخل قلبه من محبة الله فانكشف له بنور المحبة محاسن الإسلام، ورذائل الجهل والكفران، وهذا هو الحب الذي يكون مع من أحب، كما في «الصحيحين» عن أنس أن رجلاً سأل النبي ﷺ متى الساعة؟ فقال: «**ما أعددت لها؟**» قال: ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام ولا صدقة، ولكني أحب الله ورسوله، فقال رسول الله ﷺ: «**أنت مع من أحببت**»، وفي رواية البخاري فقلنا: ونحن كذلك، قال: «**نعم**» قال أنس ففرحنا يومئذ فرحاً شديداً.

قوله: «**مما سواهما**»: فيه جمع ضمير الرب سبحانه، وضمير الرسول ﷺ، وقد أنكره على الخطيب لما قال: «**ومن يعصهما، فقد غوى**» وأحسن ما قيل فيه قولان:

أحدهما: ما قاله البيضاوي وغيره أنه ثنى الضمير هنا؛ إيماءً إلى أن المعتبر هو المجموع المركب من المحبتين، لا كل واحدة، فإنها وحدها لاغية، وأمر بالإفراد في حديث الخطيب إشعاراً بأن كل واحد من العصيانين مستقل باستلزام الغواية، إذ العطف في تقدير التكرير، والأصل استقلال كل من المعطوفين في الحكم.

قلت: وهذا جواب بليغ جداً.

الثاني: حمل حديث الخطيب على الأدب والأولى وهذا على الجواز.

---

(١) وهذا هو الكمال في الحب.

وجواب ثالث: وهو أن هذا ورد على الأصل، وحديث الخطيب ناقل فيكون أرجح[١].

قوله: «كما يكره أن يقذف في النار»: أي يستوي عنده الأمران، الإلقاء في النار، والعود في الكفر.

قلت: وفي الحديث من الفوائد أن الله تعالى يحبه المؤمنون، وهو تعالى يحبهم كما قال: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ (البقرة: ١٦٥).

وفيه رد ما يظنه بعض الناس من أنه من ولد على الإسلام أفضل ممن كان كافراً فأسلم، فمن اتصف بهذه الأمور؛ فهو أفضل ممن لم يتصف بها مطلقاً، ولهذا كان السابقون الأولون أفضل ممن ولد على الإسلام[٢].

وفيه رد على الغلاة الذين يتوهمون أن صدور الذنب من العبد نقص في حقه مطلقاً، والصواب أنه إن لم يتب كان نقصاً وإن تاب فلا، ولهذا كان المهاجرون والأنصار أفضل هذه الأمة، وإن كانوا في أول الأمر كفاراً يعبدون الأصنام، بل المنتقل من الضلال إلى الهدى، ومن السيئات إلى الحسنات يضاعف له الثواب. قاله شيخ الإسلام.

وفيه دليل على عداوة المشركين وبغضهم؛ لأن من أبغض شيئاً أبغض من اتصف به، فإذا كان يكره الكفر كما يكره أن يلقى في النار فكذلك يكره من اتصف به.

وقوله: «وفي رواية لا يجد أحد»: هذه الرواية أخرجها البخاري في «صحيحه» ولفظه: **«لا يجد حلاوة الإيمان حتى يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وحتى أن يقذف في النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، وحتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما»**.



(١) وقيل إن حديث الخطيب منسوخ.

(٢) هذا في الصحابة، أما في غير الصحابة فهم محلّ تأمل ونظر!

وَعَن ابنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهما- قَالَ: «مَن أَحَبَّ في الله، وَأَبغَضَ في الله، وَوَالَى في الله، وَعَادَى في الله، فَإِنَّما تُنَالُ وِلاَيَةُ الله بِذَلِكَ. وَلَن يَجِدَ عَبدٌ طَعمَ الإِيمانِ وَإِن كَثُرَت صَلاَتُهُ وَصَومُهُ حَتَّى يَكُونَ كَذَلِكَ، وَقَد صَارَتْ عَامَّةُ مُؤَاخَاةِ النَّاسِ عَلَى أَمرِ الدُّنيَا، وَذَلِكَ لاَ يُجدِي عَلَى أَهلِهِ شَيئَاً». [رَوَاهُ ابنُ جُرَيرٍ].

وهذا الأثر رواه ابن جرير بكماله كما قال المصنف، وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم الجملة الأولى منه فقط.

قوله: «من أحب في الله». أي: أحب المسلمين والمؤمنين في الله.

قوله: «وأبغض في الله». أي: أبغض الكفار والفاسقين في الله لمخالفتهم لربهم وإن كانوا أقرب الناس إليه كما قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ (المجادلة: ٢٢).

قوله: «ووالى في الله». هذا بيان للازم المحبة في الله وهو الموالاة. فيه إشارة إلى أنه لا يكفي في ذلك مجرد الحب، بل لا بد مع ذلك من الموالاة التي هي لازم الحب، وهي النصرة والإكرام والاحترام، والكون مع المحبوبين باطناً وظاهراً.

قوله: «وعادى في الله». هذا بيان للازم البغض في الله وهو المعاداة فيه، أي: إظهار العداوة بالفعل، كالجهاد لأعداء الله والبراءة منهم، والبعد عنهم باطناً وظاهراً إشارة إلى أنه لا يكفي مجرد بغض القلب، بل لا بد مع ذلك من الإتيان بلازمه كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ

﴿تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ﴾ (الممتحنة: ٤) فهذه علامة الصدق في البغض في الله.

قوله: «**فإنما تنال ولاية الله بذلك**»: يجوز فتح الواو وكسرها أي: لا يكون العبد من أولياء الله ولا تحصل له ولاية الله إلا بما ذكر من الحب في الله والبغض في الله، والموالاة في الله والمعاداة في الله كما روى الإمام أحمد والطبراني عن النبي ﷺ: قال: «**لا يجد العبد صريح الإيمان حتى يحب لله ويبغض لله، فإذا أحب لله، وأبغض لله فقد استحق الولاية لله**»، وفي حديث آخر: «**أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله عز وجل**» رواه الطبراني وغيره، وينبغي لمن أحب شخصاً في الله أن يأتيه في بيته[1] فيخبره أنه يحبه في الله كما روى أحمد والضياء عن أبي ذر مرفوعاً: «**إذا أحب أحدكم صاحبه فليأته في منزله فليخبره أنه يحبه لله**»، وفي حديث ابن عمر عند البيهقي في «الشُّعب» «**فإنه يجد مثل الذي يجد له**».

قوله: «**ولن يجد عبد طعم الإيمان**» إلى آخره: أي لا يجد عبد طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه حتى يحب في الله، ويبغض في الله، ويعادي في الله، ويوالي في الله، وهذا منتزع من حديث أنس السابق وفي حديث أبي أمامة مرفوعاً: «**من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان**» رواه أبو داود. والعجب ممن يدعي محبة الله وهو على خلاف ذلك، وما أحسن ما قال ابن القيم:

أتحب أعداء الحبيب وتدعي[2] حباً له ما ذاك في إمكان

قوله: «**وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا، وذلك لا يجدي على**

---

(١) ولو أخبره في المسجد أو في الطريق كفى، لكن الأكمل أن يأتيه في بيته.

(٢) وقول الآخر:

تعصي الإله وأنت تزعم حبه هذا لعمري في القياس بديع

لو كنت تزعم حبه لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع

لعمرك: أصلها لحياتك ولا يراد بها القسم وإنما يراد بها تأكيد الكلام واللام لام الابتداء.

أهله شيئاً». أي: المؤاخاة على أمر الدنيا لا يجدي على أهله شيئاً، أي: لا ينفعهم أصلاً، بل يضرهم، كما قال تعالى: ﴿**ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۢ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ٦٧**﴾ (الزخرف: ٦٧) فهذا حال كل خلة ومحبة كانت في الدنيا على غير طاعة الله، فإنها تعود عداوة وندامة يوم القيامة بخلاف المحبة والخلة على طاعة الله، فإنها من أعظم القربات كما جاء في حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله قال: «**ورجلان تحابا في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه**»، وفي الحديث القدسي الذي رواه مالك وابن حبان في «صحيحه»: «**وجبت محبتي للمتحابين فيَّ والمتجالسين فيَّ، وللمتزاورين فيَّ، وللمتباذلين فيَّ**» وهذا الكلام قاله ابن عباس -رضي الله عنهما- في أهل زمانه، فكيف لو رأى الناس فيما هم فيه من المؤاخاة على الكفر والبدع والفسوق والعصيان ولكن هذا مصداق قوله -عليه السلام-: «**بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ**».

وفيه: إشارة إلى أن الأمر قد تغير في زمن ابن عباس بحيث صار الأمر على هذا بالنسبة إلى ما كان في زمن الخلفاء الراشدين فضلاً عن زمن رسول الله ﷺ. وقد روى ابن ماجه عن ابن عمر قال: لقد رأيتنا على عهد رسول الله ﷺ وما منا أحد يرى أنه أحق بديناره ودرهمه من أخيه المسلم.

وأبلغ منه قوله تعالى: ﴿**وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٌ**﴾ (الحشر: ٩) فهذا كان حالهم في ذلك الوقت الطيب، وهؤلاء هم المتحابون لجلال الله كما في الحديث القدسي يقول الله عز وجل: «**أين المتحابون لجلالي، اليوم أظلهم في ظلي**» فهذه هي المحبة النافعة لا لمحبة الدنيا، وهي التي أوجبت لهم المواساة والإيثار على الأنفس: ﴿**ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٤**﴾ (الجمعة: ٤).



وَقَالَ ابنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ (البقرة، الآية: (١٦٦). **قَالَ: «المَوَدَّةُ».**

هذا الأثر رواه عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم والحاكم وصححه.

قوله: «قال المودة»: أي المحبة التي كانت بينهم في الدنيا تقطعت بهم وخانتهم أحوج ما كانوا إليها وتبرأ بعضهم من بعض كما قال تعالى عن إبراهيم الخليل - عليه السلام- أنه قال لقومه: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ (العنكبوت: ٢٥) وهذه الآية وإن كانت نزلت في المشركين عُبّاد الأوثان الذين يحبون أندادهم وأوثانهم كحب الله، فإنها عامة لأن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ولهذا قال قتادة: وتقطعت بهم الأسباب قال: أسباب الندامة يوم القيامة، وأسباب المواصلة التي يتواصلون بها ويتحابون بها فصارت عداوة يوم القيامة، يلعن بعضهم بعضاً. رواه عبد بن حميد وابن جرير، فهذا حال من كانت مودته لغير الله فاحذر من ذلك.



باب[1]

قَوْلُ الله تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ (آل عمران: ١٧٥).

الشَّرْحُ:

الخوف من أفضل مقامات الدين وأجلها فلذلك ترجم المصنف: على وجوب إخلاصه لله تعالى، وقد ذكره الله تعالى في كتابه عن سادات المقربين من الملائكة والأولياء والصالحين قال الله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ (النحل: ٥٠)، وقال تعالى: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ (الأنبياء: ٢٨)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ (المؤمنون: ٥٧)، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ (الأحزاب: ٣٩)، وأمر بإخلاصه له فقال تعالى: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾ (البقرة: ٤٠)، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا ٱلنَّاسَ

---

(١) هذا الباب عقده المصنف لبيان أن الخوف عبادة يجب إخلاصه لله، والخوف الحقيقي هو الذي يقتضي ويثمر فعل الفرائض وترك المنهيات وتعظيم الحرمات والمسارعة في مراضي الله تعالى والإيمان بالله ورسوله، والوقوف عند حدود الله، ولولا أنه يثمر ذلك لما قال الله عن المؤمنين ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾ والخوف أقسام:

أحدها: خوف السر وخوف العقيدة كأن يخاف من المقبور لسره لكونه يتصرف في الكون أو لكونه يقضي الحاجات أو يشفي المرضى، أو يشفع أو يوصل الحاجات

الثاني: الخوف الذي يحمل على التقصير في الواجبات أو فعل المحرمات بدون سبب يوجب ذلك من ضرر في نفسه بقتل أو ضرب أو سجن بل المانع له ضعف الإيمان والجبن والخور وهذا القسم هو الذي ترجم له وهو معصية والذي قبله شرك أكبر.

والقسم الثالث: الخوف الطبيعي من سبع أو ظالم.

وَٱخْشَوْنِ﴾ (المائدة: ٤٤)، وقال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ۝٥٢﴾ (النحل: ٥٢)، وهو على ثلاثة أقسام:

أحدها: خوف السر، وهو أن يخاف من غير الله أن يصيبه بما يشاء من مرض أو فقر أو قتل ونحو ذلك[1]؛ بقدرته ومشيئته سواء ادعى أن ذلك كرامة للمخوف بالشفاعة أو على سبيل الاستقلال، فهذا الخوف لا يجوز تعلقه بغير الله أصلاً لأن هذا من لوازم الإلهية، فمن اتخذ مع الله نداً يخافه هذا الخوف فهو مشرك، وهذا هو الذي كان المشركون يعتقدونه في أصنامهم وآلهتهم ولهذا يُخَوِّفون بها أولياء الرحمن كما خوّفوا إبراهيم الخليل -عليه الصلاة والسلام- فقال لهم: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٨٠ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٨١﴾ (الأنعام: (٨٠-٨١)، وقال تعالى عن قوم هود إنهم قالوا له: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥﴾ (هود: ٥٤-٥٥)، وقال تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ﴾ (الزمر: ٣٦) وهذا القسم هو الواقع اليوم من عُبّاد القبور، فإنهم يخافون الصالحين بل الطواغيت كما يخافون الله بل أشد، ولهذا إذا توجهت على أحدهم اليمين بالله أعطاك ما شئت من الأيمان كاذباً أو صادقاً فإن كان اليمين بصاحب التُربة لم يُقْدِم على اليمين إن كان كاذباً، وما ذاك إلا لأن المدفون في التراب أخوف عنده من الله، ولا ريب أن هذا ما بلغ إليه شرك الأولين بل جهد أيمانهم اليمين بالله تعالى، وكذلك لو أصاب أحدٌ منهم ظلم لم يطلب كشفه إلا من المدفونين في التراب، وإذا

(١) وهو الخوف الذي يكون وراء الأسباب.

أراد أن يظلم أحداً فاستعاذ بالله أو ببيته لم يعذه، ولو استعاذ بصاحب التربة أو بتربته لم يقدم عليه أحداً ولم يتعرض له بالأذى حتى إن بعض الناس أخذ من التجار أموالاً عظيمة أيام موسم الحج، ثم بعد أيام أظهر الإفلاس فقام عليه أهل الأموال، فالتجأ إلى قبر في جدة يقال له المظلوم فما تعرّض له أحد بمكروه خوفاً من سرّ المظلوم وأشباه هذا من الكفر، وهذا الخوف لا يكون العبد مسلماً إلا بإخلاصه لله تعالى وإفراده بذلك دون من سواه.

الثاني: أن يترك الإنسان ما يجب عليه من الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بغير عذر إلا لخوف من الناس فهذا محرم[1] وهو الذي نزلت فيه الآية المترجم لها وهو الذي جاء فيه الحديث: «**إن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة: ما منعك إذ رأيت المنكر أن لا تغيره فيقول: يا رب خشيت الناس فيقول: إياي كنت أحق أن تخشى**» رواه أحمد.

الثالث: خوف وعيد الله الذي توعد به العصاة وهو الذي قال الله فيه: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ (إبراهيم: ١٤)، وقال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ (الرحمن: ٤٦)، وقال تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ (الطور: ٢٦)، وقال تعالى: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾﴾ (الإنسان: ٧) وهذا الخوف من أعلى مراتب الإيمان، ونسبة الأول إليه كنسبة الإسلام إلى الإحسان[2] وإنما يكون محموداً إذا لم يوقع في القنوط واليأس من روح الله، ولهذا قال شيخ الإسلام: هذا الخوف ما حجزك عن معاصي الله فما زاد على ذلك فهو غير محتاج إليه.

---

(١) أما لو أصابه ضرر في نفسه أو ماله أو أهله أو هدّده قادر فإنه يكون عذراً له في الترك.

(٢) في كونه أعلى من الأول نظر والصواب أنه تابع للأول وأن الأول مستلزم للخوف من وعيد الله ولهذا لم يذكره الشيخ عبدالرحمن بن حسن في «فتح المجيد» قسماً مستقلاً بل جعل أقسام الخوف ثلاثة لا أربعة كما ذكره الشارح هنا. وعبدالرحمن بن حسن هذّب هذا الشرح واختصره.

بقي قسم رابع: وهو الخوف الطبيعي كالخوف من عدو وسبع وهدم وغرق ونحو ذلك، فهذا لا يذم وهو الذي ذكره الله عن موسى -عليه الصلاة والسلام- في قوله: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ (القصص: ٢١).

إذا تبيّن هذا: فمعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ أي يخوفكم أولياءه ويوهمكم أنهم ذو بأس وشدة. قال تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٧٥)﴾ (آل عمران: ١٧٥) أي فإذا سول لكم وأوهمكم فتوكلوا على الله فإنه كافيكم وناصركم عليهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ ۚ﴾ (الزمر: ٣٦) إلى قوله: ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ (٣٨)﴾ (الزمر: ٣٨)، وقال تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (٧٦)﴾ (النساء: ٧٦). قاله ابن كثير.

وقال ابن القيم: ومن كيد عدو الله أنه يخوف المؤمنين من جنده وأوليائه لئلا يجاهدوهم ولا يأمروهم بمعروف ولا ينهوهم عن منكر.

فأخبر تعالى أن هذا من كيده وتخويفه، ونهانا أن نخافهم قال: والمعنى عند جميع المفسرين يخوفكم بأوليائه. قال قتادة: يعظِّمهم في صدوركم، ولهذا قال: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٧٥)﴾ (آل عمران: ١٧٥) فكلما قوي إيمان العبد زال من قلبه خوف أولياء الشيطان، وكلما ضعف إيمان العبد قوي خوفه منهم.

قلت: فأمر تعالى بإخلاص هذا الخوف له، وأخبر أن ذلك شرط في الإيمان، فمن لم يأت به لم يأت بالإيمان الواجب؛ ففيه أن إخلاص الخوف لله من الفرائض.



وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ (التوبة: ١٨).

لما نفى تبارك وتعالى عمارة المساجد عن المشركين بقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ (التوبة: ١٧) الآية إذاً لا تنفعهم عمارتها مع الشرك، كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ (الفرقان: ٢٣) أثبت تعالى في هذه الآية عمارة المساجد بالعبادة للمؤمنين بالله تعالى واليوم الآخر، المقيمين الصلاة المؤتين الزكاة، الذين لا يخشون إلا الله، ولا يخشون معه إلهاً آخر كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾﴾ (الأحزاب: ٣٩) فهذه هي العمارة النافعة، وهي الخالصة من الشرك، فإنه نار تحرق الأعمال.

وقوله: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ (التوبة: ١٨): قال ابن عطية: يريد خشية التعظيم والعبادة والطاعة[1]، ولا محالة أن الإنسان يخشى غيره، ويخشى المحاذير الدنيوية، وينبغي أن يخشى في ذلك كله قضاء الله وتصريفه.

قلت: ولهذا قال ابن عباس في الآية: لم يعبد إلا الله فإن الخوف كما قال ابن القيم: عبودية القلب، فلا يصلح إلا لله، كالذل والإنابة والمحبة والتوكل والرجاء وغيرها من عبودية القلب.

وقوله: ﴿فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ (التوبة: ١٨) قال ابن أبي طلحة: عن ابن عباس يقول: إن أولئك المهتدون كقوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ

---

(١) أي لا الخشية الطبيعية كما ذكره قريباً.

﴿مَقَامًا مَّحْمُودًا ٧٩﴾ (الإسراء: ٧٩) وكل عسى في القرآن فهي واجبة. وتضمنت الآية أن من عمّر المساجد من المسلمين بالعبادة هو من المؤمنين: كما في حديث: «**إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان** قال الله ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾(التوبة: ١٨)»[1]. رواه أحمد والترمذي والحاكم[2]. قال الله تعالى ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ (التوبة: ١٨).

قال: «**وقوله:** ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾»[3] الآية.

قال ابن كثير: يقول تعالى مخبراً عن قوم من الذين يدعون الإيمان بألسنتهم ولم يثبت الإيمان في قلوبهم بأنهم إذا جاءتهم محنة في الدنيا اعتقدوا أنها من نقمة الله بهم، فارتدوا عن الإسلام. قال ابن عباس: يعني فتنته أن يرتد عن دينه إذا أوذي في الله. قال ابن القيم: الناس إذا أرسل إليهم الرسل بين أمرين إما أن يقول أحدهم آمنا، وإما أن لا يقول ذلك، بل يستمر على السيئات والكفر؛ فمن قال: آمنا به امتحنه ربه وابتلاه وفتنه، والفتنة الابتلاء والاختبار ليتبين الصادق من الكاذب؛ ومن لم يقل آمنا فلا يحسب أنه يعجز الله ويفوته ويسبقه فمن آمن بالرسل، وأطاعهم، عاداه أعداؤهم، وآذوه، فابتلي بما يؤلمه، ومن لم يؤمن بهم، ولم يطعهم، عوقب في الدنيا والآخرة، وحصل له ما يؤلمه، وكان هذا الألم أعظم وأدوم من ألم اتباعهم، فلا بد من حصول الألم لكل نفس آمنت، أو رغبت عن الإيمان، لكن المؤمن يحصل له الألم في الدنيا ابتدءً، ثم تكون له العاقبة في الدنيا

---

(١) هذا هو الأصل وقد يعتاد المسجد لأغراض أخرى.

(٢) في سنده بعض الشيء لكن له شواهد ينجبر بها فيكون حسناً لغيره.

(٣) وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ أي طرف.

والآخرة، والمعرض عن الإيمان تحصل له اللذة ابتداءً، ثم يصير له الألم الدائم. والإنسان لا بد أن يعيش مع الناس، والناس لهم إرادات وتصورات، فيطلبون منه أن يوافقهم عليها، وإن لم يوافقهم آذوه، وعذَّبوه وإن وافقهم حصل له الأذى والعذاب، تارة منهم، وتارة من غيرهم، كمن عنده دين وتقى حل بين قوم فجار ظلمة، ولا يتمكنون من فجورهم إلا بموافقته لهم أو سكوته عنهم، فإن وافقهم أو سكت عنهم سلم من شرهم في الابتداء، ثم يتسلطون عليه بالإهانة والأذى أضعاف ما كان يخافه ابتداءً لو أنكر عليهم وخالفهم، وإن سلم منهم، فلا بد أن يُهان ويُعاقب على يد غيرهم، فالحزم كل الحزم بما قالت أم المؤمنين لمعاوية: من أرضى الله بسخط الناس، كفاه الله مؤنة الناس، ومن أرضى الناس بسخط الله، لم يغنوا عنه من الله شيئاً. فمن هداه الله وألهمه رشده، ووقاه شر نفسه، امتنع من الموافقة على فعل المحرم، وصبر على عداوتهم، ثم تكون له العاقبة في الدنيا والآخرة، كما كانت للرسل وأتباعهم.

ثم أخبر عن حال الداخل في الإيمان بلا بصيرة، وأنه إذا أوذي في الله جعل فتنة الناس له، وهي أذاهم له، ونيلهم إياه بالمكروه، وهو الألم الذي لا بد أن ينال الرسل وأتباعهم ممن خالفهم، جعل ذلك في فراره منه وتركه السبب الذي يناله به كعذاب الله الذي فرّ منه المؤمنون بالإيمان. فالمؤمنون لكمال بصيرتهم فروا من ألم عذاب الله إلى الإيمان، وتحملوا ما فيه من الألم الزائل والمفارق عن قرب، وهذا لضعف بصيرته فرّ من ألم أعداء الرسل إلى موافقتهم ومتابعتهم، ففر من ألم عذابهم إلى ألم عذاب الله، فجعل ألم فتنة الناس في الفرار منه بمنزلة ألم عذاب الله؛ وغُبن كل الغبن إذ استجار من الرمضاء بالنار، وفرّ من ألم ساعة إلى ألم الأبد، وإذا نصر الله جنده وأولياءه قال إني كنت معكم والله عليم بما انطوى عليه صدره من النفاق. انتهى.

قلت: وإنما حمل ضعيف البصيرة على أن جعل فتنة الناس كعذاب الله، هو الخوف منهم أن ينالوه بما يكره بسبب الإيمان بالله، وذلك من جملة الخوف من غير الله، وهذا وجه مطابقة الآية للترجمة، وفي الآية رد على المرجئة والكرامية[1]، وفيها الخوف على نفسك، والاستعداد للبلاء إذ لا بد منه مع سؤال الله العافية.



(١) رد على المرجئة في قولهم: إن الأعمال غير داخلة في مسمى الإيمان، ولا يضر مع الإيمان ذنب، ورد على الكرامية القائلين هو الكلمة بدون عمل بل يكفي الإيمان باللسان.

عَن أَبِي سَعِيدٍ مَرفُوعَاً: «إِنَّ مِن ضَعفِ اليَقِينِ: أَن تُرضِي النَّاسَ بِسُخطِ اللهِ، وَأَن تَحمَدَهُم عَلَى رِزقِ اللهِ، وَأَن تَذُمَّهُمْ عَلَى مَا لَمْ يُؤتِكَ اللهُ، إِنَّ رِزقَ اللهِ لاَ يَجُرُّه حِرصُ حَرِيصٍ، وَلاَ يَرُدُّهُ كَرَاهِيَةُ كَارِهٍ».

هذا الحديث رواه أبو نعيم في «الحلية»، والبيهقي وأعله بمحمد بن مروان السدي، وقال: ضعيف، وفيه أيضاً: عطية العوفي، أورده الذهبي في «الضعفاء والمتروكين»، وقال: ضعفوه، وموسى بن بلال قال الأزدي ساقط.

قلت: إسناده ضعيف، ومعناه صحيح، وتمامه: «**وإن الله بحكمته جعل الروح والفرح في الرضى واليقين، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط**».

قوله: «إن من ضعف اليقين»: قال في «المصباح»: والضعف بفتح الضاد في لغة تميم وبضمها في لغة قريش خلاف القوة والصحة[1]؛ واليقين: المراد به الإيمان كله كما قال ابن مسعود: اليقين الإيمان كله، والصبر نصف الإيمان. رواه الطبراني بسند صحيح، ورواه أبو نعيم في «الحلية» والبيهقي في «الزهد» من حديثه مرفوعاً ولا يثبت رفعه. قاله الحافظ. ويدخل في ذلك تحقيق الإيمان بالقدر السابق كما في حديث ابن عباس مرفوعاً: «**فإن استطعت أن تعمل بالرضى في اليقين فافعل، وإن لم تستطع فإن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً**»، وفي رواية أخرى في إسنادها ضعف: «**قلت يا رسول الله كيف أصنع باليقين؟ قال: أن تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك**».

قوله: «أن ترضي الناس بسخط الله»: أي تؤثر رضاهم على رضى الله، فتوافقهم على ترك المأمور، أو فعل المحظور استجلاباً لرضاهم فلولا ضعف اليقين لما فعلت ذلك، لأن من قوي يقينه علم أن الله وحده هو النافع الضار وانه

---

(١) وقرئ قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٍ﴾ بفتح الضاد وضمِّها.

لا معوَّل إلا على رضاه، وليس لسواه من الأمر شيء كائناً ما كان فلا يهاب أحداً، ولا يخشاه لخوف ضرر يلحقه من جهته كما قال تعالى: ﴿وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ۝٣٩﴾ (الأحزاب: ٣٩).

وقوله: «**وأن تحمدهم على رزق الله**»: أي تحمدهم وتشكرهم على ما وصل إليك على أيديهم من رزق؛ بأن تضيفه إليهم وتنسى المنعم المتفضل على الحقيقة وهو الله رب العالمين الذي قدر هذا الرزق لك وأوصله إليك بلطفه ورحمته فإنه لطيف لما يشاء وهو العليم الحكيم فإذا أراد أمراً قيَّض له أسباباً ولا ينافي ذلك حديث: «**من لا يشكر الناس لا يشكر الله**» لأن المراد هنا إضافة النعمة إلى السبب ونسيان الخالق، والمراد بشكر الناس عدم كفر إحسانهم ومجازاتهم على ذلك بما استطعت فإن لم تجد فجازهم بالدعاء[١].

وقوله: «**وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله**»: أي: إذا طلبتهم شيئاً فمنعوك ذممتهم على ذلك، فلو علمت يقيناً أن المتفرد بالعطاء والمنع هو الله وحده، وأن المخلوق مدبَّر لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً فضلاً عن غيره، وأن الله لو قدر لك رزقاً، أتاك ولو اجتهد الخلق كلهم في دفعه، وإن أرادك بمنع لم يأتك مرادك ولو اجتمع الخلق كلهم في إيصاله إليك، لقطعت العلائق عن الخلائق وتوجهت بقلبك إلى الخالق تبارك وتعالى، ولهذا قرر ذلك بقوله: «إن رزق الله لا يجره حرص حريص ولا يرده كراهية كاره» فلا ترضِ الخلق بما يسخط الله، ولا تحمدهم على رزق الله، ولا تذمهم على ما لم يؤتك الله طلباً لحصول رزق من جهتهم ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢﴾ (فاطر: ٢).

قال شيخ الإسلام: اليقين يتضمن اليقين في القيام بأمر الله وما وعد الله أهل

---

(١) حيث إن الله جعلهم سبباً لما أوصله إليك من رزق.

طاعته ويتضمن اليقين بقدر الله وخلقه وتدبيره، فإذا أرضيتهم بسخط الله لم تكن موقناً لا بوعد الله ولا برزق الله، فإنه إنما يحمل الإنسان على ذلك إما ميل إلى ما في أيديهم فيترك القيام فيهم بأمر الله لما يرجوه منهم، وإما ضعف تصديقه بما وعد الله أهل طاعته من النصر والتأييد والثواب في الدنيا والآخرة، فإنك إذا أرضيت الله نصرك ورزقك وكفاك مؤنتهم، وإرضاؤهم بما يسخطه إنما يكون خوفاً منهم، ورجاء لهم وذلك من ضعف اليقين، وإذا لم يقدر لك ما تظن أنهم يفعلونه معك فالأمر في ذلك إلى الله لا لهم، فإنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فإذا ذممتهم على ما يقدر، كان ذلك من ضعيف يقينك فلا تخفهم ولا ترجهم، ولا تذمهم من جهة نفسك وهواك، ولكن من حمده الله ورسوله منهم فهو المحمود، ومن ذمه الله ورسوله فهو المذموم، ولما قال بعض وفد بني تميم: أي محمد أعطني فإن حمدي زين وذمي شين قال ﷺ: «**ذاك الله**» وفي الحديث أن الإيمان يزيد وينقص، وأن الأعمال داخلة في الإيمان وإلا لم تكن هذه الثلاث من ضعفه وأضدادها من قوته.



وَعَن عَائِشَةَ[1]، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «مَنِ التَمَسَ رِضَى الله بِسَخَطِ النَّاسِ، رَضِيَ اللهُ عَنهُ وأَرضَى عَنهُ النَّاسَ، وَمَن التَمَسَ رَضَى النَّاسِ بِسَخَطِ الله، سَخِطَ اللهُ عَلَيهِ وَأَسخَطَ عَلَيهِ النَّاسِ» [رَوَاهُ ابنُ حِبَّانَ في «صَحِيحِهِ»].

هذا الحديث رواه ابن حبان بهذا اللفظ الذي ذكره المصنف، ورواه الترمذي عن رجل من أهل المدينة قال: كتب معاوية إلى عائشة أن اكتبي لي كتاباً توصيني فيه، ولا تكثري عليّ، فكتبت عائشة إلى معاوية: سلام عليك، أما بعد: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من التمس رضى الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس، ومن التمس رضى الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس، والسلام عليك**» رواه أبو نعيم وغيره.

قوله: «من التمس»: أي: طلب. قال شيخ الإسلام: وكتبت عائشة إلى معاوية وروي أنها رفعته «**من أرضى الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس، ومن أرضى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئاً**» هذا لفظ المرفوع، ولفظ الموقوف: «**من أرضى الناس بسخط الله رضي الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن أرضى الناس بسخط الله عاد حامده من الناس له ذاماً**» هذا اللفظ المأثور عنها، وهذا من أعظم الفقه في الدين، والمأثور أحق وأصدق، فإن من أرضى الله بسخطهم كان قد اتقاه، وكان عبده الصالح، والله يتولى الصالحين وهو كافٍ عبده ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ (الطلاق: ٢-٣) والله يكفيه مؤنة الناس بلا ريب، وأما كون الناس كلهم يرضون عنه فقد يحصل ذلك، لكن يرضون إذا

---

(١) الحديث من رواية درّاج بن أبي السمح عن أبي الهيثم، واختلف في درّاج هذا على ثلاثة أقوال، قيل ضعيف مطلقاً، وقيل مقبول، وقيل ضعيف في روايته عن أبي الهيثم.

سلموا من الأغراض[1]، وإذا تبين لهم العاقبة، «**ومن أرضى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئاً**»، كالظالم الذي يعض على يديه، وأما كونه حامده ينقلب ذاماً فهذا يقع كثيراً ويحصل في العاقبة، فإن العاقبة للتقوى لا تحصل ابتداءً عند أهوائهم.

قلت: وإنما يحمل الإنسان على إرضاء الخَلْق بسخط الخالق هو الخوف منهم فلو كان خوفه خالصاً لله لما أرضاهم بسخطه فإن العبيد فقراء عاجزون لا قدرة لهم على نفع ولا ضر ألبتة، وما بهم من نعمة فمن الله فكيف يحسن بالموحِّد المخلص أن يؤثر رضاهم على رضاء رب العالمين الذي له الملك كله، وله الحمد كله، وبيده الخير كله، ومنه الخير كله، وإليه يرجع الأمر كله، لا إله إلا هو العزيز الحكيم، وقد أخبر تعالى أن ذلك من صفات المنافقين في قوله: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾﴾ (الحشر: ١٣)، وما أحسن ما قيل:

إذا صحّ منك الوُدُّ يا غاية المُنى   فكلّ الذي فوق التراب تـراب

قال ابن رجب: فمن تحقق أن كل مخلوق فوق التراب فهو تراب فكيف يقدم طاعة من هو تراب على طاعة رب الأرباب؟ أم كيف يرضي التراب بسخط الملك الوهاب؟

﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾ (ص: ٥)، وفي الحديث عقوبة من خاف الناس وآثر رضاهم على رضى الله، وأن العقوبة قد تكون في الدين عياذاً بالله من ذلك فإن المصيبة في الأديان أعظم من المصيبة في الأموال والأبدان، وفيه شدة الخوف على[2] عقوبات الذنوب، لا سيما في الدين فإن كثيراً من الناس يفعل المعاصي ويستهين

---

(١) بالغين المعجمة من الشهوات.

(٢) لعلها من.

ولا يرى أثراً لعقوبتها، ولا يدري المسكين بماذا أصيب؟ فقد تكون عقوبته في قلبه كما قال تعالى: ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ (التوبة: ٧٧) اللهم إنا نعوذ برضاك من سخطك، وبعفوك من عقوبتك، وبك منك لا نحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك.



باب

قَولُ الله تَعَالَى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ (المائدة: ٢٣)(١).

الشَّرْحُ:

(١) مسألة عُبّاد القبور الذي يدعونها أو ينذرون أو يذبحون لها من دون الله ويسمون ذلك وسيلة أو محبة للصالحين بسبب تلبيس علماء السوء عليهم فما حكمهم؟

الجواب: للعلماء فيهم قولان؛ ذكرهما شيخ الإسلام في «مجموع الفتاوى» وغيرها من كتبه:

أحدها: أنهم غير معذورين وأنهم كفار يعاملون معاملة الكفار في الدنيا ومخلدون في النار في الآخرة، لأن دعوة الرسول ﷺ بلغتهم كما في «صحيح مسلم»: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة ثم لا يؤمن بالذي أرسلت به إلا دخل النار» ولا يعذرون في عدم الإيمان لأن العلم والقرآن بينهم، والله يقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾، وقد بعث الرسول وأنزل القرآن.

القول الثاني: أنهم معذورون لأن علماء السوء قد لبسوا عليهم فلا بد من بيان الحق لهم وإقامة الحجة عليهم، ولو ماتوا وهم على هذه الحال فإنهم يعاملون معاملة الكفار في الدنيا من عدم التغسيل والإرث وغيره، وفي الآخرة حكمهم حكم أهل الفترة يمتحنون يوم القيامة وكأن هذا القول هو اختيار الشيخ محمد بن عبدالوهاب فإنه قال في بعض كتبه لا نقاتل إلا من قامت عليه الحجة بعد البيان والإنذار ثم أصرّ وعاند، والراجح القول الأول وهم أنهم كفار غير معذورين لأن الحجة قد قامت عليهم، ولو دعوتهم فإنهم لا يقبلون بل هم متعلقون بما هم فيه من الشرك، وقد أخبر الله تعالى أن الكفار لا يفقهون فلا يشترط عدم الجهل فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ﴾، وقال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ فلم يشترط فقههم ولا فهمهم، والقولان ذكرهما شيخ الإسلام، وهما لأهل السنة، وذكر القول الثاني في معرض كلامه على الجهمية وأنهم يناظرون وتقام عليهم الحجة، وقد يستدل للقول الثاني بأن الرسول ﷺ دعا أهل خيبر إلى الإسلام قبل قتالهم مع أن الدعوة بلغتهم».

قال أبو السعادات: يقال: توكل بالأمر إذا ضمن القيام به، ووكلت أمري إلى فلان أي: ألجأته واعتمدت عليه فيه، ووكل فلان فلاناً إذا استكفاه أمره ثقة بكفايته، أو عجز عن القيام بأمر نفسه. انتهى.

ومراد المصنف بهذه الترجمة النص على أن التوكل فريضة يجب إخلاصه لله تعالى لأنه من أفضل العبادات وأعلى مقامات التوحيد بل لا يقوم به على وجه الكمال إلا خواص المؤمنين كما تقدم في صفة السبعين ألفاً الذي يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذب؛ ولذلك أمر به الله في غير آية من القرآن أعظم مما أمر بالوضوء والغسل من الجنابة، بل جعله شرطاً في الإيمان والإسلام ومفهوم ذلك انتفاء الإيمان والإسلام عند انتفائه كما في الآية المترجم لها وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ (يونس: ٨٤)، وقوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ (هود: ١٢٣)، وقوله: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ (المزمل: ٩)، وقوله: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾﴾ (الإسراء: ٢)، وقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ (الفرقان: ٥٨)، وقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ (التوبة: ١٢٩) وغير ذلك من الآيات، وفي الحديث: «**من سره أن يكون أقوى الناس إيماناً فليتوكل على الله**» رواه ابن أبي الدنيا، وأبو يعلى والحاكم، وفي حديث آخر: «**لو أنكم توكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً**» رواه أحمد وابن ماجه. قال الإمام أحمد: التوكل عمل القلب، وقال أبو إسماعيل الأنصاري: التوكل كلة الأمر إلى مالكه والتعويل على وكالته.

إذا تبين ذلك: فمعنى الآية المترجم لها أن موسى -عليه السلام- أمر قومه

بدخول الأرض المقدسة التي كتبها الله لهم، ولا يرتدوا على أدبارهم خوفاً من الجبارين، بل يمضوا قدماً ولا يهابونهم ولا يخشونهم، متوكلين على الله في هزيمتهم، مصدقين بصحة وعده لهم إن كانوا مؤمنين. قال ابن القيم: فجعل التوكل على الله شرطاً في الإيمان[1] فدل على انتفاء الإيمان عند انتفائه، وفي الآية الأخرى، وقال موسى: ﴿يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ (يونس: ٨٤) فجعل دليل صحة الإسلام التوكل، وقال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ (إبراهيم: ١١) فذكر اسم الإيمان ها هنا دون سائر أسمائهم دليل على استدعاء الإيمان للتوكل، وأن قوة التوكل وضعفه بحسب قوة الإيمان وضعفه، وكلما قوي إيمان العبد كان توكله أقوى، وإذا ضعف الإيمان ضعف التوكل، وإذا كان التوكل ضعيفاً فهو دليل على ضعف الإيمان ولا بد. والله تبارك وتعالى يجمع بين التوكل والعبادة، وبين التوكل والإيمان، وبين التوكل والتقوى، وبين التوكل والإسلام، وبين التوكل والهداية. فظهر أن التوكل أصل لجميع مقامات الإيمان والإحسان، ولجميع أعمال الإسلام، وأن منزلته منها كمنزلة الجسد من الرأس فكما لا يقوم الرأس إلا على البدن فكذلك لا يقوم الإيمان ومقوماته إلا على ساق التوكل.

قلت: وفي الآية دليل على أن التوكل على الله عبادة، وعلى أنه فرض، وإذا كان كذلك فصرفه لغير الله شرك. قال شيخ الإسلام: وما رجا أحد مخلوقاً أو توكل

---

(١) التوكل لا بد فيه من أمرين:

الأول: تفويض الأمر واعتماد القلب على الله.

والثاني: فعل الأسباب فلا بدّ من تفويض الأمر إلى الله واعتماد القلب مع صحة الإيمان وفعل الأسباب التي أمر الله بها من حراثة أو زراعة أو تجارة أو طلب علم أو غير ذلك فمن لم يفعل الأسباب فليس متوكلاً في الحقيقة كالصوفية.

عليه إلا خاب ظنه فيه، فإنه مشرك ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ (الحج: ٣١).

قلت: لكن التوكل على غير الله قسمان:

أحدهما: التوكل في الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله، كالذين يتوكلون على الأموات والطواغيت في رجاء مطالبهم من النصر والحفظ والرزق والشفاعة؛ فهذا شرك أكبر فإن هذه الأمور ونحوها لا يقدر عليها إلا الله تبارك وتعالى.

الثاني: التوكل في الأسباب الظاهرة العادية[1]، كمن يتوكل على أمير أو سلطان فيما جعله الله بيده من الرزق أو دفع الأذى ونحو ذلك، فهذا نوع شرك خفي، والوكالة الجائزة[2] هي توكل الإنسان في فعل مقدور عليه، ولكن ليس له أن يتوكل عليه وإن وكله بل يتوكل على الله ويعتمد عليه في تيسير ما وكله فيه كما قرره شيخ الإسلام.



(١) زيادة على رجائه الحسيّ بل يكون فيه إليه ميل قلبي، أما الرجاء في الأسباب الظاهرة بدون ميل القلب فلا بأس به.

(٢) فهي وكالة لا توكلاً وتسميتها توكلاً تسامح في اللفظ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ (الأنفال: ٢).

قال: «وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾».

قال ابن عباس في الآية: المنافقون لا يدخل قلوبهم شيء من ذكر الله عند أداء فرائضه، ولا يؤمنون بشيء من آيات الله، ولا يتوكلون على الله، ولا يصلون إذا غابوا، ولا يؤدون زكاة أموالهم، فأخبر الله أنهم ليسوا بمؤمنين، ثم وصف المؤمنين فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[1] فأدوا فرائضه، رواه ابن جرير وابن أبي حاتم، وهذه صفة المؤمن الذي إذا ذكر الله وجل قلبه. أي خاف من الله ففعل أوامره، وترك زواجره، فإن وجل القلب من الله يستلزم القيام بفعل المأمور، وترك المحظور، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ (النازعات: ٤٠)[1]، ولهذا قال السدي في قوله: ﴿إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ هو الرجل يريد أن يظلم، أو قال يهم بمعصية، فيقال له: اتق الله فيجل قلبه. رواه ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن أبي حاتم.

وقوله: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ قد استدل الصحابة والتابعون ومن تبعهم بهذه الآية وأمثالها على زيادة الإيمان ونقصانه. قال عمر بن حبيب الصحابي: إن الإيمان يزيد وينقص فقيل له: وما زيادته وما نقصانه؟ قال: إذا ذكرنا الله وخشيناه فذلك زيادته، وإذا غفلنا ونسينا وضيّعنا فذلك نقصانه. رواه ابن سعد. وقال مجاهد في هذه الآية: الإيمان يزيد وينقص[2]، وهو قول وعمل[1]. رواه

---

(١) فلولا أن الخوف يستلزم أداء الفرائض وترك المحارم لما وعد صاحبه بالجنة.

(٢) بهذا انفصلت الخوارج والمعتزلة فقالوا: الإيمان يذهب كله أو يبقى كله.

ابن أبي حاتم، وحكى الإجماع على ذلك الشافعي وأحمد وأبو عبيد[٢] وغيرهم.

وقوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾: أي يعتمدون عليه بقلوبهم مفوضين إليه أمورهم وحده لا شريك له، فلا يرجون سواه، ولا يقصدون إلا إياه، ولا يرغبون إلا إليه، يعلمون أن ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه المتصرف في الملك وحده لا شريك له، وفي الآية وصف المؤمنين حقاً بثلاث مقامات من مقامات الإحسان وهي الخوف، وزيادة الإيمان، والتوكل على الله وحده.

فإن قيل إذا كان المؤمن حقاً هو الذي فعل المأمور وترك المحظور فلماذا لم يذكر إلا خمسة أشياء؟

قيل: لأن ما ذُكر مستلزم لما تُرك، فإنه ذكر وجل القلوب إذا ذكر الله، وزيادة إيمانهم إذا تُليت عليهم آياته، مع التوكل عليه، وإقام الصلاة على الوجه المأمور به باطناً وظاهراً، والإنفاق من المال والمنافع فكان مستلزماً للباقي فإن وجل القلب عند ذكر الله يقتضي خشيته والخوف منه؛ وذلك يدعو صاحبه إلى فعل المأمور وترك المحظور، وكذلك زيادة الإيمان عند تلاوة آيات الله يقتضي زيادته علماً وعملاً، ثم لا بد من التوكل على الله فيما لا يقدر عليه إلا الله ومن طاعة الله فيما يقدر عليه وأصل ذلك الصلاة، والزكاة فمن قام بهذه الخمس كما أُمر لزم أن يأتي بسائر الواجبات، بل الصلاة نفسها إذا فعلها كما أمر فهي تنهى عن الفحشاء والمنكر. ذكر ذلك شيخ الإسلام[٣].



---

(١) بهذا دخلت الخوارج والمعتزلة مع أهل السنة فقالوا الإيمان قول وعمل.

(٢) هو القاسم بن سلام صاحب كتاب «الأموال» من شيوخ أحمد.

(٣) وكذلك الزكاة والحج والصيام إذا فعلها كما أمر دعته إلى أن يأتي بسائر الواجبات.

وَقَوْلُهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ﴾ (الأنفال: ٦٤) الآية.

قال: «وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ﴾. قال ابن القيم: أي: الله وحده كافيك وكافي أتباعك[1] فلا تحتاجون معه إلى أحد، وقيل: المعنى حسبك الله وحسبك المؤمنون. قال ابن القيم: وهذا خطأ محض لا يجوز حمل الآية عليه[2]؛ فإن الحسب والكفاية لله وحده كالتوكل والتقوى والعبادة. قال تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾ (الأنفال: ٦٢) ففرق بين الحسب والتأييد؛ فجعل الحسب له وحده، وجعل التأييد له بنصره وبعباده، وأثنى على أهل التوحيد من عباده حيث أفردوه بالحسب فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ (آل عمران: ١٧٣) ولم يقولوا حسبنا الله ورسوله، فإذا كان هذا قولهم ومدح الرب تعالى لهم بذلك فكيف يقول لرسوله: الله وأتباعك حسبك؟ وأتباعه قد أفردوا الرب تعالى بالحسب، ولم يشركوا بينه وبين رسوله، فكيف يشرك بينه وبينهم في حسب رسوله ﷺ؟ هذا من أمحل المحال وأبطل الباطل، ونظير هذا قوله سبحانه: ﴿وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ (التوبة: ٥٩) تأمل كيف جعل الإيتاء لله والرسول كما قال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ (الحشر: ٧) وجعل الحسب له، فلم يقل: وقالوا حسبنا الله ورسوله، بل جعله خالص حقه، كما قال: ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ (التوبة: ٣٩) ولم يقل وإلى رسوله؛ بل على الرغبة إليه وحده، كما

---

(١) فيكون قوله: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ عطف على الكاف في ﴿حَسۡبُكَ﴾ وهذا هو الصواب.

(٢) فيكون قوله: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ عطف على لفظ الجلالة «الله» وهذا خطأ.

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾﴾ (الشرح: ٨) فالرغبة والتوكل والإنابة والحسب لله وحده، كما أن العبادة والتقوى والسجود والنذر والحلف لا يكون إلا له سبحانه وتعالى. انتهى كلامه.

وبهذا يتبين مطابقة الآية للترجمة لأن الله تعالى أخبر أنه حسب رسوله، وحسب أتباعه، أي كافيهم وناصرهم، فنعم المولى ونعم النصير، وفي ضمن ذلك أمر لهم بإفراده تعالى بالحسب، استكفاء بكفايته تبارك وتعالى وذلك هو التوكل.



وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ (الطلاق: ٣).

قال: «وقوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾». قال ابن القيم: أي كافيه، ومن كان الله كافيه وواقيه؛ فلا مطمع فيه لعدوه، ولا يضره إلا أذى لا بد منه كالحر والبرد والجوع والعطش، وأما أن يضره بما يبلغ به مراده فلا يكون أبداً؛ وفرق بين الأذى الذي هو في الظاهر إيذاءً، وهو في الحقيقة إحسان إليه، و[١] إضرار بنفسه وبين الضرر الذي يشتفى به منه. قال بعض السلف: جعل الله لكل عمل جزاء من نفسه، وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته فقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ (الطلاق: ٣) ولم يقل: فله كذا وكذا من الأجر، كما قال في الأعمال، بل جعل نفسه سبحانه كافي عبده المتوكل عليه، وحسبه، وواقيه، فلو توكل العبد على الله حق توكله، وكادته السماوات والأرض ومن فيهن، لجعل له مخرجاً، وكفاه ونصره. انتهى.

وفي أثر رواه أحمد في «الزهد» عن وهب بن منبه قال الله عز وجل في بعض كتبه: «**بعزتي إنه من اعتصم بي فإن كادته السماوات ومن فيهن، والأرضون بمن فيهن؛ فإني أجعل له بذلك مخرجاً، ومن لم يعتصم بي؛ فإني أقطع يديه من أسباب السماء وأخسف من تحت قدميه الأرض؛ فأجعله في الهواء ثم أكله إلى نفسه، كفى بي لعبدي مآلاً، إذا كان عبدي في طاعتي أعطيه قبل أن يسألني، وأستجيب له قبل أن يدعوني، فأنا أعلم بحاجته التي ترفق به منه**»، وفي الآية دليل على فضل التوكل، وأنه أعظم الأسباب في جلب المنافع، ودفع المضار؛ لأن الله علق الجملة الأخيرة[٢]

(١) أي وإن كان.

(٢) فهو حسبه.

على الأولى[1] تعليق الجزاء على الشرط فيمتنع أن يكون وجود الشرط كعدمه؛ لأنه تعالى رتَّب الحكم على الوصف المناسب له، فعلم أن توكله هو سبب كون الله حسباً له. ذكره شيخ الإسلام.

وفيها تنبيه على القيام بالأسباب مع التوكل؛ لأنه تبارك وتعالى ذكر التقوى، ثم ذكر التوكل كما قال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ (المائدة: ١١) فجعل التقوى الذي هو قيام بالأسباب المأمور بها، فحيئنذٍ إذا توكل على الله فهو حسبه، فالتوكل بدون القيام بالأسباب المأمور بها عجز محض، وإن كان مشوباً بنوع من التوكل، فلا ينبغي للعبد أن يجعل توكله عجزاً[2]، ولا عجزه توكلاً[3]، بل يجعل توكله من جملة الأسباب التي لا يتم المقصود إلا بها كلها. ذكر معناه ابن القيم.



(١) يتوكل على الله.

(٢) بأن يترك الأسباب.

(٣) بأن يتوكل إذا عجز عن الأسباب بل يتوكل قبل فعل الأسباب وبعدها.

وَعَن ابنِ عَبَّاسٍ قَالَ: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ١٧٣﴾ قَالَـهَا إِبرَاهِيمُ ﷺ حِينَ أُلقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَـهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالَوا لَهُ: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ١٧٣﴾ (آل عمران: ١٧٣) [رَوَاهُ البُخَارِيُّ].

قوله: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾. أي: كافينا فلا نتوكل إلا عليه، كما قال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ (الطلاق: ٣). أي: كافيه. كما قال: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ (الزمر: ٣٦).

قوله: ﴿وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ١٧٣﴾. أي: نعم الموكل إليه المتوكل عليه، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ٧٨﴾ (الحج: ٧٨) فقد تضمنت هذه الكلمة العظيمة التوكل على الله والالتجاء إليه، قال ابن القيم: وهو حسب من توكل عليه، وكافي من لجأ إليه، وهو الذي يؤمن خوف الخائف، ويجير المستجير، وهو نعم المولى ونعم النصير، فمن تولاه ، واستنصر به، وتوكل عليه، وانقطع بكليته إليه، تولاه، وحفظه وحرسه، وصانه، ومن خافه واتقاه أمّنه مما يخاف ويحذر، وجلب إليه كل ما يحتاج إليه من المنافع.

قوله: «قالها إبراهيم ﷺ حين ألقي في النار». وفي رواية عن ابن عباس: «قال: كان آخر قول إبراهيم -عليه السلام- حين ألقي في النار: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ١٧٣﴾» رواه البخاري، وقد ذكر الله القصة في سورة الأنبياء -عليهم السلام-.

قوله: «وقالها محمد ﷺ» إلى آخره. وذلك بعد ما كان من أمر أحد ما كان. بلغ النبي ﷺ وأصحابه أن أبا سفيان ومن معه قد أجمعوا الكرة عليهم فخرج النبي ﷺ،

ومعه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، والزبير، وطلحة، وعبدالرحمن بن عوف، وحذيفة بن اليمان، وعبدالله بن مسعود، وأبو عبيدة بن الجراح في سبعين راكباً حتى انتهى إلى حمراء الأسد، وهي من المدينة على ثلاثة أميال -ثم ألقى الله الرعب في قلب أبي سفيان- فرجع إلى مكة، ومر به ركب من عبد القيس فقال: أين تريدون؟ فقالوا: نريد المدينة، قال: فهل أنتم مبلغون عني محمداً رسالة أرسلكم بها إليه؟ قالوا: نعم قال: فإذا وافيتموه فأخبروه أنا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم، فمر الركب برسول الله ﷺ وهو بحمراء الأسد فأخبروه بالذي قال أبو سفيان وأصحابه، فقال: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ١٧٣﴾ (آل عمران: ١٧٣) والقصة مشهورة في السير والتفاسير.

ففي هاتين القصتين فضل هذه الكلمة وأنها قول إبراهيم ومحمد -عليهما الصلاة والسلام- في الشدائد؛ ولهذا جاء في الحديث: «**إذا وقعتم في الأمر العظيم فقولوا حسبنا الله ونعم الوكيل**» رواه ابن مردويه وأن القيام بالأسباب مع التوكل على الله لا يتنافيان، بل يجب على العبد القيام بهما، كما فعل الخليلان -عليهما الصلاة والسلام-؛ ولهذا جاء في الحديث الصحيح الذي رواه الإمام أحمد وأبو داود والنسائي عن عوف بن مالك أن النبي ﷺ قضى بين رجلين فقال المقضيّ عليه لما أدبر: حسبي الله ونعم الوكيل فقال رسول الله ﷺ: «**ردوا عليّ الرجل فقال ما قلت؟**» قال: قلت: حسبي الله ونعم الوكيل، فقال رسول الله ﷺ: «**إن الله يلوم على العجز**[1]**، ولكن عليك بالكيس، فإذا غلبك أمر، فقل: حسبي الله ونعم**

(١) وهو القعود عن فعل الأسباب، فمثلاً لو فرط شخص في حقه ودينه الذي له عليه فلم يُشهد ثم أنكر من عليه الحق فطلب منه الحاكم أن يحلف فحلف فقال المقضي: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ١٧٣﴾ فهذا يلام على عجزه وإهماله بخلاف ما لو أشهد وكتب ثم ضاعت الوثيقة أو مات الشهود فقال هذه الكلمة فيكون قد قالها بحقيقتها ومعناها وفي محلها ولا يلام لعدم تفريطه.

الوكيل»، وفي الآية دليل على أن الإيمان يزيد وينقص. قال مجاهد في قوله: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا﴾ قال: الإيمان يزيد وينقص، وعلى أن ما يكرهه الإنسان قد يكون خيراً له، وأن التوكل أعظم الأسباب في حصول الخير ودفع الشر في الدنيا والآخرة.



باب

قَوْلُ الله تَعَالَى: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ (الأعراف: ٩٩).

الشَّرْحُ:

المراد بهذه الترجمة التنبيه على الجمع بين الرجاء والخوف، ولذلك ذكر بعد هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾ (الحجر: ٥٦) وهذا هو مقام الأنبياء والصديقين كما قال تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ (الإسراء: ٥٧) فابتغاء الوسيلة هو التقرب بحبه وطاعته، ثم ذكر الرجاء والخوف وهذه أركان الإيمان[1]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَـٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ (الأنبياء: ٩٠)، وقال تعالى عن إبراهيم -عليه السلام-: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ (الأنعام: ٨٠)، وقال عن شعيب: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ﴾ (الأعراف: ٨٩) فوكَّلا الأمر إلى مالكه، وقال تعالى عن الملائكة -عليهم السلام-: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ (النحل: ٥٠)، وقال النبي ﷺ: «**إني لأعلمكم بالله وأشدكم له خشية**»[2] وكلما قوي إيمان العبد ويقينه قوي خوفه ورجاؤه مطلقاً، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ

---

(١) المحبة والرجاء والخوف.

(٢) أخرجه مسلم، والذي رواه صهيب.

عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ (فاطر: ٢٨)، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ (المؤمنون: ٥٧-٦٠) قالت عائشة يا رسول الله هو الرجل يزني ويسرق ويخاف أن يعاقب؟ قال: «**لا يا بنت الصديق هو الرجل يصلي ويصوم ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه**» رواه الإمام أحمد والترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه. قال ابن القيم[1]: الخوف من أجل منازل الطريق، وخوف الخاصة أعظم من خوف العامة، وهم إليه أحوج، وهم به أليق وله ألزم؛ فإن العبد إما أن يكون مستقيماً أو مائلاً عن الاستقامة. فإن كان مائلاً عن الاستقامة فخوفه من العقوبة على ميله، ولا يصح الإيمان إلا بهذا الخوف، وهو ينشأ من ثلاثة أمور؛ **أحدها:** معرفته بالجناية وقبحها، **والثاني:** تصديق الوعيد وأن الله رتّب على المعصية عقوبتها، **الثالث:** أنه لا يعلم أنه يمنع من التوبة[2] ويحال بينه وبينها إذا ارتكب الذنب فبهذه الأمور الثلاثة يتم له الخوف، وبحسب قوتها وضعفها يكون قوة الخوف، وضعفه، هذا قبل الذنب، فإذا عمله كان خوفه أشد، وبالجملة فمن استقر في قلبه ذكر الدار الآخرة وجزائها، وذكر المعصية والتوعد عليها، وعدم الوثوق بإتيانه بالتوبة النصوح؛ هاج من قلبه من الخوف ما لا يملكه، ولا يفارقه حتى ينجو، وأما إن كان مستقيماً مع الله؛ فخوفه يكون من جريان الأنفاس لعلمه بأن الله مقلب القلوب وما من قلب إلا وهو بين إصْبَعَينِ مِنْ أصابع الرحمن عز وجل فإن شاء أن يقيمه أقامه، وإن شاء أن يزيغه أزاغه كما ثبت عن النبي ﷺ وكانت أكثر يمينه: «**لا ومقلب القلوب**» ويكفي في هذا قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ (الأنفال: ٢٤) فأي قرار لمن هذه حاله ومن أحق بالخوف منه، بل خوفه لازم له في كل حال، وإن

---

(١) هذا البحث في «طريق الهجرتين».

(٢) العبارة في «طريق الهجرتين» لعله يمنع من التوبة.

توارى عنه بغلبة حال أخرى عليه، فالخوف حشو قلبه، ولكن توارى عنه بغلبة غيره، فوجود الشيء غير العلم به، فالخوف الأول ثمرة العلم بالوعد والوعيد، وهذا الخوف ثمرة العلم بقدرة الله عز وجل وعزته وجلاله، وأنه الفعال لما يريد، وأنه المحرك للقلب المصرِّف له كيف يشاء، لا إله إلا هو العزيز الحكيم. انتهى. فهذا الخوف الثاني هو من خوف المكر.

إذا علمت هذا، فمعنى الآية المترجم لها أن الله تبارك وتعالى لما ذكر حال أهل القرى المكذبين للرسل، بيَّن أن الذي حملهم على ذلك هو الأمن من عذاب الله، وعدم الخوف منه، كما قال: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَـٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾﴾ (الأعراف: ٩٧-٩٨) ثم بيَّن أن ذلك بسبب الجهل والغرة بالله، أفأمنوا مكره فيما ابتلاهم به من السراء والضراء، بأن يكون استدراجاً، فقال: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ (الأعراف: ٩٩). أي الهالكون.

فدل على وجوب الخوف من مكر الله، قال الحسن: من وسَّع عليه فلم ير أنه يُمكر به فلا رأي له، ومن قُتِّر عليه، فلم ير أنه ينظر له فلا رأي له. وقال قتادة: بغت القوم أمر الله، وما أخذ الله قوماً قط إلا عند سلوتهم وغرتهم ونعمتهم، فلا تغتروا بالله إنه لا يغتر به إلا القوم الفاسقون. رواهما ابن أبي حاتم.

وفي الحديث: «**إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب، فإنما هو استدراج**» رواه أحمد وابن جرير وابن أبي حاتم. وقال إسماعيل بن رافع: من الأمن من مكر الله إقامة العبد على الذنب يتمنى على الله المغفرة. رواه ابن أبي حاتم.



وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾ (الحجر: ٥٦).

قال: «وقوله: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾». نبه المصنف -رحمه الله- بهذه الآية على الجمع بين الرجاء والخوف، فإذا خاف فلا يقنط من رحمة الله، بل يرجوها مع العمل الصالح كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾ (البقرة: ٢١٨) فذكر سبحانه أنهم يرجون رحمة الله مع الاجتهاد في الأعمال الصالحة فأما الرجاء مع الإصرار على المعاصي، فذاك من غرور الشيطان؛ إذا تبين ذلك فقوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْنَطُ﴾ حكاية قول إبراهيم -عليه السلام- لما بشرته الملائكة بولده إسحاق -عليه السلام- فقال: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ (الحجر: ٥٤) استبعاداً لوقوع هذا في العادة مع كبر السن منه ومن زوجته قالوا: ﴿بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ (الحجر: ٥٥) أي: الذي لا ريب فيه ولا مثنوية[١] بل هو أمر الذي ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ (يس: ٨٢) وإن بعد مثله في العادة التي أجراها فإن ذلك عليه يسير؛ إذا أراده، فلا تكن من القانطين، أي لا تيأس من رحمة الله، قال إبراهيم -عليه السلام-: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾ (الحجر: ٥٦) فأجابهم بأنه ليس بقانط، ولكن يرجو من الله الولد، وإن كان قد كَبِر[٢]، وأسنَّتْ امرأته، فإنه يعلم من قدرة الله ورحمته ما هو أبلغ من ذلك. قال السدي: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ﴾ قال:

---

(١) أي: لا استثناء.

(٢) بكسر الباء الموحدة.

من ييأس من رحمة ربه. رواه ابن أبي حاتم. ﴿إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾[1] قال: بعضهم: إلا المخطئون طريق الصواب، أو الكافرون، كقوله: ﴿لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ (يوسف: ٨٧) وفي حديث مرفوع: «العاجز[2] الراجي لرحمة الله أقرب منها من العابد القانط» رواه الحكيم الترمذي والحاكم في «تاريخه».



(١) فالضالون هم الكافرون بدليل الآية الأخرى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ فهي فسرت الضلال في الآية الأولى بأن المراد به الكفر، وهذا وإن كان من قول يعقوب إلا أن الله حكاه عنه مقراً له على ذلك والنبي ﷺ أقر ذلك ولم ينكره فدل على أن القانط كافر.

(٢) في نسخة الفاجر بدل العاجز.

وعَن ابنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُما- أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ سُئِلَ عَنِ الكَبَائِرِ؟ قَالَ: «الشِّركُ بِالله، وَاليَأسُ مِن رَوْحِ الله، وَالأَمنُ مِن مَكْرِ الله».

هذا الحديث رواه البزار وابن أبي حاتم من طريق شبيب بن بشر عن عكرمة، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان متكئاً، فدخل عليه رجل فقال: ما الكبائر؟ فقال: «**الشرك بالله**» وذكر الحديث، ورجاله ثقات إلا شبيب بن بشر فقال ابن معين: ثقة، وليّنه ابن أبي حاتم، ومثل هذا يكون حسناً[1]، وقال ابن كثير: في إسناده نظر، والأشبه أن يكون موقوفاً[2].

قوله: «**الشرك بالله**»: هو أكبر الكبائر، إذ مضمونه تنقيص رب العالمين وإلههم ومالكهم وخالقهم الذي لا إله إلا هو، وعدل غيره به، كما قال: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١﴾ (الأنعام: ١) فهو أظلم الظلم، وأقبح القبيح، ولهذا لا يُغفر إن لم يتب منه، بخلاف غيره من الذنوب، ففي مشيئة الله إن شاء غفرها، وإن شاء عذب بها.

قوله: «**واليأس من روح الله**»: أي: قطع الرجاء والأمل من الله فيما يرومه ويقصده، قال تعالى: ﴿**وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨٧**﴾ (يوسف: ٨٧) وذلك إساءة ظن بكرم الله ورحمته وجوده ومغفرته.

قوله: «**والأمن من مكر الله**»: أي: من استدراجه للعبد أو سلبه ما أعطاه من الإيمان -نعوذ بالله من غضبه- وذلك جهلٌ بالله وبقدرته، وثقة بالنفس وعُجْبٌ

---

(١) لأنه اختلف في توثيق بعض رواته، وله شواهد من الكتاب والسنة.

(٢) ولكنه وإن كان موقوفاً فله حكم المرفوع لأن مثل هذا لا يقال بالرأي، لأنه مما لا مجال للرأي فيه، وتشهد له نصوص الكتاب والسنة.

بها، واعلم أن هذا الحديث لم يُرِدْ فيه حصر الكبائر فيما ذكر[1]، بل الكبائر كثيرة، ولكن ذكر ما هو أكبرها، أو من أكبرها، ولهذا قال ابن عباس: هي إلى السبعين أقرب منها إلى السبع، رواه ابن جرير وابن أبي حاتم، وفي رواية هي إلى سبعمئة أقرب منها إلى سبع، غير أنه لا كبيرة مع استغفار[2]، ولا صغيرة مع إصرار.



(١) لأن مفهوم العدد لا يفيد الحصر.

(٢) المقرون بالتوبة.

وَعَن ابنِ مَسعُودٍ قَالَ: «أَكبَرُ الكَبَائِرِ: الإِشرَاكُ بِالله، وَالأَمنُ مِن مَكرِ الله، وَالقُنُوطُ مِن رَحمَةِ الله، وَاليَأسُ مِن رَوْحِ الله» [رَوَاهُ عَبدُالرَّزَّاقِ].

هذا الأثر رواه ابن جرير بأسانيد صحاح عن ابن مسعود، قال ابن كثير: وهو صحيح بلا شك، ورواه الطبراني أيضاً.

وقوله: «أكبر الكبائر الإشراك بالله»: أي في ربوبيته أو عبادته وهذا بالإجماع.

وقوله: «والقنوط من رحمة الله»: قال أبو السعادات: هو أشد اليأس من الشيء.

قلت: فعلى هذا يكون الفرق بينه وبين اليأس كالفرق[١] بين الاستغاثة والدعاء، فيكون القنوط من اليأس، وظاهر القرآن أن اليأس أشد لأنه حكم لأهله بالكفر، ولأهل القنوط بالضلال، وفيه التنبيه على الجمع بين الرجاء والخوف، فإذا خاف فلا يقنط ولا ييأس، وكان السلف يستحبون أن يقوى في الصحة الخوف، وفي المرض الرجاء، هذه طريقة أبي سليمان وغيره، قال: وينبغي للقلب أن يكون الغالب عليه الخوف[٢] فإذا كان الغالب عليه الرجاء فسد، فنسأل الله تعالى أن يرزقنا خشيته في الغيب والشهادة إنه على كل شيء قدير.



---

(١) أي بالعموم والخصوص، فالدعاء أعم من الاستغاثة، لأنها من المكروب خاصة، والقنوط أخص من اليأس.

(٢) فالخوف أصلح للعبد في الدنيا لأنه يحمله على العمل الصالح وترك القبائح والآثام، وأما الرجاء فهو أصلح للمريض لأنه يحمله على حسن الظن، ولا بد من الخوف والرجاء في سير العبد إلى ربه ولا بد للرجاء من عمل كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ ﴾، وكما في قوله: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ ﴾ فهم استحقوا الرحمة بالعمل.

باب
من الإيمان بالله الصبر على أقدار الله

الشَّرْحُ:

لما كان الله ببديع حكمته، ولطيف رحمته قضى أن يبتلي النوع الإنساني بالأوامر والنواهي والمصائب التي قدرها عليهم، أمرهم بالصبر على ذلك، وافترضه عليهم تسلية لهم وتقوية على ذلك، ووعدهم عليه الثواب بغير حساب كما قال: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝١٠﴾ (الزمر: ١٠) فعلى هذا يكون الصبر ثلاثة أنواع: صبر على المأمور، وصبر عن المحظور، وصبر على المقدور[(١)] ويشملها قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ (الرعد: ٢٢)، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٤٢﴾ (النحل: ٤٢) ولما كان الصبر لا يحصل إلا بالله كما قال: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ (النحل: ١٢٧) أرشد تبارك وتعالى إلى الجمع بينهما، وقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ (الطور: ٤٨) قال الإمام أحمد: ذكر الله الصبر في تسعين موضعاً، وقال النبي ﷺ: «والصبر ضياء» رواه أحمد ومسلم،

---

(١) وذكر المؤلف في هذا الباب النوع الثالث لأن الإنسان قد يجزع ولا يصبر عند المصائب، أما الأول والثاني فالكتاب كله فيها.

فائدة: إذا أصاب الإنسان مصيبة فللإنسان ثلاث حالات ودرجات؛ أحدها: أن يعتبرها مصيبة فيصبر عليها، ولكن لا ينشرح صدره للرضا بها، الثانية: أن يصبر عليها ويرضى بها لما يعلم له في ذلك من الأجر والثواب، والثالثة: أن يصبر عليها ويرضى بها ويعتبرها نعمة فيشكر الله عليها لعلمه بالثواب المترتب على ذلك، فيصبر ويرضى ويشكر عليها، والثاني يصبر ويرضى بها، والأول يصبر عليها فقط وقد لا يرضى بها بل يعتبرها مصيبة تستوجب الصبر فقط وهي درجات ثلاث في الكمال والفضل.

وقال -عليه السلام-: «ما أعطي أحد عطاءً خيراً وأوسع من الصبر» رواه البخاري ومسلم، وفي حديث آخر: «الصبر نصف الإيمان» رواه أبو نعيم والبيهقي في «الشعب» وقال عمر: وجدنا خير عيشنا بالصبر. رواه البخاري، وقال علي بن أبي طالب: ألا إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا قطع الرأس بان الجسد، ثم رفع صوته فقال: ألا لا إيمان لمن لا صبر له، والأحاديث والآثار في ذلك كثيرة واشتقاقه من صُبِر إذا حُبِس ومُنِع، فالصبر[1] حَبْس النفس عن الجزع، واللسان عن التشكي والسخط، والجوارح عن لطم الخدود وشق الجيوب ونحوهما. ذكره ابن القيم.



(١) هذا تعريف الصبر.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ (التغابن: ١١).

قال: «وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾. أول الآية: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ (التغابن: ١١): أخبر تعالى أن ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في الأنفس إلا بإذن الله، أي: بقدره وأمره كما قال في الآية الأخرى: ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾ (الحديد: ٢٢) قال ابن عباس في قوله: ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ﴾[(١)] إلا بأمر الله، يعني: من قدره ومشيئته ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ أي: ومن أصابته مصيبة فعلم أنها بقضاء الله وقدره، فصبر واحتسب واستسلم لقضاء الله جازاه الله تعالى بهداية قلبه التي هي أصل كل سعادة وخير في الدنيا والآخرة، وقد يخلف عليه أيضاً في الدنيا ما أخذه منه أو خيراً منه كما قال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ (البقرة: ١٥٥-١٥٧) قال ابن عباس: يهد قلبه اليقين فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وفي الحديث الصحيح: **«عجباً للمؤمن لا يقضي الله له قضاءً إلا كان خيراً له، إن أصابته ضراء فصبر كان خيراً له، وإن أصابته سراء فشكر كان خيراً له وليس لأحد إلا للمؤمن»**.

---

(١) إذن الله وأمر الله نوعان؛ قدري وشرعي، والمراد في هذه الآية الإذن والأمر القدري ومثل ذلك قوله تعالى في السحرة: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ أي بقضائه وقدره، ومثال الإذن الشرعي قول الله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، ومثال الأمر القدري قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾، ومثال الأمر الشرعي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ الآية.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٦٤﴾: تنبيه على أن ذلك صادر عن علمه المتضمن لحكمته، وذلك يوجب الصبر والرضى.



قَالَ عَلقَمَةُ: «هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبُهُ الْمُصِيبَةُ فَيَعلَمُ أَنَّهَا مِن عِندِ الله: فَيَرضَى وَيُسَلِّم».

هذا الأثر رواه ابن جرير وابن أبي حاتم عن علقمة وهو صحيح، وعلقمة هو ابن قيس بن عبدالله النخعي الكوفي ولد في حياة النبي ﷺ، وسمع من أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وسعد وابن مسعود وعائشة وغيرهم، وهو من كبار التابعين وأجلائهم وعلمائهم وثقاتهم. مات بعد الستين.

قوله: «هو الرجل تصيبه المصيبة» إلى آخره: هذا التفسير للإيمان المذكور في الآية تفسير باللازم وهو صحيح؛ لأن هذا لازم الإيمان الراسخ في القلب، وقريب منه تفسير سعيد بن جبير، ومن يؤمن بالله يهد قلبه يعني يسترجع يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، وفي الآية: أن الصبر سبب لهداية القلب، وأن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، وأن الأعمال من الإيمان، وفيها إثبات القدر.



وَفِي «صَحِيحِ مُسلِمٍ» عَن أَبِي هُرَيرَةَ: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «اثْنَتَانِ في النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى المَيِّتِ».

قوله: «هما»: أي الاثنتان.

قوله: «بـهم كفر». أي: هما بالناس، أي: فيهم كفر. قال شيخ الإسلام: أي هاتان الخصلتان هما كفر قائم بالناس فنفس الخصلتين كفر حيث كانتا في أعمال الكفار[(١)]، وهما قائمتان بالناس، لكن ليس من قام به شعبة من شعب الكفر يصير كافراً الكفر المطلق، حتى تقوم به حقيقة الكفر، كما أنه ليس من قام به شعبة من شعب الإيمان يصير مؤمناً حتى يقوم به أصل الإيمان، وفرق بين الكفر المعرف باللام كما في قوله: «**ليس بين العبد وبين الكفر أو الشرك إلا ترك الصلاة**[(٢)]» وبين كفر منكَّر في الإثبات.

قوله: «الطعن في النسب»: أي عيبه، ويدخل فيه أن يقال: هذا ليس ابن فلان مع ثبوت نسبه في ظاهر الشرع. ذكره بعضهم.

قوله: «والنياحة على الميت»: أي: رفع الصوت بالندب بتعديد شمائله لما في ذلك من التسخط على القدر والجزع المنافي للصبر، وذلك كقول النائحة: واعضداه، وناصراه، واكاسياه ونحو ذلك، وفيه دليل على أن الصبر واجب لأن النياحة منافية له، فإذا حَرُمت دلّ على وجوبه، وفيه أن من الكفر ما لا ينقل عن الملة.



---

(١) لكنه كفر أصغر عملي لأنه منكَّر.

(٢) فهو كفر أكبر عند المحققين ولو تركها كسلاً وتهاوناً ويدل على ذلك قوله عنها: «وعموده -أي الإسلام- الصلاة»، وقال: «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر» فأطلق، وقد ذكر الأدلة ابن القيم في رسالة «الصلاة» وذكرها غيره، وذهب الأئمة الثلاثة مالك والشافعي وأبو حنيفة ورواية عن أحمد أن كفره كفراً أصغر وهو أعظم من الزنا والشرب، والأول أصح القولين.

[وَلَـهُمَا] عَن ابنِ مَسعُودٍ مَرفُوعَاً: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الخُدُودَ، وَشَقَّ الجُيُوبَ، وَدَعَى بِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ».

قوله: «ليس منا»: هذا من نصوص الوعيد، وقد جاء عن سفيان الثوري وأحمد كراهة تأويلها ليكون أوقع في النفوس(١) وأبلغ في الزجر، وقيل: أي ليس من أهل سنتنا وطريقتنا؛ لأن الفاعل لذلك ارتكب محرماً، وترك واجباً، وليس المراد إخراجه من الإسلام بل المراد المبالغة في الردع عن الوقوع في ذلك، كما يقول الرجل لولده عند معاقبته(٢) لست مني ولست منك، فالمراد أن فاعل ذلك ليس من المؤمنين الذي قاموا بواجبات الإيمان.

قوله: «من ضرب الخدود»: قال الحافظ: خص الخد بذلك لكونه الغالب، وإلا فضرب بقية الوجه مثله.

قلت: بل ولو ضرب غير الوجه كالصدر(٣) فكما لو ضرب غير الخد فيدخل في معنى ضرب الخد إذ الكل جزع منافٍ للصبر فيحرم.

قوله: «وشق الجيوب»: جمع جيب وهو الذي يدخل فيه الرأس من الثوب، وكانوا يشقونه حزناً على الميت. قال الحافظ: والمراد إكمال فتحه إلى آخره.

قلت: الظاهر أن فتح بعضه كفتحه كله.

قوله: «ودعى بدعوى الجاهلية»: قال شيخ الإسلام: هو ندب الميت، وقال

---

(١) هذا مذهب السلف إمرارها لتكون أبلغ في الزجر ولكن في معرض الرد على الخوارج والمعتزلة يبيِّن لهم طلبة العلم أن المراد بها أن دينه ناقص وإيمانه ضعيف وليس المراد أنه يخرج عن الإسلام كما تدل على ذلك النصوص الأخرى بل هي من الكبائر ولا يخرج بها من الملة عند أهل السنة.

(٢) لعلها معاتبته.

(٣) كما تفعل الشيعة من ضربهم لصدورهم مما يدل على جزعهم وتسخطهم فهم أبعد الناس عن السنة والصواب.

غيره: هو الدعاء بالويل والثبور. وقال الحافظ: أي من النياحة ونحوها وكذا الندب به كقولهم: واجبلاه، وكذا الدعاء بالويل والثبور. وقال ابن القيم: الدعاء بدعوى الجاهلية كالدعاء إلى القبائل والعصبية للإنسان، ومثله التعصب للمذاهب والطوائف، والمشايخ وتفضيل بعض على بعض في الهوى والعصبية وكونه منتسباً إليه يدعو إلى ذلك، ويوالي عليه، ويعادي ويزن الناس به، فكل هذا من دعوى الجاهلية[1].

قلت: والصحيح أن دعوى الجاهلية يعم ذلك كله وقد جاء لعن من فعل ما في هذا الحديث عن ابن ماجه، وصححه ابن حبان عن أبي أمامة أن رسول الله ﷺ: «**لعن الخامشة وجهها، والشاقة جيبها، والداعية بالويل والثبور**» وهذا يدل على أن هذه الأمور من الكبائر لأنها مشتملة على التسخط على الرب وعدم الصبر الواجب، والإضرار بالنفس من لطم الوجه، وإتلاف المال؛ بشق الثياب وتمزيقها وذكر الميت بما ليس فيه، والدعاء بالويل والثبور والتظلم من الله تعالى وبدون هذا يثبت التحريم الشديد، فأما الكلمات اليسيرة إذا كانت صدقاً على وجه النوح والتسخط فلا تحرم، ولا تنافي الصبر الواجب. نص عليه أحمد لما رواه في «مسنده» عن أنس أن أبا بكر -رضي الله عنه- دخل على النبي ﷺ بعد وفاته فوضع فمه بين عينيه ووضع يديه على صدغيه وقال: «وانبياه واخليلاه واصفياه» وكذلك صح عن فاطمة -رضي الله عنها- أنها ندبت أباها ﷺ فقالت: «يا أبتاه أجاب رباً دعاه...» الحديث.

واعلم أن الحديث المشروح لا يدل على النهي عن البكاء أصلاً، وإنما يدل على النهي عما ذكر فيه فقط، وكذلك يدل على النهي عما في معناه كالبكاء برنّة، وحلْق الشعر، وخمْش الوجوه ونحو ذلك، أما البكاء على وجه الرحمة والرقة ونحو ذلك فيجوز، بل قال شيخ الإسلام: البكاء على الميت على وجه الرحمة حسن مستحب،

---

(١) والواجب أن يكون التفضيل بشيء من الشرع للعلماء وغيرهم.

ولا ينافي الرضى بقضاء الله، بخلاف البكاء عليه لفوات حظه منه.

قلت: ويدل لذلك قوله -عليه السلام- لما مات ابنه إبراهيم: «**تدمع العين، ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يرضي الرب وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون**» وهو في «الصحيح» وفي «الصحيحين» عن أسامة بن زيد أن رسول الله ﷺ انطلق إلى أحد بناته ولها صبي في الموت فرفع إليه الصبي ونفسه تقعقع كأنها شن ففاضت عيناه فقال سعد: ما هذا يا رسول الله؟ قال: «**هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء**».



وَعَن أَنَسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «إِذَا أَرَادَ الله بِعَبْدِهِ الخَيْرَ، عَجَّلَ لَهُ العُقُوبَةِ فِي الدُّنْيَا، وَإِذَا أَرَادَ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ، أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ، حَتَّى يُوَافِي بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ».

هذا الأثر رواه الترمذي، والحاكم، وحسَّنه الترمذي، وفي إسناده سعد بن سنان. قال الذهبي في موضع: سعد ليس حجة، وفي آخر كأنه غير صحيح. وأخرجه الطبراني، والحاكم عن عبدالله بن مغفَّل، وأخرجه ابن عدي عن أبي هريرة، والطبراني عن عمار بن ياسر وحسَّنه السيوطي.

قوله: «إذا أراد الله بعبده الخير عجَّل له العقوبة في الدنيا». قال شارح «الجامع الصغير»: أي: يصب البلاء والمصائب عليه جزاء لما فرَّط من الذنوب منه، فيخرج منها وليس عليه ذنب يوافى به يوم القيامة، كما يعلم من مقابله الآتي، ومن فعل ذلك به فقد أعظم اللطف به، لأن من حوسب بعمله عاجلاً في الدنيا خفَّ جزاؤه عليه حتى يكفر بالشوكة التي يشاكها، حتى بالقلم يسقط من الكاتب، فيكفر عن المؤمن بكل ما يلحقه في دنياه حتى يموت على طهارة من دنسه.

قلت: وفي «الصحيح»: **«لا يزال البلاء بالعبد حتى يمشي على الأرض وليس عليه خطيئة»**، وفي «المسند» وغيره من حديث أبي هريرة مرفوعاً: **«لا يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في جسده وماله وفي ولده حتى يلقى الله وما عليه خطيئة»**.

قال شيخ الإسلام: المصائب نعمة، لأنها مكفرات للذنوب، ولأنها تدعو إلى الصبر، فيثاب عليها، ولأنها تقتضي الإنابة إلى الله والذل له، والإعراض عن الخلق، إلى غير ذلك من المصالح العظيمة فنفس البلاء يكفر الله به الخطايا، ومعلوم أن هذا من أعظم النعم، ولو كان رجل من أفجر الناس فإنه لا بد أن يُخَفِّف الله عنه عذابه بمصائبه. فالمصائب رحمة ونعمة في حق عموم الخلق إلا أن

يدخل صاحبها بسببها في معاص أعظم مما كان قبل ذلك، فتكون شراً عليه من جهة ما أصابه في دينه، فإن من الناس من إذا ابتلي بفقر أو مرض أو جوع حصل له من الجزع والسخط والنفاق ومرض القلب، أو الكفر الظاهر، أو ترك بعض الواجبات وفعل بعض المحرمات ما يوجب له ضرراً في دينه بحسب ذلك.

فهذا كانت العافية خيراً له من جهة ما أورثته المصيبة، لا من جهة المصيبة، كما أن من أوجبت له المصيبة صبراً وطاعة كانت في حقه نعمة دينية، فهي بعينها فعل الرب عز وجل رحمة للخلق، والله تبارك وتعالى محمود عليها، فإن اقترن بها طاعة كان ذلك نعمة ثانية على صاحبها، وإن اقترن بها للمؤمن معصية، فهذا مما تتنوع فيه أحوال الناس كما تتنوع أحوالهم في العافية، فمن ابتلي فرزق الصبر كان الصبر عليه نعمة في دينه، وحصل له بعد ما كفر من خطاياه رحمة، وحصل له بثنائه على ربه صلاة ربه عليه حيث قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ (البقرة: ١٥٧) فحصل له غفران السيئات، ورفع الدرجات وهذا من أعظم النعم. فالصبر واجب على كل مصاب، فمن قام بالصبر الواجب حصل له ذلك. انتهى ملخصاً.

قوله: «**وإذا أراد بعبده شراً أمسك عنه**». أي: أخَّر عنه العقوبة بذنبه.

قوله: «**حتى يُوافَى به يوم القيامة**». هو بضم الياء وكسر الفاء منصوباً بحتى مبنياً للفاعل. قال العزيزي: أي: لا يجازيه بذنبه في الدنيا حتى يجيء في الآخرة مستوفى الذنوب وافيها فيستوفى ما يستحقه من العقاب.

قلت: وهذا مما يزهِّد العبد في الصحة الدائمة خوفاً من أن تكون طيباته عُجِّلَتْ له في الحياة الدنيا، والله تعالى لم يرض الدنيا لعقوبة أعدائه، كما لم يرضها لإثابة أوليائه بل جعل ثوابهم أن أسكنهم في جواره ورضي عنهم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾ (القمر: ٥٤-٥٥)

لهذا لما ذكر النبي ﷺ الأسقام قال رجل: يا رسول الله وما الأسقام؟ والله ما مرضت قط قال: «**قم عنا فلست منا**» رواه أبو داود. وهذا الجملة هي آخر الحديث فأما قوله: وقال النبي ﷺ «**إن عظم الجزاء**» إلى آخره فهو أول حديث آخر لكن لما رواهما الترمذي بإسناد واحد عن صحابي واحد جعلهما المصنف كالحديث الواحد.

وفيه ومن الفوائد: أن البلاء للمؤمن من علامات الخير خلافاً لما يظنه كثير من الناس.

وفيه: الخوف من الصحة الدائمة أن تكون علامة شر.

وفيه: تنبيه على رجاء الله وحسن الظن به فيما يقضيه لك مما تكره.

وفيه: معنى قوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ (البقرة: ٢١٦).



وَقَالَ ﷺ: «إِنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ البَلاَءِ، وَإِنَّ اللهَ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا، ابْتَلاَهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ، فَلَهُ الرِّضَى، وَمَنْ سَخِطَ، فَلَهُ السَّخَطُ». [حَسَّنَهُ التِّرمِذِيُّ].

هذا الحديث رواه الترمذي ولفظه: حدثنا قتيبة، ثنا الليث عن يزيد بن أبي حبيب، عن سعد بن سنان، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا أراد الله بعبده الخير**» الحديث الذي قبل هذا، ثم قال: وبهذا الإسناد عن النبي ﷺ قال: «**إن عظم الجزاء**» الحديث ثم قال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، ورواه ابن ماجه وصححه السيوطي، وروى الإمام أحمد عن محمود بن لبيد مرفوعاً: «**إذا أحب الله قوماً ابتلاهم فمن صبر فله الصبر ومن جزع فله الجزع**». قال المنذري: رواته ثقات.

قوله: «**إن عظم الجزاء مع عظم البلاء**»: بكسر المهملة وفتح الظاء فيهما ويجوز ضمها مع سكون الظاء أي من كان ابتلاؤه أعظم فجزاؤه أعظم، فعظمة الأجر وكثرة الثواب مع عظم البلاء كيفية وكمية جزاء وفاقاً.

قلت: ولما كان الأنبياء -عليهم السلام- أعظم الناس جزاء كانوا أشد الناس بلاء كما في حديث سعد سئل النبي ﷺ: أي الناس أشد بلاء؟ قال: «**الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان في دينه صلباً**[1] **اشتد بلاؤه وإن كان في دينه رقة ابتلي على قدر دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة**» رواه الدارمي، وابن ماجه، والترمذي وصححه.

وقد يحتج بقوله: «**إن عظم الجزاء مع عظم البلاء**» من يقول إن المصائب والأسقام يثاب عليها غير تكفير الخطايا، ورجح ابن القيم وغيره أن ثوابها تكفير الخطايا

---

(١) في رواية أحمد والدارمي: «فإن كان في دينه صلابة».

فقط إلا إن كانت سبباً لعمل صالح كالتوبة، والاستغفار والصبر والرضى، فإنه حينئذٍ يثاب على ما تولد منها كما في حديث: «**إذا سبقتْ للعبد من الله منزلة لم يبلغها -أو قال: لم ينلها- ابتلاه الله في جسده، أو في ولده، أو في ماله، ثم صبّره حتى يبلغه المنزلة التي سبقت له من الله عز وجل**» رواه أبو داود في رواية ابن داسة والبخاري في «تاريخه»، وأبو يعلى في «مسنده» وحسَّنه بعضهم. وعلى هذا فيجاب عن الأول: «**إن عظم الجزاء مع عظم البلاء**». أي: إذا صبر واحتسب.

قوله: «**وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم**». صريح في حصول الابتلاء لمن أحبه الله ولما كان الأنبياء -عليهم السلام- أفضل الأحباب كانوا أشد الناس بلاءً، وأصابهم من البلاء في الله ما لم يصب أحداً لينالوا بذلك الثواب العظيم والرضوان الأكبر وليأتسي بهم من بعدهم، ويعلموا أنهم بشر تصيبهم المحن والبلايا فلا يعبدونهم.

فإن قلت: كيف يبتلي الله أحبابه؟!

قيل: لما كان أحد لا يخلو من ذنب كان الابتلاء تطهيراً لهم كما صحت بذلك الأحاديث، وفي أثر إلهي: «**أبتليهم بالمصائب لأطهِّرهم من المعايب**» ولأنه زيادة في درجاتهم لما يحصل مع المصيبة للمؤمن من الأعمال الصالحة كما تقدم في حديث: «**إذا سبقت للعبد من الله منزلة**» الحديث، ولأن ذلك يدعو إلى التوبة فإن الله تعالى يبتلي العباد بعذاب الدنيا ليتوبوا من الذنوب كما قال تعالى: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ (الروم: ٤١) فمن رزقه الله التوبة بسبب المصيبة كان ذلك من أعظم نعم الله عليه، ولأن ذلك يحصل به دعاء الله والتضرع إليه، ولهذا ذم الله من لا يستكين لربه، ولا يتضرع عند حصول البأساء كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾ (المؤمنون: ٧٦) ودعاء الله والتضرع إليه من أعظم النعم فهذه النعمة والتي قبلها من أعظم صلاح الدين،

فإن صلاح الدين في أن يعبد الله وحده، ويتوكل عليه، وأن لا تدعو مع الله إلهاً آخر لا دعاء عبادة، ولا دعاء مسألة. فإذا حصلت لك التوبة التي مضمونها أن تعبد الله وحده، وتطيع رسله بفعل المأمور، وترك المحظور، كنت ممن يعبد الله، وإذا حصل لك الدعاء الذي هو سؤال الله حاجاتك فتسأله ما تنتفع به وتستعيذ به مما تستضر به كان هذا من أعظم نعم الله عليك، وهذا كثيراً ما يحصل بالمصائب. وإذا كانت هذه النعم في المصائب فأولى الناس بها أحبابه، فعليهم حينئذٍ أن يشكروا الله. لخصت ذلك من كلام شيخ الإسلام -رحمه الله-.

قوله: «فمن رضي فله الرضى»: أي: من رضي بما قضاه الله وقدره عليه من الابتلاء فله الرضى من الله، جزاءً وفاقاً كما قال تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ (البينة: ٨) هذا دليل على فضيلة الرضى؛ وهو أن لا يعترض على الحكم ولا يتسخطه ولا يكرهه، وقد وصّى النبي ﷺ رجلاً فقال: «**لا تتهم الله في شيء قضاه لك**» فإذا نظر المؤمن بالقضاء والقدر في حكمة الله ورحمته وأنه غير متهم في قضائه دعاه ذلك إلى الرضى. قال ابن مسعود: إن الله بقسطه وعلمه جعل الروح والفرح في اليقين والرضى، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط. وقال ابن عون: ارض بقضاء الله من عسر ويسر فإن ذلك أقل لهمك، وأبلغ فيما تطلب من أمر آخرتك، واعلم أن العبد لن يصيب حقيقة الرضى حتى يكون رضاه عند الفقر والبلاء كرضاه عند الغنى والرخاء كيف تستقضي الله في أمرك ثم تسخط إن رأيت قضاءً مخالفاً لهواك؟ ولعل ما هويت من ذلك لو وفق لك لكان فيه هلاكك، وترضى قضاءه إذا وافق هواك، وذلك لقلة علمك بالغيب، إذا كنت كذلك ما أنصفت من نفسك، ولا أصبت باب الرضى. ذكره ابن رجب قال: وهذا كلام حسن.

قوله: «ومن سخط»: هو بكسر الخاء. قال أبو السعادات[1]: السخط الكراهية

(١) ابن الأثير الجزري صاحب «النهاية».

للشيء وعدم الرضى به، أي: من سخط من أقدار الله فله السخط، أي: من الله وكفى بذلك عقوبة. قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٢٨﴾﴾ (محمد: ٢٨)، فيه دليل أن السخط من أكبر الكبائر، وقد يستدل به على إيجاب الرضى كما هو اختيار ابن عقيل، واختار القاضي عدم الوجوب ورجحه شيخ الإسلام، وابن القيم. قال شيخ الإسلام: ولم يجيء الأمر به كما جاء الأمر بالصبر. وإنما جاء الثناء على أصحابه ومدحهم قال وأما ما جاء من الأثر: «من لم يصبر على بلائي، ولم يرض بقضائي فليتخذ رباً سواي» فهذا إسرائيلي ليس يصح عن النبي ﷺ.

قلت: قد روى الطبراني في «الأوسط» معناه عن أنس بن مالك -رضي الله عنه- مرفوعاً: «**من لم يرض بقضاء الله ويؤمن بقدر الله فليلتمس إلهاً غير الله**». قال الهيثمي: فيه حزم بن أبي حزم وثقه ابن معين وضعفه جمع وبقية رجاله ثقات فإن ثبت هذا دل على وجوبه.

قال شيخ الإسلام: وأعلى من ذلك أي: من الرضى أن يشكر الله على المصيبة لما يرى من إنعام الله تعالى عليه بها. انتهى.

واعلم أنه لا تنافي بين الرضى وبين الإحساس بالألم فكثير ممن له أنين من وجع وشدة مرض قلبه مشحون من الرضى والتسليم لأمر الله.

فإن قيل: ما الفرق بين الرضى والصبر؟

فالجواب: قال طائفة من السلف منهم عمر بن عبدالعزيز، والفضيل، وأبو سليمان، وابن المبارك، وغيرهم: إن الراضي لا يتمنى غير حاله التي هو عليها بخلاف الصابر، وقال الخوَّاص: الصبر دون الرضى، الرضى أن يكون الرجل قبل نزول المصيبة راضٍ بأي ذاك كان، والصبر أن يكون بعد نزول المصيبة يصبر.

قلت: كلام الخوَّاص هذا عزْم على الرضى ليس هو الرضى فإنه -أي الرضى-

إنما يكون بعد القضاء كما في الحديث: «**وأسألك الرضى بعد القضاء**» لأن العبد قد يعزم على الرضى بالقضاء قبل وقوعه فإذا وقع انفسخت تلك العزيمة، فمن رضي بعد وقوع القضاء فهو الراضي حقيقة. قاله ابن رجب.



باب
ما جاء في الرياء[1]

وَقَوْلُ الله تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ (الكهف: ١١٠).

الشَّرْح:

قوله: «ما جاء في الرياء» أي: من الوعيد، ولما كان خلوص العمل من الشرك والرياء شرطاً في قبوله لمنافاة الشرك والرياء للتوحيد نبه المصنف على ذلك تحقيقاً للتوحيد.

والرياء: مصدر راءى يرائي مراءاة ورياء؛ وهو أن يري الناس أنه يعمل عملاً على صفة وهو يضمر في قلبه صفة أخرى، فلا اعتداد ولا ثواب إلا بما خلصت فيه النية لله تعالى. ذكره القاضي أبو بكر بمعناه، وقال الحافظ: هو مشتق من الرؤية والمراد به إظهار العبادة لقصد رؤية الناس لها فيحمد صاحبها. انتهى.

والفرق بينه وبين السمعة أن الرياء هو العمل لرؤية الناس لها، والسمعة لأجل سماعهم، فالرياء يتعلق بحاسة البصر، والسمعة بحاسة السمع، ويدخل فيه أن يخفي عمله ثم يحدِّث به الناس.

قـال: «وقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ﴾» الآية.

---

(١) الرياء قسمان:

١- شرك أكبر وهو رياء المنافقين.

٢- وشرك أصغر وهو رياء المؤمنين.

يقول تعالى لنبيه ﷺ: قل يا محمد للناس: إنما أنا بشر مثلكم أي في البشرية ولكن الله منّ عليّ وفضّلني بالرسالة وليس لي من الربوبية ولا من الإلهية شيء بل ذلك لله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾ أي: معبودكم الذي أدعوكم إلى عبادته إله واحد لا شريك له ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ أي: من كان يخاف لقاء الله يوم القيامة. قال شيخ الإسلام: أما اللقاء فقد فسره طائفة من السلف والخلف بما يتضمن المعاينة والمشاهدة بعد السلوك والسير وقالوا: إن لقاء الله يتضمن رؤيته سبحانه وتعالى وأطال في ذلك واحتج له، وقال سعيد بن جبير ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ قال: من كان يخشى البعث في الآخرة. رواه ابن أبي حاتم. ﴿فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ١١٠﴾ أي: كائنا ما كان. قال ابن القيم: كما أنه إله واحد لا إله سواه فكذلك ينبغي أن تكون العبادة له وحده لا شريك له فكما تفرّد بالإلهية يجب أن يفرد بالعبودية، فالعمل الصالح هو الخالص من الرياء المقيد بالسنة. انتهى.

وهذان ركنا[1] العمل المتقبل لا بد أن يكون صواباً خالصاً فالصواب أن يكون على السنة وإليه الإشارة بقوله: ﴿فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾ والخالص أن يخلص من الشرك الجلي والخفي وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ١١٠﴾ روى عبدالرزاق وابن أبي الدنيا في كتاب «الإخلاص» وابن أبي حاتم والحاكم عن طاوس قال: قال رجل يا نبي الله إني أقف المواقف أبتغي وجه الله وأحب أن يرى موطني فلم يرد عليه شيئاً حتى نزلت هذه الآية: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ١١٠﴾ (الكهف: ١١٠) رواه الحاكم وصححه موصولاً عن طاوس، عن ابن عباس، وفي الآية دليل على الشهادتين، وأن الله تعالى فرض

(١) ركنان أو شرطان، والمشهور أنهما شرطان.

على نبينا ﷺ أن يخبرنا بتوحيد الإلهية، وإلا فتوحيد الربوبية لم ينكره الكفار الذين كذبوه وقاتلوه. ذكره المصنف. وفيها تسمية الرياء شركاً[(١)]، وفيها أن من شروط الإيمان بالله واليوم الآخر أن لا يشرك بعبادة ربه أحداً. ففيه التصريح بأن الشرك الواقع من المشركين إنما هو في العبادة لا في الربوبية، وفيها الرد على من قال: أولئك يتشفعون بالأصنام ونحن نتشفع بصالح لأنه قال: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ فليس بعد هذا بيان افتتح الآية بذكر براءة النبي ﷺ[(٢)] الذي هو أقرب الخلق إلى الله وسيلة: أي براءته من الإلهية وختمها بقوله: أحداً.

واعلم رحمك الله أن هذه الآية لا ينتفع بها إلا من ميّز بين توحيد الربوبية وبين توحيد الإلهية تمييزاً تاماً وعرف ما عليه غالب الناس إما طواغيت ينازعون الله في توحيد الربوبية الذي لم يصل إليه شرك المشركين، وإما مصدِّق لهم تابع لهم، وإما شاك لا يدري ما أنزل الله على رسوله، ولا يميِّز بين دين الرسول ﷺ وبين دين النصارى. ذكره المصنف، وفيها أن أصل دين الرسول ﷺ الذي بعث به هو الإخلاص كما في هذه الآية، وقوله: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾﴾ (هود: ١-٢) وذلك هو دعوة الرسل من أولهم إلى آخرهم كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ (الأنبياء: ٢٥) وذلك هو الحنيفية الإبراهيمية جعلنا الله من أهلها بمنه وكرمه.



(١) يدخل الشرك بالرياء في عمومها في قوله: ﴿وَلَا يُشْرِكْ﴾ فعلى النص يعم كل شرك، و﴿أَحَدًا﴾ نكرة في سياق النفي تعم كل أحد.

(٢) في قوله: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾.

وعَن أَبِي هُرَيرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- مَرفُوعَاً: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ مَعِي فِيهِ غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ». [رَوَاهُ مُسلِمٌ].

قوله: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك». لما كان المرائي قاصدا بعمله الله تعالى وغيره، كان قد جعل الله تعالى شريكاً، فإذا كان كذلك، فالله تعالى هو الغني على الإطلاق، والشركاء بل جميع الخلق فقراء إليه بكل اعتبار، فلا يليق بكرمه وغناه التام أن يقبل العمل الذي جعل له فيه شريك، فإن كماله تبارك وتعالى وكرمه وغناه يوجب أن لا يقبل ذلك ولا يلزم من اسم التفضيل إثبات غنى للشركاء، فقد تقع المفاضلة بين الشيئين وإن كان أحدهما لا فضل فيه كقوله تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾ (النمل: ٥٩)، وقوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ (الفرقان: ٢٤).

قوله: «من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري». أي: من قصد بذلك العمل الذي يعمله لوجهي غيري من المخلوقين «**تركته وشركه**»، وفي رواية عند ابن ماجه وغيره: «**فأنا منه بريء وهو للذي أشرك**». قال الطيبي: الضمير المنصوب في «تركته» يجوز أن يرجع إلى العمل والمراد من الشرك الشريك.

قال ابن رجب: واعلم أن العمل لغير الله أقسام فتارة يكون رياءً محضاً فلا يراد به سوى مراءاة المخلوقين لغرض دنيوي، كحال المنافقين في صلاتهم كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ (النساء: ١٤٢)، وكذلك وصف الله الكفار بالرياء في قوله: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ (الأنفال: ٤٧) وهذا الرياء المحض لا يكاد يصدر من مؤمن في فرض

الصلاة والصيام، وقد يصدر في الصدقة الواجبة، أو الحج أو غيرهما من الأعمال الظاهرة أو التي يتعدى نفعها، فإن الإخلاص فيها عزيز، وهذا العمل لا يشك مسلم أنه حابط، وأن صاحبه يستحق المقت من الله والعقوبة، وتارة يكون العمل لله ويشاركه الرياء، فإن شاركه من أصله، فالنصوص الصحيحة تدل على بطلانه، ثم ذكر أحاديث تدل على ذلك، منها الحديث الذي ذكره المصنف، وحديث شداد بن أوس مرفوعاً: «**من صلى يرائي فقد أشرك، ومن صام يرائي فقد أشرك، ومن تصدق يرائي فقد أشرك، وإن الله عز وجل يقول: أنا خير قسيم لمن أشرك بي فمن أشرك بي شيئاً فإن حشده وعمله قليله وكثيره لشريكه الذي أشرك به أنا عنه غني**» رواه أحمد. وحديث الضحاك بن قيس مرفوعاً: «**إن الله عز وجل يقول: أنا خير شريك فمن أشرك معي شريكاً فهو لشريكي، يا أيها الناس أخلصوا أعمالكم لله عز وجل فإن الله لا يقبل من الأعمال إلا ما خلص له ولا تقولوا: هذا لله والرحم فإنها للرحم وليس لله منه شيء ولا تقولوا هذا لله ولوجوهكم فإنه لوجوهكم وليس لله منه شيء**» رواه البزار وابن مردويه والبيهقي بسند قال المنذري: لا بأس به، وحديث أبي أمامة الباهلي أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ، فقال يا رسول الله أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر ما له؟ فقال رسول الله ﷺ: «**لا شيء له**» فأعادها عليه ثلاث مرات يقول له رسول الله ﷺ: «**لا شيء له**»، ثم قال: «**إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً وابتغي به وجهه**» رواه أبو داود والنسائي بإسناد جيد، ثم قال: فإن خالط نية الجهاد مثلاً نية غير الرياء مثل أخذ أجرة للخدمة، أو أخذ شيء من الغنيمة أو التجارة، نقص بذلك أجر جهادهم ولم يبطل بالكلية، وفي «صحيح مسلم» عن عبدالله بن عمرو، عن النبي ﷺ: «**إن الغزاة إذا غنموا غنيمة تعجلوا ثلثي أجرهم، فإن لم يغنموا شيئاً تم لهم أجرهم**».

قلت: هذا لا يدل على أنهم غزوا لأجلها فلا يدل على ثبوت الأجر لمن غزا

يلتمس عرضاً. قال: وقد ذكرنا فيما مضى أحاديث تدل على أن من أراد بجهاده عرضاً من الدنيا أنه لا أجر له وهي محمولة على أنه لم يكن له غرض في الجهاد إلا الدنيا.

قلت: ظاهر حديث أبي هريرة أن رجلاً قال: يا رسول الله رجل يريد الجهاد وهي يبتغي عرضاً من عرض الدنيا فقال رسول الله ﷺ: «**لا أجر له**» فأعاد عليه ثلاثاً والنبي ﷺ يقول: «**لا أجر له**» رواه أبو داود. يدل على أن نية الجهاد إذا خالطها نية أجرة الخدمة(١) أو أخذ شيء من الغنيمة أو التجارة لم يكن له أجر، ويحتمل أن يكون معنى يريد الجهاد أي: يريد سفر الجهاد ولم ينو الجهاد إنما نوى عرض الدنيا. قال ابن رجب، وقال الإمام أحمد: التاجر والمستأجر والمكاري أجرهم على قدر ما يخلص من نيتهم في غزواتهم، ولا يكونون مثل من جاهد بنفسه وماله لا يخلط به غيره، وقال أيضاً: فمن يأخذ جعلاً على الجهاد إذا لم يخرج لأجل الدراهم فلا بأس، كأنه خرج لدينه، فإن أعطي شيئاً أخذه، وكذا روي عن عبدالله بن عمرو قال: إذا أجمع أحدكم على الغزو فعوّضه الله رزقاً فلا بأس بذلك وأما أن أحدكم إن أعطي درهماً غزا وإن لم يعط درهماً لم يغز فلا خير في ذلك.

قلت: هذا يدل على الفرق بين ما كانت نية الدنيا مخالطة له من أول مرة بحيث تكون هي الباعث له على العمل، أو من جملة ما يبعث عليه، كالذي يلتمس الأجر والذكر، فهذا لا أجر له وبين ما كانت النية خالصة لله من أول مرة، ثم عرض له أمر من الدنيا لا يبالي به، سواء حصل له أو لم يحصل، كالذي أجمع على الغزو سواء أعطي أو لم يعط، فهذا لا يضره ونحوه التجارة في الحج كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وعلى هذا ينزل ما روي عن مجاهد أنه قال في حج الجمّال وحج الأجير وحج التاجر: هو تام لا ينقص من أجورهم شيء أي: لأن قصدهم الأصلي كان هو الحج دون التكسب قال: وأما إن

---

(١) فيخشى على من نوى بعمله شيئاً آخر سوى الله أن يكون عمله حابطاً ولا ثواب له فيه.

كان أصل العمل لله، ثم طرأ عليه نية الرياء، فإن كان خاطراً ودفعه؛ فلا يضره بغير خلاف، وإن استرسل معه فهل يحبط عمله أم لا يضره ذلك، ويجازى على أصل نيته؟ في ذلك اختلاف بين العلماء من السلف، حكاه الإمام أحمد وابن جرير الطبري، ورجحا أن عمله لا يبطل بذلك، وأنه يُجازى بنيته الأولى، وهو مروي عن الحسن البصري وغيره. ويستدل لهذا القول بما أخرجه أبو داود في «مراسيله» عن عطاء الخراساني أن رجلاً قال: يا رسول الله إن بني سلمة كلهم يقاتل، فمنهم من يقاتل للدنيا، ومنهم من يقاتل نجدة، ومنهم من يقاتل ابتغاء وجه الله، قال: «**كلهم إذا كان أصل أمره أن تكون كلمة الله هي العليا**» وذكر ابن جرير أن هذا الاختلاف إنما هو في عمل مرتبط آخره بأوله، كالصلاة والصيام والحج، فأما ما لا ارتباط فيه، كالقراءة والذكر، وإنفاق المال ونشر العلم، فإنه ينقطع بنية الرياء الطارئة عليه، ويحتاج إلى تجديد نية. فأما إذا عمل العمل لله خالصاً، ثم ألقى الله له الثناء الحسن في قلوب المؤمنين، ففرح بفضل الله ورحمته واستبشر بذلك لم يضره.

وهذا المعنى جاء في حديث أبي ذر عن النبي ﷺ أنه سئل عن رجل يعمل العمل من الخير، يحمده الناس عليه، فقال: «**تلك عاجل بشرى المؤمن**» رواه مسلم. انتهى ملخصاً.

إذا تبيَّن هذا، فقد دلَّ الكتاب والسنة على حبوط العمل بالرياء، وجاء الوعيد بالعذاب عليه، قال الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾﴾ (هود: ١٥)، والآية بعدها، وروى مسلم في «صحيحه» حديث الثلاثة الذين هم أول من تُسعَّر بهم النار، المقاتل ليقال جرئ، والمتعلم ليقال عالم، والمتصدق ليقال جواد. فأما ما رواه البزار وابن منده والبيهقي عن معاذ بن جبل مرفوعاً: «**من عمل رياءً لا يكتب لا له، ولا عليه**» ذكره السيوطي في «الدر» ولم أقف على إسناده فما أظنه يثبت، والكتاب والسنة يدلان على خلافه، بل هو موضوع.



وَعَن أَبِي سَعِيدٍ مَرفُوعَاً: «أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ المَسِيحِ الدَّجَّالِ؟» قَالَوا: بَلَى يَا رَسُولَ الله. قَالَ: «الشِّرْكُ الخَفِيُّ، يَقُومَ الرَّجُلُ فَيُصَلِّي فَيُزَيِّنُ صَلاَتَهُ لِـما يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ». [رَوَاهُ أَحْمَدُ].

هذا الحديث رواه أحمد كما قال المصنف، ورواه ابن ماجه، وابن أبي حاتم والبيهقي، وفيه قصة، ولفظ ابن ماجه والبيهقي: خرج علينا رسول الله ﷺ، ونحن نتذاكر المسيح الدجال فقال: «**ألا أخبركم**» الحديث وفي سنده ضعف، ومعناه صحيح. وروى ابن خزيمة في «صحيحه» معناه عن محمود بن لبيد قال: خرج النبي ﷺ فقال: «**أيها الناس إياكم وشرك السرائر**» قالوا: يا رسول الله وما شرك السرائر؟ قال: «**يقوم الرجل فيصلي فيزيِّن صلاته جاهداً لما يرى من نظر الرجل إليه، فذلك شرك السرائر**».

قوله: «**عن أبي سعيد**». هو الخدري تقدمت ترجمته.

قوله: «**ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم من المسيح الدجال**». إنما كان الرياء كذلك، لخفائه وقوة الداعي إليه، وعسر التخلص منه لما يزينه الشيطان، والنفس الأمارة في قلب صاحبه.

قوله: «**قالوا: بلى**». فيه الحرص على العلم، وأن من عرض عليك أن يخبرك بما فيك فلا ينبغي لك رده، بل قابله بالقبول والتعلم.

قوله: «**قال: الشرك الخفي**». سمي الرياء شركاً خفياً؛ لأن صاحبه يظهر أن عمله لله، ويخفي في قلبه أنه لغيره، وإنما تزيَّن بإظهاره أنه لله بخلاف الشرك الجلي. وفي حديث محمود بن لبيد الذي تقدم في باب الخوف من الشرك تسميته بالشرك الأصغر. وعن شداد بن أوس قال: كنا نعد الرياء على عهد رسول الله ﷺ، الشرك الأصغر. رواه ابن أبي الدنيا في كتاب «الإخلاص»، وابن جرير في «التهذيب»

والطبراني والحاكم وصححه. فظاهره أنه من الأصغر مطلقاً وهو ظاهر قول الجمهور. وقال ابن القيم: وأما الشرك الأصغر فكيسير الرياء والتصنع للخلق والحلف بغير الله، وقول الرجل للرجل ما شاء الله وشئت، وهذا من الله ومنك، وأنا بالله وبك، ومالي إلا الله وأنت، وأنا متوكل على الله وعليك، ولولا الله وأنت لم يكن كذا وكذا، وقد يكون هذا شركاً أكبر بحسب حال قائله ومقصده. انتهى.

ففسر الشرك الأصغر باليسير من الرياء، فدل على أن كثيره أكبر[(١)]، وضد الشرك الأكبر والأصغر التوحيد والإخلاص، وهو إفراد الله تعالى بالعبادة باطناً وظاهراً كما قال تعالى: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ (الزمر: ٢-٣)، وقال تعالى: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝١١﴾ (الزمر: ١١)، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ۝١٤﴾ (الزمر: ١٤)، وقيل: الإخلاص استواء أحوال العبد في الظاهر والباطن، والرياء أن يكون ظاهره خيراً من باطنه أي: لملاحظة الخلق، والصدق في الإخلاص أن يكون باطنه أعمر من ظاهره.

قوله: «فيصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل»: فسّر الشرك الخفي بهذا أن يعمل الرجل العمل لله، لكن يزيد فيه صفة كتحسينه وتطويله ونحو ذلك لما يرى من نظر رجل فهذا هو الشرك الخفي، وهو الرياء، والحامل له على ذلك هو حب الرياسة، والجاه عند الناس. قال الطيبي: وهو من أضر غوائل النفس، وبواطن مكائدها، يبتلى به العلماء والعُبَّاد، والمشمِّرون عن ساق الجد لسلوك طريق الآخرة، فإنهم مهما قهروا أنفسهم، وفطموها عن الشهوات، وصانوها عن الشبهات؛ عجزت نفوسهم عن الطمع في المعاصي الظاهرة الواقعة على الجوارح فطلبت الاستراحة إلى التظاهر بالخير، وإظهار العلم والعمل، فوجدت مخلصاً من

---

(١) الظاهر أن مراد ابن القيم -رحمه الله- التحرز من رياء المنافقين لأنه شرك أكبر. (شيخنا).

مشقة المجاهدة إلى لذة القبول عند الخلق ولم يقتنع باطلاع الخالق تبارك وتعالى، وفرحت بحمد الناس، ولم تقنع بحمد الله وحده، فأحبّت مدحهم، وتبركهم بمشاهدته وخدمته وإكرامه وتقديمه في المحافل فأصابت النفس في ذلك أعظم اللذات، وأعظم الشهوات وهو يظن أن حياته بالله تعالى وبعباداته، وإنما حياته هذه الشهوة الخفية التي تعمى عن دركها العقول النافذة، قد أثبت اسمه عند الله من المنافقين، وهو يظن أنه عند الله من عباده المقربين وهذه مكيدة للنفس لا يسلم منها إلا الصديقون، ولذلك قيل آخر ما يخرج من رؤوس الصديقين حب الرياسة. انتهى كلامه[1].

وفي الحديث من الفوائد شفقته ﷺ على أمته ونصحه لهم، وأن الرياء أخوف على الصالحين من فتنة الدجال، والحذر من الرياء ومن الشرك الأكبر، إذ كان ﷺ يخاف الرياء على أصحابه مع علمهم وفضلهم، فغيرهم أولى بالخوف[2].



(١) كلام الطيبي كلام جيد، ولكن على الإنسان الضراعة إلى اللهّ والالتجاء إليه وسؤاله العافية والإخلاص في الأعمال والقبول والعمل الصالح والاستعاذة به من الشرك الخفي والجلي.

(٢) أي عليه من الشرك الأصغر والأكبر.

باب
من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا[1]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ (هود: ١٥-١٦).

الشَّرْحُ:

قد ظن بعض الناس أن هذا الباب داخل في الرياء، وأن هذا مجرد تكرير فأخطأ، بل المراد بهذا أن يعمل الإنسان عملاً صالحاً يريد به الدنيا كالذي يجاهد للقطيفة والخميلة، ونحو ذلك، ولهذا سماه النبي ﷺ عبداً لذلك بخلاف المرائي فإنه إنما يعمل ليراه الناس ويعظموه، والذي يعمل لأجل الدراهم والقطيفة ونحو ذلك أعقل من المرائي؛ لأن ذلك عمل الدنيا يصيبها والمرائي عمل لأجل المدح والجلالة في أعين الناس، وكلاهما خاسر نعوذ بالله من موجبات غضبه، وأليم عقابه.

قال: «وقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا﴾» الآية.

---

(١) وهؤلاء على طبقتين:

الأولى: المنافقون الذين أسلموا لأجل الدنيا فهؤلاء أشركوا شركاً أكبر.

الثانية: مؤمنون مصدقون عملوا عملاً صالحاً أرادوا به الدنيا فهؤلاء أشركوا شركاً أصغر (شيخنا عبدالعزيز).

فالخلاصة أن إرادة الإنسان بعمله الدنيا قسمان:

١- شرك أكبر وهو ما صدر من المنافقين الذين أسلموا لأجل الدنيا.

٢- شرك أصغر وهو ما صدر من المؤمنين ممن يعمل عملاً صالحاً لأجل الدنيا.

قال ابن عباس: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي: ثوابها، أي: مآلها وزينتها نوف إليهم: نوفر لهم ثواب أعمالهم بالصحة والسرور في الأهل والمال والولد، وهم فيها لا يبخسون لا ينقصون، ثم نسختها ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ (الإسراء: ١٨)[1]، الآية رواه النحاس في «ناسخه»، وقوله: ثم نسختها أي: قيدتها أو خصصتها، فإن السلف كانوا يسمون التقييد والتخصيص نسخاً، وإلا فالآية محكمة، وقال الضحاك: من عمل صالحاً من أهل الإيمان من غير تقوى؛ عجل له ثواب عمله في الدنيا، واختاره الفراء. قال ابن القيم: وهذا القول أرجح ومعنى الآية على هذا: من كان يريد بعمله الحياة الدنيا وزينتها، وقالت طائفة: هذه الآية في حق الكفار بدليل قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾ (هود: ١٦) أي: أنهم لم يعملوا إلا للحياة الدنيا وزينتها ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا﴾ قال بعض المفسرين: أي وحبط في الآخرة، ما صنعوه أو صنيعهم يعني: لم يكن لهم ثواب لأنهم لم يريدوا به الآخرة؛ إنما أرادوا به الدنيا، وقد وفى إليهم ما أرادوا ﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝١٦﴾ (الأعراف: ١٣٩) أي: كان عمله في نفسه باطلاً؛ لأنه لم يعمل لوجه صحيح، والعمل الباطل لا ثواب له. انتهى.

فإن قيل: الآية على القول الأول تقتضي تخليد المؤمن من المريد بعمله الدنيا في النار.

قيل: إن الله سبحانه ذكر جزاء من يريد بعمله الحياة الدنيا وزينتها، وهو النار، وأخبر بحبوط عمله وبطلانه، فإذا أحبط ما ينجو به وبطل؛ لم يبق معه ما ينجيه، فإن كان معه إيمان لم يرد به الحياة الدنيا وزينتها، بل أراد به الله والدار الآخرة، لم

---

(١) وآخر الآية: ﴿وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ أي عمل لها عملها مع الإيمان، ففيه اشتراط العمل مع الإيمان.

يدخل هذا الإيمان في العمل الذي حبط وبطل ونجاه هذا الإيمان من الخلود في النار، وإن دخلها بحبوط عمله الذي به النجاة المطلقة فالإيمان إيمانان؛ إيمان يمنع دخول النار، وهو الإيمان[1] الباعث على أن تكون الأعمال لله وحده يبتغى بها وجهه وثوابه، وإيمان يمنع الخلود في النار[2]، فإن كان مع المرائي شيء منه، وإلا كان من أهل الخلود، فالآية لها حكم نظائرها من آيات الوعيد. ذكره ابن القيم، وقد سئل شيخ الإسلام المصنف عن معنى هذه الآية فأجاب بما مخلصه: ذكر عن السلف من أهل العلم فيها أنواع مما يفعله الناس اليوم ولا يعرفون معناه.

فمن ذلك العمل الصالح الذي يفعله كثير من الناس ابتغاء وجه الله من صدقة وصلاة وإحسان إلى الناس، وترك ظلم، ونحو ذلك مما يفعله الإنسان أو يتركه خالصاً لله، لكنه لا يريد ثوابه في الآخرة، إنما يريد أن يجازيه الله بحفظ ماله وتنميته أو حفظه أهله وعياله أو إدامة النعم عليهم، ولا همة له في طلب الجنة، والهرب من النار، فهذا يعطى ثواب عمله في الدنيا وليس له في الآخرة نصيب. وهذا النوع ذكره ابن عباس.

النوع الثاني: وهو أكبر من الأول وأخوف، وهو الذي ذكر مجاهد في الآية أنها نزلت فيه، وهو أن يعمل أعمالاً صالحة، ونيته رياء الناس لا طلب ثواب الآخرة.

النوع الثالث: أن يعمل أعمالاً صالحة يقصد بها مالاً مثل أن يحج لمال يأخذه، لا لله، أو يهاجر لدنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها، أو يجاهد لأجل المغنم، فقد ذكر أيضاً هذا النوع في تفسير هذه الآية وكما يتعلم الرجل لأجل مدرسة أهله أو مكسبهم أو رياستهم، أو يتعلم القرآن ويواظب على الصلاة لأجل وظيفة المسجد، كما هو واقع كثيراً، وهؤلاء أعقل من الذين قبلهم، لأنهم عملوا لمصلحة

---

(١) وهو الإيمان الكامل الذي يستلزم أداء الفرائض وترك المحارم.

(٢) وهو الإيمان الناقص الضعيف الذي قد يترك صاحبه بعض الواجبات وقد يفعل بعض المحرمات.

يحصِّلونها، والذين قبلهم عملوا من أجل المدح والجلالة في أعين الناس ولا يحصل لهم طائل، والنوع الأول أعقل من هؤلاء لأنهم عملوا لله وحده لا شريك له، لكن لم يطلبوا منه الخير الكثير الدائم وهو الجنة، ولم يهربوا من الشر العظيم وهو النار.

النوع الرابع: أن يعمل بطاعة الله مخلصاً في ذلك لله وحده لا شريك له، لكنه على عمل يكفّره كفراً يخرجه عن الإسلام[(١)] مثل اليهود والنصارى إذ عبدوا الله أو تصدقوا أو صاموا ابتغاء وجه الله والدار الآخرة، ومثل كثير من هذه الأمة الذين فيهم كفر أو شرك أكبر يخرجهم من الإسلام بالكلية إذ أطاعوا الله طاعة خالصة يريدون بها ثواب الله في الدار الآخرة، لكنهم على أعمال تخرجهم من الإسلام وتمنع قبول أعمالهم فهذا النوع أيضاً قد ذُكر في هذه الآية عن أنس بن مالك[(٢)] وغيره، وكان السلف يخافون منها، قال بعضهم: لو أعلم أن الله تقبل مني سجدة واحدة لتمنيت الموت؛ لأن الله يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ[(٣)]﴾ (المائدة: ٢٧)، ثم قال: بقي أن يقال: إذا عمل الرجل الصلوات الخمس والزكاة والصوم والحج ابتغاء وجه الله طالباً ثواب الآخرة، ثم بعد ذلك عمل أعمالاً قاصداً بها الدنيا مثل أن يحج فرضه لله، ثم يحج بعده لأجل الدنيا، كما هو واقع؛ فهو لما غلب عليه منهما، وقد قال بعضهم: القرآن كثيراً ما يذكر أهل الجنة الخُلَّص، وأهل النار الخُلَّص،

(١) هذا النوع قد يقال إنه لا يدخل في العمل للدنيا لأنهم عملوا لله إلا أنهم فعلوا ناقضاً من نواقض الإسلام أفسد عملهم لكن قد يقال إن هذا الناقض للإسلام هو من أجل الدنيا فالذي حمل اليهود على الكفر وعدم الإيمان بمحمد ﷺ هو لأجل أن لا ينفي لهم رياستهم ومناصبهم ومآكلهم في الدنيا.

(٢) روى ابن جرير في «تفسيره» وابن أبي حاتم في «تفسيره» وفي «العلل» وحسنه أبو حاتم عن أنس -رضي الله عنه- في قوله ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ قال: نزلت في اليهود والنصارى.

(٣) هذا من باب شدة الخوف والحذر من الدنيا أن يعمل لها.

ويسكت عن صاحب الشائبتين وهو هذا وأمثاله. انتهى.

وقد أجاد وأفاد -رحمه الله-، وفي الآية من الفوائد أن الشرك محبط للأعمال، وإن إرادة الدنيا وزينتها بالعمل كذلك، وأن الله يجازي الكافر بحسناته، وكذلك طالب الدنيا ثم يفضي إلى الآخرة وليس له حسنة، الخامسة شدة الوعيد على ذلك، السادسة، الفرق بين الحبوط والبطلان.



وفي «الصَّحِيحِ» عَن أَبِي هُرَيرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَتَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ، وَتَعِسَ عَبْدُ الخَمِيصَةِ، تَعِسَ عَبدُ الخَمِيلَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلاَ انْتَقَشَ، طُوبَى لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ الله، أَشْعَثَ رَأْسُهُ، مُغْبَرَّةً قَدَمَاهُ، إِنْ كَانَ فِي الحِرَاسَةِ، كَانَ فِي الحِرَاسَةِ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ، كَانَ فِي السَّاقَةِ، إِنِ اسْتَأْذَنَ، لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ، وَإِنْ شَفَعَ، لَمْ يُشَفَّعْ».

قوله: «في الصحيح»: أي «صحيح البخاري».

قوله: «تعس عبد الدينار»: هو بكسر العين، ويجوز الفتح أي: سقط، والمراد هنا: هلك. قاله الحافظ. وقال في موضع آخر: وهو ضد سعد أي: شقي، وقيل معنى التعس: الكُبَّة على الوجه. قال أبو السعادات: يقال: تعس يتعس، إذا عثر وانكب لوجهه، وهو دعاء عليه بالهلاك.

قوله: «تعس عبد الخميصة»: قال أبو السعادات: هو ثوب خز أو صوف معلم وقيل، لا تسمى خميصة إلا أن تكون سوداء معلمة، وكانت من لباس الناس قديماً، وجمعها الخمائص، والخميلة بفتح الخاء المعجمة. قال أبو السعادات: الخميل والخميلة: القطيفة، وهي ثوب له خمل من أي شيء كان، وقيل: الخميل الأسود من الثياب.

قوله: «تعس وانتكس»: قال الحافظ: هو بالمهملة: أي عاوده المرض. وقال أبو السعادات: أي: انقلب على رأسه، وهو دعاء عليه بالخيبة؛ لأن من انتكس في أمره فقد خاب وخسر، وقال الطيبي: وفيه الترقي بالدعاء عليه؛ لأنه إذا تعس انكب على وجهه، فإذا انتكس انقلب على رأسه بعد أن سقط.

قوله: «وإذا شيك»: أي: أصابته شوكة **«فلا انتقش»**: قال أبو السعادات: أي

إذا شاكته شوكة فلا يقدر على انتقاشها، وهو إخراجها بالمنقاش، وقال الحافظ: أي: إذا دخلت فيه شوكة لم يجد من يخرجها بالمنقاش، قال: وفي الدعاء عليه بذلك إشارة إلى عكس مقصوده؛ لأن من عثر فدخلت في رجله الشوكة فلم يجد من يخرجها يصير عاجزاً عن السعي والحركة في تحصيل مصالح الدنيا. وقال الطيبي: المعنى إنه إذا وقع في البلاء لا يترحم عليه، فإن من وقع في البلاء إذا ترحم له الناس ربما هان الخطب عليه، ويتسلى بعض التسلي، وهؤلاء بخلافه، بل يزيد غيظهم بفرح الأعداء أو شماتتهم.

فإن قيل: لم سمّاه النبي ﷺ عبد الدينار والدرهم؟

قيل: لما كان ذلك هو مقصوده ومطلوبه الذي عمل له، وسعى في تحصيله بكل ممكن حتى صارت نيته مقصورة عليه يغضب ويرضى له صار عبداً له. قال شيخ الإسلام: فسماه النبي ﷺ عبدالدينار والدرهم، وعبد القطيفة، وعبدالخميصة، وذكر فيها ما هو دعاء وخبر وهو قوله: «**تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش**» وهذا حال من أصابه شر لم يخرج منه ولم يفلح لكونه تعس وانتكس فلا نال المطلوب، ولا خلص من المكروه، وهذه حال من عبد المال، وقد وصف ذلك بأنه إن أُعطي رضي وإن مُنع سخط كما قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَـٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾﴾ (التوبة: ٥٨) فرضاهم لغير الله، وسخطهم لغير الله[1] وهكذا حال من كان متعلقاً برئاسة أو بصورة، أو نحو ذلك من أهواء نفسه إن حصل له رضي، وإن لم يحصل له

---

(١) وهذا دليل على ضعف الإيمان لما قال تعالى عن ضعيف الإيمان: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ فهو إن حصل له بعد دخوله في الدين مال وسلمت إبله ونما ماله قال هذا دين طيب، وإن نقص ماله أو ضاعت إبله أو هلكت قال هذا دين سوء فارتدّ عن دينه.

سخط، فهذا عبد ما يهواه من ذلك، وهو رقيق له، إذ الرق والعبودية في الحقيقة هو رق القلب وعبوديته، فما استرق القلب واستعبده، فهو عبده إلى أن قال: وهكذا أيضاً طالب المال فإن ذلك يسعبده ويسترقه.

وهذه الأمور نوعان، فمنها: ما يحتاج إليه العبد كما يحتاج إلى طعامه وشربه ومنكحه ومسكنه ونحو ذلك، فهذا يطلبه من الله ويرغب إليه فيه فيكون المال عنده، يستعمله في حاجته بمنزلة حماره الذي يركبه، وبساطه الذي يجلس عليه من غير أن يستعبدوه فيكون هلوعاً. ومنها: ما لا يحتاج إليه العبد، فهذه ينبغي أن لا يعلق قلبه بها، فإذا تعلق قلبه بها، صار مستعبداً لها وربما صار مستعبداً معتمداً على غير الله فيها، فلا يبقى معه حقيقة العبودية لله، ولا حقيقة التوكل عليه، بل فيه شعبة من العبادة لغير الله، وشعبة من التوكل على غير الله وهذا من أحق الناس بقوله ﷺ: «**تعس عبد الدرهم، تعس عبد الدينار وتعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميلة**» وهذا هو عبد لهذه الأمور، ولو طلبها من الله فإن الله إذا أعطاه إياه رضي، وإن منعه إياها سخط. وإنما عبد الله من يرضيه ما يرضي الله، ويسخط ما يسخط الله، ويحب ما أحب الله ورسوله، ويبغض ما أبغض الله ورسوله، ويوالي أولياء الله، ويعادي أعداء الله فهذا الذي استكمل الإيمان. انتهى ملخصاً.

قوله: «طوبى لعبد». قال أبو السعادات: طوبى اسم الجنة، وقيل: هي شجرة فيها. قلت: قد روى ابن وهب عن عمرو بن الحارث أن دراجاً حدثه أن أبا الهيثم حدثه عن أبي سعيد في حديث فقال رجل: يا رسول الله وما طوبى؟ قال: «**شجرة في الجنة مسيرة مئة سنة ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها**» رواه حرملة عنه، ورواه أحمد في «مسنده» من حديث عتبة بن عبد السلمي جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فسأله عن الحوض وذكر الجنة، ثم قال الأعرابي وفيها فاكهة، قال: «**نعم وفيها شجرة تدعى طوبى**» الحديث.

قال الزجاج: في قوله: «**طوبى لهم**» ومعناه: العيش الطيب، وقال ابن الأنباري الحال المستطابة لهم لأنه فعلى من الطيب وقيل: معناه هنيئاً بطيب العيش لهم، وهذه الأقوال ترجع إلى قول واحد(١).

قوله: «**آخذ بعنان فرسه في سبيل الله**»: أي: في طريق الجهاد.

قوله: «**أشعث رأسه**» هو بنصب أشعث صفة لعبد لأنه غير مصروف للصفة على وزن الفعل، ورأسه مرفوع على الفاعلية لأشعث وهو مغبر الرأس، وفيه فضل إصابة الغبار في سبيل الله.

وقوله: «**مغبرة قدماه**»: هو كأشعث في الإعراب والمراد به كثرة الغبار له في سبيل الله لكثرة جهاده ومصابرته.

قوله: «**إن كان في الحراسة**»: قال بعضهم: هو بكسر الحاء أي: حماية الجيش ومحافظتهم عن أن يهجم عليهم عدوهم.

قوله: «**كان في الحراسة**»: أي: امتثل غير مقصر فيها بالنوم والغفلة ونحوهما(٢).

قوله: «**وإن كان في الساقة كان في الساقة**»: أي: إن جعل في مؤخرة الجيش صار فيها ولزمها. وقال ابن الجوزي: المعنى أنه خامل الذكر لا يقصد السمو فأي موضع اتفق له كان فيه، وقال الخِلْخَالي: المعنى ائتماره لما أُمر وإقامته حيث أُقيم لا يفقد من مكانه، وإنما ذكر الحراسة والساقة لأنهما أشدُّ مشقة وأكثر آفة.

قلت: وفيه فضيلة الحرس في سبيل الله.

قوله: «**إن استأذن لم يؤذن له**»: أي إن استأذن على الأمراء ونحوهم لم يأذنوا

---

(١) وهو أن حالهم مستطاب وعيشهم طيب في دار طيبة وهي الجنة جزاء لهم على أقوالهم الطيبة وأفعالهم الطيبة في الدنيا.

(٢) أي فيها كينونة حقيقية بالامتثال والانتباه وعدم الغفلة.

له، لأنه ليس بذي جاه ولا يقصد بعمله الدنيا فيطلبها منهم، ويتردد إليهم لأجلها بل هو مخلص لله.

قوله: «**وإن شفع**»: بفتح أوله وثانيه مبني للفاعل، ويُشفَّع بتشديد الفاء، مبني للمفعول، والمراد والله أعلم أنه لا يشفع عند الملوك ونحوهم لعدم جاهه عندهم وعلى تقدير شفاعته إن شفع لم يُشفّع بل يردّون شفاعته. قال بعضهم: قيل: إن هذا إشارةٌ إلى عدم التفاته إلى الدنيا وأربابها بحيث لا يبتغي مالاً ولا جاهاً عند الناس، بل يكون عند الله وجيهاً ولم يقبل الناس شفاعته(١) ويكون عند الله شفيعاً مشفعاً، كما في الحديث الذي رواه أحمد ومسلم عن أبي هريرة مرفوعاً: «**رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره**»، وقال الحافظ: فيه ترك حب الرئاسة والشهرة، وفضل الخمول والتواضع.

قلت: وفيه أن هذه الأمور ونحوها لا تكون لهوان المؤمن على الله بل لكرامته، وفيه الثناء على المجاهد الموصوف بتلك الصفات. قاله المصنف.



(١) ولا يدخل في ذلك ما إذا قصد بشفاعته الإحسان إلى الناس ودفع الظلم وتخليص المظلوم وتخفيف الشر ما استطاع، فإذا كان له جاه وشفاعة ويؤذن له لأجل هذه الأمور لا لأجل الدنيا أو الشهرة أو المنصب والجاه فهذا ليس مذموماً بل هذا خير مع ما ادخر الله له في الآخرة من الكرامة فيكون حصل على خير الدنيا والآخرة.

باب[١]

من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله، أو تحليل ما حرمه الله فقد اتخذهم أرباباً من دون الله

الشَّرْح:

لما كانت الطاعة من أنواع العبادة بل هي العبادة فإنها طاعة الله بامتثال ما أمر به على ألسنة رسله -عليهم السلام- نبه المصنف -رحمه الله تعالى- بهذه الترجمة على وجوب اختصاص الخالق تبارك وتعالى بها، وأنه لا يطاع أحد من الخلق إلا حيث كانت طاعته مندرجة تحت طاعة الله وإلا فلا تجب طاعة أحد من الخلق استقلالاً. والمقصود هنا الطاعة الخاصة في تحريم الحلال أو تحليل الحرام[٢]، فمن أطاع مخلوقاً في ذلك غير الرسول ﷺ فإنه لا ينطق عن الهوى فهو مشرك كما بينه الله تعالى في قوله: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ ﴾[٣] أي: علماءهم ﴿أَرْبَابًا

---

(١) هذه الترجمة عظيمة وهي من أعظم تراجم الكتاب والمراد فيها أن تطيعه في التحليل والتحريم، أما من أطاعه في المعصية كقتل إنسان أو شرب واعتقاده بأنه محرم، لكن أطاعه خوفاً منه أو رجاءً له في حصول دنيا كعطية مثلاً فهو عاصٍ أو فاسق وكفره أصغر ولا يكفر كفراً أكبر فلا بد من الفرق بين الأمرين.

(٢) وينبغي أن يعلم أن هذه الآية: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا ﴾ الآية، وآية: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ والمراد بهما إطاعتهم في تحليل الحرام أو تحريم الحلال ديناً وقربةً فإنه قد أشرك في الربوبية وجعلهم مشرّعين للأحكام، أما إذا أطاعهم في المعصية أو حكم حاكم بغير ما أنزل الله مع اعترافه بأنه عاصٍ ومخطئ وإنما فعل ذلك لحظ نفسه من مصلحة أو رئاسة أو غيرهما فإنه يكون عاصياً وكفره أصغر ولا يكفر الكفر الذي يخرج به من الإسلام.

(٣) بأن يستحل ذلك ويعتقد حله.

مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ (التوبة: ٣١) وفسرها النبي ﷺ بطاعتهم في تحريم الحلال وتحليل الحرام كما سيأتي في حديث عدي.

فإن قيل: قد قال الله تعالى: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ﴾ (النساء: ٥٩) قيل: هم العلماء، وقيل: هم الأمراء، وهما روايتان عن أحمد.

قال ابن القيم: والتحقيق بأن الآية تعم الطائفتين.

قيل: إنما تجب طاعتهم إذا أمروا بطاعة الله وطاعة رسوله، فكان العلماء مبلغين لأمر الله وأمر رسوله والأمراء منفذين له فحينئذٍ تجب طاعتهم تبعاً لطاعة الله ورسوله كما قال ﷺ: «**لا طاعة لمخلوق في معصية، إنما الطاعة في المعروف**»، وقال: «**على المرء المسلم السمع والطاعة ما لم يؤمر بمعصية فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة**» حديثان صحيحان فليس في هذه الآية ما يخالف آية براءة.



وَقَالَ ابنُ عَبَّاسٍ: «يُوشِكُ أَن تَنزِلَ عَلَيكُم حِجَارَةٌ مِنَ السَّمَاءِ، أَقُولُ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ، وَتَقُولُونَ: قَالَ أَبُو بَكرٍ وَعُمَرُ؟».

قوله: «يوشك»: بضم أوله وكسر الشين المعجمة. قال أبو السعادات:أي: يقرُب ويدنو ويسرع، وهذا الكلام قاله ابن عباس لمن ناظره في متعة الحج، وكان ابن عباس يأمر بها فاحتج عليه المناظر بنهي أبي بكر وعمر[(١)] عنها: أي هما أعلم منك وأحق بالاتباع فقال: هذا الكلام الصادر عن محض الإيمان وتجريد المتابعة للرسول ﷺ وإن خالفه من خالفه كائناً من كان قال الشافعي: أجمع العلماء على أن من استبانت له سنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد[(٢)] فإذا كان هذا كلام ابن عباس لمن عارضه بأبي بكر وعمر وهما هما فماذا تظنه يقول لمن يعارض سنن الرسول ﷺ بإمامه وصاحب مذهبه الذي ينتسب إليه؟ ويجعل قوله عياراً على الكتاب والسنة فما وافقه قبله وما خالفه رده، أو تأوله فالله المستعان، وما أحسن ما قال بعض المتأخرين:

فإن جاءهم فيه الدليل موافقا ... لما كان للآباء إليه ذهاب

رضوه وإلا قيل: هذا مؤول ... ويركب للتأويل فيه صعاب

(١) وكان أبو بكر وعمر وعثمان ينهون عن المتعة في الحج ليكثر العُمّار والزُّوَّار للبيت في غير وقت الحج وتأولوا أن أمر النبي ﷺ بالمتعة كان لإبطال ما يعتقده أهل الجاهلية من أن المتعة في الحج من أفجر الفجور وبعد ما استقر ذلك وعُرف فإن الإفراد أفضل حتى يأتي العُمّار والزُّوَّار في غير وقت الحج، وكان ابن عباس يفتي بالمتعة عملاً بأمر الرسول والصواب مع ابن عباس وأما فتوى الخلفاء الثلاثة فغايته أنه اجتهاد منهم، وهذه هي وصية الأئمة كلهم لأتباعهم مالك والشافعي وأحمد وأبو حنيفة.

(٢) وقد سئل ابن عمر عن مسألة فقال قال رسول الله ﷺ كذا فسأله مرة أخرى فقال له مثل مقالته الأولى ثم سأله الثالثة كذلك فأجابه فقال السائل أرأيت إن كان عمر يقول بخلاف ذلك فقال ابن عمر: هل أنت مأمور باتباع عمر أو باتباع رسول الله ﷺ فانقطع السائل وسكت.

ولا ريب أن هذا داخل في قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ (التوبة: ٣١) الآية.



وَقَالَ الإِمَامُ أَحْمَدُ، عَجِبتُ لِقَومٍ عَرَفُوا الإِسنَادَ وَصِحَّتَهُ، وَيَذهَبُونَ إِلَى رَأيِ سُفيَانَ. والله تَعَالَى يَقُولُ: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ (النور: ٦٣)، أَتَدرِي مَا الفِتنَةُ؟ الفِتنَةُ: الشِّركُ، لَعَلَّهُ إِذَا رَدَّ بَعضَ قَولِهُ أَن يَقَعَ فِي قَلبِهِ شَيءٌ مِن الزَّيغِ فَيَهلَكَ.

هذا الكلام من أحمد رواه عنه الفضل بن زياد وأبو طالب، وقال الفضل عن أحمد: نظرت في المصحف فوجدت طاعة الرسول في ثلاثة وثلاثين موضعاً، ثم جعل يتلو ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ الآية وجعل يكررها ويقول: وما الفتنة إلا الشرك لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيزيغ قلبه؛ فيهلكه وجعل يتلو هذه الآية: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ (النساء: ٦٥)، وقال أبو طالب عن أحمد وقيل له: إن قوماً يدعون الحديث ويذهبون إلى رأي سفيان، فقال: عجبت لقوم سمعوا الحديث وعرفوا الإسناد وصحته يدعونه ويذهبون إلى رأي سفيان[1] وغيره، قال الله: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ (النور: ٦٣) وتدري ما الفتنة؟! الكفر قال الله تعالى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ (البقرة: ٢١٧) فيدعون الحديث عن رسول الله ﷺ وتغلبهم أهواؤهم إلى الرأي. ذكر ذلك شيخ الإسلام.

قلت: وكلام أحمد في ذمه التقليد وإنكار تأليف كتب الرأي كثير مشهور.

قوله: «**عرفوا الإسناد**»: أي: إسناد الحديث وصحته، أي: صحة الإسناد

---

(١) كان مولده في آخر القرن الأول سنة ثمان وتسعين ووفاته سنة مئة وإحدى وستين، وولد أحمد بعده بأربع سنين سنة مئة وأربع وستين، ووفاته سنة مئتين وإحدى وأربعين.

وصحته دليل على صحة الحديث.

قوله: «**يذهبون إلى رأي سفيان**»: أي سفيان الثوري الإمام الزاهد العابد الثقة الفقيه، وكان له أصحاب ومذهب مشهور فانقطع، ومراد أحمد الإنكار على من يعرف إسناد الحديث وصحته ثم بعد ذلك يقلد سفيان أو غيره، ويعتذر بالأعذار الباطلة إما بأن الأخذ بالحديث اجتهاد والاجتهاد انقطع منذ زمان، وإما بأن هذا الإمام الذي قلدته أعلم مني فهو لا يقول إلا بعلم، ولا يترك هذا الحديث مثلاً إلا عن علم، وإما بأن ذلك اجتهاد ويشترط في المجتهد أن يكون عالماً بكتاب الله عالماً بسنة رسول الله ﷺ، وناسخ ذلك ومنسوخه، وصحيح السنة وسقيمها، عالماً بوجوه الدلالات، عالماً بالعربية والنحو والأصول، ونحو ذلك من الشروط التي لعلها لا توجد تامة في أبي بكر وعمر -رضي الله عنهما- كما قاله المصنف، فيقال له: هذا إن صح فمرادهم بذلك المجتهد المطلق، وأما أن يكون ذلك شرطاً في جواز العمل بالكتاب والسنة فكذب على الله، وعلى رسوله ﷺ، وعلى أئمة العلماء، بل الفرض والحتم على المؤمن إذا بلغه كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وعلم معنى ذلك في أي شيء كان أن يعمل به ولو خالفه من خالفه؛ فبذلك أمرنا ربنا تبارك وتعالى ونبينا ﷺ وأجمع على ذلك العلماء قاطبة إلا جهال المقلدين وجفاتهم، ومثل هؤلاء ليسوا من أهل العلم كما حكى الإجماع على أنهم ليسوا من أهل العلم، منهم أبو عمر ابن عبدالبر وغيره قال الله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ (الأعراف: ٣)، وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾ (النور: ٥٤) فشهد تعالى لمن أطاع الرسول ﷺ بالهداية[1] وعند جفاة المقلدين أن من أطاعه ﷺ ليس بمهتدي إنما

---

(١) في الأعراف مثلها وهي قوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ =

المهتدي من عصاه، وعدل عن أقواله، ورغِب عن سنته إلى مذهب أو شيخ ونحو ذلك[١]، وقع في هذا التقليد المحرم خلق كثير من ممن يدعي العلم والمعرفة بالعلوم ويصنف التصانيف في الحديث والسنن ثم بعد ذلك تجده جامداً على أحد هذه المذاهب ويرى الخروج عنها من العظائم وفي كلام أحمد إشارة إلى أن التقليد قبل بلوغ الحجة لا يذم، إنما المذموم المنكر الحرام الإقامة على ذلك بعد بلوغ الحجة، نعم ينكر الإعراض عن كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، والإقبال على تعلم الكتب المصنفة في الفقه استغناءً بها عن الكتاب والسنة، بل إن قرؤا شيئاً من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فإنما يقرؤون تبركاً لا تعلماً وتفقهاً، أو لكون بعض الموقفين وقف على من قرأ البخاري مثلاً؛ فيقرؤونه لتحصيل الوظيفة لا لتحصيل الشريعة، فهؤلاء من أحق الناس بدخولهم في قول الله تعالى: ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾﴾ (طه: ٩٩-١٠١)، وقوله: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ (طه: ١٢٤) إلى قوله: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾ (طه: ١٢٧).

فإن قلت: فما يجوز للإنسان من قراءة هذه الكتب المصنفة في المذاهب؟

قيل: يجوز من ذلك قراءتها على سبيل الاستعانة بها على فهم الكتاب والسنة، وتصوير المسائل؛ فتكون من نوع الكتب الآلية[٢] أما أن تكون هي المقدمة على كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، الحاكمة بين الناس فيما اختلفوا فيه، المدعو إلى التحاكم إليها دون التحاكم إلى الله والرسول ﷺ؛ فلا ريب أن ذلك منافٍ للإيمان

= وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

(١) هذا لسان حالهم وصريح مقالهم وإن لم يقولوه بألسنتهم وقد يقوله بعض المتعصبين منهم.

(٢) أي آله تعين على فهم الكتاب والسنة كاللغة والنحو.

مضاد له كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ (النساء: ٦٥) فإذا كان التحاكم عند المشاجرة إليها دون الله، ورسوله، ثم إذا قضى الله ورسوله أمراً وجدت الحرج في نفسك، وإن قضى أهل الكتاب بأمر لم تجد حرجاً، ثم إذا قضى الرسول ﷺ بأمر لم تسلم وإذا قضوا بأمر سلمت له فقد أقسم الله تعالى سبحانه وهو أصدق القائلين بأجل مُقسَم به، وهو نفسه تبارك وتعالى أنك لست بمؤمن والحالة هذه وبعد ذلك؛ فقد قال الله تعالى: ﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴿١٥﴾﴾ (القيامة: ١٤-١٥).

على أن الأئمة الأربعة وغيرهم من أهل العلم، قد نهوا عن تقليدهم مع ظهور السنة، فكلام أحمد الذي ذكره المصنف كافٍ عن تكثير النقل عنه. وقال أبو حنيفة: إذا جاء الحديث عن الرسول ﷺ فعلى الرأس والعين، وإذا جاء عن الصحابة فعلى الرأس والعين، وإذا جاء عن التابعين، فنحن رجال وهم رجال، وفي «روضة العلماء»: سئل أبو حنيفة إذا قلت قولاً وكتاب الله يخالفه؟ قالوا: اتركوا قولي لكتاب الله، قيل: إذا كان قول الرسول يخالفه؟ قال: اتركوا قولي لخبر الرسول ﷺ ، قيل: إذا كان قول الصحابة يخالفه؟ قال: اتركوا قولي لقول الصحابة، فلم يقل هذا الإمام ما يدعيه جفاة المقلدين له أنه لا يقول قولاً يخالف كتاب الله، حتى أنزلوه بمنزلة المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى.

وروى البيهقي في «السنن» عن الشافعي أنه قال: إذا قلت قولاً وكان عن النبي ﷺ خلاف قولي فما يصح من حديث رسول الله ﷺ أولى فلا تقلدوني. وقال الربيع: سمعت الشافعي يقول: إذا وجدتم في كتابي خلاف سنة رسول الله ﷺ فقولوا بسنة رسول الله ﷺ، ودعوا ما قلت. وتواتر عنه أنه قال: إذا صح الحديث أي: بخلاف قولي فاضربوا بقولي الحائط.

وقال مالك: كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ وكلام الأئمة مثل هذا كثير.. فخالف المقلدون ذلك، وجمدوا على ما وجدوه في الكتب المذهبية، سواء كان صواباً أم خطأً مع أن كثيراً من هذه الأقوال المنسوبة إلى الأئمة ليست أقوالاً لهم منصوصاً عليها، وإنما هي تفريعات ووجوه واحتمالات وقياس على أقوالهم، ولسنا نقول: إن الأئمة على خطأ، بل هم إن شاء الله على هدى من ربهم، وقد قاموا بما أوجب الله عليهم من الإيمان بالرسول ﷺ ومتابعته، ولكن العصمة منتفية عن غير الرسول، فهو الذي ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ (النجم: ٣-٤) فما العذر في اتباعهم وترك اتباع الذي لا ينطق عن الهوى؟!

قوله: «**لعله**»: أي: لعل الإنسان الذي تصح عنده سنة رسول الله ﷺ.

قوله: «**إذا رد بعض قوله**»: أي: قول النبي ﷺ.

قوله: «**أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك**»: هذا تنبيه على أن رد قول الرسول ﷺ سبب لزيغ القلب الذي هو سبب الهلاك في الدنيا والآخرة، فإذا كانت إساءة الأدب معه في الخطاب سبباً لحبوط الأعمال كما قال تعالى: ﴿لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢﴾ (الحجرات: ٢) فما ظنك برد أحكامه وسنته لقول أحد من الناس كائناً من كان؟

قال شيخ الإسلام: فإذا كان المخالف عن أمره قد حذر من الكفر والشرك، أو من العذاب الأليم، دل على أنه قد يكون مفضياً إلى الكفر والعذاب الأليم. ومعلوم أن إفضاؤه إلى العذاب هو مجرد فعل المعصية، فإفضاؤه إلى الكفر إنما هو لما يقترن به من استخفاف بحق الآمر كما فعل إبليس لعنه الله[1]. فإذا علمت أن

(١) فإنه استخف بأمر الله واستكبر عن الاستجابة له حين أمره بالسجود لآدم فطُرد ولُعن فليحذر المستخف بأمر الله أن يُطرد ويُعلن.

المخالفة عن أمره ﷺ سببٌ للفتنة التي هي الشرك والعذاب الأليم في الدنيا والآخرة علمت أن من ردّ قوله وخالف أمره لقول أبي حنيفة أو مالك أو غيرهما لهم النصيب الأكبر، والحظ الوافر من هذه الآية وهذا الوعيد على مخالفة أمره ﷺ، وقد استدل بهذه الآية كثير من العلماء على أن أصل الأمر للوجوب حتى يقوم دليل على استحبابه.



قال: عَن عُدَيٍّ بنِ حَاتِمٍ: «أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقرَأُ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ (التوبة: ٣١) الآية. فَقُلتُ لَهُ: إِنَّا لَسنَا نَعبُدَهُم. قَالَ: «أَلَيسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ الله، فَتُحَرِّمُونَهُ، وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ الله، فَتُحِلُّونَهُ؟» فَقُلتُ: بَلَى. قَالَ: «فَتِلكَ عِبادَتُهم» [رَوَاهُ أَحمَدُ والتِّرمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ][١].

هذا الحديث قد روي من طرق فرواه ابن سعد، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في «السنن» وفيه قصة اختصرها المصنف.

قوله: «عن عدي بن حاتم»: أي: الطائي المشهور، وهو ابن عبدالله بن سعد بن الحشرج بفتح المهملة وسكون المعجمة وآخره جيم، مات مشركاً وعدي يكنى أبا طريف بفتح المهملة صحابي شهير، حسن إسلامه. مات سنة ثمان وستين وله مئة وعشرون سنة.

قوله: «فقلت إنا لسنا نعبدهم»: ظن عدي أن العبادة المراد بها التقرب إليهم بأنواع العبادة من السجود والذبح والنذر ونحو ذلك فقال: «إنا لسنا نعبدهم».

قوله: «أليس يحرِّمون ما أحلّ الله فتحرمونه» إلى آخره: صرح النبي ﷺ في هذا الحديث بأن عبادة الأحبار والرهبان هي طاعتهم[٢] في تحريم الحلال وتحليل الحرام، وهو طاعتهم في خلاف ما حكم الله ورسوله. قال شيخ الإسلام: وهؤلاء

---

(١) الحديث في سنده بعض الشيء لكن الآية كافية وهي آية براءة ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ...﴾ الآية.

(٢) يعني إذا استحل طاعتهم في المعصية وجعلها ديناً وقربة وشرعاً كما لو استحل الزنا أو الخمر أو الربا، أما إذا أطاعهم في المعصية من غير استحلال فلا يكون عبادة لهم بل يكون معصية.

الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله حيث أطاعوهم في تحليل ما حرّم الله وعكسه يكونون على وجهين؛ **أحدهما**: أنهم يعلمون أنهم بدلوا دين الله، فيتبعونهم على التبديل فيعتقدون تحليل ما حرّم الله، وتحريم ما أحلّ الله اتباعاً لرؤسائهم مع علمهم أنهم خالفوا دين الرسل فهذا كفر. وقد جعله الله ورسوله شركاً وإن لم يكونوا يُصلُّونَ لهم ويسجدون، **الثاني**: أن يكون اعتقادهم وإيمانهم بتحريم الحلال، وتحليل الحرام ثابتاً، لكنهم أطاعوهم في معصية الله كما يفعل المسلم ما يفعله من المعاصي التي يعتقد أنها معاصي، فهؤلاء لهم حكم أمثالهم من أهل الذنوب كما ثبت في «الصحيحين» عن النبي ﷺ أنه قال: «**إنما الطاعة في المعروف**[1]» ثم نقول: اتباع هذا المحلِّل للحرام والمحرِّم للحلال وإن كان مجتهداً قصده اتباع الرسول ﷺ، لكن خفي عليه الحق في نفس الأمر وقد اتقى الله ما استطاع، فهذا لا يؤاخذه الله بخطئه بل يثيبه على اجتهاده الذي أطاع به ربه، ولكن من علم أن هذا الخطأ فيما جاء به رسول الله ﷺ، ثم اتبعه على خطئه وعدل عن قول الرسول ﷺ فله نصيب من الشرك الذي ذمّه الله، لا سيما إن اتبعه في ذلك لهواه ونصره باللسان، واليد مع علمه بأنه مخالف للرسول ﷺ، فهذا شرك يستحق صاحبه العقوبة عليه، ولهذا اتفق العلماء على أنه إذا عرف الحق لا يجوز تقليد أحد في خلافه، وأما إن كان المتبع للمجتهد عاجزاً عن معرفة الحق على التفصيل، وقد فعل ما يقدر عليه مثله من الاجتهاد في التقليد فهذا لا يؤاخذ إن أخطأ كما في القبلة، وأما إن قلد شخصاً دون نظيره بمجرد هواه، ونصره بيده ولسانه من غير علم أن الحق معه فهذا من أهل الجاهلية فإن كان متبوعه مصيباً لم يكن عمله صالحاً، وإن كان متبوعه مخطئاً كان آثماً كمن قال في القرآن برأيه، فإن أصاب فقد

---

(١) وهناك وجه ثالث، وهو أنهم يتبعونهم لاعتقادهم أنهم موافقون لشرع الله وهم مخطئون في ذلك فهؤلاء لهم حكم المجتهدين سواءً كانوا مصيبين أم مخطئين.

أخطأ، وإن أخطأ فليتبوأ مقعده من النار. انتهى ملخصاً.

قال المصنف[١]: وفيه تغير الأحوال إلى هذه الغاية صار عند الأكثر عبادة الرهبان هي أفضل الأعمال، ويسمونها الولاية وعبادة الأحبار هي العلم والفقه، ثم تغيرت الحال إلى أن عُبد من ليس من الصالحين، وعُبد بالمعنى الثاني من هو من الجاهلين.

قوله: «صار عند الأكثر عبادة الرهبان هي أفضل الأعمال»: يشير إلى ما يعتقده كثير من الناس فيمن ينتسب إلى الولاية من الضر والنفع، والعطاء والمنع، ويسمون ذلك الولاية والسر ونحو ذلك وهو الشرك.

قوله: «وعبادة الأحبار هي العلم والفقه»: أي: هي التي تسمى اليوم العلم والفقه المؤلف على مذاهب الأئمة ونحوهم، فيطيعونهم في كل ما يطيعونك سواء وافق حكم الله أم خالفه، بل لا يعبأون بما خالف ذلك من كتاب وسنة، بل يردّون كلام الله وكلام رسوله لأقوال من قلّدوه، ويصرّحون بأنه لا يحل العمل بكتاب ولا سنة، وأنه لا يجوز تلقي العلم والهدى منهما، وإنما العلم والفقه والهدى عندهم هو ما وجدوه في هذه الكتب بل أعظم من ذلك وأطم رمي كثير من كلام الله وكلام رسوله بأنه لا يفيد العلم ولا اليقين في باب معرفة أسماء الله وصفاته وتوحيده ويسمونها ظواهر لفظيه، ويسمون ما وضعه الفلاسفة المشركون القواطع العقلية[٢]، ثم يقدمونها في باب الأسماء والصفات والتوحيد على ما جاء من عند الله، ثم يرمون من خرج عن عبادة الأحبار والرهبان إلى طاعة رب العالمين، وطاعة رسوله وتحكيم ما أنزل الله في موارد النزاع بالبدعة أو الكفر.

قوله: «ثم تغيرت الأحول إلى أن عُبد من ليس من الصالحين»: وذلك

---

(١) الشيخ محمد بن عبدالوهاب -رحمه الله-.

(٢) وهذا هو مسلك كثير من الجهمية والمعتزلة وضُلاَّل الأشاعرة.

كاعتقادهم في كثير ممن ينتسب إلى الولاية من الفساق والمجاذيب[1]، وقوله: وعبد بالمعنى الثاني من هو من الجاهلين، وذلك كاعتقادهم العلم في أناس من جهلة المقلدين فيحسِّنون لهم البدع والشرك فيطيعونهم، ويظنون أنهم علماء مصلحون ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ ١٢﴾ (البقرة: ١٢).



(١) وهم المجانين في الحقيقة هم الذين ذهبت عقولهم بسبب العبادة أي انجذبت قلوبهم إلى اللهّ في زعمهم.

باب[1]

قَولُ الله تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ[2] أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾﴾ (النساء: ٦٠-٦٢).

الشَّرْحُ:

لما كان التوحيد الذي هو معنى شهادة أن لا إله إلا الله مشتملاً على الإيمان بالرسول ﷺ، مستلزماً له، وذلك هو الشهادتان، ولهذا جعلهما النبي ﷺ ركناً واحداً في قوله: «**بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً**» نبه في هذا الباب على ما تضمنه التوحيد، واستلزمه من تحكيم الرسول ﷺ في موارد النزاع؛ إذ هذا هو مقتضى شهادة أن لا إله إلا الله، ولازمها الذي لابد منه لكل مؤمن، فإن من عرف أن لا إله إلا الله فلا بد من الانقياد لحكم الله والتسليم لأمره، الذي جاء من عنده على يد رسوله محمد ﷺ فمن شهد أن لا إله إلا الله، ثم عدل إلى تحكيم غير الرسول ﷺ في مواد النزاع فقد كذب في شهادته، وإن شئت

---

(١) كل أبواب كتاب التوحيد في تحقيق الشهادتين وهذا الباب في تحقيق شهادة أن محمداً رسول الله.

(٢) الزعم يأتي بمعنى يقول كما ورد في الحديث أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال وزعم رسولك أن يجب علينا كذا، ويأتي بمعنى الكذب كما في هذه الآية.

قلت: لما كان التوحيد مبنياً على الشهادتين، إذ لا تنفك إحداهما عن الأخرى لتلازمهما، وكان ما تقدم من هذا الكتاب في معنى شهادة أن لا إله إلا الله التي تتضمن حق الله على عباده، نبه في هذا الباب على معنى شهادة أن محمداً رسول الله، التي تتضمن حق الرسول ﷺ فإنها تتضمن أنه عبد لا يعبد، ورسول صادق لا يكذب، بل يطاع ويتبع؛ لأنه مبلغ عن الله تعالى فله -عليه الصلاة والسلام- منصب الرسالة، والتبليغ عن الله والحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه إذ هو لا يحكم إلا بحكم الله ومحبته على النفس، والأهل والمال والوطن، وليس له من الإلهية شيء، بل هو عبد الله ورسوله كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾ (الجن: ١٩)، وقال ﷺ: «**إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله**»، ومن لوازم ذلك متابعته وتحكيمه في موارد النزاع، وترك التحاكم إلى غيره كالمنافقين الذين يدّعون الإيمان به، ويتحاكمون إلى غيره، وبهذا يتحقق[1] العبد بكمال التوحيد، وكمال المتابعة وذلك هو كمال سعادته، وهو معنى الشهادتين.

إذا تبيّن هذا: فمعنى الآية المترجم لها أن الله تبارك وتعالى أنكر على من يّدعي الإيمان بما أنزل الله على رسوله، وعلى الأنبياء قبله وهو مع ذلك يريد أن يتحاكم في فصل الخصومات إلى غير كتاب الله وسنة رسوله كما ذكر المصنف في سبب نزولها. قال ابن القيم: الطاغوت كل ما تعدّى به حدّه من الطغيان وهو مجاوزة الحد فكل ما تحاكم إليه متنازعان غير كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فهو طاغوت إذ قد تعدى به حده، ومن هذا كل من عبد شيئاً دون الله فإنما عبد الطاغوت وجاوز بمعبوده حده فأعطاه العبادة التي لا تنبغي له، كما أن من دعا إلى تحكيم غير الله تعالى ورسوله ﷺ فقد دعا إلى تحكيم الطاغوت، وتأمل تصديره سبحانه الآية منكراً لهذا التحكيم على من زعم أنه قد آمن بما أنزله الله على رسوله ﷺ، وعلى من قبله ثم هو

---

(١) أي: يحصل للعبد تحقيق التوحيد.

مع ذلك يدعو إلى تحكيم غير الله ورسوله ﷺ، ويتحاكم إليه عند النزاع، وفي ضمن قوله: ﴿يَزْعُمُونَ﴾ نفي لما زعموه من الإيمان، ولهذا لم يقل: ألم ترى إلى الذين آمنوا، فإنهم لو كانوا من أهل الإيمان حقيقة لم يريدوا أن يتحاكموا إلى غير الله تعالى ورسوله ﷺ ولم يقل فيهم يزعمون فإن هذا إنما يقال غالباً لمن ادعى دعوى هو فيها كاذب أو منزل منزلة الكاذب[1]، لمخالفته لموجَبها وعمله بما ينافيها. قال ابن كثير: والآية ذامّة لمن عدل عن الكتاب والسنة وتحاكم إلى ما سواهما من الباطل وهو المراد بالطاغوت ههنا.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ﴾ (النساء: ٦٠): أي الطاغوت وهو دليل على أن التحاكم إلى الطاغوت منافٍ للإيمان مضاد له، فلا يصح الإيمان إلا بالكفر به وترك التحاكم إليه فمن لم يكفر بالطاغوت لم يؤمن بالله.

وقوله: ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾ (النساء: ٦٠): أي: لأن إرادة التحاكم إلى غير كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ من طاعة الشيطان، وهو إنما يدعو أحزابه ليكونوا من أصحاب السعير، وفي الآية دليل على أن ترك التحاكم إلى الطاغوت الذي هو ما سوى الكتاب والسنة، من الفرائض وأن المتحاكم إليه غير مؤمن بل ولا مسلم.

وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾ (النساء: ٦١).

أي: إذا دعوا إلى التحاكم إلى ما أنزل الله وإلى الرسول أعرضوا إعراضاً

---

(١) قد يطلق على القول كقول ثمامة للنبي ﷺ وزعم رسولك، وحكام الدول الإسلامية والعربية في العصر الحاضر الذين يحكمون بالقوانين الوضعية وإن كان الظاهر من حالتهم أنهم يستبيحون ذلك لكن ينبغي أن يحكم عليهم بالكفر الأصغر من باب الحيطة للدين في التكفير حتى يستتابوا ويناظروا إن وجد من يستطيع ذلك.

مستكبرين كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾﴾ (النور: ٤٨). قال ابن القيم: هذا دليل على أن من دُعي إلى تحكيم الكتاب والسنة فلم يقبل، وأبى ذلك أنه من المنافقين ويصدون هنا لازم لا متعد، هو بمعنى يعرضون لا بمعنى يمنعون غيرهم، ولهذا أتى مصدره على صدوداً، ومصدر التعدي صداً، فإذا كان المعرض عن ذلك قد حكم الله سبحانه بنفاقهم، فكيف بمن ازداد إلى إعراضه منع الناس من تحكيم الكتاب والسنة، والتحاكم إليهما بقوله وعمله وتصانيفه ثم يزعم مع ذلك أنه إنما أراد الإحسان والتوفيق؟ الإحسان في فعله ذلك، والتوفيق بين الطاغوت الذي حكّمه، وبين الكتاب والسنة؟

قلت: وهذا حال كثير ممن يدعي العلم والإيمان في هذه الأزمان، إذا قيل لهم: تعالوا نتحاكم إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيتهم يصدون وهم مستكبرون، ويعتذرون أنهم لا يعرفون ذلك، ولا يعقلون، بل لعنهم الله بكفرهم فقليلاً ما يؤمنون.

وقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ (النساء: ٦٢).

قال ابن كثير: أي فكيف بهم إذا أصابتهم المقادير إليك في المصائب بسبب ذنوبهم، واحتاجوا إليك في ذلك، وقال ابن القيم: قيل: المصيبة فضيحتهم إذا أنزل القرآن بحالهم، ولا ريب أن هذا أعظم المصيبة والإضرار فالمصائب التي تصيبهم بما قدمت أيديهم في أبدانهم وقلوبهم وأديانهم بسبب مخالفة الرسول -عليه الصلاة والسلام- أعظمها مصائب القلب والدين[1] فيرى المعروف منكراً، والهدى

---

(١) ومصائب النفس والمال والولد أهون؛ لأن الدنيا محل النقص وهي فانية والموت لا بد منه، ولكن المصيبة العظيمة أن يصاب في قلبه كما هو واقع من الإجرار على المعاصي مع استحسانها =

ضلالاً، والرشاد غياً، والحق باطلاً، والصلاح فساداً، وهذا من المصيبة التي أصيب بها في قلبه، وهو الطبع الذي أوجبه مخالفة الرسول ﷺ وتحكيم غيره. قال سفيان الثوري في قوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ (النور: ٦٣) قال: هي أن تطبع على قلوبهم.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾﴾ (النساء: ٦٢).

قال ابن كثير: أي: يعتذرون ويحلفون إن أردنا بذهابنا إلى غيرك إلا الإحسان والتوفيق، أي: المداراة والمصانعة، وقال غيره: إلا إحساناً: أي لا إساءة وتوفيقاً، أي: بين الخصمين، ولم نرد مخالفة لك، ولا تسخّطاً لحكمك.

قلت: فإذا كان هذا حال المنافقين يعتذرون عن أمرهم ويلبّسونه لئلا يظن أنهم قصدوا المخالفة لحكم النبي ﷺ، أو التسخط، فكيف بمن يصرح بما كان المنافقون يضمرونه حتى يزعم أنه من حكّم الكتاب والسنة في موارد النزاع، فهو إما كافر وإما مبتدع ضال؟

وفعل المنافقين الذي ذكره الله عنهم في هذه الآية هو بعينه الذي يفعله المحرِّفون للكلم عن مواضعه، الذين يقولون إنما قصدنا التوفيق بين القواطع العقلية بزعمهم التي هي الفلسفة والكلام، وبين الأدلة النقلية، ثم يجعلون الفلسفة التي هي سفاهة وضلالة الأصل، ويردون بها ما أنزل الله على رسوله من الكتاب والحكمة؛ زعموا أن ذلك يخالف الفلسفة التي يسمونها القواطع، فَتَطَلَّبُوا له وجوه التأويلات البعيدة، وحملوه على شواذ اللغة التي لا تكاد تعرف[1].

= والرضى بها، وذلك علامة زيغ القلب والعياذ بالله كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ فلا يرى المنكر منكراً بل يراه معروفاً.

(١) وإنما هي نحاتة الأفكار وزبالة الأذهان وكناسة الآراء.

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ (النساء: ٦٣).

قال ابن كثير: أي: هذا الضرب من الناس هم المنافقون، والله أعلم بما في قلوبهم، وسيجزيهم على ذلك، فإنه لا تخفى عليه خافية فاكتفِ به يا محمد فيهم، فإنه عالم ببواطنهم وظواهرهم.

وقوله تعالى: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ٦٣﴾ (النساء: ٦٣).

قال ابن القيم: أمر الله رسوله ﷺ فيهم بثلاثة أشياء:

أحدها: الإعراض عنهم إهانة لهم، وتحقيراً لشأنهم، وتصغيراً لأمرهم لا إعراض متاركة وإهمال، وبهذا يعلم أنها غير منسوخة.

والثاني: قوله: ﴿وَعِظۡهُمۡ﴾ وهو تخويفهم عقوبة الله وبأسه ونقمته إن أصروا على التحاكم إلى غير رسوله ﷺ، وما أنزل عليه.

الثالث: قوله: ﴿وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ٦٣﴾: أي: يبلغ تأثيره إلى قلوبهم ليس قولاً ليناً لا يتأثر به المقول له، وهذه المادة تدل على بلوغ المراد بالقول[1] فهو قول يبلغ به مراد قائله من الزجر والتخويف ويبلغ تأثيره إلى نفس المقول له، ليس هو كالقول الذي يمر على الأذن صفحاً، وهذا القول البليغ يتضمن ثلاثة أمور؛ **أحدها:** عظم معناه، وتأثير النفوس به، **الثاني:** فخامة ألفاظه وجزالتها، **الثالث:** كيفية القائل في إلقائه على المخاطب فإن القول كالسهم والقلب كالقوس الذي يدفعه وكالسيف، والقلب كالساعد الذي يضرب به. وفي متعلق قوله: ﴿فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ قولان:

أحدهما: بقوله: ﴿بَلِيغٗا﴾: أي قولاً بليغاً في أنفسهم، وهذا حسن من جهة

---

(١) لأنه ناتج عن تأثر القلب.

المعنى، ضعيف من جهة الإعراب؛ لأن صفة الموصوف لا تعمل فيما قبلها.

والقول الثاني: متعلق بقل وفي المعنى على هذا قولان: **أحدهما**: قل لهم في أنفسهم خالياً بهم ليس معهم غيرهم بل مسرّاً لهم النصيحة، **والثاني**: أن معناه قل لهم في معنى أنفسهم، كما يقال: قل لفلان في كيت وكيت، أي: في ذلك المعنى.

قلت: وهذا القول أحسن ثم قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ﴾ (النساء: ٦٤) قال ابن كثير: أي: إنما فرضت طاعته على من أرسلته إليهم، وقال ابن القيم: هذا تنبيه على جلالة منصب الرسالة وعظم شأنها، وأنه سبحانه لم يرسل رسله -عليهم الصلاة والسلام- إلا ليطاعوا بإذنه، فتكون الطاعة لهم لا لغيرهم، لأن طاعتهم طاعة مرسلهم، وفي ضمنه أن من كذب رسوله محمداً ﷺ، فقد كذب الرسل والمعنى أنك واحد منهم تجب طاعتك، وتتعين عليهم كما وجبت طاعة من قبلك من المرسلين، فإن كانوا قد أطاعوهم كما زعموا وآمنوا بهم فما لهم لا يطيعونك، ويؤمنون بك؟ والإذن ههنا هو الإذن الأمري لا الكوني، إذ لو كان إذناً كونياً قدرياً لما تخلفت طاعتهم، وفي ذكره نكتة وهي أنه بنفس إرساله تتعين طاعته، وإرساله نفسه إذن في طاعته، فلا تتوقف على نص آخر سوى الإرسال بأمر فيه بالطاعة، بل متى تحققت رسالته وجبت طاعته فرسالته نفسها متضمنة للإذن في الطاعة، ويصح أن يكون الإذن ههنا إذناً كونياً قدرياً[(١)]، ويكون المعنى ليطاع بتوفيق الله وهدايته، فتضمن الآية الأمرين من الشرع والقدر، ويكون فيها دليل على أن أحداً لا يطيع رسله إلا بتوفيقه وإرشاده وهدايته، وهذا حسن جداً، والمقصود أن الغاية من الرسل هي طاعتهم ومتابعتهم، فإذا كانت الطاعة والمتابعة لغيرهم؛ لم تحصل الفائدة المقصودة من إرسالهم.

---

(١) وهو أحسن من الأول.

وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾ (النساء: ٦٤).

قال ابن القيم: لما علم سبحانه أن المرسل إليهم لا بد لهم من ظلم لأنفسهم واتباعهم لأهوائهم؛ أرشدهم إلى ما يدفع عنهم شر ذلك الظلم وموجبه، وهو شيئان: أحدهما منهم، وهو استغفارهم ربهم عز وجل، والثاني من غيرهم وهو استغفار الرسول ﷺ لهم إذا جاءوه، وانقادوا له، واعترفوا بظلمهم، فمتى فعلوا ذلك وجدوا الله تواباً رحيماً يتوب عليهم فيمحو أثر سيئاتهم ويقيهم شرها، ويزيدهم مع ذلك رحمته وبره وإحسانه.

فإن قلت: فما حظ من ظلم نفسه بعد موت النبي ﷺ من هذه الآية؟

وهل كلام بعض الناس في دعوى المجيء إلى قبره ﷺ والاستغفار عنده والاستشفاع به، والاستدلال بهذه الآية على ذلك صحيح أم لا؟

قيل: أما حظ من ظلم نفسه بعد موت النبي ﷺ من هذه الآية فالاستغفار، وأن يتوب إلى الله توبة نصوحاً في كل زمان ومكان، ولا يشترط في صحة التوبة المجيء إلى قبره، والاستغفار عنده بالإجماع، وأما المجيء إلى قبره، والاستغفار عنده والاستشفاع به، والاستدلال بالآية على ذلك؛ فهو استدلال على ما لا تدل الآية عليه بوجه من وجوه الدلالات؛ لأنه ليس في الآية إلا المجيء إليه ﷺ لا المجيء إلى قبره، واستغفاره لهم، لا استشفاعهم به بعد موته، فعلم أن ذلك باطل، يوضح ذلك أن الصحابة الذين هم أعلم الناس بكتاب الله، وسنة نبيه ﷺ ما فهموا هذا من الآية، فعلم أن ذلك بدعة، وأكثر ما استدل به من أجاز ذلك رواية العتبي عن أعرابي مجهول، على أن القصة لا نعلم لها إسناداً ومثل هذا لو كان حديثاً، أو أثراً عن صحابي لم يجز الاحتجاج به[1] ولم يلزمنا حكمه لعدم صحته،

---

(١) ولو كان حديثاً مسلسلاً صحيحاً لم يحتج به لشذوذه لأن من شروط قبول الحديث الصحيح أن لا يكون معللاً ولا شاذاً.

فكيف يجوز الاحتجاج في هذا بقصة لا تصح عن بدوي لا يعرف.

ثم قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ (النساء: ٦٥).

قال ابن القيم: أقسم سبحانه بأجل مقسَم به، وهو نفسه عز وجل على أنه لا يثبت لهم الإيمان، ولا يكونون من أهله حتى يحكم رسوله ﷺ في جميع موارد النزاع، وفي جميع أبواب الدين فإنه لفظة (ما) من صيغ العموم، ولم يقتصر على هذا حتى ضمّ إليه انشراح صدورهم بحكمه، بحيث لا يجدون في أنفسهم حرجاً، وهو الضيق والحصر من حكمه، بل يقبلون حكمه بالانشراح، ويقابلونه بالقبول لا يأخذونه على إغماض، ولا يشربونه على قذى فإن هذا منافٍ للإيمان، بل لا بد أن يكون أخذه بقبول ورضى، وانشراح صدر، ومتى أراد العبد شاهداً فلينظر في حاله، ويطالع قلبه عند ورود حكمه على خلاف هواه وغرضه، أو على خلاف ما قلّد فيه أسلافه من المسائل الكبار وما دونها ﴿ بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴿١٥﴾ ﴾ (القيامة: ١٤-١٥) فسبحان الله! كم من حزازة في نفوس كثير[١] من النصوص، وبودهم أن لو لم ترد، وكم من حرارة في أكبادهم منها، وكم من شجى في حلوقهم من موردها، ثم لم يقتصر سبحانه على ذلك حتى ضم إليه قوله: ﴿ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ فذكر الفعل مؤكداً له بالمصدر القائم مقام ذكره مرتين، وهو الخضوع والانقياد لما حكم به طوعاً ورضى وتسليماً، لا قهراً أو مصابرة، كما يسلم المقهور لمن قهره كرهاً، بل تسليم عبد مطيع لمولاه وسيده الذي هو أحب شيء إليه، يعلم أن سعادته وفلاحه في تسليماته. انتهى.

---

(١) أي من الناس، ولو فتشت لوجدت الحرج والحزازة في نفوس الكثير عند ورود الحكم على خلاف هواه وغرضه.

وقد ورد في «الصحيح» أن سبب نزولها قصة الزبير لما اختصم هو والأنصاري في شراج الحرة ولكن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فإذا كان سبب نزولها مخاصمة في مسيل ماء قضى فيه رسول الله ﷺ بقضاء فلم يرضه الأنصاري فنفى تعالى عنه الإيمان بذلك، فما ظنك بمن لم يرض بقضائه ﷺ، وأحكامه في أصول الدين وفروعه، بل إذا دعوا إلى ذلك تولوا وهم معرضون، ولم يكفهم ذلك حتى صدوا الناس عنه، ولم يكفهم ذلك حتى كفروا، أو بدعوا من اتبعه ﷺ، وحكّمه في أصول الدين وفروعه، ورضي بحكمه في ذلك، ولم يبلغ عنه حولاً.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ (النساء: ٦٦).

المعنى -والله أعلم-: لو أوجبنا عليهم مثل ما أوجبنا على بني إسرائيل من قتلهم أنفسهم، أو خروجهم من ديارهم حين استتيبوا من عبادة العجل ﴿مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾، وهذا توبيخ لمن لم يحكِّم الرسول ﷺ في موارد الشجار، أي: نحن لم نكتب عليهم ذلك، بل إنما أوجبنا عليهم ما في وسعهم، فما لهم لا يحكمونك، ولا يرضون بحكمك؟!

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾ (النساء: ٦٦-٦٨).

قال ابن القيم: أخبر تعالى أنهم لو فعلوا ما يعظهم به، وهو أمره ونهيه المقرون بوعده ووعيده لكان فعل أمره، وترك نهيه خيراً لهم في دينهم ودنياهم، وأشد تثبياً لهم على الحق، وتحقيقاً لإيمانهم، وقوة لعزائمهم وإراداتهم، وثباتاً لقلوبهم عند جيوش الباطل، وعند واردات الشبهات المضلة والشهوات المردية فطاعة الله تعالى

ورسوله هي سبب ثبات القلب وقوته قوة عزائمه وإراداته ونفاذ بصيرته، وهذا دليل على أن طاعة الرسول ﷺ تثمر الهداية، وثبات القلب عليها، ومخالفته تثمر زيغ القلب، واضطرابه، وعدم ثباته.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾ (النساء: ٦٧-٦٨) فهذه أربعة أنواع من الجزاء المرتب على طاعة الرسول ﷺ:

أحدها: حصول الخير المطلق بها.

الثاني: التثبت والقوة المتضمن للنصر والغلبة.

والثالث: حصول الأجر العظيم لهم في الآخرة.

والرابع: هدايتهم الصراط المستقيم. وهذه الهداية هي هداية ثانية أوجبتها طاعة الرسول ﷺ فطاعته ﷺ ثمرة الهداية السابقة عليها فهي محفوفة بهدايتين: هداية قبلها وهي سبب الطاعة، وهداية بعدها هي ثمرة لها، وهذا يدل على انتفاء هذه الأمور الأربعة عند انتفاء طاعة الرسول ﷺ.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ (النساء: ٦٩).

قال ابن القيم: فأخبر سبحانه أن طاعته وطاعة رسوله ﷺ توجب مرافقة المنعَم عليهم، وهم أهل السعادة الكاملة، وهم أربعة أصناف النبيون، وهم أفضلهم، ثم الصديقون وهم بعدهم، ثم الشهداء، ثم الصالحون فهؤلاء المنعم عليهم النعمة التامة وهم السعداء الفائزون، ولا فلاح لأحد إلا بمرافقتهم، والكون معهم، ولا سبيل إلى مرافقتهم إلا بطاعة الرسول ﷺ، ولا سبيل إليها إلا بمعرفة سنته وما جاء به فدل على أن من عدم العلم بسنته وما جاء به؛ فليس له إلى مرافقة هؤلاء سبيل، بل هو ممن يعض على يديه يوم القيامة، ويقول: يا ليتني

اتخذت مع الرسول سبيلاً.

قلت: ما لمن لم يحكِّم الرسول ﷺ في موارد النزاع إلى مرافقة هؤلاء المنعم عليهم سبيل، وكيف يكون له سبيل إلى ذلك، وعنده أن من حكّم الرسول ﷺ في موارد النزع فهو إما زنديق أو مبتدع، وأنى له بطاعة الله ورسوله، وهذا أصل اعتقاده الذي بنى عليه دينه، ومع ذلك يحسبون أنهم مهتدون[1] إذا حكّموا غير الرسول ﷺ، ونبذوا حكمه وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون.



---

(١) كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

وَقَوۡلُهُ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ١١﴾ (البقرة: ١١).

قال: «وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ١١﴾». قال أبو العالية: في الآية يعني: لا تعصوا في الأرض، وكان فسادهم ذلك معصية لله؛ لأن من عصى الله في الأرض، أو أمر بمعصية الله، فقد أفسد في الأرض؛ لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة.

قلت: ومطابقة الآية للترجمة ظاهر؛ لأن من دعا إلى التحاكم إلى غير ما أنزل الله، فقد أتى بأعظم الفساد.

وفي الآية دليل على وجوب اطِّراح الرأي مع السنة، وإن ادعى صاحبه أنه مصلحة، وأن دعوى الإصلاح ليس بعذر في ترك ما أنزل الله، والحذر من العجب بالرأي.



وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ (الأعراف: ٥٦).

قال المصنف «وقوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾».

قال أبو بكر بن عيّاش في هذه الآية: إن الله بعث محمداً ﷺ إلى أهل الأرض، وهم في فساد فأصلحهم الله بمحمد ﷺ فمن دعا إلى خلاف ما جاء به محمد ﷺ فهو من المفسدين في الأرض، وقال ابن القيم: قال أكثر المفسرين: لا تفسدوا فيها بالمعاصي والدعاء إلى غير طاعة الله بعد إصلاح الله إياها ببعث الرسل، وبيان الشريعة، والدعاء إلى طاعة الله، فإن عبادة غير الله، والدعوة إلى غيره، والشرك به هو أعظم فساد في الأرض، بل فساد الأرض في الحقيقة إنما هو بالشرك، ومخالفة أمره. فالشرك والدعوة إلى غير الله، وإقامة معبود غيره، ومطاع متبع غير رسول الله ﷺ هو أعظم الفساد في الأرض، ولا صلاح لها ولا لأهلها إلا أن يكون الله وحده هو المعبود، والدعوة له لا لغيره، والطاعة والاتباع لرسوله ليس إلا.

وغيره إنما تجب طاعته إذا أمر بطاعة الرسول ﷺ، فإذا أمر بمعصيته وخلاف شريعته، فلا سمع له ولا طاعة، ومن تدبر أحوال العالم، وجد كل صلاح في الأرض فسببه توحيد الله وعبادته، وطاعة رسوله، وكل شر في العالم، وفتنة وبلاء، وقحط وتسلط عدو وغير ذلك، فسببه مخالفة رسوله، والدعوة إلى غير الله ورسوله. انتهى.

وبهذا يتبين وجه مطابقة الآية للترجمة، لأن من يدعو إلى التحاكم إلى غير ما أنزل الله وإلى الرسول، فقد أتى بأعظم الفساد.



وَقَولُهُ: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ (المائدة: ٥٠).

قال: «وقوله: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ﴾». قال ابن كثير: ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله تعالى المشتمل على كل خير وعدل، الناهي عن كل شر إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات، كما يحكم به التتار من السياسات المأخوذة عن جنكز خان الذي وضع لهم كتاباً مجموعاً من أحكام اقتبسها من شرائع شتى من المِلّة الإسلامية وغيرها، وفيها كثير من الأحكام أخذها عن مجرد نظره، فصار في بنيه شرعاً يقدمونه على الحكم بالكتاب والسنة، ومن فعل ذلك؛ فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله، فلا يحكم سواه في قليل ولا كثير قال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ﴾: أي: يريدون ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ أي: ومن أعدل من الله في حكمه لمن عقل عن الله شرعه، وآمن ويقن، وعلم أنه تعالى أحكم الحاكمين، وأرحم بعباده من الوالدة بولدها فإنه تعالى العالم بكل شي، القادر على كل شيء، العادل في كل شيء.

قلت: وفي الآية إشارة إلى أن من ابتغى غير حكم الله ورسوله، فقد ابتغى حكم الجاهلية كائناً ما كان.



عَن عَبدِالله بنِ عَمرُو أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «لاَ يُؤمِنُ أَحَدُكُم حَتَّى يَكُونَ هَواهُ تِبعاً لِـما جِئتُ بِهِ» قَالَ النَّوَوِيُّ: حَدِيثٌ صَحِيحٌ، رَوَينَاهُ في كِتَابِ الحُجَّةِ بِإِسنَادٍ صَحِيحٍ[١].

هذا الحديث رواه الشيخ أبو الفتح نصر بن إبراهيم المقدسي الشافعي في كتاب «الحجة على تارك المحجة» بإسناد صحيح كما قال المصنف عن النووي، وهو كتاب يتضمن ذكر أصول الدين على قواعد أهل الحديث والسنة، ورواه الطبراني وأبو بكر بن أبي عاصم، والحافظ أبو نعيم في «الأربعين» التي شرط في أولها أن تكون من صحاح الأخبار، وقال ابن رجب: تصحيح هذا الحديث بعيد جداً[٢] من وجوه ذكرها[٣]، وتعقبه بعضهم.

قلت: ومعناه صحيح قطعاً وإن لم يصح إسناده وأصله في القرآن كثير كقوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ (النساء: ٦٥) الآية، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ (الأحزاب: ٣٦)، وقوله: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ[٤]﴾ (القصص: ٥٠)، وغير ذلك من الآيات فلا يضر عدم صحة إسناده[٥].

قوله: «لا يؤمن أحدكم»: أي: لا يحصل له الإيمان الواجب ولا يكون من أهله.

---

(١) الحديث معناه صحيح وإن كان في سنده بعض الشيء، وكمال الإيمان أن يكون هواه تبعاً لما جاء به -عليه الصلاة والسلام- وقد يكون هواه تبعاً للمال أو غيره فينقص إيمانه بحسب ذلك.

(٢) في «جامع العلوم والحكم».

(٣) في تعقب ابن رجب استبعاد في تصحيح هذا الحديث.

(٤) ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

(٥) لأن معناه يؤخذ من الآيات.

قوله: «حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به»: قال بعضهم هواه بالقصر، أي: ما يهواه أي: تحبه نفسه وتميل إليه، ثم المعروف في استعمال الهوى عند الإطلاق أنه الميل إلى خلاف الحق، ومنه: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ (ص: ٢٦) وقد يطلق على الميل والمحبة ليشمل الميل للحق وغيره، وربما استعمل في محبة الحق خاصة، والانقياد إليه كما في حديث صفوان بن عسال أنه سئل هل سمعت النبي ﷺ يذكر الهوى... الحديث.

قال ابن رجب: أما معنى الحديث، فهو أن الإنسان لا يكون مؤمناً كامل الإيمان الواجب حتى تكون محبته تابعة لما جاء به الرسول ﷺ من الأوامر والنواهي وغيرها، فيحب ما أمر به ويكره ما نهى عنه. وقد ورد القرآن بمثل هذا في غير موضع، وذم سبحانه من كره ما أحبه الله تعالى، أو أحب ما كره الله كما قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ ۝٩﴾ (محمد: ٩) وقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ ۝٢٨﴾ (محمد: ٢٨) فالواجب على كل مؤمن أن يحب ما أحبه الله محبة توجب له الإتيان بما وجب عليه منه، فإن زادت المحبة حتى أتى بما ندب إليه منه كان ذلك فضلاً. وأن يكره ما كرهه الله كراهة توجب له الكف عما حرم عليه منه، فازدادت الكراهة حتى أوجبت الكف عما كرهه تنزيهاً كان ذلك فضلاً.

فمن أحب الله ورسوله محبة صادقة من قلبه، أوجب ذلك له أن يحب بقلبه ما يحبه الله ورسوله ويكره ما يكرهه الله ورسوله. ويرضى بما يرضى به الله ورسوله، ويسخط ما يسخط الله ورسوله، وأن يعمل بجوارحه بمقتضى هذا الحب والبغض.

فإن عمل بجوارحه شيئاً يخالف ذلك، بأن ارتكب بعض ما يكرهه الله ورسوله، أو ترك بعض ما يحبه الله ورسوله مع وجوبه والقدرة عليه، دل ذلك على

نقص محبته الواجبة، فعليه أن يتوب من ذلك، ويرجع إلى تكميل المحبة الواجبة. فجميع المعاصي تنشأ من تقديم هوى النفس على محبة الله ورسوله، وقد وصف الله المشركين باتباع الهوى في مواضع من كتابه فقال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ﴾ (القصص: ٥٠)، وكذلك البدع إنما تنشأ من تقديم الهوى على الشرع، ولهذا سمي أهلها أهل الأهواء، وكذلك المعاصي إنما تقع من تقديم الهوى على محبة الله ومحبة ما يحبه الله وكذلك حب الأشخاص الواجب فيه أن يكون تبعاً لما جاء به الرسول ﷺ.

فيجب على المؤمن محبة ما يحبه الله من الملائكة والرسل والصديقين، والأنبياء والشهداء والصالحين عموماً. ولهذا كان علامة وجود حلاوة الإيمان «**أن يحب المرء لا يحبه إلا لله**» وتحرم موالاة أعداء الله ومن يكرهه الله عموماً، وبهذا يكون الدين كله لله. و«**من أحب لله وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان**». ومن كان حبه، وبغضه، وعطاؤه، ومنعه لهوى نفسه، كان ذلك نقصاً في إيمانه الواجب، فتجب عليه التوبة من ذلك، والرجوع إلى اتباع ما جاء به الرسول ﷺ من تقديم محبة الله ورسوله، وما فيه رضى الله ورسوله على هوى النفس ومرادها. انتهى ملخصاً.

ومطابقة الحديث للباب ظاهرة من جهة أن الرجل لا يؤمن حتى يكون هواه تبعاً لما جاء به الرسول ﷺ في كل شيء حتى في الحكم وغيره. فإذا حكم بحكم أو قضى بقضاء، فهو الحق الذي لا محيد للمؤمن عنه، ولا اختيار له بعده.



وَقَالَ الشَّعبِي: «كَانَ بَينَ رَجُلٍ مِنَ المُنَافِقِينَ وَرَجُلٍ مِنَ اليَهُودِ خُصُومَةٌ فَقَالَ اليَهُودِيُّ: نَتَحَاكَمُ إِلَى مُحَمَّدٍ، لأَنَّهُ عَرَفَ أَنَّهُ لاَ يَأْخُذُ الرَّشوَةَ، وَقَالَ المُنَافِقُ: نَتَحَاكَمُ إِلَى اليَهُودِ؛ لِعِلمِهِ أَنَّهُم يَأْخُذُونَ الرَّشوَةَ، فَاتَّفَقَا أَن يَأتِيَا كَاهِناً في جُهَينَةَ فَيَتَحَاكَمَا إِلَيهِ...»، فَنَزَلَت: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ الآية.

هذا الأثر رواه ابن جرير، وابن المنذر بنحوه.

قوله: «كان بين رجلين من المنافقين، ورجل من اليهود خصومة». لم أقف على تسمية هذين الرجلين، وقد روى ابن إسحاق وابن المنذر، وابن أبي حاتم قال: كان الجلاس بن الصامت قبل توبته، ومعتب بن قشير، ورافع بن زيد، وبشير، كانوا يدعون الإسلام، فدعاهم رجال من قومهم من المسلمين في خصومة كانت بينهم إلى رسول الله ﷺ، فدعوهم إلى الكهان حكام الجاهلية فأنزل الله فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ الآية.

فيحتمل أن يكون المنافق المذكور في قصة الشعبي أحد هؤلاء بل روى الثعلبي عن ابن عباس أن المنافق اسمه بشر.

قوله: «عرف أنه لا يأخذ الرشوة». هي بتثليث الراء. قال أبو السعادات: وهو الوصلة إلى الحاجة بالمصانعة، وأصله من الرشاء الذي يتوصل به إلى الماء، والراشي: من يعطي الذي يعينه على الباطل، والمرتشي: الآخذ.

قلت: فعلى هذا رشوة الحاكم هي ما يعطاه ليحكم بالباطل، سواء طلبها أم لا. وفيه دليل على شهادة أن محمداً رسول الله، لأن أعداءه يعلمون عدله في الأحكام. ونزاهته عن قذر الرشوة ﷺ بخلاف حكام الباطل.

قوله: «فاتفقا على أن يأتيا كاهناً في جهينة». لم أقف على تسمية هذا الكاهن. وفي قصة رواها ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي في سبب نزول الآية. قال:

فتفاخرت بنو النضير وقريظة، فقالت بنو النضير: نحن أكرم من قريظة، وقالت: قريظة: نحن أكرم منكم، فدخلوا المدينة إلى أبي بردة الأسلمي وذكر القصة.



وَقِيلَ: «نَزَلَت في رَجُلينِ اختَصَمَا، فَقَالَ أَحَدُهُمَا: نَتَرَافَعُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَقَالَ الآخَرُ: إِلَى كَعبِ بنِ الأَشرَفِ. ثُمَّ تَرَافَعَا إِلَى عُمَرَ، فَذَكَرَ لَهُ أَحَدُهُمَا القِصَّةَ. فَقَالَ للَّذِي لَم يَرضَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ أَكَذَلِكَ: قَالَ نَعَم: فَضَرَبَهُ بِالسَّيفِ فَقَتَلَهُ».

هذه القصة قد رويت من طرق متعددة من أقربها لسياق المصنف ما رواه الثعلبي وذكره البغوي عن ابن عباس في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟﴾ (النساء: ٦٠) الآية قال: نزلت في رجل من المنافقين يقال له: بشر خاصم يهودياً فدعاه اليهودي إلى رسول الله ﷺ، ودعاه المنافق إلى كعب بن الأشرف ثم إنهما احتكما للنبي ﷺ، فقضى لليهودي فلم يرض المنافق وقال: تعال نتحاكم إلى عمر بن الخطاب فقال اليهودي لعمر: قضى لنا رسول الله ﷺ فلم يرض بقضائه فقال للمنافق: أكذلك؟ قال: نعم، فقال عمر: مكانكما حتى أخرج إليكما، فدخل فاشتمل سيفه، ثم خرج فضرب عنق المنافق حتى برد، ثم قال: هكذا أقضي لمن لم يرض بقضاء الله ورسوله. فنزلت[1].

وروى الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» هذه القصة عن مكحول، وقال في آخرها: فأتى جبريل -عليه السلام- رسول الله ﷺ فقال: إن عمر قد قتل الرجل، وفرق الله بين الحق والباطل على لسان عمر، فسُمي الفاروق، ورواه أبو إسحاق بن دُحيم في «تفسيره» على ما ذكر شيخ الإسلام، وابن كثير، ورواه ابن أبي حاتم، وابن مردويه من طريق ابن لهيعة عن أبي الأسود، وذكر القصة، وفيه:

---

(١) هذه القصة ليس لها إسناد، والأقرب أنها لا تثبت عن عمر لأنه يبعد أن يقدم عمر على القتل، والنبي ﷺ موجود بين يديه ولا يستشيره ولا يستأذنه فيه وإن كان المنافق الذي لم يرض بحكم رسول الله ﷺ قد يقال إنه يكفر فيحتمل أنه يستتاب ويحتمل أن الزنديق إذا أظهر نفاقه قُتل.

فقال رسول الله ﷺ: «**ما كنت أظن أن يجترئ عمر على قتل مؤمن**» فأنزل الله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الآية، فهدر دم ذلك الرجل وبرئ عمر من قتله، فكره الله أن يسن ذلك بعده فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾﴾.

وبالجملة: فهذه القصة مشهورة متداولة بين السلف والخلف تداولاً يغني عن الإسناد[(1)]، ولها طرق كثيرة، ولا يضرها ضعف إسنادها، وكعب بن الأشرف المذكور هنا هو طاغوت من رؤساء اليهود وعلمائهم. ذكر ابن إسحاق وغيره أنه كان موادعاً للنبي ﷺ في جملة من وادعه من يهود المدينة، وكان عربياً من بني طي وكانت أمه من بني النضير قالوا: فلما قُتل أهل بدر شقّ ذلك عليه وذهب إلى مكة ورثاهم لقريش وفضَّل دين الجاهلية على دين الإسلام حتى أنزل الله فيه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾ (النساء: ٥١) ثم لما رجع إلى المدينة أخذ ينشد الأشعار يهجو بها رسول الله ﷺ، وشبَّب بنساء المسلمين حتى آذاهم حتى قال النبي ﷺ: «**من لكعب بن الأشرف، فإنه قد آذى الله ورسوله**» وذكر قصة قتله، وقتَله محمد بن مسلمة، وأبو نائلة وأبو عبْس بن جبر، وعباد بن بشر -رضي الله عنهم-[(2)]، وفي القصة من الفوائد أن الدعاء إلى تحكيم غير الله ورسوله من صفات المنافقين، ولو كان الدعاء إلى تحكيم إمام فاضل، ومعرفة أعداء رسول الله ﷺ بما كان عليه من العلم والعدل في الأحكام، وفيها الغضب لله تعالى، والشدة في أمر الله كما فعل عمر -رضي الله عنه-، وفيها أن من طعن في أحكام

---

(١) هذا فيه نظر فقد يقال إن المحققين والمحدثين لا يكتفون بالتداول والشهرة فكم من حديث مشهور وهو موضوع.

(٢) قصة قتل كعب بن الأشرف رواها البخاري وأن النبي ﷺ دسّ هؤلاء الصحابة لقتله.

النبي ﷺ أو في شيء من دينه قتل كهذا المنافق بل أولى، وفيها جواز تغيير المنكر باليد(١)، وإن لم يأذن فيه الإمام، وكذلك تعزير من فعل شيئاً من المنكرات التي يستحق عليها التعزير، لكن إذا كان الإمام لا يرضى بذلك، وربما أدى إلى وقوع فُرقة أو فتنة فيشترط إذنه في التعزير فقط، وفيها أن معرفة الحق لا تكفي عن العمل والانقياد، فإن اليهود يعلمون أن محمداً رسول الله ويتحاكمون إليه في كثير من الأمور(٢).



(١) ذكر ابن القيم -رحمه الله- أن إنكار المنكر له أربع حالات:

أحدها: أن يترتب على إنكاره أنكر منه فهذا لا يجوز، ومثّل له بأن شيخ الإسلام مرّ مع بعض أصحابه على قوم من التتار يشربون الخمر فأرادوا أن ينكروا عليهم فمنعهم وقال: إن هؤلاء يشتغلون بشرب الخمر عن قتل النفوس.

الثاني: أن يترتب على إنكاره منكر مثله فهذا محل اجتهاد من المنكِر والأقرب المنع.

الثالث: أن يترتب على إنكاره منكر دونه، فهذا يجب.

الرابع: أن يزول المنكر ولا يخلفه منكر، فهذا يجب الإنكار كالثالث.

(٢) لكنهم لـمّا لم ينقادوا إليه في كل شيء ولم يعملوا بكل ما جاء به كفروا، وكذلك إبليس يعرف الحق لكنه استكبر عن العمل والانقياد وكذلك فرعون.

باب
(١) من جحد شيئاً من الأسماء والصفات (٢)

وَقولِ الله تَعَالَى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾ (الرعد: ٣٠).

الشَّرْحُ:

أي: من أسماء الله وصفاته، والمراد ما حكمه هل هو ناج أو هالك؟

ولما كان تحقيق التوحيد بل التوحيد لا يحصل إلا بالإيمان بالله والإيمان بأسمائه وصفاته؛ نبه المصنف على وجوب الإيمان بذلك وأيضاً فالتوحيد ثلاثة أنواع توحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات، وتوحيد العبادة، والأولان وسيلة إلى الثالث فهو الغاية والحكمة المقصودة بالخلق والأمر وكلها متلازمة فناسب التنبيه على الإيمان بتوحيد الصفات.

قال: «وقول الله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ ۚ﴾» الآية.

أي: يجحدون هذا الاسم لا أنهم يجحدون الله فإنهم يقرون به كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ (الزخرف: ٨٧) والمراد بهذا كفار قريش أو طائفة منهم فإنهم جحدوا هذا الاسم عناداً أو جهلاً؛ ولهذا لما قال النبي ﷺ لعلي يوم

---

(١) سلك -رحمه الله- مسلك البخاري في التراجم فإنه كثيراً ما يترجم ولا يذكر الحكم فهو يترك الحكم للطالب والمدرس ليتأمل هل هو واجب أو مستحب أو محرم، أو كفر على حسب الأدلة التي ذكرها في الباب، وهذه الترجمة كالترجمة السابقة، باب من تبرك بشجرة أو حجر ونحوهما وترك الحكم.

(٢) أي فهو كفرٌ أكبر أو فقد كفر. والجهمية وكذلك المعتزلة الأرجح تكفيرهم بخلاف الأشاعرة فالصواب أنهم مبتدعة (شيخنا الشيخ ابن باز).

الحديبية: «**اكتب بسم الله الرحمن الرحيم**» فقالوا: لا نعرف الرحمن ولا الرحيم» وفي بعض الروايات: «لا نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة» يعنون مسيلمة الكذاب، فإنه قبحه الله كان قد تسمى بهذا الاسم، وأما كثير من أهل الجاهلية فيقرون بهذا الاسم كما قال بعضهم:

وما يشأ الرحمن يعقد ويطلق

قال ابن كثير: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾: أي: لا يقرون به؛ لأنهم يأبون من وصف الله بالرحمن الرحيم، ومطابقة الآية للترجمة ظاهرة؛ لأن الله تعالى سمّى جحود اسم من أسمائه كفراً، فدل على أن جحود شيء من أسماء الله وصفاته كفر، فمن جحد شيئاً من أسماء الله وصفاته من الفلاسفة، والجهمية والمعتزلة ونحوهم فله نصيب من الكفر بقدر ما جحد من الاسم أو الصفة فإن الجهمية والمعتزلة ونحوهم وإن كانوا يقرون بجنس الأسماء والصفات[1] فعند التحقيق لا يقرون بشيء؛ لأن الأسماء عندهم أعلام محضة لا تدل على صفات قائمة بالرب تبارك وتعالى وهذا نصف كفر الذين جحدوا اسم الرحمن.

وقوله: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾ (الرعد: ٣٠).

أي: قل يا محمد راداً عليهم في كفرهم بالرحمن تبارك وتعالى هو أي: الرحمن

---

(١) هذا الكلام مجمل؛ فإن الجهمية لا يقرون بالأسماء ولا بالصفات، وأما المعتزلة فإنهم ينكرون الصفات ويقرون أنها أعلام محضة، ولهذا كفّر الجهمية كثير من أهل العلم كما قال ابن القيم في الكافية الشافية:

ولقد تقلد كفرهم خمسون في ... عشر من العلماء في البلدان
واللالكائيُّ الإمام حكاه عنـ ... ـهم كما حكاه قبله الطبراني

أي خمسمئة عالم كفروا الجهمية منهم ابن المبارك والسفيانان، وكذلك كفر المعتزلة فريق من العلماء، لأنهم في الحقيقة جاحدون ومنكرون، ومن لم يكفرهم قال: إنهم لم يجحدوا بل تأولوا فهم من أهل الأهواء والبدع.

عز وجل ربي لا إله إلا هو أي: لا معبود سواه، عليه توكلت، وإليه متاب، أي إليه مرجعي وأوبتي، وهو مصدر من قول القائل: تبتُ متاباً، وتوبة. قال ابن جرير، وفي الآية دليل على أن التوكل عبادة، وعلى أن التوبة عبادة، وإذا كان كذلك فالتوبة إلى غيره شرك[1] ولما قال سارق وقد قطعت يده للنبي ﷺ اللهم إني أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد قال النبي ﷺ: «**عرف الحق لأهله**» رواه أحمد.



(١) وهذا فيما هو من حقوق الله تكون التوبة لغير الله شركاً، أما ما كان من حقوق الآدميين فإن التوبة إليهم جائزة وهي الاعتذار إليهم وطلب المسامحة كما قالت عائشة -رضي الله عنها-: «أتوب إلى الله ورسوله»، وإن كان حق الرسول من حق الله لكن له حق.

وَفِي «صَحِيحِ البُخَارِيِّ»، قَالَ عَلِيٌّ: «حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ، أَتُرِيدونَ[١] أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ؟!».

هذا الأثر رواه البخاري مسنداً لا معلقاً لكنه في بعض الروايات علّقه أولاً ثم ذكر إسناده، وفي بعضها ساق إسناده أولاً فرواه عن عبيدالله بن موسى، عن معروف ابن خرّبوذ، عن أبي الطفيل، عن علي به، ولفظه: «أتحبون أن يكذب الله ورسوله».

قوله: «بما يعرفون»: أي: بما يفهمون. قال الحافظ: وزاد آدم بن أبي إياس في كتاب «العلم» له عن عبدالله بن داود، عن معروف في آخره **«ودعوا ما ينكرون»** أي: ما يشتبه عليهم فهمه. قال: وفيه دليل على أن المتشابه لا ينبغي أن يذكر عند العامة، ومثله قول ابن مسعود: ما أنت محدثاً قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة. رواه مسلم. قال: وممن رأى التحديث ببعض دون بعض أحمد في الأحاديث التي ظاهرها الخروج على السلطان، ومالك[٢] في أحاديث الصفات، وأبو يوسف في «الغرائب» ومن قبلهم أبو هريرة كما تقدم عنه في الجرابين، وأن المراد ما يقع من الفتن ونحوه عن حذيفة، وعن الحسن أنه أنكر تحديث أنس للحجّاج بقصة العرنيين؛ لأنه اتخذها وسيلة إلى ما كان يعتمده من المبالغة في سفك الدماء بتأويله الواهي؛ وضابط ذلك أن يكون ظاهر الحديث يقوي البدعة[٣]،

(١) لعله رواه بالمعنى وإلا فالذي في البخاري «أتحبّون».

(٢) إن صح هذا عن مالك فمراده الأحاديث التي في الصفات التي تشتبه على العامة كحديث: «من تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً ومن أتاني يمشي أتيته هرولة».

(٣) ظاهر الحديث لا يقوي البدعة، لكن الذي يقويها الفهم الخاطئ والسيئ.

وكم من عائب قولاً صحيحاً
وآفته من الفهم السقيم

وما آفة الأخبار إلا رواتها.

وظاهره في الأصل غير مراد فالإمساك عنه عند من يخشى عليه الأخذ بظاهره مطلوب. انتهى. وما ذكره عن مالك في أحاديث الصفات ما أظنه يثبت عن مالك، وهل في أحاديث الصفات أكثر من آيات الصفات التي في القرآن؟ فهل يقول مالك أو غيره من علماء الإسلام: إن آيات الصفات لا تتلى على العوام، وما زال العلماء قديماً وحديثاً من أصحاب النبي ﷺ ومن بعدهم يقرؤون آيات الصفات، وأحاديثها بحضرة عوام المؤمنين وخواصهم، بل شرط الإيمان هو الإيمان بالله، وصفات كماله التي وصف بها نفسه في كتابه، أو على لسان رسوله ﷺ، فكيف يُكتم ذلك عن عوام المؤمنين؟ بل نقول: من لم يؤمن بذلك فليس من المؤمنين، ومن وجد في قلبه حرجاً من ذلك فهو من المنافقين، ولكن هذا من بدع الجهمية وأتباعهم الذين ينفون صفات الرب تبارك وتعالى فلما رأوا أحاديث الصفات مبطلة لمذاهبهم، قامعة لبدعهم تواصوا بكتمانها عن عوام المؤمنين؛ لئلا يعلموا ضلالهم وفساد اعتقادهم فاعلم ذلك، وفي الأثر دليل على أنه إذا خشي ضرر من تحديث الناس ببعض ما لا يعرفون فلا ينبغي تحديثهم به، وليس ذلك على إطلاق، وأن كثيراً من الدين والسنن يجهله الناس، فإذا حُدثوا بها كذَّبوا بذلك وأعظموه، فلا يترك العالم تحديثهم، بل يُعلِّمهم برفق ويدعوهم بالتي هي أحسن(١).



(١) هذا هو الذي ينبغي فإذا قرأ شيئاً عليهم شرحه ووضحه حتى يتضح لهم معناه ليزول الإشكال وخوفاً من أن يفهموا فهماً خاطئاً.

[وَرَوَى عَبدُالرَّزَّاقِ] عَن مَعمَرٍ عَن ابنِ طَاوسٍ عَن أَبيهِ عَن ابنِ عَبَّاسٍ[١]: «أَنَّهُ رَأَى رَجُلاً انتَفَضَ لَـمَّا سَمِعَ حَدِيثاً عن النَّبِيِّ ﷺ في الصِّفَاتِ استِنكَاراً لِذَلِكَ، فَقَالَ: مَا فَرَقُ هَؤُلاَءِ؟ يَجِدُونَ رِقَّةً عِنْدَ مُحْكَمِهِ، وَيَهلِكُونَ عِندَ مُتَشَابِهِهِ»[٢]. انتهى.

قوله: «روى عبدالرزاق» وهو ابن همَّام الصنعاني، الإمام الحافظ صاحب التصانيف كـ «المصنف» وغيره، روى عنه أحمد بن حنبل ويحيى بن معين، وخلق لا يحصون. مات سنة إحدى عشرة ومئتين.

ومعمر هو ابن راشد الأزدي أبو عروة البصري، نزل اليمن، ثقة ثبت، مات سنة أربع وخمسين ومئة، وله ثمان وخمسون سنة.

وابن طاووس هو عبدالله بن طاووس اليماني، ثقة فاضل عباد، مات سنة اثنتين وثلاثين ومئة، وأبوه طاووس بن كيسان اليماني ثقة فقيه فاضل من جلة أصحاب ابن عباس وعلمائهم. مات سنة ست ومئة.

قوله: «إنه رأى رجلاً»: لم يسم هذا الرجل.

قوله: «انتفض»: أي: ارتعد لما سمع حديثاً عن النبي ﷺ فاستنكره، إما لأن عقله لا يحتمله، أو لكونه اعتقد عدم صحته فأنكره.

قوله: «فقال»: أي: ابن عباس وهو عبدالله -رضي الله عنه-.

قوله: «ما فرق هؤلاء»: يحتمل وجهين:

أحدهما: أن تكون (ما) استفهامية إنكارية، وفرق بفتح الفاء والراء وهو الخوف والفزع، أي: ما فزع هذا وأضرابه من أحاديث الصفات واستنكارهم لها؟

---

(١) هذا السند سند عظيم جيد.

(٢) بالنسبة لهم وإلا فآيات الصفات محكمة لا متشابهة وقد تكون متشابهة عند بعض الناس.

والمراد الإنكار عليهم، فإن الواجب على العبد التسليم والإذعان والإيمان بما صح عن الله وعن رسوله ﷺ وإن لم يحط به علماً. ولهذا قال الشافعي: آمنت بالله وبما جاء عن الله على مراد الله، وآمنت برسول الله، وما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله.

والثاني: أن يكون بفتح الفاء وتشديد الراء، ويجوز تخفيفها و(ما) نافية أي: ما فرق هذا وأضرابه بين الحق والباطل، ولا عرفوا ذلك؛ فلهذا قال: يجدون رقة وهي ضد القسوة، أي: ليناً وقبولاً للمحكم، ويهلكون عند متشابهه، أي: ما يشتبه عليهم فهمه؛ لأن آيات الصفات هي المتشابه[1] كما تقول الجهمية ونحوهم، ولأن في القرآن متشابهاً لا يعرف معناه كالألفاظ الأعجمية، فإن لفظ التشابه والمتشابه يدلان على بطلان ذلك، وإنما المراد بالمتشابه أي: ما يشتبه فهمه على بعض الناس دون بعض، فالمتشابه أمر نسبي إضافي؛ فقد يكون مشتبهاً بالنسبة إلى قوم بيناً جلياً بالنسبة إلى آخرين، ولهذا قال النبي ﷺ لما خرج على قوم يتراجعون في القرآن فغضب وقال: «**بهذا ضلت الأمم قبلكم؛ باختلافهم على أنبيائهم، وضرب الكتاب بعضه ببعض، وإن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضاً ولكن نزل لأن يصدق بعضه بعضاً فما عرفتم منه فاعملوا به وما تشابه عليكم فآمنوا به**» رواه ابن سعد، وابن الضريس وابن مردويه، وأما قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ (آل عمران: ٧) فقال ابن كثير: يخبر تعالى أن في القرآن آيات محكمات: أي بينات واضحات الدلالة لا التباس فيها على أحد، ومنه آيات أخر فيها اشتباه في الدلالة على كثير من الناس أو بعضهم فمن رد ما اشتبه عليه إلى الواضح منه، وحكم محكمه على متشابهه عنده فقد اهتدى، ومن

---

(١) لعل العبارة لأن آيات الصفات ليست المتشابه.

عكس انعكس. ولهذا قال: ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: أصله الذي يرجع إليه عند الاشتباه، وأخر متشابهات: أي تحتمل دلالتها موافقة المحكم، وقد تحتمل أشياء أخرى من حيث اللفظ والتركيب لا من حيث المراد، ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ (آل عمران: ٧) أي ضلال، وخروج عن الحق إلى الباطل فيتبعون ما تشابه منه، أي: إنما يأخذون منه بالمتشابه الذي يمكنهم أن يحرفوه إلى مقاصدهم الفاسدة، وينزلوه عليها لاحتمال لفظه لما يصرفونه فأما المحكم فلا نصيب لهم فيه، لأنه دافع لهم، وحجة عليهم؛ ولهذا قال: ﴿ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ﴾ أي: الإضلال لأتباعهم إيهاماً لهم أنهم يحتجون على بدعتهم بالقرآن، وهو حجة عليهم لا لهم. انتهى.

وقال ابن عباس: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ يعني أهل الشك؛ فيحملون المحكم على المتشابه، والمتشابه على المحكم، ويُلبِّسون فلبَّس الله عليهم. ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ قال: تأويله يوم القيامة لا يعلمه إلا الله. رواه ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وقوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[1] تقدم كلام ابن عباس، وقال مقاتل والسدي: يبتغون أن يعلموا ما يكون، وما عواقب الأشياء من القرآن.

قلت: فهذا التأويل الذي انفرد الله بعلمه هو العلم بحقائق الأشياء وما تؤول إليه وعواقبها كالإخبار بما يكون، وما في الجنة من النعيم، وما في النار من العذاب؛ فإن هذه الأمور وإن علمناها لكن العلم بحقائقها مما لا يعمله إلا الله، ولهذا قال

---

(١) له ثلاث معان:

أحدها: العواقب وحقائق الأشياء وما تؤول إليه.

الثاني: التفسير وفهم المعنى.

الثالث: صرف الكلام عن الاحتمال الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل يقترن به.

ابن عباس: ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء فعلى هذا يكون الوقف على لفظ الجلالة كما روي عن جماعة من السلف، وقيل: الوقف على قوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ أي: ما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم، فأما أهل الزيغ فلا يعلمون تأويله، وعلى هذا فالمراد بتأويله هو تفسيره وفهم معناه، وهذا هو المروي عن ابن عباس وجماعة من السلف. قال ابن أبي نجيح عن مجاهد، عن ابن عباس: أنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله، وقال مجاهد: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ يعرفون تأويله[1]، ويقولون آمنا به، وكذا قال الربيع بن أنس وغيره، فقد تبين ولله الحمد أنه ليس في الآية حجة للمبطلين في جعلهم ما أخبر الله به من صفات كماله هو المتشابه ويحتجون على باطلهم بهذه الآية، فيقال: وأين في الآية ما يدل على مطلوبكم؟ وهل جاء نص عن الله أو عن رسوله ﷺ أنه جعل ما وصف الله به نفسه، أو وصفه به رسوله متشابهاً؟ ولكن أصل ذلك أنهم ظنوا أن التأويل المراد في الآية هو صرف اللفظ عن ظاهره إلى ما يحتمله اللفظ لدليل يقترن بذلك، وهذا هو اصطلاح كثير من المتأخرين، وهو اصطلاح حادث، فأرادوا حمل كلام الله على هذا الاصطلاح فضلوا ضلالاً بعيداً وظنوا أن لنصوص الصفات تأويلاً يخالف ما دلت عليه لا يعلمه إلا الله كما يقوله أهل التجهيل أو يعلمه المتأولون كما يقوله أهل التأويل، وفي الأثر المشروح دليل على ذكر آيات الصفات، وأحاديثها بحضرة عوام المؤمنين وخواصهم، وأن من ردّ شيئاً منها واستنكره بعد صحته فهو ممن لم يفرق بين الحق والباطل، بل هو من الهالكين وأنه ينكر عليه استنكاره.



(١) ومنه قول ابن جرير القول في تأويل قوله تعالى أي تفسيرها.

وَلَـمَّا سَمِعَت قُرَيش رَسُولَ الله ﷺ يَذكُرُ الرَّحمنَ، أَنكَرُوا ذَلِكَ، فَأَنزَلَ الله: ﴿وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ﴾ (الرعد: ٣٠).

هكذا ذكر المصنف هذا الأثر بالمعنى، وقد روى ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج في الآية قال: هذا لما كاتب رسول الله ﷺ قريشاً في الحديبية كتب: «بسم الله الرحمن الرحيم فقالوا: لا نكتب الرحمن، ولا ندري ما الرحمن، ولا نكتب إلا باسمك اللهم، فأنزل الله: ﴿وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ﴾ (الرعد: ٣٠) الآية»، وفيه دليل على أن من أنكر شيئاً من الصفات فهو من الهالكين[1]؛ لأن الواجب على العبد الإيمان بذلك سواء فهمه أم لم يفهمه، وسواء قبله عقله أو أنكره فهذا هو الواجب على العبد في كل ما صح عن الله ورسوله ﷺ، وهو الذي ذكر الله تعالى عن الراسخين في العلم أنهم ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾ (آل عمران: ٧).



---

(١) أي لأنه كافر والكافر هالك.

باب

قَوْلُ الله تَعَالَى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ (النحل: ٨٣) الآية[(١)].

الشَّرْحُ:

المراد بهذه الترجمة التأدب مع جناب الربوبية عن الألفاظ الشركية الخفية كنسبة النعم إلى غير الله؛ فإن ذلك باب من أبواب الشرك الخفي وضده باب من أبواب الشكر[(٢)] كما في الحديث الذي رواه ابن حبان في «صحيحه» عن جابر مرفوعاً: «**من أولى معروفاً فلم يجد له جزاء إلا الثناء فقد شكره، ومن كتمه فقد كفره**[(٣)]»، وفي رواية جيدة لأبي داود: «**من أبلي فذكره فقد شكره، ومن كتمه فقد كفره**». قال المنذري: «من أبلي» أي: من أُنعم عليه، الإبلاء الإنعام فإذا كان ذكر المعروف الذي يقدره الله على أيدي إنسان من شكره[(٤)]، فذكره معروف رب العالمين، وآلائه وإحسانه ونسبة ذلك إليه أولى بأن يكون شكراً[(٥)].



(١) المقصود من هذا الباب وجوب شكر نعم الله بالاعتراف بها بالقلب واللسان ونشرها بين الناس وعدم إنكارها وجحودها واستعمالها في طاعة الله ومرضاته.

(٢) وشكر الرب يكون بمحبة الرب وتعظيمه والاعتراف بنعمته بالقلب، والثناء عليه باللسان ونسبتها إليه وحمده وذكرها ونشرها بين الناس، واستعمالها في طاعة الله ومرضاته بجوارحه، فالشكر يكون بالقلب وباللسان وبالجوارح، كما قال الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة ... يدي ولساني والضمير المحجبا

(٣) أي المعروف.

(٤) وفي الحديث: «من لا يشكر الناس لا يشكر الله».

(٥) لأنه المنعم على الحقيقة والمنعم على الإطلاق.

قَالَ مُجَاهِدُ مَا مَعنَاهُ: «هُوَ قَولُ الرَّجُلِ: هَذَا مَالِي، وَرِثتُهُ عَن آبَائِي».

هذا الأثر رواه ابن جرير وابن أبي حاتم، لفظه كما في «الدر»[١]: المساكن والأنعام وسرابيل الثياب، والحديد يعرفه كفار قريش ثم ينكرونه بأن يقولوا: هذا كان لآبائنا ورثناه عنهم[٢]. قال ابن القيم ما معناه: لما أضافوا النعمة إلى غير الله فقد أنكروا نعمة الله بنسبتها إلى غيره، فإن الذي يقول هذا جاحد لنعمة الله عليه غير معترف بها، وهو كالأبرص والأقرع اللذين ذكَّرهما الملك بنعم الله عليهما فأنكراها وقالا: إنما ورثنا هذا كابراً عن كابر، وكونُها موروثة عن الآباء أبلغ في إنعام الله عليهم إذ أنعم بها على آبائهم ثم ورثهم إياها فتمتعوا هم وآباؤهم بنعمه.



(١) هو كتاب «الدر المنثور في التفسير بالمأثور» للسيوطي، وهو كتاب يجمع الغثّ والسمين، ولكنه يفيد طالب العلم.

(٢) لكن إذا قال ذلك على سبيل الإخبار بالأسباب في خصومة أو غيرها؛ فلا يكون من باب الكفر بالنعمة بل من الإخبار، ولا شيء فيه.

وَقَالَ عَونُ بنُ عَبدِالله: «يَقُولُونَ: لَولاَ فُلاَنٌ[١]، لَم يَكُن كَذَا».

هذا الأثر روه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ولفظه كما في «الدر» لولا فلان أصابني كذا وكذا، ولولا فلان لم أصب كذا وكذا[٢]. وعون هذا هو ابن عبدالله ابن عتبة بن مسعود الهذلي أبو عبدالله الكوفي ثقة عابد. مات قبل سنة عشرين ومئة.

قوله: «لولا فلان» إلى آخره قال ابن القيم ما معناه: هذا يتضمن قطع إضافة النعمة عن مَنْ لولاه هو لم تكن، وإضافتها إلى من لم يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً فضلاً عن غيره، وغايته أن يكون جزءاً من أجزاء السبب أجرى الله نعمته على يده، والسبب لا يستقل بالإيجاد وجعله سبباً هو من نعم الله عليه فهو المنعم بتلك النعمة، وهو المنعم بما جعله من أسبابها[٣]؛ فالسبب والمسبَّب من إنعامه وهو تعالى كما أنه قد ينعم بذلك السبب؛ فقد ينعم بدونه[٤] ولا يكون له أثر وقد يسلبه سببيته، وقد يجعل لها معارضاً يقاومها، وقد يرتِّب على السبب ضد مقتضاه فهو وحده المنعم على الحقيقة.



(١) وينسى المنعم.

(٢) والذي ينبغي أن يقول لولا الله ثم فلان وقد ورد الحديث في قصة أبي طالب «لولا أنا لكان في غمرات من النار» وهذا قليل والأول هو الذي ينبغي.

(٣) كالمال الذي يحصل من طريق الزراعة أو التجارة فهو المنعم بهذه الأسباب.

(٤) كالمال من إرث أو هدية.

وَقَالَ ابْنُ قُتَيبَةُ: «يَقُولُونَ: هَذَا بِشَفَاعَةِ آلِهَتِنَا».

ابن قتيبة: هو عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري الحافظ، صاحب التفسير والمعارف وغيرها. وثقه الخطيب وغيره، ومات سنة سبع وستين ومئتين أو قبلها.

قوله: «يقولون هذا بشفاعة آلهتنا»: قال ابن القيم: هذا يتضمن الشرك مع إضافة النعمة إلى غير وليها؛ فالآلهة التي تعبد من دون الله أحقر وأذل من أن تشفع عند الله، وهي محضرة في الهوان والعذاب مع عابديها وأقرب الخلق إلى الله، وأحبهم إليه لا يشفع عنده إلا من بعد إذنه لمن ارتضاه؛ فالشفاعة بإذنه من نعمه، فهو المنعم بالشفاعة، وهو المنعم بقبولها، وهو المنعم بتأهيل المشفوع له، إذ ليس كل أحد أهلاً أن يشفع له فمن المنعم على الحقيقة سواه؟ قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ (النحل: ٥٣) فالعبد لا خروج له عن نعمة الله وفضله ومنته وإحسانه طرفة عين، لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولهذا ذم سبحانه من آتاه شيئاً من نعمه فقال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ (القصص: ٧٨).



وَقَالَ أَبُو العَبَّاسِ: بَعدَ حَدِيثِ زَيْد بنِ خَالِد الَّذِي فِيهِ: «أَنَّ الله تَعَالَى قَالَ: أَصبَحَ مِن عِبادِيَ مُؤمِنٌ بِي وَكَافِر» الحَدِيثُ وَقَد تَقَدَّمَ، وَهَذَا كَثِيرٌ في الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، يَذُمُّ سُبحَانَهُ مَنْ يُضِيفُ إِنعَامَهُ إِلى غَيرِهِ وَيُشرِكُ بِهِ.

قَالَ بَعضُ السَّلَفِ: هُوَ كَقَولِهم: كَانَت الرِّيحُ طَيبَةً، وَالمَلَاّحُ حَاذِقاً، وَنَحوِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ جَارٍ عَلَى أَلسِنَةٍ كَثيرٍ[1].

قوله: «**وقال أبو العباس**»: هو شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-.

قوله: «**قال بعض السلف**»: لم أقف على تسمية هذا البعض.

قوله: «**كانت الريح طيبة، والملاح حاذقاً**»: الملاح هو سائس السفينة والمعنى أن السفن إذا جرين بريح طيبة بأمر الله جرياً حسناً نسبوا ذلك إلى طيب الريح، وحذق الملاح في سياسة السفينة، ونسوا[2] ربهم الذي أجرى لهم الفلك في البحر رحمة بهم كما قال تعالى: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾﴾ (الإسراء: ٦٦) فيكون نسبة ذلك إلى طيب الريح، وحذق الملاح من جنس نسبة المطر إلى الأنواء، وإن كان المتكلم بذلك لم يقصد أن الريح والملاح هو الفاعل لذلك من دون خلق الله وأمره وإنما أراد أنه سبب، لكن لا ينبغي أن يضيف ذلك إلا إلى الله وحده؛ لأن غاية الأمر في ذلك أن يكون الريح والملاح سبباً، أو جزء سبب، ولو شاء الرب تبارك وتعالى لسلبه سببيّته، فلم يكن

---

(١) وينسى الله والواجب أن يقول وصلنا بتيسير الله وتوفيقه، ثم يذكر الأسباب فيقول بسبب كون الملاح حاذقاً والريح كانت طيبة.

(٢) القاعدة في هذا أن الفعل إذا اتصل بالواو «واو الجماعة» فإن كان يائياً أي فصل الآخر بالياء فإنه يضم ما قبل الواو مثل نسي ورضي فيقال: نسُوا ورضُوا، أما إذا كان فصل الآخر بالألف فإنه يفتح ما قبل الواو للدلالة على الألف المحذوفة مثل دعا وغزا ورمى، فيقال: دعَوا، وغزَوا، ورمَوا. ا.هـ (شيخنا).

سبباً أصلاً فلا يليق بالمُنعَم عليه المطلوب منه الشكر أن ينسى من بيده الخير كله وهو على كل شيء قدير، ويضيف النعم إلى غيره، بل يذكرها مضافة منسوبة إلى موليها(١) والمنعم بها، وهو المنعم على الإطلاق كما قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ (النحل: ٥٣) فهو المنعم بجميع النعم في الدنيا والآخرة وحده لا شريك له، فإن ذلك من شكرها وضده من إنكارها، ولا ينافي ذلك الدعاء والإحسان إلى من كان سبباً أو جزء سبب في بعض ما يصل إليك من النعم من الخلق. قال المصنف: وفيه اجتماع الضدين في القلب(٢).



(١) في المخطوطة «مُوليها» وهي أولى.

(٢) وهما الإيمان والشكر والكفر.

باب

قَولُ الله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا[1] وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ (البقرة: ٢٢).

الشَّرْحُ:

اعلم أن من تحقيق التوحيد الاحتراز من الشرك بالله في الألفاظ، وإن لم يقصد المتكلم بها معنى لا يجوز، بل ربما تجري على لسانه من غير قصد، كمن يجري على لسانه ألفاظ من أنواع الشرك الأصغر لا يقصدها.

فإن قيل: الآية نزلت في الأكبر؟

قيل: السلف يحتجون بما نزل في الأكبر على الأصغر كما فسرها ابن عباس، وغيره فيما ذكره المصنف عنه بأنواع الشرك الأصغر، وفسرها أيضاً بالشرك الأكبر وفسرها غيره بشرك الطاعة، وذلك لأن الكل شرك، ومعنى الآية أن الله تبارك وتعالى نهى الناس أن يجعلوا له أنداداً أي: أمثالاً في العبادة والطاعة وهم يعلمون أن الذي فعل تلك الأفعال فهو ربهم وخالقهم وخالق من قبلهم، وجاعل الأرض فراشاً، والسماء بناءً، والذي أنزل من السماء ماءً فأخرج به من أنواع الثمرات رزقاً لهم فإذا كنتم تعلمون ذلك فلا تجعلوا له أنداداً.

قال ابن القيم: فتأمل هذه، وشدة لزومها لتلك المقدمات قبلها، وظفر العقل بها بأول وهلة، وخلوصها من كل شبهة وريب وقادح إذا كان الله وحده هو الذي فعل هذه الأفعال فكيف تجعلون له أنداداً وقد علمتم أنه لا ند له يشاركه في فعله؟!



(١) أراد المصنف -رحمه الله- بهذه الترجمة أن التنديد نوعان أكبر كأن يدعو الند أو يذبح له، وأصغر كقول ما شاء الله وشئت.

قَالَ ابنُ عَبَّاسٍ فِي الآيَةِ: «الأندَادُ: هُوَ الشِّركُ، أَخفَى مِن دَبِيبِ النَّملِ عَلَى صَفاةٍ سَودَاءَ فِي اللَّيلَةِ الظلْماء، وَهُوَ أَن تَقُولَ: وَالله وحياتِكَ يَا فُلَانُ، وَحَيَاتِي، وَتَقُولَ: لَولاَ كُلَيبَةُ هَذَا لأَتَانا اللُّصُوصُ فِيهَا، وَلَولاَ البَطُّ فِي الدَّارِ لأَتَانا اللُّصُوصُ، وَقَولُ الرَّجُلِ لِصَاحِبِهِ: مَا شَاءَ الله وَشِئتَ، وَقَولُ الرَّجُلِ: لَولاَ اللهُ وفُلاَنٌ. لاَ تَجعَل فُلاَن؛ هَذَا كُلُّهُ بِهِ شِركٌ». [رَوَاهُ ابنُ أَبِي حَاتِمٍ].

هذا الأثر رواه ابن أبي حاتم، كما قال المنصف وسنده جيد.

قوله: «هو الشرك أخفى من دبيب النمل» إلى آخره. أي: إن هذه الأمور[1] من الشرك خفية في الناس، لا يكاد يتفطن لها ولا يعرفها إلا القليل، وضرب المثل لخفائها بما هو أخفى شيء وهو أثر النمل؛ فإنه خفي، فكيف إذا كان على صفاة؟ فكيف إذا كانت سوداء فكيف إذا كانت في ظلمة الليل؟ وهذا يدل على شدة خفائه على من يدعي الإسلام، وعسر التخلص منه، ولهذا جاء في حديث أبي موسى قال: خطبنا رسول الله ﷺ ذات يوم فقال: «**أيها الناس اتقوا هذا الشرك، فإنه أخفى من دبيب النمل**»، فقال له من شاء الله أن يقول: وكيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل يا رسول الله؟ قال: «**قولوا اللهم إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئاً نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلمه**» رواه أحمد والطبراني.

قوله: «وهو أن تقول: والله وحياتك يا فلانة وحياتي». أي: إن من الحلف بغير الله، الحلف بحياة المخلوق، وسيأتي الكلام عليه.

قوله: «وتقول لولا كلبة هذا لأتانا اللصوص». أي: السراق.

والمعنى: أن من الشرك نسبة عدم السرقة إلى الكلبة التي إذا رأت السراق

---

(١) والذي ينبغي أن تقول لولا الله ثم فلان، لأن الله هو الذي حرك قلب هذا وجعل السبب على يديه، ثم بعد ذلك يذكر السبب.

نبحتهم، فاستيقظ أهلها وهرب السراق. وربما امتنعوا من إتيان المحل الذي هي فيه خوفاً من نباحها، فيعلم بهم أهلها كما روى ابن أبي الدنيا في «الصمت» عن ابن عباس قال: إن أحدكم ليشرك حتى يشرك بكلبه يقول: لولاه لسرقنا الليلة.

قوله: «ولولا البط في الدار لأتى اللصوص». البط بفتح الموحدة: طائر معروف يتخذ في البيوت، وإذا دخلها غريب صاح واستنكره، وهو الإوز بكسر الهمزة وفتح الواو ومعناها كالذي قبله. والواجب نسبة ذلك إلى الله تعالى، فهو الذي يحفظ عباده ويكلؤهم بالليل والنهار كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾﴾ (الأنبياء: ٤٢).

قوله: «وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت». وسيأتي الكلام عليها إن شاء الله.

قوله: «وقول الرجل: لولا الله وفلان لا تجعل فيها «فلان». هكذا ثبت بخط المصنف بلا تنوين، والمعنى: لا تجعل فيها أي: في هذه الكلمة فلاناً فتقول: لولا الله وفلان، بل قل: لولا الله وحده، ولا تقل: لولا الله وفلان، فهو نهي عن ذلك.

قوله: «هذا كله به». أي: بالله شرك، وأعاد الضمير على الله، لأن قد تقدم ذكر اسمه عز وجل، فتبيَّن أن هذه الأمور ونحوها من الألفاظ الشركية الخفية كما نص عليه ابن عباس -رضي الله عنه-.



وَعَن عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَن حَلَفَ بِغَيرِ اللهِ فَقَد كَفَرَ، أَو أَشرَكَ» [رَوَاهُ التِّرمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ، وَصَحَّحَهُ الحَاكِمُ].

قوله: «عن عمر بن الخطاب». هكذا وقع في الكتاب، وصوابه عن ابن عمر كذلك أخرجه أحمد، وأبو داود والترمذي، والحاكم وصححه ابن حبان. وقال الزين العراقي في «أماليه»: إسناده ثقات.

قوله: «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك». قال بعضهم ما معناه: رواه الترمذي بأو التي للشك، وفي ابن حبان والحاكم عدمها. وفي رواية للحاكم «**كل يمين يحلف بها دون الله شرك**»، وفي «الصحيحين» من حديث ابن عمر مرفوعاً: «**إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت**»، وعن بريدة مرفوعاً: «**من حلف بالأمانة فليس منا**» رواه أبو داود. والأحاديث في ذلك كثيرة، وقد تقدم كلام ابن عباس في عدِّه ذلك من الأنداد، وقال كعب: إنكم تشركون في قول الرجل: كلا وأبيك، كلا والكعبة، كلا وحياتك، وأشباه هذا، احلف بالله صادقاً أو كاذباً، ولا تحلف بغيره. رواه ابن أبي الدنيا في «الصمت». وأجمع العلماء على أن اليمين لا تكون إلا بالله أو بصفاته، وأجمعوا على المنع من الحلف بغيره. قال ابن عبد البر: لا يجوز الحلف بغير الله بالإجماع. انتهى.

ولا اعتبار بمن قال من المتأخرين: إن ذلك على سبيل كراهة التنزيه، فإن هذا قول باطل، وكيف يقال ذلك لما أطلق عليه الرسول ﷺ أنه كفر أو شرك، بل ذلك محرم، ولهذا اختار ابن مسعود -رضي الله عنه- أن يحلف بالله كاذباً، ولا يحلف بغيره صادقاً، فهذا يدل على أن الحلف بغير الله أكبر من الكذب مع أن الكذب من المحرمات في جميع الملل فدل ذلك أن الحلف بغير الله من أكبر المحرمات.

فإن قيل: إن الله تعالى أقسم بالمخلوقات في القرآن؟

قيل: ذلك يختص بالله تبارك وتعالى، فهو يقسم بما شاء من خلقه؛ لما في ذلك من الدلالة على قدرة الرب ووحدانيته، وإلهيته وعلمه وحكمته وغير ذلك من صفات كماله، وأما المخلوقات فلا يقسم إلا بالخالق تعالى، فالله تعالى يقسم بما شاء من خلقه وقد نهانا عن الحلف بغيره، فيجب على العبد التسليم والإذعان لما جاء من عند الله. قال الشعبي: الخالق يقسم بما شاء من خلقه والمخلوق لا يقسم إلا بالخالق، قال: ولأن أقسم بالله فأحنث أحب إليّ من أن أقسم بغيره فأبرّ، وقال مُطرِّف بن عبدالله: إنما أقسم لله بهذه الأشياء ليُعجِّب[1] بها المخلوقين، ويعرِّفهم قدرته لعظم شأنها عندهم، ولدلالتها على خالقها. ذكرهما ابن جرير.

فإن قيل: قد جاء في الحديث أن النبي ﷺ قال للأعرابي الذي سأله عن أمور الإسلام فأخبره، فقال النبي ﷺ: «**أفلح وأبيه إن صدق**» رواه البخاري[2]، وقال للذي سأله: أي الصدقة أفضل؟ «**أما وأبيك لتنبأنه**» رواه مسلم ونحو ذلك من الأحاديث.

قيل: ذكر العلماء عن ذلك أجوبة.

أحدها: ما قاله ابن عبدالبر في قوله: «**أفلح وأبيه إن صدق**». هذه اللفظة غير محفوظة، وقد جاءت عن راويها إسماعيل بن جعفر «أفلح والله إن صدق» قال: وهذا أولى من رواية من روى عنه بلفظ: «**أفلح وأبيه**» لأنها لفظة منكرة تردها الآثار الصحاح، ولم تقع في رواية مالك أصلاً، وزعم بعضهم أن بعض الرواة عنه صحف قوله: «**وأبيه**» من قوله: «والله». انتهى.

وهذا جواب عن هذا الحديث الواحد فقط ولا يمكن أن يجاب به عن غيره.

---

(١) يعجِّب: أي يجعلهم يعجبون بها لما فيها من الدلالة على قدرة الرب ووحدانيته.

(٢) ومسلم أيضاً.

الثاني: أن هذا اللفظ كان يجري على ألسنتهم من غير قصد للقسم به، والنهي إنما ورد في حق من قصد حقيقة الحلف. ذكره البيهقي. وقال النووي: إنه المرضي.

قلت: هذا جواب فاسد، بل أحاديث النهي عامة مطلقة ليس فيها تفريق بين من قصد القسم وبين من لم يقصد، ويؤيد ذلك أن سعد بن أبي وقاص -رضي الله عنه- حلف مرة باللات والعزى، ويبعد أن يكون أراد حقيقة الحلف بهما ولكنه جرى على لسانه من غير قصد على ما كانوا يعتادونه قبل ذلك، ومع هذا نهاه النبي ﷺ. غاية ما يقال: إن من جرى ذلك على لسانه من غير قصد معفو عنه، أما أن يكون ذلك أمراً جائزاً للمسلم أن يعتاده فكلا. وأيضاً فهذا يحتاج إلى نقل أن ذلك كان يجري على ألسنتهم من غير قصد للقسم، وأن النهي إنما ورد في حق من قصد حقيقة الحلف وأنى يوجد ذلك؟

الثالث: أن مثل ذلك يقصد به التأكيد لا التعظيم، وإنما وقع النهي عما يقصد به التعظيم.

قلت: وهذا أفسد من الذي قبله، وكأن من قال ذلك لم يتصور ما قال فهل يراد بالحلف إلا تأكيد المحلوف عليه بذكر من يعظمه الحالف والمحلوف له؟ فتأكيد المحلوف عليه بذكر المحلوف به مستلزم لتعظيمه، وأيضاً فالأحاديث مطلقة ليس فيها تفريق، وأيضاً فهذا يحتاج إلى نقل أن ذلك جائز للتأكيد دون التعظيم وذلك معدوم.

الرابع: أن هذا كان في أول الأمر ثم نسخ، فما جاء من الأحاديث فيه ذكر شيء من الحلف بغير الله فهو قبل النسخ، ثم نسخ ذلك ونهي عن الحلف بغير الله[1]

---

(١) هذا الجواب وهو القول بالنسخ وجيه لو فرضنا أنه لا يعلم التاريخ ولا يعلم أن أحاديث الجواز متقدمة فإن أحاديث النهي أكثر وأصح فهي أرجح من أحاديث الجواز ثم إن أحاديث النهي ناقلة عن الأصل وأحاديث الجواز مبقية على الأصل، والناقل مقدم على المبقي على الأصل، لأن الشريعة ناقلة فالقاعدة في النصوص إذا تعارضت أنه أولاً يجمع بينهما ومسلك =

وهذا الجواب ذكره الماوردي. قال السهيلي: أكثر الشراح عليه، حتى قال ابن العربي: روي أنه ﷺ كان يحلف بأبيه حتى نُهي عن ذلك. قال السهيلي: ولا يصح ذلك، وكذلك قال غيرهم، وهذا الجواب هو الحق ويؤيده أن ذلك كان مستعملاً شائعاً حتى ورد النهي عن ذلك كما في حديث ابن عمر أن النبي ﷺ أدرك عمر بن الخطاب يسير في ركب يحلف بأبيه فقال: «**ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت**» رواه البخاري ومسلم، وعنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «**من كان حالفاً فلا يحلف إلا بالله**» وكانت قريش تحلف بآبائها فقال: «**لا تحلفوا بآبائكم**» رواه مسلم، وعن سعد بن أبي وقاص -رضي الله عنه- قال: حلفت مرة باللات والعزى، فقال النبي ﷺ: «**قل لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ثم انْفُث عن يسارك وتعوذ**[1] **بالله ولا تعد**» رواه النسائي، وابن ماجه، وهذا لفظه، وفي هذا المعنى أحاديث، فما ورد فيه ذكر الحلف بغير الله فهو جار على العادة قبل النهي؛ لأن ذلك هو الأصل حتى ورد النهي عن ذلك.

وقوله: «فقد كفر أو أشرك»: أخذ به طائفة من العلماء فقالوا: يكفر من حلف بغير الله كفر شرك[2]، قالوا ولهذا أمره النبي ﷺ بتجديد إسلامه بقول: «**لا إله إلا الله**» فلولا أنه كفر ينقل عن الملة لم يؤمر بذلك، وقال الجمهور: لا يكفر كفراً ينقله عن الملة، لكنه من الشرك الأصغر كما نص على ذلك ابن عباس وغيره، وأما كونه أمر من حلف باللات والعزى أن يقول: لا إله إلا الله؛ فلأن هذا كفارةٌ له مع

= الجمع غير ممكن لأنه لا يمكن الجمع بين المنع والجواز، ثانياً إذا لم يمكن الجمع ينظر في التاريخ فينسخ المتقدم بالمتأخر، ثالثاً إذا لم يمكن معرفة التاريخ فينتقل إلى الترجيح بينها وهو هنا ممكن بترجيح أحاديث النهي لأنها أصح وأكثر وإذا لم يمكن الترجيح توقف المجتهد حتى يتبين له واحد من الأمور السابقة.

(١) أي من الشيطان.

(٢) أي كفراً ينقل عن الملة.

استغفاره كما قال في الحديث الصحيح: «**من حلف فقال في حلفه واللات والعزى فليقل: لا إله إلا الله**»، وفي رواية: «**فليستغفر**» فهذا كفارة له في كونه تعاطى صورة تعظيم الصنم، حيث حلف به لا أنه لتجديد إسلامه ولو قُدِّر ذلك فهو تجديد لإسلامه لنقصه بذلك لا لكفره، لكن الذي يفعله عُبّاد القبور إذا طلبت من أحدهم اليمين بالله أعطاك ما شئت من الأيمان صادقاً أو كاذباً فإذا طلبت منه اليمين بالشيخ أو تربته أو حياته ونحو ذلك لم يُقدم على اليمين به إن كان كاذباً فهذا شرك أكبر بلا ريب؛ لأن المحلوف[1] به عنده أخوف وأجل وأعظم من الله وهذا ما بلغ إليه شرك عُبّاد الأصنام؛ لأن جَهْد اليمين عندهم هو الحلف بالله كما قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ (النحل: ٣٨) فمن كان جَهْدُ يمينه الحلفَ بالشيخ أو بحياته، أو تربته فهو أكبر شركاً منهم، فهذا هو تفصيل القول في هذه المسألة، والحديث دليل على أنه لا تجب الكفارة بالحلف بغير الله مطلقاً؛ لأنه لم يذكر فيه كفارة للحلف بغير الله ولا في غيره من الأحاديث، فليس فيه كفارة إلا النطق بكلمة التوحيد، والاستغفار[2]، وقال بعض المتأخرين تجب الكفارة بالحلف برسول الله ﷺ خاصة، وهذا قول باطل ما أنزل الله به من سلطان، فلا يلتفت إليه وجوابه المنع.



(١) يعني لوجود العقيدة وهو تعظيم شيخه أعظم من الله.

(٢) كلام الشيخ سليمان على حديث عمر وابن عمر السابق كلام جيد حسن تعقد عليه الخناصر.

وَقَالَ ابنُ مَسعُودٍ: «لأَن أَحلِفَ بِالله كَاذِباً أَحَبُّ إليَّ مِن أَن أَحلِفَ بِغَيرِهِ صَادِقاً».

هكذا ذكر المصنف هذا الأثر عن ابن مسعود ولم يعزه. وقد ذكره ابن جرير غير مسند أيضاً. قال: وقد جاء عن ابن عباس وابن عمر نحوه، ورواه الطبراني بإسناد موقوفاً هكذا. قال المنذري: ورواته رواة الصحيح.

قوله: «لأن أحلف بالله» إلى آخره: (أن) هي المصدرية، والفعل بعدها منصوب في تأول مصدر مرفوع على الابتداء وأحب خبره، ومعناه ظاهر وإنما رجح ابن مسعود -رضي الله عنه- الحلف بالله كاذباً على الحلف بغيره صادقاً؛ لأن الحلف بالله توحيد، والحلف بغيره شرك، وإن قدر الصدق في الحلف بغير الله فحسنة التوحيد أعظم من حسنة الصدق، وسيئة الكذب أسهل من سيئة الشرك. ذكره شيخ الإسلام، وفيه دليل على أن الحلف بغير الله صادقاً أعظم من اليمين الغموس، وفيه دليل على أن الشرك الأصغر أكبر من الكبائر، وفيه شاهد للقاعدة المشهورة وهي: ارتكاب أقل الشرين ضرراً إذا كان لا بد من أحدهما[1].



(١) فإذا كان لا بد من اليمين فليحلف بالله ولو كان كاذباً.

وَعَن حُذَيفَةَ عَن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لاَ تَقُولُوا مَا شَاءَ الله وَشَاءَ فُلاَنٌ، وَلَكِنْ قُولُوا مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ مَا شَاءَ فُلاَنٌ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ.

هذا الحديث رواه أبو داود، كما قال المصنف، ورواه أحمد وابن أبي شيبة، والنسائي، وابن ماجه، والبيهقي، وله علة وله شواهد، وهو صحيح المعنى بلا ريب، وسيأتي الكلام على معناه في باب ما شاء الله وشئت إن شاء الله.



وَجَاءَ عَنْ إِبرَاهِيمَ النَّخعِي[١]: «أَنَّهُ يَكرَهُ[٢] أَن يَقُولَ الرَّجلُ: أَعُوذُ بِالله وَبِكَ، وَيَجُوزُ أَن يَقُولَ: بِالله ثُمَّ بِكَ. قَالَ: وَيَقُولُ: لَولاَ اللهُ ثُمَّ فُلاَنٌ. وَلاَ تَقُولُوا: وَلَولاَ اللهُ وَفلاَنٌ»[٣].

هذا الأثر رواه المصنف غير معزو، وقد رواه عبدالرزاق، وابن أبي الدنيا في كتاب «الصمت» عن مغيرة قال: كان إبراهيم يكره أن يقول: أعوذ بالله وبك، ويرخِّص أن يقول: أعوذ بالله ثم بك، ويكره أن يقول: لولا الله وفلان، ويرخِّص أن يقول: لولا الله ثم فلان. لفظ ابن أبي الدنيا وذلك -والله أعلم- لأن الواو تقتضي مطلق الجمع؛ فمنع منها للجمع لئلا يُوْهم الجمع بين الله وبين غيره كما منع من جمع اسم الله، واسم رسوله في ضمير واحد وثم إنما تقتضي الترتيب فقط، فجاز ذلك لعدم المانع، ومطابقة الحديثين والأثرين للترجمة ظاهرة[٤] على ما فسر به ابن عباس -رضي الله عنه- الآية.



---

(١) هو إبراهيم بن يزيد النخعي من صغار التابعين من أصحاب عبدالله بن مسعود وكانت وفاته سنة ست وتسعين وكان عمره خمسين سنة.

(٢) المراد بالكراهة التحريم لأنهم كانوا يتورعون من إطلاق لفظ التحريم فيعبِّرون عنه بالكراهة ويدل عليه قوله في الشرح «ويرخص» لأن الترخيص لا يكون إلا في المنهي عنه.

(٣) وأما الحديث الذي في «صحيح البخاري» في قصة أبي طالب: «ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار» فيجاب عنه بأحد جوابين؛ أحدهما: أنه من تصرّف بعض الرواة وهذا هو الأقرب، والثاني: أنه يدل على جواز مثل هذا القول لكن تركه أولى وأفضل.

(٤) من أن الحلف بغير الله، وقول ما شاء الله وشئت، وأعوذ بالله وبك، من التنديد الأصغر.

باب
ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله

عَن ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «لاَ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، مَنْ حَلَفَ بِالله، فَلْيَصْدُقْ، وَمَنْ حُلِفَ لَهُ بِالله، فَلْيَرْضَ(١)، وَمَنْ لَمْ يَرْضَ، فَلَيْسَ مِنَ الله»(٢).

[رَوَاهُ ابنُ مَاجَه بِسَنَدٍ حَسَنٍ].

الشَّرح:

أي: من الوعيد؛ لأن ذلك يدل على قلة تعظيمه لجناب الربوبية، إذ القلب الممتلئ بمعرفة عظمة الله وجلاله وعزته وكبريائه لا يفعل ذلك.

هذا الحديث رواه ابن ماجه في «سننه» وترجم عليه من «من حلف له بالله فليرض» حدثنا محمد بن إسماعيل بن سمرة، ثنا أسباط بن محمد، عن محمد بن عجلان، عن نافع، عن ابن عمر قال: سمع النبي ﷺ رجلاً يحلف بأبيه فقال: «**لا تحلفوا بآبائكم**» الحديث، وهذا إسناد جيد على شرط مسلم عند الحاكم وغيره فإنه متصل ورواته ثقات، بل قد روى مسلم عن ابن عجلان، عن نافع، عن ابن عمر أن النبي ﷺ كان يأتي قباء راكباً وماشياً، وأصل هذا الحديث في «الصحيحين» عن ابن عمر بلفظ: «**لا تحلفوا بآبائكم، من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت**»

---

(١) أي فليرض بحكم الله حيث جعل على خصمه اليمين حيث إنه قد فرّط في عدم طلب البينة وإيجادها التي تثبت حقه عند العقد، فعليه أن يرضى بحكم الشرع، وإن لم يرض عن خصمه الذي جحد حقه، ومعنى قوله: «فليرض»: أي فليرض بحكم الله لا أنه يرضى على الخصم بل يجوز له أن يغضب عليه وأن يدعو عليه إذا كان ظالماً وهذا هو الحكم الشرعي أن من ادعى على أحد شيئاً طلب منه البينة فإن لم يكن له بينة حلف له الخصم وليس له إلا ذلك وإن كان الخصم كافراً فيرضى بحكم الله لأن حكم الله فيما ليس فيه بيّنة يمين الخصم.

(٢) فيه الوعيد الشديد على من لم يرض بحكم الشرع.

وليس فيه هذه الزيادة.

قوله: «**لا تحلفوا بآبائكم**»: تقدم ما يتعلق به في الباب قبله.

قوله: «**من حلف بالله فليصدق**»: أي: وجوباً؛ لأن الصدق واجب، ولو لم يحلف بالله فكيف إذا حلف به؟ وأيضاً فالكذب حرام لو لم يؤكد الخبر باسم الله فكيف إذا أكده باسم الله؟

قوله: «**ومن حلف له بالله فليرض**»: أي: وجوباً كما يدل عليه قوله: «**ومن لم يرض فليس من الله**»، ولفظ ابن ماجه: «ومن لم يرض بالله فليس من الله» وهذا وعيد كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ (آل عمران: ٢٨) قال ابن كثير: أي: فقد برئ من الله، وهذا عام في الدعاوى وغيرها، ما لم يفض إلى إلغاء حكم شرعي، كمن تشهد عليه البينة الشرعية؛ فيحلف على تكذيبها فلا يقبل حلفه، ولهذا لما رأى عيسى -عليه السلام- رجلاً يسرق فقال له: سرقت قال كلا والله الذي لا إله إلا الله هو فقال عيسى: آمنت بالله وكذَّبتُ عيني. رواه البخاري، وفيه وجهان:

أحدهما: قال القرطبي: ظاهر قول عيسى -عليه السلام- للرجل سرقت أنه خبر جازم؛ لكونه أخذ مالاً من حرز في خُفية، وقول الرجل كلا نفي لذلك، ثم أكده باليمين، وقول عيسى: آمنتُ بالله وكذّبتُ عيني أي: صدقتُ من حلف بالله، وكذّبتُ ما ظهر لي من كون الأخذ سرقة، فإنه يحتمل أن يكون الرجل أخذ مالاً له فيه حق، أو مالاً أذن له صاحبه في أخذه، أو أخذه ليقلِّبه، وينظر فيه ولم يقصد الغصب والاستيلاء.

قلت: وهذا فيه نظر، وصدر الحديث يرده وهو قول النبي ﷺ: «**رأى عيسى رجلاً يسرق**» فأثبت ﷺ سرقته.

الثاني: ما قاله ابن القيم: إن الله تعالى كان في قلبه أجلُّ من أن يحلف به أحد

كاذباً فدار الأمر بين تهمة الحالف، وتهمة بصره فرد التهمة إلى بصره كما ظن آدم -عليه السلام- صدق إبليس لما حلف له أنه ناصح.

قلت: هذا القول أحسن من الأول وهو الصواب إن شاء الله تعالى. وحُدثت عن المصنف أنه حمل حديث الباب على اليمين في الدعاوى، كمن يتحاكم عند الحاكم فيحكم على خصمه باليمين فيحلف فيجب عليه أن يرضى[1].



(١) والظاهر أن الحديث عام في الدعاوى وغيرها ولكن في الدعاوى ليس له إلا اليمين إذا لم يكن للمدعي بينة.

باب
قول ما شاء الله وشئت

عَن قُتَيلَةَ: «أَنَّ يَهُودِيًّا[1] أَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: إِنَّكُمْ تُشْرِكُونَ، تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ، وَتَقُولُونَ: وَالكَعْبَةِ. فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَحْلِفُوا أَنْ يَقُولُوا: وَرَبِّ الكَعْبَةِ، وَأَن يَقُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ شِئْتَ». [رَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَصَحَّحَهُ].

الشرح:

أي: ما حكم التكلم بذلك هل يجوز أم لا؟ وإذا قلنا: لا يجوز فهل هو من الشرك أم لا؟

هذا الحديث رواه النسائي في «السنن»، وفي «اليوم والليلة» وهذا لفظه في «اليوم والليلة»: أخبرنا يوسف بن عيسى قال: ثنا الفضل بن موسى قال: أنا مسعر، عن معبد بن خالد، عن عبدالله بن يسار، عن قتيلة امرأة من جهينة أن يهودياً أتى النبي ﷺ فقال: «**إنكم تندِّدون وتشركون، تقولون: ما شاء الله وشئت، وتقولون: والكعبة فأمرهم النبي -عليه السلام- إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: ورب الكعبة، ويقول أحدكم: ما شاء الله ثم شئت**» ورواه عن أحمد بن حفص، حدثني أبي، حدثني إبراهيم بن طهمان، عن مغيرة، عن معبد بن خالد، عن قتيلة امرأة من جهينة قالت: دخلت يهودية على عائشة فقالت: إنكم تشركون وساق الحديث، ولم يذكر عبدالله بن يسار، والمشهور ذكره، وقد رواه ابن سعد، والطبراني،

---

(١) فيه قبول الحق ممن جاء به ولو كان كافراً.

وابن منده، وأشار ابن سعد إلى أنها ليس لها[١] غيره.

قوله: «**عن قتيلة**»: هو بضم القاف وفتح التاء بعدها مثناه تحتية مصغراً بنت صيفي الجهنية، أو الأنصارية صحابية.

قوله: «**إنكم تشركون تقولون ما شاء الله وشئت**»: هذا نص في أن هذا اللفظ من الشرك؛ لأن النبي ﷺ أقر اليهود على تسمية هذا اللفظ تنديداً وشركاً، ونهى النبي ﷺ عن ذلك، وأرشد إلى استعمال اللفظ البعيد من الشرك، وهو قول ما شاء الله ثم شئت، وإن كان الأولى قول: ما شاء الله وحده كما يدل عليه حديث ابن عباس وغيره، وعلى النهي عن قول: ما شاء الله وشئت جمهور العلماء إلا أنه حكي عن أبي جعفر الداودي ما يقتضي جواز ذلك احتجاجاً بقوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ﴾ (التوبة: ٧٤)، وقوله: ﴿وَإِذۡ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ﴾ (الأحزاب: ٣٧) ونحو ذلك، والصواب القول الأول فإن النبي ﷺ أنكر ذلك وقال لمن قال له ذلك: «**أجعلتني لله نداً**» وأقر اليهود على تسميته تنديداً وشركاً، ومن المحال أن يكون هذا أمراً جائزاً وأما ما احتج من القرآن فقد ذكروا عن ذلك جوابين.

أحدهما: أن ذلك لله وحده، لا شريك له كما أنه تعالى يقسم بما شاء من مخلوقاته فكذلك هذا.

الثاني: أن قوله: «**ما شاء وشئت**»: تشريك في مشيئة الله، وأما الآية فإنما أخبر بها عن فعلين متغايرين، فأخبر تعالى أنه أغناهم وأن رسوله أغناهم وهو من الله حقيقة؛ لأنه الذي قدّر ذلك، ومن الرسول ﷺ حقيقة باعتبار تعاطي الفعل، وكذا الإنعام أنعم الله على زيد بالإسلام والنبي ﷺ أنعم عليه بالعتق، وهذا بخلاف المشاركة في الفعل الواحد؛ فالكلام إنما هو فيه، والمنع إنما هو منه، فإن قلت: ذكر

---

(١) قتيلة.

النحاة أن ثم تقتضي اشتراك المعطوف والمعطوف عليه في الحكم كالواو فلم جاز ذلك بثم ومنع منه الواو؟ وغاية ما يقال: إن ثم تقتضي الترتيب بخلاف الواو؛ فإنها تقتضي مطلق الجمع، وهذا لا يغيّر صورة الاشتراك، قيل النهي عن ذلك؛ إنما هو إذا أتى بصورة التشريك جميعاً وهذا لا يحصل إلا بالواو بخلاف ثم؛ فإنها لا تقتضي الجمع في اللفظ، وأما المعنى فلله تعالى ما يختص به من المشيئة، وللمخلوق ما يختص به، فلو أتى بثم وأراد أنه شريك لله تعالى في المشيئة كـ لولا الله ثم فلان مثلاً لم يوجد ذلك فالنهي باق بحاله، بل يكون فيه هذه الصورة أشد ممن أتى بالواو مع عدم هذا الاعتقاد ويشبه ذلك الجمع بين اسم الله واسم غيره في ضمير واحد، ولهذا أنكره النبي ﷺ على الخطيب قال: ومن يعصهما فقد غوى فقال له: «**بئس الخطيب أنت**».

قوله: «فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: ورب الكعبة»: تقدم ما يتعلق بالحلف بغير الله قريباً.

وفي الحديث من الفوائد معرفة اليهود بالشرك الأصغر، وكثير ممن يدعي الإسلام لا يعرف الشرك الأكبر، بل يصرف خالص العبادات من الدعاء والذبح، والنذر لغير الله ويظن أن ذلك من دين الإسلام، فعلمت أن اليهود في ذلك الوقت أحسن حالاً ومعرفة منهم، وفيه فهم الإنسان إذا كان له هوى كما نبه عليه المصنف(١)، وأن المعرفة بالحق لا تستلزم الإيمان ولا العمل وقبول الحق مما جاء به، وإن كان عدواً مخالفاً في الدين، وأن الحلف بغير الله من الشرك، وأن الشرك الأصغر لا يمرق به الإنسان من الإسلام.



(١) فإن اليهود فهموا الشرك الأصغر من المسلمين ولم يبالوا بما هم عليه من الشرك الأكبر وجَحْد نبوة محمد -عليه السلام-.

[وَلَهُ] **أَيضاً عَن ابنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ رَجُلاً قَالَ للنَّبِيِّ ﷺ: مَا شَاءَ الله وَشِئتَ، قَالَ: «أَجَعَلتَنِي لله نِدّاً؟ مَا شَاءَ الله وَحدَهُ».**

هذا الحديث رواه النسائي، كما قال المصنف لكن في «اليوم والليلة» وهذا لفظه: أخبرنا علي بن خشرم، عن عيسى، عن الأجلح، عن يزيد بن الأصم، عن ابن عباس أن رجلاً أتى النبي ﷺ فكلمه في بعض الأمر فقال: ما شاء الله وشئت فقال النبي ﷺ: «**أجعلتني لله عدلاً؟ قل ما شاء الله وحده**» ورواه ابن ماجه في الكفارات من «السنن» عن هشام بن عمار، عن عيسى نحوه، ولفظه: «**إذا حلف أحدكم فلا يقل ما شاء الله وشئت**» الحديث. وقد تابع عيسى على هذا الحديث سفيان الثوري، وعبدالرحمن المحاربي، وجعفر بن عون، عن الأجلح وكلهم ثقات. وخالفهم القاسم بن مالك وهو ثقة فرواه عن الأجلح، عن أبي الزبير، عن جابر والأول أرجح، ويحتمل أن يكون عن الأجلح عنهما جميعاً[١].

قوله: «أجعلتني لله نداً» هذه رواية ابن مردويه، والرواية عند النسائي وابن ماجه «**أجعلتني لله عدلاً**» والمعنى واحد. قال ابن القيم: ومن ذلك أي: الشرك بالله في الألفاظ قول القائل للمخلوق ما شاء الله وشئت، كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال له رجل: ما شاء الله وشئت، وذكر الحديث المشروح، ثم قال: هذا مع أن الله قد أثبت للعبد مشيئة كقوله: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ۝٢٨﴾ (التكوير: ٢٨) فكيف بمن يقول: أنا متوكل على الله وعليك، وأنا في حسب الله وحسبك، وما لي إلا الله وأنت، وهذا من الله ومنك، وهذا من بركات الله وبركاتك، والله لي في السماء وأنت لي في الأرض، والله وحياة فلان أو يقول: نذراً لله ولفلان، وأنا تائب لله ولفلان، وأرجو الله وفلاناً فوازن بين هذه الألفاظ، وبين قول القائل: ما شاء الله

---

(١) فيكون من المزيد في متصل الأسانيد.

وشئت، ثم انظر أيهما أفحش يتبين أن قائلها أولى بجواب النبي ﷺ لقائل تلك الكلمة، وأنه إذا كان قد جعله نداً بها، فهذا قد جعل من لا يداني رسول الله ﷺ في شيء من الأشياء بل لعله أن يكون من أعدائه نداً لرب العالمين فالسجود والعبادة والتوكل والإنابة والتقوى والخشية والتوبة والنذر، والحلف والتسبيح والتكبير، والتهليل والتحميد، والاستغفار، وحلق الرأس خضوعاً وتعبداً، والطواف بالبيت والدعاء كل ذلك محض حق الله الذي لا يصلح ولا ينبغي لسواه من ملك مقرب ولا نبي مرسل، وفي «مسند الإمام أحمد» أن رجلاً أتي به إلى النبي ﷺ، قد أذنب فلما وقف بين يديه قال: اللهم إني أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد فقال: «**عرف الحق لأهله**».

قلت: إذا كان هذا كلامه ﷺ لمن قال له ما شاء الله وشئت فكيف بمن يقول فيه:

فإن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم

ويقول في همزيته:

هذا علتي وأنت طبيبي ليس يخفى عليك في القلب داء(١)

وأشباه هذا من الكفر الصريح.



(١) فجعله يعلم الغيب ويعلم أمراض القلوب.

[وَلابنِ مَاجه]: عَن الطُّفَيلِ -أَخِي عَائِشَةَ لأُمِّهَا- قَالَ: رَأَيتُ[١] كَأَنِّي أَتَيتُ عَلَى نَفرٍ مِنَ اليَهُودِ؛ قُلتُ: إِنَّكُم لأَنْتُمْ القَوْمُ لَوْلاَ أَنَّكُمْ تَقُولُون: عُزَيْرٌ ابْنُ الله. قَالَوا: وَإِنَّكُمْ لأنتُم القَوْمُ لَوْلاَ أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: مَا شَاءَ الله وَشَاءَ مُحَمَّدٌ. ثُمَّ مَررتُ بِنَفَرٍ مِنَ النَّصَارَى، فَقُلت: إِنَّكُم لأَنْتُمْ القَوْمُ لَوْلاَ أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: المَسِيحُ ابْنُ الله. قَالَوا: وَإِنَّكُمْ لأَنتُم القَوْمُ لَوْلاَ أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: مَا شَاءَ الله وَشَاءَ مُحَمَّدٌ. فَلَـمَّا أَصْبَحتُ. أَخْبَرتُ بِهَا مَنْ أَخْبَرت، ثُمَّ أَتَيتُ النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرتُهُ، قَالَ: «هَلْ أَخْبَرْتَ بِهَا أَحَدًا؟» قُلتُ: نَعَمْ. قَالَ: فَحَمِدَ الله، وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعدُ؛ فَإِنَّ طُفَيْلاً رَأَى رُؤْيَا أَخْبرَ مَنْ أَخْبرَ، وَإِنَّكُمْ قُلتُم كَلِمَةً كَانَ يَمْنُعُنِي كَذَا وَكَذَا أَنْ أَنْهَاكُمْ عَنْهَا؛ فلاَ تَقُولُوا: مَا شَاءَ الله وَشَاءَ مُحَمَّدٌ، وَلكِن قُولُوا: مَا شَاءَ الله وَحدَهُ».

هذا الحديث لم يروه ابن ماجه بهذا اللفظ عن الطفيل، إنما رواه عن حذيفة ولفظه: حدثنا هشام بن عمار، ثنا سفيان بن عيينة، عن عبدالملك بن عمير، عن ربعي ابن حراش، عن حذيفة بن اليمان أن رجلاً من المسلمين رأى في النوم أنه لقي رجلاً من أهل الكتاب فقال: نعم القوم أنتم لولا أنكم تشركون، تقولون: ما شاء الله وشاء محمد، وذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: «**أما والله إن كنتُ لأعرفها لكم قولوا: ما شاء الله ثم شاء محمد**». ورواه أحمد والنسائي بنحوه.

وفي رواية للنسائي أن الراوي لذلك هو حذيفة نفسه. هذه رواية ابن عيينة، ثم ذكر ابن ماجه حديث الطفيل هذا فساق إسناده ولم يذكر اللفظ.

---

(١) هذه الرؤيا عظيمة كانت سبباً لشرع بعض الأحكام، وفيه فهم اليهود والنصارى للشرك الأصغر وغفلتهم وإعراضهم عن الشرك الأكبر.

فقال: حدثنا ابن أبي الشوارب ثنا ابن عوانة، عن عبدالملك، عن ربعي بن حراش، عن الطفيل بن سخبرة أخي عائشة لأمها، عن النبي ﷺ بنحوه، هذا لفظ ابن ماجه. وهكذا رواه حماد بن سلمة وشعبة وابن إدريس عن عبدالملك، فقالوا: عن الطفيل وهو الذي رجحه الحفاظ، وقالوا: ابن عيينة وهم في قوله: عن حذيفة فقد تبيَّن أن هذا الحديث المذكور لم يروه ابن ماجه بهذا اللفظ، ولكن رواه أحمد والطبراني بنحو مما ذكره المصنف.

قوله: «عن الطفيل». هو ابن سخبرة وفي حديثه هذا أنه أخو عائشة لأمها، وكذا قال الحربي. وقال الذي عندي أن الحارث بن سخبرة قدم مكة، فحالف أبا بكر فمات، فخلف أبو بكر على أم رومان فولدت له عبدالرحمن وعائشة، وكان لها من الحارث الطفيل بن الحارث، فهو أخو عائشة لأمها. وقيل غير ذلك. وهو صحابي ليس له إلا هذا الحديث. قال البغوي: لا أعلم له غيره.

قوله: «رأيت فيما يرى». كما روى أحمد، والطبراني.

قوله: «على نفر من اليهود». وفي رواية أحمد، والطبراني، كأني مررت برهط من اليهود فقلت: من أنتم؟ فقالوا: نحن اليهود. والنفر رهط الإنسان وعشيرته، وهو اسم جمع يقع على جماعة من الرجال خاصة، ما بين الثلاثة إلى العشرة، ولا واحد له من لفظه. قاله أبو السعادات.

قوله: «فقلت: إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: عزير ابن الله» . أي: نعم القوم أنتم لولا ما أنتم عليه من الشرك. والمسبة لله بنسبة الولد إليه، وهذا لفظ الطبراني، ولفظ أحمد قال: أنتم القوم.

قوله: «قالوا: وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد». عارضوه بذكر شيء مما في المسلمين من الشرك الأصغر فقالوا له: هذا الكلام، أي: نعم القوم أنتم لولا ما فيكم من الشرك، وكذلك جرى له مع النصارى.

قوله: «**فلما أصبحت أخبرت بـها من أخبرت**». وفي رواية أحمد: فلما أصبح أخبر بها من أخبر، وفي رواية الطبراني: فلما أصبحت أخبرت بها أناساً.

قوله: «**ثم أتيتُ النبي ﷺ، فأخبرته**». فيه حسن خلقه ﷺ، وعدم احتجابه عن الناس كالملوك بحيث إذا أراد أحد الوصول إليه أمكنه ذلك بلا كلفة ولا مشقة، بل يصلون إليه ويقضي حاجتهم[١] ويخبرونه بما يحتاجون إليه من أمر دينهم ودنياهم ويقصون عليه ما يرونه في المنام، بل كان ﷺ يعتني بالرؤيا لأنها من أقسام الوحي، وكان إذا صلى الصبح كثيراً ما يقول: «**هل رأى أحد منكم رؤيا؟**».

قوله: «**فحمد الله وأثنى عليه**»، وفي رواية أحمد «فلما أصبحوا خطبهم فحمد الله وأثنى عليه»، وفي رواية الطبراني: «**فلما صلى الظهر قام خطيباً**» ففيه مشروعية حمد الله والثناء عليه في الخطب، وفيه الخطبة في الأمور المهمة، وأما معنى الحمد فقد تقدم في باب قول الله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا﴾ (الأعراف: ١٩١)، وأما الثناء فقال ابن القيم: هو تكرار المحامد[٢].

قوله: «**ثم قال: أما بعد**»: في رواية أحمد، والطبراني: «**ثم قال: إن طفيلاً رأى رؤيا**» ولم يذكر أما بعد، وفي رواية الطبراني فقام نبي الله على المنبر فقال: «**إن أخاكم رأى رؤيا قد حدثكم بما رأى**» فيه مشروعية (أما بعد) في الخطب في هذا الحديث، وإلا فلا يضر فإنها ثابتة في خطبه -عليه السلام-، وفي غيره.

قوله: «**وإنكم قلتم كلمة كان يمنعني كذا وكذا أن أنـهاكم عنها**»، وفي رواية أحمد، والطبراني: «**وإنكم كنتم تقولون كلمة كان يمنعني الحياء منكم أن أنـهاكم عنها**» وهذا الحياء منه ليس على سبيل الحياء من الإنكار عليهم بل كان ﷺ يكرهها ويستحيي أن يذكرها؛ لأنه لم يؤمر بإنكارها فلما جاء الأمر الإلهي بالرؤيا

---

(١) بل كانت المرأة تأخذ بيده ﷺ فيقضي حاجتها.

(٢) بفتح التاء، تكرار وتعداد، وجميع المصادر قالوا إلا تلقاء، وتبيان فإنهما تكسران.

الصالحة أنكرها، ولم يستحي في ذلك.

وفيه دليل على أنها من الشرك الأصغر؛ إذ لو كانت من الأكبر لأنكرها من أول مرة قالوها، وفيه ما كان عليه النبي ﷺ من الحياء، وأنه من الأخلاق المحمودة.

قوله: «فلا تقولوا: ما شاء الله وشاء محمد، ولكن قولوا: ما شاء الله وحده» هذا على سبيل الاستحباب وإلا فيجوز أن يقول: ما شاء الله ثم شاء فلان كما تقدم[1].

وفيه أن الرؤيا قد تكون سبباً لشرع بعض الأحكام كما في هذا الحديث، وحديث الأذان، وحديث الذكر بعد الصلوات[2].



(١) فهي ثلاث حالات، ما شاء الله وشاء محمد؛ هذا ممنوع، الثانية وما شاء الله ثم شاء فلان جائز، وما شاء الله وحده أكمل ومستحب.

(٢) يشير إلى ما ورد في الرؤيا من قول القائل لهم قولوا سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر بعد الصلوات.

باب
من سبّ الدهر(١) فقد آذى الله

وَقَولُ الله تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾ (الجاثية: ٢٤).

الشَّرْح:

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد ظاهرة؛ لأن سب الدهر يتضمن الشرك كما سيأتي بيانه، ولفظ الأذى في اللغة هو لما خف أمره، وضعف أثره من الشر والمكروه. ذكره الخطابي. قال شيخ الإسلام: وهو كما قال وهذا بخلاف الضرر فقد أخبر سبحانه أن العباد لا يضرونه كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ﴾ (آل عمران: ١٧٦) فبيّن سبحانه أن الخلق لا يضرونه، لكن يؤذونه إذا سبُّوا مقلب الأمور.

وقال: «وقول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ﴾» الآية.

قال ابن كثير: يخبر تعالى عن قول الدهرية من الكفار ومن وافقهم من مشركي العرب في إنكار المعاد ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ قال ابن جرير: أي: ما حياة إلا حياتنا التي نحن فيها، لا حياة سواها تكذيباً منهم بالبعث بعد الموت ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ قال ابن كثير: أي: يموت قوم ويعيش آخرون، وما ثَمَّ معاد ولا قيامة،

---

(١) كمن يلعن الساعة أو اليوم.

وهذا يقوله مشركو العرب المنكرون للمعاد، وتقوله الفلاسفة الإلهيون[١] منهم، وهم ينكرون البداءة والرجعة وتقوله الفلاسفة الدورية المنكرون للصانع، المعتقدون في كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كل شيء على ما كان عليه فزعموا أن هذا قد تكرر مرات لا تتناهى فكابروا العقول وكذَّبوا المنقول، ولهذا قالوا: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ قال ابن جرير: أي ما يهلكنا فيفنينا إلا مرّ الليالي والأيام وطول العمر إنكاراً منهم أن يكون لهم رب يفنيهم ويهلكهم، ثم روى بإسناد على شرط «الصحيحين» عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «كان أهل الجاهلية يقولون: إنما يهلكنا الليل والنهار، وهو الذي يهلكنا ويميتنا ويحيينا، فقال الله في كتابه: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ قال فيسبون الدهر فقال الله تبارك وتعالى: «يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر[٢] أقلِّب الليل والنهار».

قوله: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ (الجاثية: ٢٤) قال ابن جرير: يعني من يقين علم ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾ قال ابن كثير: يتوهمون ويتخيلون.

فإن قلت: فأين مطابقة الآية للترجمة إذا كانت خبراً عن الدهرية المشركين؟

قيل: المطابقة ظاهرة، لأن من سبّ الدهر فقد شاركهم في سبه، وإن لم يشاركهم في الاعتقاد.



(١) الذين يتكلمون في الإلهيات والرب والمعاد أرسطو وأتباعه.

(٢) أي خالق الدهر ومقلِّب الدهر ومصرِّفه كما سيأتي.

في «الصَّحِيحِ» عَن أَبِي هُرَيرَةَ عَن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «قَالَ الله تَعَالَى: يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ؛ أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ».

وَفِي رِوَايَةٍ: «لاَ تَسُبُّوا الدَّهْرَ، فَإِنَّ اللهَ هُوَ الدَّهْرُ».

قوله: «في الصحيح». أي: «صحيح البخاري» ورواه أحمد بهذا اللفظ، وأخرجه مسلم بلفظ آخر.

قوله: «يؤذيني ابن آدم يسب الدهر». فيه أن سب الدهر يؤذي الله تبارك وتعالى. قال الشافعي في تأويله والله أعلم. إن العرب كان من شأنها أن تذم الدهر، وتسبه عند المصائب التي تنزل بهم، من موت، أو هرم، أو تلف، أو غير ذلك، فيقولون: إنما يهلكنا الدهر وهو الليل والنهار، ويقولون: أصابتهم قوارع الدهر، وأبادهم الدهر. فيجعلون الليل والنهار يفعلان الأشياء، فيذمون الدهر بأنه الذي يفنيهم، ويفعل بهم.

فقال رسول الله ﷺ: **«لا تسبوا الدهر»**. على أنه الذي يفنيكم والذي يفعل بكم هذه الأشياء، فإنكم إذا سببتم فاعل هذه الأشياء، فإنما تسبون الله تبارك وتعالى، فإنه فاعل هذه الأشياء. انتهى.

قلت: والظاهر أن المشركين نوعان:

أحدهما: من يعتقد أن الدهر هو الفاعل، فيسبه لذلك. فهؤلاء هم الدهرية.

الثاني: من يعتقد أن المدبِّر للأمور هو الله وحده لا شريك له، ولكن يسبون الدهر لما يجري عليهم فيه من المصائب والحوادث، فيضيفون ذلك إليه من إضافة الشيء إلى محله، لا لأنه عندهم فاعل لذلك، والحديث صريح في النهي عن سب الدهر مطلقاً، سواء اعتقد أنه فاعل أو لم يعتقد ذلك، كما يقع كثيراً ممن يعتقد

الإسلام[(١)].

كقول ابن المعتز:

يا دهرُ ويحك ما أبقيت لي أحداً وأنت والد سوء تأكل الولدا

وقول أبي الطيب:

قبحاً لوجهك يا زمان كأنه وجه له من كل قبح برقع

وقول الطرفي:

إن تبتلى بلئام الناس يرفعهم عليك دهر لأهل الفضل قد

وقول الحريري:

ولا تأمن الدهر الخؤون فكم خامل أخنى عليه ونابه

ونحو ذلك كثير، وكل هذا داخل في الحديث. قال ابن القيم: وفي هذا ثلاث مفاسد عظيمة:

أحدها: سبه من ليس أهلاً للسبّ فإن الدهر خَلْقٌ مسخر من خلق الله منقاد لأمره، متذلل لتسخيره فسّابه أولى بالذم والسبّ منه.

والثانية: أن سبّه متضمن للشرك، فإنه إنما سبّه لظنه أنه يضر وينفع، وأنه مع ذلك ظالم قد ضر من لا يستحق العطاء ورفع من لا يستحق الرفعة، وحرم من لا يستحق الحرمان، وهو عند شاتميه من أظلم الظلمة وأشعار هؤلاء الظلمة الخونة في سبّه كثيرة جداً وكثير من الجهال يصرّح بلعنه وتقبيحه.

الثالثة: أن السبّ منهم إنما يقع على من فعل هذه الأفعال، التي لو اتبع الحق فيها أهواءهم لفسدت السماوات والأرض، وإذا وافقت أهواءهم حمدوا الدهر وأثنوا عليه، وفي حقيقة الأمر فرب الدهر هو المعطي المانع الخافض الرافع المعز المذل، والدهر ليس له من الأمر شي، فمسبتهم الدهر مسبة لله عز وجل، ولهذا

(١) كمن يلعن الساعة أو اليوم، هو لا يعتقد أن الدهر فاعل بل سبه لما جرى عليه من المصائب فيه.

كانت مؤذية للرب تعالى، فسّاب الدهر دائر بين أمرين لا بد له من أحدهما، إما مسبة الله أو الشرك به فإنه إن اعتقد أن الدهر فاعل مع الله فهو مشرك، وإن اعتقد أن الله وحده هو الذي فعل ذلك، وهو يسب من فعله فهو يسب الله تعالى. انتهى.

وأشار ابن أبي جمرة[1] إلى أن النهي عن سب الدهر تنبيه بالأعلى على الأدنى، وأن فيه إشارة إلى ترك سب كل شيء مطلقاً[2]، إلا ما أذن الشرع فيه؛ لأن العلة واحدة.

قوله: «**وأنا الدهر**»: قال الخطابي: معناه أنا صاحب الدهر، ومدبِّر الأمور التي ينسبونها إلى الدهر فمن سبّ الدهر من أجل أنه فاعل هذه الأمور عاد سبّه إلى ربه الذي هو فاعلها، وإنما الدهر زمان جُعل ظرفاً لمواقع الأمور.

قلت: ولهذا قال في الحديث: «**وأنا الدهر بيدي الأمر أقلِّب الليل والنهار**»، وفي رواية لأحمد: «**بيدي الليل والنهار أُجِدُّه وأبليه وأذهبُ بالملوك**»، وفي رواية: «**لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر، الأيام والليالي أُجِدُّها وأبليها وآتي بملوك بعد ملوك**[3]» قال الحافظ: وسنده صحيح. فقد تبيّن بهذا خطأ ابن حزم في عده الدهر من أسماء الله الحسنى، وهذا غلط فاحش.

ولو كان كذلك لكان الذين قالوا: ﴿وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ﴾ مصيبين[4].

قوله: «**وفي رواية**»: هذه الرواية رواها مسلم وغيره. قال المصنف: وفيه أنه قد يكون سباً ولو لم يقصده بقلبه.



(١) ابن أبي جمرة بالجيم المعجمة والميم والراء المهلمة من شُرَّاح البخاري.

(٢) أي مما عدا الدهر فالنهي عن سبّ الدهر نهي عن سب ما دونه.

(٣) فهذه الروايات تفسّر معنى قوله: «وأنا الدهر» أن المراد خالق الدهر ومدبِّر الدهر ومقلِّب الدهر.

(٤) لأن الدهر من أسماء الله على هذا الزعم!

باب
التسمي بقاضي القضاة(١) ونحوه(٢)

قال: وفي «الصَّحِيحِ»، عَن أَبِي هُرَيرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قالَ: «إِنَّ أَخْنَعَ اسْمٍ عِنْدَ الله، رَجُلٌ تَسَمَّى مَلِكَ الأَمْلاَكِ، لاَ مَالِكَ إِلاَّ اللهُ». قَالَ سُفيَان: «مِثْلُ شَاهَانْ شَاهْ»(٣).

وَفي رِوَايَةٍ: «أَغْيَظُ رَجُلٍ عَلَى الله يَوْمَ القِيَامَةِ وَأَخْبَثُهُ».

قَولُهُ: أَخنَع يَعنِي: أَوضَع.

الشَرح:

كأقضى القضاة، وحاكم الحكام، أو سيد الناس ونحو ذلك: أي: ما حكم التسمي بذلك هل يجوز أم لا؟

قوله: «في الصحيح»: أي «الصحيحين».

قوله: «إن أخنع»: ذكر المصنف أن معناه أوضع وهذا التفسير رواه مسلم عن الإمام أحمد، عن أبي عمرو الشيباني. قال عياض: معناه إنه أشد الأسماء صغاراً،

---

(١) المقصود المنع من التسمي بماهو خاص بالله، وهذا من كمال التوحيد مثل رب العالمين والخلاق والرازق وقاضي القضاة وحاكم الحكام وملك الأملاك.

(٢) هذه الترجمة استنباط وتفقه من الحديث الذي ساقه على طريقة البخاري في التراجم في الصحيح وكأن المعنى نصّ في الحديث على المنع من التسمِّي بملك الأملاك فهل يلحق غيره به وهل يستنبط منه شيء، فما هو خاص بالله مثل الخلاق والرازق ورب العالمين.

(٣) ولذلك لما تسمى ملك إيران «شاهان شاه» وضعه الله وأذله وأزال ملكه وأخرج من بلده ذليلاً حقيراً وحيداً في شرّ حال. قوله: «شاهان شاه» تعادل ملك الأملاك، لكن العجم تقدم المضاف إليه على المضاف والصفة على الموصوف فقوله: «شاهان» الأملاك، وقوله: «شاه» ملك.

وبنحو ذلك فسره أبو عبيد، والخانع الذليل وخنع الرجل ذل. قال ابن بطال[١]: وإذا كان الاسم أذل الأسماء كان من تسمى به أشد ذلاً، وقد فسر الخليل أخنع: أفجر، فقال: الخنع الفجور، وفي رواية: «**أخنى الأسماء**» من الخنا بفتح المعجمة وتخفيف النون مقصور، وهو الفحش في القول، وفي رواية: «**اشتد غضب الله على من زعم أنه ملك الأملاك**» رواه الطبراني.

قوله: «**رجل يسمى**»: بصيغة المجهول من التسمية أي يُدعى بذلك ويرضى به، وفي بعض الروايات تسمّى بفتح الفوقانية وتشديد الميم ماض معلوم من التمسي أي: سمى نفسه.

قوله: «**ملك الأملاك**»: هو بكسر اللام من ملك، والأملاك جمع ملك، ثم أكد النبي ﷺ التشديد في تحريم التسمي بذلك بقوله: «**لا مالك إلا الله**» فالذي تسمى بهذا الاسم قد كذب وفجر وارتقى إلى ما ليس له بأهل، بل هو حقيق برب العالمين، فإنه الملك في الحقيقة، فلهذا كان أذل الناس عند الله يوم القيامة، والفرق بين الملك والمالك أن المالك هو المتصرِّف بفعله وأمره، كما ذكر ابن القيم، فالذي تسمى ملك الأملاك، أو ملك الملوك قد بلغ الغاية في الكفر والكذب، ولقد كان بعض السلاطين المساكين يفتخر بهذا الاسم فأذله الله[٢].

قوله: «**قال سفيان**»: هو ابن عيينة تقدمت ترجمته.

قوله: «**مثل شاهانِ شاه**»: هو بكسر النون والهاء في آخره، وقد تُنوَّن وليست هاء تأنيث فلا يقال: بالمثناة أصلاً[٣] وإنما مثل سفيان بشاهانِ شاه، لأنه قد كثرت التسمية به في ذلك العصر، فنبّه سفيان بأن الاسم الذي ورد في الخبر بذمه لا

---

(١) من شراح البخاري.

(٢) وكذلك ملك إيران في زماننا.

(٣) ذكره ابن حجر في «فتح الباري».

ينحصر في ملك الأملاك، بل كل ما أدى معناه بأي لسان كان فهو مراد بالذم. ذكره الحافظ. والحديث صريح في تحريم التسمي بملك الأملاك ونحوه، كملك الملوك وسلطان السلاطين. قال ابن القيم: لما كان الملك لله وحده لا ملك على الحقيقة سواه كان أخنع اسم وأوضعه عنده، وأبغضه له اسم شاهان شاه أي: ملك الملوك، وسلطان السلاطين، فإن ذلك ليس لأحد غير الله فتسمية غيره بهذا من أبطل الباطل، والله لا يحب الباطل، وقد ألحق أهل العلم بهذا قاضي القضاة وقالوا: ليس قاضي القضاة إلا من يقضي بالحق وهو خير الفاصلين، الذي إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ويلي هذا الاسم في القبح والكراهة والكذب سيد الناس وسيد الكل، وليس ذلك إلا لرسول الله ﷺ خاصة كما قال: «**أنا سيد ولد آدم**» فلا يجوز لأحد قط أن يقول عن غيره: هو سيد الناس كما لا يجوز له أن يقول: أنا سيد ولد آدم -عليه السلام-، وقال ابن أبي جمرة: يلتحق بملك الأملاك قاضي القضاة، وإن كان قد اشتهر في بلاد الشرق من قديم الزمان إطلاق ذلك على كبير القضاة[(١)] وقد سلم أهل المغرب من هذا، فاسم كبير القضاة عندهم قاضي الجماعة، وقد زعم بعض المتأخرين أن التسمي بقاضي القضاة ونحوها جائز[(٢)]، واستدل له بحديث: «**أقضاكم علي**» قال: فيستفاد منه أن لا حرج على من أطلق على قاض أن يكون أعدل القضاة، وأعلمهم في زمانه أقضى القضاة، يريد إقليمه، أو بلده[(٣)] وتعقبه العالم العراقي فصوب المنع، ورد ما احتج به بأن التفضيل في

---

(١) ولهذا أبدل عندنا برئيس القضاة وقد يطلق قاضي القضاة ولا يراد حقيقة معناه وإنما يراد به رئيسهم فلا محذور لكن الأولى إبداله برئيس ونحوه.

(٢) لكن إذا قال قاضي قضاة مصر أو الشام أو السعودية بالإضافة زال المحذور بخلاف الإطلاق أما رئيس القضاة فهو أسهل.

(٣) فلو قال أقضى قضاة الشام أو مصر أو المغرب وقد يقال قاضي القضاة إن «أل» بدل من المضاف إليه والتقدير قاضي قضاة كذا لكن إطلاق العبارة ليس بطيب.

ذلك وقع في حق من خوطب به، ومن يلتحق بهم، فليس مساوياً لإطلاق التفضيل بالألف واللام. قال: ولا يخفى ما في ذلك من الجرأة وسوء الأدب. ولا عبرة بقول من ولي القضاة، فنُعِتَ بذلك، فلذَّ في سمعه واحتال في الجواز، فإن الحق أحق أن يتبع.

قلت: وقد تبيَّن بهذا مطابقة الحديث للترجمة.

قوله: «**وفي رواية: أغيظ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه**». هذه الرواية رواها مسلم في «صحيحه». قال ابن أبي جمرة: وفي الحديث مشروعية الأدب في كل شيء، لأن الزجر عن ملك الأملاك، والوعيد عليه يقتضي المنع منه مطلقاً سواء أراد من تسمى بذلك أنه ملك على ملوك الأرض، أم على بعضها، وسواء كان محقاً في ذلك أم مبطلاً، مع أنه لا يخفى الفرق بين من قصد ذلك وكان فيه صادقاً، ومن قصده وكان فيه كاذباً.

قلت: يعني أن الثاني أشد إثماً من الأول.



باب
احترام أسماء الله تعالى وتغيير الاسم لأجل ذلك

عَن أَبِي شُرَيح أَنَّهُ كَانَ يُكَنَّى أَبَا الحَكَمِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ اللهَ هُوَ الحَكَمُ، وَإِلَيهِ الحُكْمُ» فَقَالَ: إِنَّ قَوْمِي إِذَا اخْتَلَفُوا في شَيْءٍ، أَتَوْنِي، فَحَكَمْتُ بَيْنَهُمْ، فَرَضِيَ كِلاَ الفَرِيقَيْنِ. فَقَالَ: «مَا أَحْسَنَ هَذَا! فَما لَكَ مِنَ الولَدَ؟» فَقُلتُ: شُرَيْحٌ، وَمُسْلِمٌ، وَعَبْدُالله. قَالَ: «فَمَنْ أَكْبَرُهُمْ؟» قُلتُ: شُرَيْحٌ. قَالَ: «فَأَنْتَ أَبُو شُرَيْحٍ». [رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَغَيرُهُ].

الشرح:

«**احترام أسماء الله وتغيير الاسم لأجل ذلك**». أي: لأجل احترامها وهو تعظيمها. وذلك من تحقيق التوحيد.

ويستفاد منه المنع من التسمي بهذا ابتداءً من باب الأولى، لكن في الأسماء المختصة بالله تعالى.

هذا الحديث رواه أبو داود كما قال المصنف، ورواه النسائي ولفظ أبي داود من طريق يزيد بن المقدام بن شريح، عن أبيه، عن جده، عن أبيه هانئ، وهو أبو شريح أنه لما وفد على رسول الله ﷺ مع قومه سمعهم يكنونه بأبي الحكم فدعاه رسول الله ﷺ فقال: «**إن الله هو الحكم وإليه الحكم فلم تكنى أبا الحكم؟ فقال: إن قومي إذا اختلفوا في شيء**» الحديث. قال: ابن مفلح: وإسناده جيد، ورواه الحاكم وزاد: «**فدعا له ولولده**».

قوله: «عن أبي شُريح»: هو بضم المعجمة وفتح الراء وآخره مهملة مصغر، واسمه هانئ بن يزيد الكندي. قال الحافظ: وقيل: الحارثي الضبابي. قاله المزي،

وقيل: المَذْحِجِي[١]، وقيل: غير ذلك، صحابي نزل الكوفة، ولا عبرة بقول من قال: إنه الخزاعي، ولا من ظن أنه النخعي والد شريح القاضي فإن ذلك خطأ فاحش.

قوله: «كان يكنى أبا الحكم»: قال بعضهم: الكنية قد تكون بالأوصاف كأبي الفضائل، وأبي المعالي، وأبي الخير، وأبي الحكم، وقد تكون بالنسبة إلى الأولاد كأبي سلمة، وأبي شريح[٢] وإلى ما يلابسه كأبي هريرة فإنه -عليه الصلاة والسلام- رآه ومعه هرة فكناه بأبي هريرة، وقد تكون للعلمية الصرفة كأبي بكر.

قوله: «إن الله هو الحكم وإليه الحكم»: أما الحكم فهو من أسماء الله تبارك وتعالى كما في هذا الحديث، وقد ورد عدّه في الأسماء الحسنى مقروناً بالعدْل، فسبحان الله ما أحسن اقتران هذين الاسمين. قال في «شرح السنة» الحَكَم هو الحاكم الذي إذا حكم لا يرد حكمه، وهذه الصفة لا تليق بغير الله تعالى[٣] كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ[٤]﴾ (الرعد: ٤١)، وقال بعضهم: عرف الخبر في الجملة الأولى، وأتى بضمير الفصل فدل على الحصر، وأن هذا الوصف مختص به لا يتجاوز إلى غيره. وأما قوله: ﴿وَلَهُ ٱلۡحُكۡمُ﴾. أي: إليه الفصل بين العباد في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ (القصص: ٧٠)، وقال: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ يَقُصُّ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾﴾ (الأنعام: ٥٧)، وفيه

---

(١) بفتح الميم وإسكان الذال المعجمة وكسر الحاء المهملة.

(٢) وقد تكون بالنسبة.

(٣) النهي عن التسمي بالحكم كان أولاً ثم نسخ ذلك ولذلك لم يغير النبي ﷺ من اسمه الحكم من الصحابة كالحكم بن زيد الغفاري وحكيم بن حزام.

(٤) هذا والله أعلم إذا أريد به المعنى وقصد المعنى وهو الحكم بين الناس، أما إذا أريد به الاسم الجامد ولم يقصد المعنى فلا بأس بالتسمية ولذلك أقرها النبي ﷺ كالحكم بن زيد، وحكيم ابن حزام.

الدليل على المنع من التسمي بأسماء الله المختصة به، والمنع مما يوهم عدم الاحترام لها كالتكني بأبي الحكم ونحوه.

قوله: «**إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني فحكمت بينهم**». أي: أنا لم أُكَنِّ نفسي بهذه الكنية، وإنما كنت أحكم بين قومي فكنوني بها.

وفيه: جواز التحاكم إلى من يصلح للقضاء، وإن لم يكن قاضياً، وأنه يلزم حكمه. ولهذا قال النبي ﷺ: «**ما أحسن هذا**» قال الخلخالي: للتعجب، أي: الحكم بين الناس حسن، ولكن هذه الكنية غير حسنة. وقال غيره: أي: الذي ذكرته من الحكم بالعدل. وقيل: ما أحسن هذا، أي: ما ذكرت من وجه الكنية. قال بعضهم: وهو الأولى.

قلت: فعلى هذا يكون حكمه لقومه قبل إسلامه، إذ يبعد أن يكون قاضياً لهم قبل أن يلقى رسول الله ﷺ، ويتعلم منه، لأن هذه القصة كانت بعد إسلامه بقليل، لأنه كان مع وفد قومه حين أسلموا، وقدموا على رسول الله، ولا يظن أن رسول الله ﷺ يُحسِّن أمر حكام الجاهلية.

قوله: «**قال: شريح ومسلم وعبدالله**». صريح في أن الواو لا تقتضي الترتيب وإنما تقتضي مطلق الجمع، فلذا سأل رسول الله ﷺ عن الأكبر، إذ لو كانت دالة على الترتيب لم يحتج إلى سؤال عن أكبرهم.

قوله: «**فأنت أبو شريح**»: أي رعاية للأكبر في التكريم والإجلال، فإن الكبير أولى بذلك قال في «شرح السنة»: فيه أن يكنى الرجل بأكبر بنيه، فإن لم يكن له ابن، فبأكبر بناته. وكذلك المرأة تُكنى بأكبر بنيها، فإن لم يكن لها ابن فبأكبر بناتها. انتهى.

وفيه تقديم الأكبر، وفيه أن استعمال اللفظ الشريف الحسن مكروه في حق من ليس كذلك، ومنه أن يقول المملوك لسيده وغيره: «ربي» نبه عليه ابن القيم.



باب
من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول

وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ (التوبة: ٦٥).

الشَّرْحُ:

«**من هزل بشيء فيه ذكر الله، أو القرآن أو الرسول**». يكفر بذلك لاستخفافه بجناب الربوبية والرسالة، وذلك منافٍ للتوحيد. ولهذا أجمع العلماء على كفر من فعل شيئاً من ذلك، فمن استهزأ بالله، أو بكتابه أو برسوله، أو بدينه، كفر ولو هازلاً لم يقصد حقيقة الاستهزاء إجماعاً.

قال: «**وقول الله تعالى**: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾». يقول تعالى مخاطباً لرسوله ﷺ: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ ﴾. أي: سألت المنافقين الذين تكلموا بكلمة الكفر استهزاءً ﴿لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾. أي: يعتذرون بأنهم لم يقصدوا الاستهزاء والتكذيب، وإنما قصدوا الخوض في الحديث واللعب ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ لم يعبأ باعتذارهم إما لأنهم كاذبين فيه، وإما لأن الاستهزاء على وجه الخوض واللعب لا يكون صاحبه معذوراً، وعلى التقديرين فهذا عذر باطل، فإنهم أخطؤوا موقع الاستهزاء، وهل يجتمع الإيمان بالله وكتابه ورسوله، والاستهزاء بذلك في قلب؟ بل ذلك عين الكفر، لذلك كان الجواب مع ما قبله: ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ (التوبة: ٦٦).

قال شيخ الإسلام: فقد أمره أن يقول: كفرتم بعد إيمانكم، وقول من يقول[١]: إنهم قد كفروا بعد إيمانهم بلسانهم، مع كفرهم أولاً بقلوبهم لا يصح؛ لأن الإيمان باللسان مع كفر القلب قد قارنه الكفر فلا يقال: قد كفرتم بعد إيمانكم فإنه لم يزالوا كافرين في نفس الأمر وإن أريد إنكم أظهرتم الكفر بعد إظهاركم الإيمان[٢] فهم لم يظهروا ذلك إلا لخوضهم وهم مع خوضهم ما زالوا هكذا، بل لما نافقوا وحذروا أن تنزل عليهم سورة تبين ما في قلوبهم من النفاق وتكلموا بالاستهزاء أي: صاروا كافرين بعد إيمانهم ولا يدل اللفظ على أنهم ما زالوا منافقين إلى أن قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ فاعترفوا ولهذا قيل: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً﴾ فدل على أنهم لم يكونوا عند أنفسهم قد أتوا كفراً، بل ظنوا أن ذلك ليس بكفر فتبين أن الاستهزاء بآيات الله ورسوله كفر يكفر به صاحبه بعد إيمانه فدل على أنه كان عندهم إيمان ضعيف ففعلوا هذا المحرم الذي عرفوا أنه محرم، ولكن لم يظنوه كفراً وكان كفراً كفروا به، فإنهم لم يعتقدوا جوازه وقوله: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً﴾.

قال ابن كثير: أي: لا يُعفى عن جميعكم، ولا بد من عذاب بعضكم بأنهم كانوا مجرمين بهذه المقالة الفاجرة، قيل: إن الطائفة مَخْشي[٣] بن حُمَيْر عفا الله عنه

---

(١) ولشيخ الإسلام كتاب في هذا سماه: «الصارم المسلول على شاتم الرسول» واختلف العلماء في قبول توبتهم وهل يستتابون؛ قيل يستتابون والأقرب أن يستتابون وقد يقال إن ذلك راجع إلى نظر ولي الأمر إن رأى استتابتهم أو بعضهم أو قتلهم جميعاً فله ذلك وهذا في أحكام الدنيا، أما في الآخرة فأجمع العلماء على قبول توبتهم فيما بينهم وبين الله إذا صحت.

(٢) في كلام شيخ الإسلام أنهم كانوا مؤمنين باطناً وظاهراً ثم كفروا بهذا الكلام ففيه شدة الخطر.

(٣) مخشي بإسكان الخاء المعجمة وإسكان الشين المعجمة و (حُمَيْر) بالتصغير.

باب
من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا[(١)]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ (هود: ١٥-١٦).

الشَّرْح:

قد ظن بعض الناس أن هذا الباب داخل في الرياء، وأن هذا مجرد تكرير فأخطأ، بل المراد بهذا أن يعمل الإنسان عملاً صالحاً يريد به الدنيا كالذي يجاهد للقطيفة والخميلة، ونحو ذلك، ولهذا سماه النبي ﷺ عبداً لذلك بخلاف المرائي فإنه إنما يعمل ليراه الناس ويعظموه، والذي يعمل لأجل الدراهم والقطيفة ونحو ذلك أعقل من المرائي؛ لأن ذلك عمل الدنيا يصيبها والمرائي عمل لأجل المدح والجلالة في أعين الناس، وكلاهما خاسر نعوذ بالله من موجبات غضبه، وأليم عقابه.

قال: «وقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا﴾» الآية.

---

(١) وهؤلاء على طبقتين:

الأولى: المنافقون الذين أسلموا لأجل الدنيا فهؤلاء أشركوا شركاً أكبر.

الثانية: مؤمنون مصدقون عملوا عملاً صالحاً أرادوا به الدنيا فهؤلاء أشركوا شركاً أصغر (شيخنا عبدالعزيز).

فالخلاصة أن إرادة الإنسان بعمله الدنيا قسمان:

١ - شرك أكبر وهو ما صدر من المنافقين الذين أسلموا لأجل الدنيا.

٢ - شرك أصغر وهو ما صدر من المؤمنين ممن يعمل عملاً صالحاً لأجل الدنيا.

وَعَن ابنِ عُمَرَ، وَمُحَمَّدِ بنِ كَعبٍ، وَزَيدِ بن أَسْلَمَ، وَقَتَادَةَ، دَخَلَ حَدِيثُ بَعضِهِم في بَعضٍ، أَنَّهُ قَالَ رَجُلٌ في غَزوَةِ تَبُوكٍ: مَا رَأَينَا مِثلَ قُرَّائِنَا هَؤُلاَءِ أَرْغَبَ بُطُونَاً، وَلاَ أَكذَبَ أَلسُنَاً[1]، وَلاَ أَجبَنَ عِندَ اللِّقَاءِ؛ يَعنِي رَسُولَ الله ﷺ وَأَصحَابِهِ القُرَّاءَ. فَقَالَ لَهُ عَوْفُ بنُ مَالِكٍ: كَذَبتَ، وَلكِنَّكَ مُنَافِقٌ، لأُخبِرَنَّ رَسُولَ الله ﷺ. فَذَهَب عَوفٌ بنُ مَالكٍ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ لِيُخبِرَهُ، فَوَجَدَ القُرآنَ قَد سَبَقَهُ. فَجَاءَ ذَلِكَ الرَّجُلُ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ وَقَد ارتَحَلَ وَرَكِبَ نَاقَتَهُ. فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَتَحَدَّثُ حَدِيثَ الرَّكبِ نَقطَعُ بِهِ عَنَّا الطَّرِيقَ. قَالَ ابنُ عُمَرَ: كَأَنِّي أَنظُرُ إِلَيهِ مُتَعَلِّقَاً بِنِسْعَةِ نَاقَةِ رَسُولِ الله ﷺ وَإِنَّ الحِجَارَةَ لَتَنْكبُ رِجلَيهِ، وَهُوَ يَقُولُ: إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلعَبُ. فَيَقُولُ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ: «﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ٦٥﴾» (التوبة: ٦٦) مَا يَلتَفِتُ إِلَيهِ، وَمَا يَزِيدُ[2] عَلَيْهِ.

هذا الأثر ذكره المصنف مجموعاً من رواية ابن عمر، ومحمد بن كعب، وزيد ابن أسلم، وقتادة، وقد ذكره قبله كذلك شيخ الإسلام. فأما أثر ابن عمر فرواه ابن جرير، وابن أبي حاتم، وغيرهما بنحو مما ذكره المصنف، وأما أثر محمد بن كعب، وزيد بن أسلم، وقتادة فهي معروفة لكن بغير هذا اللفظ.

قوله: «عن ابن عمر»: هو عبدالله بن عمر بن الخطاب -رضي الله عنهما-، ومحمد ابن كعب هو محمد بن كعب بن سليم أبو حمزة القرظي المدني. قال البخاري: إن أباه كان ممن لم يُنْبتْ من بني قريظة، وهو ثقة عالم مات سنة عشرين

---

(١) ألسناً بضم السين المهملة وألسنة بكسر السين المهملة على وزن أفعُل وأفعِلة.

(٢) بالهاء راجع إلى قراءة الآية.

ومئة، وزيد بن أسلم هو مولى عمر بن الخطاب، والد عبدالرحمن وأخوته، يكنى أبا عبدالله، ثقة مشهور، مات سنة ست وثلاثين ومئة. وقتادة هو ابن دِعامة وتقدم.

قوله: «دخل حديث بعضهم في بعض»: أي: إن الحديث مجموع من رواياتهم، فلذلك دخل بعضه في بعض.

قوله: «أنه قال رجل في غزوة تبوك»: لم أقف على تسمية القائل لذلك أبهم اسمه في جميع الروايات التي وقفت عليها ولكن قد ورد تسمية جماعة ممن نزلت فيهم الآية مع اختلاف الرواية فيما قالوه من الكلام ففي بعض الروايات أنهم قالوا ما ذكره المصنف وعن مجاهد في الآية. قال رجل من المنافقين يحدثنا محمد أن ناقة فلان بواد كذا وكذا في يوم كذا وكذا وما يدريه بالغيب. رواه ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وعن قتادة قال: بينما رسول الله ﷺ في غزوته إلى تبوك وبين يديه أناس من المنافقين فقالوا يرجو هذا الرجل أن تفتح له قصور الشام وحصونها؟ هيهات هيهات! فأطلع الله نبيه على ذلك، فقال نبي الله ﷺ: «**احبسوا عليّ الركب فأتاهم فقال قلتم كذا، وقلتم كذا**» قالوا يا نبي الله إنما كنا نخوض ونلعب فأنزل الله فيهم ما تسمعون رواه ابن المنذر وابن أبي حاتم وفي رواية جابر بن عبدالله عند ابن مردويه، كان فيمن تخلف من المنافقين بالمدينة وداعة بن ثابت أحد بني عمرو بن عوف فقيل له: ما خلفك عن رسول الله ﷺ فقال: الخوض واللعب، فأنزل الله فيه وفي أصحابه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ (التوبة: ٦٥) إلى ﴿مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾، وسمى ابن عباس في رواية عند ابن مردويه منهم وديعة بن ثابت ومخشي بن حُمير، وأنهم قالوا: أتحسبون أن قتال بني الأصفر كقتال غيرهم، والله لكأنكم غداً تفرون في الجبال... القصة

بكمالها فيحتمل أنهم قالوا ذلك كله[(١)]، فإن المنافقين إذا خلوا إلى شياطينهم أخذوا في الاستهزاء بالله وآياته ورسوله والمؤمنين، فلا يبعد أنهم قالوا ذلك فكل ذكر بعض كلامهم، والآية تعم ذلك، وفي هذه الروايات ذكر أسماء القائلين لبعضهم ذلك، منهم وديعة بن ثابت وقيل وداعة، زيد بن وديعة، ومخشي بن حُمَير الذي تاب الله عليه، لكنه لم يقل إنما حضره وفي بعض الروايات أن عبدالله بن أُبيّ هو الذي قال ذلك لكن رده ابن القيم بأن ابن أبي تخلف عن غزوة تبوك، وذكر ابن إسحاق أسماء الذين هموا بالفتك برسول الله ﷺ، فعدّ جماعة فيحتمل أنهم من المستهزئين، ويحتمل أنهم غيرهم ولهذا قال تعالى في المستهزئين ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ وفي الآخرين ﴿وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ (التوبة: ٧٤) وقوله: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء. القراء جمع قارئ وهم عند السلف الذين يقرؤون القرآن ويعرفون معانيه، أما قراءته من غير فهم لمعناه فلا يوجد في ذلك العصر وإنما حدث بعد ذلك من جملة البدع[(٢)].

قوله: «أرغب بطوناً»: أي: أوسع بطوناً. الرغب والرغيب الواسع يقال: جوف رغيب وواد رغيب يصفونهم بسعة البطون، وكثرة الأكل، كما روى أبو نعيم عن شريح بن عبيد أن رجلاً قال لأبي الدرداء: ما بالكم أجبن منا وأبخل إذا سئلتم، وأعظم لُقَماً إذا أكلتم؟ فأعرض عنه أبو الدرداء ولم يرد عليه شيئاً وأخبر

(١) ولا منافاة فيحتمل أنهم قالوا ذلك كله لأن المقام عظيم والمسلمون قليل عددهم وعُدتهم والوقت حار، ولكن نصر الله ليس بالأسباب ولكن الأسباب أسباب.

(٢) ولهذا يقال إن القراء هم جلساء عمر يشاورهم في الأمور ثم جعل معهم ابن عباس مع حداثة سنه لما فتح الله عليه من العلم والفهم لكتاب الله، فالقراء هم العلماء بمعاني القرآن مع قراءته ولهذا كانوا يجلسون المدة الطويلة لفهم معاني الآيات القليلة، والسنة تابعة للقرآن ومبينة له وموضحة لمعانيه ولهذا في الحديث: «يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله»، وقُتل يوم اليمامة ويوم الجمل وصفين كثير من القراء أي علماء الصحابة.

بذلك عمر ابن الخطاب فانطلق عمر إلى الرجل الذي قال ذلك فأخذ بثوبه وخنقه وقاده إلى النبي ﷺ فقال الرجل إنما كنا نخوض ونلعب.

قوله: «**فقال له عوف بن مالك: كذبت ولكنك منافق**»: فيه المبادرة في الإنكار والشدة على المنافقين، وجواز وصف الرجل بالنفاق إذا قال أو فعل ما يدل عليه.

قوله: «**لأخبرن رسول الله ﷺ**»: فيه أن هذا وما أشبهه لا يكون غيبة ولا نميمة، بل من النصح لله ورسوله، فينبغي الفرق بين الغيبة والنميمة، وبين النصيحة لله ورسوله، فذكر أفعال المنافقين والفسّاق لولاة الأمور؛ ليزجروهم، ويقيموا عليهم أحكام الشريعة ليس من الغيبة والنميمة.[(١)] انتهى.

قوله: «**فوجد القرن قد سبقه**»: أي: جاء الوحي من الله بما قالوه في هذه الآية ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ (التوبة: ٦٥)، وفيه دلالة على علم الله سبحانه، وعلى قدرته وإلهيته، وعلى أن محمداً رسول الله.

قوله: «**فجاء ذلك الرجل**»: تقدم أنه ابن أبي كما رواه ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عمر، لكن رده ابن القيم[(٢)] بأن ابن أبي تخلف عن غزوة تبوك، وفي هذا الحديث من الفوائد؛ أن الإنسان قد يكفر بكلمة يتكلم بها[(٣)] أو عمل يعمل به،

---

(١) فمن أظهر ترك الصلاة أو شرب الخمر أو الدخان أو حلق اللحية أو أظهر بدعة فالتكلم فيه وتحذير الناس مما أظهره ورفعه إلى ولاة الأمور ليس من الغيبة بل من النصيحة وإنكار المنكر لأنه هو الذي فضح نفسه بخلاف ما إذا لم يظهر منه شيء ولم يعلن ولم يدع إلى معصية ولا بدعة فهذا ينبغي الستر عليه وأن يقال عثرته إذا لم يكن عادة له.

(٢) كان هنا في الأصل سقط، استدركناه من «فتح المجيد» للشيخ عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ -رحمهم الله-.

(٣) وفي حديث معاذ أن النبي قال له: «وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو قال على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم»، وفي الحديث: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله بها سخطه إلى يوم يلقاه»، وفي الحديث: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله يهوي بها في النار أبعد مما بين المشرق والمغرب»، وقال عمر بن =

وأشدها خطراً إرادات القلوب فهي كالبحر الذي لا ساحل له، ويفيد الخوف من النفاق الأكبر، فإن الله تعالى أثبت لهؤلاء إيماناً قبل أن يقولوا ما قالوه، كما قال ابن أبي مليكة[1]: أدركت ثلاثين من أصحاب رسول الله ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه، نسأل الله السلامة والعفو والعافية في الدنيا والآخرة.



= عبدالعزيز الخليفة الراشد المشهور: ما أحق بطول سجن من لسان، فالإنسان ينظر قبل أن يتكلم فإن كان خيراً وإلا حبسه، وفي الحديث: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت».

(١) تابعي جليل.

باب

قَولُ الله تَعَالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾﴾ (فصلت: ٥٠).

قَالَ مُجَاهِدٌ: «هَذَا بِعَمَلِي، وَأَنَا مَحْقُوقٌ بِهِ».

وَقَالَ ابنُ عَبَّاسٍ: «يُرِيدُ: مِن عِندِي».

وَقَولُهُ: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ۚ﴾ (القصص: ٧٨). قَالَ قَتَادَةَ: عَلَى عِلمٍ مِنِّي بِوُجُوهِ المَكَاسِبِ، وَقَالَ آخَرُونَ: عَلَى عِلمٍ مِنَ الله أَنِّي لَهُ أَهلٌ. وَهَذَا مَعنَى قَولُ مُجَاهِدٍ: «أُوتِيتُهُ عَلَى شَرَفٍ».

وليس فيما ذكروه اختلاف وإنما هي أفراد المعنى[(١)].

الشَّرح:

قوله: «باب قول الله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ...﴾».

قال ابن كثير -رحمه الله- في معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ (الزمر: ٤٩) يخبر أن الإنسان في حال الضر يضرع إلى الله تعالى وينيب إليه ويدعوه، ثم إذا خوله نعمة منه طغى وبغى وقال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي لما يعلم من استحقاقي له، ولولا أني عند الله حظيظ لما خولني هذا . قال تعالى: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ أي: ليس الأمر كما زعمتم، بل إنما أنعمنا عليه

---

(١) أي هي أفراد والمعنى منها.

بهذه النعمة لنختبره فيما أنعمنا عليه، أيطيع أم يعصي؟ مع علمنا المتقدم بذلك ﴿بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ﴾ أي اختبار ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ فلهذا يقولون ما يقولون ويدّعون ما يدّعون ﴿قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي قد قال هذه المقالة وزعم هذا الزعم وادعى هذه الدعوى كثير ممن سلف من الأمم ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾﴾ أي: فما صح قولهم، ولا نفعهم جمعهم وما كانوا يكسبون، كما قال تعالى مخبراً عن قارون ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ (القصص: ٧٦-٧٨)، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾ (سبأ: ٣٥).



وَعَن أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ ثَلاَثَةً مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ: أَبْرَص، وَأَقْرَع، وَأَعْمَى، فَأَرَادَ الله أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلَكًا، فَأَتَى الأَبْرَصَ، فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: لَوْنٌ حَسَنٌ وَجِلْدٌ حَسَنٌ وَيَذهَبُ عَنِّي الَّذِي قَدْ قَذِرَنِي[1] النَّاسُ بِهِ. قَالَ: فَمَسَحَهُ، فَذَهَبَ عَنْهُ قَذَرُهُ، فَأُعْطِيَ لَوْنًا حَسَنًا وَجِلْدًا حَسَنًا. قَالَ: فَأَيُّ المَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الإِبِلُ أَوْ البَقَرُ -شَكَّ إِسحاقُ-. فَأُعْطِيَ نَاقَةً عُشَرَاءَ، وَقَالَ: بَارَكَ الله لَكَ فِيهَا.

قَالَ: فَأَتَى الأَقْرَعَ، فقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: شَعَرٌ حَسَنٌ وَيَذْهَبُ عَنِّي الَّذِي قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ بِهِ. فَمَسَحَهُ، فَذَهَبَ عَنهُ، وَأُعْطِيَ شَعَرًا حَسَنًا. فَقَالَ: أَيُّ المَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: البَقَرُ أَوِ الإِبِل. فَأُعْطِيَ بَقَرَةً حَامِلاً؛ قَالَ: بَارَكَ الله لَكَ فِيهَا.

فَأَتَى الأَعْمَى، فقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: أَنْ يَرُدَّ الله إِلَيَّ بَصَرِي فَأُبْصِرُ بِهِ النَّاسَ. فَمَسَحَهُ، فَرَدَّ الله إِلَيْهِ بَصَرَهُ. قَالَ: فَأَيُّ المَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الغَنَمُ. فَأُعْطِيَ شَاةً وَالِدًا، فَأُنْتِجَ هَذَانِ وَوَلَّدَ هَذَا، فَكَانَ لِهَذَا وَادٍ مِنْ إِبِلٍ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنْ البَقَرِ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنْ الغَنَمِ.

قَالَ: ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى الأَبْرَصَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ قَد انقَطَعَتْ بِيَ الحِبَالُ[2] فِي سَفَرِي، فَلاَ بَلاَغَ لِيَ اليَوْمَ[3] إِلاَّ بِالله ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ

(١) قذر يقذر بكسر الذال المعجمة في الماضي وفتحها في المضارع لأنه من باب فرِح وتعِب.

(٢) في الحديث من الفوائد أن المشروع أن يقول لا بلاغ لي إلا بالله ثم بك كما قال الملك ولا يقول بالله وبك.

(٣) الحبال أي الأسباب.

بِالَّذِي أَعْطَاكَ اللَّوْنَ الحَسَنَ[١] وَالجِلْدَ الحَسَنَ وَالمَالَ، بَعِيرًا أَتبَلَّغُ بِهِ فِي سَفَرِي. فَقَالَ: الحُقُوق كَثِيرَةٌ. فَقَالَ: كَأَنِّي أَعْرِفُكَ! أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَص يَقْذَرُكَ[٢] النَّاسُ، فَقِيرًا، فَأَعْطَاكَ الله عَزَّ وَجَلَّ المَالَ؟ فَقَالَ: إِنَّمَا وَرِثتُ هَذا المَالَ كَابِراً عَنْ كَابِرٍ[٣]. فَقَالَ: إنْ كُنْتَ كَاذِبًا، فَصَيَّرَكَ الله إِلَى مَا كُنْتَ[٤]. وَأَتَى الأَقْرَعَ فِي صُورَتِهِ، فَقَالَ لَهُ: مِثْلَ مَا قَالَ لِهَذا، وَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا رَدَّ عَلَيْهِ هَذَا، فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا، فَصَيَّرَكَ اللهُ إِلَى مَا كُنْتَ.

قَالَ: وَأَتَى الأَعْمَى فِي صُورَتِهِ، فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ وَابْنُ سَبِيلٍ، قَد انقَطَعَتْ بِيَ الحِبَالُ فِي سَفَرِي، فَلاَ بَلاَغَ لِي اليَوْمَ إِلاَّ بِالله ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ شَاةً أَتَبَلَّغُ بِهَا فِي سَفَرِي. فَقَالَ: قَدْ كُنْتُ أَعْمَى فَرَدَّ الله إِلَيَّ بَصَرِي، فَخُذْ مَا شِئْتَ وَدَعْ مَا شِئْتَ، فَوَالله لاَ أَجْهَدُكَ اليَوْمَ بِشَيْءٍ أَخَذْتَهُ[٥] لله.

---

(١) فيه جواز السؤال بالله من قول الملك «أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن» ويؤيده حديث: «من سأل بالله فأعطوه»، أما حديث جبير بن مطعم وقوله: «إنه لا يستشفع بالله على خلقه» فإنه في سنده جبير بن محمد وهو ليس بذاك قال فيه في «التقريب»: مقبول وهو يقبل إذا لم يخالف من هو أقوى منه، وهذا الحديث فيه نوع استشفاع بالله على خلقه، وهو في «الصحيحين»، وقد خالف حديث جبير.

(٢) قذِر يقذرك ومعناه عابني وانتقدني.

(٣) كابراً عن كابر أي أباً عن جد.

(٤) الذي يظهر أن دعوة الملك قبلت وأن هذا صار أبرص فقيراً والثاني أقرع فقيراً والقرع: مرض في الرأس يسقط معه الشعر.

(٥) وفي الحديث من الفوائد أن الإنسان قد يُبتلى بالنعمة ويمتحن وأنه قد يكون الامتحان بإرسال ملك كما كان فيمن قبلنا في قصة هؤلاء الثلاثة، فإن الله أرسل لهما ملكاً امتحنهما أولاً بالصحة في البدن والرخاء والسعة في المال فإن الأبرص والأقرع كانا مريضين وفقيرين فابتلاهما الله بالصحة في البدن ثم بالرخاء في المال والأعمى كان مصاباً بالعمى فرد الله إليه بصره وأعطاه =

فَقَالَ: أَمْسِكْ مَالَكَ، فَإِنَّمَا ابْتُلِيتُمْ؛ فَقَدْ رَضِيَ الله عَنْكَ، وَسَخِطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ». [أَخرَجَاهُ].

قوله: «أخرجاه»: أي البخاري ومسلم.

«والناقة العشراء»: بضم العين وفتح الشين وبالمد: هي الحامل.

قوله: «أنتج»، وفي رواية: **«فنتج»** معناه: تولي نتاجها، والناتج للناقة كالقابلة للمرأة.

قوله: «ولد هذا»: هو بتشديد اللام، أي: تولى ولادتها وهو بمعنى أنتج في الناقة، فالمولد والناتج والقابلة بمعنى واحد، لكن هذا الحيوان، وذلك لغيره(١).

قوله: «انقطعت بي الجبال»: هو بالحاء المهملة والباء الموحدة هي الأسباب.

قوله: «لا أجهدك»: معناه لا أشق عليك في رد شيء تأخذه، أو تطلبه من مالي. ذكره النووي.

وهذا حديث عظيم، وفيه معتبر؛ فإن الأولين جحدا نعمة الله فما أقرا لله بنعمته، ولا نسبا النعمة إلى المنعم بها، ولا أديا حق الله، فحل عليهما السخط، وأما الأعمى فاعترف بنعمة الله ونسبها إلى من أنعم عليه بها، وأدى حق الله فيها، فاستحق الرضى من الله بقيامه بشكر النعمة لما أتى بأركان الشكر الثلاثة التي لا

= المال ثم امتحنهما ثانياً برد الحقوق، وفي هذه القصة أن اثنين كفرا النعمة والثالث شكرها فصدق عليهم أن الأكثر لم يشكر النعمة وصدق عليهم قول الله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾، وفي الحديث من الفوائد أن شكر نعم الله من تمام الإيمان، وأنه لا يتم الإيمان إلا بالشكر.

(١) فالمولد والناتج للحيوان والقابلة للإنسان، وقد يطلق المولِّد على الإنسان فيقال لمن حضر المرأة وساعدها في شؤون ولادتها مولِّد.

يقوم الشكر إلا بها، وهي الإقرار بالنعمة ونسبتها إلى المنعم، وبذلها فيما يجب[١].

قال العلامة ابن القيم -رحمه الله-: أصل الشكر هو الاعتراف بإنعام المنعم على وجه الخضوع له، والذل، والمحبة، فمن لم يعرف النعمة، بل كان جاهلاً بها، لم يشكرها، ومن عرفها ولم يعرف المنعم بها، لم يشكرها أيضاً، ومن عرف النعمة والمنعم، لكن جحدها المنكر لنعمة المنعم عليه بها فقد كفرها، ومن عرف النعمة والمنعم بها وأقر بها ولم يجحدها ولكن لم يخضع له ولم يحبه ولم يرض به وعنه لم يشكره أيضاً، ومن عرفها وعرف المنعم بها وأقر بها وخضع للمنعم بها وأحبه ورضي به وعنه واستعملها في محابه وطاعته، فهذا هو الشاكر لها، فلا بد في الشكر من علم القلب وعمل يتبع العلم، وهو الميل إلى المنعم ومحبته والخضوع له[٢].

قوله: «قذِرني الناس»: بكراهة رؤيته وقربه منهم.



---

(١) وكذلك محبة المنعم لا بد منه في الشكر، ولم يذكره لأنه قد يدخل في نسبتها إلى المنعم، وأهمها العمل لأن الإنسان قد يقر بالنعمة وينسبها، فإذا جاء العمل صعب عليه فتخلف فلم يعمل، فالأعمى اعترف بالنعمة وعمل فأدى حق الله فيها فقال وعمل فقال قولاً حسناً وعمل عملاً حسناً وأما الأبرص والأقرع فلم يعترفا بالنعمة ولم يؤديا حق الله فيها، فلم يقولا قولاً حسناً ولم يعملا عملاً حسناً.

(٢) كلام ابن القيم كلام جيد، ومن شكر نعمة الله شكر من كان سبباً، لا يشكر الناس من لا يشكر الله.

باب[1]

قَوْلُ الله تَعَالَى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾ (الأعراف: ١٩٠).

الشَّرْحُ:

قوله: «باب قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾»[2].

قال الإمام أحمد -رحمه الله- في معنى هذه الآية: حدثنا عبدالصمد، حدثنا عمر ابن إبراهيم، حدثنا قتادة، عن الحسن، عن سمرة عن النبي ﷺ قال: «**لما ولدت حواء طاف بها إبليس، وكان لا يعيش لها ولد، فقال: سميه عبدالحارث فإنه يعيش، فسمته عبدالحارث[3] فعاش، فكان ذلك من وحي الشيطان وأمره**» رواه أحمد، والترمذي وحسنه، وابن جرير والحاكم وصححه[4]، ولهذا ذكر الضمير في آخرها بصيغة الجمع استطراداً من ذكر الشخص إلى الجنس، ومعنى الآية أنه تعالى يخبر عن مبدأ الجنس الإنساني، وفيه لله من عجائب القدرة، فأوجد هذا الجنس على كثرته واختلاف أنواعه من نفس واحدة، وهو آدم -عليه السلام-،

---

(١) موضوع الترجمة تحريم التعبيد في الاسم لغير الله، وأن التعبيد شرك في التسمية لا الحقيقة وأن الشرك في الطاعة وفي المعصية لا يكون عبادة لغير الله إذا لم يستحلها.

(٢) وعبدالحارث من أسماء الشيطان ويحتمل أنهما لم يعلما بأنه من أسمائه ويحتمل أنهما علما وتمنعا في أول الأمر ثم وافقاه وظنا أنه لا يؤثر.

(٣) في التسمية أي أطاعوه في المعصية في التسمية والتعبيد لغير الله.

(٤) هذا الحديث فيه ضعف كثير من وجوه؛ **أحدها**: عمر بن إبراهيم ضعيف، **والثاني**: عنعنة قتادة وهو مدلس فلم يصرح بالسماع، **والثالث**: سماع الحسن من سمرة، والراجح أنه لم يسمع منه إلا حديث العقيقة.

وجعل منها زوجها ليسكن إليها، فلما تغشاها أي: وطئها حملت حملاً خفيفاً، وذلك الحمل لا تجد المرأة فيه ألماً، إنما هي النطفة، ثم العلقة، ثم المضغة.

وقوله: ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ قال مجاهد: استمرت عليه، وقال مهران: استخفته، وقال ابن جرير: استمرت بالماء وقامت به وقعدت ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾ أي: صارت ذات ثقل بحملها. قال السدي: كَبِر في بطنها ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ (الأعراف: ١٨٩) أي: أن آدم وحواء -عليهما السلام- دعوا الله ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾ بشراً سوياً. قال ابن عباس: أشفقا أن يكون بهيمة ﴿لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾﴾ (الأعراف: ١٨٩) أي لنشكرنك على ذلك. انتهى ملخصاً من ابن كثير وفيه زيادة.

وقوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ﴾ (الأعراف: ١٩٠): أي: لله شركاء فيما آتاهما: أي: لم يقوما بشكر ذلك على الوجه المرضي كما وعدا بذلك، بل جعلا لي فيه شركاء فيما أعطيتهما من الولد الصالح، والبشر السوي؛ بأن سمياه عبدالحارث، فإن من تمام الشكر أن لا يعبّد الاسم إلا لله، وإذا تأملت سياق الكلام من أوله إلى آخره مع ما فسره به السلف[١] تبيّن قطعاً أن ذلك في آدم وحواء -عليهما السلام- فإن فيه غير موضع يدل على ذلك والعجب ممن يكذب بهذه القصة وينسى ما جرى أول مرة[٢] ويكابر بالتفاسير المبتدعة، ويترك تفاسير السلف وأقوالهم، وليس المحذور في هذه القصة بأعظم من المحذور في المرة الأولى.

وقوله تعالى: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾ هذا والله أعلم عائد إلى المشركين من القدرية[٣] فاستطرد من ذكر الشخص إلى الجنس وله نظائر في القرآن.

---

(١) انظر تفسير السلف لهذه الآية في ابن كثير عند قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾ (الأعراف: ١٩٠).

(٢) من أمرهما بالأكل من الشجرة في الجنة.

(٣) لعلها الذرية.

قَالَ ابنُ حَزمُ: اتَّفَقُوا عَلَى تَحرِيمُ كُلِّ اسمِ مُعَبَّدٍ لِغَيرِ الله. كَعَبدِ عَمرُو، وَعَبدُ الكَعبَةِ، وَمَا أَشبهُ ذَلِك. حَاشَا عَبدَ المُطَلِبُ[(١)].

قوله: «قال ابن حزم»: هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري المشهور صاحب كتاب «الإجماع» و«الفصل» و«المحلى» وغيرها من المصنفات[(٢)].

قوله: «اتفقوا»: الظاهر أن المراد أجمعوا، فمقصوده حكاية الإجماع لا حكاية الاتفاق على طريقة المتأخرين.

قوله:«حاشا عبدالمطلب»[(٣)] قال ابن القيم: لا تحل التسمية بعبد علي، وعبدالحسين، ولا عبد الكعبة، وقد روى ابن أبي شيبة عن هانئ بن شريح قال: وفد على النبي ﷺ قوم فسمعهم يسمون رجلاً عبد الحجر فقال له: «**ما اسمك؟**» قال عبد الحجر فقال له رسول الله ﷺ: «**إنما أنت عبدالله**» فقيل كيف يتفقون على تحريم الاسم المعبّد لغير الله؟ وقد صح عنه ﷺ: «**تعس عبد الدينار**» الحديث، وصح عنه أنه قال: «**أنا النبي لا كذب أنا ابن عبدالمطلب**».

فالجواب: أما قوله: «**تعس عبد الدينار**» فلم يرد الاسم، وإنما أراد به الوصف

---

(١) استثنى عبدالمطلب لأن النبي ﷺ قال: «أنا ابن عبدالمطلب» ولأن أصل التسمية ليس المراد فيها التعبيد، فإن شيبة الحمد كان عند أخواله بالمدينة فأخذه عمه المطلب منهم فأردفه فلما أقبل إلى مكة رأوه رديفاً له وقد تغير لونه من الشمس فقالوا هذا عبدالمطلب فاستثنى كل معبّد بذلك، وقد يقال إنه لما استثنى عبدالمطلب جدّ الرسول استثنى كل معبد لذلك مراعاة للأصل الأول وهذا يجري في كل من اسمه عبدالمطلب، ولهذا لم يغير النبي اسم ابن عمه عبدالمطلب بن ربيعة.

(٢) كان من أعيان القرن الخامس، كانت وفاته سنة ٤٥٦هـ، وكان البيهقي من أعيان هذا القرن، وكانت وفاته سنة ٤٥٨هـ، وكان الخطيب البغدادي عالم المشرق من أعيان هذا القرن وكانت وفاته سنة ٤٦٣هـ، وكان أبو عمر ابن عبدالبر عالم المغرب من أعيان هذا القرن وكانت وفاته سنة ٤٦٣هـ.

(٣) اسمه شيبة الحمد.

والدعاء على من يعبّد قلبه للدينار والدرهم؛ فرضي بعبوديتهما عن عبودية الله تبارك وتعالى، وأما قوله: «**أنا ابن عبدالمطلب**» فهذا ليس من باب إنشاء التسمية بذلك، وإنما هو من باب الإخبار بالاسم الذي عُرف به المسمى دون غيره، والإخبار بمثل ذلك على وجه تعريف المسمى لا يحرم. ولا وجه لتخصيص أبي محمد ذلك بعبدالمطلب خاصة، فقد كان أصحابه يسمّون بعبد شمس، وبني عبدالدار بأسمائهم، ولا ينكر عليهم النبي ﷺ ذلك فباب الأخبار أوسع من الإنشاء فيجوز فيه ما لا يجوز في الإنشاء. انتهى ملخصاً، وهو حسن ولكن بقي إشكال وهو أن في الصحابة من اسمه المطلب بن ربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب.

فالجواب: أما من اسمه عبد شمس فغيره النبي ﷺ إلى عبدالله كما ذكروا ذلك في تراجمهم، وأما المطلب بن ربيعة فذكر ابن عبدالبر أن اسمه عبدالمطلب، وقال: كان على عهد رسول الله ﷺ ولم يغير اسمه فيما علمت[1]. وقال الحافظ: وفيما قاله نظر، فإن الزبير أعلم من غيره بنسب قريش، ولم يذكر أن اسمه إلا المطلب، وقد ذكر العسكري أن أهل النسب إنما يسمونه المطلب، وأما أهل الحديث فمنهم من يقول: المطلب، ومنهم من يقول: عبدالمطلب، وأما عبد يزيد أبو ركانة فذكره الذهبي في «التجريد» وقال أبو ركانة: طلق أمرأته وهذا لا يصح. والمعروف أن صاحب القصة ركانة، وروى حديثه أبو داود، وفي «السنن» عن ابن عباس قال: طلق عبد يزيد أبو ركانة وإخوته أم ركانة وذكر الحديث ثم قال: وحديث نافع بن عجير، وعبدالله بن علي بن يزيد بن ركانة عن أبيه، عن جده أن ركانة طلق امرأته البتة فجعلها النبي ﷺ واحدة أصح؛ لأنهم ولد الرجل وأهله، وهم أعلم به فقد تبين أنه ليس في الصحابة من هؤلاء من تصح له صحبته فعلى هذا لا تجوز التسمية

---

(١) الذي في «صحيح مسلم» أن اسمه عبدالمطلب فإن ثبت أن النبي ﷺ غيره كان غير مستثنى وإلا فيكون عبدالمطلب مستثنى.

بعبدالمطلب ولا غيره مما عبد لغير الله، وكيف تجوز التسمية وقد أجمع العلماء على تحريم التسمية بـ (عبدالنبي)، و(عبد الرسول) و(عبد المسيح)، و(عبد علي)، و(وعبد الحسين)، و(عبد الكعبة)؟ وكل هذه أولى بالجواز من عبدالمطلب لو جازت التسمية به. وأيضاً فقد نص النبي ﷺ على أن التسمية بعبد الحارث من وحي الشيطان، وأمره، فعبد المطلب كعبد الحارث، لا فرق بينهما، إلا أن أصدق الأسماء الحارث وهمام فلعله أولى بالجواز. لا يقال: إن الحارث اسم للشيطان، لأنه وإن كان اسماً له، فلا فرق في ذلك بين جميع من اسمه الحارث. فلا يجوز التسمية به وإن نوى عبد الحارث بن هشام أو غيره.

فإن قلت: إذا كان ابن حزم قد حكى الإجماع على جواز التسمية بعبد المطلب، فكيف يجوز خلافه؟

قلت: كلام ابن حزم ليس صريحاً في حكاية الإجماع على جواز ذلك بعبد المطلب، فإن لفظه: اتفقوا على تحريم كل اسم معبَّد لغير الله، كعبد العزى، وعبد هبل، وعبد عمرو، وعبد الكعبة، وما أشبه ذلك حاشا عبد المطلب. واتفقوا على إباحة كل اسم بعد ما ذكرنا ما لم يكن اسم نبي، أو اسم ملك إلى آخر كلامه. فيحتمل أن مراده حكاية الخلاف فيه، ويكون التقدير: اتفقوا على تحريم كل اسم معبَّد لغير الله حاشا عبدالمطلب، أي: فإنهم لم يتفقوا على تحريمه، بل اختلفوا، ويؤيده أنه قال بعده: واتفقوا على إباحة كل اسم بعد ما ذكرنا إلى آخره. ويكون المراد حاشا عبدالمطلب ، فلا أحفظ ما قالوا فيه، ويكون سكوتاً منه عن حكاية الإجماع، أو الخلاف فيه، وعلى تقدير أن مراده حكاية الإجماع من جواز ذلك، فليس كل من حكى إجماعاً يُسلَّم له، ولا كل إجماع يكون حجة أيضاً، فكيف والخلاف موجود، والسنة فاصلة بين المتنازعين؟ وغاية حجة من أجازه قوله -عليه السلام-: «**أنا ابن عبدالمطلب**» ونحوه، أو أن بعض الصحابة اسمه

عبدالمطلب، وقد تقدم الجواب عن ذلك، وأيضاً فلو كان قوله: «**أنا ابن عبدالمطلب**» حجة على جواز التسمية به لكان قوله: «**إنما بنو هاشم، وبنو عبد مناف**[1] **شيء واحد**»[2] حجة على جواز التسمية بعبد مناف، ولكن فرق بين إنشاء التسمية وبين الإخبار بذلك عمن هو اسمه.



---

(١) الذي في «صحيح مسلم»: «إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد» والشارح مع عنايته العظيمة بالحديث أخطأ في نقل الحديث والكمال لله والبشر محل الخطأ.

(٢) ولما قال بنو عبد شمس وبنو نوفل نريد أن نكون كبني المطلب قال: إن بني المطلب لم يفارقوا بني هاشم في جاهلية ولا إسلام وذلك أن عبد مناف له أربعة أولاد هاشم والمطلب ونوفل وعبد شمس ويقال للشافعي في نسبه المطلبي وغلط من قال ابن عبدالمطلب.

عَن ابنِ عَبَّاسٍ فِي الآيَةِ، قَالَ[(١)]: «لَـمَّا تَغَشّاهَا آدَمُ حَمَلَت، فَأَتَاهُمَا إِبلِيسُ. فَقَالَ: إِنِّي صَاحِبُكُمَا الَّذِي أَخرَجتُكُمَا مِنَ الجَنَّةِ لِتُطِيعَانِي أَو لأَجعَلَنَّ لَهُ قَرْني أَيْلٍ فَيَخرُجُ مِن بَطنِكَ فَيَشقّه، وَلأَفعَلَنَّ، وَلأَفعَلَنَّ، يُخَوِّفُهُمَا. سَمِّيَاهُ عَبدَ الحَارِثِ. فَأَبَيَا أَن يُطِيعَاهُ، فَخَرَجَ مَيِّتاً، ثُمَّ حَمَلَت، فَأَتَاهُمَا. فَقَالَ مِثلَ قَولِهِ: فَأَبَيَا أَن يُطِيعَاهُ، فَخَرَجَ مَيِّتاً، ثُمَّ حَمَلَت فَأَتَاهُمَا، فَذَكَرَ لَـهُمَا، فَأَدرَكَهُمَا حُبُّ الوَلَدِ، فَسَمَّيَاهُ عَبدَ الحَارِثِ، فَذَلِكَ قَولُهُ: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾». [رَوَاهُ ابنُ أَبِي حَاتِمٍ].

قوله: «في الآية»: أي: المترجم لها.

قوله: «تغشاها»: أي حواء، أي وطئها -عليهما السلام-.

قوله: «أو لأجعلن له»: أي: لولدكما.

قوله: «قرني أيِّلٍ»: هو بالتثنية والإضافة، وأيِّل بفتح الهمزة وكسر المثناة التحتية المشددة ذَكَر الأوعال، والمعنى أنه يخوفهما بكونه يجعل للولد قرني وعل؛ فيخرج من بطنها فيشقه كما قال: **«فيخرج من بطنك فيشقه»**.

قوله: «ولأفعلن ولأفعلن»: يخوفهما بغير ما ذكر، ويزعم أنه يفعل بهما غير ذلك.

قوله: «سمياه عبدالحارث»: قال سعيد بن جبير: كان اسمه في الملائكة الحارث، وكان مراده أن سمياه بذلك، ليكون قد وجد له صورة الإشراك به، فإن هذا من باب كيد إبليس، إذا عجز عن الآدمي أن يوقعه في المعصية الكبيرة، قنع منه بالصغيرة، وأيضاً فإنه يحصل له منهما طاعته كما أطاعا أول مرة، كما روى ابن

---

(١) أي في تفسير الآية وليس حديثاً بل هو عن بني إسرائيل.

جرير، وابن أبي حاتم عن عبدالرحمن بن زيد بن أسلم قال: قال رسول الله ﷺ: «**خدعهما مرتين**» قال: زيد خدعهما في الجنة وخدعهما في الأرض.

قوله: «**فأبيا أن يطيعاه فخرج ميتاً...**» **إلخ** هذا والله أعلم من الامتحان فإن الإنسان لا عزم له، وإن عاين ماذا عساه أن يعاين من الآيات إلا بتوفيق الله تعالى فإن الطبيعة البشرية تغلب عليه كما غلبت على الأبوين مرتين، مع ما وقع لهما قبل من التحذير والإنذار عن كيد إبليس وعداوته لهما، ومع ذلك أدركهما حب الولد فسمياه عبد الحارث، وكان ذلك شركاً في التسمية وإن لم يقصدا العبادة للشيطان، بل قصدا به فيما ظنا، إما دفع شره عن حواء، وإما الخوف على الولد من الموت. كما روى عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن ابي بن كعب قال: لما حملت حواء، أتاها الشيطان فقال: أتطيعينني ويسلم ولدك؟ سميه عبد الحارث فلم تفعل فولدت فمات، ثم حملت فقال لها مثل ذلك فلم تفعل، ثم حملت الثالثة فقال: أتطيعينني يسلم لك ولدك وإلا فإنه يكون بهيمة فهيبهما فأطاعاه. رواه ابن أبي حاتم.

قلت: وإسناده صحيح، ورواه سعيد بن منصور وابن المنذر، وعن ابن عباس قال: كانت حواء تلد لآدم أولاداً فتعبدهم لله، وتسميه عبدالله وعبيد الله، ونحو ذلك فيصيبهم الموت، فأتاها إبليس وآدم فقال: إنكما لو تسميانه بغير ما تسميانه لعاش، فولدت له رجلاً فسمياه عبد الحارث ففيه أنزل: ﴿**هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ**﴾ إلى آخر الآية. رواه ابن مردويه.



وَلَهُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ قَتَادَةَ قَالَ: «شُرَكَاءُ فِي طَاعَتِهِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي عِبَادَتِهِ».

وَلَهُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾؛ قَالَ: «أَشْفَقَا أَنْ لاَ يَكُونَ إِنسَانًا» وَذَكَرَ مَعْنَاهُ عَنِ الحَسَنِ وَسَعِيدٍ وَغَيْرِهِمَا.

قوله: «شركاء في طاعته ولم يكن في عبادته». أي: لكونهما أطاعاه في التسمية بعبد الحارث، لا أنهما عبداه فهو دليل على الفرق بين شرك الطاعة وبين شرك العبادة. قال بعضهم: تفسير قتادة في هذه الآية بالطاعة، لأن المراد بها على كلام كثير من المفسرين آدم وحواء -عليهما السلام-، فناسب تفسيرها بالطاعة، لأنهما أطاعا الشيطان في تسمية الولد بعبد الحارث. وقد استشكله بعض المعاصرين بما حاصله أنهم قد فسروا العبادة بالطاعة، فيلزم على قول قتادة أن يكون الشرك في العبادة.

والجواب: أن تفسير العبادة بالطاعة من التفسير اللازم، فإنه لازم العبادة أن يكون العابد مطيعاً لمن عبده بها، فلذا فسرت بالطاعة، أو يقال: هو من التفسير بالملزوم وإرادة اللازم أي لما كانت الطاعة ملزوماً للعبادة، والعبادة لازمة لها، فلا تحصل إلا بالطاعة؛ جاز تفسيرها بذلك وهو أصح، وبالجملة فلا إشكال في ذلك بحمد الله.

فإن قلت: قد سمى النبي ﷺ طاعة الأحبار والرهبان في معصية الله عبادة[1].

---

(١) والتحقيق أن الطاعة في المعصية قسمان، **أحدهما**: أن يطيعه مستحلاً للمعصية من عالم أو رئيس أو غيرهما فيطيعه فيما خالف الشرع وهو يعلم ذلك ويرى جواز الطاعة ولو خالف الشرع فهذا كفر بإجماع المسلمين وهو ردة عن الإسلام، **الثاني**: أن يطيعه في المعصية ولا يستحل المعصية ولا يرى أنه يجوز طاعته في المعصية بل هو معترف بأنه ظالم وعاصٍ كما يحكم الحاكم على شخص لقرابة أو لرشوة أو لعداوة الخصم له فهذا معصية وطاعة الأبوين من هذا القسم وقد يسمى كفراً أصغر فهو كفر عملي لا يخرج من الملة كقُطَّاع الطريق الذين يأخذون أموال =

قلت: راجع الكلام على حديث عدي يتضح الجواب.

قوله: «**أشفقا**»: أي خافا، أي: آدم وحواء أن لا يكون إنساناً. قال أبو صالح: أشفقا أن يكون بهيمة فقال: لئن آتيتنا بشراً سوياً. رواه ابن أبي حاتم، وفي هذا أن هبة الله للرجل البنت السوية من النعم. ذكره المصنف، وذلك أن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يجعلها غير سوية، وأن يجعلها من غير الجنس فلا ينبغي للرجل أن يسخط مما وهبه الله له كما يفعل أهل الجاهلية، بل يحمد الله الذي جعلها بشرية سوية، ولهذا كانت عائشة -رضي الله عنها- إذا بُشرت بمولود لم تسأله إلا عن صورته لا عن ذكوريته وأنوثيته.

قوله: «**وذكر**» أي: ذكر ابن أبي حاتم فإنه روى ذلك عمن ذكر المصنف معناه عن الحسن: وهو البصري.

قوله: «**وسعيد**»: أي: ابن جبير وغيرهما كالسدي وغيره.



= الناس ويسفكون دماءهم وهم يعتقدون أنهم ظالمون لهم عصاة مسلمون، فإن استحلوا دماء الناس وأموالهم فهم كفار، ولذلك اختلف العلماء في الخوارج الذين يستحلون دماء الناس فذهب فريق من العلماء إلى تكفيرهم لأنهم يستحلون دماء المسلمين، وذهب الأكثرون إلى أنهم لا يكفرون، بل هم عصاة لأنهم متأولون، ولهم شبهة في تأويل النصوص.

باب[(١)]

قَوْلُ الله تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ﴾ (الأعراف: ١٨٠) **الآية.**

الشَّرْحُ:

يخبر تعالى أن له أسماءً وصفها بكونها حسنى: أي حسان، وقد بلغت الغاية في الحسن فلا أحسن منها، كما يدل عليه من صفات الكمال، ونعوت الجلال، فأسماؤه الدالة على صفاته هي أحسن الأسماء وأكملها فليس في الأسماء أحسن منها، ولا يقوم غيرها مقامها، وتفسير الاسم منها بغيره ليس تفسيراً بمراد محض، بل هو على سبيل التقريب والتفهيم، فله من كل صفة كمال أحسن اسم وأكمله وأتمه معنى وأبعده، وأنزهه عن شائبة نقص، فله من صفة الإدراكات العليم[(٢)] الخبير دون العالم الفقيه، والسميع البصير دون السامع والباصر، ومن صفات الإحسان البر الرحيم الودود، دون الرفيق والشفيق والمشوق، وكذلك العلي العظيم دون الرفيع الشريف، وكذلك الكريم دون السخي، والخالق البارئ المصور دون الصانع الفاعل المشكّل، والعفو الغفور، دون الصفوح الساتر، وكذلك سائر أسماء الله تعالى يجري على نفسه أكملها وأحسنها ولا يقوم غيره مقامه، فأسماؤه أحسن الأسماء، كما أن صفاته أكمل الصفات، فلا نعدل عما سمى به نفسه إلى غيره، كما لا يتجاوز ما وصف به نفسه، ووصفه به رسوله ﷺ إلى ما وصفه به المبطلون، ومن

---

(١) المقصود بالترجمة إثبات الأسماء الحسنى لله، ودعاؤه بها، والحذر من الإلحاد فيها، ووعيد الملحدين، والرد على من توسل بذوات المخلوقين كما في «قرة عيون الموحدين» فليراجع.

(٢) لأنها صفات مبالغة فهي أكمل وأجل وأعلى.

هنا يتبين لك خطأ من أطلق عليه اسم الصانع والفاعل والمربي ونحوها؛ اللفظ الذي أطلقه سبحانه على نفسه، وأخبر به عنها أتم من هذا، وأكمل وأجل شأناً، فإنه يوصف من كل صفة كمال بأكملها وأجلها وأعلاها فيوصف من الإرادة بأكملها، وهو الحكمة وحصول كل ما يريد بإرادته كما قال تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ (البروج: ١٦) وبإرادة اليسر لا العسر كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ (البقرة: ١٨٥) وبإرادة الإحسان وتمام النعمة على عباده، كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ[١] وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾﴾ (النساء: ٢٧) فإرادة التوبة له وإرادة الميل لمبتغي الشهوات. وقوله: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ (المائدة: ٦) وكذلك العليم الخبير أكمل من الفقيه العارف، والكريم الجواد أكمل من السخي، والرحيم أكمل من الشفيق، والخالق البارئ المصور أكمل من الفاعل الصانع؛ ولهذا لم تجيء هذه في أسمائه الحسنى، فعليك بمراعاة ما أطلقه سبحانه على نفسه من الأسماء والصفات، والوقوف معها وعدم إطلاق ما لم يطلقه على نفسه[٢]، ما لم يكن مطابقاً لمعنى أسمائه وصفاته وحينئذٍ فيطلق المعنى لمطابقته لها دون اللفظ، ولا سيما إذا كان مجملاً، أو منقسماً، أو ما يمدح به وغيره، فإنه لا يجوز إطلاقه إلا مقيداً، وهذا كلفظ الفاعل والصانع،

---

(١) وهذه هي الإرادة الدينية الشرعية ومثل ذلك قوله تعالى في أهل البيت: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ فهذه إرادة دينية شرعية، وقد يتعلق بهذه الآية بعض الشيعة فيزعمون أنها إرادة كونية وأن أهل البيت مطهرون ومعصومون من الخطأ وهذا جهل وضلال.

(٢) لأن الأسماء والصفات توقيفية.

فإنه لا يطلق عليه في أسمائه الحسنى إلا إطلاقاً مقيداً كما أطلقه على نفسه كقوله: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ (البروج: ١٦) ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ (إبراهيم: ٢٧) وقوله: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ (النمل: ٨٨) فإن اسم الفاعل والصانع منقسم المعنى إلى ما يمدح عليه ويذم؛ فلهذا المعنى والله أعلم لم يجئ في الأسماء الحسنى المريد كما جاء فيها السميع البصير، ولا المتكلم الآمر الناهي؛ لانقسام مسمى هذه الأسماء، بل وصف نفسه بكمالاتها، وشرف أنواعها، ومن هنا يعلم غلط بعض المتأخرين وزلقُه الفاحش في اشتقاقه له سبحانه من كل فعل أخبر به عن نفسه اسماً مطلقاً، وأدخله في أسمائه الحسنى، فاشتق منها اسم الماكر، والمخادع والفاتن والمضل - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً-. انتهى ملخصاً من كلام ابن القيم.

وقيل: فصل الخطاب في أسماء الله الحسنى، هل هي توقيفية أم لا؟ وحاصله أن ما يطلق عليه من باب الأسماء والصفات توقيفي، وما يطلق من باب الإخبار لا يجب أن يكون توقيفياً، كالقديم والشيء والموجود، والقائم بنفسه والصانع، ونحو ذلك[1].

﴿فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ أي اسألوه، وتوسلوا إليه بها كما تقول: اغفر لي وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم، فإن ذلك من أقرب الوسائل وأحبها إليه، كما في «المسند»، والترمذي «**ألظوا**[2] **بيا ذا الجلال والإكرام**» والحديث الآخر سمع النبي ﷺ رجلاً يدعو وهو يقول: اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله الذي لا إله إلا أنت، الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد فقال: «**والذي نفسي بيده لقد سأل الله باسمه الأعظم الذي دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى**» رواه

---

(١) فهي تطلق على الله من باب الإخبار في معرض الرد على الملاحدة الذين ينكرون وجود الله، فيقال إنه شيء، وقائم بنفسه، وقديم، إذا أنكروا كونه موجوداً وشيئاً ثابتاً.

(٢) أكثروا.

الترمذي وغيره، وقوله -عليه الصلاة والسلام-: «**اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وبعفوك من عقوبتك، وبك منك، لا نحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك**» حديث صحيح رواه مسلم وغيره، ومنه: «**اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت، المنان، بديع السماوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام**» رواه الترمذي بنحوه، واللفظ لغيره.

قال ابن القيم: فهذا سؤال له، وتوسل إليه بحمده وأنه لا إله إلا هو المنان. فهو توسل إليه بأسمائه، وصفاته، وما أحق ذلك بالإجابة، وأعظمه موقعاً عند السؤال. واعلم أن الدعاء بها أحد مراتب إحصائها الذي قال فيه النبي ﷺ «**إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة**» رواه البخاري وغيره، وهي ثلاث مراتب:

المرتبة الأولى: إحصاء ألفاظها، وأسمائها، وعددها.

المرتبة الثانية: فهم معانيها، ومدلولها.

المرتبة الثالثة: دعاؤه بها كما في الآية؛ وهو نوعان:

دعاء ثناء، وعبادة، ودعاء طلب ومسأله[1]، فلا يثنى عليه إلا بأسمائه الحسنى، وصفاته العلى، وكذا لا يُسأل إلا بها فلا يقال يا موجود ويا شيء ويا ذات اغفر لي، بل يسأل في كل مطلوب باسم يكون مقتضياً لذلك المطلوب فيكون السائل متوسلاً إليه بذلك الاسم، ومن تأمل أدعية الرسل، لا سيما خاتمهم -عليه وعليهم السلام- وجدها مطابقة لهذا كما تقول: رب اغفر لي وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم، ولا يحسن: إنك أنت السميع العليم البصير، ولكن أسماؤه تعالى منها ما يطلق عليه مفرداً وهو غالب الأسماء كالقدير، والسميع والبصير والحكيم فهذا يسوغ أن يدعى به مفرداً، ومقترناً بغيره فتقول يا عزيز، يا حكيم، يا قدير، يا

---

(١) المرتبة الرابعة: العمل بمقتضاها، وقد يقال إن هذه المرتبة يشملها النوع الأول من المرتبة الثالثة.

سميع، يا بصير، وإن انفرد كل اسم، وكذلك في الثناء عليه والخبر عنه، وبه يسوغ لك الإفراد والجمع، ومنها ما لا يطلق عليها مفرداً بل مقروناً بمقابله كالمانع، والضار، والمنتقم، والمذل، لا يجوز أن يفرد هذا عن مقابله، فإنه مقرون بالمعطي، والنافع، والعفو، والعزيز، والمعز فهو المعطي المانع الضار النافع، المنتقم العفو، المعز المذل؛ لأن الكمال في اقتران كل اسم من هذا بمقابله؛ لأنه يراد به أنه المتفرد بالربوبية، وتدبير الخلق، والتصرف فيهم إعطاءً ومنعاً، ونفعاً وضراً، وانتقاماً وعفوا، وإعزازاً وإذلالاً، فأما الثناء عليه بمجرد المنع والانتقام والإضرار، فلا يسوغ فهذه الأسماء المزوجة يجري الاسمان منها مجرى الاسم الواحد الذي يمتنع فصل بعض حروفه من بعض، ولذلك لم تجئ مفردة، ولم تطلق عليه إلا مقترنة. فلو قلت: يا ضار يا مانع، يا مذل لم تكن مثنياً عليه، ولا حامداً له حتى تذكر مقابلتها. انتهى ملخصاً من كلام ابن القيم. وفيه بعض زيادة، وبه يظهر الجواب عما قد يرد على ما سبق.

ذكر الأسماء الحسنى التي ورد عددها في الحديث:

لما كان إحصاء الأسماء الحسنى والعمل بها أصلاً للعلم بكل معلوم، وكانت سعادة الدنيا والآخرة مرتبة عليها فما حصل من آثارها للعباد هو الذي أوجب لهم دخول الجنة، ولهذا جاء الحديث الصحيح المتفق عليه: «**أن من أحصاها دخل الجنة**»[1] وذكرنا مراتب الإحصاء، لأن العبد محتاج بل مضطر إلى معرفتها فوق

---

(١) أول الحديث: «إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة» هذا متفق عليه، أما تعداد الأسماء فالراجح أنه مدرج في الحديث كما ذكر ذلك الحافظ في «البلوغ»، وهذه الأسماء التي تحصى معينة معروفة ليس المراد أن من أحصى تسعة وتسعين من أسمائه حصل له الثواب، بل المراد تسعة وتسعين من أسمائه معينة، وإنما أخفاها الله تعالى ليجتهد العالم في البحث عنها والتعرف عليها والتنقيب عنها في الكتاب والسنة كما أخفيت ساعة الإجابة يوم الجمعة وكما أخفيت ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان ليجتهد العباد في طلب هذه الليلة بالتعبد في =

كل ضرورة، وقد قيل: إن الله ذكرها كلها في القرآن ولا ريب أن الله تعالى ذكر أكثرها بلفظها، وما لم يذكره بلفظه، ففي القرآن ما يدل عليه. قال الترمذي: حدثنا إبراهيم بن يعقوب، أخبرنا صفوان بن صالح قال: أخبرنا الوليد بن مسلم قال شعيب بن أبي حمزة عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة، هو الله الذي لا إله هو الرحمن، الرحيم. الملك. القدوس. السلام. المؤمن. المهيمن. العزيز. الجبار. المتكبر. الخالق. الباري. المصور. الغفار. القهار. الوهاب. الرزاق. الفتاح. العليم. القابض. الباسط. الخافض. الرافع. المعز. المذل. السميع. البصير. العدل. اللطيف. الخبير. الحليم. العظيم. الغفور. الشكور. العلي. الكبير. الحفيظ. المقيت. الحسيب. الجليل. الكريم. الرقيب. المجيب. الواسع. الحكيم. الودود. المجيد. الباعث. الشهيد. الحق. الوكيل. القوي. المتين. الولي. الحميد. المحصي. المبدئ. المعيد. المحيي. المميت. الحي. القيوم. الواجد. الماجد. الأحد. الصمد. القادر. المقتدر. المقدم. المؤخر. الأول. الآخر. الظاهر. الباطن. الوالي. المتعال. البر. التواب. المنعم. المنتقم. العفو. الرؤوف. مالك الملك. ذو الجلال والإكرام. المقسط. الجامع. الغني. المغني. المانع. الضار. النافع. النور. الهادي. البديع. الباقي. الوارث. الرشيد. الصبور**».

قال الترمذي: هذا حديث غريب جداً حدثنا به غير واحد عن صفوان بن صالح، ولا نعرفه إلا من حديث صفوان بن صالح، وهو ثقة عند أهل الحديث. وقد روي هذا الحديث من غير وجه عن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي ﷺ لا نعلم في كبير شيء من الروايات ذكر الأسماء الحسنى إلا في هذا الحديث، وقد روى آدم بن أبي إياس هذا الحديث بإسناد غير هذا عن أبي هريرة عن النبي ﷺ

= جميع العشر بمزيد الاجتهاد والدعاء في يوم الجمعة طلباً لإدراك ساعة الإجابة.

وذكر فيها الأسماء، وليس له إسناد صحيح.

قلت: يشير إلى عدد الأسماء سرداً، وإلا فصدر الحديث متفق عليه، وقد خرجه بالعدد المذكور ابن المنذر، وابن خزيمة في «صحيحه» وابن حبان والطبراني، والحاكم في «المستدرك» وغيرهم به، ولم يذكروا فيه «المعطي»، وإسناده صحيح، ولكن المستغرب منه ذكر العدد، ورواه ابن ماجه من طريق عبدالملك بن الصنعاني عن زهير بن محمد التميمي، عن موسى بن عقبة، عن الأعرج وساق الأسماء، وخالف سياق الترمذي في الترتيب والزيادة والنقص، فأما الزيادة فهي «البارئ، الراشد، البرهان، الشديد، الواقي، القائم، الحافظ، الناظر، السامع، المعطي، الأبد، المنير، التام، القديم، الوتر» وعبدالملك لين الحديث، وزهير مختلف فيه، وحديث الوليد[1] أصح إسناداً وأحسن سياقاً وأجدر أن يكون مرفوعاً، ولهذا قال النووي: هو حديث حسن. قال بعضهم: والعلة في كونهما لم يخرجاه بذكر الأسامي تفرد الوليد بن مسلم عالم الشاميين الثقة، وقد قيل: إن العدد المذكور مدرج.

قال في «الإرشاد» ما معناه: ذكر جماعة من الحفاظ المحققين المتقنين أن سرد الأسماء في حديث أبي هريرة مدرج فيه[2]، وأن جماعة من أهل العلم جمعوها من القرآن، كما رُوي ذلك عن جعفر بن محمد وسفيان بن عيينة، وأبي زيد اللغوي، وقال البيهقي: يحتمل أن يكون التفسير للأسماء وقع من بعض الرواة، ولهذا الاحتمال ترك الشيخان إخراج حديث الوليد في «الصحيح».

قال في «البدر»[3]: والدليل على ذلك وجهان؛ **أحدهما**: أن أصحاب الحديث

---

(١) الوليد بن مسلم مدلس تدليس تسوية، وكذلك تلميذه صفوان بن صالح مدلس تدليس تسوية كشيخه.

(٢) كما ذكر ذلك الحافظ في «البلوغ».

(٣) «البدر التمام» لمؤلفه المغربي شرح لـ «بلوغ المرام» وهو الذي اختصره الصنعاني في كتابه: «سبل =

لم يذكروها، **والثاني**: أن فيها تغييراً بزيادة ونقصان، وذلك لا يليق بالمرتبة العليا النبوية، كذا قال، وفيه نظر، فإن الزيادة والنقصان قد تكون من الرواة، وإن كان الحديث صحيحاً كما في غير ذلك من الأحاديث، وقد رواه الطبراني في «الدعاء»، والحاكم وغيرهما، فزادوا «**الرب الإله الحنان المنان البارئ**»، وفي لفظ: «**القائم الفرد**»، وفي لفظ: «**القادر**» بدل «**الفرد**» و «**المغيث الدائم الحميد**» وفي لفظ: «**الجميل، الصادق، المولى، النصير، القديم، الوتر، الفاطر، العلام، المليك، الأكرم، المدبر، المالك، الشاكر، الرفيع، ذو الطول، ذو المعارج، ذو الفضل، الخلاق**»، ولا أظنه يثبت، وإن كان بعض العدد صحيحاً، وعدّ جعفر بن محمد منها: «المنعم المتفضل السريع».

وقال ابن حزم: جاءت في إحصائها أحاديث مضطربة، لا يصح منها شيء أصلاً، ونقل عنه أنه قال: صح عندي قريباً من ثمانين اسماً، اشتمل عليها الكتاب، والصحاح من الأخبار[1]، فليطلب الباقي بطريق الاجتهاد.

وقال القرطبي في «شرح الأسماء الحسنى»: والعجب من ابن حزم ذكر من الأسماء الحسنى نيفاً وثمانين فقط، والله يقول: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ (الأنعام: ٣٨) ثم ساق ما ذكره ابن حزم وفيه من الزيادة على ما تقدم: «الرب، الإله، الأعلى، الأكبر، الأعز، السيد، السُّبُّوح، الوتر، المحسن، الجميل، الرفيق، الدهر» وقد عدها الحافظ فزاد: «الخفي، السريع، الغالب، العالم، الحافظ، المستعان» وفي هذا نظر يفهم مما تقدم، وإن كان قد ذُكر بعضها فيما لا يثبت من الحديث، فهذه خمسة وستون ومئة اسم، أقربها من جهة الإسناد سياق الترمذي، وما عدا ذلك ففيه أسماء صحيحة ثابتة، وفي بعضها توقف، وبعضها خطأ محض كالأبد،

= السلام».

(١) هو الذي وجده، والباقي يجده غيره وقد يخالفه غيره في العدد.

والناظر، والسامع، والقائم والسريع[١] فهذه وإن ورد عدادها في بعض الأحاديث؛ فلا يصح ذلك أصلاً. وكذلك الدهر والفعال والفالق والمخرج والعالم، مع أن هذه لم ترد في شيء من الأحاديث إلا حديث: «**لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر**» وقد مضى معناه[٢] وبينا خطأ ابن حزم في عده من الأسماء الحسنى هناك، واعلم أن الأسما الحسنى لا تدخل تحت حصر، ولا تُحدُّ بعدد فإن لله تعالى أسماءً وصفاتٍ استأثر بها في علم الغيب عنده، ولا يعلمها ملك مقرب، ولا نبي مرسل، كما في الحديث الصحيح «**أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك**» رواه أحمد وابن حبان في «صحيحه» وغيرهما.

قال ابن القيم: فجعل أسماءه ثلاثة أقسام: قسم سمى به نفسه فأظهره لمن شاء من ملائكته أو غيرهم، ولم ينزل به كتابه، وقسم أنزل به كتابه، وتعرَّف به إلى عباده، وقسم استأثر به في علم غيبه، فلم يطلع عليه أحداً من خلقه، ولهذا قال: «**استأثرت به**» أي: انفردت بعلمه، وليس المراد انفراده بالمسمى به؛ لأن هذا الانفراد ثابت في الأسماء التي أنزل بها كتابه، ومن هذا قوله -عليه الصلاة والسلام- في حديث الشفاعة «**فيفتح علي من محامده بما لا أُحسنه الآن**» وتلك المحامد هي بأسمائه وصفاته ومنه قوله: «**لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك**».

وأما قوله ﷺ: «**إن لله تسعة وتسعين اسماً**[٣] **من أحصاها دخل الجنة**» فكلام جملة واحدة، وقوله: «**من أحصاها دخل الجنة**» صفة لا خبر مستقبل، والمعنى له

---

(١) في كونها خطأً محضاً نظر، فإن الناظر والسامع كالسميع والبصير، وكذلك القائم والسريع وإنما يتوقف على ثبوتها بنص.

(٢) وأن المعنى خالق الدهر ومدبره ومصرفه.

(٣) صفتها أن من أحصاها دخل الجنة.

أسماء متعددة من شأنها أن من أحصاها دخل الجنة وهذا كقولك: لفلان ألف شاة أعدها للأضياف فلا يدل على أنه لا يملك غيرها وهذا لا خلاف بين العلماء فيه.

وقوله تعالى: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ﴾ (الأعراف: ١٨٠) أي: اتركوهم، وأعرضوا عن مجادلتهم. قال ابن القيم: والإلحاد في أسمائه هو العدول بها وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت لها، وهو مأخوذ من الميل، كما يدل عليه مادة اللحد، ومنه الملحد وهو الشق في جانب القبر الذي قد مال عن الوسط، ومنه اللحد في الدين المائل عن الحق إلى الباطل.

إذا عرف هذا فالإلحاد في أسمائه أنواع:

أحدها: أن يسمي الأصنام بها، كتسميتهم اللات من الإله، والعزى من العزيز، وتسميتهم الصنم إلهاً، وهذا إلحادٌ حقيقة، فهم عدلوا بأسمائه إلى أوثانهم، وآلهتهم الباطلة.

الثاني: تسميته بما لا يليق بجلاله، كتسمية النصارى له أباً، وتسمية الفلاسفة له موجباً بذاته، أو علة فاعلة بالطبع، ونحو ذلك.

وثالثها: وصفه بما يتعالى عنه ويتقدس من النقائص كقول أخبث اليهود: إنه فقير، وقولهم: إنه استراح بعد أن خلق خلقه، وقولهم: يد الله مغلولة، وأمثال ذلك مما هو إلحاد في أسمائه وصفاته.

ورابعها: تعطيل الأسماء الحسنى عن معانيها، وجحد حقائقها[1] كقول من يقول من الجهمية وأتباعهم: إنها ألفاظ مجردة لا تتضمن صفات، ولا معاني، فيطلقون عليه اسم السميع والبصير والحي والرحيم والمتكلم، ويقولون لا حياة له

---

(١) وذلك أن اسم السميع مثلاً يدل على شيئين، أحدهما: تسميته بالسميع وإثبات أن من أسمائه السميع، والثاني: إثبات ما تضمنه هذا الاسم من الصفة والمعنى وأن له سمعاً وأن يسمع أقوال عباده وغيره.

ولا سمع ولا بصر ولا كلام ولا إرادة تقوم به، وهذا من أعظم الإلحاد فيها عقلاً وشرعاً ولغة وفطرة، وهو يقابل إلحاد المشركين فإن أولئك أعطوا من أسمائه وصفاته لآلهتهم، وهؤلاء سلبوا كماله، وجحدوها وعطلوها، وكلاهما ألحد في أسمائه ثم الجهمية وفروخهم متفاوتون في هذا الإلحاد، فمنهم الغالي والمتوسط، والمتلوث، وكل من جحد شيئاً مما وصف الله به نفسه، أو وصفه به رسوله ﷺ فقد ألحد في ذلك فليقلّ أو ليستكثر.

وخامسها: تشبيه صفاته بصفات خلقه -تعالى الله عما يقول المشبهون علواً كبيراً- فهذا الإلحاد في مقابلة إلحاد المعطلة؛ فإن أولئك نفوا صفات كماله وجحدوها وهؤلاء شبهوها بصفات خلقه فجمعهم الإلحاد، وتفرّقت بهم طرقه وبرّأ الله أتباع رسوله وورثته القائمين بسنته عن ذلك كله فلم يصفوه إلا بما وصف به نفسه، ولم يجحدوا صفاته، ولم يشبهوها بصفات خلقه، ولم يعدلوا بها عما أنزلت عليه لفظاً ولا معنىً، بل أثبتوا له الأسماء والصفات، ونفوا عنه مشابهة المخلوقات فكان إثباتهم بريئاً من التشبيه، وتنزيههم خالياً من التعطيل، لا كمن شبّه كأنه يعبد صنماً، أو عطّل حتى كأنه لا يعبد إلا عدماً، وأهل السنة وسط في النِّحل، كما أن أهل الإسلام وسط في الملل توقد مصابيح معارفهم من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء.

﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ وعيد وتهديد.



ذَكَرَ ابنُ أَبِي حَاتِمٍ عَن ابنِ عَبَّاسٍ: ﴿يُلْحِدُونَ فِيٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ﴾ (الأعراف: ١٨٠). «يُشرِكُونَ».

قوله: ﴿يُلْحِدُونَ فِيٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ﴾: يشركون أي: يشركون غيره في أسمائه كتسميتهم الصنم إلهاً، ويحتمل أن المراد الشرك في العبادة؛ لأن أسماءه تعالى تدل على التوحيد فالإشراك بغيره إلحاد في معاني أسمائه سبحانه وتعالى لا سيما مع الإقرار بها، كما كانوا يقرون بالله ويعبدون غيره، فهذا الاسم وحده أعظم الأدلة على التوحيد، فمن عبد غيره؛ فقد ألحد في هذا الاسم، وعلى هذا بقية الأسماء، وهذا الأثر لم يروه ابن أبي حاتم عن ابن عباس إنما رواه عن قتادة فاعلم ذلك.



وَعَنهُ: «سَمُّوا اللاَّتِ مِنَ الإِلَهِ، وَالعُزَّى مِنَ العَزِيزِ».

قوله: «وعنه: سموا اللات من الإله، والعزى من العزيز»: هذا الأثر معطوف على سابقه، أي رواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس، وكذلك الأثر الثاني عن الأعمش معطوف على سابقه. أي رواه ابن أبي حاتم عنه.

والأعمش اسمه: سليمان بن مهران أبو محمد الكوفي الفقيه ثقة حافظ، ورع مات سنة ١٤٧هـ، وكان مولده أول سنة ٦١هـ[١].



(١) فعمره سبعةٌ وثمانون عاماً.

وَعَنِ الأَعمَشِ: «يُدخِلُونَ فِيهَا مَا لَيسَ مِنهَا».

قوله: «يدخلون فيها ما ليس منها»: أي كتسمية النصارى له أباً ونحوه كما سبق.



باب
لا يقال السلام على الله[1]

في «الصَّحِيحِ» عَنِ ابنِ مَسعُودٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: كُنَّا إِذَا كُنَّا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ في الصَّلاَةِ قُلْنَا: السَّلاَمُ عَلَى الله مِنْ عِبَادِهِ، السَّلاَمُ عَلَى فُلاَنٍ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لاَ تَقُولُوا السَّلاَمُ عَلَى الله[2]، فَإِنَّ اللهَ هُوَ السَّلاَمُ».

الشَّرْح:

لما كان حقيقة لفظ السلام السلامة والبراءة والخلاص والنجاة من الشر والعيوب، فإذا قال المسلم: السلام عليكم فهو دعاء للمسلَّم عليه، وطلبٌ له أن يسلم من الشرك كله، والله هو المطلوب منه لا المطلوب له، وهو المدعو لا المدعو له، وهو الغني له ما في السماوات وما في الأرض، استحال[3] أن يسلم عليه سبحانه وتعالى، بل هو المسلم على عبادة كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ (النمل: ٥٩)، وقال: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾﴾ (الصافات: ١٨١)، وقال: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ (الأحزاب: ٤٤) فهو السلام ومنه السلام لا إله غيره ولا رب سواه.

قوله: «في الصحيح». أي: «الصحيحين».

---

(١) لا يقال السلام على الله؛ لأن السلام دعاء بالسلامة، والله يدعى ولا يدعى له فهو المسلّم لعباده وعلى عباده فلا يحتاج إلى أحد من خلقه، بل هو النافع الضار، وهو الكامل في ذاته وصفاته وأفعاله.

(٢) لأن السلامة والرحمة من الله فهي تطلب منه أو لأن السلام هو الله وبركة اسمه تطلب منه، فعلى الأول لوحظ المصدري، وعلى الثاني لوحظ الاسم.

(٣) جواب «لمّا».

قوله: «قلنا: السلام على الله»: أي يقولون ذلك في التشهد الأخير[1] كما هو مصرح به في بعض ألفاظ الحديث: كنا نقول قبل أن يفرض التشهد، السلام على الله فقال النبي ﷺ: **«إن الله هو السلام ولكن قولوا التحيات لله»**.

قوله: «فقال النبي ﷺ لا تقولوا السلام على الله»: أي -والله أعلم- لما تقدم، ولأن السلام اسمه، كما يرشد إليه آخر الحديث.

قوله: «فإن الله هو السلام»: أنكر -عليه السلام- التسليم على الله، وأخبر أن ذلك عكس ما يجب له سبحانه، فإن كل سلام ورحمة له ومنه فهو مالكها ومعطيها، وهو السلام. قال ابن الأنباري: أمرهم أن يعرفوه إلى الخلق لحاجتهم إلى السلامة، وقال غيره: وهذا كله حماية منه ﷺ لجناب التوحيد حتى يعرف لله تعالى ما يستحقه من الأسماء والصفات وأنواع العبادات.

قوله: «السلام على فلان وفلان»: اختلف العلماء في معنى السلام المطلوب عند التحية على قولين:

أحدهما: أن المعنى اسم السلام عليكم، والسلام هنا هو الله عز وجل، ومعنى الكلام نزلت بركة اسم السلام عليكم، وحملت عليكم فاختير في هذا المعنى من أسمائه اسم السلام دون غيره، ويدل عليه قوله في آخر الحديث.

قوله: «فإن الله هو السلام»: فهذا صريح في كون السلام اسماً من أسمائه، فإذا قال المسلم: السلام عليكم؛ كان معناه اسم السلام عليكم، ويدل عليه ما رواه أبو داود، عن ابن عمر أن رجلاً سلّم على النبي ﷺ فلم يرد عليه حتى استقبل الجدار، ثم تيمم ورد عليه وقال: **«إني كرهت أن أذكر الله إلا على طُهر»** ففي هذا بيان أن السلام ذكر لله وإنما يكون ذكراً إذا تضمنت اسماً من أسمائه.

---

(١) الظاهر أنهم يقولون ذلك في التشهد الأخير والتشهد الأول فلا دليل على حصر ذلك في التشهد الأخير.

الثاني: أن السلام مصدر بمعنى السلامة، وهو المطلوب المدعو به عند التحية؛ لأنه يُنكَّر بلا ألف ولام فيجوز أن يقول المسلم: سلام عليكم[١]، ولو كان اسماً من أسمائه تعالى لم يستعمل كذلك، بل كان يطلق عليه معروفاً كما يطلق على سائر أسمائه الحسنى فيقال: السلام، المؤمن، المهيمن، فإن التنكير لا يصرف اللفظ إلى معين، فضلاً عن أن يصرفه إلى الله وحده بخلاف المعرَّف فإنه ينصرف إليه تعيينا إذا ذكرت أسماؤه الحسنى ويدل على ذلك عطف الرحمة والبركة عليه في قوله: سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، ولأنه لو كان اسماً من أسمائه تعالى لم يستقم الكلام بالإضمار، وذلك خلاف الأصل ولا دليل عليه ولأنه ليس المقصود من السلام هذا المعنى، وإنما المقصود منه الإيذان بالسلامة خبراً ودعاءً.

قال ابن القيم: والصواب في مجموعهما أي: القولين، وذلك أن من دعا الله بأسمائه الحسنى يسأل في كل مطلوب ويتوسل إليه بالاسم المقتضي لذلك المطلوب المناسب لحصوله؛ حتى كأن الداعي مستشفع إليه، متوسل به، فإذا قال: رب اغفر لي، وتب عليّ إنك أنت التواب الرحيم الغفور فقد سأله أمرين، وتوسل إليه باسمين من أسمائه مقتضيين لحصول مطلوبه وهذا كثير جداً، وإذا ثبت هذا فالمقام لما كان مقام طلب السلامة التي هي أهم ما عند الرجل أتى في طلبها بصيغة اسم من أسمائه تعالى، وهو السلام الذي تطلب منه السلامة فتضمن لفظ السلام معنيين.

أحدهما: ذكر الله تعالى كما في حديث ابن عمر[٢].

الثاني: طلب السلامة وهو المقصود من المسلّم فقد تضمن «سلام عليكم» اسماً من أسماء الله، وطلب السلامة منه. انتهى ملخصاً.



(١) كما في سلام إبراهيم عليه السلام راداً على سلام الملائكة في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ﴾.

(٢) السابق في تيممه على الجدار.

باب
قول اللهم اغفر لي إن شئت

في «الصَّحِيحِ» عَنْ أَبِي هُرَيرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لاَ يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ، اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ لِيَعْزِمِ المَسْأَلَةَ[١]؛ فَإِنَّ اللهَ لاَ مُكْرِهَ لَهُ».

وَلِمُسلِمٍ: «وَلْيُعَظِّمِ الرَّغْبَةَ فَإِنَّ اللهَ لاَ يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ أَعْطَاهُ».

لما كان العبد لا غناء له عن رحمة الله ومغفرته طرفة عين، بل فقير بالذات إلى الغني بالذات كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ۝١٥﴾ (فاطر: ١٥) نُهي عن قول ذلك؛ لما فيه من إيهام الاستغناء عن مغفرة الله ورحمته كما سيأتي، وذلك مضاد للتوحيد.

قوله: «في الصحيح»: أي «الصحيحين».

قوله: «اللهم اغفر لي إن شئت» قال القرطبي: إنما نهى الرسول ﷺ عن هذا القول؛ لأنه يدل على فتور الرغبة، وقلة الاهتمام بالمطلوب وكأن هذا القول يتضمن أن هذا المطلوب إن حصل وإلا استغنى عنه ومن كان هذا حاله لم يتحقق من حالة الافتقار والاضطرار الذي هو روح عبادة الدعاء، وكان ذلك دليلاً على قلة معرفته بذنوبه، وبرحمة ربه وأيضاً فإنه لا يكون موقناً بالإجابة وقد قال -عليه الصلاة والسلام-: «**ادعو الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاءً من قلب غافل**»[٢].

---

(١) لأمرين؛ **أحدهما**: أن الله لا مكره له، **والثاني**: أن قول إن شئت يشعر بأن الداعي غير محتاج إلى المغفرة وما دعا به فمنع من ذلك.

(٢) هذا الحديث في سنده بعض الشيء لكن له شواهد تدل على أنه لا بد للدعاء من إظهار الافتقار=

قوله: «ليعزم المسألة». قال القرطبي أي: ليجزم في طلبته، ويحقق رغبته، ويتيقن الإجابة، فإنه إذا فعل ذلك دلّ على علمه بعظيم ما يطلب من المغفرة والرحمة، وعلى أنه مفتقر إلى ما يطلب مضطر إليه، وقد وعد الله المضطر بالإجابة بقوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ (النمل: ٦٢).

قوله: «فإنه لا مكره له». أي: فإن الله لا مكره له. هذا لفظ البخاري في الدعوات، ولفظ مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يقولن أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، ليعزم المسألة في الدعاء، فإن الله صانع ما شاء، لا مكره له**» قال القرطبي: هذا إظهار لعدم فائدة تقبل الاستغفار والرحمة بالمشيئة. كأن الله تعالى لا يضطره إلى فعل شيء دعاء ولا غيره، بل يفعل ما يريد ويحكم ما يشاء. ولذلك قيَّد الله تعالى الإجابة بالمسألة في قوله: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ﴾ (الأنعام: ٤١). فلا معنى لاشتراط المشيئة بقلبه.

قوله: «ولمسلم». أي: من وجه آخر.

قوله: «وليعظم الرغبة». هو بالتشديد، فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه يقال: تعاظم زيد هذا الأمر، أي كبر عليه وعسر. قال: والرغبة يعني الطلبة والحاجة التي يريد.

وقيل: السؤال والطلب بتكرار الدعاء والإلحاح فيه، والأول أظهر، أي: لسعة جوده وكرمه، لا يعظم عليه إعطاء شيء، بل جميع الموجودات في أمره يسير، وهو أكبر من ذلك، وهذا هو غاية المطالب، فالاقتصار على الداني في المسألة إساءة ظن بجوده وكرمه.



= والاضطرار وحضور القلب وأنه لا بد أن يوقن بالإجابة وأنه لا يستعجل ولا يستحسر.

باب
لا يقول عبدي وأمتي

في «الصَّحِيحِ» عَن أَبِي هُرَيرَةَ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «لاَ يَقُلْ أَحَدُكُمْ: أَطْعِمْ رَبَّكَ، وَضِّئْ رَبَّكَ[1]، وَلْيَقُلْ: سَيِّدِي وَمَوْلاَيَ. وَلاَ يَقُلْ أَحَدُكُمْ: عَبْدِي وَأَمَتِي، وَلْيَقُلْ: فَتَايَ وَفَتَاتِي وَغُلاَمِي».

الشَّرْحُ:

أي: لما في ذلك من الإيهام من المشاركة في الربوبية، فنهى عن ذلك أدباً مع جناب الربوبية، وحماية لجناب التوحيد.

قوله: «في الصحيح»: أي «الصحيحين».

قوله: «لا يقل أحدكم»: هو بالجزم على النهي، والمراد أن يقول ذلك لمملوكه

---

(١) النهي للتحريم وقيل للتنزيه أدباً مع جناب الربوبية وحماية لجناب التوحيد لما فيه من الإيهام من المشاركة في الربوبية، وأما قوله: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ وحديث: «أن تلد الأمة ربتها» فيجاب عنه بجوابين؛ **أحدهما**: وهو الأظهر أن هذا في شرع من قبلنا وقد ورد شرعنا بخلافه، **والثاني**: أن هذا لبيان الجواز والنهي للأدب والتنزيه، والحديث من باب التأنيث والنهي للذكر لما فيه من إيهام المشاركة وهو معدوم في الأنثى أو الكراهة في الأنثى والتحريم في الذكر وجمع ثالث ذكره الشارح وهو أن الآية والحديث فيه الخبر والوصف بذلك وحديث الباب فيه النهي عن الدعاء والتسمية والوصف والخبر أوسع من الدعاء والتسمية، وجمع رابع وهو أن النهي محمول على الإضافة بياء المتكلم عبدي أمتي والجواز فيما أضيف لغير ياء المتكلم وهو ظاهر صنيع البخاري حيث ذكر الآية في الترجمة وهي قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ في كتاب العتق (٥/ ١٧٧- فتح الباري) والذي يختص بالله إطلاق لفظ الرب من غير إضافة، وجمع خامس ذكره الحافظ في «الفتح» وهو أن المراد النهي عن الإكثار من ذلك واتخاذ استعمال هذه اللفظة عادة، وليس المراد النهي عن ذكرها في الجملة.

أو مملوك غيره، فالكل منهي عنه.

قوله: «**أطعم ربك**» بفتح الهمزة من الإطعام.

قوله: «**وضئ ربك**»: أمر من الوضوء وفيهما في هذا الحديث زيادة «**اسق ربك**» وكأن المؤلف اختصرها.

قال الخطابي: وسبب المنع أن الإنسان مربوب معبّد بإخلاص التوحيد لله تعالى، وترك الإشراك به، فترك المضاهاة بالاسم لئلا يدخل في معنى الشرك، ولا فرق في ذلك بين الحر والعبد، وأما من لا تعبُّد عليه من سائر الحيوانات والجمادات، فلا يكره أن يطلق ذلك عليه عند الإضافة كقوله: رب الدار والثوب.

قال ابن مفلح في «الفروع»: وظاهر النهي التحريم، وقد يحتمل أنه للكراهية، وجزم به غير واحد من العلماء[1]، فإن قلت: قد قال الله تعالى حكاية عن يوسف - عليه السلام -: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ (يوسف: ٤٢) وقال النبي ﷺ في أشراط الساعة: «**أن تلد الأمة ربتها**» فهذا يدل على الجواز.

قيل: فأما الآية ففيها جوابان:

أحدهما: وهو الأظهر أن هذا جائز في شرع من قبلنا، وقد ورد شرعنا بخلافه.

والثاني: أنه ورد لبيان الجواز، والنهي للأدب والتنزيه دون التحريم، وأما الحديث فليس من هذا الباب للتأنيث، والنهي عنه أن يقول ذلك للذكر لما فيه من إيهام المشاركة، وهو معدوم في الأنثى، أو يقال بحمله على الكراهة في الأنثى أيضاً لورود الحديث بذلك دون الذكر، لأنه لم يرد فيه إلا النهي، أو يقال: وهو أظهر[2]: إن هذا ليس فيه إلا وصفها بذلك لا دعاؤها به، وتسميتها به، وفرق بين الدعاء

---

(١) كما ذكر الحافظ في «الفتح» أنه للتنزيه في باب العتق.

(٢) بل ورد النهي أيضاً في الذكر في أشراط الساعة بلفظ: «أن تلد الأمة ربها» كما ذكر ذلك الحافظ في «الفتح» في العتق ولعل ذلك خفي على الشارح فيسقط هذا الجمع.

والتسمية، وبين الوصف، كما تقول: زيد فاضل؛ فتصفه بذلك ولا تسمِّيه به ولا تدعوه به.

قوله: «**وليقل سيدي**»: قيل: إن الفرق بين الرب والسيد؛ أن الرب من أسماء الله تعالى اتفاقاً، واختلف في السيد هل هو من أسماء الله تعالى، ولم يأت في القرآن أنه من أسماء الله، لكن في حديث عبدالله بن الشخير: «**السيد الله**» وسيأتي. فإن قلنا: ليس من أسماء الله فالفرق واضح؛ إذ لا التباس، وإن قلنا: إنه من أسماء الله فليس في الشهرة والاستعمال، كلفظ الرب فيحصل الفرق، وأما من حيث اللغة فالسيد من السؤدد وهو التقدم، يقال: ساد قومه إذا تقدم، ولا شك في تقديم السيد على غلامه، فلما حصل الافتراق جاز الإطلاق.

قلت: وحديث ابن الشخير لا ينفي إطلاق لفظ السيد على غير الله[1]، بل المراد أن الله هو الأحق بهذا الاسم بأنواع العبارات، كما أن غيره لا يسمى به و(مولاي). قال النووي: المولى يطلق على ستة عشر معنى، منها الناظر والمولى والمالك، وحينئذٍ فلا بأس أن يقول: مولاي.

قال في «الفروع»: ولا يقل عبدي وأمتي، كلكم عبيد الله، وإماء الله ولا يقل العبد لسيده: ربي، وفي «مسلم» أيضاً: «**ولا مولاي فمولاكم الله**» وظاهر النهي للتحريم، وقد يحتمل أنه للكراهة، وجزم به غير واحد من العلماء كما في «شرح مسلم». انتهى.

قلت: فظاهر رواية مسلم معارضة لحديث الباب، وأجيب بأن مسلماً قد بيّن الاختلاف فيه عن الأعمش، وأن منهم من ذكر هذه الزيادة ومنهم من حذفها.

قال عياض: وحذفها أصح فظهر أن اللفظ الأول أرجح، وإنما صرنا للترجيح للتعارض بينهما والجمع متعذر، والعلم بالتاريخ مفقود فلم يبق إلا الترجيح. اهـ كلام عياض.

---

(١) كالعزيز والحكيم والرحيم يطلق على الله وعلى غيره بخلاف الرحمن.

قلت: الجمع ممكن بحمل النهي على الكراهة، أو على خلاف الأولى[١].

قوله: «ولا يقل أحدكم عبدي وأمتي»: لأن حقيقة العبودية إنما يستحقها الله تعالى، ولأن فيها تعظيماً لا يليق بالمخلوق، وقد بيّن النبي ﷺ العلة في ذلك كما رواه أبو داود بإسناد صحيح عن أبي هريرة مرفوعاً: «**لا يقولن أحدكم: عبدي وأمتي، ولا يقولن المملوك: ربي وربتي، وليقل المالك فتاي وفتاتي**، وليقل المملوك: سيدي وسيدتي، فإنكم المملوكون، والرب الله عز وجل» ورواه أيضاً بإسناد صحيح موقوفاً، فهذه علة له، وفي رواية لمسلم: «**لا يقولن أحدكم: عبدي فإن كلكم عبيد الله**» قال في «مصابيح الجامع»[٢] النهي إنما جاء متوجهاً إلى السيد إذ هو في مظنة الاستطالة، وأما قول الغير: هذا عبد زيد، وهذه أمة خالد فجائز؛ لأنه يقول: إخباراً أو تعريفاً، وليس في مظنة الاستطالة.

قلت: وهو حسن، وقد رويت أحاديث تدل على ذلك، وقال أبو جعفر النحاس[٣]: لا نعلم بين العلماء خلافاً أنه لا ينبغي لأحد أن يقول لأحد من المخلوقين: مولاي، ولا يقول: عبدك وعبدي، وإن كان مملوكاً، وقد حظر رسول الله ﷺ على المملوكين، فكيف الأحرار؟

قوله: «وليقل فتاي وفتاتي، وغلامي»: أي: لأنها ليست دالة على الملك كدلالة عبدي وأمتي، فأرشد -عليه الصلاة والسلام- إلى ما يؤدي المعنى مع السلامة من الإيهام والتعاظم، مع أنها تطلق على الحر والمملوك، لكن إضافته تدل على الإخلاص.



---

(١) مع الخلاف بدون كراهة إلا أن الأولى غيره.

(٢) كتاب «مصابيح الجامع» لبدر الدين الدماميني، واسم كتابه «تعليق المصابيح على أبواب الجامع الصحيح» وهو مطبوع.

(٣) نحوي وله تفسير، وكلامه هنا فيه إطلاق ومجازفة لما سبق من الخلاف ومن النصوص التي تدل على الجواز.

باب
لا يرد من سئل بالله

عَن ابنِ عُمَرَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُما- قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنِ اسْتَعَاذَ[١] بِالله، فَأَعِيذُوهُ، مَنْ سَأَلَ بِالله، فَأَعْطُوهُ، وَمَنْ دَعَاكُم، فَأَجِيبُوهُ، وَمَن صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا، فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُوهُ؛ فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَروا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ»[٢]. [رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ].

الشَّرْحُ:

قوله: «لا يرد من سئل بالله» أي: إعظامـاً وإجلالاً لله تعالى أن يُسأل به شيء، ولا يجاب السائل إلى سؤاله ومطلوبه، ولهذا أمـر النبي ﷺ بإبرار المقسم وتنازع أهل العلم هل هـو أمـر استحباب، أو إيجـاب؟

وظاهر كلام شيخ الإسلام التفريق بين أن يقصد إلزامـه بالقسم فتجب إجابتـه، أو يقصد إكرامـه فلا تجب عليه، ولهذا أوجب على المقسم في الأولى الكفارة إذا لم يفعل المحلوف عليه دون الثانية؛ لأنه كالأمـر، ولا يجب إذا كان للإكرام[٣] لأمر النبي ﷺ أبا بكر بوقوفه في الصف ولم يقف[١] ولأن أبا بكر أقسم

---

(١) هذا الحديث مقيد بما إذا لم يسأل أو يستعذ أو يدعو بشيء ممنوع كأن يسأل محرماً أو يستعيذ من شيء واجب أو يدعو إلى محرم فإنه لا يجاب ولا يعاذ كمن سأل محرماً عليه أو استعاذ من إقامة الحد عليه كما ورد في الحديث: «ما لم يسأل هجراً» والأمر في هذا الحديث للاستحباب عند بعضهم وظاهرها يدل على الوجوب، لكن قال شيخ الإسلام: إنما تجب على معين، وكذلك تجب إجابة الدعوة إلى طعام وليمة العرس إذا توفرت الشروط وغيرها تستحب، ولكن ظاهر الأحاديث الوجوب لا فرق بين وليمة العرس وغيرها من الدعوات.

(٢) هذا الحديث عام مقيد بالقواعد والأصول والنصوص الأخرى.

(٣) السائل بالله له حالان: =

على النبي ﷺ ليخبرنه بالصواب والخطأ لما فسر الرؤيا فقال النبي ﷺ: «لا تقسم»[٢] كما في «الصحيحين» قال لأنه علم أنه لم يقصد الإقسام عليه مع المصلحة المقتضية للكتم.

قوله: «**من استعاذ بالله فأعيذوه**»: أي: من سألكم أن تدفعوا عنه شرّكم أو شرّ غيركم بالله، كقوله: بالله عليك أن تدفع عني شرَّ فلان، أو شرّك، وأعوذ بالله من شرِّك أو شر فلان ونحو ذلك، فأعيذوه، أي: امنعوه مما استعاذ منه وكُفُّوه لتعظيم اسم الله تعالى، ولهذا لما قالت الجُوَينية للنبي ﷺ: أعوذ بالله من قال: «**لقد عذت بمَعاذ، الحقي بأهلك**»، ولفظ أبي داود: «من استعاذكم بالله فأعيذوه ومن سألكم بالله فأعطوه».

قوله: «**ومن سأل بالله فأعطوه**»، وفي حديث ابن عباس عند أحمد وأبي داود: «**من سألكم بوجه الله فأعطوه**» ومعناه ظاهر، وهو أن يقول: أسألك بالله أو بوجه الله ونحو ذلك أن تفعل أو تعطيني كذا، ويدخل في ذلك القسم عليه بالله أن يفعل

= **الأولى**: أن يسأل ما لا يحل له سؤاله أو شيئاً لا يستحقه كأن يسأل مليون ريال أو يسأل الزكاة وهو لا يستحقها، وكذلك المستعيذ باللهّ إذا استعاذ من أمر يجب عليه كأن يستعيذ من إقامة حدّ عليه أو يستعيذ من إلزامه بالصلاة أو بالجماعة فهذا لا يجاب إلى سؤاله ولا يعاذ فيما استعاذ منه.

والحالة الثانية: أن يسأل شيئاً يستحقه أو مباحاً أو يستعيذ من شيء ليس ملزماً به ولا واجباً عليه فهذا يجاب إلى سؤاله ويعاذ مما استعاذ منه.

(١) وذلك لما تقدم أبو بكر ليصلي بالناس تخلف رسول اللهّ وحان موعد الصلاة وآذنه بلال فجاء النبي ﷺ بعد ما كبر أبو بكر وصفق الناس فالتفت أبو بكر فأشار إليه النبي ﷺ بالوقوف لأنه فهم منه أن الأمر ليس للوجوب بل هو تطييب لخاطره فلم يقف أبو بكر لئلا يحصل في نفسه وساوس وشكوك في وقوف النبي خلفه.

(٢) قصة الرؤيا أن أبا بكر لما رأى رؤيا وقال أفسرها يا رسول اللهّ ففسرها فقال النبي ﷺ أصبت بعضاً وأخطأت بعضاً فقال أبو بكر: أقسمت عليك لتخبرني بالصواب والخطأ فقال لا تقسم.

كذا، وظاهر الحديث وجوب إعطائه ما سأل ما لم يسأل إثماً، أو قطيعة رحم، وقد جاء الوعيد على ذلك في عدة أحاديث، منها حديث أبي موسى مرفوعاً: «**ملعون من سأل بوجه الله، وملعون من يُسأل بوجهه ثم منع سائله ما لم يسأل هَجْراً**» رواه الطبراني.

قال في «تنبيه الغافلين» ورجال إسناده رجال الصحيح إلا شيخه يحيى بن عثمان ابن صالح، والأكثر على توثيقه[1] فإن بلغ هذا الإسناد أو إسناد غيره مبلغاً يحتج به كان ذلك من الكبائر، وعن أبي عبيدة مولى رفاعة بن رافع مرفوعاً: «**ملعون من سأل بوجه الله ومعلون من سئل بوجه الله فمنع سائله**» رواه الطبراني أيضاً، وعن ابن عباس مرفوعاً: «**ألا أخبركم بشر الناس؟ رجل يُسأل بالله ولا يُعطي**» رواه الترمذي وحسنه، وابن حبان في «صحيحه» وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا أخبركم بشر البرية؟**» قالوا بلى يا رسول الله قال: «**الذي يُسأل بالله ولا يعطي**» رواه أحمد[2].

إذا تبيّن هذا فهذه الأحاديث دالة على إجابة من سئل الله بالله أو أقسم به، ولكن قال شيخ الإسلام: إنما تجب على معين، فلا تجب على سائل يقسم على الناس، وظاهر كلام الفقهاء أن ذلك مستحب كإبرار المقسم، والأول أصح.

---

(١) الهجْر: الباطل والزور، و «تنبيه الغافلين» لابن النحاس، ولا يكتفى بقوله في الرجال لأنه ليس من أهل هذا الشأن.

(٢) هذه الأحاديث جديرة بالاهتمام وجمع طرقها لتبين صحتها وكان على الشارح أن يبين صحتها كعادته، والطبراني ولادته ٢٦٠هـ، ووفاته ٣٦٠هـ فعاش مئة سنة ولذلك شيوخه ليسوا في «التقريب» ولا «التهذيب» لأنه لم يدرك رجال أصحاب الكتب الستة لتأخره اللهم إلا النسائي وبعض الشيوخ فإن النسائي تأخرت وفاته إلى سنة ٣٠٣هـ، وابن حبان وفاته سنة ٣٥٤هـ فهو قبله بست سنين، وللشيخ حماد الأنصاري رسالة جمع فيها شيوخ الطبراني تحت الطبع.

قوله: «**ومن دعاكم فأجيبوه**»: أي: من دعاكم إلى طعام فأجيبوه فإن كانت وليمة عرس وتوفرت الشروط المبينة في كتب الفقه وجبت الإجابة، وإن كان لغيرها استحب إجابتها[١] وتجب مطلقاً وهو الصحيح لظاهر الأحاديث، وهي لم تفرق بين وليمة العرس وغيرها، وإن كانت وليمة العرس آكد وأوجب.

قوله: «**ومن صنع إليكم معروفاً فكافئوه**»[٢]: المعروف: اسم جامع للخير، وقوله: «**فكافئوه**»: أي: على إحسانه بمثله أو خير منه، وقد أشار شيخ الإسلام إلى مشروعية المكافأة لأن القلوب جبلت على حب من أحسن إليها، فهو إذا أحسن إليه ولم يكافئه يبقى في قلبه نوع تأله لمن أحسن إليه، فشرع قطع ذلك بالمكافأة، فهذا معنى كلامه. وقال غيره: إنها أمر بالمكافأة ليخلص القلب من إحسان الخلق ويتعلق بالحق، ولفظ أبي داود : «**من أتى إليكم معروفاً**».

قوله: «**فإن لم تجدوا ما تكافئوه**»: هكذا ثبت بحذف النون في خط المصنف، وهكذا هو في غيره من أصول الحديث. قال الطيبي: سقطت من غير ناصب، ولا جازم، إما تخفيفاً أو سهواً من الناسخ.

قوله: «**فادعوا له**» **إلى آخره**: يعني من أحسن إليكم أي إحسان فكافئوه بمثله، فإن لم تقدروا فبالغوا في الدعاء له جهدكم حتى تحصل المسألة، ووجه المبالغة أنه رأى في نفسه تقصيراً في المجازاة لعدم القدرة عليها، فأحالها إلى الله، ونعم المجازي هو، وهذا الحديث رواه أيضاً أحمد بإسناد صحيح، وابن حبان، والحاكم،

---

(١) أي تجب وليمة العرس وتستحب في غيرها والصحيح الوجوب مطلقاً إذا لم يكن فيه منكر ويقدر على إنكاره وما لم يكن عليه ضرر من سهر أو غيره، ولا يلزم الأكل بل يحضر ويدعو إن كان عنده مانع.

(٢) الأمر للوجوب ومن ذلك الهدية فإنه يجب المكافأة عليها، فلا يأخذ ماله ولا يكافؤه عليه، بل إما أن يكافئه أو يرد هديته ويستثنى من هذا من أهدى وهو لا يريد المكافأة عليها، بل مقصوده الإحسان لهدية الملوك ومن يريد الإحسان فقط.

وصححه النووي، وقد روى الترمذي وصححه، والنسائي وابن حبان عن أسامة بن زيد مرفوعاً: «**من صنع إليكم معروفاً فقال لفاعله جزاك الله خيراً فقد أبلغ في الثناء**»[1].



(١) الذي في «رياض الصالحين» وقال: رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح «من صنع إليه معروف فقال لفاعله جزاك الله خيراً فقد أبلغ في الثناء».

باب
لا يسأل بوجه الله إلا الجنة

وعَن جَابِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لاَ يُسأَلُ بِوَجهِ الله إلاَّ الجَنَّة» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ أيضاً(١).

أي: إعظاماً وإجلالاً وإكراماً لوجه الله أن يسأل به إلا غاية المطالب، وهذا من معاني قوله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾(٢).

قوله: «عن جابر» : هو جابر بن عبدالله.

قوله: «لا يسأل بوجه الله إلا الجنة» روي بالنفي، والنهي وروي بالبناء للمجهول، وهو الذي في الأصل، وروي بالخطاب للمفرد، وفيه إثبات الوجه خلافاً للجهمية ونحوهم، فإنهم أولوا الوجه بالذات، وهو باطل، إذ لا يسمى ذات الشيء وحقيقة وجهاً، فلا يسمى الإنسان وجها، ولا تسمى يده وجها، ولا تسمى رجله وجها، والقول في الوجه عند أهل السنة كالقول في بقية الصفات، فيثبتوته لله على ما يليق بجلاله وكبريائه من غير كيف ولا تحديد، إثباتاً بلا تمثيل، وتنزيهاً بلا تعطيل.

قوله: «إلا الجنة»: كأن يقول: «اللهم إني أسألك بوجهك الكريم أن تدخلني الجنة»، وقيل المراد لا تسألوا من الناس شيئاً بوجه الله، كأن يقول: أعطني شيئاً بوجه الله، فإن الله أعظم من أن يسأل به شيء من الحطام(٣).

---

(١) الحديث ضعيف لكن يتقوّى بالشواهد.

(٢) أو ما هو وسيلة إليها كالاستعاذة من غضبه ومن النار وسؤاله العمل الصالح.

(٣) أما السؤال بالرحم كأن يقول: أسألك بحقي عليك، أسألك بالرحم أن تعطيني كذا فلا بأس وهذا في سؤال المخلوقين بعضهم بعضاً لا في سؤال اللهّ وقد روي أن جعفر بن أبي طالب، قال =

قلت: والظاهر أن كلا المعنيين صحيح، قال الحافظ العراقي: وذكر الجنة إنما هو للتنبيه به على الأمور العظام لا للتخصيص، فلا يسأل بوجه في الأمور الدنيئة، بخلاف الأمور العظام تحصيلاً أو دفعاً كما يشير إليه استعاذة النبي ﷺ به[(١)].

قلت: والظاهر أن المراد لا يسأل بوجهه إلا الجنة، أو ما هو وسيلة إليها، كالاستعاذة بوجه الله من غضبه ومن النار ونحو ذلك مما هو وارد في أدعيته ﷺ وتعوذاته، ولما نزل قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ (الأنعام: ٦٥) قال النبي ﷺ: «**أعوذ بوجهك** ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ **قال أعوذ بالله بوجهك**» رواه البخاري، وهذا الحديث[(٢)] رواه في «المختارة» أيضاً لكن في إسناده سليمان بن معاذ. قال ابن معين: ليس بشيء، وضعفه عبدالحق وابن القطان[(٣)].



= لعلي: أسألك بحقي عليك قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾ أي: واتقوا الرحم أن تقطعوها إذا قال قريبه بالرحم كذا فإن عليه أن يعطيه.

(١) في قوله: «أعوذ بوجهك الذي أشرقت له الظلمات أن يحل عليّ سخطك».

(٢) أي حديث جابر وهو حديث الباب.

(٣) وعذر المؤلف في الإتيان بهذا الحديث مع أنه ضعيف لأنه لما فيه من إعظام الله وإجلاله أو لأنه لم يحفظ ما قيل فيه وفي سنده لاشتغاله بغيره أو أنه يتقوى بالشواهد كما في حديث البخاري هذا: «أعوذ بوجهك».

باب
ما جاء في اللَّوْ(١)

وَقَوْلُ الله تَعَالَى: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ (آل عمران: ١٥٤).

الشَّرْح:

اعلم أن من كمال التوحيد الاستسلام للقضاء والقدر رضاً بالله رباً فإن هذا من جنس المصائب، والعبد مأمور عند المصائب بالصبر والاسترجاع والتوبة، وقول: «لو» لا يجدي عليه إلا الحزن والتحسر مع ما يخاف على توحيده من نوع المعاندة للقدر الذي لا يكاد يسلم منها من وقع منه هذا إلا ما شاء الله، فهذا وجه إيراده هذا الباب في التوحيد.

قال: وقول الله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ (آل عمران: ١٥٤). قال ابن كثير: فسر ما أخفوه في أنفسهم بقوله: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ أي يسرون هذه المقالة عن رسول الله ﷺ.

قال ابن إسحاق: حدثني يحيى بن عبَّادة بن عبَّاد بن عبدالله بن الزبير، عن أبيه، عن عبدالله بن الزبير عن الزبير قال: لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ حين اشتد الخوف علينا أرسل الله علينا النوم، فما منا رجل إلا ذَقْنُه في صدره فوالله إني

---

(١) استعمال (لو) قسمان؛ قولها في الأمور المقدرة ومعارضة القدر فهذا ممنوع لأنها تبعث على الأسى والحرة وتفتح أبواب الشك والوساوس، ولكن يرد ذلك ويكبح جماح الشيطان بقول: قدر اللهّ وما شاء فعل، أي هذا قدر اللهّ، ويقول إنا للهّ وإنا إليه راجعون، والثاني: تمني الخير مثل قوله: «لو استقبلت من أمري» ومثل «لو علمت حلقة في المسجد لحضرت» فهذا جائز.

لأسمع قول معتِّب بن قشير ما أسمعه إلا كالحلم ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ﴾[(١)] فحفظها منه وفي ذلك أنزل الله عز وجل ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ﴾ لقول معتب رواه ابن أبي حاتم قال الله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ﴾ أي: هذا قدر مقدر من الله عز وجل وحكم حتم لازم لا محيد عنه، ولا مناص منه.

قلت: فتبين وجه إيراد المصنف الآية على الترجمة؛ لأن قول «لو» في الأمور المقدرة من كلام المنافقين، ولهذا رد الله عليهم ذلك بأن هذا قدر، فمن كتب عليه فلا بد أن يناله، فما يغني عنكم قول «لو» و «ليت» إلا الحسرة والندامة؟! فالواجب عليكم في هذه الحالة الإيمان بالله والتعزي بقدره مع ما ترجون من حسن ثوابه، وفي ذلك عين الفلاح لكم في الدنيا والآخرة، بل يصل الأمر أن تنقلب المخاوف أماناً والأحزان سروراً، وفرحاً كما قال عمر بن عبدالعزيز: أصحبت وما لي سرور إلا في مواقع القضاء والقدر[(٢)].



(١) ذَقْنُه بفتح الذال المعجمة والقاف المثناة الفوقية

(٢) وذلك والله أعلم لإيمانه بالقدر وتسليمه وتوطين نفسه عليه فانشرحت نفسه لما يقع واستعد له ورضي بذلك.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ﴾ (آل عمران: ١٦٨) **الآية.**

قال: «وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ﴾» روى ابن جرير عن السدي قال: خرج رسول الله ﷺ يوم أحد في ألف رجل، وقد وعدهم الفتح إن صبروا فلما خرجوا رجع عبدالله بن أُبيّ في ثلاثمئة، فتبعهم أبو جابر السَّلَمي يدعوهم، فلما غلبوه وقالوا له: ما نعلم قتالاً ولئن أطعتنا لترجعن معنا فنزل: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ﴾.

وعن ابن جريج في الآية. قال: هو عبدالله بن أبي ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ﴾ الذين خرجوا مع النبي ﷺ يوم أحد. رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم فعلى هذا إخوانهم هم المسلمون المجاهدون، وسموا إخوانهم لموافقتهم في الظاهر.

وقيل: إخوانهم في النسب لا في الدين ﴿لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ﴾ قال ابن كثير: لو سمعوا مشورتنا عليهم في القعود، وعدم الخروج ما قتلوا مع من قتل قال الله تعالى: ﴿فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٦٨﴾. أي: إن كان القعود يسلم به الشخص من القتل والموت فينبغي أنكم لا تموتون، والموت لا بد آت إليكم ولو كنتم في بروج مشيدة. فادفعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين. قال مجاهد: عن جابر بن عبدالله: نزلت هذه الآية في عبدالله بن أبي.

قلت: وكان أشار على رسول الله ﷺ يوم أحد بعدم الخروج، فلما قدر الله الأمر قال ذلك تصويباً لرأيه، ورفعاً لشأنه فرد الله عليه وعلى أمثاله: ﴿قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٦٨﴾، فلا تعذرون عن ذلك. فعلم أن ذلك بقضاء الله وقدره أي: يستوي الذي في وسط الصفوف والذي في البروج

المشيدة في القتل والموت، بل ﴿لَوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ (آل عمران: ١٥٤) فلا ينجي حذر من قدر. وفي ضمن ذلك قول: «لو» ونحوه في مثل هذا المقام، لأن ذلك لا يجدي شيئاً، إذ المقدر قد وقع فلا سبيل إلى دفعه أبداً ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ (الطور: ٤٨).



في «الصَّحِيحِ» عَن أَبِي هُرَيرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «احْرِصْ[١] عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِالله، وَلاَ تَعْجَزْ، فَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلاَ تَقُلْ لَوْ[٢] أَنِّي فَعَلْتُ، لَكَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ[٣] اللهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ؛ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ».

قوله: «في الصحيح»: أي «صحيح مسلم».

قوله: «احرص على ما ينفعك» إلخ. هذا الحديث اختصره المصنف -رحمه الله- ولفظه أن النبي ﷺ قال: **«المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك» إلى آخره** فقوله -عليه السلام-: **«المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف»** فيه أن الله سبحانه موصوف بالمحبة، وأنه يحب على الحقيقة كما قال: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ (المائدة: ٥٤) وفيه أنه سبحانه يحب مقتضى أسمائه وصفاته، وما يوافقها فهو القوي، ويحب المؤمن القوي، وهو وتر يحب الوتر، وجميل يحب الجمال، وعليم يحب العلماء، ومحسن يحب المحسنين، وصبور يحب الصابرين، وشكور يحب الشاكرين.

قلت: الظاهر أن المراد القوة في أمر الله وتنفيذه، والمسابقة بالخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر على ما يصيب في ذات الله ونحو ذلك، لا قوة

---

(١) احرص بكسر الراء من باب حرِص فعل يفعل ويجوز حرِص يحرَص بفتح الراي في المضار من باب فرِح يفرَح فعل يفعل، والحرص نوعان، حرص على فعل الواجبات هذا واجب، وحرص على فعل المستحبات هذا مستحب وهناك حرص ثالث وهو ما زاد على ذلك وهو الحرص الذي يخل معه بالواجبات أو يفعل بعض المحرمات فهذا حرص مذموم.

(٢) لو نوعان تستعمل في معارضة القدر هذا ممنوع والثاني تستعمل في تمني الخير فهذا محمود.

(٣) حَرِص من باب فرِح يفرَح، ويجوز حَرَص يحرِص من باب ضرب يضرب ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ ويجوز حرِصتم من باب فرِح.

البدن[١] ولهذا مدح الله الأنبياء بذلك في قوله: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾﴾ (ص: ٤٥) فالأيدي القوة، والعزائم في تنفيذ أمر الله، وقوله: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾﴾ (ص: ١٧)، وقوله: «**وفي كل خير**»: أي: كل من المؤمن القوي والمؤمن الضعيف على خير وعافية لاشتراكهما في الإيمان والعمل الصالح ولكنّ القوي في إيمانه ودينه أحب إلى الله، وفيه أن محبة المؤمنين تتفاضل فيحب بعضهم أكثر من بعض، وقوله: «**احرص على ما ينفعك**» هو بفتح الراء وكسرها.

قال ابن القيم: سعادة الإنسان في حرصه على ما ينفعه في معاشه ومعاده، والحرص هو بذل الجهد واستفراغ الوسع، فإذا صادف ما ينتفع به الحريص كان حرصه محموداً، وكماله كله في مجموع هذين الأمرين أن يكون حريصاً، وأن يكون حرصه على ما ينتفع به فإن حرص على ما لا ينفعه أو فعل ما ينفعه بغير حرص فاته من الكمال بحسب ما فاته من ذلك، فالخير كله في الحرص على ما ينفع[٢].

قوله: «**واستعن بالله**» قال ابن القيم: لما كان حرص الإنسان وفعله إنما هو بمعونة الله، ومشيئته، وتوفيقه، أمره أن يستعين به ليجتمع له مقام إياك نعبد وإياك نستعين فإن حرصه على ما ينفعه عبادة لله ولا تتم إلا بمعونته فأمره بأن يعبده ويستعين به، وقال غيره: «**استعن بالله**» أي: اطلب الإعانة في جميع أمورك من الله لا من غيره كما قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ (الفاتحة: ٥) فإن العبد عاجز لا يقدر على شيء إن لم يعنه الله عليه، فلا معين له على مصالح دينه ودنياه إلا الله عز وجل فمن أعانه الله فهو المعان ومن خذله فهو المخذول وقد كان النبي ﷺ يقول في خطبته ويعلم أصحابه أن يقولوا: «**الحمد لله نستعينه ونستهديه**»، ومن

---

(١) فلا تمدح القوة في البدن أو المال إلا إذا استعمله في طاعه الله.

(٢) كلام ابن القيم مذكور في كتابه «شفاء العليل».

دعاء القنوت: «**اللهم إنا نستعينك**» وأمر معاذ بن جبل أن لا يدع في دبر كل صلاة أن يقول: «**اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**» وكان ذلك من دعائه ﷺ ومنه أيضاً: «**اللهم أعني ولا تُعِن عليّ**» وإذا حقق العبد مقام الاستعانة وعمل به كان مستعيناً بالله عز وجل متوكلاً عليه، راغباً وراهباً إليه؛ فيستحق[1] له مقام التوحيد إن شاء الله تعالى[2].

قوله: «ولا تعجِزَن»[3] وهو بكسر الجيم وفتحها أي استعمل الحرص والاجتهاد في تحصيل ما ينفعك من أمر دينك ودنياك التي تستعين بها على صيانة دينك، وصيانة عيالك ومكارم أخلاقك، ولا تُفرِّط في طلب ذلك ولا تتعاجز عنه متكلاً على القدر، أو متهاوناً بالأمر فتُنسب للتقصير وتُلام على التفريط شرعاً وعقلاً مع إنهاء الاجتهاد نهايته، وبلاغ الحرص غايته فلا بد من الاستعانة بالله والتوكل عليه والالتجاء في كل الأمور إليه، فمن ملك هذين الطريقين حصل على خير الدارين[4].

وقال ابن القيم: العجز[5] ينافي حرصه على ما ينفعه، وينافي استعانته بالله، فالحريص على ما ينفعه المستعين بالله ضد العاجز، فهذا إرشاد قبل رجوع المقدور إلى ما هو من أعظم أسباب حصوله وهو الحريص عليه مع الاستعانة بمن أزمة

---

(١) لعله فيتحقق.

(٢) ويكون قد وحد اللهّ في ربوبيته وألوهيته لأن الاستعانة تتعلق بالربوبية.

(٣) تعجزن بإثبات نون وليست النون في شيء من كتب الحديث، وتعجز كما سبق في «احرص» بكسر الجيم في الماضي من باب فرِح يفرَح، عجِز يعجَز، وبفتح الجيم في الماضي من باب ضَرَب يضرِب، عَجَز يعجِز.

(٤) وهما فعل الأسباب في تحصيل ما ينفع والاستعانة باللهّ والتوكل عليه.

(٥) العجز: هو ترك الأسباب.

الأمور بيده، ومصدرها منه ومردها إليه[١].

قوله: «فإن أصابك شيء» إلى آخره: العبد إذا فاته ما لم يقدر له فله حالتان؛ حالة عجز وهي مفتاح عمل الشيطان فيلقيه العجز إلى «لو» ولا فائدة في «لو» ها هنا، بل هي مفتاح اللوم والجزع والسخط والأسف، والحزن، وذلك كله من عمل الشيطان فنهاه ﷺ عن افتتاح عمله بهذا المفتاح، وأمره بالحالة الثانية[٢] وهي النظر إلى القدر وملاحظته، وأنه لو قدر له لم يفته، ولم يغلبه عليه أحد فلم يبق له ها هنا أنفع من شهود القدر، ومشيئة الرب النافذة، التي توجب وجود المقدور وإذا انتفت امتنع وجوده، فلهذا قال: «**وإن أصابك شيء**» أي: غلبك الأمر ولم يحصل المقصود بعد بذل جهده والاستعانة بالله فلا تقل: «**لو أني فعلت لكان كذا وكذا ولكن قل قَدَرُ**[٣] **الله وما شاء فعل**» فأرشده إلى ما ينفعه في الحالتين. حالة حصول مطلوبه، وحالة فواته فلهذا كان هذا الحديث مما لا يستغنى عنه العبد أبداً، بل هو أشد شيء إليه ضرورة، وهو يتضمن[٤] إثبات القدر والكسب، والاختيار، والقيام بالعبودية باطناً وظاهراً في حالتي حصول المطلوب وعدمه، وهذا معنى كلام ابن القيم، وقال القاضي: قال بعض العلماء: هذا النهي إنما هو لمن قاله معتقداً ذلك حتماً، وأنه لو فعل ذلك لم يصبه قطعاً، فأما ردُّ ذلك إلى مشيئة الله تعالى، وأنه لن يصيبه إلا ما شاء الله؛ فليس من هذا[٥]، واستدل بقول أبي بكر الصديق في الغار لو

---

(١) كلام ابن القيم مذكور في كتابه «شفاء العليل».

(٢) الواجب عليه أن يفعل ما شرعه الله من قول: قدر الله وما شاء فعل، وقول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ (١٥٦)﴾ هذا الذي يفيده لا أن يقول: «لو».

(٣) خبر لمبتدأ محذوف تقديره هذا، قَدَر بتخفيف الدال.

(٤) الفوائد المستنبطة من هذا الحديث.

(٥) كلام القاضي ليس بجيد، بل النهي يتناول المعترض على القدر، سواء اعتقد أنه لو فعل لم يصبه أو لم يعتقد.

أن أحدهم رفع رأسه لرآنا. قال القاضي: وهذا ما لا حجة فيه، لأنه أخبر عن مستقبل، وليس فيه دعوى لرد القدر بعد وقوعه. قال: وكذا جميع ما ذكره البخاري فيما يجوز من اللو كحديث: «**لولا حِدْثانُ قومك بالكفر، لأتممت البيت على قواعد إبراهيم**» و«**لو كنت راجماً بغير بينة لرجمت هذه**» و«**لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك**» وشِبْه ذلك وكله مستقبل لا اعتراض فيه على قدر ولا كراهة فيه، لأنه إنما أخبر عن اعتقاده فيما كان يفعل لولا المانع وعما هو في قدرته، فأما ما ذهب فليس في قدرته فإن قيل: ما تصنعون بقوله ﷺ: «**لو استقبلت من أمري ما استدبرت، ما سقت الهدي، ولجعلتها عمرة**» قيل: هذا كقوله: «**لولا حِدْثانُ قومك بالكفر**» ونحوه مما هو خبر عن مستقبل لا اعتراض فيه على قدر بل هو إخبار أنه لو استقبل الإحرام بالحج؛ ما ساق الهدي ولا أحرم بالعمرة بقوله: لهم لما أمرهم بفسخ الحج إلى العمرة حثاً لهم وتطييباً لقلوبهم لما رآهم توقفوا في أمره، فليس من المنهي عنه، بل هو إخبار لهم عما كان يفعل في المستقبل لو حصل، ولا خلاف في جواز ذلك، وإنما يُنهى عن ذلك في معارضة القدر مع اعتقاد أن ذلك المانع لو يقع لوقع خلاف المقدور.

قوله: «**فإن لو تفتح عمل الشيطان**» أي: من الجزَع والعجْز واللّوْم والسَّخط من القضاء والقدر ونحو ذلك، ولهذا من قالها على الوجه المنهي عنه فإن من سلم من التكذيب بالقضاء والقدر لم يسلم من المعاندة له واعتقاد أنه لو فعل ما زعم لم يقع المقدور ونحو ذلك، وهذا من **عمل** الشيطان، فإن قيل: ليس في هذا ردّ للقدر ولا تكذيب به، إذ تلك الأسباب التي تمنّاها من القدر، فهو يقول: لو أني وُفِّقت لهذا القدر لا ندفع به عني ذلك القدر فإن القدر يُدفع بعضه ببعض؛ قيل: هذا حق، ولكن ينفع قبل وقوع القدر المكروه فأما إذا ما وقع فلا سبيل إلى دفعه، وإن كان له سبب إلى دفعه أو تخفيفه بقدَرٍ آخر فهو أولى به من قول: لو كنتُ فعلت بل

وحقيقته في هذه الحال أن يستقبل فعله الذي يدفع به المكروه ولا يتمنى ما لا مطمع في وقوعه، فإنه عجزٌ محْض والله يلوم على العجز ويحب الكيس، ويأمر به، والكيس[1] مباشرة الأسباب التي ربط الله بها بمسبّباتها النافعة للعبد في معاشه ومعاده. انتهى ملخصاً من كلام ابن القيم.



(١) الحزم والعقل.

باب
النهي عن سب الريح

عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لاَ تَسُبُّوا الرِّيحَ؛ فَإِذَا رَأَيْتُمْ مَا تَكْرَهُونَ، فَقُولُوا: اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ هَذِهِ الرِّيحِ وَخَيْرِ مَا فِيهَا، وَخَيْرِ مَا أُرسِلَتْ بِهِ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ هَذِهِ الرِّيحِ وَشَرِّ مَا فِيهَا، وَشَرِّ مَا أُمِرَتْ بِهِ». [صَحَّحَهُ التِّرمِذِيُّ].

الشَرْح:

النهي عن سبِّ الريح: لأنها مأمورة ولا تأثير لها في شيء إلا بأمر الله فسبها كسب الدهر، وقد تقدم النهي عنه، فكذلك الريح.

قوله: «عن أبي بن كعب». أي: ابن قيس بن عبيد بن زيد بن معاوية بن عمرو بن مالك بن النجار الأنصاري الخزرجي أبو المنذر، صحابي بدري جليل، وكان من قراء الصحابة وقضاتهم وعلمائهم وله مناقب مشهورة، اختلف في سنة موته، فقال الهيثم بن عدي: مات سنة تسعة وعشرين، وقال خليفة بن خياط: سنة اثنتين وثلاثين يقال فيها مات أبي بن كعب، ويقال: بل مات في خلافة عمر.

قلت: وقيل غير ذلك.

قوله: «لا تسبوا الريح». أي: لا تشتموها ولا تلعنوها للحوق ضرر فيها فإنها مأمورة مقهورة، فلا يجوز سبّها، بل تجب التوبة عند التضرر بها، وهو تأديب من الله تعالى لعباده، وتأديبه رحمة للعباد، فلهذا جاء في حديث أبي هريرة مرفوعاً: «**إن الريح من روح الله تأتي بالرحمة وبالعذاب، فلا تسبوها ولكن سلوا الله من خيرها وتعوذوا بالله من شرها**» رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه، وكونها قد تأتي بالعذاب لا ينافي كونها من رحمة الله، وعن ابن عباس أن رجلاً لعن الريح عند النبي ﷺ

فقال: «**لا تلعنوا الريح، فإنـها مأمورة، وإنه من لعن شيئاً ليس له بأهل رجعت اللعنة إليه**» رواه الترمذي، وقال غريب.

قال الشافعي: لا ينبغي شتم الريح فإنها خلق مطيع لله، وجند من جنوده، يجعلها الله رحمة إذا شاء، ونقمة إذا شاء، ثم روى بإسناده حديثاً منقطعاً أن رجلاً شكا إلى رسول الله ﷺ الفقر، فقال له: «**لعلك تسب الريح**»، وقال مطرِّف(١): لو حبست الريح عن الناس لأنتن ما بين السماء والأرض.

قوله: «فإذا رأيتم ما تكرهون»: أي: من الريح إما شدة حرها، أو بردها، أو قوتها.

قوله: «فقولوا: اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح»، أمر ﷺ بالرجوع إلى خالقها وآمرها الذي أزمة الأمور كلها بيده، ومصدرها عن قضائه، فما استجلبت نعمة بمثل طاعته وشكره، ولا استُدفعت نقمة بمثل الالتجاء إليه والتعوذ به، والاضطرار إليه والاستكانة له ودعائه، والتوبة إليه والاستغفار من الذنوب. قالت عائشة: كان رسول الله ﷺ إذا عصفت الريح قال: «**اللهم إني أسألك من خيرها وخير ما فيها وخير ما أُرسلت به، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به**» وإذا تخيّلت السماء تغير لونه، وخرج ودخل وأدبر وأقبل، فإذا مطرت سُرِّي ذلك عنه، فعرفت عائشة ذلك فسألته فقال: «**لعله يا عائشة كما قال قوم عاد: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾**» (الأحقاف: ٢٤) رواه البخاري ومسلم(٢) فهذا ما أمر به ﷺ، وفعله عند الريح وغيرها من الشدائد

---

(١) هو ابن عبدالله بن الشِّخِّير تابعي جليل.

(٢) وقد أهلك الله عاداً بالصعقة والريح وأهلك ثمود بالصيحة والرجفة كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾، وقال عن ثمود: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾ والصاعقة الصيحة وهو الصوت الشديد المزعج.

والمكروهات، فأين هذا ممن يستغيث بغير الله من الطواغيت والأموات، فيقولون: يا فلان الزمها أو أزلها، فالله المستعان.



باب

قَولُ اللهِ تَعَالَى: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٥٤﴾ (آل عمران: ١٥٤).

باب قول الله تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ﴾. أراد المصنف بهذه الترجمة التنبيه على وجوب حسن الظن بالله، لأن ذلك من واجبات التوحيد، ولذلك ذم الله من أساء الظن به، لأن مبنى حسن الظن على العلم برحمة الله وعزته وإحسانه وقدرته وعلمه وحسن اختياره وقوة المتوكل عليه، فإذا تم العلم بذلك أثمر له حسن الظن بالله.

وقد ينشأ حسن الظن من مشاهدة بعض هذه الصفات، وبالجملة فمن قام بقلبه حقائق معاني أسماء الله وصفاته، قام به من حسن الظن ما يناسب كل اسم وصفة، لأن كل صفة لها عبودية خاصة، وحسن ظن خاص. وقد جاء في الحديث القدسي، قال الله تعالى: «**أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حين يذكرني**» رواه البخاري ومسلم، وعن جابر -رضي الله عنه-، أنه سمع النبي ﷺ قبل موته بثلاثة أيام يقول: «**لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل**» رواه مسلم وأبو داود، وفي حديث عند أبي داود وابن حبان: «**حسن الظن من حسن العبادة**» رواه الترمذي والحاكم، ولفظهما: «**حسن الظن بالله من حسن العبادة**».

قوله: ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ﴾. قال ابن القيم: ثم أخبر عن

الكلام الذي صدر عن ظنهم الباطل وهو قولهم: ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٍۗ﴾.

وقولهم: ﴿لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ﴾، فليس مقصودهم بالكلمة الأولى والثانية إثبات القدر ورد الأمر كله لله، لو كان مقصودهم لما ذموا عليه، ولما حسن الرد عليهم بقوله: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ﴾ ولا كان مصدر هذا الكلام ظن الجاهلية، ولهذا قال غير واحد من المفسرين إن ظنهم الباطل ها هنا هو التكذيب بالقدر، وظنهم أن الأمر لو كان إليهم لكان رسول الله ﷺ، وأصحابه تبعاً لهم يسمعون منهم، لما أصابهم القتل، ولكان التصرف والظفر لهم، فكذبهم الله عز وجل في هذا الظن الباطل الذي هو ظن الجاهلية، وهو الظن المنسوب إلى أهل الجهل الذين يزعمون بعد نفاذ القضاء والقدر الذي لم يكن بد من نفاذه: أنهم كانوا قادرين على دفعه وإن الأمر لو كان إليهم لما نفذ القضاء، فأكذبهم الله بقوله: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ﴾ فلا يكون إلا ما سبق به قضاؤه وقدره، وجرى به قلمه وكتابه السابق، وما شاء الله كان ولا بد، شاء الناس أم أبوا، وما لم يشأ لم يكن، شاءه الناس أو لم يشاؤوه، وما جرى عليكم من الهزيمة والقتل فبأمره الكوني الذي لا سبيل على دفعه، سواء كان لكم من الأمر شيء أو لم يكن، فإنكم لو كنتم في بيوتكم وقد كتب القتل على بعضكم، لخرج من كتب عليه القتل من بيته إلى مضجعه ولا بد، سواء كان له من الأمر شيء أو لم يكن. وهذا من أظهر الأشياء إبطالاً لقول القدرية النفاة، الذي يُجوِّزون أن يقع ما لا يشاء الله وأن يشاء ما لا يقع.

قوله: ﴿وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ﴾. أي: يختبر ما فيها من الإيمان والنفاق، فالمؤمن لا يزداد بذلك إلا إيماناً وتسليماً، والمنافق ومن في قلبه مرض لا بد أن يظهر ما في قلبه على جوارحه ولسانه.

قوله: ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ هذه حكمة أخرى وهي تمحيص ما في قلوب المؤمنين وهو تخليصه وتنقيته وتهذيبه، فإن القلوب يخالطها تغليب الطباع وميل النفوس، وحكم العادة وتزيين الشيطان، واستيلاء الغفلة مما يضاد ما أُودع فيها من الإيمان والإسلام والبر والتقوى فلو تُركت في عافية دائمة مستمرة؛ لم تتخلص من هذه المخاطر ولم تتمحص منه، فاقتضت حكمة العزيز الرحيم أن قيّض لها من المحن والبلايا ما يكون كالدواء الكريه لمن عرض له داء إن لم يتداركه طبيب بإزالته وتنقيته ممن هو في جسده وإلا خيف عليه من الفساد والهلاك فكانت نعمته سبحانه عليهم بهذه الكسرة والهزيمة، وقتل من قتل منهم تعادل نعمته عليهم بنصره، وتأييدهم وظفرهم بقدرتهم، فله عليهم النعمة التامة في هذا وهذا[1].

قوله: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾ (آل عمران: ١٥٤) يعني أهل الإيمان واليقين والثبات والتوكل الصادق، وهم الجازمون بأن الله عز وجل سينصر رسوله، ويُنجز له مأموله، ولهذا قال: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ يعني: لا يغشاهم النعاس من القلق ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾، كما قال في الآية الأخرى: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ (الفتح: ١٢) الآية، وهكذا هؤلاء اعتقدوا أن المشركين لما ظهروا تلك الساعة أنها الفاصلة وأن الإسلام قد باد أهله.

قال ابن القيم: ظن الجاهلية: هو المنسوب إلى أهل الجهل وظن غير الحق؛ لأنه غير ما يليق بأسمائه الحسنى وصفاته العلى وذاته المبرأة من كل عيب وسوء أو خلاف ما يليق بحكمته وحمده وتفرده بالربوبية والإلهية، وما يليق بوعده الصادق

---

(١) المعنى أن حكمته في هزيمتهم في أحد تعادل حكمته في نصرهم في موضع آخر كما في بدر.

الذي لا يخلفه، وقد ذكر المؤلف تفسير ابن القيم لهذه الآية، وهو أحسن ما قيل فيها وسيأتي ما يتعلق به إن شاء الله تعالى.

وقوله: ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾ (آل عمران: ١٥٤) هذا أيضاً من حكاية مقال المنافقين، والظاهر أن المعنى: إنا أُخرجنا كرها، ولو كان الأمر إلينا ما خرجنا، كما أشار إليه ابن أُبيّ بذلك، ولفظه: استفهام ومعناه النفي، أي: ما أن[1] شيء من الأمر، أي: أمر الخروج وقيل غير ذلك فردّ الله عليهم بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ (آل عمران: ١٥٤) أي: ليس لكم من الأمر شيء ولا لغيركم، بل الأمر كله لله، فهو الذي إذا شاء فلا مرد له، وقوله: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾، تقدم الكلام عليها في باب ما جاء في اللو، وقوله: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ أي: قدر الله هذه الهزيمة والقتل ليختبر الله ما في صدوركم بأعمالكم؛ لأنه قد علمه غيباً فيعلمه شهادة لأن المجازاة إنما تقع على ما يعلم مشاهدة، لا على ما هو معلوم منهم غير مفعول[2] ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ (آل عمران: ١٥) أي: يطهرها من الشدة والمرض بما يريكم من عجائب آياته وباهر قدرته، وهذا خاص بالمؤمنين دون المنافقين ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾ (آل عمران: ١٥) قيل معناه: إن الله لا يبتليكم ليعلم ما في صدوركم فإنه عليم بذلك وإنما ابتلاكم ليظهر أسراركم والله أعلم.



(١) لعل العبارة لنا.

(٢) أي إن اللهّ يجازي على ما يقع مشاهداً لا على ما يعلمه اللهّ غيباً.

وَقولُهُ: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِۖ﴾ (الفتح: ٦) الآية.

قال ابن كثير: يتهمون الله تعالى في حكمه، ويظنون بالرسول ﷺ وأصحابه أن يُقتلوا ويذهبوا بالكلية، ولهذا قال: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ﴾: أي: أبعدهم من رحمته ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ٦﴾.



قَالَ ابنُ القَيِّمِ فِي الآيَةِ الأُولَى: فُسِّرَ هَذَا الظَّنُّ بِأَنَّهُ سُبحَانَـهُ لاَ يَنْصُرَ رَسُولَهُ، وَأَنَّ أَمرَهُ سَيَضمَحِلُّ، وَفُسِّرَ بأَنَّ مَا أَصَابَهُم لَم يَكُن بقَدَرِ الله وَحِكمَتِهِ. فَفُسِّرَ بِإِنكَارِ الحِكمَةِ، وَإِنكَارِ القَدَرِ، وَإِنكَارِ أَن يُتِمَّ أَمرَ رَسُولِهِ: وَأَن يُظهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ. وَهَذَا ظَنُّ السُّوءِ الَّذِي ظَنَّهُ المُنَافِقُونَ وَالمُشرِكُونَ فِي سُورَةِ الفَتحِ. وَإِنَّمَا كَانَ هَذَا ظَنَّ السَّوءُ لأَنَّهُ ظَنَّ غيرَ مَا يَلِيقُ بِهِ سُبحَانَهُ. وَمَا يَليقُ بِحِكمَتِهِ وَحَمدِهِ وَوَعدِهِ الصَّادِقِ. فَمَن ظَنَّ أَنَّهُ يُدِيلُ البَاطِلَ عَلَى الحَقِّ إِدَالَةً مُستَقِرَّةً يَضمَحِلُّ مَعَهَا الحَقُّ، أَو أَنكَرَ أَن يَكُونَ مَا جَرَى بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، وأَنكَرَ أَن يَكُونَ قَدَرُه لِحِكمَةٍ بَالِغَةٍ يَستَحِقُّ عَلَيهَا الحَمدَ، بَل زَعَمَ أَنَّ ذَلِكَ لِمَشِيئَةٍ مُجَرَّدَةٍ. ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ٢٧﴾ وَأَكثَرُ النَّاسِ يَظُنُّونَ بِالله ظَنَّ السُّوءِ فِيمَا يَختَصُّ بِهِم، وَفِيمَا يَفْعَلُهُ بِغَيرِهِم، فقلَّ مَنْ يَسْلَمُ مِن ذَلِكَ إلاَّ مَنْ عَرَفَ الله وَأَسمَاءَهُ وَصِفَاتِهُ، وَهُوَ مُوجَبَ[1] حِكمَتِهِ وَحَمدِهِ، فَلْيَعْتَنِ اللَّبِيبُ النَّاصِحُ لِنَفسِهِ بِهَذَا، وَلْيَتُبْ إلى الله تَعَالى، وَلْيَسْتَغْفِرْهُ مِن ظَنِّهِ بِرَبِّهِ ظَنَّ السُّوءِ. وَلَو فَتّشْتَ مَنْ فَتّشْتَ لَرَأَيتَ عِندَهُ تَعَنُّتاً عَلَى القَدَرِ وَمَلاَمَةً لَهُ، يقول: إِنَّهُ كَانَ يَنبَغِي أَن يَكُونَ كَذَا وَكَذَا. فَمُسْتَقِلٌّ وَمُستكثِرٌ. وفَتِّشْ نَفسَكَ[2]، هَل أَنتَ سَالِمٌ.

فَإِن تَنْجُ مِنهَا تَنْجُ مِن ذِي عَظِيمَـةٍ   وَإِلاَّ فَـإِنِّي لاَ إِخالُـكَ[3] نَاجِيـاً

قوله: «فسر هذا الظن بأنه سبحانه لا ينصر رسوله...» إلى آخره: هذا تفسير

(١) موجب بفتح الجيم الثمرة، وبكسرها العلة والمراد هنا الأول والمقتضي.

(٢) لأنك واحد من الناس.

(٣) أظنك.

غير واحد من المفسرين وهو مأخوذ من تفسير قتادة والسدي، وذكر ذلك عنهما ابن جرير وغيره بالمعنى.

وقوله: «وإن أمره سيضمحل». أي: سيذهب جملة حتى لا يبقى له أثر. والاضمحلال: ذهاب الشيء جملة.

قوله: «وفسر أن ما أصابهم لم يكن بقدر الله وحكمته». قال القرطبي: وقال جويبر عن الضحاك عن ابن عباس في قوله: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ يعني التكذيب بالقدر وذلك أنهم تكلموا فيه، فقال الله: قل إن الأمر كله لله، يعني: القدر خيره وشره من الله، وأما تفسيره بإنكار الحكمة فلم أقف عليه عن السلف، فهو تفسير صحيح فمن أنكر أن ذلك لم يكن لحكمة بالغة يستحق عليها الحمد والشكر، فقد ظن بالله ظن السوء، وقد أشار تعالى إلى بعض الحكم والغايات المحمودة في ذلك في سورة «آل عمران» فذكر شيئاً كثيراً منها في الآية المفسرة: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾ فهذا بعض الحكمة في ذلك فمن أنكره، فقد ظن ظن السوء بالله وحكمته وعلمه، ورحمته لكمال علمه وقدرته ورحمته، ولأن من أسمائه الحق، وذلك هو موجب إلهيته وربوبيته.

قوله: «لأنه ظن غير ما يليق به سبحانه». أي: لأن الذي يليق به سبحانه أنه يظهر الحق على الباطل وينصره، فلا يجوز في عقل ولا شرع أن يظهر الباطل على الحق. قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ﴾ (الأنبياء: ١٨)، وقال تعالى: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ (الإسراء: ٨١).

قوله: «ولا يليق بحكمته وحمده». أي: إن الذي يليق بحكمته وحمده أن لا يكون في السماوات ولا في الأرض حركة ولا سكون إلا وله في ذلك الحكمة

البالغة والحمد الكامل التام عليها، فكيف بمثل هذا الأمر العظيم الذي وقع على سيد المرسلين ﷺ، وعلى سادات الأولياء رضي الله عنهم، فله سبحانه وتعالى في ذلك الحكمة، وله عليه الحمد، بل والشكر، ومن تأمل ما في سورة آل عمران في سياق القصة رأى من ذلك العجب، فمن ظن بالله تعالى أنه لا يفعل ذلك بقدرة وحكمة يستحق عليها الحمد والشكر فقد ظن به ظن السوء.

قوله: «فمن ظن أنه يديل الباطل على الحق إدالة مستقرة يضمحل معها الحق». فهذا ظن السوء، لأنه نسبه -أي سبحانه- إلى ما لا يليق بجلاله وكماله ونعوته وصفاته، فإن حمده وحكمته وعزته تأبى ذلك، وتأبى أن يذل حزبه وجنده وأن تكون النصرة المستقرة والظفر الدائم لأعدائه المشركين المعاندين له، فمن ظن به ذلك، فما عرفه ولا عرف أسماءه وصفاته وكماله.

قوله: «أو أنكر أن يكون ما جرى بقضائه وقدره». أي: فذلك ظن السوء، لأنه نسبة له إلى ما لا يليق بربوبيته وملكه وعظمته.

قوله: «أو أنكر أن يكون قدره لحكمة بالغة يستحق عليها الحمد، بل زعم أن ذلك لمشيئة مجردة فـ ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ٢٧﴾» (ص: ٢٧).

قال ابن القيم: وكذلك من أنكر أن يكون قدر ما قدره من ذلك وغيره لحكمه بالغة وغاية محمودة يستحق عليها الحمد، وأن ذلك إنما صدر عن مشيئة مجردة عن حكمة وغاية مطلوبة هو أحب إلي من قوتها[1]، وأن تلك الأسباب المكروهة المفضية إليها لا يخرج تقديرها عن الحكمة لانضمامها إلى ما يحب، وإن كانت مكروهة له، فما قدّرها سُدى ولا شاءها عبثاً، ولا خلقها باطلاً ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ٢٧﴾ (ص: ٢٧).

---

(١) لعلها هي أحب إليه من فواتها، كما في «فتح المجيد».

قوله: «ووعده الصادق؛ لأن الله تعالى وعد رسوله ﷺ أن يظهر أمره ودينه على الدين كله ولو كره المشركون، فمن ظن به تعالى أن دين نبيه سيضمحل ويبطل، ولا يظهر على الدين كله، فقد ظن به ظن السوء؛ لأنه ظن أنه يخلف الميعاد والله تعالى لا يخلف الميعاد».

قوله: «وأكثر الناس يظنون بالله ظن السوء[(١)] فيما يختص بهم، وفيما يفعله بغيرهم». قال ابن القيم: فمن قنط من رحمته، وأيس من روْحه؛ فقد ظن به ظن السوء، ومن جوّز عليه أن يعذب أولياءه مع إحسانهم وإخلاصهم ويسوي بينهم وبين أعدائه؛ فقد ظن به ظن السوء، ومن ظن أنه يترك خلقه سدى معطلين عن الأمر والنهي، ولا يرسل إليهم رسله، ولا ينزل إليهم كتبه؛ فقد ظن به ظن السوء، ومن ظن أنه لن يجمعهم بعد موتهم للثواب والعقاب في دار يجازي فيها المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، ويبين لخلقه حقيقة ما اختلفوا فيه، ويظهر للعالمين كلهم صدقه، وصدق رسله، وأن أعداءه كانوا هم الكاذبين؛ فقد ظن به ظن السوء، ومن ظن أنه يضيع عليه عمله الصالح الذي عمله خالصاً لوجهه على امتثال أمره، ويُبطله عليه بلا سبب من العبد، أو أنه يعاقبه على فعله سبحانه به، أو ظن به أنه يجوز عليه أن يؤيّد أعداءه الكاذبين عليه بالمعجزات التي يؤيد بها أنبياءه ورسله، وأنه يحسن منه كل شيء حتى يعذب من أفنى عمره في طاعته، أي: كمحمد ﷺ فيخلده في الجحيم، أو أسفل سافلين، ومن استنفد عمره في عداوته، وعداوة رسله ودينه كأبي جهل فيرفعه إلى أعلى عليين، وكلا الأمرين في الحسن سواء عنده، ولا يعرف امتناع أحدهما، ووقوع الآخر إلا بخبر صادق[(٢)]، وإلا

---

(١) كما هو مذهب الجبرية من الجهمية وغيرهم.

(٢) كما هو مذهب الجبرية من الجهمية والعقل يدرك حسناً وقبحاً لكنه مقيد بالشرع وهو خلاف الحسن والقبح اللذين عند المعتزلة من استقلال العقل بذلك دون الشرع.

فالعقل لا يقضي بقبح أحدهما، وحسن الآخر، فقد ظن به ظن السوء، ومن ظن أنه أخبر عن نفسه وصفاته وأفعاله بما ظاهره باطل، وتشبيه وتمثيل، وترك الحق لم يخبر به، وإنما رمز إليهم رموزاً بعيدة، وصرح دائماً بالتشبيه والتمثيل والباطل، وأراد من خلقه أن يُتعبوا أذهانهم وقواهم وأفكارهم في تحريف كلامه عن مواضعه، وتأويله على غير تأويله وأحالهم في معرفة أسمائه وصفاته على عقولهم وآرائهم لا على كتابه مع قدرته على أن يصرح لهم بالحق الذي ينبغي التصريح به، ويُريحهم من الألفاظ التي توقعهم في اعتقاد الباطل؛ فقد ظن به ظن السوء[1]، ومن ظن به أن يكون له في ملكه ما لا يشاء ولا يقدر على إيجاده وتكوينه؛ فقد ظن به ظن السوء[2]، ومن ظنّ أنه لا سمع له ولا بصر، ولا علم، ولا إرادة، ولا كلام يقوم به، وأنه لم يكلم أحداً من الخلق، ولا يتكلم أبداً؛ فقد ظن به ظن السوء، ومن ظن أنه ليس فوق سماواته على عرشه بائناً من خلقه، وأن نسبة ذاته تعالى إلى عرشه كنسبتها إلى أسفل سافلين وأنه أسفل كما أنه أعلى وأن ما قال: سبحان ربي الأسفل كمن قال: سبحان ربي الأعلى فقد ظن به أقبح الظن، ومن ظن أنه يحب الكفر والفسوق والعصيان والفساد، ولا يحب الإيمان والبر والطاعة والصلاح؛ فقد ظن به ظن السوء، ومن ظن أنه لا يحب، ولا يرضى، ولا يغضب، ولا يوالي، ولا يعادي، ولا يقْرب من أحد من خلقه ولا يقْرب عنده أحد، وأن ذوات الشياطين في القرب منه كذوات الملائكة المقرَّبين؛ فقد ظن به ظن السوء، ومن ظن أنه يسوّي بين المتضادين، أو يفرِّق بين المتساويين في كل وجه، أو يحبط طاعات العمر المديد الخالصة الصواب بكبيرة واحدة تكون بعدها، فيخلده في الجحيم لتلك الكبيرة، كما يخلد من لم يؤمن به طرفة عين، واستنفد عمره في مساخطه، ومعاداة رسله

(١) كما هو قول أهل الكلام والنظر من الجهمية والمعتزلة وغيرهم.
(٢) كما هو قول المعتزلة في أفعال العباد.

ودينه[١]؛ فقد ظن به ظن السوء.

وبالجملة: فمن ظن به خلاف ما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله، أو عطّل حقائق ما وصف به نفسه، ووصفه به رسوله؛ فقد ظن به ظن السوء، ومن ظنّ أن له ولداً أو شريكاً، أو أن أحداً يشفع عنده بدون إذنه أو أن بينه وبين خلقه وسائط يرفعون حوائجهم إليه، أو أنه نصب لعباده أولياء من دونه يتقربون بهم إليه؛ ويجعلونهم وسائط بينه وبينهم فيدعونهم، ويخافونهم، ويرجونهم؛ فقد ظن به أقبح الظن وأسوأه، ومن ظن به أنه ينال ما عنده بمعصيته ومخالفته، كما ينال بطاعته والتقرب إليه، فهو من ظن السوء، ومن ظن أنه إذا ترك لأجله شيئاً لم يعوضه خيراً منه، أو من فعل شيئاً لأجله لم يُعطه أفضل منه؛ فقد ظن به ظن السوء، ومن ظن أنه يغضب على عبده، ويعاقبه بغير جرم ولا سبب من العبد إلا بمجرد المشيئة؛ فقد ظن به ظن السوء، ومن ظن أنه إذا صدق في الرغبة والرهبة، وتضرع إليه وسأل واستعان به، وتوكل عليه أنه يخيّبه فقد ظن به ظن السوء، ومن ظن أنه يثيبه إذا عصاه، كما يثيبه إذا أطاعه، وسأله ذلك في دعائه؛ فقد ظن به خلاف ما هو أهله، وما لا يفعله، ومن ظن أنه إذا أغضبه وأسخطه ووقع في معاصيه، ثم اتخذ من دونه أولياء، ودعا من دونه مَلكاً، أو بشراً حياً أو ميتاً يرجو بذلك أن ينفعه عند ربه، ويخلِّصه من عذابه؛ فقد ظن به ظن السوء، ومن ظن به أنه يسلط على رسوله محمد ﷺ أعداءه تسليطاً مستقراً دائماً في حياته ومماته، وابتلاه بهم لا يفارقونه، فلما مات استبدوا بالأمر[٢] دون وصيّه[٣]، وأهل بيته، وسلبوهم حقهم، وأذلوهم من غير جرم، ولا ذنب لأوليائه وأهل الحق، وهو يرى ذلك

---

(١) هذا مذهب الخوارج والمعتزلة.

(٢) هم أبو بكر وعمر.

(٣) وهو علي بن أبي طالب.

ويقدر على نصرة أوليائه وحزبه، ولا ينصرهم، ثم جعل المبدِّلين لدينه مضاجعيه في حفرته تسلّم أمته عليه وعليهم كل وقت، كما تظنه الرافضة؛ فقد ظن به أقبح الظن. انتهى اختصاراً.

وهو ينبهك على إحسان الظن بالله في كل شيء.

(**فليعتن اللبيت**): اللب العقل، واللبيب العاقل.

قوله: «ولو فتشت من فتشت لرأيت عنده تعنتاً على القدر، وملامة له، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا».

قلت: بل يبوحون بذلك، ويصرحون بها جهاراً في أشعارهم وكلامهم.

قال ابن عقيل في «الفنون»: الواحد من العوام إذا رأى مراكب مقلدة بالذهب والفضة، ودار مشيدة مملوءة بالخدم والزينة؛ قال: انظر إلى إعطائهم مع سوء أفعالهم، ولا يزال يلعنهم، ويذم معطيهم حتى يقول: فلان يصلي الجماعات والجمع، ولا يؤذي الذر، ولا يأخذ ما ليس له، ويؤدي الزكاة إذا كان له مال، ويحج ويجاهد، ولا ينال خلة بقلبه، ويظهر الإعجاب كأنه ينطق إنه لو كانت الشرائع حقاً لكان الأمر بخلاف ما ترى، وكان الصالح غنياً، والفاسق فقيراً[1].

قال أبو الفرج ابن الجوزي: وهذه حالة قد شملت خلقاً كثيراً من العلماء والجهال، أولهم إبليس فإنه نظر بعقله، فقال: كيف يفضل الطين على جوهر النار؟! وفي ضمن اعتراضه: إن حكمتك قاصرة وأنا أجود، واتبع إبليس في تفضيله واعتراضه خلق كثير، مثل الراوندي والمعري من قوله:

إذا كان لا يحظى برزقك عاقل ... وترزق مجنوناً وترزق أحمقا
ولا ذنب يا رب السماء على امرئ ... رأى منك ما لا يشتهي فتزندقا

---

(١) اللهّ حكيم عليم لو كانت الدنيا والآخرة كلاهما للمؤمن لما بقي كافر، لكن الدنيا للمؤمن والكافر والآخرة للمؤمن.

وأمثال ذلك كثير في أولئك الذين ابتعدوا عن كتاب الله وسنة رسوله، وانطلقوا إلى أهوائهم، واعتمدوا على عقولهم القاصرة التي جعلتهم يعترضون على الله جل وعلا.

وكان أبو طالب المكي[١] يقول: ليس على المخلوق أضر من الخالق قال ابن الجوزي: ودخلت على صدَقَة بن الحسين الحدّاد، وكان فقيهاً غير أنه كان كثير الاعتراض وكان عليه جَرَب فقال: هذا ينبغي أن يكون على جملٍ لا عليّ وكان يتفقد الأكابر أكولاً فيقول: بعث لي هذا على الكِبَر وقت لا أقدر على أكله[٢]، وكان رجلٌ يصحبني قد قارب ثمانين سنة كثير الصلاة والصوم فمرض واشتد به المرض فقال: إن كان يريد أن أموت فيميتني وأما هذا التعذيب فما له معنى، والله لو أعطاني الفردوس كان مكفوراً، ورأيت آخر تزيّا بالعلم إذا ضاق عليه رزقه يقول: أيش هذا التدبير؟ وعلى هذا كثير من العوام إذا ضاقت أرزاقهم اعترضوا، وربما قالوا: ما يريد يصلي وإذا رأوا رجلاً صالحاً مؤذياً قالوا: «ما يستحق» قدحاً في القدر، وكان قد جرى في زماننا تسلط من الظلمة، وقال بعض من تزيّا بالدين: هذا حكم بارد وما فهم الأحمق فإن لله على الظالم أن يسلط عليه أظلم منه، وفي الحمقى من يقول: أي فائدة في خلق الحيات والعقارب، وما علم أن ذلك أنموذجٌ لعقوبة المخالف، وهذا أمر قد شاع، ولهذا مددتُ النَّفَس فيه[٣]، وأعلم أن المعترض قد ارتفع أن يكون شريكاً وعلا الخالق بالحكم عليه، وهؤلاء كلهم كفرة[٤] لأنهم رأوا حكمة الخالق قاصرة، وإذا كان توقُّفُ القلب عن الرضى

(١) هو محمد بن علي بن عطية الحارثي صاحب «قوت القلوب».

(٢) يقول بعث لي هذا الطعام في وقت كبري الذي لا أقدر فيه على الأكل ولم يبعثه إليّ في وقت الشباب والقدرة على الأكل.

(٣) أي لهذه أطلت البحث والكلام فيه.

(٤) حكم هؤلاء المعترضين على الله.

بحكم الرسول ﷺ يُخرج عن الإيمان قال: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ (النساء: ٦٥) فكيف يصح الإيمان مع الاعتراض على الله، وكان في زمن ابن عقيل رجل رأى بهيمة على غاية من السقم فال: وا رحمتي لك، وا قلة حيلتي في إقامة التأويل لمعذبك، فقال له ابن عقيل: إن لم تقدر على حمل هذا الأمر لأجل رقبتك الحيوانية ومناسبتك الجنسية، فعندك عقل تعرف حكم الصانع وحكمته يوجب عليك التأويل، فإن لم تجد استطرحت الفاطر العقل، حيث خانك العقل عن معرفة الحكمة في ذلك. انتهى.

قوله: «وفتِّش نفسك هل أنت سالم»: قال ابن القيم: أكثر الخلق إلا من شاء الله يظنون بالله غير الحق، وظن السوء، فإن غالب بني آدم يعتقد أنه مبخوس الحق، ناقص الحظ، وأنه يستحق فوق ما أعطاه الله، ولسان حاله يقول: ظلمني ربي، ومنعني ما أستحقه، ونفسُه تشهد عليه بذلك، وهو بلسانه ينكره، ولا يتجاسر على التصريح به، ومن فتش نفسه وتغلغل في معرفة دفائنها وطواياها، ورأى ذلك فيها كامناً كمون النار في الزناد، فاقرع زناد من شئت ينبئك شررُها عما في زناده، فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا الموضع، وليتب إلى الله ويستغفره كل وقت من ظنه بربه ظن السوء، وليظن السوء بنفسه التي هي مأوى كل سوء وصنيع كل شر، المركّبه على الجهل والظلم، أولى بظن السوء من أحكم الحاكمين، وأعدل العادلين، وأرحم الراحمين، الغني الحميد الذي له الغنى التام، والحكمة التامة، المنزَّه عن كل سوء في ذاته وصفاته وأفعاله وأسمائه، فذاته لها الكمال المطلق من كل وجه، وصفاته كذلك وأفعاله كلها حكمة ومصلحة ورحمة وعدل، وأسماؤه كلها حسنى.

فلا تظنن بربك ظن سوء ... فإن الله أولى بالجميل
ولا تظنن بنفسك قطُّ خيراً ... فكيف بظالم جانٍ جهول

وظن بنفسك السوأى تجدها كذاك وخيرها كالمستحيل
وما بك من تقىً فيها وخير فتلك مواهب الرب الجليل
وليس لها ولا منها ولكن من الرحمن فاشكر للدليل

قوله: «**فإن ننج منها**»: أي: من هذه الخصلة العظيمة.

قوله: «**من ذي عظيمة**»: أي: من شر عظيم.

قوله: «**وإلا فإني لا إخالك**»: هو بكسر الهمزة. أي: أظنك والله أعلم.



باب
ما جاء في منكري القدر

الشَّرْح:

أي من الوعيد(١). والقدر بالفتح والسكون، ما يُقدِّر الله من القضاء، ولما كان توحيد الربوبية لا يتم إلا بإثبات القدر قال القرطبي: القدر مصدر قَدَرتُ الشيء بتخفيف الدال أقدُره قدْراً، وقَدَراً إذا حصلت بمقداره، ويقال فيه: قدَّرتُ أُقَدِّرُ تقديراً مشدد الدال(٢)، فإذا قلنا: إن الله تعالى قدر الأشياء فمعناه: إنه تعالى علم مقاديرها وأحوالها وأزمانها قبل إيجادها، ثم أوجد منها ما سبق في علمه أنه يوجده على نحو ما سبق في علمه فلا محدث في العالم العلوي والسفلي إلا هو صادر عن علمه تعالى وقدرته وإرادته، هذا هو المعلوم من دين السلف الماضين الذي دلت عليه البراهين. ذكر المصنف ما جاء في الوعيد فيمن أنكره تنبيهاً على وجوب الإيمان، ولهذا عده النبي ﷺ من أركان الإيمان كما ثبت في حديث جبريل -عليه السلام- لما سئل عن الإيمان فقال: «**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره قال: صدقت**»، وعن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله تعالى كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة قال: وكان عرشه على الماء**»، وعن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: «**كل شيء بقَدَر حتى العجزُ والكيسُ**»(٣) رواهما مسلم في «صحيحه»، وعن علي -رضي الله عنه- قال: قال

---

(١) الشديد، والنصوص تدل على كفر منكري القدر بعد إقامة الحجة وكشف الشبهة.

(٢) لأنه من باب نصر ينصُر، ومن باب ضرب يضرب، قدَر يقدُر، وقدِر يقدر، بتخفيف الدال.

(٣) عطف على كل.

رسول الله ﷺ: «**لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع: يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله بعثني بالحق، ويؤمن بالموت، والبعث بعد الموت، ويؤمن بالقدر**» رواه الترمذي وابن ماجه والحاكم في «مستدركه» والأحاديث في ذلك كثيرة جداً قد أفردها العلماء بالتصنيف. قال البغوي في «شرح السنة»: الإيمان بالقدر فرضٌ لازم، وهو أن يعتقد أن الله تعالى خالق أعمال العباد، خيرها وشرها كتبها عليهم في اللوح المحفوظ قبل أن يخلقهم[1]. قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ (الصافات: ٩٦)[2] فالإيمان والكفر، والطاعة والمعصية كلها بقضاء الله وقدره وإرادته ومشيئته غير أنه يرضى الإيمان والطاعة، ووعد عليهما الثواب، ولا يرضى الكفر والمعصية ووعد عليهما العقاب قال الله تعالى: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾ (إبراهيم: ٢٧).

قال: والقدر سر من أسرار الله تعالى لم يطلع عليه ملكاً مقرَّباً، ولا نبياً مرسلاً، ولا يجوز الخوض فيه والبحث عنه بطريق العقل، بل يعتقد أن الله تعالى خلق الخلق فجعلهم فريقين: أهل يمين خلقهم للنعيم فضلاً، وأهل شمال خلقهم للجحيم عدلاً. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ﴾ (الأعراف: ١٧٩) وقد سأل رجلٌ عليَّ بن أبي طالب -رضي الله عنه- فقال يا أمير المؤمنين أخبرني عن القدر قال: طريق مظلم، فلا تسلكه، فأعاد السؤال فقال: بحر عميق فلا تلجه[3]، فأعاد السؤال فقال: سر الله خفي عليك فلا تُفْشه.

---

(١) وهذا قول أهل السنة قاطبة.

(٢) وقال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ﴾، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾.

(٣) إن صح هذا عن علي فمراده أنه طريق مظلم وبحر عميق لمن خاض فيه بعقله مُعْرِضاً عن النصوص.

وقال شيخ الإسلام: مذهب أهل السنة في هذا الباب وغيره ما دل عليه الكتاب والسنة، وما عليه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، وهو أن الله خالق كل شيء وربه ومليكه، وقد دخل في ذلك جميع الأعيان القائمة بأنفسها وصفاتها القائمة بها من أفعال العباد وغير أفعال العباد، وأنه سبحانه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فلا يكون في الوجود شيء إلا بمشيئته وقدرته، لا يمتنع عليه شيء شاءه، بل هو قادر على كل شي، ولا يشاء شيئاً إلا وهو قادر عليه، وأنه سبحانه يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، فقد دخل في ذلك أفعال العباد وغيرها، وقد قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلقهم، قدر أرزاقهم وآجالهم وأعمالهم، وكتب ذلك وكتب ما يصيرون إليه من سعادة وشقاوة، فهم يؤمنون بخلقه لكل شيء، وقدرته على كل شيء، ومشيئته لكل ما كان، وعلمه بالأشياء قبل أن تكون، وتقديره لها وكتابته إياها قبل أن تكون، وغلاة القدرية ينكرون علمه المتقدم وكتابته السابقة، ويزعمون أنه أمَرَ ونهى، وهو لا يعلم من يطيعه ممن يعصيه، بل الأمر أُنُف، أي مستأنف، وهذا القول أول ما حدث في الإسلام بعد انقراض عصر الخلفاء الراشدين، وبعد إمارة معاوية بن أبي سفيان في زمن الفتنة التي كانت بين ابن الزبير وبني أمية في آخر عصر عبدالله بن عمر، وعبدالله بن عباس وغيرهما من الصحابة، وكان أول من ظهر ذلك عنه بالبصرة معبد الجهني، فلما بلغ الصحابة قول هؤلاء تبرؤوا منهم وأنكروا مقالتهم، ثم لما كثر خوض الناس في القدر صار جمهورهم يقر بالعلم المتقدم والكتاب السابق، ولكن ينكرون عموم مشيئة الله وعموم خلقه وقدرته، ويظنون أنه لا معنى لمشيئته إلا أمره[1]، فما شاء فقد أمر به[2]، وما لم يشأ لم يأمر به؛

(١) أي: أمره الديني الشرعي.

(٢) لأن المشيئة بمعنى الأمر الديني الشرعي.

فلزمهم أنه قد شاء ما لا يكون، ويكون ما لا يشاء. وأنكروا أن يكون الله خالقاً لأفعال العباد أو قادراً عليها أو أن يخص بعض عباده من النعم مما يقتضي إيمانهم به وطاعتهم له. وزعموا أن نعمته التي بها يمكن الإيمان والعمل الصالح على الكفار كأبي جهل وأبي لهب مثل نعمته بذلك على أبي بكر وعمر وعثمان وعلي بمنزلة رجل دفع إلى والديه بمال قسمه بينهم بالسوية، لكن هؤلاء أحدثوا أعمالهم الصالحة، وهؤلاء أحدثوا أعمالهم الفاسدة من غير نعمة خص الله بها المؤمنين، وهذا قول باطل، وقد قال الله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا[1] عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ (الحجرات: ١٧)، وقال: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً[2] وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾﴾ (الحجرات: ٧).

قال ابن القيم ما معناه: مراتب القضاء والقدر أربع مراتب.

الأولى: علم الرب سبحانه بالأشياء قبل كونها.

الثانية: كتابة ذلك عنده في الأزل قبل خلق السماوات والأرض.

الثالثة: مشيئته المتناولة لكل موجود فلا خروج لكائن[3] كما لا خروج له عن علمه.

الرابعة: خلقه لها وإيجاده وتكوينه، فالله خالق كل شيء، وما سواه مخلوق[4].



---

(١) فدل على أن المنة والنعمة على المسلم من الله.

(٢) فدل على أن تحبيب الإيمان للمؤمنين فضل من الله ونعمة خصهم بها.

(٣) عن مشيئته.

(٤) وقال شيخ الإسلام في «الواسطية»: والإيمان بالقدر على درجتين، وكل درجة تتضمن شيئين، الأولى: العلم، وتتضمن الكتابة، والثانية: وتتضمن الخلق والإيجاد.

وَقَالَ ابنُ عُمَرَ: «وَالَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ، لَو كَانَ لأَحَدِهِم مِثلُ أُحَدٍ ذَهَباً ثُمَّ أَنفَقَهُ فِي سَبِيلِ الله مَا قَبِلَهُ الله مِنهُ، حَتَّى يُؤمِن بِالقَدَرِ»(١). ثُمَّ استَدَلَّ بِقَولِ النَّبِيِّ ﷺ: «الإِيمَانُ أَنْ تُؤمِنَ بالله وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَاليَومِ الآخِرِ، وَتُؤمِنَ بالقَدَرِ خَيْرِهِ وشَرِّهِ» [رَوَاهُ مُسلِمٌ].

قوله: «وقال ابن عمر»: هو عبدالله بن عمر بن الخطاب.

قوله: «لو كان لأحدهم مثل أحد ذهباً، ثم أنفقه في سبيل الله ما قبله الله منه» إلخ هذا قول ابن عمر لغلاة القدرية الذين أنكروا أن يكون الله تعالى عالماً بشيء من أعمال العباد قبل وقوعها منهم، وإنما يعلمها بعد كونها منهم كما تقدم عنهم. قال القرطبي: ولا شك في تكفير من يذهب إلى ذلك(٢)، فإنه جحد معلوم من الشرع بالضرورة، لذلك تبرأ منهم ابن عمر، وأفتى بأنهم لا تقبل منهم أعمالهم ولا نفقاتهم، وأنهم كمن قال الله فيهم: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَـٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ (التوبة: ٥٤) وهذا المذهب قد تُرك اليوم، فلا يعرف من يُنسب إليه من المتأخرين من أهل البدع المشهورين. فقال شيخ الإسلام: لما ذكر كلام ابن عمر هذا ، وكذلك كلام ابن عباس، وجابر بن عبدالله، وواثلة بن الأسقع وغيرهم من الصحابة والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وسائر أئمة المسلمين، فيهم كثير، حتى قال: فيهم الأئمة، كمالك والشافعي، وأحمد بن حنبل

---

(١) وهذا يدل على أن ابن عمر يرى أن منكر القدر كافر لأنه هو الذي تحبط أعماله ولا تُقبل منه كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَـٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾.

(٢) وهؤلاء الغلاة هم الذين قال فيهم الشافعي -رحمه الله-: «ناظروا القدرية بالعلم فإن أقروا خصموا وإن أنكروه كفروا» وهذا كلام عظيم جيّد من أبي عبدالله الشافعي، لأنهم إن أقروا بالعلم أقروا بالقدر فهو ما يشاء ويخلق وفق علمه، وإن أنكروا العلم فقد نسبوا إلى الله الجهل والتنقُّص وهذا كفر.

وغيرهم: إن المنكرين لعلم الله المتقدم ينكرون القدر.

وقوله: «ثم استدل بقول النبي ﷺ: الإيمان أن تؤمن بالله[1]**، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»**: فجعل النبي ﷺ في هذا الحديث كأنه لما سئل عن الإسلام ذكر أركان الإسلام الخمسة لأنها أصل الإسلام، ولما سئل عن الإيمان أجاب بقوله: «**أن تؤمن بالله» إلى آخره** فيكون المراد حينئذٍ بالإيمان جنس تصديق القلب، وبالإسلام جنس العمل، والقرآن والسنة مملوءان بإطلاق الإيمان على الأعمال كما هما مملوءان بإطلاق الإسلام على الإيمان الباطن، مع ظهور دلالتهما أيضاً على الفرق بينهما، ولكن حيث أُفرد أحد الاسمين دخل فيه الآخر، وإنما يفرق بينهما حيث فرق أحد الاسمين بالآخر، ومن أراد تحقيق ما أشرنا إليه فليراجع كتاب «الإيمان الكبير» لشيخ الإسلام. إذا تبين هذا فوجه استدلال ابن عمر بالحديث من جهة أن النبي ﷺ عدّ الإيمان بالقدر من أركان الإيمان، فمن أنكره لم يكن مؤمناً، إذ الكافر بالبعض كافر بالكل، فلا يكون مؤمناً متقياً، والله لا يقبل إلا من المتقين، وهذا قطعة من حديث جبريل -عليه السلام-، وقد أخرجه مسلم بطوله أول كتاب الإيمان في «صحيحه» من حديث يحيى بن يعمر، عن ابن عمر، ولفظه: عن يحيى بن يعمر قال: كان أول من قال في القدر بالبصرة معبد الجهني، فانطلقت أنا وحميد بن عبدالرحمن الحِمْيَري حاجّين أو معتمرين، فقلنا لو لقينا أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر، فوُفِّق[2] لنا عبدالله بن عمر بن الخطاب داخلاً المسجد، فاكْتَنَفْتُه

---

(١) حديث جبريل، حديث عظيم فيه قواعد الإسلام وأركانه وأصوله وقواعد الإيمان وأصوله وبقية الأعمال الظاهرة وهي أعمال الجوارح تبع لأركان الإسلام، وبقية أعمال القلوب تبع لأصول الإيمان، وبالالتزام بأركان الإسلام يتميز عن الكفار وينفصل عنهم وباعتقاده لأصول الإيمان وأركانه يتميز عن المنافقين وينفصل عنهم.

(٢) أي قدر.

أنا وصاحبي، أحدنا عن يمينه، والآخر عن شماله، فظننت أن صاحبي سيكل الكلام إليّ فقلت يا أبا عبدالرحمن إنه قد ظهر قِبلنا أناس يقرؤون القرآن ويتقفّرون (١) العلم، وذكر من شأنهم وأنهم يزعمون أن لا قَدَر، وأن الأمر أُنُف. قال: فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم، وأنهم براء مني، والذي يحلف به عبدالله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفقه ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر، ثم قال: حدثني أبي عمر بن الخطاب قال: «**بينما نحن جلوس عند رسول الله ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منها أحد حتى جلس إلى النبي ﷺ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، فقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام**»، وذكر الحديث، وقوله: خيره وشره، أي : خير القدر وشره، أي: أنه تعالى قدّر الخير والشر قبل خلق الخلق، وأن جميع الكائنات بقضائه وقدره وإرادته لقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢﴾ (الفرقان: ٢). ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾ (الصافات: ٩٦) ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩﴾ (القمر: ٤٩) وغير ذلك.

فإن قلت: كيف قال: «**وتؤمن بالقدر خيره وشره**» وقد قال في الحديث: «**والشر ليس إليك**»؟

قيل: إثبات الشر في القضاء والقدر، إنما هو بالإضافة إلى العبد، والمفعول إن كان مقدراً عليه، فهو بسبب جهله وظلمه وذنوبه، لا إلى الخالق، فله في ذلك من الحِكَم ما تقصر عنه أفهام البشر؛ لأن الشر إنما هو بالذنوب وعقوباتها في الدنيا والآخرة، فهو شر بالإضافة إلى العبد، أما بالإضافة إلى الرب سبحانه وتعالى، فكله خير وحكمة، فإنه صادر عن حُكْمه وعلمه، وما كان كذلك فهو خير محضٌ

---

(١) أي: يطلبونه ويتتبعونه.

بالنسبة إلى الرب سبحانه وتعالى، إذ هو موجَب أسمائه وصفاته، ولهذا قال: «**والشر ليس إليك**» أي: تمتنع إضافته إليك بوجه من الوجوه، فلا يضاف الشر إلى ذاته وصفاته، ولا أسمائه ولا أفعاله، فإن ذاته منزهةٌ عن كل شر، وصفاته كذلك، إذ كلها صفات كمال، ونعوت جلال، لا نقص فيها بوجه من الوجوه، وأسماؤه كلها حسنى ليس فيها اسم ذم ولا عيب، وأفعاله حكمة ورحمة ومصلحة وإحسان وعدل، لا تخرج عن ذلك البتّة، وهو المحمود على ذلك، فتستحيل إضافة الشر إليه، فإنه ليس شر في الوجود إلا الذنوب وعقوبتها، وكونها ذنوباً تأتي من نفس العبد، فإن سبب الذنب الظلم والجهل، وهما في نفس العبد، فإنه ذات مستلزمة للجهل والظلم، وما فيه من العلم والعدل فإنما حصل له بفضل الله عليه، وهو أمر خارج عن نفسه، فمن أراد الله به خيراً أعطاه الفضل فصدر منه الإحسان والبر والطاعة، ومن أرد به شراً أمسكه عنه وخلاّه ودواعي نفسه وطبعه وموجَبها، فصدر عنه موجَب الجهل والظلم من كل شر وقبيح، وليس منعه من ذلك شراً، ولله في ذلك الحكمة التامة، والحجة البالغة، فهذا عدله وذلك فضله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم، وهو العلي الحكيم، هذا معنى كلام ابن القيم، وهو الحق.

وحاصله: أن الشر راجع إلى مفعولاته[1] لا إلى ذاته وصفاته، ويتبين ذلك بمثال ولله المثل الأعلى، لو أن ملكاً من ملوك العدل كان معروفاً بقمع المخالفين وأهل الفساد، مقيماً للحدود والتعزيرات الشرعية على أرباب أصحابها، لعدُّوا ذلك خيراً يحمده عليه الملوك ويمدحه الناس ويشكرونه على ذلك، فهو خير بالنسبة إلى الملوك، يُمدح ويُثنى به ويشكر عليه وإن كان شراً بالنسبة إلى من أقيم عليه، فرب العالمين أولى بذلك؛ لأن الكمال المطلق من جميع الوجوه والاعتبارات

(١) المفعولات المخلوقات المنفصلة كزيد وبكر والشمس والأرض مثلاً بخلاف الخلق والرزق مثلاً، فالمفعولات غير الفعل.

وأيضاً فلولا الشر هل كان يُعرف الخير، فإن الضد لا يُعرف إلا بضدّه، فإن لم تُحِط به خُبراً فاذكر كلام ابن عقيل في الباب الذي قبل هذا ، وأسلم تسلم، والله أعلم.



وَعَن عُبَادَةَ بنِ الصَّامِتِ أَنَّهُ قَالَ لابنِهِ: «يَا بُنَيَّ إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ الإِيمَانِ حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ»[1]، سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ القَلَمَ، فَقَالَ: اكْتُبْ، قَالَ: رَبِّ! وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ». يَا بُنَيَّ! سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ هَذَا فَلَيْسَ مِنِّي».

قوله: «يا بني إنك لن تجد طعم الإيمان» إلى آخره: ابنه هذا هو الوليد بن عبادة كما صرح به الترمذي في روايته، وفيه أن للإيمان طعماً، وهو كذلك، فإن له حلاوة وطعماً، من ذاقه تسلّى به عن الدنيا وما عليها، وقد قال النبي ﷺ: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان...**» الحديث وإنما يكون العبد كذلك إذا كان مؤمناً بالقدر، إذ يمتنع أن توجد الثلاث فيه وهو لا يؤمن بالقدر بل يكذب به ويرد على الله كلامه وعلى الرسول ﷺ مقالته، فإن المحبة التامة تقتضي المتابعة التامة، فمن لم يؤمن بالقدر، لم يكن الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، فلا يجد حلاوة الإيمان ولا طعمه، بل إن كان منكراً للعلم القديم، فهو كافر كما تقدم، ولهذا روي عن بعض الأئمة القدرية الكبار بإسناد صحيح أنه قال لما ذكر حديث ابن مسعود -رضي الله عنه- «حدثني الصادق المصدوق» الحديث: لو سمعت الأعمش يقول هذا لكذبته، ولو سمعت زيد بن وهب يقول هذا لأجبته، ولو سمعت عبدالله بن مسعود يقول هذا ما قبلته، ولو سمعت رسول الله ﷺ يقول هذا لرددته، وذكر كلمة بعدها. فهذا كفر صريح نعوذ بالله من موجبات غضبه، وأليم عقابه، وقد بيّن الحديث كيفية الإيمان بالقدر: أن يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وهذا كما قال النبي ﷺ في حديث جابر -رضي الله عنه-: «**لا يؤمن**

---

(١) وهذا تفسير للشيء ببعض معناه، لأن هذا من القدر والقدر أعم من ذلك.

عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره حتى إن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه» رواه الترمذي، والمعنى: أن العبد لا يؤمن حتى يعلم أن ما يصيبه إنما أصابه في القدر، أي: ما قدر عليه من الخير والشر، لم يكن ليخطئه، أي: يجاوزه فلا يصيبه، وإن ما أخطأ من الخير والشر في القدر، أي: لم يقدر عليه، ما لم يكن ليصيبه، كما قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾ (الحديد: ٢٢).

وقال تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ (التوبة: ٥١).



وَفِي رِوَايَةٍ لأَحْمَدٍ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ الله تَعَالَى القَلَمُ، فَقَالَ: اكْتُبْ، فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ».

قوله: «**إن أول ما خلق الله القلم**» قال شيخ الإسلام: قد ذكرنا أن للسلف في العرش والقلم أيهما خلق قبل الآخر قولين، كما ذكر ذلك الحافظ أبو العلاء الهمداني وغيره.

أحدهما: أن القلم خلق أولاً، كما أطلق ذلك غير واحد، وهذا هو الذي يفهم من ظاهر كتب المصنفين في «الأوائل» كلحافظ أبي عروبة الحراني ولد أبي القاسم الطبراني، للحديث الذي رواه أبو داود في «سننه» عن عبادة بن الصامت، وذكر الحديث المشروح.

والثاني: أن العرش خلق أولاً. قال الإمام عثمان بن سعيد الدارمي في تصنيفه في «الرد على الجهمية»: حدثنا محمد بن كثير العبدي، أنبأنا سفيان الثوري، ثنا أبو هاشم، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: «إن الله كان على عرشه قبل أن يخلق شيئاً، فكان أول ما خلق الله القلم، فأمره أن يكتب ما هو كائن، وأن ما يجري على الناس على أمر قد فرغ منه»، وكذلك ذكر الحافظ أبو بكر البيهقي في كتاب «الأسماء والصفات» لما ذكر بدء الخلق، ثم ذكر حديث الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس أنه سئل عن قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ (هود: ٧) على أي شيء؟ قال: على متن الريح. وروى حديث القاسم بن مرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس أنه كان يحدث أن رسول الله ﷺ قال: «أول شيء خلقه الله القلم، وأمره فكتب كل شيء يكون» قال البيهقي: وإنما أراد -والله أعلم- أول شيء خلقه بعد خلق الماء والريح والعرش، وذلك في حديث عمران بن حصين الذي أشار إليه، وهو ما رواه البخاري من غير وجه مرفوعاً عنه: «**كان الله ولم يكن شيء قبله وكان عرشه على الماء، ثم خلق السماوات والأرض، وكتب في الذكر كل شيء**» رواه البيهقي كما رواه محمد بن هارون

الروياني في «مسنده»، وعثمان بن سعيد الدارمي وغيرهما من حديث الثقات المتفق على ثقتهم، عن أبي إسحاق، عن الأعمش، عن جامع بن شداد، عن صفوان بن محرز، عن عمران بن حصين، عن النبي ﷺ قال: «**كان الله ولم يكن شيء غيره وكان عرشه على الماء ثم كتب في الذكر كل شيء، ثم خلق السماوات**»، وذكر أحاديث وآثاراً، ثم قال ما معناه: فثبت في النصوص الصحيحة أن العرش خلق أولاً، وقال ابن كثير: قال قائلون: خلق القلم أولاً، وهذا اختيار ابن جرير وابن الجوزي وغيرهما. قال ابن جرير وبعد القلم السحاب الرقيق، وبعده العرش، واحتجوا بحديث عبادة.

والذي عليه الجمهور أن العرش مخلوق قبل ذلك، كما دل على ذلك الحديث الذي رواه مسلم في «صحيحه» يعني حديث عبدالله بن عمرو بن العاص الذي تقدم. قالوا: وهذا التقدير هو كتابته بالقلم بالمقادير، وقد دل الحديث أن ذلك بعد خلق العرش، فثبت تقديم العرش على القلم الذي كتب به المقادير كما ذهب إلى ذلك الجماهير. ويحمل حديث القلم على أنه أول المخلوقات من هذا العالم. انتهى بمعناه.

قوله: «اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة». قال شيخ الإسلام وكذلك في حديث ابن عباس وغيره، وهذا يبين أنه إنما أمره حينئذٍ أن يكتب مقادير الخلق إلى قيام الساعة، لم يكن حينئذٍ ما يكون بعد ذلك.

قوله: «من مات على غير هذا لم يكن مني»: أي: لأنه إذا كان جاحداً للعلم القديم فهو كافر، كما قال كثير من أئمة السلف: ناظروا القدرية بالعلم فإن أقروا به خُصموا، وإن جحدوا كفروا، يريدون أن من أنكر العلم القديم السابق بأفعال العباد، وأن الله قسمهم قبل خلقهم إلى شقي وسعيد، وكتب ذلك عنده في كتاب حفيظ، فقد كذّب القرآن، فيكفر بذلك، كما نص عليه الشافعي، وأحمد وغيرهما، وإن أقروا بذلك[1] وأنكروا أن الله خلق أفعال العباد، وشاءها وأرادها بينهم إرادة

---

(١) أي العلم القديم.

كونية قدرية، فقد خُصموا؛ لأن ما أقروا به حجة عليهم فيما أنكروه، وفي تكفير هؤلاء نزاع مشهور، وبالجملة فهم أهل بدعة شنيعة، والرسول ﷺ بريء منهم، كما هو بريء من الأولين، وقد بيّض المصنف آخر هذا الحديث ليعزوه، وقد رواه أبو داود وهذا لفظه، ورواه أحمد والترمذي وغيرهما.



وَفِي رِوَايَةٍ لابنِ وَهبٍ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «فَمَن لَمْ يُؤمِن بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ: أَحْرقَهُ الله بِالنَّارِ».

قوله: «**وفي رواية لابن وهب**»: هو الإمام الحافظ عبدالله بن وهب بن مسلم القرشي مولاهم المصري، الفقيه، ثقة إمام مشهور، عابد، وله مصنفات منها: «الجامع» وغيره. مات سنة سبع وتسعين ومئة وله اثنان وسبعون سنة[١].

قوله: «**أحرقه الله بالنار**»: أي: لكفره أو بدعته إن كان ممن يقر بالعلم السابق وينكر خلق أفعال العباد، فإن صاحب البدعة متعرض للوعيد كأصحاب الكبائر، بل أعظم.



---

(١) وهو ممن يروي عن الإمام مالك.

وَفِي «المَسنَدِ» وَ«السُّنَنِ» عَن ابنِ الدَّيلَمِي قَالَ: «أَتَيْتُ أُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ، فَقُلْتُ: فِي نَفْسِي شَيْءٌ مِنَ القَدَرِ، فَحَدِّثْنِي بِشَيْءٍ لَعَلَّ اللهَ أَنْ يُذْهِبَهُ مِنْ قَلْبِي». فَقَالَ: «لَوْ أَنْفَقْتَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا قَبِلَهُ اللهُ مِنْكَ[1] حَتَّى تُؤْمِنَ بِالقَدَرِ، وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَلَوْ مُتَّ عَلَى غَيْرِ هَذَا، لَكُنتَ مِن أَهلِ النَّارَ». قَالَ: فَأَتَيْتُ عَبْدَاللهِ ابْنَ مَسْعُودٍ وَحُذَيْفَةَ بْنَ اليَمَانِ وَزَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ؛ كُلُّهُم حَدَّثَنِي بِمِثْلِ ذَلِكَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ. حَدِيثٌ صَحِيحٌ، رَوَاهُ الحَاكِمُ فِي «مُسْتَدْرَكِهِ».

قوله: «وفي المسند»: أي: مسند الإمام أحمد، و«السنن»: أي «سنن أبي داود» و«ابن ماجه» فقط، بمعنى ما ذكر المصنف، وفيه زيادة اختصرها المصنف، ولفظ ابن ماجه: حدثنا علي بن محمد، حدثنا إسحاق بن سليمان قال: سمعت أبا سنان، عن وهب بن خالد الحمصي، عن ابن الديلمي قال: وقع في نفسي شيء من هذا القدر وخشيت أن يُفسد علي ديني وأمري فأتيت أبي بن كعب فقلت: يا أبا المنذر إنه قد وقع في قلبي شيء من هذا القدر فخشيت علي ديني وأمري، فحدثني من ذلك بشيء لعل الله أن ينفعني فقال: لو أن الله عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم، ولو كان لك مثل أحد ذهباً أو مثل جبل أحد تنفقه في سبيل الله ما قُبل منك حتى تؤمن بالقدر فتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، وإنك

---

(١) وهذا حكم يكفر من لم يؤمن بالقدر من النبي ﷺ فيما رواه أُبيّ وابن مسعود وحذيفة لأن الكافر هو الذي لا تقبل أعماله كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ فمنكر القدر كافر لا تقبل أعماله لأنه منكر لأصل من أصول الإيمان قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾.

إن مت على غير هذا دخلت النار، ولا عليك أن تأتي يا أخي عبدالله بن مسعود فتسأل، فأتيت عبدالله فسألته، فذكر مثل ما قال أُبيّ، وقال لي: لا عليك أن تأتي حذيفة فأتيت حذيفة فسألته، فقال مثل ما قال: ائت زيد بن ثابت فاسأله، فأتيت زيد بن ثابت فسألته فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لو أن الله عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم، ولو كان مثل أحد أو مثل جبل أحد ذهباً تنفقه في سبيل الله ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر كله فتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، وأنك إن متّ على غير هذا دخلت النار**» هذا حديث ابن ماجه، ولفظ أبي داود كما ذكره المصنف إلا أنه قال: ثم أتيت عبدالله بن مسعود فقال مثل ذلك، ثم أتيت حذيفة فقال مثل ذلك، ثم أتيت زيد بن ثابت فحدثني عن النبي ﷺ بمثل ذلك.

قوله: «عن ابن الديلمي»: هو عبدالله بن فيروز الديلمي، وفيروز قاتل الأسود العنسي الكذاب، وعبدالله هذا ثقة من كبار التابعين، بل ذكره بعضهم في الصحابة، والديلمي نسبة إلى الديْلم، وهو من أبناء الفرس الذين بعثهم كسرى إلى اليمن.

قوله: «وقع في نفسي شيء من القدر»: أي شك واضطراب يؤدي إلى شك فيه، أو جحد له.

قوله: «لو أنفقت مثل أحد ذهباً ما قبله الله منك»: هذا تمثيل على سبيل الفرض لا تحديد، إذ لو فُرض إنفاق ملء السماوات والأرض كان ذلك[1].

قوله: «حتى تؤمن بالقدر»: أي: بأن جميع الأمور الكائنة خيرها وشرها،

---

(١) لأنه كافر، والكافر لا تقبل نفقاته ولا أعماله قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾، وقال: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾.

وحلوها ومرها، ونفعها وضرها، وقليلها وكثيرها، وكبيرها وصغيرها بقضائه وقدره وإرادته ومشيئته وأمره، كما ذكر عن علي -رضي الله عنه-.



باب
ما جاء في المصورين(١)

عَن أَبِي هُرَيرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: قَالَ اللهُ تَعَالَى: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي، فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً، أَو لْيَخْلُقُوا حَبَّةً، أَو لِيَخلُقُوا شَعِيرةً». [أَخرَجَاهُ].

[وَلَـهُمَا] عَن عَائِشَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْها- أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ القِيَامَةِ الَّذِينَ يُضَاهُئونَ بِخَلْقِ الله».

[وَلَـهُمَا] عَن ابنِ عَبَّاسٍ: سَمِعتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «كُلُّ مُصَوِّرٍ في النَّارِ، يُجْعَلُ لَهُ بِكُلِّ صُورَةٍ صَوَّرَهَا نَفسٌ يُعَذَّبُ بِهَا في جَهَنَّمَ».

[وَلَـهُمَا] عَنهُ مَرفُوعَاً: «مَنْ صَوَّرَ صُورَةً في الدُّنْيَا؛ كُلِّفَ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ، وَلَيْسَ بِنَافِخٍ».

---

(١) تصوير ذوات الأرواح من الآدميين والحيوانات والطيور والحشرات إن كان التصوير له ظل كالصورة المجسمة فهي حرام بالإجماع، وإن كان التصوير لا ظل له كالصور في القماش والقرطاس وعلى الجدران فهي حرام عند جمهور العلماء ومنهم الأئمة الأربعة وخالف في ذلك بعض التابعين فقالوا بجوازها وهم محجوجون بالنصوص كحديث السِّتْر الذي وضعته عائشة على الباب فلم يدخل جبريل حتى جعل قطعتان، ومحو النبي ﷺ للصور التي على جدران الكعبة بالماء يوم فتح مكة، وحديث أبي الهيّاج الأسدي عن علي: لا تدع صورة إلا طمستها، أما إباحة بعض المعاصرين للصور الشمسية (الفوتوغرافية) وقولهم: إنها عكس وأنها حبسٌ لا ظل فهذا مكابرة للواقع، وأما تصوير الشجر وما لا روح فيه فالصواب جوازه وإن كان فيه خلاف ضعيف كما قال ابن عباس فإن كنت لا بد فاعلاً فصوِّر الشجر وما لا روح فيه ويدل على إباحته قوله في الحديث: «كُلِّف أن ينفخ فيها الروح» والشجر ونحوه لا روح فيه.

الشَّرْحُ:

قوله: «ما جاء في المصورين». أي: من عظيم عقوبة الله لهم وعذابه. وقد ذكر النبي ﷺ العلة، وهي المضاهاة بخلق الله؛ لأن الله تعالى له الخلق والأمر فهو رب كل شيء ومليكه، وهو خالق كل شيء، وهو الذي صوَّر جميع المخلوقات، وجعل فيها الأرواح التي تحصل بها الحياة، كما قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾ (السجدة: ٧-٩).

فالمصور لما صور الصورة على شكل ما خلقه الله تعالى من إنسان وبهيمة صار مضاهياً لخلق الله، فصار ما صوَّر عذاباً له يوم القيامة، وكُلِّف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ، فكان أشد الناس عذاباً؛ لأن ذنبه من أكبر الذنوب.

فإذا كان هذا فيمن صوَّر صورة على مثال ما خلقه الله تعالى من الحيوان، فكيف بحال من سوَّى المخلوق برب العالمين، وشبَّهه بخلقه، وصرف له شيئاً من العبادة التي ما خلق الله الخلق إلا ليعبدوه وحده بها لا يستحقه غيره من كل عمل يحبه الله من العبد ويرضاه؟! فتسوية المخلوق بالخالق بصرف حقه لمن لا يستحقه من خلقه، وجعله شريكاً له فيما اختص به تعالى وتقدس، هو أعظم ذنب عُصيَ الله تعالى به. ولهذا أرسل رسله، وأنزل كتبه، لبيان هذا الشرك والنهي عنه، وإخلاص العبادة بجميع أنواعها لله تعالى. فنجَّى الله تعالى رسله ومن أطاعهم، وأهلك من جحد التوحيد، واستمر على الشرك والتنديد، فما أعظمه من ذنب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ﴾ (النساء: ٤٨)، ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ (الحج: ٣١).



[وَلِمُسلِمٍ] عَن أَبِي الهَيَّاجِ قَالَ: قَالَ لِـي عَلِيٌّ: «أَلاَّ أَبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ الله ﷺ؟ أَنْ لاَ تَدَعَ صُورَةً؛ إِلاَّ طَمَسْتَها، وَلاَ قَبْرًا مُشْرِفًا؛ إِلاَّ سَوَّيْتَهُ».

قوله: **«ولمسلم عن أبي الهياج الأسدي -حيّان بن حصين- قال لي علي -رضي الله عنه- ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ؟ أن لا تدع صورة إلا طمستها، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته»**.

فيه تصريح بأن النبي ﷺ بعث علياً لذلك، أما الصور فلمضاهاتها لخلق الله، وأما تسوية القبور فلما في تعْليتها من الفتنة بأربابها وتعظيمها، وهو من ذرائع الشرك ووسائله؛ فصرف الهمم إلى هذا وأمثاله من مصالح الدين ومقاصده وواجباته، ولما وقع في التساهل في هذه الأمور وقع المحذور، وعظمت الفتنة بأرباب القبور، وصارت محطّاً لرحال العابدين المعظمين لها، فصرفوا لها جل العبادة من الدعاء والاستعانة والاستغاثة، والتضرع لها، والذبح لها، والنذور، وغير ذلك من كل شرك محظور.

قال العلامة ابن القيم -رحمه الله-[1]: ومن جمع بين سنة رسول الله ﷺ في القبور وما أمر به، ونهى عنه، وما كان عليه أصحابه، وبين ما عليه أكثر الناس اليوم رأى أحدهما مضاداً للآخر، مناقضاً له بحيث لا يجتمعان أبداً، فنهى رسول الله ﷺ عن الصلاة إلى القبور، وهؤلاء يصلون عندها وإليها، ونهى عن اتخاذها مساجد، وهؤلاء يبنون عليها المساجد، ويسمونها مشاهد مضاهاة لبيوت الله، ونهى عن إيقاد السرج عليها، وهؤلاء يوقفون الوقوف على إيقاد القناديل عليها، ونهى عن أن تتخذ عيداً، وهؤلاء يتخذونها أعياداً ومناسك، ويجتمعون لها كاجتماعهم للعيد أو أكثر، وأمر بتسويتها كما روى مسلم في «صحيحه» عن أبي الهياج الأسدي -فذكر حديث الباب- وحديث ثُمامة بن شُفي وهو عند «مسلم»

---

(١) في «إغاثة اللهفان».

أيضاً قال: «كنا مع فضالة بن عبيد بأرض الروم برودس، فتوفي صاحب لنا، فأمر فضالة بقبره فسُوّي، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يأمر بتسويتها» وهؤلاء يبالغون في مخالفة هذين الحديثين، يرفعونها عن الأرض كالبيت، ويعقدون عليها القباب، ونهى عن تجصيص القبر والبناء عليه، كما روى مسلم في «صحيحه» عن جابر -رضي الله عنه- قال: «نهى رسول الله ﷺ عن تجصيص القبر، وأن يُقعد عليه، وأن يُبنى عليه» ونهى عن الكتابة عليها، كما روى أبو داود في «سننه» عن جابر «أن رسول الله ﷺ نهى عن تجصيص القبور وأن يكتب عليها» قال الترمذي: حديث حسن صحيح وهؤلاء يتخذون عليها الألواح، ويكتبون عليها القرآن وغيره، ونهى أن يزاد عليها غير ترابها، كما روى أبو داود عن جابر أيضاً أن رسول الله ﷺ: «نهى أن يجصص القبر، أو يكتب عليه، أو يزاد عليه» وهؤلاء يزيدون عليه الآجر والجص والأحجار. قال إبراهيم النخعي: كانوا يكرهون الآجر على قبورهم[1].

والمقصود أن هؤلاء المعظِّمين للقبور، المتخذيها أعياداً، الموقدين عليها السُرج، الذين يبنون عليها المساجد والقباب مناقضون لما أمر به رسول الله ﷺ، محادّون لما جاء به، وأعظم من ذلك اتخاذها مساجد، وإيقاد السرج عليها وهو من الكبائر، وقد صرح الفقهاء من أصحاب أحمد وغيرهم بتحريمه.

قال أبو محمد المقدسي: ولو أبيح اتخاذ السرج عليها لم يلعن من فعله، ولأن فيه تضييعاً للمال في غير فائدة، وإفراطاً في تعظيم القبور أشبه تعظيم الأصنام. قال: ولا يجوز اتخاذ المساجد على القبور لهذا الخبر، ولأن النبي ﷺ قال: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد -يحذر ما صنعوا-» متفق عليه، ولأن تخصيص القبور بالصلاة عندها يشبه تعظيم الأصنام بالسجود لها والتقرب إليها، وقد روينا أن ابتداء عبادة الأصنام تعظيم الأموات باتخاذ صورهم، والتمسح بها

(١) لأنه أحرق بالنار فكره أن يوضع شيء مسته النار كراهة تنزيهية.

والصلاة عندها. انتهى.

وقد آل الأمر بهؤلاء الضُلاَّل المشركين إلى أن شرعوا للقبور حجاً، ووضعوا لها مناسك، حتى صنّف بعض غلاتهم[١] في ذلك كتاب سماه: «مناسك حج المشاهد» مضاهاة منه القبور بالبيت الحرام، ولا يخفى أن هذا مفارقة لدين الإسلام، ودخول في دين عُبّاد الأصنام، فانظر إلى هذا التباين العظيم بين ما شرعه رسول الله ﷺ وقصده من النهي عما تقدم ذكره في القبور، وبين ما شرعه هؤلاء وقصدوه، ولا ريب أن في ذلك من المفاسد ما يعجز عن حصره.

فمنها: تعظيم الموقع في الافتتان بها، ومنها: اتخاذها أعياداً، ومنها السفر إليها.

ومنها: مشابهة عُبّاد الأصنام بما يفعل عندها من العكوف عليها والمجاورة عندها، وتعليق الستور عليها، وعبادها يرجّحون المجاورة عندها على المجاورة عند المسجد الحرام، ويرون سدانتها أفضل من خدمة المساجد، والويل عندهم لقيِّمها ليلة يطفئ القنديل المعلّق عليها، ومنها: النذر لها ولسدنتها.

ومنها: اعتقاد المشركين فيها أن بها يكشف البلاء، وينصر على الأعداء، ويستنزل غيث السماء، وتُفرَّج الكروب، وتُقضى الحوائج، وينصر المظلوم، ويُجار الخائف إلى غير ذلك.

ومنها: الدخول في لعنة الله ورسوله باتخاذ المساجد عليها، وإيقاد السرج عليها.

ومنها: الشرك الأكبر الذي يفعل عندها.

ومنها: إيذاء أصحابها بما يفعله المشركون بقبورهم، فإنهم يؤذيهم ما يفعل عند قبورهم، ويكرهونه غاية الكراهية كما أن المسيح -عليه السلام- يكره ما يفعله النصارى عند قبره[٢]، وكذلك غيره من الأنبياء والمشايخ يؤذيهم ما يفعله أشباه النصارى عند قبورهم، ويوم القيامة يتبرؤون منهم كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ

(١) وهو ابن معبد من الشيعة.

(٢) أي الذي زعموه.

يَحۡشُرُهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ أَمۡ هُمۡ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعۡتَهُمۡ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكۡرَ وَكَانُواْ قَوۡمَۢا بُورٗا ﴿١٨﴾﴾ (الفرقان: ١٧-١٨)، قال الله تعالى للمشركين: ﴿فَقَدۡ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ﴾ (المائدة: ١١٦) الآية، وقال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ (سبأ: ٤٠-٤١).

ومنها: إماتة السنن وإحياء البدع.

ومنها: تفضيلها على خير البقاع وأحبها إلى الله، فإن عباد القبور يقصدونها مع التعظيم والاحترام، والخشوع ورقة القلب، والعكوف بالهمة على الموتى بما لا يفعلونه في المساجد ولا يحصل لهم فيها نظيره ولا قريباً منه.

ومنها: أن الذي شرعه الرسول ﷺ عند زيارة القبور إنما هو تذكّر الآخرة، والإحسان إلى المزور بالدعاء له والترحم عليه، والاستغفار له، وسؤال العافية له؛ فيكون الزائر محسناً إلى نفسه وإلى الميت، فقلب هؤلاء المشركون الأمر، وعكسوا الدين وجعلوا المقصود بالزيارة الشرك بالميت ودعاءه والدعاء به، وسؤاله حوائجهم، واستنزال البركة منه، ونصره لهم على الأعداء، ونحو ذلك، فصاروا مسيئين إلى أنفسهم وإلى الميت.

وكان رسول الله ﷺ قد نهى الرجال عن زيارة القبور سداً للذريعة فلما تمكن التوحيد في قلوبهم أذن لهم في زيارتها على الوجه الذي شرعه، ونهاهم أن يقولوا هجراً، ومن أعظم الهجر الشرك عندها قولاً وفعلا.

وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ:

«**زوروا القبور؛ فإنها تذكركم الموت**»، وعن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال «مرّ رسول الله ﷺ بقبور المدينة، فأقبل عليهم بوجهه، فقال: السلام عليكم يا أهل القبور، يغفر الله لنا ولكم، أنتم سلفنا ونحن بالأثر» رواه أحمد والترمذي وحسنه.

فهذه الزيارة التي شرعها رسول الله ﷺ لأمته، وعلمهم إياها هل تجد فيها شيئاً مما يعتمده أهل الشرك والبدع؟ أم تجدها مضادة لما هم عليه من كل وجه؟ وما أحسن ما قال مالك ابن أنس -رحمه الله-: لن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها[١] ولكن كلما ضعف تمسك الأمم بعهود أنبيائهم، ونقص إيمانهم أعرضوا عن ذلك بما أحدثوه من البدع والشرك.

ولقد جرّد السلف الصالح التوحيد وحموا جانبه، حتى كان أحدهم إذا سلم على النبي ﷺ ثم أراد الدعاء استقبل القبلة، وجعل ظهره إلى جدار القبر، ثم دعا،ونص على ذلك الأئمة الأربعة: أنه يستقبل القبلة وقت الدعاء، حتى لا يدعو عند القبر، فإن الدعاء عبادة، وفي الترمذي وغيره: «الدعاء هو العبادة» فجرّد السلف العبادة لله، فلم يفعلوا عند القبور منها إلا ما أذن فيه رسول الله ﷺ من الدعاء لأصحابها والاستغفار لهم والترحم عليهم، وأخرج أبو داود عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، ولا تجعلوا قبري عيداً، وصلُّوا عليّ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم» وإسناده جيد، ورواته ثقات مشاهير.

وقوله: «ولا تجعلوا بيوتكم قبوراً»: أي: لا تعطِّلوها عن الصلاة فيها والدعاء والقراءة، فتكون بمنزلة القبور، فأمر بتحري العبادة في البيوت ونهى عن تحري النافلة عند القبور، وهذا ضد ما عليه المشركون من النصارى وأشباههم.

ثم إن في تعظيم القبور، واتخاذها أعياداً من المفاسد العظيمة التي لا يعلمها إلا

---

(١) تُروى هذه الجملة لن يُصلح آخر هذه الأمة لا ما أصلح أولها، وتُروى: لن يَصْلُح آخر هذه الأمة إلا بما صَلَح به أولها.

الله ما يغضب لأجله كل من في قلبه وقار لله وغيرة على التوحيد، وتهجين وتقبيح للشرك، ولكن ما لجرح بميت إيلام.

فمن المفاسد[١]: اتخاذها أعياداً والصلاة إليها، والطواف بها، وتقبيلها واستلامها، وتعفير الخدود على ترابها، وعبادة أصحابها، والاستغاثة بهم، وسؤالهم النصر والرزق والعافية وقضاء الدَّيْن، وتفريج الكربات وإغاثة اللهفات، وغير ذلك من أنواع الطلبات، التي كان عُبّاد الأوثان يسألونها أوثانهم، فلو رأيت غلاة المتخذين لها عيداً، وقد نزلوا عن الأكوار والدواب إذا رأوها من مكان بعيد فوضعوا لها الجباه، وقبَّلوا الأرض ، وكشفوا الرؤوس، وارتفعت أصواتهم بالضجيج، وتباكوا حتى تسمع لهم النشيج، ورأوا أنهم قد أربوا في الربح على الحجيج فاستغاثوا بمن لا يبدئ ولا يعيد، ونادوا ولكن من مكان بعيد، حتى إذا دنوا منها صلوا عند القبر ركعتين ورأوا أنهم قد أحرزوا من الأجر ما لم يحرزه من صلى إلى القبلتين، فتراهم حول القبر ركعاً سجداً، يبتغون فضلاً من الميت ورضواناً، وقد ملؤوا أكفهم خيبة وخسراناً.

فلغير الله -بل للشيطان- ما يراق هناك من العبرات، ويرتفع من الأصوات ويطلب من الميت من الحاجات، ويسأل من تفريج الكربات، وإغاثة اللهفات، وإغناء ذوي الفاقات، ومعافاة ذوي العاهات والبليات، ثم انثنوا بعد ذلك على القبر طائفين، تشبيهاً له بالبيت الحرام الذي جعله الله مباركاً وهدى للعالمين، ثم أخذوا في التقبيل والاستلام.

أرأيت الحجر الأسود وما يفعل به وفد البيت الحرام؟ ثم عفَّروا لديه تلك الجباه والخدود التي يعلم الله أنها لم تُعفَّر كذلك بين يديه في السجود، ثم كملوا مناسك حج القبر بالتقصير هناك والحلق، واستمتعوا بخلاقهم من ذلك الوثن إذ

(١) من كلام ابن القيم في «إغاثة اللهفان».

لم يكن لهم عند الله من خلاق، وقد قرَّبوا لذلك الوثن القرابين، وكانت صلاتهم ونسكهم وقربانهم لغير الله رب العالمين، فلو رأيتهم يهنئ بعضهم بعضاً ويقول: أجزل الله لنا ولكم أجراً وافراً وحظاً، فإذا رجعوا سألهم غلاة المتخلفين أن يبيع أحدهم ثواب حجة القبر بحجة المتخلف إلى البيت الحرام. فيقول: لا ولا بحجك كل عام.

هذا، ولم نتجاوز فيما حكيناه عنهم، ولا استقصينا جميع بدعهم وضلالهم إذ هي فوق ما يخطر بالبال، ويدور في الخيال، وهذا مبدأ عبادة الأصنام في قوم نوح كما تقدم، وكل من شم أدنى رائحة من العلم والفقه يعلم أن من أهم الأمور سد الذريعة إلى هذا المحظور، وأن صاحب الشرع أعلم بعاقبة ما نهي عنه ما يؤول إليه، وأحكم في نهيه عنه وتوعده عليه، وأن الخير والهدى في اتباعه وطاعته، والشر والضلال في معصيته ومخالفته. انتهى كلامه.



فيه مسائل:

الأولى: التغليظ الشديد في المصورين.

الثانية: التنبيه على العلة، وهو ترك الأدب مع الله، لقوله: «ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي»[(١)].

الثالثة: التنبيه على قدرته، وعجزهم لقوله: «فليخلقوا ذرة أو حبة أو شعيرة».

الرابعة: التصريح بأنهم أشد الناس عذاباً.

الخامسة: أن الله يخلق بعدد كل صورة نفساً يعذب بها المصور في جهنم.

السادسة: أنه يُكلَّف أن ينفخ فيها الروح.

السابعة: الأمر بطمسها إذا وجدت.



(١) وكونها وسيلة إلى الشرك.

باب
ما جاء في كثرة الحلف

وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ﴾ (المائدة: ٨٩).

الشَّرْحُ:

قوله: «باب ما جاء في كثرة الحلف»: أي: من النهي عنه والوعيد، وقول الله تعالى: ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ﴾ (المائدة: ٨٩).

قال ابن جرير: لا تتركوها بغير تكفير، وذكر غيره من المفسرين عن ابن عباس: «يريد لا تحلفوا»[١]، وقال آخرون: احفظوا أيمانكم[٢] عن الحنث فلا تحنثوا.

والمصنف أراد من الآية المعنى الذي ذكره ابن عباس؛ فإن القولين متلازمان، فيلزم من كثرة الحلف كثرة الحنث مع ما يدل عليه من الاستخفاف وعدم التعظيم لله، وغير ذلك مما ينافي كمال التوحيد الواجب أو عدمه.



(١) يعني لا تكثروا الحلف.

(٢) أقوال ثلاثة؛ قال الشاعر:

قليل الألا يا حافظ ليمينه ... إذا صدرت منه الألبة برت

عَن أَبِي هُرَيرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: سَمِعتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «الحَلِفُ مَنْفَقَةٌ لِلسِّلْعَةِ، مَمْحَقَةٌ لِلْكَسْبِ». [أَخرَجَاهُ].

قوله: «عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: الحلف منفقة للسلعة، ممحقة للكسب [أخرجاه]». أي: البخاري ومسلم، وأخرجه أبو داود والنسائي.

والمعنى أنه إذا حلف على سلعة أنه أعطي فيها كذا وكذا، أو أنه اشتراها بكذا وكذا، وقد يظنه المشتري صادقاً فيما حلف عليه، فيأخذها بزيادة على قيمتها، والبائع كذاب، وحلف طمعاً في الزيادة، فيكون قد عصى الله تعالى، فيعاقب بمحق البركة، فإذا ذهبت بركة كسبه دخل عليه من النقص أعظم من تلك الزيادة التي دخلت عليه بسبب حلفه، وربما ذهب ثمن تلك السلعة رأساً، وما عند الله لا ينال إلا بطاعته، وإن تزخرفت الدنيا للعاصي فعاقبتها اضمحلال وذهاب وعقاب.



وَعَن سَلمَانَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «ثَلاَثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ الله وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: أُشَيْمِط زانٍ، وَعَائِلٌ مُستكبِرٌ، وَرَجُلٌ جَعَلَ الله بِضَاعَتَهُ، لاَ يَشتَرِي إلاَّ بِيَمِينِهِ، وَلاَ يَبِيعُ إلاَّ بِيَمِينِهِ» [رَوَاهُ الطَّبَرَانِي بِسَنَدٍ صَحِيحٍ].

قوله: «وعن سلمان -رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: ثلاثة لا يكلمهم الله ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: أشيمط زان، وعائل مستكبر، ورجل جعل الله بضاعته لا يشتري إلا بيمينه، ولا يبيع إلا بيمينه» [رواه الطبراني بسند صحيح]».

وسلمان: لعله سلمان الفارسي، أبو عبدالله، أسلم مقدم النبي ﷺ المدينة وشهد الخندق، روى عنه أبو عثمان النهدي، وشُرَحبيل[1] بن السِّمط وغيرهما قال النبي ﷺ: «سلمان منا أهل البيت، إن الله يحب من أصحابي أربعة: علياً، وأبا ذر وسلمان[2]، والمقداد».أخرجه الترمذي وابن ماجه. قال الحسن: كان سلمان أميراً على ثلاثين ألفاً يخطب بهم في عباءة يفترش نصفها ويلبس نصفها، توفي في خلافة عثمان -رضي الله عنه- سنة ست وثلاثين عن ثلاثمئة وخمسين سنة ويحتمل أنه سلمان بن عامر بن أوس الضَّبِّي.

قوله: «ثلاثة لا يكلمهم الله»: نفي كلام الرب تعالى[3] وتقدس عن هؤلاء العصاة دليل على أنه يكلم من أطاعه، وأن الكلام صفة من صفات كماله، والأدلة على ذلك من الكتاب والسنة أظهر شيء وأبينه، وهذا هو الذي عليه أهل السنة والجماعة من المحققين قيام الأفعال بالله سبحانه، وأن الفعل يقع بمشيئته تعالى

---

(١) شُرَحبيل بضم السين، بن السِّمط بكسر السين المهملة المشددة.

(٢) الحديث في متنه نكارة وذلك أنا أبا بكر وعمر أفضل من هؤلاء الأربعة، وأحب إلى الله منهم، وسنده ضعيف، قال الترمذي: «لانعرفه إلا من حديث شريك» وهو كما قال الحافظ في التقريب: «صدوق يخطيء كثيرا تغير حفظه منذ أن ولي القضاء».

(٣) والمراد نفي كلام الرضا وإنما يكلمهم كلام سخط.

وقدرته شيئاً فشيئاً ولم يزل متصفاً به، فهو حادث الآحاد قديم النوع، كما يقول ذلك أئمة أصحاب الحديث وغيرهم من أصحاب الشافعي وأحمد وسائر الطوائف كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ (يس: ٨٢) فأتى بالحروف الدالة على الحال والاستقبال أيضاً، وذلك في القرآن كثير[١].

قال شيخ الإسلام -رحمه الله-: فإذا قالوا لنا -يعني النفاة-: فهذا يلزمه أن تكون الحوادث قائمة به؟ قلنا: ومن أنكر هذا قبلكم من السلف والأئمة؟، ونصوص القرآن والسنة تتضمن ذلك مع صريح العقل، ولفظ الحوادث مجمل، فقد يراد به الأعراض والنقائص، والله تعالى مُنزَّه عن ذلك ولكن يقوم به ما يشاء من كلامه وأفعاله ونحو ذلك، مما دل عليه الكتاب والسنة، والقول الصحيح: هو قول أهل العلم والحديث الذين يقولون: لم يزل الله متكلماً إذا شاء، كما قال ابن المبارك وأحمد بن حنبل وغيرهما من أئمة السنة. أ.هـ.

قلت: ومعنى قيام الحوادث به: قدرته عليها، وإيجاده لها بمشيئته وأمره. والله أعلم.

قوله: «ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم». لما عظم ذنبهم عظمت عقوبتهم، فعوقبوا بهذه الثلاث التي هي أعظم العقوبات.

قوله: «أشيمط زان». صغره تحقيراً له وذلك لأن داعي المعصية ضعف في حقه، فدل على أن الحامل له على الزنا: محبة المعصية والفجور، وعدم خوفه من الله. وضعف الداعي إلى المعصية مع فعلها يوجب تغليظ العقوبة عليه، بخلاف الشاب، فإن قوة داعي الشهوة منه قد تغلبه مع خوفه من الله، وقد يرجع على نفسه بالندم، ولومها على المعصية فينتهي ويرجع.

---

(١) ومثله قوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾.

وكذلك العائل المستكبر ليس له ما يدعوه إلى الكبر، لأن الداعي إلى الكبر في الغالب كثرة المال والنعم والرياسة و«العائل» الفقير لا داعي له إلى أن يستكبر، فاستكباره مع عدم الداعي إليه يدل على أن الكبر طبيعة له، كامن في قلبه، فعظمت عقوبته لعدم الداعي إلى هذا الخلق الذميم الذي هو من أكبر المعاصي.

قوله: «ورجل جعل الله بضاعته». بنصب الاسم الشريف، أي الحلف به جعله بضاعته لملازمته له وغلبته عليه. وهذه أعمال تدل على أن صاحبها إن كان موحداً فتوحيده ضعيف وأعماله ضعيفة. بحسب ما قام بقلبه وظهر على لسانه وعمله من تلك المعاصي العظيمة على قلة الداعي إليها. نسأل الله السلامة والعافية، ونعوذ بالله من كل عمل لا يحبه ربنا ولا يرضاه.



وَفِي «الصَّحِيحِ» عَن عِمرَانَ بنِ حُصَينٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، قَالَ عِمْرَانُ: فَلاَ أَدْرِي أَذَكَرَ بَعْدَ قَرْنِهِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاَثًا[1]؟ ثُمَّ إِنَّ بَعْدَكُمْ قَوْمًا يَشْهَدُونَ وَلاَ يُسْتَشْهَدُونَ، وَيَخُونُونَ وَلاَ يُؤْتَمَنُونَ، وَيَنْذُرُونَ[2] وَلاَ يُوفُونَ، وَيَظْهَرُ فِيهِمُ السِّمَنُ».

قوله: «وفي الصحيح». أي: صحيح مسلم، وأخرجه أبو داود والترمذي، ورواه البخاري بلفظ: «خيركم».

قوله: «خير أمتي قرني». لفضيلة أهل ذلك القرن في العلم والإيمان والأعمال الصالحة التي يتنافس فيها المتنافسون، ويتفاضل فيها العاملون، فغلب الخير فيها وكثر أهله، وقلَّ الشر فيها وأهله واعتزَّ فيها الإسلام والإيمان، وكثر فيها العلم والعلماء **«ثم الذين يلونهم»** فضلوا على من بعدهم لظهور الإسلام فيهم وكثرة الداعي إليه والراغب فيه والقائم به. وما ظهر فيه من البدع أنكر واستعظم وأزيل، كبدعة الخوارج والقدرية والرافضة، فهذه البدع وإن كانت قد ظهرت فأهلها في غاية الذل والمقت والهوان والقتل فيمن عاند منهم ولم يتب.

قوله: «فلا أدري أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثاً». هذا شك من راوي الحديث عمران بن حصين -رضي الله عنه-. والمشهور في الروايات أن القرون المفضلة ثلاثة، الثالث دون الأولين في الفضل، لكثرة البدع فيه، لكن العلماء متوافرون والإسلام فيه ظاهر والجهاد فيه قائم، ثم ذكر ما وقع بعد القرون الثلاثة من الجفاء

---

(١) المحفوظ في الأحاديث بعد قرنه مرتين فقط.

(٢) ينذِر وينذُر: بكسر الذال وضمها من باب ضرب وباب نصر كما في «القاموس».

في الدين، وكثرة الأهواء. فقال: «**ثم إن بعدكم قوماً يشهدون ولا يُستشهدون**[(١)]»: لاستخفافهم بأمر الشهادة، وعدم تحريهم للصدق، وذلك لقلة دينهم، وضعف إسلامهم وعدم إيمانهم.

قوله: «**يخونون ولا يؤتمنون**». يدل على أن الخيانة قد غلبت على كثير منهم أو أكثرهم.

قوله: «**وينذرون ولا يوفون**». أي: لا يؤدون ما وجب عليهم، فظهور هذه الأعمال الذميمة يدل على ضعف إسلامهم وعدم إيمانهم.

قوله: «**ويظهر فيهم السمن**[(٢)]». لرغبتهم في الدنيا، ونيل شهواتهم والتنعم بها، وغفلتهم عن الدار الآخرة والعمل لها، وفي حديث أنس: «**لا يأتي على الناس زمان إلا والذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم**» قال أنس: سمعته من نبيكم فما زال الشر يزيد في الأمة حتى ظهر الشرك والبدع في كثير منهم حتى فيمن ينتسب إلى العلم ويتصدر للتعليم والتصنيف.

قلت: بل قد دعوا إلى الشرك والضلال والبدع، وصنَّفوا في ذلك نظماً ونثراً فنعوذ بالله من موجبات غضبه.



---

(١) يُستثنى من ذلك إذا كان عنده شهادة ولم يعلم بها صاحبها وخشي ضياع الحق فإنه يخبره بأن عنده شهادة أو يأتى إليه لئلا يكلفه بالإتيان إليه بذاته أو سيارة لحديث: «خير أمتي الذي يأتي بالشهادة قبل أن يسألها».

(٢) هذا هو الأغلب على الناس في الأزمنة التي بعد القرون المفضلة، وقد يكون السمن خلقة عند بعض الناس وإن كان فيه خير ورغبة في الآخرة وعمل لها.

[وَفِيهِ] عَن ابنِ مَسعُودٍ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ[١]، ثُمَّ يَجِيءُ قَومٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ».

قوله: «وفيه عن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- أن النبي ﷺ قال: خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونـهم[٢] ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته».

قلت: وهذه حال من صرف رغبته إلى الدنيا، ونسي المعاد فخفّ أمر الشهادة واليمين عنده تحمّلاً وأداء؛ لقلة خوفه من الله وعدم مبالاته بذلك وهذا هو الغالب على الأكثر، والله المستعان، فإذا كان هذا قد وقع في صدر الإسلام الأول فما بعده أكبر بأضعاف، فكن من الناس على حذر.



---

(١) ليس بعد قرنه إلا قرنين وفيه أنه بعد القرون الثلاثة المفضلة يحصل التغير والجفاء وقلة المبالاة بالدين.

(٢) ليس بعد قرنه إلا قرنين.

وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: «كَانُوا يَضْرِبُونَنَا عَلَى الشَّهَادَةِ وَالعَهْدِ وَنَحنُ صِغَارٌ».

قوله: «قال إبراهيم -هو[1] النخعي- كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد ونحن صغار»: وذلك لكثرة علم التابعين وقوة إيمانهم ومعرفتهم بربهم، وقيامهم بوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأنه من أفضل الجهاد، ولا يقوم الدين إلا به، وفي هذا الرغبة في تمرين الصغار على طاعة ربهم، ونهيهم عما يضرهم، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.



---

(١) هو ابن يزيد.

وفيه مسائل:

الأولى: الوصية بحفظ الأيمان.

الثانية: الإخبار بأن الحلِف منفقة للسلعة، ممحقة للبركة.

الثالثة: الوعيد الشديد فيمن لا يبيع ولا يشتري إلا بيمينه.

الرابعة: التنبيه على أن الذنب يعظم مع قلة الداعي.

الخامسة: ذم الذين يحلفون ولا يستحلفون.

السادسة: ثناؤه ﷺ على القرون الثلاثة أو الأربعة، وذكر ما يحدث.

السابعة: ذم الذين يشهدون ولا يستشهدون.

الثامنة: كون السلف يضربون الصغار على الشهادة والعهد.



باب
ما جاء في ذمة الله[1] وذمة نبيه

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ (النحل: ٩١).

الشَّرْحُ:

قوله: «باب ما جاء في ذمة الله وذمة رسوله».

وقول الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾[2] الآية.

قال العماد ابن كثير: وهذا مما يأمر به الله تعالى به، وهو الوفاء بالعهود والمواثيق، والمحافظة على الأيمان المؤكدة، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ ولا تعارض بين هذا وقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ﴾ وبين قوله: ﴿ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ﴾ أي: لا تتركوها بلا تكفير، وبين قوله ﷺ في «الصحيحين»: «إني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير منها وتحللتها»، وفي رواية: «وكفرت عن يميني» لا تعارض بين هذا كله وبين الآية المذكورة هنا وهي: ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ لأن هذه الأيمان المراد بها الداخلة في العهود والمواثيق، لا الأيمان الواردة على حث أو منع، ولهذا قال مجاهد في الآية:

---

(١) المقصود بهذه الترجمة وجوب تعظيم ذمة الله وذمة نبيه وعدم إخفارهما -أي نقضهما والغدر فيهما-.

(٢) فيه ارتكاب أخف الضررين.

يعني: الحلف أي: حلف الجاهلية ويؤيده ما رواه الإمام أحمد عن جبير بن مطعم قال: قال رسول الله ﷺ: «لا حلف في الإسلام، وأيما حلف كان في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة» وكذا رواه مسلم، ومعناه: أن الإسلام لا يحتاج معه إلى الحلف الذي كان أهل الجاهلية يفعلونه، فإن في التمسك بالإسلام كفاية عما كانوا فيه.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ٩١﴾ تهديد ووعيد لمن نقض الأيمان بعد توكيدها.



وَعَن بُرَيدَةَ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ، أَوْصَاهُ بِتَقْوَى الله، وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا»، فَقَالَ: «اغْزُوا بِاسْمِ الله فِي سَبيلِ الله، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِالله، اغْزُوا وَلاَ تَغُلُّوا وَلاَ تَغْدِرُوا وَلاَ تَمْثُلُوا وَلاَ تَقْتُلُوا وَلِيدًا، وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ(١)؛ فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلاَثِ خِصَالٍ أَوْ - خِلاَلٍ- فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ، فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلاَمِ، فَإِنْ أَجَابُوكَ، فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ، فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ، وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ، فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ، يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ الله تَعَالَى، وَلاَ يَكُونُ فِي الغَنِيمَةِ وَالفَيْءِ شَيْءٌ، إِلاَّ أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا، فَسأَلْهُمُ الجِزْيَةَ، فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ؛ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا، فَاسْتَعِنْ بِالله وَقَاتِلْهُمْ، وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ، فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ الله وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، فَلاَ تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ الله وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، وَلَكِنِ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ، فَإِنَّكُمْ إِنْ تُخْفِرُوا(٢) ذِمَمَكُمْ وَذِمَةَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَّةَ الله وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ(٣)، وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ، فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ الله، فَلاَ تُنْزِلْهُمْ، وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ، فَإِنَّكَ لاَ تَدْرِي أَتُصِيبُ فِيهِمْ حُكْمَ الله أَمْ لاَ». [رَوَاهُ مُسلِمٌ].

---

(١) هذا العموم مخصص بآية براءة على الصحيح.

(٢) أي تنقضوا وتغدروا من أخفر الرباعي، أما خفر الثلاثي فمعناه صانه وحماه، وقوله: «أن تخفروا» فتح الهمزة من «أن» وهي في تأويل مصدر مع الفعل والمعنى: فإن إخفاركم.

(٣) فيه ارتكاب أخف الضررين.

قوله: «**عن بريدة**»: هو ابن الحصيب الأسلمي، وهذا الحديث من رواية ابنه سليمان عنه قاله في «المفهم»[(١)].

قوله: «**كان رسول الله ﷺ إذا أمّر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله تعالى**»: فيه من الفقه: تأمير الأمراء، ووصيتهم.

قال الحربي: السرية: الخيل تبلغ أربعمئة ونحوها، والجيش: ما كان أكثر من ذلك وتقوى الله: التحرز بطاعته من عقوبته[(٢)].

قلت: وذلك بالعمل بما أمر الله به والانتهاء عما نهى عنه.

قوله: «**ومن معه من المسلمين خيراً**»: أي ووصاه بمن معه أن يفعل معهم خيراً؛ من الرفق بهم، والإحسان إليهم، وخفض الجناح لهم، وترك التعاظم عليهم.

قوله: «**اغزوا باسم الله**» أي: اشرعوا في فعل الغزو مستعينين بالله مخلصين له.

قلت: فتكون الباء في «باسم الله» للاستعانة، والتوكل على الله.

قوله: «**قاتلوا من كفر بالله**»[(٣)] هذا العموم يشمل جميع أهل الكفر المحاربين

---

(١) «شرح مسلم».

(٢) وهذا تفسير حسن للتقوى فهي حرز من العقوبة.

(٣) هذا يدل على أن العلة في قتالهم الكفر، ففيه الرد على كثير من الكُتّاب المعاصرين الذين يقولون إن القتال في الإسلام شرع للدفاع فقط حيث جعل العلة في قتالهم الكفر، والصواب أن القتال له ثلاثة أطوار وثلاث حالات؛ **الأولى**: الإذن في القتال من غير إلزام كما قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ﴾، **الثانية**: الأمر بقتال من قاتل للدفاع كما قال تعالى: ﴿فَإِن قَـٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ﴾، وقوله في سورة النساء: ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾﴾، **الثالثة**: الأمر بقتال الكفار جميعاً بدءاً وهجوماً لأن فيه خيراً لهم ليدخلوا في الإسلام أو يستريحوا من الاستمرار في الشرك الذي فيه زيادة عذاب لهم ومن الآيات في ذلك قوله: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، وقوله: ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا =

وغيرهم؛ وقد خصص منهم من له عهد، والرهبان والنسوان، ومن لم يبلغ الحلم، وقد قال متصلاً به: «**ولا تقتلوا وليداً**» وإنما نهى عن قتل الرهبان والنسوان؛ لأنه لا يكون منهم قتال غالباً، وإن كان منهم قتال أو تدبير قتلوا.

قلت: وكذلك الذراري والأولاد.

قوله: «**ولا تغُلُّوا ولا تغدروا ولا تُمَثِّلوا**»: الغلول: الأخذ من الغنيمة من غير قسمتها، والغدر نقض العهد، والتمثيل التشويه بالقتيل، كقطع أنفه، وأذنه والعبث به، ولا خلاف في تحريم الغلول والغدر، وفي كراهية المثلة(١).

قوله: «**وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خلال أو خصال**»: الرواية بالشك وهو من بعض الرواة، ومعنى الخلال والخصال واحد.

قوله: «**فأيتهن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم**»: قيّدناه عمن يوثق بعلمه وتقييده بنصب «أيتهن» على أن يعمل فيها «أجابوك» لا على إسقاط حرف الجر و«ما» زائدة، ويكون تقدير الكلام: فإلى أيتهن أجابوك فاقبل منهم كما تقول: جئتك إلى كذا وفي كذا، فيعدى إلى الثاني بحرف الجر.

قلت: فيكون في ناصب «أيتهن» وجهان: ذكرها الشارح(٢)، الأول منصوب على الاشتغال، والثاني: على نزع الخافض.

قوله: «**ثم ادعهم إلى الإسلام**»: كذا وقعت الرواية في جميع نسخ كتاب مسلم «ثم ادعهم» بزيادة «ثم» والصواب إسقاطها كما روي في غير كتاب «مسلم»

= ﴿تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾، وقوله في هذا الحديث: «**قاتلوا من كفر بالله**» فقد علق الحكم بوصف مشتق وهو قوله: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ تعليق الحكم بمشتق يؤذن بعلّيته كما هو مقرر في الأصول.

(١) لعلها كراهة تحريم.

(٢) إما شارح مسلم القرطبي «المفهم على مسلم» أو حواشي الشيخ سليمان بن عبدالله صاحب «التيسير».

كمصنف «أبي داود»، و كتاب «الأموال» لأبي عبيد[١]؛ لأن ذلك هو ابتداء تفسير الخصال.

قوله: «ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين»: يعني المدينة، وكان في أول الأمر وجوب الهجرة إلى المدينة على كل من دخل في الإسلام، وهذا يدل على أن الهجرة واجبة على كل من آمن من أهل مكة وغيرهم.

قوله: «فإن أبوا أن يتحولوا»: يعني: أن من أسلم ولم يهاجر ولم يجاهد لا يعطى من الخمس ولا من الفيء شيئاًن وقد أخذ الشافعي -رحمه الله- بالحديث[٢] في الأعراب فلم ير لهم في الفيء شيئاً، وإنما لهم الصدقة المأخوذة من أغنيائهم فترد على فقرائهم، كما أن أهل الجهاد وأجناد المسلمين لا حق لهم في الصدقة عنده، ومصرف كل مال في أهله، وسوّى مالك -رحمه الله- وأبو حنيفة -رحمه الله- بين المالين وجوّزا صرفهما للضعيف.

قوله: «فإن هم أبوا فاسألهم الجزية» فيه حجة لمالك وأصحابه، والأوزاعي في أخذ الجزية من كل كافر، عربياً كان أو غيره، كتابياً كان أو غيره، وذهب أبو حنيفة -رحمه الله- إلى أنها تؤخذ من الجميع، إلا من مشركي العرب ومجوسهم، وقال الشافعي: لا تؤخذ إلا من أهل الكتاب عرباً كانوا أو عجماً، وهو قول الإمام أحمد في ظاهر مذهبه، وتؤخذ من المجوس[٣].

---

(١) القاسم بن سلاّم.

(٢) فالآية مخصصة لعموم الحديث.

(٣) مذهب الجمهور، والراجح أنها لا تؤخذ إلا من أهل الكتاب والمجوس لآية براءة ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ﴾ الآية، ولما توقف عمر في المجوس أخبره عبدالرحمن بن عوف أن النبي ﷺ أخذها منهم فأخذها منهم والحكمة في كونها لا تؤخذ من العرب والله أعلم هـي أن العرب موطن الوحي وبيئة الرسول ﷺ ولغتهم هي لغة القرآن فلو تركوا لكانوا حجر عثرة للناس ولقالوا لو كان =

قلت: لأن النبي ﷺ أخذها منهم، وقال: «**سنوا بهم سنة أهل الكتاب**»[(١)].

وقد اختلفوا في القدر المفروض من الجزية فقال مالك: أربعة دنانير على أهل الذهب، وأربعون درهماً على أهل الورق، وهل ينقص منها الضعيف أو لا؟ قولان، وقال الشافعي: فيه دينار على الغني والفقير، وقال أبو حنيفة -رحمه الله-، والكوفيون على الغني ثمانية وأربعون درهماً، والوسط أربعة وعشرون درهماً، والفقير اثنا عشر درهماً، وهو قول أحمد بن حنبل -رحمه الله-.

قال يحيى بن يوسف الصرصري الحنبلي -رحمه الله-:

وقاتل يهوداً والنصارى وعصبة ... المجوس فإن هم أسلموا الجزية اصدد
على الأدون اثني عشر درهماً افرضن ... وأربعة من بعد عشرين زد
لأوسطهم حالاً، ومن كان موسرا ... ثمانية مع أربعين لتُنقد
وتسقط عن صبيانهم ونسائهم ... وشيخ لهم فان وأعمى ومقعد
وذي الفقر والمجنون أو عبد مسلّم ... ومن وجبت منهم عليه فيهتدي

وعند مالك وكافة العلماء؛ على الرجال الأحرار البالغين العقلاء دون غيرهم، وإنما تؤخذ ممن كان تحت قهر المسلمين لا ممن نأى بداره، ويجب تحويلهم إلى بلاد المسلمين أو حربهم.

= الإسلام حقاً لقبله أهله فلا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف.

(١) فالمجوس ملحقون بأهل الكتاب في أخذ الجزية لا في إباحة نسائهم وذبائحهم، وهذا الحديث حديث بريدة عام في أخذ الجزية من المشركين لكن عمومه مخصص بآية براءة وهي ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ إلى قوله: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ والسنة تخصص بالقرآن، والقرآن يخصص بالسنة ويدل لهذا التخصيص أن المراد بهم أهل الكتاب قوله في الحديث: «إذا حاصرت أهل حصن» والحصون هي الأبنية والقلاع وهي إنما تكون لأهل الكتاب يكونون متحصنين فيها لا يكونون في الصحراء بخلاف المشركين الوثنيين فإنهم يكونون في الصحراء.

قوله: «وإذا حاصرت أهل حصن»: الكلام إلى آخره فيه حجة لمن يقول من الفقهاء وأهل الأصول: إن المصيب في مسائل الاجتهاد واحد[١]، وهو المعروف من مذهب مالك وغيره، ووجه الاستدلال به: أنه ﷺ قد نص على أن الله تعالى قد حكم حكماً معيناً في المجتهدات، فمن وافقه فهو فهو المصيب، ومن لم يوافقه فهو المخطئ.

قوله: «وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه» الحديث، الذمة: العهد، وتُخْفر[٢]: تنقض يقال: أخفرت الرجل: إذا نقضت عهده، وخفرته: أجرته، ومعناه: أنه خاف من نقض من لم يعرف حق الوفاء بالعهد، كجملة الأعراب، فكأنه يقول: إن وقع نقض من متعد معتدٍ، كان نقض عهد الخلق أهون من نقض عهد الله تعالى والله أعلم.

قوله: «وقول نافع وقد سئل عن الدعوة قبل القتال» ذكر فيه: أن مذهب مالك يجمع فيه بين الأحاديث في الدعوة قبل القتال. قال وهو أن مالكاً قال: لا يقاتل الكفار قبل أن يدعوا، ولا نلتمس غِرّتهم إلا أن يكونوا قد بلغتهم الدعوة فيجوز أن تُلتمس غِرتهم وهذا الذي صار إليه مالك هو الصحيح؛ لأن فائدة الدعوة أن يعرف العدو أن المسلمين لا يقاتلون للدنيا ولا للعصبية، وإنما يقاتلون للدين، فإذا علموا بذلك أمكن أن يكون ذلك سبباً مميلاً لهم إلى الانقياد إلى الحق، بخلاف ما إذا جهلوا مقصود المسلمين فقد يظنون أنهم يقاتلون للمالك وللدنيا فيزيدون عتواً وبغضاً، والله أعلم.



---

(١) وهذا هو الصواب، ولكن المجتهد المخطئ له أجر الاجتهاد كما أن المجتهد المصيب له أجران؛ أجر الاجتهاد وأجر الإصابة.

(٢) يخفروا من أخفر بالهمزة وهو رباعي أخفر يُخفر بمعنى نقض العهد والذمة وغدر وأما خفر يخفر فهو من الثلاثي وهو بمعنى أجاره وحماه فهو ضد نقض، فالمعنى يختلف بزيادة الهمزة ونقصها فإذا جاءت الهمزة زالت الحماية.

فيه مسائل:

الأولى: الفرق بين ذمة الله وذمة نبيه وذمة المسلمين.

الثانية: الإرشاد إلى أقل الأمرين خطراً.

الثالثة: قوله: «اغزوا بسم الله في سبيل الله».

الرابعة: قوله: «قاتلوا من كفر بالله».

الخامسة: قوله: «استعن بالله وقاتلهم».

السادسة: الفرق بين حكم الله وحكم العلماء.

السابعة: في كون الصحابي يحكم عند الحاجة بحكم لا يدري أيوافق حكم الله أم لا؟



باب
ما جاء في الإقسام على الله[(١)]

عَن جُنْدُبِ[(٢)] بنِ عَبدِالله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «قَالَ رَجُلٌ: وَالله لاَ يَغْفِرُ الله لِفُلاَنٍ، فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لاَ أَغْفِرَ لِفُلاَنٍ؟ إِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ، وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ». [رَوَاهُ مُسلِمٌ].

الشَرح:

قوله: «يتألّى»: أي: يحلف، والأليّة بالتشديد الحلف[(٣)]، وصح من حديث أبي هريرة قال البغوي في «شرح السنة» وساق بالسند إلى عكرمة ابن عمار قال: دخلت مسجد المدينة فناداني شيخ قال: يا يمامي، تعال، وما أعرفه، قال: لا تقولن لرجل: والله لا يغفر الله لك أبداً ولا يدخلك الجنة، قلت: ومن أنت يرحمك الله؟ قال: أبو هريرة، فقلت: إن هذه كلمة يقولها أحدنا لبعض أهله إذا غضب، أو لزوجته أو لخادمه، قال: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن رجلين كانا في بني إسرائيل متحابين، أحدهما مجتهد في العبادة، والآخر كأنه يقول: مذنب، فجعل يقول: أُقصر**

---

(١) من الوعيد أي على وجه التحجير لرحمة الله وإساءه الظن به لما في ذلك من الجرأة على الله والحجر لرحمته وإساءه الظن به، وأما قصة الربيع في قول أخيها والله لا نكسر سنّ الربيع، والحديث حسن، وحديث: «رب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره» فهذا من باب حسن الظن بالله وليس من باب التألي على الله فالتألي على الله إساءة الظن به وتحجر لرحمته ومغفرته.

(٢) جندب بضم الدال وفتحها.

(٣) ومنه قول الشاعر:

قليل الألايا حافظ ليمينه ... إذا صدرت منه الأليّة برّت

عما أنت فيه قال: فيقول: خلّني وربي، قال فوجده يوماً على ذنب استعظمه فقال: اقصر فقال: خلّني وربي، أبعثت عليّ رقيباً، فقال: والله لا يغفر الله لك ولا يدخلك الجنة أبداً قال: فبعث الله إليهما ملكاً، فقبض أرواحهما، فاجتمعا عنده فقال للمذنب ادخل الجنة برحمتي، وقال للآخر: أتستطيع أن تحظُر على عبدي رحمتي؟ قال: لا يا رب قال اذهبوا به إلى النار» قال أبو هريرة والذي نفسي بيده، تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته. رواه أبو داود في «سننه» وهذا لفظه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كان رجلاً متآخيين فكان أحدهما يذنب، والآخر مجتهد في العبادة فكان لا يزال المجتهد يرى الآخر على الذنب فيقول: أقصر، فوجده يوماً على ذنب فقال: اقصر، فقال: خلني وربي، أبعثت عليّ رقيباً؟ قال: والله لا يغفر الله لك، ولا يدخلك الجنة، فقُبضت أرواحهما فاجتمعا عند رب العالمين، فقال لهذا المجتهد: أكنت بي عالماً، أو كنت على ما في يدي قادراً؟ فقال للمذنب: اذهب فادخل الجنة، وقال للآخر: اذهبوا به إلى النار».



وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيرَةَ: أَنَّ القَائِلَ رَجُلٌ عَابِدٌ[1]. قَالَ أَبُو هُرَيرَةَ: «تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْبَقَتْ[2] دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ».

قوله: «**وفي حديث أبي هريرة أن القائل رجل عابد**». يشير إلى قوله في هذا الحديث: «**أحدهما مجتهد في العبادة**»، وفي هذه الأحاديث: بيان خطر اللسان، وذلك يفيد التحرز من الكلام كما في حديث معاذ قلت يا رسول الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ قال: «**ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم -أو قال على مناخرهم- إلا حصائد ألسنتهم؟**» والله أعلم[3].



---

(١) وهذا من الظن الفاسد؛ لأن الإنسان قد يغار غيرة فاسدة كأن يشتم من ينكر عليه أو يضربه وهو لا يستحق الضرب أو يأخذ ماله.

(٢) أهلكت.

(٣) وفي «الصحيحين»: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً يهوي بها في النار أبعد مما بين المشرق والمغرب»، وقال عمر بن عبدالعزيز: ما أحق بطول سجن من لسان، والواجب على الإنسان أن يزن كلامه قبل أن يتكلم فإن كان خيراً وإلا أحجم وأمسك والكلام له ثلاث حالات؛ **الأولى**: ما فيه مصلحة راجحة فيتكلم، **والثانية**: ما فيه مضرة فيمسك، **والثالثة**: ما لا مصلحة فيه ولا مضرة فيخير بين الكلام والإمساك.

فيه مسائل:

الأولى: التحذير من التألي على الله.

الثانية: كون النار أقرب إلى أحدنا من شراك نعله.

الثالثة: أن الجنة مثل ذلك[١].

الرابعة: فيه شاهد لقوله: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة...» إلخ

الخامسة: أن الرجل قد يُغفر له بسبب هو من أكره الأمور إليه.



(١) إشارة إلى الحديث الذي معناه: «النار أقرب إلى أحدكم من شراك نعله والجنة مثل ذلك».

باب
لا يستشفع بالله على خلقه

عَن جُبيرِ بنِ مُطعِمٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: «جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله! نُهِكَتِ الأَنْفُسُ، وَجَاعَ العِيَالُ، وَهَلَكَتِ الأَمْوَالُ؛ فَاسْتَسْقِ لَنَا رَبَّكَ، فَإِنَّا نَسْتَشْفِعُ بِالله عَلَيْكَ، وَبِكَ عَلَى الله». فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «سُبحَانَ الله! سُبحَانَ الله!» فَمَا زَالَ يُسَبِّحُ حَتَّى عُرِفَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ. ثُمَّ قَالَ: «ويْحَكَ أَتَدْرِي مَا اللهُ؟ إِنَّ شَأنَ الله أَعظَمُ مِن ذَلِكَ، إِنَّهُ لاَ يُستَشفَعُ بِالله عَلَى أَحَدٍ مِن خَلقِهِ». وَذَكَرَ الحَدِيثَ(١). [رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ].

---

(١) هذا الحديث حديث جبير بن مطعم ضعيف سنداً ومتناً، أما السند ففيه لين لأنه من رواية جبير بن محمد وهو ليس بذاك. قال في «التقريب»: مقبول من السادسة، وأما المتن ففيه نكارة في موضعين **أحدهما**: قوله: «إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه» وقد ورد في الحديث في قصة الأبرص والأقرع والأعمى قول الملك لكل واحد منهم: «أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن» «والشعر الحسن» «وبالذي ردّ عليك بصرك» وهو في «الصحيحين» وهذا نوع استشفاع بالله وكذلك ما ورد في الحديث: «من سألكم بالله فأعطوه» وهذا نوع استشفاع بالله على خلقه، الموضع الثاني في الحديث: «وإنه ليئط أطيط الرحل بالراكب» فإنه يشعر بأنه يئط من الرب تعالى وأن الرب محتاج إلى العرش وهذا فاسد فإن الرب غني عن العرش وغيره من المخلوقات، فإنه الحامل للعرش وحملته ولجميع مخلوقاته بقدرته كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ﴾ الآية، ولذلك ألف ابن عساكر رسالة في إبطال هذا الحديث سماها: «الأغلاط والتغليط في بطلان حديث الأطيط» وهي مخطوطة فلتلتمس في المكتبات السعودية أو جامعة الإمام وقد يقال إن الحديث يدل على عظمة الله وقوته وقهره ويفهم هذا من الأطيط ولا يشعر بحاجة الله إلى العرش لكن معنى الحديث صحيح وله شواهد كثيرة وأدلة تثبت العلو.

وقال شيخنا مرة: إن الضعف الذي في حديث جبير بن مطعم ينجبر بالشواهد.

وذكر الحديث وسياق أبي داود في «سننه» أتم مما ذكره المصنف -رحمه الله- ولفظه: عن جبير بن محمد[1] بن جبير بن مطعم، عن أبيه، عن جده قال: أتى رسول الله ﷺ أعرابي فقال: يا رسول الله، جهدت الأنفس، وضاعت العيال ونهكت الأموال، وهلكت الأنعام، فاستسق الله لنا، فإنا نستشفع بك على الله ونستشفع بالله عليك، قال رسول الله ﷺ: «**ويحك أتدري ما تقول؟ وسبَّح رسول الله ﷺ فما زال يسبح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه، ثم قال: ويحك، إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه، شأن الله أعظم من ذلك، ويحك، أتدري ما الله؟ إن عرشه على سماواته لهكذا -وقال بأصابعه مثل القبة عليه- وإنه ليئط به أطيط الرحل بالراكب**».

قال ابن يسار في حديثه: إن الله فوق عرشه، وعرشه فوق سماواته.

قال الحافظ الذهبي: رواه أبو داود بإسناد حسن عنده في «الرد على الجهمية» من حديث محمد بن إسحاق بن يسار.

قوله: «ويحك إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه». فإنه تعالى رب كل شيء ومليكه، والخير كله بيده، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، ولا راد لما قضى، وما كان الله ليعجزه من شيء في السماوات ولا في الأرض إنه كان عليماً قديراً. إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون. والخلق وما في أيديهم ملكه يتصرف فيهم كيف يشاء، وهو الذي يشفع الشافع إليه، ولهذا أنكر على الأعرابي قوله هذا.

قوله: «وسبح الله كثيراً وعظَّمه». لأن هذا القول لا يليق بالخالق سبحانه وبحمده، وإن شأن الله أعظم من ذلك.

وفي هذا الحديث: إثبات علو الله على خلقه، وأن عرشه فوق سماواته، وفيه: تفسير الاستواء بالعلو كما فسره الصحابة والتابعون والأئمة، خلافاً للمعطلة من

---

(١) هو حفيد جبير بن مطعم الراوي.

الجهمية والمعتزلة ومن أخذ عنهم، كالأشاعرة ونحوهم ممن ألحد في أسماء الله وصفاته، وصرفها عن المعنى الذي وضعت له ودلت عليه، من إثبات صفات الله تعالى التي دلت على كماله جل وعلا، كما عليه السلف الصالح والأئمة ومن تبعهم ممن تمسك بالسنة، فإنهم أثبتوا ما أثبته الله لنفسه وأثبته له رسوله من صفات كماله، على ما يليق بجلال الله وعظمته، إثباتاً بلا تمثيل، وتنزيهاً بلا تعطيل.

قال العلامة ابن القيم -رحمه الله تعالى- في «مفتاح دار السعادة» بعد كلام سبق فيما يعرف العبد بنفسه وبربه من عجائب مخلوقاته قال بعد ذلك:

والثاني: أن يتجاوز هذا إلى النظر بالبصيرة الباطنة، فتفتح له أبواب السماء، فيجول في أقطارها وملكوتها وبين ملائكتها، ثم يفتح الله له باباً بعد باب حتى ينتهي به سير القلب إلى عرش الرحمن فينظر سعته وعظمته وجلاله ومجده ورفعته ويرى السماوات السبع والأرضين السبع بالنسبة إليه كحلقة ملقاة بأرض فلاة، ويرى الملائكة حافين من حول العرش لهم زجل بالتسبيح والتحميد، والتقديس والتكبير، والأمر ينزل من فوقه بتدبير المهالك والجنود التي لا يعلمها إلا ربها ومليكها، فينزل الأمر بإحياء قوم وإماتة آخرين، وإعزاز قوم وإذلال آخرين، وإنشاء ملك وسلب ملك، وتحويل نعمة من محل إلى محل وقضاء الحاجات على اختلافها وتبيانها وكثرتها من جبر كسير وإغناء فقير وشفاء مريض، وتفريج كرب، ومغفرة ذنب، وكشف ضر، ونصر مظلوم، وهداية حيران، وتعليم جاهل، ورد آبق، وأمان خائف، وإجارة مستجير، ومدد لضعيف وإغاثة لملهوف، وإعانة لعاجز، وانتقام من ظالم، وكف لعدوان فهي مراسيم دائرة بين العدل والفضل والحكمة والرحمة، تنفذ في أقطار العوالم، لا يشغله سمع شيء منها عن سمع غيره، ولا تُغْلِطه كثرة المسائل والحوائج على اختلاف لغاتها وتباينها، واتحاد وقتها، ولا يتبرم بإلحاح الملحين، ولا تنقص ذرة من خزائنه، لا إله إلا هو العزيز الحكيم،

فحينئذٍ يقوم القلب بين يدي الرحمن مطرقاً لهيبته خاشعاً لعظمته عالياً لعزته، فيسجد بين يدي الملك الحق المبين، سجدة(١) لا يرفع رأسه منها إلى يوم المزيد، فهذا سفر القلب(٢) وهو في وطنه وداره ومحل وملكه، وهذا من أعظم آيات الله وعجائب صنعه فيا له من سفر ما أبركه وأروحه وأعظم ثمرته وربحه وأجلّ منفعته وأحسن عاقبته، سفر هو حياة الأرواح، ومفتاح السعادة وغنيمة العقول والألباب لا كالسفر الذي هو قطعة من العذاب(٣). أنتهى كلامه -رحمه الله-.

وأما الاستشفاع بالرسول ﷺ(٤) في حياته فالمراد به استجلاب دعائه وليس خاصاً به ﷺ، بل كل حي صالح يرجى أن يستجاب له، فلا بأس أن يطلب منه أن يدعو للسائل بالمطالب الخاصة والعامة، كما قال النبي ﷺ لعمر لما أراد أن يعتمر من المدينة: «**لا تنسنا يا أخيّ من صالح دعائك**» وأما الميت فإنما يشرع في حقه الدعاء له على جنازته وعلى قبره وفي غير ذلك وهذا هو الذي يشرع في حق الميت، وأما دعاؤه فلم يشرع، بل قد دل الكتاب والسنة على النهي عنه والوعيد عليه، كما

---

(١) سجدة ذل وانكسار.

(٢) قد يسافر وهو في محله أو في فراشه.

(٣) الذي هو سفر الأبدان.

(٤) الاستشفاع والتوسل بالشخص ثلاثة أنواع:

أحدها: التوسل بدعائه وسؤاله المدد وقضاء الحاجات وتفريج الكربات والذبح له والنذر فهذا شرك أكبر بإجماع المسلمين بإجماع أهل الحق والإيمان.

الثاني: التوسل بحقه أو جاهه أو ذاته فهذا بدعة ومحرم وهو من وسائل الشرك عند جمهور العلماء المحققين منهم.

الثالث: التوسل بدعاء الحيّ بأن يدعو له وهو يؤمن فهذا جائز لا بأس به.

التوسل المشروع يكون بما يأتي:

١- أسماء الله، مثل: يا ودود، يا حي يا قيوم، يا غفور يا رحيم.

٢- صفات الله، مثل: بعزة الله بعلمه بكلامه بسمعه بقدرته.

٣- بالعمل الصالح كتوسل الثلاثة أصحاب الغار الذين انطبقت عليهم الصخرة.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ﴾ (فاطر: ١٣، ١٤) فبيّن الله تعالى أن دعاء من لا يسمع ولا يستجيب شرك يكفر به المدعو يوم القيامة أي ينكره ويعادي من فعله، كما في آية الأحقاف: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾ (الأحقاف: ٦) فكل ميت أو غائب لا يسمع ولا يستجيب ولا ينفع ولا يضر، والصحابة -رضي الله عنهم-، لا سيما أهل السوابق منهم كالخلفاء الراشدين لم ينقل عن أحد منهم ولا عن غيرهم أنهم أنزلوا حاجاتهم بالنبي ﷺ بعد وفاته، حتى في أوقات الجدب ما وقع لعمر -رضي الله عنه- لما خرج ليستسقي بالناس خرج بالعباس عم النبي ﷺ، فأمره أن يستسقي لأنه حي حاضر يدعو ربه، فلو جاز أن يستسقي بأحد بعد وفاته لاستسقى عمر -رضي الله عنه- والسابقون الأولون بالنبي ﷺ.

وبهذا يظهر الفرق بين الحي والميت؛ لأن المقصود من الحي دعاؤه إذا كان حاضراً، فإنهم في الحقيقة إنما توجهوا إلى الله بطلب دعاء من يدعوه ويتضرع إليه، وهم كذلك يدعون ربهم، فمن تعدى المشروع إلى ما لا يشرع ضل وأضل، ولو كان دعاء الميت خيراً لكان الصحابة إليه أسبق وعليه أحرص، وبهم أليق، وبحقه أعلم وأقوم فمن تمسك بكتاب الله نجا، ومن تركه واعتمد على عقله هلك، وبالله التوفيق.



فيه مسائل:

الأولى: إنكاره على من قال: نستشفع بالله عليك.

الثانية: تغيره تغيراً عُرف في وجوه أصحابه من هذه الكلمة.

الثالثة: أنه لم ينكر عليه قوله: نستشفع بك على الله.

الرابعة: التنبيه على تفسير سبحان الله.

الخامسة: أن المسلمين يسألونه ﷺ الاستسقاء.



باب
ما جاء في حماية النبي ﷺ حِمَى التوحيد، وسَدِّه طرق الشرك[(١)]

عَن عَبدِالله بنِ الشِّخِّيرِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: انْطَلَقْتُ في وَفْدِ بَنِي عَامِرٍ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقُلْنَا: أَنْتَ سَيِّدُنَا. فَقَالَ: «السَّيِّدُ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى». قُلْنَا: وَأَفْضَلُنَا فَضْلاً، وَأَعْظَمُنَا طَوْلاً، فَقَالَ: «قُولُوا بِقَوْلِكُمْ أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ، وَلاَ يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ». [رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ].

وَعَن أَنَسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: «أَنَّ نَاساً قَالَوا: يَا رَسُولَ الله! يَا خَيْرَنَا وَابْنَ خَيْرِنَا! وَيَا سَيِّدَنَا وَابْنَ سَيِّدِنَا! فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ! قُولُوا بِقَوْلِكُمْ وَلاَ يَسْتَهْوِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ، أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِالله وَرَسُولُهُ، مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنزِلَتِي التِي أَنزَلَنِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ». [رَوَاهُ النَّسَائِيُّ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ].

حمايته ﷺ حمى التوحيد عما يشوبه من الأقوال والأعمال التي يضمحل معها التوحيد أو ينقص، وهذا كثير في السنة الثابتة عنه ﷺ كقوله: **«لا تطروني كما**

---

(١) الفرق بين هذه الترجمة والترجمة السابقة باب ما جاء في حماية المصطفى جناب التوحيد وسده كل طريق يوصل إلى الشرك هو أن الترجمة السابقة في حماية جانب التوحيد وجانب الشيء داخل فيه قولاً وفعلاً وأما هذه الترجمة فإنها في حماية حمى التوحيد، وهو ما يحوم حوله أو أن الترجمة السابقة في حماية التوحيد في الأفعال كالنهي عن اتخاذ القبور أعياداً وتشييداً والصلاة عندها والدعاء، وهذه الترجمة في حماية التوحيد في الأقوال كالنهي عن قول أنت سيدنا والنهي عن الإطراء والنهي عن التنطع أو أن الترجمة السابقة في حماية جانبه في الأفعال والأقوال وهذه الترجمة في حماية حماه في الأقوال والأفعال كالنهي عن الصلاة بعد العصر وبعد الفجر حماية لمنع الصلاة عند طلوع الشمس وغروبها الذي فيه مشابهة المشركين في السجود للشمس عند طلوعها وغروبها وكالنهي عن التشبه بالمشركين في الظاهر حماية لمنع مشابهتهم في العقائد والأعمال.

أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله»، وتقدم قوله: «**إنه لا يستغاث بي، وإنما يستغاث بالله عز وجل**» ونحو ذلك ونهى عن التمادح وشدد القول فيه، كقوله لمن مدح إنساناً «**ويلك قطعت عنق صاحبك**» الحديث. أخرجه أبوداود عن عبدالرحمن بن أبي بكرة، عن أبيه أن رجلاً أثنى على رجل عند النبي ﷺ فقال: «**قطعت عنق صاحبك ثلاثاً**»، وقال: «**إذا لقيتم المداحين، فاحثوا في وجوههم التراب**» أخرجه مسلم، والترمذي وابن ماجه عن المقداد بن الأسود.

وفي هذا الحديث «نهى عن أن يقولوا: أنت سيدنا، وقال: السيد الله تبارك وتعالى ونهاهم أن يقولوا: وأفضلنا فضلاً وأعظمنا[(١)] طَوْلاً[(٢)]، وقال: «**لا يستجرينكم[(٣)] الشيطان**».

وكذلك قوله في حديث أنس أنا ناساً قالوا يا رسول الله، يا خيرنا وابن خيرنا إلخ كره ﷺ أن يواجهوه بالمدح فيفضي بهم إلى الغلو، وأخبر ﷺ أن مواجهة المادح للممدوح بمدحه -ولو بما هو فيه- من عمل الشيطان؛ لما تفضي محبة المدح إليه من تعاظم الممدوح في نفسه، وذلك ينافي كمال التوحيد؛ فإن العبادة لا تقوم إلا بقطب[(٤)] رحاها الذي لا تدور إلا عليه، وذلك غاية الذل في غاية المحبة، وكمال

---

(١) نهيه ﷺ له وجهان؛ **أحدهما**: أنه نهاهم خوفاً عليهم من الغلو فسدّ الذريعة وهذا إذا كان مضافاً إلى المتكلم «سيدنا سيدي» أما سيد بني فلان فلا بأس به، **الثاني**: أنه نهاهم قبل أن يوحى إليه أنه سيد الناس والأول أولى.

(٢) بفتح الطاء الجود والكرم وبضم الطاء ضد القصر.

(٣) لا يستجرينكم الشيطان: أي لا يجعلكم رسلاً وأنصاراً ودعاة له أو المعنى لا يستهوينكم ويجركم والجري: الرسول.

(٤) قطب رحى العبادة الذى تدور عليه وهما أصلاها، غاية الذل في غاية المحبة قال: ابن القيم:

وعبادة الرحمن غاية حبه ... مع ذل عابده هما قطبان
وعليهما فلك العبادة دائرة ... ما دار حتى قامت القطبان
ومداره بالأمر أمر رسوله ... لا بالهوى والنفس والشيطان

الذل يقتضي الخضوع والخشية والاستكانة لله تعالى، وأن لا يرى نفسه إلا في مقام الذم لها، والمعاتبة لها في حق ربه، وكذلك الحب لا تحصل غايته إلا إذا كان ما يحبه الله، ويكره ما يكرهه الله من الأقوال والأعمال والإرادات[١] ومحبة المدح من العبد لنفسه تخالف ما يحبه الله منه، والمادح يغره من نفسه فيكون آثماً، فمقام العبودية يقتضي كراهة المدح رأساً، والنهي عنه صيانة لهذا المقام، فمتى أخلص العبد الذل لله والمحبة له؛ خلصت أعماله وصحت، ومتى أدخل عليها ما يشوبها من هذه الشوائب؛ دخل على مقام العبودية بالنقص أو الفساد، وإذا أداه المدح إلى التعاظم في نفسه والإعجاب بها؛ وقع في أمر عظيم ينافي العبودية الخاصة، كما في الحديث «**الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني شيئاً منهما عذبته**»، وفي الحديث «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**» وهذه الآفات قد تكون محبة المدح سبباً لها وسُلَّماً إليها، والعجب يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب، وأما المادح فقد يفضي به المدح إلى أن يُنْزِلَ الممدوح منزلة لا يستحقها، كما يوجد كثيراً في أشعارهم من الغلو الذي نهى عنه الرسول ﷺ وحذر أمته أن يقع منهم، فقد وقع الكثير منه حتى صرحوا فيه بالشرك في الربوبية والإلهية والملك[٢]، كما تقدمت الإشارة إلى شيء من ذلك، والنبي ﷺ لما أكمل الله له مقام العبودية صار يكره أن يمدح صيانة لهذا المقام وأرشد الأمة إلى ترك ذلك نصحاً لهم، وحماية لمقام التوحيد عن أن يدخله ما يفسده أو يضعفه من الشرك ووسائله﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ

(١) أما إذا كان يحب ما يكره ويكره ما يحب فإن دعوى محبته غير صحيحة كما قال الشاعر:

تعصي الإله وأنت تزعم حبه ... هذا لعمري في القياس بديع

لو كان حبك صادقاً لأطعته ... إن المحب لمن يحب مطيع

(٢) وذلك كثير كقول صاحب البردة يغلو في الرسول ﷺ:

يا أكرم الخلق مالي من ألوذ به ... سواك عند حلول الحادث العمم

﴿ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ (البقرة: ٥٩)، ورأوا أن فعل ما نهاهم ﷺ عن فعله قربةٌ من أفضل القربات، وحسنة من أعظم الحسنات.

وأما تسمية العبد بالسيد؛ فاختلف العلماء في ذلك.

قال العلامة ابن القيم في «بدائع الفوائد»: اختلف الناس في جواز إطلاق السيد على البشر فمنعه قوم، ونقل عن مالك، واحتجوا بقول النبي ﷺ لما قيل: يا سيدنا قال: «**السيد الله تبارك وتعالى**» وجوّزه قوم، واحتجوا بقول النبي ﷺ للأنصار: «**قوموا إلى سيدكم**» وهذا أصح من الحديث الأول. قال هؤلاء: السيِّد أحد ما يضاف إليه، فلا يقال للتميمي سيد كندة، ولا يقال: الملَك[1] سيد البشر قال: وعلى هذا فلا يجوز أن يطلق على الله هذا الاسم وفي هذا نظر، فإن السيد إذا أطلق عليه تعالى فهو في منزلة المالك، والمولى، والرب، لا بمعنى الذي يطلق على المخلوق. انتهى.

قلت: فقد صح عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه قال في معنى قول الله تعالى: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا﴾[2]: أي: إلهاً وسيداً، وقال في قول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾﴾ إنه السيد الذي كمل في جميع أنواع السؤدد، وقال أبو وائل: هو السيد الذي انتهى سؤدده، وأما استدلالهم بقول النبي ﷺ للأنصار: «**قوموا إلى سيدكم**» فالظاهر أن النبي ﷺ لم يواجه سعداً به، فيكون في هذا المقام تفصيل، والله أعلم.



(١) بفتح اللام واحد الملائكة.

(٢) والذي يظهر جواز إطلاقه على رئيس القوم وفقيههم، قال النبي ﷺ للحسن «إن ابني هذا سيد» وقال للأنصار «قوموا إلى سيدكم» ويقال: سيد بني فلان، ولكن لا يطلق على كل أحد، ولا ينبغي أن يواجه به الشخص لما يفضي إليه ذلك من العجب والتعاظم والكبر، ومن قيل له «يا سيد» فليقل كما قال رسول الله: السيد الله، وإطلاقه على كل واحد أو مواجهة الشخص به مكروه كراهة تنزيه، لوروده في النصوص مطلقاً على بعض المخلوقات.

فيه مسائل:

الأولى: تحذير الناس من الغلو.

الثانية: ما ينبغي أن يقول من قيل له: أنت سيدنا.

الثالثة: قوله: «لا يستجيرنكم الشيطان» مع أنهم لم يقولوا إلا الحق.

الرابعة: قوله: «ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي».



باب

ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٦٧﴾ (الزمر: ٦٧)[1].

عَن ابنِ مَسعُودٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: جَاءَ حِبْرٌ[2] مِنَ الأَحْبَارِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ! إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اللهَ يَجْعَلُ السَّمَاوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالأَرَضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالمَاءَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الخَلقِ عَلَى إِصْبَعٍ، فَيَقُولُ: أَنَا المَلِكُ. فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ؛ تَصْدِيقًا لِقَوْلِ الحِبْرِ»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

وَفي رِوَايَةٍ لِمُسلِمٍ: «وَالجِبَالَ وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ، ثُمَّ يَهُزُّهُنَّ، فَيَقُولُ: أَنَا

---

(١) أراد المصنف -رحمه الله- بهذه الترجمة إثبات وتقرير توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات كما أثبت في الأبواب السابقة توحيد العبادة والإلهية، وما قدر المشركون الله حق قدره حتى عبدوا معه غيره وهو تعظيم الذي لا عظم فيه، وفي الأحاديث إثبات اليدين كما قال تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾، وأنهما يمين وشمال، وكلتا يديه يمين سبحانه لا نقص فيها كما في حديث: «وكلتا يدي ربي يمين مباركة»، وفيها إثبات الأصابع على ما يليق بجلاله لا يشابه خلقه فإنه سبحانه يجعل السماوات على إصبع والأرضين على إصبع والجبال والشجر على إصبع كما يليق بجلاله وأنى يشابهه أو يدانيه أحد من خلقه في ذلك تعالى عن ذلك؛ فهذا الباب فيه أنواع التوحيد الثلاثة، وفيه أن الله هو المستحق للعبادة لعظمته وكمال وعظمة أسمائه وصفاته وعظيم إحسانه وإنعامه على خلقه.

(٢) حِبْر وحَبْر بفتح الحاء المهملة وبكسرها. قال بعضهم والكسر أفصح.

المَلِكُ، أَنَا اللهُ».

وَفِي رِوَايَةٍ لِلبُخَارِيِّ: «يَجْعَلُ السَّمَاوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالمَاءَ وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الخَلقِ عَلَى إِصْبَعٍ». [أَخرَجَاهُ].

الشَّرْحُ:

قوله: باب قول الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ (الزمر: ٦٧).

أي من الأحاديث والآثار في معنى هذه الآية الكريمة.

قال العماد ابن كثير -رحمه الله تعالى-: يقول تعالى: ما قدر المشركون الله حق قدره، حتى عبدوا معه غيره، وهو العظيم الذي لا أعظم منه، القادر على كل شيء، والمالك لكل شيء، وكل شيء تحت قهره وقدرته. قال مجاهد: نزلت في قريش، وقال السدي: ما عظَّموه حق عظمته، وقال محمد بن كعب: لو قدروه حق قدره ما كذّبوه، وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هم الكفار الذين لم يؤمنوا بقدرة الله عليهم، فمن آمن أن الله على كل شيء قدير فقد قدر الله حق قدره، ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدِّر الله حق قدره.

وقد وردت أحاديث كثيرة تتعلق بهذه الآية، الطريق فيها وفي أمثالها مذهب السلف وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تحريف، وذكر حديث ابن مسعود كما ذكره المصنف -رحمه الله- في هذا الباب، قال: ورواه البخاري في غير موضع من «صحيحه»، والإمام أحمد ومسلم والترمذي والنسائي كلهم من حديث سليمان بن مهران وهو الأعمش، عن إبراهيم، عن عَبِيدة، عن ابن مسعود بنحوه.

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبدالله قال: «جاء رجل من أهل الكتاب إلى النبي ﷺ فقال: يا أبا القاسم، أبلغك أن الله تعالى يجعل الخلائق على إصبع، والسماوات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والثرى على إصبع، وسائر الخلائق على إصبع[1]، فيقول أنا الملك فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الحبر، قال: وأنزل الله: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾» (الزمر: ٦٧) الآية، وهكذا رواه البخاري ومسلم والنسائي من طرق عن الأعمش به.

وقال الإمام أحمد: حدثنا الحسين بن حسن الأشقر حدثنا أبو كدينة، عن عطاء، عن أبي الضحى، عن ابن عباس قال: مرّ يهودي برسول الله ﷺ وهو جالس فقال: كيف تقول يا أبا القاسم يوم يجعل الله السماوات على ذه -وأشار بالسبابة- والأرض على ذه، والجبال على ذه، وسائر الخلق على ذه؟ كل ذلك يشير بأصابعه، فأنزل الله: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾، وكذا رواه الترمذي في التفسير بسنده عن أبي الضحى مسلم بن صبيح به، وقال: حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، ثم قال البخاري: حدثنا سعيد بن عفير، حدثنا الليث، حدثني عبدالرحمن ابن خالد بن مسافر، عن ابن شهاب، عن أبي سلمة بن عبدالرحمن أن أبا هريرة -رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يقبض الله الأرض، ويطوي السماء بيمينه، فيقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟» تفرد به من هذا الوجه، ورواه مسلم من وجه آخر.

وقال البخاري في موضع آخر: حدثنا مقدم بن محمد، حدثنا عمي القاسم بن يحيى، عن عبيدالله، عن نافع، عن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: إن رسول الله

---

(١) الحديث في مسند أحمد بسند على شرط الشيخين، وفيه عدّ خمسة أصابع، وفي هذا الحديث عدّ ستة أصابع، والصواب أن الخلائق مكررة.

ﷺ قال: «إن الله يقبض يوم القيامة الأرضين على إصبع، وتكون السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك» تفرد به أيضاً من هذا الوجه، ورواه مسلم من وجه آخر.

وقد رواه الإمام أحمد من طريق آخر بلفظ أبسط من هذا السياق وأطول فقال: حدثنا عفان، حدثنا عثمان بن سلمة، أنبأنا إسحاق بن عبدالله بن أبي طلحة، عن عبيدالله بن مِقْسم[1] عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ (الزمر: ٦٧) ورسول الله ﷺ يقول هكذا بيده يحركها يقبل بها ويدبر، يمجد الرب تعالى نفسه: أنا الجبار أنا المتكبر، أنا الملك، أنا العزيز، أنا الكريم فرجف برسول الله ﷺ المنبر حتى قلنا ليخِرّن به». أ.هـ.



(١) على وزن مِنبر.

وَلِمُسلِمٍ عَن ابنِ عُمَرَ مَرفُوعَاً: «يَطْوِي[١] الله السَّمَاوَاتِ يَوْمَ القِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ اليُمْنَى، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، أَيْنَ الجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ المُتكَبِّرُونَ؟ ثُمَّ يَطْوِي الأَرَضِينَ السَّبعَ، ثُمَّ يَأخُذُهُنَّ بِشِمَالِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، أَيْنَ الجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ المُتكَبِّرُونَ؟».

وَرَوَى عَن ابنِ عَبَّاسٍ قَالَ: «مَا السَّمَاوَاتُ السَّبعُ وَالأَرَضُونَ السَّبعُ فِي كَفِّ الرَّحمَنِ[٢] إلاَّ كَخَردَلَةٍ فِي يَدِ أَحَدِكُم».

وَقَالَ ابنُ جُرَيرٍ[٣]: حَدَّثَنِي يُونُسُ[٤]، أَخبَرَنَا ابنُ وَهبٍ[٥] قَالَ: قَالَ ابنُ زَيدٍ[٦]: حَدَّثَنِي أَبِي[٧] قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَا السَّمَاوَاتُ السَّبعُ فِي الكُرسِيِّ إِلاَّ كَدَرَاهِمَ سبعةٍ أُلقِيَت فِي تُرْسٍ».

وَقَالَ: قَالَ أَبُو ذَرٍّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: سَمِعتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «مَا الكُرسِيُّ فِي العَرشِ إِلاَّ كَحَلَقَةٍ مِن حَدِيدٍ أُلقِيَت بَينَ ظَهرَي فَلاَةٍ مِنَ الأَرضِ».

وَعَن ابنِ مَسعُودٍ[٨] قَالَ: «بَينَ السَّمَاءِ الدُّنيَا وَالَّتِي تَلِيهَا خَمسُ مِئَةِ عَامٍ،

---

(١) فيه دليل على عظمة الله سبحانه.

(٢) هذا الأثر عن ابن عباس مما لا مجال للرأي فيه فإذا ثبت ففيه إثبات الكف للرحمن، ولم يذكر الشارح صاحب «فتح المجيد» طرقه، وقال الشيخ سليمان في حاشية له إنه تتبع طرقه وإنها لا بأس بها، وهذه الحاشية على كتاب التوحيد وهي غير الشرح.

(٣) صاحب «التفسير» وكتاب «تهذيب الآثار». ولد سنة ٢١٣هـ وتوفي عام ٣١٠هـ عاش ٩٧ سنة.

(٤) هو ابن عبدالأعلى.

(٥) المصري.

(٦) هو عبدالرحمن بن زيد بن سلم وهو ضعيف.

(٧) هو زيد بن أسلم مولى عمر؛ فالحديث ضعيف.

(٨) مثل هذا لا يقال بالرأي فله حكم المرفوع.

وَبَينَ كُلِّ سَمَاءٍ وَسَمَاءٍ خَمسُ مِئَةِ عَامٍ، وَبَينَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالكُرسِيِّ خَمسُ مِئَةِ عَامٍ، وَبَينَ الكُرسِيِّ وَالمَاءِ خَمسُ مِئَةِ عَامٍ، وَالعَرشُ فَوقَ المَاءِ[١]. وَاللهُ فَوقَ العَرشِ، لاَ يَخفَى عَلَيهِ شَيءٌ مِن أَعمَالِكُم» [أَخرَجَهُ ابنُ مَهدِيٍّ[٢] عَن حَمَّادٍ[٣] ابنِ سَلَمَةَ عَن عَاصِمٍ[٤] عَن زِرٍّ[٥] عَن عَبدِالله].

قَالَ الحَافِظُ الذَّهَبِيُّ -رَحِمَهُ الله تَعَالَى-[٦]. قَالَ: وَلَهُ طُرُقٌ.

قوله: «ولمسلم عن ابن عمر» الحديث. كذا في رواية مسلم، وقال الحميدي: وهي أتم، وهي عند مسلم من حديث سالم عن أبيه، وأخرجه البخاري من حديث عبيدالله، عن نافع، عن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: «**إن الله يقبض يوم القيامة الأرضين، وتكون السماء بيمينه**»، وأخرجه مسلم من حديث عبيدالله بن مِقْسَم.

قلت: وهذه الأحاديث وما في معناها تدل على عظمة الله، وعظيم قدرته،

---

(١) هذا الحديث فيه دليل على بعد السماء عن الأرض بخمسمئة عام، وذلك من فضل الله حتى يتمكن من صعد على جبل أو شجرة ولما يعلمه تعالى منه أنه يأتي في آخر الزمان طائرات ومركبات فضائية تطير في طبقات الجو وحتى يتمكنوا من الطيران في الأجواء وحتى لا يختنقوا من نقص الهواء، وجاء ما يدل على أن كثف كل سماء خمسمئة، والشمس والقمر ليسا في السماء الدنيا ولا الرابعة، وكذلك النجوم بل في أفلاك خاصة دون السماء، والسماء ليست شفافة يدل على ذلك أنه لما عرج بالنبي ﷺ صحبه جبريل -عليهما الصلاة والسلام- استفتح جبريل فقيل من هذا فلو كانت شفافة لرأوهما ولم يسألوا من هذا.

(٢) ثقة معروف.

(٣) ثقة معروف.

(٤) ابن أبي النجود؛ ثقة معروف.

(٥) ابن حبيش.

(٦) في كتاب «العلو».

وعظم مخلوقاته، وقد تعرّف سبحانه وتعالى إلى عباده بصفاته، وعجائب مخلوقاته، وكلها تدل على كماله، وأنه المعبود وحده لا شريك له في ربوبيته وإلهيته، وتدل على إثبات الصفات على ما يليق بجلال الله وعظمته إثباتاً بلا تمثيل وتنزيهاً بلا تعطيل، وهذا هو الذي دلت عليه نصوص الكتاب والسنة وعليه سلف الأمة وأئمتها ومن تبعهم بإحسان، واقتفى أثرهم على الإسلام والإيمان.

وتأمل ما في هذه الأحاديث الصحيحة من تعظيم النبي ﷺ ربه بذكر صفات كماله على ما يليق بعظمته وجلاله وتصديقه اليهود[1] فيما أخبروا به عن الله من الصفات التي تدل على عظمته، وتأمل ما فيها من إثبات علو الله تعالى على عرشه، ولم يقل النبي ﷺ في شيء منها: إن ظاهرها غير مراد، أو إنها تدل على تشبيه صفات الله بصفات خلقه، فلو كان هذا حقاً بلّغه أمينه أمته، فإن الله أكمل به الدين وأتم به النعمة فبلّغ البلاغ المبين صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم إلى يوم الدين، وتلقى الصحابة -رضي الله عنهم- عن نبيهم ﷺ ما وصف به ربه من صفات كماله ونعوت جلاله فآمنوا به، وآمنوا بكتاب الله وما تضمنه من صفات ربهم جلا وعلا، كما قال تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ (آل عمران: ٧)، وكذلك التابعون لهم بإحسان وتابعوهم، والأئمة من المحدثين والفقهاء كلهم وصفوا الله بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ، ولم يجحدوا شيئاً من الصفات، ولا قال أحد منهم: إن ظاهرها غير مراد، ولا إنه يلزم من إثباتها التشبيه، بل أنكروا على من قال ذلك غاية الإنكار، فصنفوا في رد هذه الشبهات المصنفات الكبار المعروفة الموجودة بأيدي أهل السنة والجماعة.

قال شيخ الإسلام أحمد بن تيمية -رحمه الله تعالى-: وهذا كتاب الله من أوله إلى آخره وسنة رسول الله ﷺ، وكلام الصحابة والتابعين، وكلام سائر الأئمة

---

(١) وفيه أن الحق يقبل ممن جاء به ولو كان كافراً.

مملوءة كلها بما هو نص أو ظاهر أن الله تعالى فوق كل شيء، وأنه فوق العرش فوق السماوات مستوٍ على عرشه مثل قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ (فاطر: ١٠)، وقوله تعالى: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ (آل عمران: ٥٥)، وقوله تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ (النساء: ١٥٨)، وقوله تعالى: ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ (المعارج: ٣-٤)، وقوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ (السجدة: ٥)، وقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ (النحل: ٥٠)، وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ (البقرة: ٢٩)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٥٤﴾ (الأعراف: ٥٤)، وقوله: ﴿رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ (يونس: ٣) الآية، فذكر التوحيدين في هذه الآية[1]، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ (الرعد: ٢)، وقوله تعالى: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ (طه: ٤-٥)، وقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ۝٥٨ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ۝٥٩﴾ (الفرقان: ٥٨-٥٩)، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ

---

(١) توحيد الربوبية في صدر الآية، وتوحيد الإلهية في قوله: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾.

أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾﴾ (السجدة: ٤-٥)، وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ (الحديد: ٤)، فذكر عموم علمه وعموم قدرته وعموم إحاطته وعموم رؤيته، وقوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾﴾ (الملك: ١٦، ١٧)، وقوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ (فصلت: ٤٢)، وقوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾ (الزمر: ١)، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ﴾ (غافر: ٣٦، ٣٧). انتهى كلامه -رحمه الله-.

قلت: وقد ذكر الأئمة[1] -رحمهم الله تعالى- فيما صنفوه في الرد على نفاة الصفات من الجهمية والمعتزلة والأشاعرة ونحوهم أقوال الصحابة والتابعين فمن ذلك ما رواه الحافظ الذهبي في كتاب: «العلو» وغيره بالأسانيد الصحيحة عن أم سلمة زوج النبي ﷺ أنها قالت في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ (طه: ٥) قالت[2]: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإقرار به إيمان، والجحود به كفر. رواه ابن المنذر واللالكائي وغيرهما بأسايند صحاح، قال: وثبت عن سفيان بن عيينة -رحمه الله تعالى- أنه قال لما سئل ربيعة بن أبي عبدالرحمن: كيف الاستواء قال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، ومن الله الرسالة،

---

(١) كالذهبي وعبدالله بن الإمام أحمد، وعثمان بن سعيد الدارمي في «الرد على بشر المريسي».

(٢) كلام عظيم يكتب بماء الذهب.

وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التصديق، وقال ابن وهب: كنا عند مالك فدخل رجل فقال: يا أبا عبدالله ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ (طه: ٥). كيف استوى؟ فأطرق مالك -رحمه الله- وأخذته الرُّحَضاء[1]، وقال: الرحمن على العرش استوى، كما وصف نفسه، ولا يقال: كيف؟ و«كيف» عنه مرفوع، وأنت صاحب بدعة أخرجوه. رواه البيهقي بإسناد صحيح عن ابن وهب، ورواه يحيى بن يحيى أيضاً، ولفظه: قال الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة.

قال الذهبي: فانظر إليهم كيف أثبتوا الاستواء لله، وأخبروا أنه معلوم لا يحتاج لفظه إلى تفسير، ونفوا عنه الكيفية. قال البخاري في «صحيحه» قال مجاهد: «استوى» علا على العرش، وقال إسحاق بن راهويه: سمعت غير واحد من المفسرين يقول: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ أي: ارتفع، وقال محمد بن جرير الطبري في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ أي: علا وارتفع.

وشواهده في أقوال الصحابة والتابعين وأتباعهم فمن ذلك قول عبدالله بن رواحة -رضي الله عنه-:

شهدتُ بأن وعدَ الله حقٌّ ... وأن النار مثوى الكافرينا
وأن العرش فوق الماء طاف ... وفوق العرش رب العالمينا
وتحمله ملائكة شداد ... ملائكة الإله مسوَّمينا[2]

وروى الدارمي والحاكم والبيهقي بأصح إسناد إلى علي بن الحسين بن شقيق قال: سمعت عبدالله بن المبارك[3] يقول نعرف ربنا بأنه فوق سبع سماوات على

---

(١) العرق.

(٢) أي: معلَّمين.

(٣) قال فيه الحافظ في «التقريب»: إمام ثقة ثبت عالم، عابد، زاهد، جواد، وكانت وفاته سنة =

العرش استوى، بائن من خلقه، ولا نقول كما قالت الجهمية. قال الدارمي: حدثنا حسن بن الصباح البزار، حدثنا علي بن الحسين بن شقيق، عن ابن المبارك قيل: كيف نعرف ربنا؟ قال: بأنه فوق السماء السابعة على العرش بائن من خلقه.

وقد تقدم قول الأوزاعي: كنا والتابعون متوافرون نقول: إن الله تعالى ذكره فوق عرشه بائن من خلقه، ونؤمن بما وردت به السنة.

وقال أبو عمر الطلمنكي في كتاب «الأصول»: أجمع المسلمون من أهل السنة على أن الله استوى على عرشه بذاته، وقال في هذا الكتاب أيضاً: أجمع أهل السنة على أن الله تعالى استوى على عرشه في الحقيقة لا على المجاز، ثم ساق بسنده عن مالك قوله: الله في السماء، وعلمه في كل مكان، ثم قال في هذا الكتاب: أجمع المسلمون من أهل السنة أن معنى قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ (الحديد: ٤) ونحو ذلك من القرآن أن ذلك علمه، وأن الله فوق السماوات بذاته مستوٍ كيف شاء، وهذا لفظه في كتابه.

وهذا كثير في كلام الصحابة والتابعين والأئمة، أثبتوا ما أثبته الله في كتابه على لسان رسوله على الحقيقة على ما يليق بجلال الله وعظمته، ونفوا عنه مشابهة المخلوقين، ولم يمثِّلوا ولم يكيِّفوا كما ذكرنا ذلك عنهم في هذا الباب.

وقال الحافظ الذهبي: وأول من أنكر أن الله فوق عرشه هو الجعد بن درهم، وكذلك أنكر جميع الصفات، وقتله خالد بن عبدالله القسْري وقصته مشهورة، أخذ هذه المقالة عنه الجهم بن صفوان إمام الجهمية، فأظهرها واحتج لها بالشبهات وكان ذلك في آخر عصر التابعين[1] فأنكر مقالته أئمة ذلك العصر مثل الأوزاعي، وأبي حنيفة ومالك، والليث بن سعد، والثوري، وحماد بن زيد، وحماد بن سلمة،

= ١٨١هـ بعد مالك بسنتين، فإن مالكاً وفاته سنة ١٧٩هـ.

(١) فقتله سلْم بن أحوز أمير خراسان بها.

وابن المبارك، ومن بعدهم من أئمة الهدى، فقال الأوزاعي إمام أهل الشام على رأس الخمسين ومئة عند ظهور هذه المقالة: ما أخبرنا عبدالواسع الأبهري بسنده إلى أبي بكر البيهقي أنبأنا أبو عبدالله الحافظ، أخبرني محمد بن علي الجوهري -ببغداد- حدثنا إبراهيم بن الهيثم، حدثنا محمد بن كثير المِصِّيصي سمعت الأوزاعي يقول: كنا -والتابعون متوافرون- نقول: إن الله فوق عرشه، ونؤمن بما وردت به السنة من صفاته. أخرجه البيهقي في «الصفات» ورواته ثقات.

وقال الإمام الشافعي -رحمه الله تعالى- : لله أسماء وصفات لا يسع أحداً ردها؛ ومن خالف بعد ثبوت الحجة عليه كفر، وأما قبل قيام الحجة فإنه يعذر بالجهل، ونثبت هذه الصفات وننفي عنه التشبيه، كما نفى عن نفسه فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ أنتهى من «فتح الباري».



فيه مسائل:

الأولى: تفسير قول الله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾.

الثانية: أن هذه العلوم وأمثالها باقية عند اليهود الذين في زمنه ﷺ لم ينكروها ولم يتأولوها.

الثالثة: أن الحبر لما ذكر للنبي ﷺ صدّقه، ونزل القرآن بتقرير ذلك.

الرابعة: وقوع الضحك من رسول الله ﷺ لما ذكر الحبر هذا العلم العظيم.

الخامسة: التصريح بذكر اليدين، وأن السماوات في اليد اليمنى والأرضين في الأخرى.

السادسة: التصريح بتسميتها.

السابعة: ذكر الجبارين والمتكبرين عند ذلك.

الثامنة: قوله: «كخردلة في كف أحدكم».

التاسعة: عظم الكرسي بالنسبة إلى السماء.

العاشرة: عظم العرش بالنسبة إلى الكرسي.

الحادية عشرة: أن العرش غير الكرسي والماء.

الثانية عشرة: كم بين كل سماء إلى سماء.

الثالثة عشرة: كم بين السماء السابعة والكرسي.

الرابعة عشرة: كم بين الكرسي والماء.

الخامسة عشرة: أن العرش فوق الماء.

السادسة عشرة: أن الله فوق العرش.

السابعة عشرة: كم بين السماء والأرض.

الثامنة عشرة: كثف كل سماء خمسمئة سنة.

التاسعة عشرة: أن البحر الذي فوق السماوات أسفله وأعلاه خمسمئة سنة. والله أعلم.

وَعَن العَبَّاسِ بنِ عَبدِالمُطَّلِب -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «هَلْ تَدْرُونَ كَمْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ؟ قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: بَيْنَهُمَا مَسِيرَةُ خَمْسِمِئَةِ سَنَةٍ، وَمِنْ كُلِّ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمْسِمِئَةِ سَنَةٍ، وَكِثَفُ كُلِّ سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمْسِمِئَةِ سَنَةٍ، وَبَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالعَرشِ بَحْرٌ بَيْنَ أَسْفَلِهِ وَأَعْلاَهُ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، وَاللهُ تَعَالَى فَوْقَ ذَلِكَ، وليسَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيءٌ مِنْ أَعْمَالِ بَنِي آدَمَ». [أَخرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ وَغيرُهُ].

قوله: «**عن العباس بن عبد المطلب**[1]» ساقه المصنف -رحمه الله- مختصراً والذي في «سنن أبي داود» **عن العباس بن عبدالمطلب** قال: كنت في البطحاء في عصابة فيهم رسول الله ﷺ فمرت بهم سحابة فنظر إليها، فقال: «**ما تسمُّون هذه؟**» قالوا: السحاب، قال: «**والمزن**» قالوا: والمزن قال: «**والعنان**»، قالوا: والعنان، قال أبو داود: لم أتقن العنان جيداً، قال: «**وهل تدرون بعد ما بين السماء والأرض؟**» قالوا لا ندري، قال: «**إن بعد ما بينهما إما واحدة، أو اثنتان، أو ثلاث وسبعون سنة، ثم السماء التي فوقها كذلك، حتى عدّ سبع سماوات، ثم فوق السابعة بحر بين أسفله وأعلاه مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم فوق ذلك ثمانية أوعال بين أظلافهم ورُكبهم مثل ما بين سماء إلى سماء ثم على ظهورهم العرش، بين أسفله وأعلاه كما بين سماء إلى سماء، ثم الله فوق ذلك**»، وأخرجه الترمذي وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن غريب[2]، وقال الحافظ الذهبي: رواه أبو داود

---

(١) حديث العباس منهم من حسنه ومنهم من ضعفه بسماع الأحنف من العباس.

(٢) في سنده عبدالله بن عَميرة. قال الذهبي: فيه جهالة؛ فالحديث ضعيف، لكن هذا من الشواهد والمتابعات وإلا فالنصوص من الكتاب والسنة التي دلت على العلو لا تحصر ولكن القاعدة: يجوز في المتابعات والشواهد ما لا يجوز في غيرها من الأصول.

بإسناد حسن، وروى الترمذي نحوه من حديث أبي هريرة وفيه: «ما بين سماء إلى سماء خمسمئة عام» ولا منافاة بينهما؛ لأن تقدير ذلك بخمسمئة عام هو على سير القافلة[1] مثلاً، ونيِّف وسبعون سنة على سير البريد؛ لأنه يصح أن يقال: بيننا وبين مصر عشرون يوماً باعتبار سير العادة، وثلاثة أيام باعتبار سير البريد، وروى شرِيك بعض هذا الحديث عن سِمَاك[2] فوقفه، هذا آخر كلامه.

قلت: فيه التصريح بأن الله فوق عرشه كما تقدم في الآيات المحكمات، والأحاديث الصحيحة، وفي كلام السلف من الصحابة والتابعين وتابعيهم، وهذا الحديث له شواهد في «الصحيحين» وغيرهما، ولا عبرة بقول من ضعفه، لكثرة شواهده التي يستحيل دفعها، وصرفها عن ظواهرها.

وهذا الحديث كأمثاله يدل على عظمة الله وكماله، وعظم مخلوقاته، وأنه المتصف بصفات الكمال التي وصف بها نفسه في كتابه، ووصفه بها رسول الله ﷺ، ويدل على كمال قدرته، وأنه هو المعبود وحده لا شريك له، دون ما سواه. وبالله التوفيق.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.



(١) أي على سير الأقدام ودبيب الأحمال.

(٢) هو سماك بن حرب بن أوس الذهلي البكري أبو المغيرة الكوفي، قال عنه الحافظ في «التهذيب» كان فصيحا عالما بالشعر وأيام الناس، وقال أبو حاتم صدوق ثقة.

فهرس الكتاب

